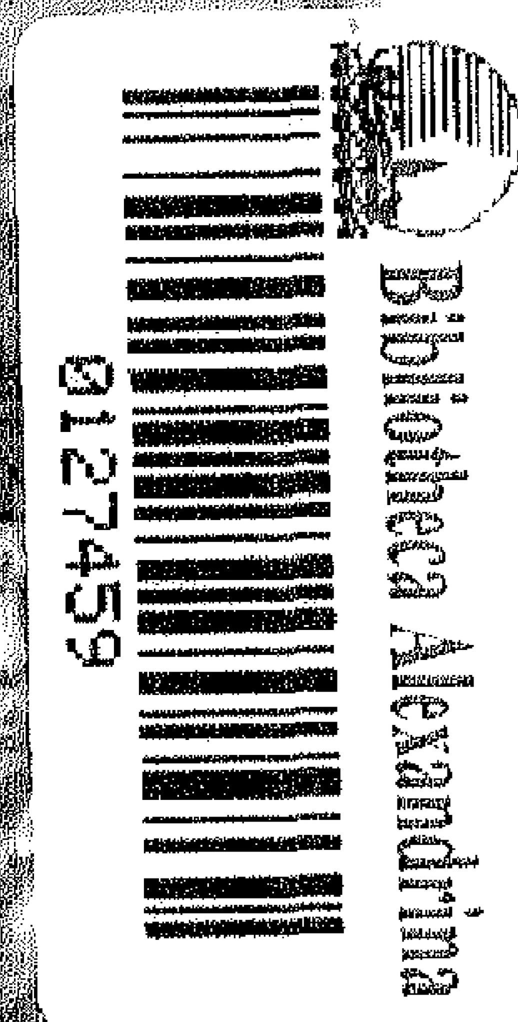
د. أمنه حجازى

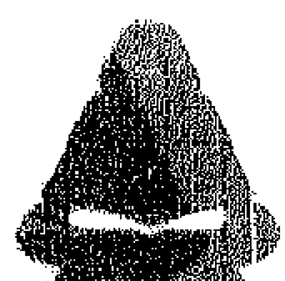
الوطنية المصرية في العصر الحديث

نشأتها ونموها حتى عام ١٩١٤

تقديم أ. د. يونان لبيب رزق







الهيئة المصرية العامة للكتاب

الوطنية المصرية فى العصر الحديث

نشأتها ونموها حتى عام ١٩١٤

تأليف

آمنة حجازى

تقديم

أ . د . يونان لبيب رزق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

إهـــداء

إلى روح أبى الغالية

كم كنتُ أتمنى وجوده

لـيرى ثمـرة غرسه

إلى والدتى وأخوتى

الذين تحملوا الكثير من أجلى

تقـديـم

هذا العمل الذى أنجزته الباحثة «آمنة حجازى عبده حسين» تحت عنوان «الوطنية المصرية فى العصر الحديث ـ نشأتها وتطورها حتى عام ١٩١٤» يبدو لأول وهلة وكأنه عمل عاطفى أملته مشاعر وطنية، هذا من جانب، ثم وكأنه عمل سبق دراسته، من جانب آخر، الأمر الذى يوحى بأن صاحبته لن تضيف جديدا، ويزيد من هذا الشعور الفترة الطويلة التى يقع فيها.. قرن أو يزيد.

غير أنه ما أن يمضى القارئ فى قطع شوط فى قراءة هذا الكتاب إلا ويتضح له عدم صحة هذا الانطباع الأولى فقد نجحت الباحثة فى التغلب على هاتين العقبتين.

فعلى الرغم من المساحة الزمنية الطويلة التى تعاملت المؤلفة من خلالها مع الموضوع فإنها استطاعت أن تمسك بخيط القضية الذى لم يفلت منها إلا نادرا، وهى بذلك توقت التعميم الذى كان يمكن أن تنزلق إليه بسبب تلك المساحة.

بدا ذلك فى إمساكها بأول الخيط عندما أطلقت على الفصل الأول اسم رائد الفكرة الوطنية، رفاعة رافع الطهطاوى، وامتدت به لثلاثين عاما، بين ظهور «تخليص الإبريز» وتولى إسماعيل سدة العرش (١٨٣٣-١٨٦٣)، وهى فى ذلك لم تعرض لرفاعة فحسب بل عرضت لغيره من دعاة الوطنية أمثال حسين المرصفى وعلى مبارك.

بدا أيضا فى أنها لم تخصص فصلا لعصر إسماعيل وإنما امتدت به حتى قيام الحركة الوطنية فى مواجهة التدخل الأجنبى عام ١٨٨١ مع ظهور حركة الضباط، وكانت محقة عندما أفسحت مكانة ملحوظة للعوامل الثقافية فى نشأة الفكرة بحكم الدور المؤثر الذي لعبته المؤسسات الصحفية والفنية، فضلا عن انتعاش الآداب.

فى الفصل الثالث ومن الأحداث الكبيرة التى عرفتها مصر خلال العامين الأولين من ثمانينات القرن الماضي واللذين شهدا أحداث الثورة العرابية الجسام وما تبعها من الاحتلال البريطاني، انتقت الآنسة آمنة حجازى قضيتين محوريتين فى صناعة الفكرة الوطنية.. الحياة النيابية وبداية ترسخ مفهوم «مصر للمصريين»، وهى فى كل ذلك لم تنزلق لتتبع تلك الأحداث.

العلاقة الجدلية بين الفكرة الوطنية والاحتلال البريطانى كانت موضوع الفصل الرابع، حيث تابع الكتاب أثر الاحتلال فى استمساك المصريين بالفكرة الوطنية، وأثر انتعاش هذه الفكرة فى إشعال روح المقاومة ضد المحتلين.

الفترة السابقة على قيام الحرب العظمى عام ١٩١٤ عرفت ظاهرتان أثرتا إلى حد بعيد فى ترسيخ الفكرة الوطنية، الصحافة التي تبارت الأقلام فيها لتقديم مزيد من أسباب الوضوح للفكرة، والأحزاب التى انتشرت انتشارا كبيرا وكانت جميعها تدعو للفكرة الوطنية وإن اختلفت الوسائل، حتى أن أكبرها تسمى «بالحزب الوطنى».

وتختم صاحبة الكتاب هذه الدراسة المميزة بتقديم رؤية تحليلية عما اسمته «الأسس المكونة لفكرة الوطنية المصرية»، وكذا «الوطنية المصرية فى ظل مراحل نضوجها حتى عام ١٩١٤». وهى قد خاضت بذلك في قضية خلافية ويحمد لها أنها كانت تملك شجاعة تقديم هذه الرؤية.

ونأمل أن يتخلص قارئ هذا العمل من قناعات مسبقة ليطالعه بعين مجردة، وإنى على يقين أنه سوف يجد فيه الجديد كما وجدت، وعلى الله قصد السبيل،،

دكتور/ يونان لبيب رزق

مقدمة

حظيت الحركة الوطنية المصرية بكم هائل من الدراسات التى تناولت معظم الأحداث والقضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتاريخ مصر الحديثة، تلك القضايا التى برزت فى الغالب الأعم كاستجابة منطقية لتلك المؤثرات الغربية التى طرأت على القطر المصرى مع بدايات التطلعات الأوربية الحديثة التى ظهرت فى صورة قوى استعمارية مع الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، واستمرت لفترة طويلة، إلا أن تلك الدراسات كانت منصبة فى معظمها على دراسة تلك القوالب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى شكلت مصر الحديثة، فى حين ظلت القضايا الفكرية فى أحيان كثيرة بعيدة عن مجال التناول والدراسة بشكل عميق.

وقد لاحظنا من خلال البحوث والدراسات التى أرخت للحركة الوطنية المصرية أنها لم تُشر إلى تلك الفكرة التى برزت من بين ثنايا الحركة الوطنية بشكل مستفيض والتى اهتمت بالبحث عن جذور الأمة المصرية والسعى لتحديد هوية وطنية للقطر المصرى، ومن ثم جاء النظر إلى تتبع فكرة الوطنية منذ نشأتها وإلماما بمراحل نموها ونضوجها بمثابة إكمال حلقة مفقودة بين الدراسات التى تناولت التاريخ المصرى الحديث، ومن ثم حددت فكرة هذا البحث أملاً فى استكمال بعض الجوانب فى مجال دراسة الفكر المصرى الحديث.

وقد سعت هذه الدراسة لرصد نشأة ونمو فكرة الوطنية المصرية *Egyptian Patriotism*، على أيدى كوكبة من المثقفين والمفكرين المصريين الذين

سعوا قدر طاقتهم لدفع ونمو تلك الفكرة إلى الأذهان المصرية فى وقت غلبت فيه المشاعر الدينية وفروض الولاء والطاعة للخلافة الإسلامية العثمانية على ما سواها من المشاعر الوطنية والقومية، وظل الاعتقاد الراسخ لفترات طويلة بأن الخروج عن الولاء للدولة العثمانية هو فى حد ذاته خروج عن الدين الحنيف، إذ اقتضى ظهور الفكرة الإسلامية على الساحة المصرية أن سيطرت تبعاً لذلك الأفكار الدينية على عقول أبناء الوطن المصرى، ولعل وجود الأزهر الشريف ساعد على ترسيخ المبادئ الإسلامية فى الأذهان سواء بين عامة الشعب المصرى أو حتى بين الطبقات المستنيرة منه، إلا أن ذلك لم يفقد مصر مقومات الوطنية المصرية على مر تاريخها فظلت محتفظة بمميزاتها وخصوصيتها ومن ثم سهل سلخ فكرة الوطنية المصرية – بمرور الوقت – عن الاطار العام للفكرة الإسلامية.

ولقد جُسدت تلك الفكرة فى سياق التطور التاريخى فى هذا البحث؛ إذ أخذنا فى الاعتبار التداول المستمر لمعانى الوطن والوطنية والأمة والقومية بمقاييس وتصورات مغايرة دليلاً على نمو الوعى بين أفراد المجتمع المصرى وعياً لا نصفه منذ البداية بأنه كان وعياً قومياً كما جرت عادة الكتاب والباحثين على تسميته، فى وقت كانت فيه فكرة القوميات حديثة العهد وظلت هكذا – بالنسبة للشعوب الإسلامية – حتى أوائل القرن العشرين، وإذا كنا قد استخدمنا مصطلح "الوعى القومى" مجازاً فى فترات مبكرة فإنه من قبيل الفصل بين المشاعر الإسلامية التى درج عليها الشعب المصرى فى نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر وبين تلك المشاعر الوطنية التى أخذت فى البروز بشكل حثيث للغاية فى بعض الأحيان، وإذا سلمنا بأن (الوعى القومى يُؤلف الأمة بالمعنى السياسى)(١)، فإنه يتطلب منا فى نفس الوقت الاعتراف بأنه من الصعب قبول القول بأن الشعب المصرى قد وصل بدرجة كافية إلى مرتبة الأمة فى تلك الفترة الزمنية المشار إليها، ولكن بمرور الوقت ونتيجة لتضافر عدة عوامل أصبح الوعى القومى لديه نامياً بدرجة تسمح بظهور "أمة مصرية" ذات معالم محددة مرة أخرى.

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن "القومية" مصدرها اللغوى من القوم، نجد ثمة ارتباطا بين مفهوم القومية *Nationalism* ومفهوم الأمة *Nation*، إذ أن "الأمة" هى الشعب ذو الهوية السياسية الخاصة التى تجمع بين أفراده روابط موضوعية وشعورية وروحية متعددة[٢]، ومن ثم فإن "القومية" هى حب تلك الأمة والشعور بارتباط باطنى نحوها، إما إذا انتقلنا إلى تعريف "الوطنية*Patriotism*" فإنها هى التى تعنينا فى هذا المقام، إذ أنها تُعبر عن (حب الوطن والشعور بارتباط باطنى نحوه .... والوطن من حيث الأساس – إنما هو قطعة من الأرض ..... والوطنية هى ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن)[٣]، لذا تعرف الوطنية في علم النفس بأنها (عاطفة تتكون من جملة انفعالات يدور فلكها حول الوطن من حيث أنه مكان معين، ومن حيث الجماعة التى تعيش فيه ومن حيث التقاليد التى تجمع بين أفراده)[٤]، ومن ثم نلاحظ ثمة تقاربا بين مصطلحى *Patriotism & Nationalism* مما يجعلنا نُسلم بأن (منبع الوطنية وبذرتها الأولى – حب الموطن، وأما منبع القومية وبذرتها الأصيلة، فحب الأهل)[٥].

على أى حال فإن إصطلاح القومية *Nationalism* أوربى النشأة واللفظ، والقومية تُعد حركة حديثة، لكن وحتى نهاية القرن الثامن عشر بدأت القومية بشكل عام في الاعتراف بها، وقد ميزت سواء الحياة العامة أو الخاصة، وكانت عظيمة بل تُعد واحدة من أعظم الأسس الخاصة التى ميزت التاريخ الحديث، وقد أرجعت دوائر المعارف البريطانية[٦] بدء ظهور هذا الاصطلاح فى إفريقيا بعد الحرب العالمية الأولى وقد اقترن فى مصر بسعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩، بما لا نقبل وصفه، حيث نشأت الفكرة عندنا فى القرن التاسع عشر مع ظهور الدولة الحديثة التى غيرت بنية المجتمع الاقتصادية من حيث الملكية. الأرض. الزراعة، ثم المال والتجارة فالصناعة ثم المهنيون حصيلة التعليم الحديث من [أطباء - صيادلة - معلمون - مهندسون - محامون - صحفيون - ضباط وعسكريون]، كل ذلك كان لابد من وجود غطاء يجمعهم بعيدا عن الدين، ومن ثم جاءت المصلحة التي

تميزهم عن غيرهم، ومن هنا كان نشوء «القومية المصرية» مرتبطا ارتباطا وثيقا بظهور الدولة الحديثة في مصر.

وفي الواقع فإن القسمات الوطنية التي نرصدها من خلال هذه الدراسة كانت نتاجاً لجهود مفكرين ومثقفين مصريين خلفوا تراثاً أدبياً ساهم في تدعيم تيار الوطنية المصرية خلال مراحل نموه وكان سبباً في تبلور فكرة "القومية المصرية" بشكل قاطع مع نهايات عام ١٩١٤ التي اتخذنا منها نقطة نهاية لهذه الدراسة، إذ يمكن القول بأن ثورة ١٩١٩ كانت نتاجاً لتبلور الشعور القومي للطبقات الصغرى من أبناء الوطن المصري، أما عام ١٩١٤ فقد كان نهاية المطاف لبروز فكرة الوطنية المصرية على أيدي تلك النخبة من أبناء مصر بدءاً من رفاعة رافع الطهطاوي ووصولا إلى أحمد لطفي السيد ومدرسته في ظل مناخ أتاح لتلك الفكرة مراحل نضوجها ونموها، ناهيك أن إعلان الحماية البريطانية على مصر في ذات العام قد وضع حداً فاصلاً ونهائياً لانفصال "الوطن المصري" عن جسد "الدولة العثمانية" التي طالما تضافرت الجهود من أجل تحقيقه خاصة في عهدي محمد على والخديو إسماعيل، ولعل سقوط الخلافة العثمانية بعد هزيمة الدولة العثمانية في تلك الحرب وتنازلها لبريطانيا عن جميع حقوقها في مصر هي التي ترتب عليها تحول الولاء من الفكرة الإسلامية إلى القومية المصرية بشكل حاسم.

وقد حاولنا قدر استطاعتنا أن ننأى بعيداً عن تناول الحركة الوطنية التي كانت تسير جنباً إلى جنب مع نمو "فكرة الوطنية المصرية" رغم أن الثانية في أحيان عديدة كانت أحد العوامل المساعدة على نمو الأخيرة، وإن كنا قد إضطررنا إلى الإشارة لبعض القضايا الوطنية هنا أو هناك فهو من قبيل تدعيم التطور التاريخي لفكرة "الوطنية المصرية" ذاتها.

واخترنا لهذه الدراسة عنوان : الوطنية المصرية في العصر الحديث نشأتها ونموها حتى عام ١٩١٤، وقد قسَّمنا البحث إلى ثمانية فصول تسبقها مقدمة وفصل تمهيدي ويعقبها خاتمة.

أما الفصل التمهيدى فهو تحت عنوان : ميراث الحملة الفرنسية مشتملاً على عدة نقاط هى : التأثير الثقافى لتلك الحملة على مصر مع نهايات القرن الثامن عشر، منشور نابليون وما أحدثه من أثر محدود، استحداث الحياة النيابية، مفهوم الجهاد فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية، المعلم يعقوب ومشروع استقلال مصر، بزوغ الزعامة الشعبية فى تولية محمد على حكم مصر، الاحتكاك بالغرب الأوربى ونشأة المؤسسات الوطنية وأخيراً حسنين البسيونى وطلب استقلال مصر.

ولقد حصرت التطور التاريخى لفكرة الوطنية المصرية لفترة ما قبل الاحتلال البريطانى فى الفصول الثلاثة الأولى:

الفصل الأول : عصر رفاعة وبدايات الفكرة الوطنية

الفصل الثانى : العوامل الحضارية وتقوية التيار الوطنى

الفصل الثالث : المظاهر الإيجابية لعصر ما قبل الاحتلال

ثم أنتقل بعد ذلك إلى تتبع التطور التاريخى لفكرة الوطنية المصرية لفترة ما بعد الاحتلال البريطانى فى الفصول الثلاثة التالية:

الفصل الرابع : الاحتلال البريطانى ورد الفعل الوطنى

الفصل الخامس : الصحافة والفكر الوطنى المصرى ١٩٠٠ – ١٩١٤

الفصل السادس : الأحزاب المصرية وفكرة الوطنية المصرية ١٩٠٧ – ١٩١٤

ثم أصل بعد هذا إلى الفصلين الأخيرين اللذين اعتبرا ثمرة التطور التاريخى لفكرة "الوطنية المصرية" على مدى الفصول الستة السابقة بالإضافة إلى الفصل التمهيدى دون الارتباط بالتطور الزمنى، إذ أن طبيعة هذه الدراسة الفكرية لا تستلزم من الباحث ارتباطاً عضوياً بالفترات الزمنية خاصة وأن هذه الدراسة قد نعمت بثمة تلازم بين الوحدة الموضوعية وبين الوحدة الزمنية مما يجعلنا نذهب إلى أن هذين الفصلين بمثابة حصاد لنضوج تلك الفكرة ونقطة

لاكتمال مراحل نموها، ونقول هنا اكتمال وليس كمالاً، فقد سبقت الإشارة إلى أن كمال تلك الفكرة حدث مع إلمام كافة طبقات الشعب المصرى بها مع ثورة ١٩١٩.

الفصل السابع : الأسس المكونة لفكرة الوطنية المصرية

الفصل الثامن : الوطنية المصرية فى ظل مراحل نضوجها حتى عام ١٩١٤

وقد وضعت فى نهاية الدراسة "خاتمة" حصدت فيها النتائج التى عُدت بمثابة إنعكاس للتطور التاريخى لفكرة "الوطنية المصرية" عبر مراحل هذا البحث.

ونظراً لطول فترة هذه الدراسة زمنياً فقد وجدت نفسى بين كم هائل من المصادر والمراجع التى تُؤرخ للحركة الوطنية المصرية ومن هنا كان علىَّ عبء القيام بالالمام بمعظم تلك الدراسات للخروج من بين ثناياها بالإشارات الدالة على نمو فكرة "الوطنية المصرية" موضوع الدراسة، إلى جانب أن قدم تلك الفترة موضوع الدراسة كان سبباً فى صعوبة الحصول على بعض الدوريات اللازمة لتغطية سبعينيات القرن التاسع عشر نظراً لفقدان وتلف معظمها، وقد حاولت الاستعاضة عنها ببعض المراجع الهامة التى تناولت تاريخ الصحافة المصرية فى تلك الحقبة.

إلا أنه مع فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أتيحت فرصة الاطلاع على العديد من الدوريات الهامة التى غطت تلك الفترات من عمر هذه الدراسة، وكان على رأسها : مصر، الوطن، مصر للمصريين، أبو نظارة زرقاء، المؤيد، اللواء، الجريدة، المقطم ..... إلخ من الدوريات المتنوعة التى أمدتنى بالمعلومات المفيدة والقيمة، وفوق هذا العديد من المقالات والأبحاث المنشورة فى المجلات العلمية، كالهلال ، المقتطف ، الطليعة ، الكاتب ، عين شمس ، المجلة التاريخية .... إلخ، إلى جانب المقالات والأبحاث المنشورة باللغة الأنجليزية فى أعداد الـ *The Middle East Journal & The International Journal of Middle East studies & Al-Ahram weeklly.*

وقد استفدت من العديد من المصادر العربية التى كتبت بأقلام أصحابها من المثقفين والمفكرين المصريين والشوام أمثال رفاعة الطهطاوى ، على مبارك ، حسين المرصفى ، عبد الله النديم ، أديب إسحق ، محمد عمر ، محمد مختار ، أمين حمدى ، أخنوخ فانوس ، مصطفى كامل ، قاسم أمين ، أحمد فتحى زغلول وأحمد لطفى السيد وغيرهم الكثير.

كما استفدت أيضاً من بعض الوثائق العربية غير المنشورة والمودعة سواء فى دار الوثائق القومية بكورنيش النيل أو فى دار المحفوظات العمومية بالقلعة، بالإضافة إلى الوثائق العربية المنشورة والمذكرات الشخصية المنشورة سواء للزعماء أمثال أحمد عرابى ومحمد فريد أو حكام مثل مذكرات عباس حلمى الثانى، وكذا المفكرين أمثال محمد عبده، سلامة موسى ، لطفى السيد ، محمد حسين هيكل ..... إلخ.

كما إطلعت على العديد من الدراسات المكتوبة باللغة الإنجليزية التى أمدتنى بالكثير من وجهات النظر القيمة التى خدمت موضوع الدراسة، مثل الدراسة التى أعدها *Jamal, Mohammed, Ahmed* تحت عنوان *The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism* وكذا مؤلف *Safran, Nadav: Egypt in Search of Politial Community.* وغيرهم الكثير، إلى جانب الاستعانة بالموسوعات والمعاجم العربية والأجنبية، بالاضافة إلى الاطلاع على ما أمكننى العثور عليه من المراجع العربية والمعربة والرسائل الجامعية غير المنشورة والمنشورة على حد سواء.

ولا يسعنى فى النهاية إلا القول بأن هذه الدراسة أقصى ما استطعت بذله من جهد وتحصيل وتجميع من مادة علمية تغطى موضوع هذه الدراسة عبر ما أتيح لى أثناء فترة تسجيلى لها، راجية من الله أن تكون هذه الدراسة ذات فائدة للمهتمين بدراسة تاريخ الفكر المصرى الحديث، وبمثابة مساهمة وإضافة فى اطار جهود القائمين على دراسة تاريخنا المصرى.

ولا يفوتنى فى النهاية أيضاً أن أقدم الشكر والعرفان إلى روح الأستاذ الدكتور صلاح العقاد، الذى بذل أقصى ما فى وسعه لخدمة موضوع هذه الدراسة أثناء مرحلة تجميع مادتها العلمية ولم يتسن له أن يرى ثمرة هذا العمل، رحمه الله رحمة واسعة.

ويبقى أخيراً، أن أوجه خالص تقديرى وعرفانى إلى أساتذتى الذين بذلوا أقصى جهدهم من أجل اخراج هذه الدراسة على هذا النحو، عرفاناً وتقديراً بدور كل من : الأستاذ الدكتور/ **يونان لبيب رزق**، الذى شرفنى بموافقته على استكمال موضوع هذه الدراسة تحت إشرافه رغم الجهد العلمى الشاق الذى يتحمله ليل نهار أعانه الله وجزاه عنى كل الخير جزاء الاهتمام والمتابعة الدقيقة والتوجيهات السديدة التى قدمها لى منذ تسجيلى لهذه الدراسة وحتى إخراجها على هذا النحو، عطاءا مازال يتدفق كالنهر، أمتعه الله بوافر الصحة والنجاح.

وإلى الدكتورة/ **فاطمة علم الدين عبد الواحد** التى أعانتنى على استكمال هذه الدراسة بروحها الطيبة، ونصائحها السديدة وتعاونها المثمر، جزاها الله عنى كل الخير، جزاء اهتمامها وعنايتها منذ إشرافها على هذه الدراسة.

وإلى الأستاذ الدكتور/ **أحمد زكريا الشلق**، الذى أرشدنى إلى العديد من المصادر الهامة وغمرنى بالنصائح السديدة التى خدمت موضوع الدراسة أثناء مرحلة تجميع مادته العلمية.

وفى النهاية، أقدم الشكر والعرفان لأستاذين فاضلين تعلمت منهما الكثير أثناء دراستى الجامعية بكلية الآداب، جامعة عين شمس، وقد تشرفت بمناقشتهما لى مناقشة علمية استفدت منها الكثير عند نشر هذه الدراسة، فأثابهما الله عنى حُسن الثواب: الأستاذ الدكتور/ **عبدالحميد البطريق** أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس.

والأستاذ الدكتور/ **عبدالخالق لاشين**، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس.

وأخيرا، وليس آخرا، أتقدم بالشكر والتقدير إلى الزملاء الأفاضل الدكتور/ **خلف عبدالعظيم الميرى**، والأستاذ/ **محمد رفعت الإمام**، والأستاذ/ **حمدى عبدالرحمن**، على ما أسدوه لى من خدمات علمية، أثابهم الله عنى حُسن الثواب.

وختاما، أقدم خالص شكرى وعرفانى إلى أفراد أسرتى الذين أسهموا بكل جهدهم لمساندتى طوال فترة الدراسة، جزاهم الله عنى كل الخير.

وعلى الله قصد السبيل

آمنة حجازى

منشية التحرير - القاهرة

الجمعة ٢ أكتوبر ١٩٩٨

هوامش المقدمة

١ - فردريك هرتز : القومية فى التاريخ والسياسة، ترجمة، عبد الكريم أحمد، مراجعة إبراهيم صقر، دار الكاتب العربى، لندن، ١٩٤٣ ، ص ٣١ .

٢ - الموسوعة السياسية، ج ٤، طـ ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ص ٨٣١

٣ - ابن خلدون ساطع الحصرى : آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤، ص ٩ .

٤ - دائرة المعارف الحديثة، وضع أحمد عطية الله، طـ ١، ١٩٥٢، ص ٧٤٨ .

٥ - ابن خلدون ساطع الحصرى : المرجع السابق، ص ١٣ .

٦ - The New Encyclopedia Britannica, Vol. 12, London, 1976 P.851-852.

فصل تمهيدي

ميراث الحملة الفرنسية

١ - التأثير الثقافى للحملة الفرنسية

شهدت نهايات القرن الثامن عشر فى مصر وفود الحضارة الأوربية الحديثة التى أثرت بشكل أو آخر على المجتمع المصرى آنذاك ، ويتأرجح التأثير الثقافى للحملة الفرنسية بين مد وجزر ، إذ كان له بالغ الأثر على خاصة المصريين كالجبرتى المؤرخ المصرى الذى التزم الدقة والتعمق فى وصف أعمال العلماء الفرنسيين بعين المراقب المدقق(١).

ولكنه فى نفس الوقت لم يستطع أن يستوعب الحضارة الأوربية الحديثة اذ رأى فى أماكن عملهم مايحير الأفكار حيث يقول : {... وإذ حضر إليهم بعض المسلمين... يحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار ...} (٢) ، بالاضافة إلى افتقاده – بحكم العصر الذى يعيش فيه – إلى النظرة كاملة التبلور للأحداث ، إلى جانب الشيخ حسن العطار والمعلم يعقوب – كما سيأتى ذكره لاحقاً – وغيرهم ممن جذبتهم الحضارة الأوربية الحديثة فمالوا إلى الجانب الفرنسى .

فعلى سبيل المثال كان الشيخ العطار من كبار علماء عصره، إذ كان يميل إلى دراسة العلوم الحديثة* وقد اتصل بالعلماء الفرنسيين فكان يستفيد من غرائب الفنون والعلوم ويفيدهم فى دراسة اللغة العربية، ومن هنا حدث نوع من

التفاعل مع الوافد الحضارى بالاضافة لميوله التحديثية ، لذلك تكون لديه وعى بأهمية معرفة الحضارة الأوربية الحديثة ، دفعه لتربية جيل حمل على عاتقه مهمة التجديد.

فالعطار يُعد المثقف المصرى الأول الذى استطاع أن يعى أهمية التقدم العلمى الأوربى وأول من دافع عن إدخاله فى مصر ، إذ لفت انتباهه الإنتاج الفرنسى الضخم من الكتب العلمية فأشار على مريديه بضرورة الإقبال على تحصيل المجالات المختلفة للمعرفة (٣).

لاسيما وأن الحياة الفكرية – فى ذلك العصر – تكاد تكون مقصورة على الأزهر بجموده ، ولهذا يمكن أن نعتبر تفاعل العطار – الشيخ الأزهرى – مع العلوم الحديثة تفاعلاً فردياً نابعاً من إحساس بضرورة التجديد سواء عن طريق تطوير التعليم الأزهرى الذى مثل الشق الأول من دعوته الإصلاحية ، أو عن طريق الشق الثانى الذى تمثل فى محاولة ادخال العلوم العصرية (٤) لتفعل فعلها فى تحرير العقل المصرى من عزلته وتخلفه، وعبارته فى ذلك مشهورة (إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها).

ولاشك أن هذه الحملة كانت فرصة طيبة ليتعرف من خلالها المصريون على مدى التقدم الأوربى فى المجالات المختلفة لاسيما وأنها لم تكن حملة عسكرية فقط بل وثقافية أيضاً ، جاءت بعد عدة قرون من التخلف العثمانى الذى كانت مصر خاضعة له وكانت فى حاجة إلى هذا التأثير الأوربى لإدخالها فى حظيرة العالم الحديث(٥) كى يتاح لمصر فرصة التخلص من العزلة والتخلف الذى ران عليها.

تتعدد الآراء فى مهمة بونابرت فى مصر ولكننا نؤيد الرأى القائل بأن الفرنسيين (أتوا إلى مصر بوصفهم مستعمرين أولاً ثم بوصفهم حملة مبادىء الثورة الفرنسية ثانياً)(٦) ، ومن هنا تحددت نظرة المصريين للفرنسيين بأنهم

غزاة أصحاب مصالح بعينها ، سرعان ما يتراجعون عندما تفشل مصالحهم ، وهذا دليل على فهم عميق لأغراض الحملة.

وعلى الرغم من تلك التفسيرات والتحليلات التى حددت أسباب مختلفة للحملة الفرنسية إلى مصر، والتى اتخذت اتجاهات سياسية ، فى كون مصر أفضل قاعدة إستراتيجية يستعد من خلالها بونابرت لتهديد ممتلكات الإمبراطورية البريطانية فى الهند(٧) مروراً بالطموح الشخصى الذى قاد بونابرت إلى مصر ، مع عدم إنكار الذرائع السياسية أيضاً(٨) وصولا إلى الدوافع الاقتصادية التى اثبتت أفضلية احتلال مصر بالنسبة لفرنسا(٩)، رغم كل هذا تبدو لنا محاولات التأثير الحضارى البارز التى يمارسها المحتل.

لقد أحضر بونابرت المطبعة إلى شعب مصر ، ولكننا نشك فى وجود أى تأثير ثقافى لها على عامة الشعب ، فالغالبية العظمى منه جاهل لمبادىء القراءة والكتابة ، فأنى له أن يستفيد مما أصدرته من مطبوعات أو نشرات ، لعبت دور الوسيط بينه وبين الشعب ، إذن كان هناك غرض سياسى وراء استقدام المطبعة، تلك الآلة التى ستلعب دوراً مؤثراً فى إحداث النهضة التى سيقوم بها محمد على فيما بعد.

ومع ذلك نرفض أن تكون هذه المطبعة وما صاحبها من نهضة علمية لم تمس جميع فئات الشعب هى الحجر الأساسى لحركة التفكير القومى كما قال البعض بذلك(١٠) فعندما حاول بونابرت التلويح بالوطنية فى مصر – كما فى أوربا – أصيب العامة والخاصة بصدمة خطيرة من جراء هذا التأثير الغربى الذى لم يستمر إلا لفترة وجيزة (١٧٩٨ – ١٨٠١)(١١).

ولكن يمكن القول أن الحملة الفرنسية نجحت فى اعادة استكشاف مصر الحديثة سياسياً واجتماعياً وثقافياً(١٢)، بمايتناسب مع القول بأن الحملة على مصر تشكل عودة العلوم والفنون الى وطنها الأصلى على يد بونابرت الذى أعد

برنامجاً حضارياً ليُحقق تلك الفكرة(١٣)، فى نفس الوقت الذى نأى فيه المصريون عن محاولة فهم عباراتهم أو حتى التودد إليهم ، ويُمكن أن نستوعب نظرة العداء تجاه الفرنسيين من منطلق عدم تجاهل الحاجز النفسى القائم - آنذاك - بين المصريين والفرنسيين الذى تمثل فى الاختلاف فى الدين والجنس واللغة فضلاً عن التباين الحضارى.

وبالمقابل رسمت لنا ليلى عنان(١٤) صورة مصر فى أعين الأوربيين نهاية القرن الثامن عشر على الوجه التالى :{مصر فى ذلك الحين ، كانت أسطورة تقع فى نهاية العالم ... ومن يذهب إليها كان يحكى العجائب التى رآها فيها، حتى أن الأوربيين ظنوا أن مصريى ذلك الحين لا يختلفون عن الهنود الحمر ... وكان هذا بالضبط شعور من اشترك فى الحملة مع بونابرت....، وهذا شعور أيضاً من كتب عن الحملة إذ يرون {أن مصر الحديثة تبدأ من بونابرت . فهو الذى أيقظ مصر من نوم عميق كانت تنامه وسط رمال الصحراء}(١٥).

وبين اندهاش وخوف المصريين من الوافد وأساطير الأوربيين لنا هنا وقفة تتمثل فى أن وجدان الناس فى هذا العصر كان وجداناً دينياً، ولم تكن العاطفة الوطنية قد وجدت عند المصريين(١٦) ، لذا فإن محاولات بونابرت للتقرب إلى المصريين عامة ، كانت من أجل تهدئة النفوس المضطربة - وقد تكون إلى حد ما - كسرت الحاجز النفسى لبعض الوقت ، ولكن ليس لكل الوقت.

٢ - منشور بونابرت وما أحدثه من أثر محدود

ولاجدال أن المنشور الأول الذى وزعه بونابرت على المصريين مباشرة فور نزوله الإسكندرية فى الثانى من يوليه ١٧٩٨(١٧) كان مغلفا بالعاطفة الدينية من ناحية ، إلى جانب مخاطبته إياهم باعتبارهم (أمة) من ناحية اخرى (... ياأيها المصريون قد قيل لكم أننى مانزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب

صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين أننى ماقدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم...)(١٨) وبهذا حاول استمالة الأغلبية المسلمة عندما ضرب على وتر الدين الإسلامى ، وكيف أنه أكثر من المماليك عبادة لله ، مع أننا ندرك تماماً أنه لم يشهر إسلامه على نحو مافعل مينو مثلاً(١٩)، ناهيك عن سلوكه تجاه الكرسى البابوى فى روما أثناء رحلته .

على أية حال فقد أعلن بونابرت فى منشوره شرحاً دقيقاً لأغراض الحملة – من وجهة نظره – إذ أكد أنها لمساعدة مصر واصطنع فى الوثيقة أن الحملة هدفها نفخ الروح الحقيقية للمصريين ، فقد أتى إلى مصر كما أشار لمعاقبة البكوات المماليك ، وأكد أنه صديق للسلطان وأن جنوده حطموا الكرسى البابوى فى روما ، وقضوا على فرسان القديس يوحنا فى مالطة(٢٠).

وبذا يكون بونابرت أول من خاطب المصريين باعتبارهم "أمة" متميزة ذات كيان خاص ، وأكد على ذلك بتمجيد المصريين مستشهداً بحضاراتهم القديمة، إضافة إلى ذلك إشارته إلى خصوصية الأرض المصرية عندما ذكر : {فإن كانت الأرض المصرية إلتزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم..}(٢١) فالمماليك من وجهة نظره لم يستأثروا بالحكم فقط، بل بالحكم والأرض من دون أصحاب البلاد الأصليين.

ومن ثم فإن بونابرت وضع نصب عينيه تدمير قوة المماليك من أجل العمل على تنظيم الأحوال العامة للبلاد(٢٢) كما أذاع هو ذلك، أنه يعزف على وتر العمل من أجل الصالح العام ، على أية حال يمكننا القول بأن الاحتلال الفرنسى لمصر قد حطم آخر الروابط بين بكوات المماليك والشعب صاحب البلاد عندما نجح ذلك الاحتلال فى إثبات أن المماليك غير قادرين على تخليص مصر من الغزو الأجنبى(٢٣).

ليس بإمكان أحد الإدعاء بأن المنشور ترك أثراً كبيراً فى عقلية المصريين - وقتذاك - أكثر من تحريك عاطفتهم بعض الوقت، ثم انصرفوا بعد ذلك إلى مقاومة الفرنسيين والدفاع عن الديار ضد الغاصب، الذى ختم منشوره بعبارات لا تخلو من التهديد والوعيد ، متناسياً أنه غامر بالحضور إلى مصر حاملاً لمبادئ الثورة الفرنسية القريبة العهد الى ذلك الوقت[٢٤].

بناء على ما سبق يتضح أن الغزو الفرنسي لمصر كان وراء إثارة الروح المصرية لا المناشير والوعود التي أطلق لها بونابرت العنان، إذ اعتبرت الغزوة بمثابة الصدمة الأولى التى أفاقت المصريين إلى حالتهم القائمة آنذاك ، منذ أن وطئت أقدامها أرض مصر وتم لها الاستيلاء على الإسكندرية بعد مقاومة قصيرة، ففى أثناء تقدمهم للعاصمة أظهر الشعب المصرى شجاعته وقدرته على إثاره الناس ضد الغزاة بمنتهى الثبات والقوة ما ينم عن احتفاظه بشعور وطنى دفين[٢٥]، يظهر أوقات الأزمات.

ومن هنا يجب ألا ننساق وراء المبالغات القائلة بأن هذا المنشور قد بعث القومية المصرية من مرقدها، أو حتى مجرد إيقاظ للشعور القومى[٢٦] فهذه التفسيرات حملته أكثر مما كان يرمى إليه من أهداف محددة، بالاضافة إلى أن العقلية المصرية كانت غير قادرة - آنذاك - على إستيعاب الحضارة الأوربية التى صاحبت الحملة الفرنسية، ولا حتى تهيأ لها المناخ المناسب لتتأمل عبارات المنشور وتعمل على استخلاص حقائق عن وجود كيان مصرى يعى حقيقة القومية وماهيتها، فى وقت كان مصطلح "القومية" نفسه غير موجود على الساحة السياسية لأقطار المشرق الإسلامى على السواء.

فقد كانت مصر تحكم من قبل شرذمة من المماليك ، وتدور فى فلك الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية عليها، وتأتمر بأمر السلطان العثمانى، الخليفة القائم بأمر المسلمين، هذا بالاضافة إلى وجود اعتقاد راسخ فى الوجدان

المصرى مؤداه أن الخروج عن الولاء للدولة العثمانية هو فى حد ذاته خروج عن الدين الحنيف.

يمكننا القول إذن بأن فكرة القوميات بقيت ضعيفة إلى القرن التاسع عشر، وإن كانت أوربا قد سبقت من هذه الوجهة، وكان الولاء للدين أكبر من الولاء للوطن(٢٧) فى الشرق ومن هنا عندما حاول بونابرت فى منشوراته التى وجهها للمصريين أن يخاطبهم بمشاعر الانتماء الوطنى بهدف إثارة شعورهم الوطنى فى وقوله (يا أيها المصريون)؛ وفى موضع آخر أشار إليهم : {الأمة المصرية}، ذلك التعبير الذى تلقفته الآذان لأول مرة من خلال تصريحات بونابرت إذ لم يفهموه وقتذاك(٢٨)، إذ لم يكن من السهل التسليم أو مجرد التفكير فى إنفصال أى جزء من الامبراطورية الإسلامية، إذ أن ذلك يعنى انقسام {الأمة المحمدية}، ذلك "المجتمع المحمدى" الذى يمتد إلى ما وراء الحدود السياسية للامبراطورية العثمانية.(٢٩)

وعلى الجانب الآخر، فإننا لو قابلنا بين هذه العبارات التى كان يرددها بونابرت فى حديثه للمصريين، وبين كتابات الجبرتى فى ذلك الوقت، لا نلمس أى أثر لكلمات الوطن، الوطنية، القومية، الأمة ... إلخ، بل أكثر من هذا، فقد كان الجبرتى يطلق لفظ "الرعايا"، "الأهالى" ، "الناس"، "الخلق" و "أولاد العرب" على المصريين(٣٠)، فى الوقت الذى يطلق لفظ المصرلية على أمراء وبكوات المماليك(٣١)، ولفظ "روم" على الأتراك المسلمين هذا ومن جهة أخرى كان مسلمو القاهرة يطلقون على أنفسهم عادة "المصريين" أو "أولاد مصر" أو "أهل مصر" و "أولاد البلاد"، أما أهل الريف فيسمون "بالفلاحين" أو "المزارعين"(٣٢)، كانت تلك الألفاظ السابقة هى المتداولة على مسرح الحياة اليومية للمصريين، وإن كان نقولا ترك قد أتى بلفظ جديد خالف به كل ما سبق – عندما أطلق تعبير "الجمهور" على المصريين فى أكثر من موضع فى أثناء ثورة القاهرة الأولى، كما استخدم عبارة "جماهير الإسلام"(٣٣) ، ومن السهل إرجاع ذلك إلى تأثره بالألفاظ التى أشاعها

رجالات الحملة الفرنسية فى مصر مثل كلمة "جمهورية" ، وكذلك "جمهور" ، إلخ، دون إدراك تلك الألفاظ، خاصة وأنه فى مجمل عرضه للحملة الفرنسية كان يطلق على المصريين – أيضاً – لفظ "الرعية"، وعلى المماليك "الامراء المصرية".

قياساً على ذلك، فإن مخاطبة المصريين بهذا الأسلوب دليل على إصرار الفرنسيين على إثارة الوعى لدى المصريين، عن طريق إثارة عواطفهم ومخاطبتهم كأمة متفردة، ولاسيما وأن مسألة التقرب إلى المصريين شغلت حيزاً كبيراً من تفكير الفرنسيين لدرجة – كما يذكر لنا محمد فؤاد شكرى[٣٤] : {أنهم حاولوا أن يفرضوا فرضاً على المصريين نوعاً من الحضارة الأوربية المادية، فى وقت كانت بحوث علمائهم لاتزال فى مراحلها الأولى، ولم تكتمل بعد تلك الدراسات التى كان من المنتظر أن تصبح أساساً لكل إصلاح يراد إدخاله على هذه البلاد}.

ولا جدال إذن فى كون مصر {لم تفقد مقومات الشخصية المصرية على مر تاريخها، ولكن الذى حدث هو تأخر الوعى لدى المصريين لبعض الوقت}[٣٥] ويؤكد هذا المعنى ما ذكره ڤولنى عن مصادر الشخصية المصرية المحتفظة ببقائها جنبا الى جنب مع الفقر والجهل[٣٦]، ومن ذلك القول يتضح، أن شعب مصر يتميز بشعور ينفرد به عن سائر المجتمعات البشرية الأخرى وهو الاستمرارية، فهو شعور راسخ بعمق، رغم عدم الاهتمام بالبحث عن وجود هوية وطنية تثير مشاعر المصريين حتى نهاية القرن الثامن عشر[٣٧].

ويمكن ارجاع ذلك إلى احتفاظ المصرى بمقوماته الشخصية النابعة من أن فكرة {المصرية} فى حد ذاتها لم تكن منفصلة عن وادى النيل والدلتا، اذا انحصرت فيهما، وظلت لفترة طويلة مغلقة أمام المحيط الإسلامى والعربى[٣٨]، وهنا تكمن عوامل التبلور الجغرافى ووحدة البيئة الطبيعية والوظيفية والتجانس الأرضى والجنسى والبشرى[٣٩] متمثلة أحسن ما يكون فى تلك العوائق الجغرافية التى رسمت حدودها الطبيعية، فالبحر المتوسط من جهة الشمال، والصحارى فى

الشرق والغرب، والشعب السوداني بحضارته الخاصة في الجنوب(٤٠) كل ذلك أتاح لها فرصة الاستمرارية النابعة من احتفاظها بمقومات شخصيتها.

صفوة القول، أننا لا نستطيع الإدعاء بأن مفهوم الأمة المصرية قد تبلور في ذلك الوقت المبكر(٤١)، مع أحداث الحملة الفرنسية والتي أتاحت لمصر فرصة الاستقلال الحديث - الذي لم تألفه من قبل وتصبح مصر الدولة الأولى من بين الأقطار الإسلامية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية، التي تنعم بهذه الفرصة تحت الحكم الفرنسي(٤٢)، وهذا القول لا يجعلنا نغض الطرف عن مساوئ الحكم الأجنبي الذي صاحب جيش الحملة، فيقول المسيو ريبو *Reybaud* أحد مؤرخي الحملة ما ترجمته أن {هناك عقبات وطنية ودينية تحول دون ثقة المصريين بحكامهم الجدد الفرنسيين، فقد كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ... ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها، ولا يمكن أن تُؤثر المنشورات والكلمات الفخمة في تغيير حالة الشعب النفسية}(٤٣).

إن الصدمة التي أصابت المصريين من جراء الغزو الفرنسي كانت هي المسيطرة على العقول، فقد كان واقع الصدمة أكبر من أن تستوعبه عقلية رسخت لعدة قرون تحت نير الجهل والتخلف، دون أن تعلم مثقال ذرة عن العالم الخارجي المحيط بها، فمن الطبيعي إذن أن تنقضي الحملة الفرنسية دون أن تخلف وراءها أثراً كبيراً على العقلية المصرية.

٣ - استحداث الحياة النيابية

وقد إنعكست آثار الحضارة الأوربية المادية للحملة في إنشاء "الديوان العام"* الذي أشرك لأول مرة العنصر الأهلي في إدارة الحكومة - حتى لو كان على أقل تقدير - إشراكاً صورياً(٤٤)، ولكن هل نجح بونابرت في رسم صورة الحياة النيابية أمام المصريين بأنهم قادرون على حكم أنفسهم؟ أعتقد أن تلك الصورة من الحكم كانت مجهولة الملامح بالنسبة لهم.

واقع الأمر أن الخطوة التى اتخذها بونابرت لإنشاء سلطة تشريعية فى مصر كانت على حد قول لويس عوض[٤٥] : {فكرة ثورية أوربية بغير جذور واضحة وتقاليد معروفة فى مصر، فهى فكرة من وحى الثورة الفرنسية ذاتها ما كان يمكن أن تنبت فى مصر وتتحدد لها ملامح واضحة خلال المدة القصيرة التى قضاها الفرنسيون فى مصر}، نظرا لفقدان تأصيل ذلك الاتجاه التقدمى، والأرجح أن المصريين كانوا بعيدين كل البعد عن إدراك مقاصد بونابرت من إنشاء هذا الديوان، أو حتى إستيعاب المضامين الخاصة بإقامة حياة نيابية فى تلك الفترة المبكرة.

فالقول بأن الدواوين التى أنشأها كانت من قبيل تدريب الأمة على الإدارة الذاتية وتعريفها بالنظم الديمقراطية ، حتى تتاح للمصريين فرصة التمرس على نظم الحكم بأنفسهم[٤٦]، قول مبالغ فيه، فلو كان ذلك صحيحاً لكانوا أكثر وعياً – فيما بعد – عندما أنشأ محمد على فى عام ١٨٢٩ مجلس المشورة الذى كان مجلساً استشارياً، فكانوا على أقل تقدير طالبوا بحقوق تمكنهم من المشاركة الفعلية فى حكم البلاد وينطبق نفس الوضع على مجلس شورى النواب الذى أنشأه الخديو إسماعيل فى عام ١٨٦٦.

وعلى ذلك فمن العسير قبول الآراء القائلة بأن الحملة الفرنسية قد نجحت فى إستحداث مبدأ الحياة النيابية بتأسيس أول مجلس وزراء مصرى وأول برلمان مصرى فى العصور الحديثة، أو محاولة قبول هذه النظم النيابية فى مصر على أساس أنها أثرت فى نشأة القومية المصرية[٤٧]، فتلك مزاعم خاطئة – فى ضوء فهمنا – لطبيعة المجتمع المصرى أنذاك، أو فى درجة ولائه للرابطة الدينية – كما سبق القول.

فيمكنا القول أن بونابرت سعى لجذب المصريين للتعاون معه بأى شكل من الأشكال، ومن هنا كان إعطاؤه للعلماء نصيباً من السلطة السياسية، فى وقت

يدرك فيه تمام الإدراك المنزلة الروحية للعلماء بين عامة الناس، ومن ثم يمكننا اعتبار ذلك نوعاً من سياسة المهادنة ليتمكن فى النهاية من تسهيل قبضته على الحكم فى مصر، ولكن هل نجح بونابرت فى مسعاه، نكاد نشك فى ذلك، فالأصح أن نابليون أصابته خيبة أمل، فالعلماء لم يكونوا جديرين – من وجهة نظره – بهذه الثقة، فكانت نظرتهم للأمور محددة وضيقة – وإن كان البعض منهم أستطاع أن يتعلم مبادئ النظام الحكومى بعمله فى الديوان مثل الشيخ محمد المهدى(٤٨).

ومن هذا المنطلق فإننا نرجح القول بأن الحملة الفرنسية أتاحت فرصة إطلاع المصريين على أبنية وأنماط جديدة عليهم، ومن ثم اعتبرت بداية مرحلة ومعلماً تاريخياً جديداً فى حياة المصريين(٤٩)، فالدواوين التى أنشأها بونابرت كانت أنماطاً لم يألفها المجتمع المصرى، وحال إدراك العقل المصرى لها – آنذاك – الهوة الساحقة بين حضارتين مختلفتين تمام الاختلاف، إضافة إلى السمة العامة التى كانت تعم معظم شعوب الإمبراطورية العثمانية من حالة التدهور الحضارى.

٤ - مفهوم الجهاد فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية

لقد نُعت علماء الأزهر بأنهم الطبقة العليا من الأمة(٥٠)، ولاسيما أن الظروف قد سمحت لهذه الطبقة من العلماء بلعب عدة أدوار بالغة الأهمية على مسرح الحياة المصرية فى خلال عهود مختلفة، بدءًا من الوساطة بين أفراد الشعب وأمراء المماليك ومروراً بمواجهة الحملة الفرنسية والنضال ضد الفرنسيين إبان ثورتى القاهرة الأولى والثانية(٥١)، اللتين تعددت الآراء حول أسبابهما – لكن لا يسمح المقام هنا للخوض فى الأسباب والنتائج – وإن ما نحرص عليه معرفة من كان وراء الأحداث؟. فقد نفى صاحب كتاب بونابرت فى مصر تهمة التحريض على قيام ثورة القاهرة الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨ عن كاهل

الأهالى والمشايخ والطبقة الوسطى {التجار – وأصحاب الحوانيت} وقصرها على العناصر المجاهدة فقال {أنهم الغلاة فى الدين كالائمة ، وطلاب الأزهر والأولياء ، والفقراء ، والمكفوفين ، والمتسولين ..}(٥٢) ، أى أنها كانت قاصرة على المصريين، عكس ثورة القاهرة الثانية فى مارس ١٨٠٠ التى اشترك فيها المصريون والعثمانيون والمماليك(٥٣).

ومن هنا يمكن توضيح الطابع العام لهذه الثورات ، فقد كان طابعاً إسلامياً محضاً نلمسه من روايات الجبرتى ومعاصريه ، فقد أشار إلى نظرة المصريين للفرنسيين فى ثورة القاهرة الأولى فيقول : { ... وكثير من الناس ذبحوهم وفى بحر النيل قذفوهم ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرداهم}(٥٤) ، ويعلق نقولا ترك على الثورة بقوله : وقد خسرت الإسلام ولم تربح، بهذا القيام، سوى الذل والإهانة وافتضاح جامع الديانة}(٥٥).

يمكن القول بأن المنظور العام لهاتين الثورتين تمثل فى فكرة "الجهاد" الدينى فلاريب أن المصريين أثناء مقاومتهم الحملة الفرنسية قد شكل الجهاد – ضد التدخل الأجنبى فى الديار الإسلامية الخاضعة لسلطان المسلمين – عاملاً هاماً فى إثارة حميتهم، فقد غلبت المشاعر الإسلامية الأصيلة على ثوار القاهرة والأقاليم ، فى وقت كان فيه الولاء للدين أعمق من الولاء للوطن، ومن هذا السياق نستبعد وجود أية شبهة حول إسناد هذه الثورات إلى فكرة الوطن المصرى، والدفاع عنه أو الإحساس بظهور العامل القومى إلى جانب العامل الإسلامى ، كما يرى البعض(٥٦).

فالجبرتى يرى فى قتال الفرنسيين جهاداً فى سبيل الله – كما أشرنا – وكذلك من اشترك فى قتالهم مهما كانت أصوله، فهو فى رأى الجبرتى من المجاهدين فى سبيل الله(٥٧) ، فسليمان الحلبى قاتل كليبر لم يكن مصرياً، وهذا

دليل على أن وجدان الناس لم يكن وطنياً، بل إسلامياً، فتحمسه لدينه دفعه إلى ارتكاب فعلته(٥٨) ، فرسوخ العقيدة الدينية كان واضحا خاصة وأن الأزهر وضع مفهوم الوطنية فى إطار العالم الاسلامى الذى مثلته الدوله العثمانية، فقد كانت نظرة العلماء لرجال الحملة على أنهم "كفرة" يختلفون عنهم فى الدين والجنس واللغة، ويروا ضرورة النصر عليهم حتى ينجوا من عقاب الله(٥٩)، خاصة بعض التصرفات* التى أكدت بُعد نابليون ورجاله عن فهم التعاليم الإسلامية التى ذكر احترامه لها فى منشوره! .

وقد رأى البعض أن الاختلال "البونابرتى" لمصر نجح من خلال المقاومة التى بعثها إلى إحياء ما يمكن تسميته بالوعى السياسى لمصر الحديثة(٦٠)، وإن كنا نتحفظ بعض الشئ فى إطلاق هذا التعبير فى ذلك الوقت المبكر من نهايات القرن الثامن عشر ، خاصة وأن الفترة الزمنية التى قضتها الحملة الفرنسية لا تسمح بإفراز تلك العوامل المساعدة لاحداث ذلك النوع من الوعى الذى سوف يظهر فى فترة متقدمة كما سنرى لاحقاً.

صفوة القول، أن جذوة الحماس والمشاعر الملتهبة التى نجحت الحملة فى إشعالها فى نفوس المصريين كانت مشاعر مختلطة ترتكز فى المقام الأول على الشعور الدينى وهو الباعث الأول(٦١) والأوحد فى اندلاع شرارة الثورتين.

٥ - المعلم يعقوب ومشروع استقلال مصر

بقى أن نشير فى مجمل كلامنا عن ميراث الحملة الفرنسية إلى ذلك الرجل الذى سبق بفكره عصره بعشرات السنين، وتطلع إلى مستقبل مغاير لمصر ينقذها من واقعها المؤلم آنذاك، ذلك هو المعلم يعقوب حنا*، الذى أرتبط ذكره بالحملة الفرنسية ورحيلها عن مصر. ذكرنا فى موضع سابق - أنه يعد من القلائل الذين تأثروا ثقافياً - إلى حد ما - بالوجود الفرنسى فى مصر.

وذلك من خلال تقديمه لخدمات جليلة لرجال الحملة الفرنسية سواء بانضمامه إلى صفوف الفرنسيين لمحاربة المماليك، أو في استخدامه القسوة فى جمع الضرائب والغرامات المالية التى فرضها كليبر على سكان مصر(٦٢)، ونجد هذه الصورة من المعاملة واضحة فى حديث الجبرتى عن حوادث شوال ١٢١٤هـ إذ يقول : {.... ووكل يعقوب القبطى يفعل فى المسلمين ما يشاء، وقائمقام والخازندار ولرد الجوابات وقبض ما يتحصل وتدبير الأمور والرهونات}(٦٣).

ومن هنا انقسم المؤرخون ازاء شخصية الجنرال يعقوب فريقين، فريق يرى أنه خائن انضم إلى صفوف الأعداء "الكفرة"، وهؤلاء نظروا إليه من خلال قبطيته(٦٤)، ولاسيما وأن المصريين نظروا- من أول وهلة -إلى بونابرت وجيشه نظرة الكافر الذى يقود جيشاً من الكفار وأن قيامه بمصر كان يشجع الأقباط على حساب المسلمين(٦٥). فيروى لنا سلامة موسى(٦٦) فى سيرته الذاتية أنه {عندما غزا نابليون مصر انتعش الأقباط، وفرحوا بدخول نابليون، واستطاعوا أن يجرءوا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا من قراهم فى الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحرى}.

قياساً على ذلك، يمكن القول أن أقباط مصر وجدوا فى الحملة الفرنسية فرصة للتخلص من ظلم المماليك ومن التبعية العثمانية، ولاسيما أنه لا توجد الرابطة الدينية التى تربطهم بالخلافة الإسلامية العثمانية، فى وقت انعدمت فيه الجنسيات، ولعل هذا هو السبب نفسه الذى باعد بين مسلمى مصر وبين الانسلاخ عن الدول العثمانية، بل على العكس فإن دخول الفرنسيين مصر، جعل مسلميها أكثر ارتباطا بالخلافة الإسلامية العثمانية، التى رأوا فيها المنقذ من "الكفرة" الذين اقتحموا ديار الاسلام فى حين نظر أقباط مصر إلى الحملة نظرة المخلص من الجهل والظلم الذى حاق بهم قروناً عديدة(٦٧).

على أى حال ، لم يسلك أقباط مصر، ما سلكه الجنرال يعقوب، فإن اتجاه المعلم يعقوب لم يكن هو الاتجاه السائد سواء داخل الكنيسة القبطية ممثلة فى

البطريرك أو فى صفوف أعيان القبط بوجه عام(٦٨)، وخاصة وأن بونابرت لم يذهب إلى محاباة الأقباط على حساب المسلمين، ربما اعتقاداً منه أن أقباط مصر فى صفه مهما حدث بحكم التوافق فى الدين، بالاضافة إلى أن بونابرت دخل على المصريين بمدخل دينى حين آثار شعورهم عند مخاطبتهم.

والجدير بالذكر أن يعقوب لم يحظ باحترام رجال الدين الأقباط(٦٩)، آنذاك، ومن هنا نستبعد أن تكون تصرفاته بدوافع التأثير الدينى على تفكيره، أو تأثير الكنيسة القبطية عليه، فلم يكن يعقوب هو ذلك المخلص لأمته من الاضطهاد الدينى. ومن ثم فإن شأنه شأن سائر إخوانه الأقباط الذين وجدوا فى الحملة فرصة مواتية لإنسلاخ مصر عن جسد الدولة العثمانية.

ونحن بدورنا نرى، أنه بالرغم من وجود تلك القيود التى فرضت على الأقباط - فى ظل الخلافة العثمانية - إلا أننا يجب ألا ننسى فى النهاية معاناة كلا العنصرين - المسلم والقبطى - من مساوئ الحكم العثمانى، فكان رضوخهم لهذا الحكم أمراً مسلماً به إلى أن جاءت الحملة الفرنسية، فبدلت وجهات النظر وانقسم المصريون ازاءها - كما أشرنا.

أما الفريق الآخر فيرى أن يعقوب أول من استيقظ من المصريين واستطاع أن يستغل الفرنسيين حتى يضمن بمساعدتهم استقلال بلاده(٧٠). لذلك رفع يعقوب إلى مصاف الزعماء الوطنيين الذين سعوا الى فصل مصر عن الدولة العثمانية ليحقق لها الاستقلال وذهبوا إلى حد أنه حاول أن يجعل من قضية مصر (مسألة دولية)(٧١)، وبطبيعة الحال هذا القول مبالغ فيه، فلم تكن فكرة الاستقلال بهذا الشكل الأوربى من بنات أفكار أى مصرى فى ذلك الوقت سواء كان مسلماً أو قبطياً(٧٢). فتلك الفكرة أكبر من أن تدركها عقول المصريين فى أوائل القرن التاسع عشر، خاصة وأن المصريين لم يهتموا بوجود هوية تثير مشاعرهم آنذاك - كما سبق القول - لذا لم يتجاوبوا مع وقائع الأحداث عندما

خطط المعلم يعقوب لاستقلال مصر، أو حتى عندما قام على بك الكبير من قبل بمحاربة الأتراك (٧٣)، أياً كانت تلك التفسيرات السابقة، فما بالنا بالتكوين الثقافى للمعلم يعقوب وقتذاك.

وقد سلك البعض من المؤرخين فى تفسير رؤيتهم مسلكاً معتدلاً، فحواه أن يعقوب من الأقباط الذين لازموا الفرنسيين منذ وطأت الحملة أرض مصر، وعلى هذا النحو تشبع بآرائهم السياسية التى كانت بالتالى مشبعة بروح الثورة الفرنسية(٧٤)، وبذلك يكون التأثير الفرنسى على عقلية يعقوب واضحاً فى جميع تصرفاته، وهذا ما نرجحه.

وفيما يتعلق بتشكيل يعقوب للفليق القبطى* فقد مال البعض إلى الاعتقاد بأنه بذلك العمل قد حدد موقعه بالانحياز الكامل إلى الحملة الفرنسية(٧٥). وفسر البعض الآخر عمله هذا بأنه دليل على أن المعلم يعقوب قد أنكر وطنه منذ اللحظة التى كون فيها الفرقة القبطية، ودللوا على ذلك بأن الأمة القبطية استقبلت عمله بفتور(٧٦). فى الوقت الذى كان يملك فيه كل صفات القيادة، فقد كان يبدو متألقاً خلال سنوات الحملة الفرنسية الثلاث(٧٧)، فقد دخل فى علاقات حميمة* مع ديزيه *Desaix* غازى الصعيد عام ١٧٩٨، ومن هنا ذهب البعض إلى القول بأنه توطدت لدى يعقوب – فى ذلك الوقت – فكرة الأمة { القبطية المتوحدة.}(٧٨)

ومن ثم كان الربط بين ذلك القول وبين مطلبه بتكوين فرقة عسكرية مصرية، عندما رأى أن مصر محرومة من جيش وطنى يمكن الاعتماد عليه فى توجيه الأمور إذا ما ترك الفرنسيون البلاد وعادت إلى حالة الفوضى السياسية مرة أخرى(٧٩)، وهذا قول مستبعد فأين يعقوب من فكرة (الأمة المتوحدة)، فيكفى أن الفيلق العسكرى الذى كونه شمل أقباط مصر دون مسلميها، فكيف سيوحد أمة بعناصرها المختلفة مفضلاً عنصر منها ومتجاهلاً الآخر، بل أنسب القول أنه كان متفهماً إلى حد ما – واقع الأحوال ومدركاً أن مسلمى مصر لا يجرؤون على

التفكير فى الخروج على الدولة العثمانية التى يكون الانفصال عنها بمثابة الخروج عن الملة الاسلامية ذاتها.

على هذا النحو، فإننا نتفق مع الرأى الذى يستبعد أن يكون المعلم يعقوب فكر وحده فى انشاء الفيلق القبطى(٨٠)، وأنه من وحى رجال الحملة الفرنسية الذين أثروا بفكرهم على عقلية يعقوب المحدودة. وفى نفس الوقت لا نرجح القول بأن هذه القوة الحربية كانت من أدوات تثبيت الاحتلال ولذلك سمحت السلطات الفرنسية بإنشائها وتسليحها وتدريبها(٨١)، بل الأنسب القول بأنها كانت البديل المناسب للوجود الفرنسى فى مصر فى حالة رحيل الحملة عنها، وهذا ما أشار إليه الفارس لاسكاريس *Lascaris* عندما قال {بأن مصر يجب أن تستقل وأن على الحكومة الفرنسية أن تعمل علي تحقيق استقلالها إذا قررت الجلاء عنها بأن تقوى الفرقة المصرية تحت قيادة يعقوب لتكون العنصر المرجح فى تقاتل العثمانيين والمماليك على تملك هذه البلاد}(٨٢).

وسواء أكانت فكرة الفيلق من وحى رجال الحملة أو من وحى فكر يعقوب، ففى النهاية يصعب إدراك يعقوب بأن هذه القوة الحربية سوف تتيح للمصريين فرصة الاشتراك فى تحديد مصير البلاد بعد خروج الفرنسيين منها، من منطلق أنه بدون هذه القوة لا يستطيع تحقيق أى نصر على القوة المملوكية أو العثمانية، وإلا ما كان قد سعى لتكوينها، ولعل الأحداث التالية بعد خروج الحملة قد أوجدت الإجابة التى أثبتت عدم صحة ذلك التفسير.

فإنه بعد هذا الاستعداد من قبل يعقوب بتجهيز الفرقة القبطية على أحدث النظم الغربية– آنذاك – نُصاب بالدهشة، من جراء تصميم الجنرال على الرحيل مع الفرنسيين ، ويجعلنا نبحث عن أهدافه تلك لانسلاح مصر عن الدولة العثمانية، ومحاولة تعويد فئة من المصريين على حكم أنفسهم، كما نسب إليه(٨٣)، أليس ذلك دليلاً على التأثير الفرنسى على عقليته، مما دفعه إلى محاكاتهم والتقرب إليهم وتقديم العون لهم، وتفضيل المصلحة الشخصية على الأرجح.

ومن هنا ننفى عنه سعيه ليخلص وطنه من الحكم المملوكى العثمانى وإلا ما كان قد خرج فى وقت كانت الفرصة سانحة للقيام بدور مؤثر على المسرح السياسى بعد رحيل الحملة، ولاسيما أنه قد أنفرد بفكرة تخليص مصر من التبعية العثمانية، فأمثاله من الزعماء المصريين مثل عمر مكرم - على سبيل المثال - آثر أن يقاتل الفرنسيين فى صفوف العثمانيين، من منطلق الوازع الدينى، وخضوع مصر شرعياً لسلطان المسلمين وخليفة الله فى أرضه.

على أية حال، اجتهد بعض المؤرخين فى وضع تبريرات لرحيل يعقوب مع الحملة الفرنسية ، كان من بينها [خروجه لتحقيق مشروع خطير. السعى لدى الحكومات الأوربية لتحقيق أستقلال مصر]، مع الرفض بأن يكون رحيله للخلاص بنفسه(٨٤)، وعلى الجانب الآخر كان هناك تفسير مغاير ألا وهو أن الچنرال يعقوب قد ربط نفسه بالحملة الفرنسية ومصيرها، لذلك آثر الرحيل بعد أن منيت مشاريعهم لاستعمار مصر بالفشل الذريع(٨٥).

ويبدو لنا أن هذه التفسيرات تتجاهل عقلية يعقوب المحدودة وإنبهارها بما وراء البحار التى أتى منها هؤلاء الرجال بأسلحتهم ومعداتهم ونظمهم المتطورة، فلماذا لا نضع فى الحسبان أن رحيله كان محاولة منه لاستكشاف العالم الغربى ويرى بنفسه سبل التقدم الأخرى التى يجهلها الشرق تماماً، وهذا ما يدعم تفسيرنا باتجاهه الشخصى وراء ما صدر عنه من مواقف، يتضح إذن أنه من خلال احتكاكه برجالات الحملة وترديد أفكار الثورة الفرنسية على ألسنتهم استشف دلائل الحرية والمساواة والاخاء ... إلخ، وهذا ما دفعه بأن يخرج ليستكشف ذلك العالم بنفسه – ربما فى سياق مشروع يتيح لمصر فرصة تغيير وضعها السياسى وتحديد علاقاتها بالدولة العثمانية من جهة وبدول أوربا التى عرفت الطريق إلى مصر من جهة أخرى.

وبالنسبة لمشروع استقلال مصر الذى قدم إلى كل من الحكومة الانجليزية والفرنسية على السواء فقد انقسمت الآراء حول صاحبه، فيميل البعض إلى نسبه

إلى الجنرال يعقوب مع الترجيح أن يكون مشروعاً فرنسياً بقصد تحييد مصر بين فرنسا وإنجلترا والدولة العثمانية، وبذلك يكون قد أملاه رجال الحملة على الجنرال يعقوب(٨٦)، فى حين يرجح البعض الآخر أن مذكرة استقلال مصر من إعداد الفارس لاسكاريس* ومن وحى خياله(٨٧).

والجدير بالذكر، أننا لو سلمنا بوجهة النظر الأولى لنجد أنفسنا أمام القول إذا كان مشروع يعقوب من وحى فرنسا، لماذا تخلت عنه ولم تدعمه حتى النهاية، إن الذى حدث أن المشروع كان مصيره الاهمال ولم يلتفت إليه أحد بل أودع سجلات الحكومة. فيبقى لنا القول بأن المشروع كان من بنات أفكار الفارس لاسكاريس، ولنا على ذلك شواهد :

أولها : إجماع الآراء أن لاسكاريس كان {صاحب مشروعات}(٨٨). وبذلك يكون هذا المشروع من ضمن مشاريعه الإصلاحية، لكنه كان على المستوى السياسى للبلد وليس مشروعاً اقتصادياً، خاصة وأنه سوف يعود إلى الشرق بمشاريع جديدة فى فترة لاحقة.

ثانيها : وصف لاسكاريس بأنه رجل {خيالى}(٨٩)، يجعلنا أقرب الى الظن بأن المشروع بالنسبة له كان حلماً لمستقبل مصر التى يلم بحضارتها القديمة.

ثالثها : لقد قام لاسكاريس بدور المترجم بين يعقوب وبين ربان السفينة چوزيف أدموندز *Joseph Edmonds* ، فاختلاف اللغة قد تحمل الأفكار البسيطة أكبر مما ينبغى وتجعله أكثر حدية فى التعبير عما يجيش فى صدره تجاه مستقبل مصر، من حيث شكل حكوماتها، ومدى مساعدة الدول الأوربية لها .... الخ.

رابعها : إن المذكرة التى قدمها لاسكاريس لربان السفينة كانت بعد وفاة يعقوب، ومن هنا استطاع أن يزعم بأن يعقوب كان على رأس {وفد مصرى}.

وهذا القول يتناقض مع معرفتنا التامة بأنه لم يخرج إلا هو وأهله، ولم يكن معه فيلقه القبطى الذى تشتت بسبب أو بآخر. فيروى لنا الجبرتى(٩٠) رحيله عن مصر قائلاً : {... وأما يعقوب فإنه خرج بمتاعه ... وعدت الى الروضة وكذلك جمع اليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا الى قائمقام وبكوا ولولوا وترجوه فى ابقائهم عند عيالهم وأولادهم فأنهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم انه يرسل الى يعقوب أنه لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه}، فأين ذلك (الوفد المصرى) الذى ذكره لاسكاريس فى مذكرته من هؤلاء الذين ذكرهم الجبرتى؟! أو ما الذى منى به يعقوب النجار والبناء والصائغ، هل استطاع أن يوصل إليهم فكرة استقلال مصر كما ردد البعض !! ربما أفهمهم ضرورة الرحيل حتى ينجو من انتقام المماليك والعثمانيين على مساعدتهم الفرنسيين، وفوق هذا كان خروج بعض نصارى الشوام والأروام فقد كانت الميول والاتجاهات متباينة، وهذا ما يؤكد لنا عدم صدق رواية وجود وفد مصرى تزعمه يعقوب لينادى باستقلال بلاده، وإنما كل ذلك من فعل خيال ذلك الفارس.

صفوة القول أن الحملة الفرنسية بكل ما لها وما عليها قد حركت العقول المصرية، ولكن ليس فى اتجاه وعى قومى أو شعور بالوطنية المصرية، فلم تكن هذه الأفكار وليدة ذلك العصر، ولكن حركت بعضاً منها نحو التجديد ومحاولة الإصلاح وإحداث نوع من التغيير إذا سنحت الفرصة بذلك، فكانت الحملة بمثابة الناقوس الذى دق فى الأذهان لكى تستيقظ من غفلتها ، وتنفض عن كاهلها سبات العصور الوسطى الذى غلب عليها لمدة ثلاثة قرون منذ الفتح العثمانى لها(٩١)، محاولة اللحاق بذلك العالم المتقدم عن طريق الاستفادة من هذه التجربة الفريدة. وذلك هو الدرس الذى استفاد منه رجل كتب له التاريخ أن يكون هو مؤسس مصر الحديثة.

٦ - بزوغ الزعامة الشعبية

غير أن الفترة التى أعقبت رحيل الفرنسيين شهدت فيها البلاد بزوغ الزعامة الشعبية ونجاحها فى تولية محمد على والياً على مصر، وإن لم يكن يفهم منه ظهور الروح الوطنية فى هذا الوقت المبكر.

فما لبثت الصراعات أن دارت بعد الحملة، وقد عانى منها المصريون الكثير على أيدى العثمانيين أو المماليك سواسية، وقد رسم لنا الطهطاوى صورة توضح ذلك معبراً {..... فلما جاء الارنؤوط ليدخلوا مصر فى طاعة الدولة العلية هموا بأن يمتلكوها لأنفسهم فتمزقت مصر بما فيها من الفتن والحروب ثم فرحت بدخلوها تحت لواء ولى النعم الذى أسبل عليها أعلام المعارف والولاية والعدل}(٩٢)، تلك الاضطرابات التى وصلت إلى قمة ذروتها فى الثانى عشر والثالث عشر من شهر مايو عام ١٨٠٥، بما نلاحظه من خلال ما نصت عليه بنود وثيقة* تم التوصل إليها بالإضافة إلى ما تمخضت عنه من ثورة شعبية، وقد بالغ البعض فى القول {بأنها ثورة قومية مصرية دعا إليها الشعب المصرى وغذاها بأبنائه وأمواله}،(٩٣) وفوق هذا اعتبار أن تاريخ الوطنية المصرية والمصريين بدأ مع حركة الوطنيين فى مايو ١٨٠٥، وذلك من خلال نجاح الشعب بجدارة فى استبدال الباشا التركى بمحمد على.(٩٤)

وكان على رأس هذه الثورة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، ذلك الرجل الذى أحيا الدور السياسى لعلماء الأمة(٩٥)، فقد كان محمد على يعرف أن عمر مكرم هو عماد الثورة حيث توفرت لديه الزعامة الشعبية، ومن هنا كان تردده عليه(٩٦)، فى محاولة لكسب ذلك الزعيم إلى صفه، وقد لعبت الظروف دوراً رئيسياً فى إختيار هذا الوالى، فأهل القاهرة بعد الفوضى التى ألمت بهم أشرأبت أعناقهم إلى الزعيم الألبانى الذى أظهر لهم خدماته فى صراعهم مع خورشيد باشا(٩٧)، {فإتحد الباشا مع المشايخ، ورتب من الأهالى بدلهم بالسلاح والبنادق والنبابيت}(٩٨)، ولقد توجت مساعى محمد على بالنجاح عندما وصل المرسوم من

قبل السلطان العثماني مشتملاً على إبقائه واستمراره على ولاية مصر، ذلك المرسوم الذى أظهر السلطان بمظهر العاجز عن المقاومة فكان رضوخه واعترافه بمحمد على والياً على مصر عام ١٨٠٦(٩٩)، بمثابة لطمة وجهت للسلطان العثماني.

وقد اختلفت الآراء حول كيفية وصول محمد على إلى السلطة، فبعضها رأت {أنه لم يدبر حوادث ارتقائه ولم يرتب فصولها ولم يداهن}(١٠٠) فى حين رأى البعض الآخر أنه استطاع أن يصل إلى السلطة بمؤازرة الشعب بمشايخه وعلمائه له نتيجة سعيه المستمر فى التقرب إلى الشعب وعطفه عليهم، إذ استطاع أن يحظى بتأييد الصفوة من أهل البلد(١٠١).

ونحن بدورنا نرفض قبول الرأى الأول لأن الأيام قد أثبتت أن محمد على قد استفاد من الفوضى السياسية التى سيطرت على البلاد واستطاع أن يشق طريقه إلى الولاية بفضل مداهنته لجميع الأطراف التى إنقض عليها فيما بعد حتى ينفرد وحده بالولاية دون رقيب أو شريك، ألم يتملق عواطف المصريين كما فعل بونابرت من قبل ! فكان عطفه وتودده إلى زعماء الشعب هو الوسيلة التى اتخذها لتحقيق غايته فى الوصول إلى السلطة، {وإن تظاهر بعدم الجرى وراء مصلحة خاصة}(١٠٢).

والحق أن هذه الخطة كانت غير مسبوقة آنذاك، فالقوات التى تنازعت السلطة فى مصر كانت تعتمد على قوة الجند فى المقام الأول – ولم تكن تضع فى الحسبان إرادة الشعب(١٠٣)، أما محمد على فهو أول من استعان بالمصريين لتحقيق أهدافه، ولكن عندما استقر فى الحكم وثبت قدمه طمحت نفسه إلى الاستبداد فعمل على التخلص من الزعامة الشعبية ممثلة فى السيد عمر مكرم خشية إثارته لجموع الشعب واقتلاعه من مركزه، كما اقتلع خورشيد باشا من قبل(١٠٤). خاصة بعد دوره البارز فى مقاومة حملة فريزر (١٨٠٧).

نخلص من هذا إلى أن تولية محمد على من قبل الشعب كانت دليلاً على

سـريان روح جـديدة فى شـرايين الشـعب المصـرى ولكن حـال {الولاء الدينى لسلطان المسلمين، دون مطالبة الشعب بالانفصال عنه}(١٠٥)، لهـذا نرفض أن تكون التولية مؤشراً على نزعة استقلالية، كما يحلو للبعض أن يقول، أو أنها تحمل ملامح نظام جمهورى، أو أن يستنبط من عدم تنازل خورشيد عن الولاية فى قوله (بأمر من الفلاحين) دليلاً على مصرية الحركة التى عزلته (١٠٦).

قياساً على ما سبق نؤكد أن ولاء المصريين لخليفة المسلمين دفعهم إلى اختيار والٍ تركى، وبذا لا يخرجون عن الإطار العام للدولة العثمانية، بالاضافة إلى أنهم رأوا فى إختيارهم للولاة حقاً من حقوقهم الأصلية تفرضه الشريعة الإسلامية (١٠٧)، ولعل ذلك يفسر لنا لماذا لم يناد الشعب المصرى بزعيم منه يكون والياً على مصر؟ يمكن إرجاع ذلك إلى غياب وعدم نضوج فكرة الوطنية المصرية، فالتربة التى سوف تساعد على بذر بذور الوطنية لم تحرث بعد، فحتى ذلك الوقت كان من الصعب اقتلاع العاطفة الدينية من الوجدان المصرى لاحلال العاطفة الوطنية مكانها.

وفى النهاية يمكن القول أن تولية محمد على حاكماً على مصر كانت اختياراً شعبياً (١٠٨)، نرى فيه ثمرة من ثمرات الحملة الفرنسية التى جناها الشعب المصرى، وإن كانت فكرة غير قابلة النضج على أساس فشل المصريين فى إختيار من يتولى حكم بلادهم من أن يكون أحد أبناء الشعب المصرى ذاته، وإن نجح الشعب المصرى بعد ذلك فى توصله إلى مظاهر البحث عن مصريته وخصوصيته من خلال دوره الأساسى والبارز فى نجاح عملية إنشاء مصر الحديثة، على الرغم من أن مراحل هذا النجاح قد تتابعت فى ظل حاكم غير مصرى، إلا أننا ننظر من جهة أخرى على إعتباره دليلاً شديد الوضوح يعبر عن تصميم المصريين للوصول إلى اكتمال الشخصية المصرية المتفردة، وإن كان هذا التوجه من لدن الشعب المصرى قد اتسم بالندرة اذا قورن بالأوضاع التى كانت تسود كافة الأقطار الخاضعة للدولة العثمانية.

٧ - الاحتكاك بالغرب الأوربى ونشأة المؤسسات الوطنية

تكمن عبقرية محمد على فيما تعلمه من أخطاء سابقيه، فقد جمع كل الأفكار فى برنامج متماسك فاستمر فى تحويل أسس الاقتصاد الاجتماعى للمجتمع المحلى(١٠٩)، ولهذا صار أبناء مصر بغير قصد منه هم المستفيدون من المشروعات العديدة التى نهض بتأسيسها، بهدف إرضاء طموحه فى المقام الأول.

فقد أقام محمد على المؤسسات المدنية التى ساعدت على ترسيخ مشاريعه، فبالاضافة إلى الاصلاح الاقتصادى الذى سعى بكل جهده نحو إقامته على أسس حديثة، بشكل يضمن له تحقيق الوفرة والنمو السريع مما يسمح له ليصبح ملكاً مستقلاً – فقد أقام المشاريع الصناعية العملاقة – بمعيار ذلك الوقت – ووضع نواة قوة حربية عظيمة لمصر، إلى جانب المدارس الحديثة التى أقامها، كل من أجل تتمة مشروعه النهضوى (١١٠).

ومن هذا المنطلق كان سعيه لفتح أبواب مصر أمام الحضارة الأوربية الحديثة، ونلمس ذلك فى قول الطهطاوى(١١١) {فأخذ هذا الأمير يبذل كل الوسائط فى أن يرتب فى مصر تدبيراً حسناً لائقاً يعين على العلوم والفنون وقد استعان على تدبير الإفرنجية بأهلها} إذ أحضر الأساتذة الأوربيين خاصة رجال فرنسا إلى مصر، وفى وقت آخر أرسل شباب مصريين إلى أوربا لاسيما فرنسا(١١٢).

ولاشك أن أهم الجوانب الايجابية التى ترتبت على سياسات محمد على كان الاحتكاك الواسع بالثقافة الغربية سواء من خلال البعثات التى أعتبرت خطوة عملية فى فتح البلاد أمام الغرب عن طريق إرسالها إلى دول أوربا (١١٣)، التى كانت بمثابة قنوات الاتصال بين الشرق والغرب*، فضلاً عن أن {طلاب هذه البعثات سيصبحون خميرة النهضة المصرية} ،(١١٤) التى سوف تقوم بدور مؤثر فى تغيير وجه مصر حضارياً فى السنوات المقبلة خاصة فى عصر إسماعيل، على أساس أنهم كانوا يذهبون ويحلون بتلك الدول الأوربية بوصفهم مصريين.

ويبدو أن محمد على وضع فى اعتباره كونه غير مصرى الأصل، الأمر الذى قد يهدد استقرار حكمه وبالطبع ما يهدد مشاريعه المستقبلية بالانهيار، ولهذا كان متخوفاً من تحديث النخبة المصرية (١١٥)، وظل هذا التخوف يلازمه حتى شرع فى إرسال البعثات المختلفة إلى الدول الأوربية بما سوف نلاحظه من تركيزه الشديد فى التنوع فى تشكيل أفراد تلك البعثات**، من حيث رغبته فى عدم كثرة المصريين المبعوثين إلى تلك الدول، خشية من دورهم المؤثر بعد عودتهم إلى الوطن الأم مصر، وظلت تلك الجُهود لإحداث التوازن بين مخاوفه وبين الحد من عدد المصريين المبعوثين تلازمه حتى إنهيار حكمه عام ١٨٤٠ وإن استمرت البعثات إلى عام ١٨٤٧.

أما صورة الاحتكاك الأخرى بالثقافة الغربية، كان من خلال الأجانب سواء الذين جاءوا يبغون أسباب الثروة، أو الذين أتوا بصفتهم خبراء فى مشاريع محمد على(١١٦)، بالاضافة إلى العملاء الأجانب الذين إستعان بهم محمد على فى تصريف منتجاته فى الأسواق الأوربية، ومن هنا كانت سياسة محمد على مشجعة للأجانب للمجئ إلى مصر(١١٧).

ومن ثم مثلت حركة الترجمة احتكاكاً أخيراً بين علوم ومعارف عالمين مختلفين كل الاختلاف. فقد غذت هذه الحركة مؤسسات التعليم والثقافة فى مصر بالكثير من ينابيع الحضارة الأوربية(١١٨)، وإن ارتبطت تلك الحركة بأهداف محمد على الإصلاحية، إلا أنها أثرت بطريق غير مباشر فى التكوين الثقافى لبعض المبعوثين، الذين كونوا جيلا من المصريين تميز بشخصية متفتحة، أستطاعت أن تستوعب نظم الغرب الأوربى(١١٩)، وبذا أسهموا فى غرس البذور الأولى للوعى فى الوجدان المصرى.

ومن هنا تزامنت حركة الترجمة مع عملية تطوير الوطن، وارتبطت فى نفس الوقت، بالتعليم المدنى (١٢٠)، الذى سعى محمد على لتحقيقه من خلال الفصل بين نظامى المدارس الدينية والمدنية، عاملاً على إقامة نظام تعليمى جديد لمصر

الحديثة*يتواكب مع السياسة التعليمية التى انصبت على تكوين فنيين مدنيين لاستخدامهم موظفين فى الحكومة، ويمكن القول بأن هذه السياسة كانت عاملاً مشجعاً للجيل المصرى الجديد فى الإقبال على التعليم المدنى(١٢١).

كما أظهرت حركة الترجمة احتياج الباشا إلى المهاجرين الشوام ليقوموا بدور الترجمة بينه وبين الأوربيين وخاصة الفرنسيين، وقد شجعهم محمد على أيضاً على الهجرة إلى مصر حين أقام دولة مركزية قوية، بالاضافة إلى ذلك اعتماده على الأجانب إلى جانب الأقباط والأتراك بشكل كبير ليسد الفراغ فى المناصب الحكومية العليا(١٢٢)، على الرغم من القول أن المصريين أصبحوا يمثلون جزءاً نشيطاً فى الإدارة(١٢٣)، ربما دون الوظائف العليا، وهذا يدعم فكرة أن تمصير حركة التحديث التى قام بها محمد على لم تكن هى أساس سياسته الآخذة بالنهوض بدولته، بل كان فقط يجمع أسباب تدعيم تلك المشروعات الحديثة، بما يتوفر من عناصر غير مصرية فى ذات الوقت.

وجنباً إلى جنب مع الاحتكاك بالثقافة الغربية أقام محمد على مؤسسة من أهم مؤسسات تمدين المجتمع المصرى تلكم هى الجيش(١٢٤) وقد رأى البعض أن الباشا كان يسعى ليحقق الاستقرار السياسي لمصر ويجعلها قادرة على تحديد علاقتها بالدولة العثمانية(١٢٥). على أى الأحوال فإنه فى سبيله لتكوين تلك القوة الحربية إضطر إلى استخدام العنصر المصرى(١٢٦)، الذى مثل بوتقة حقيقية انصهر فيها أبناء مصر دون أدنى فرق بين أبناء المدن وأبناء الريف أو بين المسلم والقبطى،(١٢٧) فالمعلوم أن محمد على {لم يشأ فى أول أمره تجنيدهم خشية وضع السلاح فى يد من لا يملكون}(١٢٨)، وخاصة أنه أدرك خطورة العنصر المصرى من قبل عندما حملوا السلاح فى وجه خورشيد باشا، فلا يريد أن يبيح لهم حمل السلاح، الذى من السهل أن يشهر فى وجهه هو فى يوم ما.

على أية حال، إن ما يعيننا البحث عنه فى هذا المقام مقولتين إحداهما ترجح أن تكوين الجيش له شأن كبير فى إحساس المصريين بمزيد من الثقة فى

أنفسهم، ومن ثم استيقظت الروح الحربية التى كانت فى الحكم الغشم(١٢٩) . والأخرى تؤكد أن المصريين أمتعضوا من فكرة إرسال بنيهم إلى ميادين القتال، ربما من منطلق أنها لم تثر فى نفوسهم أى شعور دينى أو وطنى، كما أنها جرت على أرض غير مصرية، فضلاً عن أنهم تصوروا التجنيد عملاً من أعمال السخرة لا مبرر لها(١٣٠).

وهذه الآراء تنقلنا إلى قضية هامة وهى لجوء البعض إلى تشويه أجسادهم أو الفرار من التجنيد ، ومحاولة البعض تبرير ذلك بأنه مرتبط بالبعاد بينهم وبين أوطانهم(١٣١)– وهو أمر غير مقبول – بحكم حداثة الفكرة فى الأذهان، لهذا نرى أن المصريين رويداً رويداً تعودوا على الحياة العسكرية وشاركوا مشاركة إيجابية فى حروب محمد على ـ كما سنرى فيما بعد* ـ ومن هنا أصبح الجيش مؤسسة هامة من مؤسسات الدولة الحديثة فى عهد محمد على، سوف تساعد على تكوين الدولة المصرية.

إذن ثمة تلازم تاريخى بين بناء الدولة الحديثة على عهد محمد على وبين بداية تكوين الوطنية المصرية، فقد أكد البعض مقولة أن {الجيش هو حجر الزاوية فى هذا التكوين، فجاء هذا التنظيم المصرى سابقاً على الوعى بالمصرية}(١٣٢)، وفوق هذا لعبت هذه المؤسسة الوطنية دوراً فى ترسيخ مفهوم الوطنية من خلال الانتصارات التى صنعتها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، فضلاً عن أن طبيعتها المصرية استمرت عنصر أساسياً فى صنع الاعتزاز للوطن المصرى وترسيخ الانتماء إليه(١٣٣). ومن ثم شكل هذا الجيش (الجنين) الذى سيخرج من أحشاء الدولة العثمانية (الأم)، محاولاً الانسلاخ السياسى عن جسدها، رافعاً شعار (مصر للمصريين).

لهذا يمكننا القول أن جهود محمد على – بدون قصد منه – كانت عاملاً فى إيقاظ الشعور القومى وتهدف إلى الانفصال عن الدولة العثمانية (١٣٤)، فعلى الرغم من أن محمد على ربط التعليم بالجيش ومتطلباته، إلا أنه بدون قصد كون

فئة من المثقفين، استفادت بمرور الوقت من اتصالها بالغرب فى بلورة وعيها مما أدى إلى نضوجها فى فترات لاحقة لأنهم كانوا بمثابة النواة للحركة الثقافية والأدبية الحديثة فى مصر التى ستثمر عن الطهطاوى وعلى مبارك وحسين المرصفى وغيرهم، تلك النخبة المصرية التى بدأت فى منتصف القرن التاسع عشر تفكر فى البحث عن الهوية السياسية والثقافية للمجتمع المصرى(١٣٥).

وهؤلاء المثقفون الجدد سيقومون مع تلاميذهم بريادة التيار الثقافى الجديد والتبشير بحياة أدبية جديدة، من خلال القائهم البذور الأولى للوعى القومى فى التربة المصرية، لاسيما وأن التأثير الثقافى تركز فى عقول فئة من الأهالى دون أخرى، مما سيؤخر إحداث نوع من الوعى بين جميع الفئات المصرية الأخرى، ربما فعل النظام التعليمى الذى لم تمتد جذوره إلى (ريف مصر)(١٣٦)، وربما من منطلق أن رغبة محمد على فى تكوين جيش على الطراز الأوربى(١٣٧)، جعلته لا يلتفت إلى إحداث نهضة تعليمية حقيقية فى البلاد.

وقد انتقد *SAFRAN*(١٣٨) التعليم المدنى الذى أنشأه محمد على بأنه كان لحداثته وطابعه الفنى أثر فى أنه لم يسهم فى قيام أى حياة ثقافية، وقد نرى أن ذلك أمر طبيعى يتماشى مع سياسة محمد على الثابتة فى إخضاع كل مستلزمات الحداثة تحت خدمة الجيش فى المقام الأول، لذا كان من الطبيعى أن تكون أغلبية الكتب التى طبعت ذات سمات عسكرية وبحرية.

وبالتدريج نرى ثمة تغيراً فى عقول المصريين الذين تشبعوا بالثقافة الغربية سواء من خلال البعثات العلمية التى كانت بمثابة نافذة أطلوا من خلالها على العالم الأوربى أو من خلال المدارس الحديثة التى تعلموا فيها طبقاً للأساليب الأوربية على أيدى الأساتذة الأجانب والمصريين العائدين من أوربا(١٣٩)، لاسيما وبشهادة معاصريه (وقف على الأسباب التى أدت إلى نهضة الأوربيين ففتح المدارس وأخذ يكافئ الملمين بالقراءة والكتابة والعارفين بالتعليمات العسكرية} (١٤٠).

٨ - حسنين البسيونى وطلب استقلال مصر

ومن هذا وذاك نتحسس بدايات التأثير الغربى على العقل المصرى، ونلمس ذلك جلياً فى المذكرة التى رفعها الطالب المصرى حسنين البسيونى* إلى فيكونت بالمرستون - وزير الخارجية البريطانية فى لندن بتاريخ يوليه ١٨٣٨، طالبا فيها استقلال بلاده - مصر - لأنه كان يرى {أن رخاء ورفاهية مصر فى المستقبل يعتمد كثيراً على اعتراف إنجلترا باستقلالها} [١٤١].

وهكذا يمكن القول {بأن الحاسة القومية قد تنبهت فى عصر محمد على}[١٤٢]، ومن السهل الاستدلال على ذلك من التعرف أكثر على حسنين البسيونى، الذى وجد نفسه مدفوعاً نحو الرد على التهم والمزاعم التى روجها ضد بلده ونظامها أحد الرحالة البريطانيين *. ومن هذا المنطلق قام البسيونى بشرح أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تحت حكم محمد على باشا وكيف أن الوالى سعى جاهداً للعمل من أجل استقلال بلاده عن الدولة العثمانية، واختتم البسيونى مذكرته {أنه ليس هناك ما يحول دون إنجلترا واعترافها بحق مصر فى أن تصبح "أمة مستقلة" لتوضع تبعا لذلك على قدم وساق مع كل من البرازيل والمكسيك وكولومبيا واليونان}[١٤٣].

لا جدال أن مذكرة حسنين البسيونى تُعد علامة بارزة فى وعى مصر القومى[١٤٤] خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ودليلاً على ترابط أنحاء مصر المختلفة، مما مهد إلى شعور المصريين بأنهم ينتمون إلى كيان موحد مستقل بذاته.

انعكاساً على ذلك، يمكن الإشارة إلى حسنين البسيونى بأنه جسد المصرى الحقيقى الذى وعى متطلبات وطنه، ومن ثم اعتباره أنه يمثل البادرة الأولى لنتاج آثار العهد القريب، بما خلفته الحملة الفرنسية. وبما آلت إليه

الأوضاع داخل مصر قبل وأثناء وبعد تولية محمد على حكم مصر، ومن ثم أتيحت الفرصة لرفاعة رافع الطهطاوى ورفاقه بتمثيل البادرة الثانية من ذلك النتاج، نظراً لاسهاماتهم النظرية فى تكوين فكرة الوطنية المصرية وترسيخ مفهوم الوطن المصرى، وهذا هو مضمون الفصل الأول من الدراسة.

* * *

هوامش الفصل التمهيدى

١- Jamal, Mohammed, Ahmed : The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, London, 1960, P.4.

٢- عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، ج٣، د.ت ، ص ٣٤

* كالآداب والتاريخ والطب واللغات الاجنبية.

٣- بيترجران : بدء ظهور الليبرالية المصرية ، ، مقاله فى الطليعة ، عدد ٨٨ ، أغسطس ١٩٧٢ ص ٢٣ كذلك، - Jamal , M., A., OP. Cit., P. 5.

٤- سامى بدراوى : الشيخ العطار رائد البعث الأدبى فى مصر الحديثة، مقالة فى المجلة، عدد ٩٩،مارس ١٩٦٥، ص٣٣.

٥- Gran,peter:Looking For the Real Tahtawi,essayin, Al-Ahram weekly, 2 October, 27 Novrmber,1994.

٦- محمد صلاح السعيد أبو نار:مصر فى عهد محمد على ١٨٠٠-١٨٤٩،رسالة ماجستير كلية الأقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة،١٩٨٤، ص١٨٦.

٧- Lutfi,Al-Sayyid,Afaf (Marsot) : Egypt in the Reign of Muhammed Ali, London 1920,P. 1. 1984,P.18, And. Chirol,valentine : The Egyptian problem,

٨- Wendell, charles : The Evolution of the Egyptian National Image from its origins Ahmed L. Al-sayyid,California,1972,p.91.

٩- El good,P.G : Bonaparte's Adventure in Egypt,London,1931, P.51.

١٠- أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر، بيروت ١٩٥٩، ص ١٢٢

١١- Berger,Morroe: Bureaucracy and Society In Modern Egypt, New Jersey, 1957,P.21.

١٢- Rifaat,Mohammed(Bey):The awakening of Modern Egypt,1946,P.15

١٣- هنرى لورنس وآخرون : الحملة الفرنسية فى مصر، بونابرت والاسلام، ترجمة، بشير السباعى، ط ١، دار سينا للنشر، ١٩٩٥،ص ٣٨.

١٤- الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، سلسلة كتاب الهلال (٥٠)، ١٩٩٢،ص١٣.

١٥- فيليب سانياك: أصل استقلال مصر ومحمد على، مقالة فى السياسة الاسبوعية، (٦٢)، فى ١٤ مايو ١٩٢٧.

١٦- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج١، ط٢، القاهرة ١٩٥٧،ص ١٥٤

١٧- Wendell, Ch., OP.Cit., 84- 85.

١٨- عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق ص٤، وقد ورد نص المنشور ايضا فى
- GIBSON, JOHN : The History Of Napoleon Bunapart , London, 1915 . P.90.

١٩- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، د.ت،ص ٩٢

٢٠- Elgood, P.G., OP.cit., p.99.

٢١- عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق، ص٥ .

٢٢- Wendell,ch.,Op.cit.,p.80.

٢٣- Latfi, Al-Sayyid, Afaf (Marsot), Op.cit., p.20

٢٤- Gherson, Randolph: The Englo-Egyptian Question, essayin, The Middle East Journal, Autumn, 1957, Vol. 7,N,4,p.458

٢٥- Wendell, ch.,op.cit.,p.80.

٢٦- لويس عوض (د) : تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل، ط٤ القاهرة ١٩٨٧،ص ١١٠، وكذلك، محمد صبرى : تاريخ مصر من محمد على إلى اليوم، ط١، القاهرة ١٩٢٦، ص ٢٩ .

٢٧- سلامة موسى : تاريخ الوطنية المصرية يم نشوؤها وتطورها، مقالة فى ، الهلال (٣٦)، يناير ١٩٢٨، ص ٢٢٦ .

٢٨- يونان لبيب رزق (د.) : مصر المدنية فصول فى النشأة والتطور، طيبة للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٢، ص ٦٥ .

٢٩- Wendell, Ch.,op.cit.,p.91.

٣٠- حسن عبد العزيز : حركة الفكر القومى فى مصر من حكم محمد على الى الحرب العالمية الثانية، مقالة فى الطلعية، عدد ١، يناير ١٩٦٧،ص ٩٧

٣١- وقد رأى صاحب هذا الرأى أن الجبرتى لم يكن متفردا فى التفكير بهذه الطريقة
- Jamal, M. A., op.cit.,p.4.

٣٢- ادوارد وليم لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، تعريب عدلى طاهر نور، ط٢، القاهرة ١٩٥٧، ص٣

٣٣- نقولا ترك : ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، تحقيق ياسين سويد، ١٩٩٠،ص ٥٩-٦٠.

٣٤- المرجع السابق، ص ٥٥٢.

٣٥- يونان لبيب رزق (د.) : الجبرتى والشخصية المصرية، بحث فى ندوة عبد الرحمن الجبرتى، إصدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٧٦،ص ٢٤

٣٦- C. F. .volney, نقلا عن - Jamal, M. A.,op.cit.,p.3

٣٧- The Coptic Encyclopedia, New York, 1991, Vol.7, p. 948

٣٨- Wendell, ch., op. cit., p. 9

٣٩- جمال حمدان: شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، ج١، عالم الكتاب، د.ت،ص٤٠.

٤٠- Wendell, ch.,op.cit.,p.91

٤١- Jamal, M. A., op.cit.,p.3

٤٢- Wendell, ch.,op. cit.,p.82

٤٣- عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، ج١،ط٤،القاهرة ١٩٥٥، ص ١٥٤ نقلا عن التاريخ العلمى الحربى للحملة الفرنسية للمسيو رييو.

* وقد افتتحه بونابرت بخطبة يشيد فيها بعظمة مصر، لمزيد من التفاصيل حول نص الخطبة، انظر الجبرتى، المصدر السابق،ص٣٧

٤٤- عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ص ١٥١

٤٥- المؤثرات الاجنبية فى الأدب العربى الحديث، المبحث الثانى، القاهرة ١٩٦٣،ص٢١

٤٦- رئيف خورى : الفكر العربى الحديث، لبنان ١٩٤٣، ص ٨٠، كذلك

- Richmond,J.C.B., Egypt 1798 - 1952, London,1977.20

٤٧- لويس عوض : قصة العلمانية فى مصر (١)، مقالة فى المصور، عدد (٣٠٩٠)، فى ديسمبر ١٩٨٣، وكذلك محمد صلاح الدين حلمى: حياة الاتراك الاجتماعية فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٠،ص ١٥٤

٤٨- Jamal, M. A.,op.cit.,pp.2,4

٤٩- Richmond, J.c.B., op. cit., p. 30.

٥٠- أ.ب كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، ج١، ترجمة : محمد مسعود، مطبعة أبى الهول، بجوار دار الكتب الخديوية،ص٥١٨

٥١- رءوف عباس (د): الدور الوطنى للازهر، مقالة فى الأهرام، عدد [٣٥١٦٨] فى ١٩٨٣/٣/٢٧.

٥٢- كرستوفر هيرولد: بونابرت فى مصر، ترجمة : فؤاد اندراوس، القاهرة ١٩٦٢،ص ٢٦٢-٢٦٣

٥٣- عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب ٦٧، ١٩٦٧، ص٧٣-٧٤

٥٤- عبد الرحمن الجبرتى : المصدر السابق،ص ٢٧

٥٥- نقولا ترك : المصدر السابق، ص ٦١

٥٦- أنيس صايغ : المرجع السابق،ص ٣٣

٥٧- منى جعفرولى: الوعى القومى عند مؤرخى القرن التاسع عشر رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ص ١٣٩

٥٨- نقو لا ترك : المصدر السابق، ص ١٣٧، وكذلك : - Richmond, J.C.B.,Op.cit.p.28

٥٩- Rifaat, M.,Op.cit, p.7

* تلك التصرفات التى أنصبت على قذف الأزهر وأنتهاك حرمته، لمزيد من التفاصيل أنظر عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق، ص ٢٦، كذلك رءوف عباس، المقالة السابق.

٦٠- Jamal, M., A.: op.cit., p.2

٦١- عبد الخالق محمد لاشين (د): مصريات فى الفكر والسياسة، ط١دار سينا للنشر،١٩٩٣، ص٥٧

* من المتفق عليه أنه ولد في ملوى سنة ١٧٤٥ وتوفى فى أغسطس ١٨٠١ على ظهر السفينة الانجليزية بلاس،ودفن بمرسيليا بفرنسا، لمزيد من التفاصيل حول نشأته وحياته، راجع، محمد شفيق غربال:الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع إستقلال مصر ١٨٠١، مصر ١٩٣٢، ص ٢٥ .٣١، على أن رمزى تادرس فى كتابه الأقباط فى القرن العشرين يردد معلومات خاطئة حول تاريخ مولده وظروف وفاته ، أنظر الجزء الثالث، ص ١١.

٦٢- لمزيد من التفاصيل حول علاقة يعقوب برجال الحملة، انظر، أبو سيف يوسف: الأقباط والقومية العربية، ط١، بيروت ١٩٨٧، ص ١٠٢، كذلك

- The Coptic Encyclop edia, vol. 7 , p.2351

٦٣- عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق،ص١٠٨

٦٤- أحمد حسين الصاوى: المعلم يعقوب بين الاسطورة والحقيقة، ط١،القاهرة ١٩٨٦،ص ٨١

٦٥- چاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى الى عام ١٩٢٢، القاهرة ١٩٥١،ص ٢١٥

٦٦- تربية سلامة موسى: القاهرة، د.ت،ص١٣

٦٧- أحمد حسين الصاوى : المرجع السابق، ص ١٣ ،

٦٨- سعد الدين ابراهيم (د.) : الملل والنحل والاعراق، هموم الاقليات فى الوطن العربى،ط٢،القاهره ١٩٩٤،ص ٤٠٨

٦٩- حول علاقة البطريرك بيعقوب، انظر ، محمد شفيق غربال، المرجع السابق، ٢٥

٧٠- زاهر رياض : المسيحيون والقومية المصرية فى العصر الحديث،القاهرة،د.ت،ص٥٠

٧١- رياض سوريال : المجتمع القبطى فى مصر القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٨١،ص ٩٦، كذلك،عيادى العبد عيادى: المسيحية والقومية العربية، القاهرة ١٩٥٨،ص ١٢٣

٧٢- رفيق حبيب ومحمد عفيفى : تاريخ الكنيسة المصرية ، ط١، القاهرة ١٩٩٤،ص١٧٣

٧٣- The Coptic Encyclopedia, Vol.3,p.948.

٧٤- صبحى وحيدة: فى أصول المسألة المصرية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٠، ص ١٣٠

* جمع يعقوب لتكوين هذا الفيلق أكثر من ألف شاب من أهل الصعيد، وقام بتدريبهم ضباط من الفرنسيين، وأظهر جنود الفرقة شجاعة وبسالة، وتولى يعقوب قيادتهم، زاهر رياض، المرجع السابق، ص ٥٢

٧٥- سعد الدين ابراهيم (د.): المرجع السابق،ص٤٠٧

٧٦- چاك تاجر : المرجع السابق،ص٢٢١

٧٧- The Coptic Encyclopedia, Vol.7,p.2351.

* ففى الرسالة التى كتبها الى الجنرال مينو يرثى فيها ديزيه، ما يعبر عن عاطفة جياشة وعلاقات قوية ربطته بذلك القائد، للإطلاع على نص الرسالة، أنظر لجنة التاريخ القبطى: تاريخ الأمة القبطية، الحلقة الاولى،ط٣، ١٩٢٢،ص٧١-٧٢

٧٨- أحمد يوسف (د.): رؤية جديدة للمعلم يعقوب،مقالة فى القاهرة،إبريل ١٩٩٥

٧٩- الاثنين،عدد ٩٠٦،فى أكتوبر ١٩٥١،تحت عنوان "الجنرال يعقوب. المصرى الذى طالب بإستقلال مصر منذ ربع قرن".

٨٠- أحمد حسين الصاوى: المرجع السابق،ص٣٠

٨١- محمد شفيق غربال : المرجع السابق،ص٢٢

٨٢- محمد شفيق غربال المرجع السابق ،ص٣١، نقلا عن، Auriant,Mercure de france

٨٣- فيليب سانياك : المقالة السابقة.

٨٤- وقد وضع شفيق فربال أسباب دفعت يعقوب للرحيل مع الحملة،انظر، ص٣٣

٨٥- أحمد حسين الصاوى : المرجع السابق،ص٧٩

٨٦- لويس عوض (د) : المؤثرات الأجنبية فى الادب العربى الحديث، ص٧٠

* ثيودور لاسكاريس،مغامر كان بمالطه مع (فرسان القديس يوحنا) عندما استولى نابليون عليها ١٧٩٨، وحضر معه الى مصر، وخرج على نفس السفينة بالاس Pallas الانجليزية التى حملت يعقوب ورفقاءه، وقد عرف بالخيال الواسع والشذوذ الفكرى واستمر طيلة حياته "صاحب مشروعات"، نقلا عن، محمد فؤاد شكرى: مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١،ج١، القاهرة ١٩٥٨،ص ١٣٥

٨٧- محمد شفيق غربال : المرجع السابق،ص٣٤،وكذلك احمد حسين الصاوى: المرجع السابق،ص٦٩

٨٨- محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق،ص١٣٥ كذلك هنرى لورنس وآخرون: المرجع السابق، ص٥٩٥

٨٩- احمد حسين الصاوى : المرجع السابق ،ص٦٩

٩٠- عجائب الآثار. ج٣، ص١٨٦ - ١٨٧

٩١- Safran,Nadav,Egypt in Search of political community, London, 1961,p.26 -

٩٢- رفاعة رافع الطهطاوى : التعريبات الشافية لمريد الجغرافية، دار الطباعة الخديوية بمصر، ١٢٥٤ هـ، ص ٢٣٤ .

* حيث أجتمع زعماء الشعب فى صبيحة الأحد ١٢ مايو ١٨٠٥ وأتفقوا رأيا على الذهاب إلى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) لأختصام الوالى التركى أحمد خورشيد باشا، وقد حرر زعماء الشعب مطالبهم فى وثيقة تمثلت بنودها فى :

١ ـ عدم مرابطة القوات العسكرية فى القاهرة وضرورة أنتقالها إلى الجيزة. ٢ ـ عدم السماح لأى جندى دخول القاهرة حاملا سلاحه معه. ٣ ـ الأمتناع عن فرصة أية ضريبة على سكان القاهرة بدون موافقة المشايخ والأعيان. ٤ ـ إعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى، عبد العزيز الشناوى، ص١٠٣ - ١٠٤ لمزيد من التفاصيل حول اجتماع العلماء ، الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، ج ١، ص٣٠١ - ٣٠٢ .

٩٣- أنيس صايغ، المرجع السابق، ص ٣٥ .

٩٤- Little, Tom : Egypt, First published, london, 1958, p. 58. -

٩٥- Jamal, M., A., op.cit., p.8 -

٩٦- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار، ج ٤، ص ٣٢

٩٧- هنرى دودويل:الاتجاه السياسى لمصر فى عهد محمد على مؤسس مصر الحديثة، د.ت، ص ١٩، ٢٣ .

٩٨- على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة، ج ١، طبعة مصورة عن الطبعة الثالثة بالقاهرة ١٩٨٠، إصدار مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ ، ص ١٦٩ .

٩٩- Silva, Arthur, White : The Expansion of Egypt vnder Anglo - Egyptian condominium, London, 1899, p. 47.

١٠٠- محمد شفيق غربال : المرجع السابق،ص٢٩

١٠١- أحمد شفيق : أعمالى بعد مذكراتى، القاهرة ١٩٤١ ،ص٣٢٥، كذلك

- Wendell,ch.op. Cit., p.108 and Latfi,Al-Sayyid,Afaf:op.cit.,p.61

١٠٢- محمد صبرى : المرجع السابق،ص٣٢

١٠٣- عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية،ج٢،ط٢، ١٩٤٨ ،ص٢٥٩

١٠٤- عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على،ط٣، القاهرة ١٩٥١ ،ص٨٠ ، ٩١

١٠٥- عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق،ص١٤٥

١٠٦- طاهر عبد الحكيم (د.) : الشخصية الوطنية المصرية،ط١ ،القاهرة ١٩٨٦ ،ص ١١٣، كذلك، عبد المنعم إبراهيم الجميعى (د.): الجذور التاريخية لفكرة الجمهورية فى مصر، ط١، القاهرة ١٩٨١ ،ص٩،ايضا أنيس صايغ: المرجع السابق، ص ٣٦

١٠٧- حسين فوزى النجار (د.) : أحمد عرابى،مصر للمصريين،أعلام العرب (١٤١) القاهرة ١٩٩٢ ،ص١٢، لتفسير ذلك راجع الحوار الذى دار بين السيد عمر مكرم، وعمر بيك الالباتى حول حق الشعب فى عزل الحاكم الظالم ومحاربته، عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق، ص ١١٦-١١٧

١٠٨- Holt, P. M., : Egypt And Fertile Crescent 1516 - 1922, London,1966,p.177

١٠٩- Latfi, Al-Sayyid, Afaf : op. cit., p. 21

١١٠- لمزيد من التفاصيل حول الاصلاح الأقتصادى فى عهد محمد على، راجع :

- Issawi, charles, : Egypt In Revolution An Economic Analysis, London, 1965, p.21. And,Madden, R.R., Egypt And Mohammed Ali,London, 1841,p.20

١١١- المصدر السابق ، ص ٢٣٧

١١٢- Milner, Alfred: England In Egypt,London,1904 ,p.299

١١٣- Silvera,Alain : The First Egyptian student Mission to France Under Muhmmad Ali, essayin, The Middle East Journal, 1980,p.1

* سافرت البعثة الأولى إلى إيطاليا عام ١٨٠٩، ثم تبعها عدة بعثات فى سنوات متفرقة، حول البعثات العلمية فى عهد محمد على، راجع، عمر طوسون: البعثات التعليمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول، وسعيد، الاسكندرية، ١٩٣٤ ،ص١٠-٤١٤ ،كذلك

- Jamal, M., A., op.cit., p.10

١١٤- أنور عبد الملك: نهضة مصر، ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ ،ص١٣٣

١١٥- Latfi,Al-Sayyid,Afaf: op cit., p.263

** وقد أستعنا بتوضيح ذلك بالقائمة الخاصة بأسماء المبعوثين فى البعثة الثالثة إلى فرنسا ١٨٢٦ التى تألفت معظمها من الأتراك والارمن، مع أقلية من المصريين، راجع عمر طوسون،ص ٢٦ - ٢٩ .

١١٦- أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم فى عصر محمد على، النهضة المصرية ١٩٣٨، د.ت من التقديم

١١٧- هنس رزنر: مصر فى عهد الأحتلال الأنكليزى،ط١، مصر ١٨٩٧،ص١٠

١١٨- أحمد زكريا الشلّق (د.) : رؤية فى تحديث الفكر المصرى الحديث "حسين المرصفى"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤،ص١٥-١٦

١١٩- - Gherson,R., op.cit.,p.459

١٢٠- - Silvera, A.,op.cit.,p.1

١٢١- - Safran,N.,op.cit.,p.32,And,Berger,M.,op.cit.,p.21

١٢٢- - Berger,M.,op.cit.,p.22

١٢٣- - Lutfi, Al-Sayyid,Afaf : Ashort History of Modern Egypt, Cambridge, 1990,p.60

١٢٤- يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق، ص ١٠٩ .

١٢٥- على محمد شلبى: المصريون والجندية فى القرن التاسع عشر،ط١، القاهرة ١٩٨٨،ص١٥-١٦

١٢٦- - Latfi, Al-Sayyid, Afaf (Marsot) Egypt In Reign., p.263

١٢٧- يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق، ص ١١٠ .

١٢٨- عبد العظيم رمضان (د.) : الجيش المصرى فى السياسة ١٨٨٢ - ١٩٣٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٧،ص٩

١٢٩- مصطفى عبد الغني: المؤثرات الفكرية في الثورة العرابية، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٢، ص١٩، كذلك - Wendell, ch.,op.cit.,p.117

١٣٠- على شلبى : المرجع السابق، ص٤٥،كذلك،عبد العظيم رمضان (د.): المرجع السابق،ص ١٠

١٣١- على شلبى :المرجع السابق ، ص ٣١

* انظر الفصل السابع من البحث.

١٣٢- طارق البشرى: الاطار التاريخى لموضوع الأقباط والوحدة العربية، مقالة فى المستقبل العربى، عدد (٣٠) ، فى اغسطس ١٩٨١،ص٨٣

١٣٣- يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق، ص ١١٠.

١٣٤- - Lutfi, Al.Sayyid,Afaf:op.cit., p.262

١٣٥- - Ghali, Mirrit, B., The Egyptian National Consciousness, essay in The Middle East Journal, Vol. 32, winter 1978

١٣٦- احمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ، ص ٢٨، كذلك - Holt,P.M.,op.cit.,p.180

١٣٧- - Richamond, J. C., B., OP.cit.,p.65

١٣٨- - Safran,N.,Op.cit.,p.33

١٣٩- أنور عبد الملك : المرجع السابق، ص ١٥٩

١٤٠- محمد عارف: عبر البشر فى القرن الثالث عشر،ج١،د.ت،ص ٢١

* ولد ونشأ فى دلتا مصر، وصل إلى إنجلترا ضمن أعضاء بعثته فى مطلع عام ١٨٣٠، عبد الخالق محمد لاشين (د.)، المرجع السابق، ص ٦٢

١٤١- عبد الخالق محمد لاشين (د.): المرجع السابق، ص ٦٠، نقلا عن

- Al,Besunee,H.,Egypt under Mohmmad Ali Basha

١٤٢- محمد صبرى : المرجع السابق،ص١٣٧

* آرثر هولرويد الذى زار مصر فى سبتمبر ١٨٣٦ ورحل منها إلى السودان، وأعد تقريرا تحت عنوان "مصر ومحمد على باشا ١٨٣٧" وتحدث فيه عن أختلال أوضاع الأمن فى مصر وضعف النظام التعليمى ... إلخ، حول تقرير آرثر Arthur، راجع : عبد الخالق محمد لاشين : المرجع السابق،ص٦٩-٧٠

١٤٣- نقلا عن نص المذكرة التى قام بترجمتها ودراستها دراسة علمية عبد الخالق محمد لاشين : المرجع السابق،ص٨٨.

١٤٤- عبد الخالق محمد لاشين (د.) : المرجع السابق ،ص ٧١

* * *

الفصل الأول
عصر رفاعة وبدايات الفكرة الوطنية

١ - رفاعة الطهطاوى والبحث عن هوية مصرية

٢ - حسين المرصفى وتحديد مفاهيم عصره

٣ - على مبارك ومحاولات التطبيق المبكرة

١- رفاعة الطهطاوى والبحث عن هوية مصرية:

يعد رفاعة رافع الطهطاوى، (١٨٠١ – ١٨٧٣) أحد الرموز الثقافية التى تولدت عن آثار تلك النهضة التعليمية التى غرسها محمد على، ولم يكن يهدف من ورائها الى ايجاد فئة مصرية مثقفة تبحث عن هويتها وذاتيتها المصرية، من بين الأقطار التابعة للدولة العثمانية، تلك الفئة التى قادت التيار الثقافى الجديد فى البلاد.

ونظراً الى أن شخصية الطهطاوى قد تم تناولها فى أبحاث *عديدة سابقة، ومن زوايا مختلفة، إلا أننا سوف نتناول هنا الدرجة التى تأثرت بها شخصية رفاعة نتيجة احتكاكه بالثقافة الاوربية عن كثب، وكم التغيرات التى حولت من آرائه وأفكاره ذات الصبغة التى استندت على التعليم الازهرى، بما كان يغلب عليه من الطبيعة الدينية البحتة، وإلى أى مدى ساهمت فى بلورة تكوينه الثقافى، الذى سوف ينعكس بالضرورة على نشاطه فى مجال البحث عن هوية ذاتية لمصر الوطن.

كان من البديهى أن تكون بعثته إلى أوربا أول لقاء واحتكاك له بالمؤثرات الغربية الحديثة على أرض الثورة الفرنسية، ومن ثم مهدت الطريق أمامه لكى يستوعب تلك الحضارة الأوربية الحديثة – إذا شاء – ويحمد لرفاعه أنه لم يجرفه

تيار الابهار بالغرب الأوربى إلى حد أن يتملك عليه نفسه، بل وقف فاحصاً مدققاً ناقداً للحياة الفرنسية (١).

وتشير الدراسات التى تناولت انعكاسات العلوم العصرية على شخصية رفاعة بأنه (بقى مصريًا بدينه وقوميته) (٢)، وإن كنا نسوق تلك المقولة بقدر من الحذر، المبنى عل عدم حدوث آثار سلبية مست الجانب العقائدى لأفراد البعثة الأولى، بل وما تلاها من بعثات - بالطبع نخص العناصر المسلمة فيها - ومن جهة أخرى كذلك نشير إلى عدم قبولنا استخدام اصطلاح "قومية" فى تلك الفترة المبكرة، نظراً الى عدم نضوج تلك الفكرة رغم شيوعها فى المؤلفات التاريخية التى تتناولها أيامها وهذا ما نحاول إثباته بتتبع فكرة وظهور واكتمال القومية المصرية عبر بحثنا هذا.

ولعل ذلك راجع إلى أن رفاعة قد تميز بعقلية متفتحة قادرة على التفاعل مع الغير، فلم تقف جامدة أمام ألوان الثقافة الأوربية الحديثة التى ارتآها لأول مرة فى باريس.

ودليل على استيعاب رفاعة لتطورات الفكر السياسى عند الأوربيين (٣) فى ظل عقليته الشرقية - كتابه الذى إعتبر ثمرة رحلته الى الغرب المتقدم - "تخليص الابريز فى تلخيص باريز" الذى قدمه الى لجنة الامتحان النهائى عام ١٨٣٠ فى باريس، واعتبر أول كتاب فى أوربا يتناول بالدراسة اوضاع العالم العربى الحديث(٤).

فقد كانت خلاصة كتابه السابق هى تناول مبادئ الثورة الفرنسية أمام تيار الوطنية المصرية النامى مع توالى ارسال البعثات إلى الدول الغربية وذلك عن طريق طرح وتبسيط النظريات السياسية الحديثة التى عمت الفكر الأوربى على العقل المصرى، ومن هنا يمكن القول أن رفاعة قد استفاد من عملية تحديث مصر بتدوين انطباعاته فى باريس فى هذا الكتاب (٥).

فعلى سبيل المثال أشار الطهطاوى الى الثورة الفرنسية بقوله {... وقد سبق للفرنساوية أنهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل، ثم صنعوا جمهورية، وأخرجوا العائلة السلطانية المسماة "البربون" من مدينة باريس وأشهروهم مثل الأعداء ولازالت الفتنة باقية الأثر إلى سنة ١٨١٠ ميلادية ...}(٦)، ألم تكن تلك الاشارة ايحاء لمحمد على فيما بعد كى يستفيد منها لخدمة أهدافه التوسعية والاستقلالية؟. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن رفاعة بهذه المقولة قد أتاح لمحمد علي - مع مضى الوقت - الاطار النظرى للتخلص من قيود الولاء السلطانى للدولة العثمانية، والمبنى أساسًا على الاستفادة من تجربة الشعب الفرنسى.

والجدير بالذكر أن رفاعة أكد على الفكرة الاستقلالية أكثر من مرة، اذ كان يوحى إلى المصريين وإلى محمد على بالتخلص من نير السلطان العثمانى، بل أنه ذهب إلى التنبؤ بقرب سقوط الدولة العثمانية ويتضح ذلك من قوله {...وبلاد العثمانية آيلة إلى انحلال نظامها وتشتت شملها} (٧).

من جانب آخر، مثلت حركة التعريب ـ التى سلكها رفاعة تجاه جريدة الوقائع المصرية (٨)- بدورها نوعا من انفصام العرى بين مصر والدولة العثمانية، انفصاما يؤكد خصوصية مصر وسعيها الدؤوب وراء التقدم والعمران.

وفى تقديرنا أنه كان انفصامًا سياسيًا، وليس دينيًا، فقد رأى رفاعة فى محمد على وأسرته مقدرة على الاستقلال بولاية مصر اداريًا، وهى نفس الاهداف التى سعى اليها محمد على، وبالمقابل لم يع رفاعة أكثر من ذلك، فقد ظلت صورة الخلافة الاسلامية بما تحويه من رابطة دينية ماثلة أمام عينيه، لم تغيرها نظرة الاعجاب للغرب الأوربى.

ولكنه فى نفس الوقت، تفاعل تفاعلا ايجابيا مع بعض المؤثرات الفرنسية، ومن بينها ترجمته للقصيدة الفرنسية *La Marseillais* بما تحويه من مبادئ

تحض على الثورة، والإطاحة بالنظم الاستبدادية للقضاء على الطغيان (٩)، وبهذا يكون رفاعة قد حطم قيود وحواجز كانت تظهر الى ذلك الحين عند المقابلة والتناظر بين صور الأدب فى الشرق مع أدب المقاومة والثورة فى الغرب (١٠)، هذا من وجهة النظر الأدبية.

ومن جانب آخر، ذهب البعض الى القول أنها تمثل هجوما مستترا على أسرة محمد على وتسلطها، مرجعا السبب فى ذلك الى {أن النشيد يحكى نفس المحنة التى يتعرض لها وطنه – محنة تسلط أسرة أجنبية على مقدرات الوطن} (١١)، ومن يطلع على هذه القصيدة تصيبه الدهشة من أول وهلة ويؤيد ذلك التفسير.

ولكن لم يكن فى مقدرة رفاعة – فى ذلك الوقت – أن يشن هجومًا على ولى نعمته، وصاحب الفضل فى رحلته إلى باريس، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن رفاعة كان ينظر إلى أعمال محمد على وإصلاحاته فى مصر باستحسان شديد، لما مس أحوال البلاد من تقدم وعمران على يديه، اذ يقول : {... ولا يتأتى لانسان أن ينكر أن الفنون والصنائع الغربية بمصر قد برعت الآن فما أنفقه الوالى على ذلك كان فى محله أتفاقا ... وقد سارع (الوالى) فى تحسين بلاده...} (١٢)

وتشير الآراء السابقة لرفاعة أنه كان شديد الاعجاب بشخصية محمد على ففى موضوع آخر قال [كان وحيد زمانه فى جميع أوصافه وفريد أوانه فى عدله وانصافه] (١٣) كما يتضح لنا عندما نضيف للرأى السابق أن محمد على هو مؤسس مصر الحديثة وأول من اهتم بأن يضع لها اطارًا منفصلاً عن الدولة العثمانية، ولهذا نستبعد أن يكون ترجمته للمارسلييز نابعة من شعور دفين يهدف الى التخلص من هذه الأسرة الحاكمة لكونها أجنبية على البلاد، ودليل ذلك أنه لم

توجد فى كتابات رفاعة أية إشارات إلى بدائل مصرية يقترح أن تتولى حكم نفسها بنفسها بدلاً من أسرة محمد على (١٤).

فضلاً عن أن رفاعة لم يشكك فى شرعية أسرة محمد على سواء من خلال اعتبارهم الورثة الشرعيين للفراعنة، أو باعتبار محمد على امتداداً معاصراً للخلفاء الاوائل الذين أسسوا الحضارة الإسلامية، بالاضافة إلى أنه اعتبر هذه الأسرة بعد وصولها للسلطة المباشرة قد أحرزت مكانة عالية(١٥)، باعتبار محمد على لعب دوراً حضارياً فى النهوض بمصر من عثرتها فى محاولته، لتحديثها وتمدينها.

ويؤكد ما سبق أن البعثات المصرية قد ذهبت إلى أوربا بوصفها مصرية، فكان ذلك العالم الفرنسي جومار الذى وجه حديثه الى اعضاء البعثة المصرية بكلمات تثير الروح الوطنية، حيث وضع يديه على مواطن الداء، من خلال تأكيده على مصريتهم التى ظهرت فى إنابتهم عن مصر، وشرح لهم سبل النهوض بها، { وأنتم جميعكم شعرتم وتشعرون كل يوم بعظم ما أرسلتم من أجله ... مصركم تضاهى فى ذلك فرنسا فى أوائل هذا القرن ... أنكم منتدبون لتجديد وطنكم التجديد الذى سيكون سببا فى تمدين الشرق بأسره .... أمامكم مناهل العلم فاغترفوا منها بكلتا يديكم .... وبذلك تردون الى وطنكم منافع الشرائع والفنون التى ازدان بها عدة قرون .... فمصر التى تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية . وفرنسا التى تعلمكم وتهذبكم تفى ما عليها من الدين الذى للشرق على الغرب كله} (١٦)

لا نبالغ عندما نقول أن هذه الكلمات كان لها وقع السحر على عقول أعضاء البعثة، ولكن الذى نستطيع أن نستشفه أن رفاعة كان له نصيب فى الإحساس بهذه العبارات وفهمها وادراك المعانى وراء هذه الكلمات، ومن هنا اعتبر رفاعة ثمرة من ثمرات بعثة الطلاب الى فرنسا، ورائد للشعور الجديد بهوية

وطنية(١٧)، ودليلنا على ذلك أنه كان ضمن كوكبة من ظهرت لديهم بدايات وعى، وقد تجلى ذلك من خلال عقده المقارنات بين الحياة الاوربية والحياة المصرية، ووقوفه بين الإثنين موقف الناقد الفاحص، بالاضافة إلى تفرده بحرصه على نقل حضارة أوربا إلى وطنه عن طريق ترجمه الكتب الفرنسية إلى العربية التى كانت شغله الشاغل، وبهذا يكون رفاعة قد مثل استجابة لمؤثرات الحضارة الأوربية فى إطار ما يناسب المجتمع المصرى.

صفوة القول، أن رفاعة نجح فى تقريب صورة الغرب الأوربى أمام العقل المصرى، بفضل القدر الذى أتيح له من الثقافة الاوربية، ومن خلال توسيع ثقافته التقليدية، وبما يتمشى مع ثقافته الإسلامية (١٨)، وبذا قد يكون تمكن من وضع المعالم الأولى لمنهج ثقافى جديد، ذلك المنهج الذى يجمع بين الثقافتين فى آن واحد(١٩)، وبهذا يكون رفاعة نموذجًا للرجل المثقف الحديث(٢٠) الذى خلق بفضل الدور الحضارى الذى لعبه محمد على.

مما سبق يمكن القول أن الاحتكاك بالحضارة الأوربية كون لديه نوعا من الوعى الثقافى انعكس على كونه أول من تعرض إلى تفنيد فكرة الوطنية التى نقلها إلى مصر عن الغرب الأوربى.

فمن المتفق عليه، أنه لم تكن هناك رابطة تنطق بها الألسنة سوى رابطة (الملة) التى كانت تعنى رابطة الدين فى وقت انعدمت فيه "الرابطة الوطنية" أو "القومية"(٢١) آنذاك – بما كانت توحى به تلك الرابطة من إمكانية ظهور اتجاه جديد يفهم منه أنه خروج وانفصال عن روح الوحدة التى تسود الدولة الاسلامية أو المجتمع الإسلامى عامة، بما تؤول إليه من احداث تقسيم وتشخيص لمسميات لاقطار ودول متفرقة.

ومن هنا يرجع الفضل إلى رفاعة الطهطاوى فى البحث عن العناصر الاساسية التى تبنى فى اطارها فكرة الوطن، حيث يقول : (الوطن هو عش

الانسـان الذى فيـه درج ومنه خـرج ومـجـمـع أسـرتـه ومـقـطـع سـرتـه)(٢٢) ولم يكتف بهذا الوصف بل ذهب الى الترغيب فى الوطن : {فإن حب الوطن من الايمان ومن طبع الأحـرار احـراز الحنين الى الاوطان ومـولد الانسـان على الدوام مـحـبـوب ومنشؤه مألوف له ومرغوب) (٢٣).

وقد أدرج رفاعة تلك المقولة تحت عنوان "مقدمة وطنية مصرية" ذلك المؤلّف الذى اعتبر أول كتاب من نوعه فى مصر فى الوطنية المصرية (٢٤)، ومن هنا لنا وقفة حول ضرورة التوصل إلى معرفة مكانة ومركز مصر بالنسبة لرفاعة، فى الواقع أنهـا الوطن الذى داوم رفـاعـة على وصـفـه وترديد عـبـارات الحب وهو"مصر"(٢٥)، وإن كان قد أنكر عليه البعض أن يكون قد حدد الوطن فى كتاباته بمصر(٢٦).

رغم ذلك فإنه عندما وصف مصر بأنها وطنه العام، وخص بلدته طهطا بأنهـا وطنه الخـاص قد قطع الشك باليـقـين حـيث قـال : {فإنى وإن ألبسـتنى المحروسة نعما ورفعت لى بين أمثالى علمًا وكانت أم الوطن العام وولية الآلاء والانعام ... وأحبها حبًا جمًا لأنها وليه النعماء... فما زلت أتشوق الى وطنى الخصوصي وأتشوف وأتطلع إلى أخباره السارة وأتعرف ولا أساوى بطهطا الخصيبة سواها فى القيام بالحقوق وإكرام مثواها}(٢٧).

كما يلجأ فى موضع آخر، الى ذكر مزاياها ومحاسنها اذ يقول : (قد تحقق فى مصر اسمها بالمعنى المتعارف اكثر من غيرها ... وما ذاك الا لحسن موقعها العجيب الذى أسرع فى أتساع دائرة تقدمها فى التأنس الانسانى والعمران وأحرازها أعلى درجة التمدن من قديم الزمان.... } (٢٨)، وقد سعى ايضا الى ترسيخ مفهوم مصر كأمة متميزة حضاريًا منذ القدم فى قوله :(... إن مصر اشتهرت فى جميع الاعصر والقرون وكانت فى زمن الفراعنة معاصرة لأعظم ممالك الدنيا)(٢٩) ألا يكفى ذلك دليلاً يبين افتخار الطهطاوى بوطنه المتفرد

عن سائر الاقطار الأخرى - مصر - بل لقد نُعِتٍ مَصر بأنها "أم الدنيا" فى وقت مبكر من بنيانها الحديث، (فإذا أبدينا محاسن أم الدنيا والنعمة التى هى كناية الله فى أرضه ظهر لنا أنها تعد أول وطن من أوطان الدنيا يستحق أن تميل اليه قلوب بنيه وأنه أحق أن تحن اليه نفوس مفارقيه من ذويه) (٣٠) .

وقد مزج رفاعة بين حب الوطن وبين السعى من أجل تمدنه، فكيف يتأتى لإنسان يحب وطنه فى ألا يسعى إلى تمدنه، (وارادة التمدن للوطن لاتنشأ إلا عن حبه من أهل الفطن)(٣١)، وإذا كان ذلك رأى رفاعة الذى نادى به الا أنه قد يُعد ثوباً فضفاضاً، قد يجور على ما كان يقصده بالفعل من تحديد المصريين الذين يأملون فى نهضة بلدهم، كما أننا نصفه بأنه فضفاض لأنه قد ينطبق اذا ما نظرنا إلى أعمال محمد على فى مصر تلك التى غلب عليها تحقيق المصلحة الشخصية أكثر مما تعبر عن حبه للوطن.

قياسًا على ما سبق، يمكن ارجاع هذه النزعة الوطنية لدى رفاعة الى سببين، **أولهما** : إحساسه بالغربة عن بلاده فى أثناء بعثته، جعله يهيم بوطنه مصر عندما يكتب عنها، بالاضافة إلى نظرة الغرب له ولزملائه بأنهم "المنتدبون لتجديد وطنهم" مما جعله اكثر ارتباطًا بمفهوم الوطن والعمل على اصلاحه وتمدينه.

ثانيهما : كان نتيجة حتمية لاتصاله بالحضارة الأوربية، فى وقت كانت فيه أوربا - وعلى الأخص فرنسا - تموج بالثورات القومية، ولعل ذلك ما شجعه على البحث عن كيان متميز لبلده يرفعها إلى مصاف تلك الممالك، خاصة وأن مصر لديها ما تضاهى به أوربا.

وقد سلك رفاعة عدة طرق فى محاولة منه لتثقيف وتهذيب أبناء الوطن، حتى لا تقتصر الاستنارة على الأتراك الجراكسة - كما كان يحلو لمحمد على أن يفعل - ولعل ذلك ما ظهر جليًا فى إنشاء مدرسة الألسن تحت قيادته - فى أول

أمرها ـ اذ حشد خمسين مترجمًا من أبناء الوطن (٣٢)، وقد لعبت تلك المدرسة دورًا رئيسيًا فى تشكيل الرأى السياسى فى مصر، وبنطاق أضيق بالنسبة للأقطار العربية الأخرى (٣٣).

وقد اقتصر النشاط الثقافى لهؤلاء المترجمين فى المجتمع المصرى على جهاز الدولة، إذ أصبحوا أداة فى يد الحاكم، من خلال رغبته فى توجيه جهودهم لسايرة مشاريعه النهضوية (٣٤)، ولعل ذلك كان سببًا فى بطء عملية تطور فكر المجتمع المصرى ـ لبعض الوقت ـ عن اللحاق بالفكر الاوربى، حيث ارتبطت هذه الصفوة المثقفة برغائب ولى النعم وسياساته الموجهة.

ناهيك عن شعب لم يصل بعد الى درجة من الوعى تؤهله لاستيعاب الافكار الجديدة التى أتى بها رفاعة، بالاضافة الى مؤلفاته التى كانت لها التأثير المحدود، فمحمد على عندما قرأ (تخليص الابريز)، أمر نظار المدارس بقراءته على طلابهم(٣٥)، فيما عدا ذلك فإن مؤلفات رفاعة لم تصل إلى أيدى العامة، حتى التى وصلت منها، نرجح أنهم رأوا فيها صورة الأزهرى الذى جرفه تيار الغرب فيكتب عنه، ولم يقرؤها بدافع الرغبة فى اللحاق بالعالم الغربى المتقدم.

على أى الأحوال، فإن رفاعة بجهوده فى مجال الترجمة، اعتبر أول مصرى فكر فى نقل وشرح الثقافة الأوربية إلى الشعوب الإسلامية وبنجاح(٣٦).

لقد وعى رفاعة ضرورة تربية – أبناء الوطن – ممن سيقع على كاهله عبء حمل مشعل النهضة المصرية – ومن أجل ذلك ساهم بعملين أضاءا الطريق أمام الجيل الجديد أولهما: المرشد الأمين للبنات والبنين، ذلك الكتاب الذى كان مخصصا للمطالعة فى المدارس، والذى اعتبر درسا فى التربية الوطنية فى القرن التاسع عشر.

ومن منطلق حرص رفاعة على مناشدة المربين بأن يغرسوا الوطنية فى نفوس طلابهم (٣٧)، يكون رفاعة قد ساعد على تشكيل الفكر السياسى

للمصريين (٣٨)، حيث ركز على ضرورة إدخال الممارسات التعليمية الجديدة فى تعليم وتربية النشء، من حيث قدراتهم كأفراد على تزويد أنفسهم بعوامل البقاء، إلى جانب اظهار قدرتهم فى استكمال اللغة وأساليب التفكير السليمة ولن يتأتى ذلك الا من خلال الممارسة والتجربة المستمرة (٣٩).

فكان من البديهى أن يمارس رفاعة فى كتابه المرشد الأمين، خطوط فكرة واضحة المعالم، ترمى إلى خلق الوطنى الصالح الذى ينفع أسرته ووطنه (٤٠)، من خلال الاطار العام الذى سوف تدور فى فلكه العلاقة بين أبناء الوطن ووطنهم حتى يصلوا به إلى أعلى المراتب، وهذا أشار إليه فى قوله: (أن الله سبحانه وتعالى انما أعدهم للتعاون على اصلاح وطنهم وأن يكون بعضهم بالنسبة الى بعض كاعضاء العائلة الواحدة فكأن الوطن انما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ومحل مرباهم)(٤١)، مع التأكيد على ضرورة اتحاد عناصر الأمة حتى يضمن استقرار وسعادة الوطن، فلا ينبغى أن تتشعب الأمة الواحدة إلى أحزاب متعددة بآراء مختلفة لما يترتب على ذلك من التشاحن والتحاسد والتباغض) (٤٢).

وانتقل رفاعة بعد ذلك الى تحديد بمن يعنى ابن الوطن بأنه "المتأصل به" أى المولود فيه، (أو المنتجع اليه الذى تواطن به واتخذه وطناً) (٤٣)، اى اعتبر الوافد ايضا ابنا من أبناء الوطن طالما توطن فيه، وقد أطلق رفاعة على أبناء الوطن أسماء مختلفة (ينسب إليه تارة الى اسمه فيقال مصرى مثلاً أو إلى الأهل فيقال أهلى أو إلى الوطن فيقال وطنى)(٤٤).

ولكنه فى نفس الوقت لم ينس تحديد العلاقة بين الوطن والمواطن التى يمكن أن يطلق عليها بأنها "علاقة شبه تعاقدية" (٤٥)، ترتكز فى المقام الأول على أن تتم تأدية الحقوق من كلا الطرفين، دون الاخلال بذلك {فصفة الوطنية لا تستدعى فقط أن يطلب الانسان حقوقه الواجبة له على الوطن بل يجب عليه أيضا أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه} (٤٦).

كان "المرشد الأمين للبنات والبنين" محاولة جادة من قبل رفاعة، يقنع لها الطلاب المصريون للاستمتاع والافادة قدر المستطاع، حتى ينشأوا على حب المعرفة الادبية، ويكونوا بذلك ثمرة طيبة فى المجال الثقافى، فقد بذل جهدا كبيرا حتى يغرس فى الطلاب المصريين الميل نحو الاشتراك فى الحياة الثقافية(٤٧).

صفوة القول أن رفاعة قد حقق مكانة عظيمة، تجعلنا نعترف بما لاشك فيه بتفرده المتألق (٤٨) إذ حشد تحت عباءته جيلاً تطلع من خلاله إلى مستقبل أفضل، فأخذ ينفخ فى روحه الوطنية حتى يثير حماسته ويستيقظ وعيه، آملا بأن يكونوا أكفاء لمهمة تمدين الوطن.

ثانيهما "مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية" الذى كان مزيجا من المعلومات بين وصف لجغرافية مصر، وعرض لتاريخ العرب، وتناول تاريخ مصر منذ الفراعنة، مروراً حتى محمد على ... الخ (٤٩)، ومن هنا لم يستخدم كتاب المناهج على أنه أشارة أولى لرؤية وطنية حديثة للأمة المصرية تماما، لكن هناك سبب آخر هو أنه يعكس صورة واضحة لتحطيم القيود السابقة لجيل تام قبل الطهطاوى متعلق بالثقافة الإسلامية (٥٠)، ومن ثم أحدث "المناهج" أعظم تأثير مستقل للحياة الفكرية فى مصر فى القرن التاسع عشر(٥١).

وقد اعتبره رفاعة أداة من أدوات تربية الجيل الجديد فأدمجه فى المنهج الدراسى، إذ أصبح من كتب القراءة لتلاميذ المدارس المصرية وقتئذ، كما أعتبر أيضا أساس الحركة الثقافية الجديدة فى مصر، ونموذجا للدراسات العربية الحديثة التى تتعلق بفكرة القومية، نظراً لما يشتمل عليه أيضا من نظرة مثالية جديدة لمصر(٥٢).

لقد أظهر المناهج مكانة مصر المتفردة، بأرضها وشعبها، وركز على مصر الوطن، التى كتب المناهج من أجل خدمتها، اذ بتتبعه لمراحل التطور الذى مس

مصر، يعبر عن إحساس بالزهو لما طرأ عليها من تمدن وعمران، ومن هنا يمكن اعتبار "المناهج" بشكل جوهرى بحثًا فى التقدم الوطنى (٥٣).

وقد مثلت "روضة المدارس" محوراً فى نهج رفاعة، اذ كانت المقالات التى تنشر على صفحاتها تتفق مع وجهة نظره التربوية(٥٤)، بنقل المعارف العمومية إلى مصر لكى يستفيد بها أبناء هذا الوطن، {فهذه الصحيفة تتكفل ان شاء الله تعالى بإنتشار أنوار العرفان بين كل محب لاقتباس العلوم من أبناء الأوطان لينتفع بها كل متولع بالاستضاءة بمصابيح المعارف المستحسنة من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وعلى الخصوص أبناء المدارس المستظلين بظلالها} (٥٥).

ولقد انصبت السياسة المتبعة فى «روضة المدارس» حول نشر المعارف فى سائر أنحاء مصر، فعلى سبيل المثال، يكتب محمد قدرى على صفحاتها تحت عنوان (رسالة جليلة فى التمدن)(٥٦) بالاضافة الى تضمنها لمقاولات عديدة لرفاعة يحث فيها على الافتخار بمصر شعرا، ويمدح فيها الخديو اسماعيل لما له الفضل على تقدم البلاد وتمدنها اذ يقول:

فقد غدت مصر به بغداد   بل عصر مصر فى العلوم ازدادا

جمال باريس وزهو لندره   سرى بمصر عن غنى ومقدرة (٥٧)

وقد ركز أيضًا فى مقالاته وأشعاره على صفحاتها على حث الشباب على النهل من ألوان المعارف المختلفة، ليساعدوا فى تقدم وعمران وطنهم، وقد أفسح صفحات المجلة للعديد من الأشخاص المساهمين فى نهضة مصر (٥٨).

لم يكتف رفاعة بالحث على تمدين الوطن باتباع طريق الكتابة فقط، بل تغنى أيضًا بحب الوطن حتى نعت بأنه رائد الشعر الوطنى (٥٩). ودليلنا على ذلك هذه النماذج(٥) من شعره الوطنى، الذى كتبه من نفس تجيش بالاعتزاز

والافتخار بمصر، لذا نلمس روحه الوطنية تنبعث فى مواضع عديدة من قصيدته التى قدمها بقوله "وقلنا أيضا وطنية".

صاحِ حُبُّ الوطنِ   حِلْيَةٌ كلَّ فَطِنِ
محبةُ الأوطان   من شعب الايمان
فى فخر الاديان   آية كل مؤمن

وفى موضع آخر يشيد بمصر حيث يقول:

ومصر أبهى مولدٍ   لنا وأزهى محتد
ومربعٍ ومعهدِ   للروح أو للبدن (١)

ولقد نحى رفاعة بشعره الوطنى منحًا وطنيًا من أجل ايقاظ الهمم والحث على النهوض بالوطن (٦٢)، فالشعر لغة حوار يؤثر إيجابيا فى النفوس البشرية المتطلعة إلى الأفضل وهو النمط الأقرب آنذاك لطبقات المجتمع المصرى المختلفة.

وتنقل رفاعة فى شعره بين المدح والمفاخرة بكنزين هما أحق ببعضهما البعض أرض مصر وأميرها(٦٣)، وبحكم روحه الوطنية لم يغفل رفاعة الدور الحضارى الذى قام به الجيش المصرى، لذا خاطب الجندى الذى وصفه فى شعره قائلا:-

يا جند مصر لكم فخار   بين الورى عالى المنار

وفى موضع آخر:

لنا فى الجيش فُرسان   لهم عند الَقا شانُ
وفى الهيجاء عنوان   تهيم به صواهلنا(٤)

مما سبق يمكن القول بأن الأناشيد الوطنية التى كتبها رفاعة عبرت عن مدى حبه لبلده، كما نلمس من خلالها حسه المبكر الذى انطلقت منه تلك الاناشيد

فى حب مصر دون النظر الى الانتماءات الاخرى التى تتسع بأصولها لتشمل سواء الدولة العثمانية أو المجتمع الاسلامى عامة.

غير أن الأستعراض السابق لمؤلفات وكتابات رفاعة يشير إلى ظاهرة الخلط التى أصابت المحاولات الباحثة عن تحديد نظرة ومنهج رفاعة عندما يحاول تحديد سمات وطنيته وكيف أنه يراها من زاوية مختلفة عما فى كتابات مفكرى الغرب، ونلمس ذلك جليًا من مقارنته بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى إذ يقول {وما يتمسك به أهل الأسلام من محبة الدين والتولع بحمايته مما يفضلون به عن سائر الأمم فى القوة والمنعة يسمونه محبة الوطن على أنه عندنا معشر الاسلام حب الوطن شعبة من شعب الايمان وحماية الدين مجموع الأركان فكل مملكة إسلامية وطن لجميع من فيها من الاسلام فهى جامعة للدين والوطنية فحمايتها واجبة على بنيها من هاتين الحيثيتين وانما جرت العادة بالاقتصار على الدين لقوة أهميته مع إرادة الوطن وقد تكون الغيرة على الوطن الخصوصى محضة لمجرد الجنسية والمنزلية كالقيسى واليمانى والمصرى والشامى} (٦٥).

لقد جعل من العالم وطنًا عامًا، وكل مملكة فيه جعلها وطنًا خاصًا، ولكن الذى يشد الانتباه هنا قوله "لمجرد الجنسية" فانها تقودنا إلى أمر هام، لقد استطاع رفاعة فى تلك البدايات المبكرة العثور على سبب لترابط أبناء الوطن الخصوصى، عندما يستخدم لفظًا ربما كان ظهوره يعد أول سابقة فى المؤلفات العربية وقتذاك ونعنى به "الجنسية".

وعندما يتطرق رفاعة بالاشارة إلى القيسى واليمانى والمصرى والشامى يكون قد وضع الاطار الذى يفصل بين إقليم وآخر، فمصر بالنسبة له أقليم يتميز بخصائص تجعله متفردًا، فالوحدة الإقليمية عمت الشعور بالرغبة فى خلق هوية ذاتية جسدت فى العربية فى لفظ "وطن" (٦٦)، ومن هنا كانت رؤية رفاعة بوجود أمة مصرية متميزة عن جسم العالم الإسلامى(٦٧).

هذا على غير ما كان يرمى اليه مفكرو الغرب بأن رفاعة كان لديه شعور بقومية مصرية (٦٨)، ذلك الشعور الذى يستبعد دور العقيدة من اطار مفهوم الوطنية.

وقد يؤخذ على الطهطاوى عدم تعرضه بالكتابة عن عناصر المجتمع ـ المعاصرين له ـ وحول تصورهم للوطن والوطنية (٦٩)، لذا يمكننا من زاوية أخرى الحسم بالنتيجة التى مؤادها أن رفاعة من خلال كتاباته واستحداثه ألفاظ ومصطلحات جديدة إنما كانت بمثابة انعكاسات قراءاته الواسعة على ذاته وحده دون المجتمع.

مما سبق يمكن القول، أن فكرة الوطنية تناثرت من خلال مؤلفات رفاعة، لذا يسهل الحكم عليه بأنه (أول مفكر مصرى ... نعثر لديه على البدايات الجنينية لفكرة الوطنية المصرية)(٧٠) تلك الفكرة التى سوف تحتاج الى المزيد من الوقت لكى تتبلور، وتصبح أكثر نضوجا، على أيدى سلسلة متعاقبة من المفكرين كل يعمل من جانبه ويساهم فى توسيع وتعميق، بل وإيجاد فكرة الوطنية المصرية لدى الشعب المصرى.

* * *

٢ - حسين المرصفى وتحديد مفاهيم عصره

أسـهم الشـيخ حـسـين المرصـفى* (١٨١٠ - ١٨٨٩) ، فى رسم صـورة بسيطة لمصطلحات ذلك العصر الذى عاش فيه، وذلك من خلال تأليف كتاب تحت عنوان "رسالة الكلم الثمان" وهـو دراسة لبعض (كلمات جارية على ألسنة الناس لهـجوا بذكـرها فى هذه الأوقـات كلفظ الأمة والوطـن والحكومـة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية)(٧١)، فقد لمس الشيخ المرصفى بوضوح الاحتياج إلى شرح مفصل يشير الى تلك المصطلحات الحديثة (٧٢)، والتى ظهرت فى المجتمع المصرى آنذاك.

ومن ناحـيـة أخـرى، تناول الكتـاب الأوضـاع السـيـاسـيـة داخل المجـتـمع المصرى، الذى كان يموج بأفكار ومفـاهيـم سـيـاسـيـة خـاطئـة، لذا كان الموضـوع الرئيسى لذلك المؤلف هو ضرورة ايجاد مفاهيم محددة لاستخدام هذه الكلمات الثمان (٧٣)، ومن ثم اعتبار هذا الكتاب بمثابة مبحث فى العلوم السياسية، من منطلق سعى المرصفى إلى تربية الوجدان السياسى الوطنى للشباب وقتئذ(٤).

توحى لنا رسـالة "الكلم الثمـان" بمدى تغلغل التـأثير الفرنسى على عـقلية المرصفى ـ الشيخ الأزهرى ـ وإن كان بطريق غير مباشر، فإنه لم يحتك مباشرة بالمجتمع الفرنسى ـ كما كان الحال عند رفاعة - ولكنه استطاع الالمام بالثقافة الفرنسية من خلال تعلمه اللغة الفرنسية، ومن ثم تكون لديه وعى بأهمية الاطلاع

على الحضارة الأوربية الحديثة، ولن يتم ذلك إلا من خلال التوصل الى وسيلة للتخاطب، ومن ثم كان مسعاه فى حث تلاميذه على تعلم اللغات الأجنبية(٧٥).

واقع الأمر أن المجتمع المصرى وقت إصدار ذلك الكتاب ١٨٨١ – ١٨٨٢ كان يموج بتيارات فكرية وثقافية عديدة – وهذا ما سوف نتناوله فى الفصول التالية– ومن ثم يمكن إعتبار هذا الكتاب نتاج تلك المرحلة التاريخية من عمر النهضة المصرية، بالاضافة إلى أنه يمكن اعتباره امتداداً طبيعى لفكر رفاعة الطهطاوى الرامى لتأصيل مفهوم الوطنية فى عقول الشعب المصرى.

سلك المرصفى – كغيره من مثقفى عصره – طريق العمل على نهضة المجتمع المصرى بكل السبل، لذا عرض فكرة الاصلاح الاجتماعى ونظم الحكم السليمة التى يجب أن تحكم من خلالها البلاد(٧٦)، ومن ثم جاء صدور كتابه مواكبا للاحداث التى صحبت الثورة العرابية، اذ أبدى تعاطفة مع تلك الحركة، وان لم يخل تعاطفه ذلك من الضرورة التى يجب على هؤلاء من اسداء الحذر والانتباه لامكانية فشلهم وفشل الاهداف الوطنية التى سعوا إليها إذا ما تفرقت صفوفهم (٧٧)، إلى جانب أنه ربط بين تدهور الحضارة الاسلامية فى الماضى وبين حياة البذخ والرفاهية التى عاشها هؤلاء الحكام المسلمون مما تسبب فى انتشار الفساد بين كافة أفراد المجتمع فى مصر، ومن هنا كان تأكيده على ضرورة اصلاح المجتمع من كافة وجوه الفساد الذى تعتريه(٧٨).

يعد المرصفى ضمن سلسلة من الطلقات المتشابكة تمهد الطريق لتحقيق قدر من الاستنارة والوعى لدى الوطن، لقد حمل على عاتقه مهمة تربية الاجيال الناشئة، ومن خلال موقعه كمعلم حاول خلق جيل مستنير يعى متطلبات عصره ومستلزمات وطنه.

لقد وعى المرصفى فى ظل الحياة السياسية تلك، محاولة الجماعات الخاصة استحداث واستخدام معانى وفق ميولهم ورغباتهم من منطلق أن هذه

الألفاظ تتسم بالمرونة من حيث أن هذه الكلمات عرضة لاساءة الاستخدام واساءة التفسير، وبهذا الاتجاه يمكن اعتبار أن المرصفى قد استجاب وتفاعل مع أحداث مجتمعه مثل أحداث الثورة العرابية، بوضع الحدود الدقيقة لاستخدام مثل هذه الكلمات (٧٩).

وبعد عرض ملابسات ظهور رسالة الكلم الثمان، سوف نركز اهتمامنا على لفظين من تلك الرسالة وهما ما يخصان موضوع بحثنا، أولهما : الامة، حيث يشير المرصفى إلى الأمة بقوله {جملة من الناس تجمعهم جامعة وهى بحسب الاستقراء اللسان والمكان والدين} (٨٠)، أى أنه جعل من اللغة والمكان والدين مقومات بناء الأمة، ولم يشترط اجتماع تلك المقومات فى الأمة الواحدة، ومن هنا أخذ على عاتقه مهمة تعديد مزايا كل مقوم، فيشير إلى أن {الأمة بحسب اللسان فهى أسبق استحقاقا لهذا الاسم وهو بها أليق} (٨١) وبهذا يفضل وحدة اللغة على ما سواها.

أمام هذا القول، سيتوقفنا وجهة نظر المرصفى الى مصر بإعتبارها أمة واحدة على أساس وحدة اللغة، فإذا نظرنا بدقة نلحظ تعدد الألسنة داخل المجتمع المصرى وقتئذ، ما بين العربية والتركية وغيرها، فالأسرة الحاكمة نفسها تتحدث التركية، ويفصل بينها وبين عامة الشعب وخاصتة هوة سحيقة من الارث الحضارى.

فمن المعروف أن اللغة ليست وسيلة للتخاطب فقط، بل هى بمثابة الجسر الذى من خلاله يتعلم ويقرأ الشعب تاريخ بلده، وبذا تتحقق الشخصية الوطنية لأفراد المجتمع (٨٢)، وبها تتحقق مقومات قيام الأمة الواحدة.

لقد رأى المرصفى من وجهة نظره، أنه فى حالة تعدد اللغات داخل المجتمع الواحد فعلى أفرادها يقع عبء تعلم ألسنة بعضهم البعض، حتى يصلوا إلى منزلة الأمة بحسب اللسان(٨٣)، وعلى افتراض صعوبة إمكان ذلك فمن الصعب

النظر إلى مصر كأمة مصرية بحكم اللغة، إذن الأتراك داخل المجتمع المصرى ينظر اليهم باعتبارهم أمة تركية بحكم اشتراكهم فى اللغة أيضًا، فهل يمكننا القبول بفكرة أن أراضى مصر أنما تضم أمتين فى آن واحد نظر لما يرمى إليه المرصفى ؟! الأمة المصرية لكون أهلها الأصليين يتكلمون لغة، والأمة التركية لكون الوافدين اليها من الأتراك والچراكسة يتكلمون لغة مغايرة، وهذا ما يدعو اليه المرصفى لتحقيق نظريته بأن اللغة كافية لتحديد أمة بعينها.

وقد رأى أن الأمة بحسب المكان {هى جملة من الناس تتخذ قطعة أرض محدودة بحدود أربعة تعرفها فى علم تخطيط الأرض وتسميها اسما يميزها عن غيرها كمصر والحجاز فيقال الأمة المصرية والأمة الحجازية}(٨٤)، وبهذا يقترب المرصفى من فكرة أمة متميزة بفعل الوحدة الجغرافية التى تميز اقليم عن اقليم آخر بحدود واضحة المعالم، تلك التى وعيها رفاعة من قبل عندما أعتبر مصر أمة متميزة عن جسم العالم الاسلامى كما أشرنا سابقا.

فتوافر العامل الجغرافى كان سببًا فى ترابط وتماسك الأمة، ومن هنا بزغت مصر {منذ فجر التاريخ كشعب واحد تجمعه وطنية واحدة فى وطن واحد} (٨٥)، إلا أنه يظهرها الخلط بين مفهوم المرصفى «للأمة» وبين أستخدام لفظة الشعب، إلا أن ذلك لا يجعلنا ننكر أن أطلاق المرصفى تعبير "الأمة المصرية" كان من منطلق إيمانه بتفرد مصر بوحدة جغرافية أتاحت لها قدرا من التميز، فمن المعلوم أن قطعة الأرض عنصر أساسى وحيوى فى قيام الأمة (٨٦)، وهذا ما استطاع أن يصل إليه فكر المرصفى، بالاضافة الى ان الرقعة الجغرافية الواحدة تجمع بين طياتها أبناء وطن واحد مشتركين فى المشاعر والتفكير (٨٧)، ومن ثم كان اهتمام المرصفى بتربية أبناء هذا الوطن الواحد وطنيا.

وعندما ينتقل المرصفى لتناول مفهوم الأمة بحسب "الدين"، فقد تجاهل الاسهاب فيه، فاكتفى بالقول أن {الأمة بحسب الدين فهى قوم اتبعوا نبيا

والتزاموا شريعته ووقفوا عند حدودها فلم يتعدوها}(٨٨)، ومن هنا لم يشر المرصفى الى ضرورة وجود دين واحد للأمة، ولم يتطرق أيضاً إلى اعتبار الدولة التى تتبع ديناً واحداً بمثابة أمة واحدة، أنه لم يحدد بهذا اذا كان الدين مقوماً أساسياً من مقومات قيام الدولة أم لا(٨٩).

ربما عدم أمكانية أعتبار مصر أمة بحسب وحدة الدين جعله يتجنب الخوض فى تلك المسألة، فمصر بمسلميها وأقباطها كونوا أمة واحدة بحكم اللغة والأرض، بالاضافة الى التاريخ المشترك، مما يدحض أنه يتخذ عنصر الدين سنداً أو أساساً ضمن الأسس التى تبنى عليها الأمة كما يدعو المرصفى.

ثانيا : الوطن، لقد أشار اليه المرصفى بقوله : {أما العامى منه فهو تلك القطعة من الأرض التى تعمرها الأمة. وأما الخاصى فهو المسكن فالروح وطن لكونه مسكن الادراكات والبدن وطن لكونه مسكن الروح والثياب وطن لكونها مسكن البدن والدار والدرب والمدينة والقطر والارض والعالم كلها أوطان لكونها مساكن} (٩٠)، لقد ميز المرصفى بين الوطن العام الذى تقطنه الأمة، وبين الوطن الخاص كالمسكن والروح والثياب والأرض والعالم (٩١).

استطاع المرصفى أن يصل الى تحديد جامع مانع للفظ "الوطن"، وان ظهرت كفكرة ضعيفة مجردة من المعنى، ولكن يحمد له أنه بحث فى كلمة "الوطن" وكان أول من عنى بتحديده (٩٢)، على هذا النحو، ومن هذا المنطلق ندرك مدى الوعى الذى وصلت اليه الصفوة المثقفة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

على أية حال، فقد انتقل المرصفى بعد رسم حدود الوطن، إلى ايضاح العلاقة بين أبناء الوطن وبين وطنهم، من حيث إعطاء كل ذى حق حقه، لقد سبقه فى هذا المضمار رفاعة الطهطاوى فى تحديد الواجبات والحقوق بين الوطن والمواطن،ويجب علينا ألا نأخذ ذلك من باب النقل أو التقليد، ولكن يمكن النظر إليه بمثابة تيار جديد نما شيئًا فشيئًا، ومن ثم أخذ ينتابه شعور بأهمية الوطن.

بهذا العرض السابق للفظى "الأمة" و "الوطن" كما تناولهما المرصفى فإنه قد حاول بذلك أن يغرس فى الأجيال الناشئة فكرة الوطن مع تحديد مقومات الدولة الحديثة، التى لا يتم بنيانها إلا باتباع طريق المعرفة والتعليم، والعمل على إصلاح شئون البلاد من كافة الوجوه، حتى يتسنى للمصريين أن يصلوا إلى مرتبة الأمم المتقدمة، بل يستطيعوا أن يتفوقوا عليها أيضًا، لما يتميز به المصرى من الاستعداد التام لمتطلبات التحديث(٩٣).

كما أنه استكمل محاولاته لوضع الاطار المحدد لاستخدام باقى الكلم الثمان فى اتباعه منهج المعلم الناصح، القادر على ايصال الفائدة المرجوة الى أبناء الوطن، عن طريق رسم الخطوط العامة لمهام الحكومة تجاه المجتمع المصرى (٩٤)، بالاضافة إلى أنه تناول قضايا العدالة والظلم والحرية بشئ من التفصيل(٩٥).

وفى النهاية أنتقل المرصفى الى تفصيل آرائه فى التربية الصحيحة، التى ربط بين تحقيقها وبين سعادة الأمة، وقد حدد أركان التربية بإسهاب متمثل فى الانسان المربى، والانسان المربى وما به من التربية(٩٦).

قياسا على ما سبق، يمكن القول بأن المرصفى بهذا الشكل قد أنتهى الى بلورة برنامج عام للتربية الوطنية، نستشف من خلاله الى أى مدى ربط المرصفى بين التربية السليمة، وبين تحقيق دعائم الوطنية (٩٧)، وبهذا الجزء الخاص بمعالجة قضية التربية يمكننا وضعه على قدم المساواة مع كتاب رفاعة الطهطاوى "المرشد الأمين"، فى اعتبار كلاهما درسا فى التربية الوطنية.

صفوة القول أن هذه الألفاظ والتى قام المرصفى بتحديدها للقارئ المصرى وإن كانت خالية من العمق والدقة فى بعض مواضع منها، لكنها لا تخلو من الفائدة منها بأنها تعبر الى حد ما - عن الاتجاه الوطنى فى التفكير وقتئذ(٩٨)، ولا نقبل القول بأن كتابات الطهطاوى فى جملتها كانت تمثل تعبيرا أكثر تركيزا للمجتمع الليبرالى (٩٩) فى تلك الفترة المبكرة.

يعد النتاج الثقافى للمرصفى محاولة منه كسائر المحاولات التى خرجت من عباءة الازهريين، عندما يتناولوا قضايا مجتمعهم الحيوية، مع أضافة هامة هى أن المرصفى لم يستطع أن يأتى بأفكار شخصية خالصة من أية تأثيرات سابقة يؤكد هذا التحليل الذى قدمه ميتشل (١٠٠) عندما يذكر فى كتابه [وقد أراد أن ينسج على منوال مناقشة ابن خلدون للعلم، فى محاولة لإحياء سلطة سياسية تعمل من خلال الأدب، على أساس المفاهيم القائمة ....وقد فشلت المحاولة]، وان كنا نرى أن هذا الفشل يمثل مرحلة تليها مرحلة أخرى نشهد من خلالها تغييرات جذرية تشمل كتابات وأفكار تعبر عما يموج به تيار الفكر الوطنى المصرى.

* * *

٣ - على مبارك ومحاولات التطبيق المبكرة

مثل على مبارك* (١٨٢٤ - ١٨٩٣) بأعماله العديدة أحد أعمدة النهضة العلمية فى مصر، إذ أنه كان نتاج بعثات محمد على الى فرنسا عام ١٨٤٤، وفى فرنسا تعرض لمؤثرات الحضارة الأوربية الحديثة، وقد تركت آثارها على نهج تفكيره مثله كمثل رفاعة، وإن لم يذهب نفس مذهبه فى التربية الوطنية.

فقد سلك على مبارك طريقًا آخر فى تمدين المجتمع المصرى، وهو العمل على نشر التعليم الشعبى، عن طريق إصلاح الكتاتيب فى المدن والقرى، ثم الاتجاه إلى انشاء العديد من المدارس فى القاهرة وسائر القطر المصرى (١٠١)، لقد وضع نصب عينيه أن يصل التعليم إلى الفلاح فى قريته، وربما تكون تلك السياسة التى اتبعها على مبارك نتاج نشأته الريفية الفقيرة التى عانى من جرائها الكثير (١٠٢)، اذ حمله اهتمامه بنشر التعليم بين أبناء الوطن على خوض ميدان التعليم الذى كان بعيدا عن مجال تخصصه(١٠٣)، فمن المعروف أنه قضى خمس سنوات فى باريس ومتز دارسا للعلوم العسكرية.

قياسًا على ما سبق يمكن القول أن إرساله من قبل القائمين بالأمر التخصص فى مجال من مجالات الدراسة أبعده عن البحث والتنقيب فى مفردات الثقافية الاوربية الحديثة (١٠٤)ومن ثم انغمس فور رجوعه فى المشاريع النهضوية التى رسمتها السلطة السياسية للبلاد.

لقد التقت مساعى على باشا مبارك مع سياسة اسماعيل باشا الرامية الى اصلاح حال التعليم والتخلص من صبغته العسكرية، التى فرضها النظام التعليمى فى عهد محمد على، وبهذا أنشأ اسماعيل باشا التعليم بوصفه ممارسة مستقلة تشمل المجتمع المصرى كله، من أجل تحقيق هدف سام وهو هذه المرة إنتاج المواطن الفرد(١٠٥)، ومن هنا كان على مبارك خير معين له فى النهضة التعليمية التى أرادها لمصر.

لامراء أن بصمات على مبارك فى مجال التعليم خير دليل على اسهاماته الايجابية فى النهضة المصرية الوليدة فقد سلك طريق التدرج بالمجتمع المصرى نحو الالمام بالحضارة الأوربية، إيمانًا منه بأن اصلاح التعليم خير أنواع الاصلاح بل هو خير من الاصلاح السياسى (١٠٦)، ومن ثم جعل التعليم خير عون على نشر الوعى بالحضارات الاخرى، ومن هنا يحدث اللقاء بين الحضارتين الشرقية والغربية، بعد أن تصل مصر إلى مرتبة الرقى الحضارى.

وقد انعكست صورة ذلك القول فى وضع أساس التقدم العلمى، عن طريق إقامة العديد من المدارس، بالاضافة إلى انشاء دار العلوم(١٠٧)، إلى جانب اهتمامه بنشر الثقافة العامة بين أبناء الوطن عن طريق قاعة المحاضرات التى حاضر فيها كبار الأساتذة من مصريين وأجانب بالاضافة الى جهوده فى إنشاء "مجلة روضة المدارس" و "دار الكتب" وبهذا يكون على مبارك أبرز من قدم انجازات عظيمة فى مجال الأعمال العامة(١٠٨).

لقد اغتنم على مبارك فرصة سفره الى باريس فى عام ١٨٦٧ - ١٨٦٨ فى مهمة رسمية، للإطلاع على المدارس والمكاتب العديدة، وحصل على بعض الفهارس، بالاضافة إلى إطلاعه على كتبهم المطبوعة (١٠٩)، وبهذا تمكن من دراسة النظم الاوربية الجديدة فى مجال التعليم، وقد ساعده ذلك من خلال موقعه كمدير لديوان المدارس، ثم ناظر للمعارف من أن يطور التعليم المصرى.

وجنباً إلى جنب نظر الى بناء مدينة القاهرة الحديثة، وقيام النظام التعليمي الحديث، على أنهما دليلان على بدء ظهور السياسة الجديدة للدولة الحديثة التي اتخذت من نظام وانضباط التعليم المدرسي الحديث ملمحاً رئيسيًا ومنهجًا للشكل الجديد للسلطة السياسية داخل الدولة المصرية (١١٠).

مثلت مؤلفات* على باشا مبارك جانباً آخر مضيئاً في حياة الرجل، فإنه أكمل مسيرة رفاعة ومدرسته في التأليف والترجمة، فقد كان يدرك حاجة بلاده لألوان المعرفة والثقافة إلى جانب التعليم الحديث.

قياسًا على ذلك لن نتعرض بدراسة تفصيلية لمؤلفات على باشا مبارك، ولكن سوف نقصر حديثنا على عملين هامين**، يحمل كل منهما في طياته جهوداً جبارة للنهوض بالوطن.

أولهما : الخطط التوفيقية، ففي جزئها الأول رسم لنا صورة تاريخية لمصر عبر العصور المختلفة منذ تأسيس القاهرة حتى السنوات الأخيرة من حكم الخديو توفيق.

لقد تناول على مبارك تاريخ مصر بأسلوب مصري متميز، فلم يكتف بالسرد التاريخي بل قدم وصفًا جغرافيًا للاقليم (١١١)، إلى جانب أنه خصص قرابة مجلد كامل لمصر الفرعونية وبهذا نقبل وصف الخطط بانها موسوعة علمية عن مصر، تاريخيا وجغرافيا وطبوغرافيا(١١٢).لقد ربط بين الماضي والحاضر عندما انتقل الى تسجيل مظاهر الحضارة التي أدخلت في مصر في القرن التاسع عشر،على كافة المستويات الزراعية والصناعية والعسكرية، تلك المظاهر التي مثلت استجابة للتقدم الاوربي في هذه الميادين، مما يشير أيضًا إلى روح التأصيل العلمي في كتاباته.

تكمن أهمية على مبارك ومؤلفه، فى أنه كان أحد الدارسين الذين قدموا عملا ذا أثراً واضحاً، اذ صار ذلك المؤلف مصدراً أساسياً لأحداث القرن التاسع عشر في مصر(١١٣)، حيث أسهم على مبارك بهذا العمل فى نشر الوعى بخصوصية مصر، عن طريق عرض تاريخها عبر العصور المختلفة، مما يزيدها عمقا ويثبت من جذورها التاريخية الضاربة بأطنابها فى مضمار الحضارة.

فلقد اتسمت الخطط التوفيقية بالخصوصية المصرية، حيث إنصب العرض التاريخى الذى قدمه على مصر، فكان شديد التركيز على خصوصية هذا الأقليم، فلم يتطرق إلى تاريخ العرب أو المسلمين، فقد صب جل همه فى إخراج عمل يظهر مكانة مصر الوطن، وهذا ما يؤكد من ناحية أخرى التواصل بين مفكرى ذلك القرن.

ثانيهما: كانت قصة "علم الدين" التى اعتبرت بمثابة نافذة أطل من خلالها المصريون على صور الحضارة الأوربية الحديثة، من خلال المقارنة بين مظاهر الحياة والحضارة فى الشرق والغرب، الغرض منها فتح عيون أهل الشرق وبصائرهم على مزايا الحضارة الاوربية، ومحاولة الاقتباس من الجوانب المضيئة فى تلك الحضارة.

بالاضافة إلى أن "علم الدين" كعمل روائى كتب بقصد تعليم الناس والارتقاء بهم حتى يتخلصوا من الاحداث اليومية المعيشية التى وصفها كُتّاب الغرب بالفارغة، والتى ظهرت من خلال المقارنة بين حال الحياة فى مصر وحالها فى أوربا، حتى توصل على مبارك الى أن جذور المشكلة تمثل فى الانضباط والتعليم اللذين وجدهما فى الغرب الاوربى، ولم يجدهما فى الشرق الاسلامى، ومن هنا كان عزمه على وضع أبنية وأنماط جديدة لسياسة الدولة المصرية الحديثة(١١٤).من ثم جاءت رواية علم الدين مستغلة الشكل القصصى هادفة إلى تعيم التلاميذ وتثقيفهم(١١٥)، لأنهم هم وحدهم حملة شعلة التقدم فى المستقبل.

وعلى الجانب الأخر تفاعل على مبارك مع الحضارة الاوربية تفاعلا ايجابيا فلم يقف أمامها موقف "المبهور"، بل موقف الناقد المدقق (١١٦)، يقتبس منها ما يتناسب مع ما ألفه الشرق من عادات وتقاليد حيث يقول: {وغاية مرادى أن أقضى هذه المدة فى استفادة ما عساه يكون فيه منفعة أوطاننا وفى نيتى أن اكتب مجموعا اضمنه كل ما أراه واستحسنه فى هذه السياحة فى كتاب ليكون تذكرة إذا عدت الى سكنى وطرفة مجلوبة الى أهل وطنى} (١١٧).

والجدير بالذكر أن قصة علم الدين حظيت بشهرة أقل(١١٨) من سائر أعمال على مبارك الأخرى، فمضمون القصة تصف سياحة الشيخ علم الدين العالم الأزهرى المصرى، مع رجل إنجليزى حضر الى مصر، وتسجل القصة مشاهداتهما ومحاوراتهما سواء أثناء وجودهما فى مصر، أو خلال رحلتهما الى أوربا، لقد وضع على مبارك نصب عينيه ألا يكون تعليم العلوم هو الهدف الوحيد من روايته، بل حاول من خلال عقد المقارنات بين بعض العادات الشرقية والغربية، أن يقدم لأبناء وطنه عمومًا ومشايخ الأزهر خصوصا - الذين أصروا على تعنتهم تجاه إدخال العلوم الحديثة فى الأزهر الشريف - أن يقدم لهم بطل روايته شيخًا أزهريا وهو علم الدين. وبذا يقدم أمامهم صورة لعالم دين مثالى من وجهة نظره(٣). ومن بين ثنايا المحاورات نستشف أيضًا استخدام على مبارك لبعض الألفاظ المتداولة حديثًا ـ وقتئذ ـ مثل "أهل وطنى"، "منفعة أوطاننا"، أنه يركز على مفهومه للوطن بما ينم عن صدق وايمان بمصريته.

هذا بالاضافة الى ابتعاده عن ذكر اسمه مقرونًا بالانتساب الى قبائل عربية، وهذا دليل على شدة احساسه بمصريته (١٢٠) فمعاصروه كانوا يفتخرون بأنسابهم العربية، ومن ثم نستطيع القول أن على مبارك استطاع أن يفرق بين المصريين والعرب، ناسبًا إلى المصريين الفضل فى تقدم المعارف فى بلاد الغرب، فيشير على لسان الرجل الإنجليزى ما يأتى : {لولا المصريين لكنا إلى الآن غرقى فى بحار الجهل حائرين فى أودية الضلال....} (١٢١).

يتضح من ذلك القول أن على مبارك بنى قصته على دعامة أن مصر هى سبب تقدم وعمران مس العالم من حولها، ومن هذا المنطلق يظهر اعجاب وفخر بحضارتها فيقول: [فإن جميع العلوم النافعة فى بلادنا منقولة لنا منها بواسطة الرومانيين وغيرهم والتقدم الذى تفتخر به بلادنا منشأه مصر فلها علينا الفضل بل على جميع سكان الكرة ...] (١٢٢).

وعلى الجانب الآخر عندما يتحدث عن العرب، يتناولهم بالكلام كأنهم شعب منفصل عن مصر تمام الانفصال (١٢٣)، ناهيك عن عزوفه عن ذكر أى تأكيد لارتباط مصر بالدولة العثمانية (١٢٤)، فى وقت كانت تتمتع فيه بنوع من الاستقلالية، ومن هنا جاء التأكيد على خصوصية مصر عبر ثنايا هذا الكتاب.

تكمن أهمية هذه القصة أيضاً فى أنها كانت دارجة ضمن مناهج التعليم(١٢٥)، وبذا تعد وسيلة مبتكرة وحديثة حتى الوقت الذى صدرت فيه، وبهذا نما فى جيل من المصريين وعى التفريق بين تاريخ مصر وبين تاريخ العرب، وفوق هذا وذاك قوى لدى هذا الجيل الارتباط بمصر الوطن، وبعد تدريجيًا عن فكرة التبعية للدولة العثمانية، وقد انعكس ذلك بالضرورة وبمرور الوقت على تدعيم وترسيخ فكرة الوطنية المصرية.

ومن هذا المنطلق كانت قصة "علم الدين" علامة مضيئة فى طريق الوعى بالذات المصرية، اذ أستطاع أن يحقق هذا الوعى من خلال المقارنة بين الشخصية الاوربية والشخصية المصرية (١٢٦)، بالاضافة الى استيعابه لدور مصر الحضارى وكذلك أظهرت مدى ايمان على مبارك بمقدرة المصريين فى الدفاع عن وطنهم، وظهر ذلك جليا عندما تناول الغزو الفرنسى لمصر، اذ أكد أن (لا لوم على المصريين فى امتناعهم عن الخضوع للفرنساوية والدخول تحت طاعتهم بحسب الميل الطبيعى من عدم الرضا بحكم من خالفهم فى الدين والجنس..] (١٢٧) وكذلك

فى قــوله : {أن المدافــعــة عن الوطن فى ذلك الوقت كــانت واجــبــة على العموم....}(١٢٨).

إن على مبارك فى كتاباته كان يعبر عن حب لمصر الوطن، إلا أنه يمكننا القول بأن العاطفة الوطنية لديه كانت مغلفة بالمسحة الإسلامية، اذ كان الوعى القـومى فى ذلك الوقت ممتـزجًا بالفكر الدينى، اذ أن هناك تلازمًا تاريخيًا مصاحبًا لنضوج فكرة الوطنية المصرية، فقد سبقه الطهطاوى فى البحث عن الوطنية المصرية، حيث غلبت عليه الصبغة الاسلامية، وكذا على مبارك الذى سار على نفس منهج رفاعة وان اختلف عنه فى أنه كان رجل دولة اداريا فى المقام الأول اكثر من كونه مفكرا، اذ أنه لم يسهم فى بلورة مدرسة فكرية، ولكنه كون نواة موظفين تولوا المراكز الرئيسية فى أجهزة الدولة فور تخرجهم(١٢٩)، وبالتالى كان انتاجهم العلمى مختلفاً عن المدرسة الوطنية التى كونها الطهطاوى.

أنشغل على مبارك كغيره من مثقفى عصره بقضية (الوطنية) وقد عبر عنها كل بأسلوبه، فقد نظر اليها كموقف يبرز من خلال عطاء المواطن لوطنه (١٣٠)، والتى نقبل وصفها بأنها بمثابة الوطنية المنتجة (١٣١).

على أية حال، فإن على مبارك نظر اليه بإعتباره أحد القوميين الاصلاء الذين يعبرون عن فترة ما قبل الأحتلال (١٣٢)، تلك الفترة التى كانت تموج بالمفكرين الوطنيين الذين أسهموا بدورهم فى بلورة فكرة الوطنية المصرية.

يمكننا بعد أن استعرضنا مجهودات كل من رفاعة رافع الطهطاوى، وحسين المرصفى وعلى مبارك من خلال أفكارهم وكتاباتهم الحكم بأنهم كانوا يمثلون الاستجابة المنطقية التى تولدت عن الاحتكاك بالحضارة الأوربية، فى نفس الوقت الذى سعى فيه المجتمع المصرى من قبل ابنائه الى محاولة بلوغ درجة من الوعى فى ظل عدة عوامل أتاحت له فرصة الأسهام فى نضوج فكرة الوطنية المصرية، سواء باسهامات من المفكرين المصريين والشوام على المستوى النظرى لتدعيم الفكرة الوطنية وتقوية التيار الوطنى، أو من خلال المؤسسات الثقافية التى

سرعان ما شجع الخديو اسماعيل على قيامها، فمثلت المستوى العملى لفكرة الوطنية المصرية.

على أية حال قد أتيحت الظروف أمام هذين الرافدين ليدلا بدلوهما فى تدعيم الفكرة الوطنية، وبهذا مثلوا البادرة الثالثة من ذلك النتاج، باسهاماتهما النظرية والعملية لبلورة فكرة الوطنية المصرية، وهذا ما سوف نعالجه فى الفصل التالى.

هوامش الفصل الأول

* – من أهم الدراسات التي تناولت سيرة رفاعة:

– السيد صالح مجدي: حلية الزمن بمناقب خادم الوطن رفاعة رافع الطهطاوي، تحقيق، جمال الدين الشيال، ١٩٥٨.

– محمد عمارة: الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، ط١، ج١، بيروت ١٩٧٢.

– علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، ج١٣، ط١، ١٣٠٥هـ – ١٨٩٣م، مخزن وزارة المعارف.

– أحمد بدوي: رفاعة رافع الطهطاوي، ط٢، د. ت

١ – Gran, Peter: Looking For The real Tahtawi

٢ – محمد الصادق حسين: رجال التاريخ الحديث في مصر، رفاعة بك مقالة في، السياسة الأسبوعية، عدد ٦٤، في ٢٨ مايو ١٩٢٧.

٣ – يونان لبيب رزق: رفاعة وقضايا عصره، بحث ضمن ندوة، الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، اصدار كلية الألسن، جامعة عين شمس، في الفترة من ١٨ – ٢١ ديسمبر ١٩٧٦، القاهرة، ١٩٨٤.

٤ – Jamal, M.A., Op. Cit. p. 12-13.

٥ – Gran, Peter: Op. Cit.

٦ – رفاعة رافع الطهطاوي: تخليص الابريز في تلخيص باريز، ج٣، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص٣٢٢.

٧ – زكريا زكريا الرفاعي: الدولة عند رفاعة الطهطاوي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩١، ص١٠٣ – ١٠٤، نقلا عن الجغرافية العمومية لرفاعة الطهطاوي، ذلك المؤلف الي لم تستطع العثور عليه.

٨ – إذ غلب حيز اللغة العربية وكذلك أخبار مصر علي اللغة التركية وأخبار دولة الخلافة، ولمزيد من التفاصيل حول حركة التعريب الجديدة وحو نشأة الوقائع، راجع إبراهيم عبده: تاريخ الوقائع المصرية ١٨٨٢ – ١٩٤٢، ط٣ مكتبة الآداب القاهرة ١٩٤٦ ص٩٥–٩٦.

٩ – تمثل قصيدة المارسليز نشيدا قوميا لفرنسا قام بتأليفه روجيه دي لوزال، وقد قيلت أثناء الثورة

الفرنسية ضد شارل العاشر، حول مضمون القصيدة، راجع، طه وادي: ديوان رفاعة الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩، ص٦٥، ١٩٩-٢٠٥.

١٠ - رجاء النقاش: صفحات من أدب المقاومة، مقالة في الهلال عدد ٨، في أغسطس ١٩٦٧، ص٢٦.

١١ - رفعت السعيد: المؤلفات الكاملة، م١ القاهرة ١٩٧٧، ص٣٩-٤٠.

١٢ - رفاعة رافع الطهطاوي: المصدر السابق، ج١، ص٧٠-٧١.

١٣ - رفاعة بك رافع: مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، مصر، ١٩١٢، ص٢٠٨.

١٤ - Vatikiotis, P. J., The History of Egypt from Muhmmad Ali To Sadat, second Edition, Londdon, 1980, p. 118.

١٥ - وقد ألمح إلى ذلك كل من أحمد عبدالرحيم مصطفي: تطور الفكر السياسي في مصر الحديث، مركز البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٣، ص٢٧، وكذلك طاهر عبدالحكيم: الشخصية الوطنية المصرية، ص١٤٦، وأيضا - Wendell, ch., The Evolution of The Egyptian National Image, p. 129.

١٦ - عمر طوسون: البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الأول وسعيد، ص٣٢-٣٤.

١٧ - Silvera, Alain: The first Egyptian student Mission To France.

١٨ - أحمد زكريا الشلق: العلمانية والفكر المصري الحديث، بحث مستخرج من المجلة التاريخية المصرية عدد ٣٠/٣١، ١٩٨٣-١٩٨٤، ص٤٣٩.

١٩ - معن زيادة: المعالم الأولى للمشروع النهضوي العربي في القرن التاسع عشر، مقال في مجلة الوحدة، عدد ٣١-٣٢، أبريل - ماي ١٩٨٧، ص٣٤.

٢٠ - Jamal, M.A. Op.Cit., P. 11.

٢١ - محمد عمارة: المرجع السابق، ص١٢١.

٢٢ - رفاعة رافع الطهطاوي: المرشد الأمين للبنات والبنين، ط١، ١٢٨٩هـ، ص٩٠.

٢٣ - رفاعة رافع الطهطاوي: مقدمة وطنية مصرية، مطبعة بولاق، ١٢٨٣هـ، ص٢.

٢٤ - شبل بدران: رواد التنوير الفكري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص٢٥.

٢٥ - جمال الدين الشيال: رفاعة رافع الطهطاوي ١٨٠١-١٨٧٣، نوابغ الفكر العربي ٢٤، دار المعارف، د. ت، ص٥٤، كذلك غالي شكري (د.): النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص١٥٤.

٢٦ - محمود فهمي حجازي (د.): أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص١١٠.

٢٧ - رفاعة رافع الطهطاوي: المصدر السابق، ص٢-٣

٢٨ - رفاعة بك رافع: مناهج الألباب المصرية، ص٧.

٢٩ – رفاعة رافع الطهطاوي: التعريبات الشافية، ص٢٢١.
٣٠ – رفاعة رافع الطهطاوي: المرشد الأمين للبنات والبنين، ص٩١.
٣١ – رفاعة بك رافع: مناهج الألباب المصرية، ص١٠.
٣٢ – السيد صالح مجدي: المصدر السابق، ص٣٤.
٣٣ – Jamal, M.A., Op. Cit., p. 101.
٣٤ – بيتر جران: بدء ظهور الليبرالية المصرية.
٣٥ – Jamal, M.A., Op. Cit., p. 13.
٣٦ – Holt, P., M., Egypt and the fertile Cressent, p. 191
٣٧ – شبل بدران: المرجع السابق، ص٢٥
٣٨ – Gran, peter, op. cit
٣٩ – تيموثي ميتشل: استعمار مصر، ترجمة، بشير السباعي وأحمد حسان، سينا للنشر، ط١، ١٩٩٠، ص١٣٩
٤٠ – أحمد بدوي: المرجع السابق، ص١٥٩.
٤١ – رفاعة رافع الطهطاوي: المرشد لأمين، ص٩٣.
٤٢ – نفس المصدر، ص٩٣-٩٤.
٤٣ – نفس المصدر، ص٩٤.
٤٤ – نفس المصدر، ص٩٤.
٤٥ – فاروق أبو زيد: تطور الفكر الليبرالي ومفهومه في الصحافة المصرية ١٨٤٢—١٨٨٢ رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم الصحافة، جامعة القاهرة د. ت، ص٣٩
٤٦ – رفاعة رافع الطهطاوي: المرشد الأمين، ص٩٥
٤٧ – Vatikiotis, P. J., OP. cit., p. 115
٤٨ – Gran, peter, Op. cit.
٤٩ – انظر الطبعة الثانية، ١٩١٢
٥٠ – Wendell., op. cit., p. 127
٥١ – Jamal, M.A., Op. Cit., p. 127.
٥٢ – Ibid., p. 14
٥٣ – Ibid., p. 13
٥٤ – Ibid., p. 13
٥٥ – روضة المدارس، إفتتاحية العدد الأول، في ١٥ محرم ١٢٨٧هـ، ١٨٧٠م
٥٦ – روضة المدارس، عدد ٣، ١٥ صفر، ١٢٨٧هـ
٥٧ – نفس المصدر، عدد ٦، غاية ربيع الأول، ١٢٨٧هـ

٥٨ – روضة المدارس، عدد ١٦، غاية شعبان، ١٢٨٧هـ
٥٩ – أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر أوائل القرن التاسع عشر إلي قيام الحرب الكبري الثانية، ط٢، دار المعارف، بمصر، ١٩٧١، ص٣٧
٦٠ – عبدالرحمن الرافعي: شعراء الوطنية في مصر، ط٢، القاهرة ١٩٦٦، ص١٣
٦١ – نفس المرجع ، ص١٤
٦٢ – طه وادي: المرجع السابق ص١٦
٦٣ – رفاعة رافع الطهطاوي: المرشد الأمين، ص٤٢
٦٤ – طه وادي: المرجع السابق، ص٦٢، ١٠٩
٦٥ – رفاعة رافع الطهطاوي: المصدر السابق ص١٢٥
٦٦ – - Wendell, ch., Op. Cit., p. 123
٦٧ – - Jamal, M.A., Op. Cit., p. 15
٦٨ – چاك كرابس چونيور: كتابة التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر دراسة في التحول الوطني، ترجمة، عبدالوهاب بكر، سلسلة الألف الثاني١١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص١١٠
٦٩ – - Vatikiotis, p. J., Op. Cit., p. 117
٧٠ – فاروق أبو زيد: المرجع السابق، ص٣٧.
* حول نشأته وحياته، راجع علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، ج٥١، طبعة عام ١٣٠٥هـ، ص٤، كذلك عبدالعزيز الدسوقي: حسين المرصفي، نقاد الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠، ص١٣-١٩
٧١– حسين المرصفي: الكلم الثمان، المطبعة الشرقية، ١٢٩٨هـ، ص٢
٧٢ – - Wendell, ch., Op. Cit., p. 135
٧٣ – تيموثي ميتشل: المرجع السابق، ص٢٠٩
٧٤ – عبدالعزيز الدسوقى (د.): المرجع السابق، ص٣٧
٧٥ – أحمد زكريا الشلّق: رؤية في تحديث الفكر المصري، الشخ حسين المرصفى، ص٢٦
٧٦ – عبدالعزيز الدسوقي: المرجع السابق، ص٣٧
٧٧ – تيموثي ميتشل: المرجع السابق، ص٢٠٩
٧٨ – - Jamal, M.,A., Op. Cit., p.22.
٧٩ – تيموثيي ميتشل: المرجع السابق ص٢١٤
٨٠ – حسين المرصفي: المصدر السابق، ص٢
٨١ – نفس المصدر، ص٢
٨٢ – لقد أتفقت العديد من الآراء حول أهمية عنصر اللغة كمقوم من مقومات قيام الأمة الواحدة،

أنظر فردريك هرتز: القومية في التاريخ والسياسة، ص٩٢، أيضاً، أبو خلدون ساطع الحصري، أراء وأحاديث في الوطنية والقومية، ص١٥ كذلك، نقول زيادة: القومية والعروبة، مكتبة الطاهر أخوان بيافا، ١٩٤٥، ص٨٣

٨٣ – حسين لمرصفي: المصدر السابق، ص٢

٨٤ – نفس المصدر، ص٣

٨٥ – جمال حمدان: شخصية مصر، ج١، ص٤٠

٨٦ - Wendell, ch., Op. Cit., p. 13

٨٧ – يوسف خليل يوسف: القومية العربية ودور التربية في تحقيقه، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧، ص٣٤

٨٨ – حسين المرصفي: المصدر السابق، ص٦

٨٩ – أحمد زكريا الشلّق (د.): المرجع السابق، ص١

٩٠ – حسين المرصفي: المصدر السابق، ص١٦

٩١ – أحمد زكريا الشلّق (د.): المرجع السابق، ص٣٣

٩٢ - Wendell, ch., Op. Cit., p. 138

٩٣ – حسين المرصفي: المصدر السابق، ص١٦-٢٩، بعنوان، الوطن

٩٤ – نفس المصدر، ص ٣٠-٣٥، بعنوان، الحكومة

٩٥ – نفس المصدر، ص٣٦-٣٧، بعنوان، العدل والظلم والسياسة

٩٦ – نفس المصدر، ص٣٧-٦٧، بعنوان التربية، المربي، ما به التربية

٩٧ – أحمد زكريا الشلّق: المرجع السابق، ص٤٢

٩٨ – أحمد عبدالرحيم مصطفي: المرجع السابق ، ص٢٨.

٩٩ – لقد قام بيتر جران بتصنيف رسالة الكلم ضمن الأعمال المبكرة في التراث الليبرالي، إلي جانب كتاب رفاعة المناهج، ومحمد عبده رسالة التوحيد، راجع مقالته، بدء ظهور الليبرالية المصرية

١٠٠ – استعمار مصر، ص٢١٣، لم يتردد ميتشل إيضا في أن يدفع بقوة إحتمالية لجوء المرصفي إلي الاستعانة باقتباس اسم كتابه وبنصه الكلم الثمان من مقدمة بن خلدون، رع، ص٢١٢.

* من أهم الدراسات التي تناولت سيرة علي باشا مبارك:

محمد عمارة (د.): الأعمال الكاملة لعلي مبارك، م١، ط١، بيروت ١٩٧٩، وكذلك، محمد أحمد خلفالله: علي مبارك وآثاره، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٧

١٠١ – سعيد زايد: علي مبارك وأعماله، سلسلة الألف كتاب (١٩٩)، القاهرة، ١٩٥٧، ص٣٧

١٠٢ – حول نشأته وحياته راجع، علي باشا مبارك: حياتي، علق عليها وأعد فهارسها عبدالرحيم يوسف الجمل، الناشر، مكتبة الآداب ميدان الأوبرا، القاهرة ١٩٨٩، ص٣-١٦

١٠٣ – شبل بدران: المرجع السابق، ص٣٤

١٠٤ – عبدالخالق محمد لاشين (د.): مصريات في الفكر والسياسة، ص٩٧.
١٠٥ – تيموثي ميتشل: المرجع السابق، ص١١٤
١٠٦ ـ محمود الشرقاوي: علي مبارك والحضارة الأوربية، مقالة في، مجلة المجلة، عدد ٢٧ يناير ١٩٦٠، كذلك، شبل بدران، علي مبارك رائد التعليم الشعبي، ١٨٢٣–١٨٩٣، بحث ضمن، ندوة علي مبارك رائد التحديث المصري، الذكري المائة، ١٩٩٣، المجلس الأعلي للثقافة، ص١٩
١٠٧ – حامد طاهر: دار العلوم وازدواجية التعليم، بحث ضمن الندوة السابقة، ص٣
١٠٨ – - Vatikiotis,, P. J. op. cit, p. 111.
١٠٩ – علي مبارك: حياتي، ص٤١
١١٠ – تيموثي ميتشل: المرجع السابق، ص١٠٩، ١١٠، ١٢٢
* حول إنتاج علي مبارك العلمي والأدبي، راجع، عبدالعزيز الشناوي: الخطط التوفيقية لعلي مبارك، تراث الإنسانية الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص١٨-٢٠
** أول العملين هو الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، يقع في عشرين جزءاً، لمزيد من التفاصيل حول الملامح العامة للخطط، راجع، عبدالعزيز الشناوي، المرجع السابق، ص٢٠–٩١، أما العمل الثاني فهو قصة علم الدين، وهي قصة خيالية تقع في أربعة أجزاء، وقد طبعت عام ١٨٨٢–١٢٩٩هـ، بالإسكندرية، لمزيد من التفاصيل حول تناول القصة، انظر، جاك كرابس جونيور، المرجع السابق، ص، ١٥٨–١٥٩
١١١ – أنور عبدالملك: نهضة مصر، ص٤٥٢
١١٢ – - Vatikiotis, P., J. OP., Cit., p. 109
١١٣ – - Holt, P., M, Op. Cit, P. 205
١١٤ – تيموثي ميتشل: المرجع السابق، ص١٠٩–١١٠
١١٥ – عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ١٨٧٠ – ١٩٣٨ ط٢، دار المعارف، ط١٩٧٦، ص ٣٧.
١١٦ – محمد عمارة: المرجع السابق، ص١٤٤
١١٧ – علي مبارك: علم الدين، ج٣، المسامرة الرابعة والسبعون، ١٨٨٢، ص٨١٢
١١٨ – - Vatikiotis, P., J., OP. Cit., P. 110
١١٩ – عبد المحسن طه بدر: المرجع السابق، ص ٦٨.
١٢٠ – عبدالخالق محمد لاشين (د.): المرجع السابق، ص٩٨
١٢١ – علي مبارك: المصدر السابق، المسامرة الثالثة والثمانين، ص٩١٤–٩١٥
١٢٢ – نفس المصدر، ص٩١٤
١٢٣ – أنيس صايغ: الفكرة العربية في مصر، ص٦٥
١٢٤ – عبدالخالق محمد لاشين (د.): المرجع السابق، ٩٩
١٢٥ – ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥–١٩٣٦، المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، بيروت، أغسطس ١٩٧٢، ص٢٢٩

١٢٦ - أحمد السويسي: بداية الوعي القومي في القرن التاسع عشر، الخلفية السياسية الفكرية لمشروع دولة محمد علي، بحث في، مجلة الوحدة، عدد ٢٤، في مارس ١٩٨٨

١٢٧ - علي مبارك: علم الدين، المسامرة الثالثة والتسعون، ص١٠٨٢

١٢٨ - نفس المصدر، ص١٠٨٢

١٢٩ - أنور عبدالملك: المرجع السابق، ص١٧٢

١٣٠ - محمد عمارة: المرجع السابق، ص٢٤٢

١٣١ - محمد الصادق حسين: رجال التاريخ الحديث في مصر (٤)، علي باشا مبارك، مقالة في، السياسة الأسبوعية، عدد ٥٧، في ٩ أبريل ١٩٢٧

١٣٢ - Vatikiotis, P., J., OP. Cit., P. 112

* * *

الفصل الثاني

العوامل الحضارية وتقوية التيار الوطنى

١٨٦٣ - ١٨٨١

١- المفكرون وآثارهم فى دفع الفكرة الوطنية

٢- المؤسسات الثقافية ونمو الفكرة الوطنية

أ - مولد الصحافة الوطنية

ب - نشأة المسرح المصرى

جـ - دور الأدب فى تقوية الوعى الوطنى

وضع مؤتمر لندن ١٨٤٠ الأرضية الأولى الممهدة لفكرة استقلال مصر وسلخها عن الدولة العثمانية ، ذلك الحلم الذى راود خيال محمد على ، وجعل جُل همه السعى لتحقيقه ، غير أن سياسة عباس الأول ساعدت على تقوية الصلات مرة أخرى بالباب العالى ، وأصبحت مصر فى عصره - كما كانت من قبل مجئ محمد على - مجرد ولاية تابعة للدولة العثمانية ومن ثم زال فى عهده الشعور بإستقلالية مصر[١]، وعادت مصر مرة أخرى تحت حكمه غارقة فى سبات عميق[٢]، وعلى عكس ما رمى إليه محمد على وإبراهيم من مساع تهدف إلى استقلالهما بمصر .

غير أن سعيد باشا كان ينبئ بالجديد بالنسبة لزيادة الوعى بين المصريين، إذ أن الحاكم نفسه كان يميل إليهم ، وبهذا قد خالف كلاً من محمد على وعباس الأول اللذين كانا يؤمنان أشد الإيمان بالعنصر التركى وتفوقه [٣].

وقد بذل سعيد باشا جهوداً عظيمة بشأن إصلاح حال المصريين فى كافة المجالات خاصة اهتمامه بالفلاح المصرى ، فقد أحدث مايشبه ثورة اجتماعية فى إصلاحاته الخاصة بالملكية ، بالإضافة إلى أنه عمل على إعادة صفة "المصرية" للجيش[٤]، ناهيك عن دوره فى تصعيد المصريين بسلك الوظائف فى جهاز الدولة، وبهذا يمكن وصف سياسات سعيد باشا بأنها كانت شديدة الوضوح وهذا ما لاحظناه فى تقربه إلى الشعب المصرى ، تلك السمة التى انفرد بها عن غيره من أسرة محمد على .

وقد قدم طارق البشرى [٥]، وجهة نظر أخرى ، إذ رأى أن سياسات سعيد باشا كانت نابعة من تناقص العناصر التركية من ناحية وإلى الضغوط المصرية فى جهاز الدولة من ناحية أخرى أكثر مما يرجع إلى إيمان الوالى ذى الأصل التركى بالجامعة الوطنية المصرية ، ومع فرض تسليمنا بذلك ، فإننا نخرج بحقيقة مؤداها أن المصريين استطاعوا من خلال الفرصة التى أتيحت لهم أن يثبتوا ذاتهم ويحققوا قدراً من النجاح ، هذا علاوة على أن الخطوات الإصلاحية التى أقدم عليها سعيد باشا لم تفد غير المصريين وبهذا أصبحوا مستفيدين بالدرجة الأولى .

والجدير بالذكر أن كان لسعيد باشا الفضل فى الحفاظ على الهوية المصرية ، إذ كان يؤثر عدم تحويل قضايا مصر إلى إستانبول لأن تحويلها يتضمن الإعتراف بسلطتها ، وكان المقصود هو الاستقلال [٦]، فمن جانبه حافظ على الإرث الذى تركه له محمد على باشا ، وأن لم يسع لزيادة رقعته .

وقد مالت بعض الأراء إلى تحميل الدول الأوربية خاصة – إنجلترا وفرنسا– التى حددت علاقات مصر بالباب العالى ، حملتهم سبب عدم إتاحة الفرصة لسعيد باشا للعمل فى مصر على تحقيق فكرة الاستقلال عن جسم الدولة العثمانية [٧].

على أية حال يحمد له أنه لم يجرفه تيار الإغراء الذى مارسه الباب العالى ، حيث كان يحثه دائماً بواسطة رجاله على التمسك بالدوران فى فلكها ، ففى نصيحة وجهت له جاء فيها ما ينم عن ذلك (إن بقاء مصر فى يد الإسلام متوقف على شرط تبعيتها للدولة العلية وإذا ضعفت القوة فإن الطرفين لا يدومان) [٨].

وإن كان قد جرفه تيار التدخل الأجنبى مما جعله لا يكترث بالمؤثرات التى نجمت عن هذا التعامل المكثف مع الأجانب فى البلاد ، بل إنه لم يلتفت إلى أى

من تلك المؤثرات تساعد أو تعوق محاولات تقوية الشعور الوطنى (٩)، وقد أرجع البعض سبب ذلك إلى تعلمه فى فرنسا الذى جعله أكثر ميلاً إلى ذلك التيار، حتى سقط بهذه الطريقة تحت التأثير الأوربى التام (١٠).

مثل عصر سعيد باشا حلقة الوصل بين عصر محمد على مؤسس مصر الحديثة ، وعصر إسماعيل باشا واضع لبنات نهضة مصر الحديثة(١١)، فقد خطا الخديو إسماعيل خطوات إيجابية لترسيخ دعائم الدولة الحديثة التى أسسها جده.

على هذا النحو نحاول أن نتتبع بدايات وعى قومى ينبت هذه المرة فى أرض صالحة للنمو، إذ أن الفرصة كانت سانحة أكثر فى عهد إسماعيل لبلورة الشعور الوطنى لدى المصريين، فقد أسهم فى إيجاد العوامل التى ساعدت على اختمار الفكرة الوطنية فى نفوس المصريين، إذ إقترنت النهضة الثقافية فى مصر بظهور العديد من العلماء والأدباء الذين حملوا لواء النهضة الفكرية والسياسية والاجتماعية داخل المجتمع المصرى، والذين مثلوا بدورهم رافداً نظرياً للعوامل المكونة لفكرة الوطنية المصرية، جنباً إلى جنب مع إسهامات الروافد العملية العصرية التى تمثلت فى المؤسسات الثقافية التى شيد بعضها ونما الآخر فى عهد الخديو إسماعيل، وما أفرزته من نهضة صحفية ومسرحية وأدبية فى نضوج الفكرة الوطنية ، وبين ثنايا ذلك كله سيدور محور هذا الفصل.

١ - المفكرون وآثارهم فى دفع الفكرة الوطنية

أ - جمال الدين الأفغانى

يعد الأفغانى* أحد حاملى لواء الجامعة الإسلامية فى فترة لاحقة مما يجعله من هذه الناحية مستبعداً من دراسة فكرة الوطنية المصرية تبعاً لنظرته

الشـاملة تلك ، إلا أننا سـوف نرى أن دعوة الأفـغـانى إلى الإصـلاح الـسـيـاسى والاجتمـاعى بين أفراد المجتمـع المصرى، قد دفـعت بشكل غير مباشـر الفكرة الوطنية فى أذهان أفراد الشعب المصرى .

إذاً كان للأفغاني دور ومسـاهمة فى تأصيل الروح المصرية وتحديدها ، من خلال مانشره بين العامة والخاصة من مبادئ ثورية[١٢] أدت بالتدريج إلى نشر الوعى القومى بشكل غير مقصود، جعلتنا نقبل وصفه بأنه كان (باعث النهضة الوطنية فى مصر)[١٣]، إذ استطاع أن يحشد حوله العديد من الطلاب وموظفى الحكومة والمفكرين بإختلاف منازلهم وغرس فى نفوسهم أفكاره ومبادئه تلك[١٤]، ومن ثم أسهم بكل قوته فى غرس الحركة الدستورية والقومية التى أخمدت بعد سنوات قليلة بفعل الإحتلال البريطانى[١٥].

وبناء على ماسبق لا نذهب إلى القول بأنه كان يؤمن بالوطنية المصرية[١٦]، فالأفغانى لم يرتبط "بوطن" بالمعنى الضيق للأوطان ، فكانت قضيته منصبة حول الأمه الإسلامية جميعها[١٧]، إذ يمكن القول بأن الوطنية لديه كان لها مفهومها الخاص، الذى إنطوى على تحقيق الاستقلال الفعلى داخل كل قطر إسلامى ، بعيداً عن المستعمر الأجنبى وبالطبع إذ استطاعت الأقطار الإسلامية التخلص من نير المستعمر – من وجهة نظره – فإنه يحقق بهذا ما سعى إليه من إقامة دولة إسلامية كبرى تحت ظل خلافة واحدة [١٨]، وبهذا لم يشأ الأفغانى أن يثير تيار تغليب القومية الخاصة وذلك بإتباع منهجه الرامى تجاه نظريته الشمولية تلك [١٩]، ومن هنا إتخذ من الجمع بين الرابطة الإسلامية والرابطة الوطنية الأساس الذى أقام عليه دعواه. ولعل ذلك كان وراء نجاحه فى إنضمام بعض المفكرين غير المسلمين إلى حركته الإصلاحية أمثال صنوع وإسحق[٢٠].

على أية حال فإن ما يلفت الانتباه فى إسهامات الأفغانى على المستوى الفكرى تطرقه لفكرة الجمهورية ، حيث رأى البعض[٢١]، أن الأفغانى فضل

النظام الجمهورى وكان ذلك استناداً على مقال تحت عنوان "الحكومة الاستبدادية" ، فقد أشار إلى { أن بقاء الشرقيين عهداً طويلاً تحت نير المستبدين ، وما أدى إليه منع القلم من أن يجرى بذكر "الجمهورية" وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها ....} ، وفى موضع آخر يشير بالقول { أن هناك جملة أسباب تحول دون مناقشة الشرقيين لوضع الحكومة الجمهورية ومن هذه الأسباب استبداد الطغاة الذى يجرد الرعايا من حقوقهم ، وإنتشار الخرافات بين الشعوب الشرقية ، وهى التى تجعل هذه الشعوب تستميت فى مقاومة العلوم الفلسفية الحقة . هذان العاملان يعوقان أى كاتب شرقى من الكتابة حول الحكومة الجمهورية وتحليل طبيعتها ....} (٢٢).

وبهذا يكون الأفغانى قد عرض مزايا الحكومة "الجمهورية" التى يرى فيها نظاماً يستحق إيضاح مزاياه أمام الجمهور ، فى نفس الوقت الذى يعدد فيه الأسباب التى تجعل من وجود هذه الفكرة أمراً مستحيلاً لأبناء الشرق وحكامه – فى تلك الفترة المبكرة من القرن التاسع عشر – ونعتبر أنها مستحيلة التطبيق إستناداً على إعتقاد مؤداه أن تلك المقالة قد هدف الأفغانى من ورائها خدمة دعوته الأساسية المستندة على النظرة الشاملة للعالم الإسلامى ، وبالتالى أبدع فى تفنيد النظام الجمهورى بطرح إيجابيات ذلك النظام ، وقوبل هذا الطرح من جهة أخرى بمعوقات تمنع وتحول تحقيقه فى مجتمع كالمجتمع المصرى بما كان يعانيه حتى تلك الفترة ، لذا نرى أن هذا التفنيد للنظام الجمهورى ومهارة الأفغانى فى تفنيده إنما يأتى فقط بمثابة الخطوة ليبعد بها أذهان مثقفى عصره وساستهم عن الهدف الذى جمعهم لخدمة تيار واحد صار فى تحقيق وإيجاد الهوية الوطنية للمجتمع المصرى .

بالتالى لا استغراب فى إتجاه بعض الآراء بأن الأفغانى عندما هاجم النظام القائم فى مصر إنما كان يدخر فى مخيلته فكرة إقامة الجمهورية (٣)، هذه الأرضية إنطلقت منها دعوته للإمام محمد عبده بقتل الخديو إسماعيل .

على أية حال إذا كان الأفغانى لم يكن من دعاة الوطنية المصرية الساعية إلى فصل مصر سياسياً عن الدولة العثمانية وقتئذ ، وأن تجعل "مصر للمصريين" بعيدة عن العنصر التركى ، إلا أنه بإسهاماته فى العمل على يقظة المجتمع المصرى من سباته ، يكون قد دفع الروح الوطنية فى نفوس المصريين عن غير قصد .

ب - محمد عبده

على عكس منهج الإمام محمد عبده الذى وضع "الوطنية" فى امتحان عملى إنعكست صورته فى برامج تخدم ذلك الإصلاح الذى ينشده [٢٤]، وإن كان فى النهاية نموذجاً للمثقف المصرى القريب التشبث بالفكرة الإسلامية عن فكرة الوطنية المصرية .

وقد زاد من النزعة الوطنية لدى محمد عبده بعده فى فترات بعينها عن تأثير جمال الدين الأفغانى الثورى، ومن هنا كانت مقالاته ذات طابع وطنى معتدل، نرى ذلك عندما نقرأ ماكتبه تحت عنوان "الحياة السياسية والوطن والوطنية" ، {الوطن فى اللغة محل الإنسان مطلقاً ، فهو المسكن بمعنى : استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أى إتخذوها سكناً ، وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب إليه ويحفظ حقك فيه ، ويعلم حقه عليك ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك ...}[٢٥]، لقد إتخذ محمد عبده من المكان سبباً لوجود الوطن ، وبهذا يكون قد رأى أن الوطنية هى عبارة عن تعاون جميع أهل الوطن الواحد المختلفى الأديان على كل مافيه عمران وطنهم ، وبهذا يتعاون الجميع على المصالح المشتركة الوطنية[٢٦]، ومن ثم كان عدم تطرقه لإدخال الدين أو اللغة فى تعرضه لتفنيد معنى الوطن .

وقد رأى الإمام محمد عبده ضرورة توافر ثلاثة أركان فى حب الوطن، أن يكون السكن ومكاناً تتوفر فيه الحقوق والواجبات وأن يكون موضع النسبة ، لذا قال : { وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب مريئاً ، ويبيت فيه أميناً ، وهو مقامه الذى ينسب إليه

ولايجد في النسبة عار ، ولايخاف تعييراً ، وهو الآن موضع حقوقه وواجباته}(٢٧).

ولعل تأكيدنا على صفة "معتدل" تدفعنا أيضاً إلى إضافة ملاحظة تتعلق بتأثير مصادر ثقافة الإمام محمد عبده حيث يغلب عليها الطابع الدينى ، لذا جاءت أفكاره تتسم بالتحليل المقيد بالتعاليم الإسلامية ، تؤدى هذه الملاحظة بنا إلى الإشارة إلى قدر من التشابه فى تعريف الوطن عند كل من الإمام محمد عبده ومن قبله حسين المرصفى ، خاصة فيما يتعلق بتحديد هوية الوطن .

لقد حرص الإمام محمد عبده فى أثناء الثورة العرابية على التأكيد على وضع مصر شبه المستقل عن الدولة العثمانية ، وكان يرفض أى انتقاص لهذا الوضع ، بحجة وجود صراع (مصرى - أوربى) يستلزم خضوع مصر تحت عباءة الدولة العثمانية (٢٨)، إذ أفرزت المشكلات التى مرت بها مصر فى تلك الفترة سواء كانت مشكلات اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية عن إيجاد رأى عام يقظ ساعد على نمو الفكر الوطنى ، مما أدى إلى شعور غالبية المصريين بالانتساب إلى وطن خصوصى لوجود أمة مصرية منفصلة أو شبه مستقلة بحدودها عن الدولة العثمانية ، ولأن الإمام كان واحد من مثقفى ذلك العصر الذى لم يرتضِ تعارضاً بين القومية المصرية والفكرة الدينية داخل إطار الدولة العثمانية (٢٩) ، من وحى ماتمثله الخلافة العثمانية من رابطة روحية تجمع شتات المسلمين تحت بوتقتها .

لقد إتسمت مواقف الإمام محمد عبده بالمرونة ، فتنوعت بين تأييد للفكرة الوطنية عندما كان يسعى جنباً إلى جنب مع الدعوة للنهوض بالمجتمع المصرى ووجوب إصلاحه من كافة الوجوه ، وبين تأييد للدولة العثمانية ولفكرة الجامعة الإسلامية فى فترة لاحقة عند نفيه والتقائه مرة أخرى بالأفغانى ، والعمل على التنديد بالفكرة الوطنية ، كما سنرى لاحقاً ، حتى استقراره فى مصر على عهد الاحتلال البريطانى حيث إتسمت مواقفة حينئذ بالاعتدال .

أمام هذا يمكننا القول أن الإمام محمد عبده كان أحد مفكرى ذلك العصر الذى يغلب عليهم الإتجاه الإسلامى قبل أى شئ ، وممن كانوا يحرصون على الاشتغال بالحياة الفكرية والثقافية أكثر من اشتغاله بالأمور السياسية ، وذلك لكونه نموذجاً للمصلح الدينى والاجتماعى ، وليس زعيماً سياسياً (٣٠).

صفوة القول ، يعد الإمام محمد عبده نموذجاً يعبر عن مرحلة زاخرة بنماذج من المفكرين وضعوا اعتباراً كبيراً للعقيدة فى بناء نظريتهم وأفكارهم الهادفة إلى اصلاح شئون بلادهم ، بل والمضى بوطنهم قدماً إلى الأفضل ، حتى تبدأ مرحلة أخرى إتسمت فيها نماذج المفكرين والمثقفين ذوى تربية كان مصدرها المدارس المدنية التى أسسها حكام الأسرة العلوية فى مصر ، ومن هنا تتلمذوا على أساس الفكر العلمانى الأوربى أمثال قاسم أمين ، أحمد فتحى زغلول ، أحمد لطفى السيد(٣١)...... إلخ ، وقد بذل كلا الجيلان أقصى جهدهما للنهوض بالمجتمع المصرى كل من زاوية رؤياه ، وهذا ماسوف نوضحه فى حينه .

جـ - عبد الله النديم

بهذا نكون قد تناولنا هذين النموذجين من المفكرين على أنهما يمثلان مرحلة انطلق بعدها مفكرون آخرون بخطوات أكثر وعياً وتميزت بميزة التحديد والأسلوب المباشر العصرى فى طرح أفكارهم وتوجهاتهم، يستهل تلك الكوكبة الجديدة من المفكرين عبد الله النديم الذى خالف بعض أقرانه الذين فضلوا الجنسية العثمانية واعتبروا أنفسهم عثمانيين جنساً بإعتبار مصر جزءاً من دار الإسلام التى يسيطر عليها الخليفة العثمانى ، كما نلاحظ ميزة التحديد فى الأفكار والإقتراب من وضع معالم خصوصية وطنه عندما نذكر أنه اعتبر مصر جزءاً من العالم العربى الناطقين باللغة العربية لساناً ، فهو يفضل الانتماء للعروبة عن الإنتماء العثمانى .

لذلك أيضاً يعد النديم أول من أخذت أفكاره تستند على عوامل أقوى بل وأقرب إلى ماهو موجود فى الواقع ، مما يميز آراءه عن سابقيه فى اطار محاولته البعد عما نادى به من أفكار فضفاضة تنادى بوجود وحدة أو إتحاد بين العالم الإسلامى ليأتى عبد الله النديم ويذكر أن الإنتماء للعالم العربى يعد أكثر ملائمة وواقعية، وربما استند فى ذلك إلى عاملين هامين أولهما الوحدة الجغرافية النسبية بين العالم العربى، ثانيهما الوحدة اللغوية بين الأقطار العربية وهذان العاملان نراهما أكثر تلازماً ومنطقية ، مما يشير إلى النضج الملحوظ فى تلك الأفكار لأنه بهذين العاملين قد أدرك وتجنب عوامل التنافر بين أقطار العالم الإسلامى من حيث العامل الجغرافى والعامل اللغوى ليبقى عامل أوحد تمثل فى العقيدة فقط، يؤكد ما رمينا إليه فى هذا الإتجاه قوله : { أنى رجل عربى الجنس حسنى النسب إسكندرى المولد وأعربى إسلامى الدين أشعرى العقيدة شافعى المذهب خلوتى الطريقة مصرى الوطن}(٣٢)، لم يكن مفهوم الجنسية المصرية قد تحدد بعد ، فالجنسية العثمانية كانت هى التى تعم أقطار العالم الإسلامى آنذاك ، أما النديم قد قدم جنسه العربى ، ولم يتطرق إلى الجنسية العثمانية بل قدمه عن ديانته الإسلامية ، ثم ألحقهما فى النهاية بوطنه مصر .

ومع ذلك فإن النديم أدرج تحت لفظ "المصريين" العرب والترك والچراكسة القاطنين مصر فهو يقول : {نعنى بالمصرى كل وطنى من العرب والترك والچركس أما العرب فإنهم ساكنوا الأقباط من الأيام الأولى للفتح الإسلامى إلى الآن فتوغلوا فى الوطنية من أمد بعيد . وأما الترك فإنهم وإن تأخروا عن العرب فى الإستيطان ولكنهم هجروا بلادهم وتعاقبوا الإقامة ولداً عن ولد حتى نسوا بلادهم فلو عاد أحدهم إليها لكان أجنبياً فيها لطول العهد . فهم مصريون أصليون وأما الچركس فإن من ولد منهم فى مصر فحكمه حكم العرب والترك ومن ولد فى غيرها فقد جاءها صغيراً دون سن التمييز فى الغالب وربما أنه لايعرف اسم بلده أو والده ووالدته عند كبره لمفارقته وطنه قبل المراهقة فهم مصريون حقيقيون لايمتازون إلا بمعرفة أصل الجنسية بينهم } (٣٣)، لقد جعل

النديم من العرب والترك والجراكسة مصريين حقيقيين مادامـوا تربوا في هذا الوطن ، هل يمكن هنا أن نعزو للنديم أسبقية رصد حقيقة القول الذى سوف يترسخ فى مراحل زمنية تالية والذى مؤداه أن الدين لله والوطن للجميع ؟!

فقد أشار فى موضع آخر بالقول : {لاتقولوا هذا عربى وهذا تركى وهذا شركسى فكلمة "الوطنية" تجمعنا ووحدة الدين تنادى بيننا بالإتحاد} (٣٤)، على أساس هذا الإعتقاد أعتبر النديم أسرة محمد على "مصرية" وليست أجنبية ، فإنه يتفق بذلك مع الطهطاوى ، ويختلف مع الأفغانى معلمه ، وقد أكد على ذلك فى أكثر من موضع إذ أشار مخاطباً تلميذه على صفحات جريدته بالقول : { إن الحاكم إذا كان من أهل البلاد عاملهم بمقتضى عوائدهم وطباعهم وأخلاقهم وحفظ لهم ناموس الشريعة المتمسك بها معهم وخاف عليهم خوفه على ولده وأهله فإنه يعلم أنه بهياعتهم الإجتماعية ملك عظيم وبدونهم فرد من الأفراد . وإنظر لبلادك التى أنت فيها تجدك محفوظاً بحاكم ولد فى أرضك وتربى على مطعومك وفطر على لغتك .. ولو كان الحاكم من غير جنسك لعز عليك الوصول إليه}(٣٥).

وعندما تطرق النديم إلى معنى الوطنية حددها فى صورة {غذاء ينتفع به جميع الجسم بحيث لايترك عرقاً من عروقة إلا وقد أجرى فيه ماء الوطنية التى هى حفظ البلاد ولغتها وعاداتها الجميلة وتوسيع العمران بالصنائع والمعارف والأمن والثروة وموته فى تربتها كما نشأ فيها . . } (٣٦)، وبذا يكون قد مزج بين الفكرة القومية ومحتواها عندما ربط تحقيق الحياة الوطنية بضرورة إنتشار المعارف والصنائع والمحافظة على الأمن والثروة ، وفى المقام الأول المحافظة على اللغة والعادات والدين(٣٧)، وبذا تتحقق دعائم الوطنية داخل المجتمع ، وحول حق الوطن على بنيه أشار إلى ضرورة حفظ لغة الوطن وتثبيت العمل به ، بالإضافة إلى العمل على نشر المعارف بين أبناء الوطن .

انطلق النديم فى دعواه لإقامة الحياة الوطنية إلى ضرورة التضحية من أجل محبة الوطن (فمحبة الوطن تحرك قلب الإنسان وتهيج مادة غريزية تدفعه إلى الغيرة على الوطن فيفاديه بكل قواه وما عنده ماديا أو اداريا أو أدبيا.....)(٣٨)، إن هذا الحديث ينبع من عاطفة قوية لدى النديم أملت عليه حب وطنه فحركت جميع مشاعره ودعته لنشر دعواه عن ضرورة محبة الوطن، فقد رأى أن على كل أفراد أية أمة ضرورة محبة أوطانها، فهو لم يقصر حديثه عن محبة بنى مصر لها، وإنما ألزم كل أمة أن تسعى لتحقيق محبة وطنها، على العكس من رفاعة الطهطاوى، الذى رأيناه يتغنى بحب مصر فقط، أما النديم فتغنى بمحبة الأوطان فى كل زمان ومكان.

وإن كان النديم تلميذ الأفغانى - بل يمثل التيار الثورى - فى مدرسة الأفغانى الفكرية، إلا أنه مع ذلك كان أقرب إلى الوطنية المصرية منه إلى الفكرة الإسلامية - مقارنة بالإمام محمد عبده - مما يجعلنا نعترف له بالفضل فى خدمة المجتمع المصرى خدمات هدفت إلى اصلاحه السياسى والاجتماعى والاقتصادى، وفى نفس الوقت ساعدت بشكل غير مباشر على نضوج فكرة الوطنية المصرية، وبهذا ننفى عنه القول بأنه أول من ربط بين القومية المصرية والفكرة العربية، مستغلاً عاملى الدين واللغة(٣٩) - فهاتان القوميتان لم تتحدا بشكل واضح وأكيد إلا فى فترات متأخرة نسبياً عن عصر النديم، فقد تبلورت القومية المصرية بشكل قريب من الاكتمال على يد أحمد لطفى السيد فى أوائل القرن العشرين - كما سنرى فيما بعد - أما القومية العربية فيكون تبلورها فى مصر على الأقل فى النصف الأول من القرن العشرين بشكل حثيث مع إنشاء جامعة الدول العربية.

قياساً على ما سبق، فإن النديم لم يساير الأفغانى أيضاً فى دعواه إلى الجامعة الإسلامية - فى فترة لاحقة - حيث اتخذ النديم خطاً مغايراً فمن جانبه

عمل على تفكيك عرى الروابط بين مصر والدولة العلية، مما ساعد على تبلور فكرة "مصر للمصريين" فى مخيلة الفئة المثقفة من المصريين، وهذا زعزع النظرة المقدسة التى كان ينظرها المصرى إلى الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية عليه من ناحية، وممثلة الرابطة الروحية من جهة أخرى.

ولعل فى رد النديم على مقال (لشارم غبريال) بجريدة الديبا بباريس فى ٨ أكتوبر ١٨٨١ يتهم الحركة العرابية بأنها قامت بتشجيع من الآستانة، فجاء رده مفحما بمعاني الاستقلال، اذ يقول : (عافاك الله يا شارم من داء الخلط فانك تعلم أن مصر لها أمير يخولها حقوقا لا يغالبها عليها مغالب فما هى سلطة مولانا السلطان التى يريد اعادتها ويترقب الفرص بعد علمك بأن له السيادة علينا ونحن نعترف بجلالته وخلافته الإسلامية العامة ونخطب باسمه الشريف ونستظل تحت علمه المنيف ونتعامل بسكته المضروبة باسمه وندفع الخراج عن رضاء وطيب نفس واعترافنا بسيادته وقيامنا بخدمته يثبتان مقامه السامي طهارة بواطننا ويوكدان لجلالته حرصنا على امتيازاتنا واتفاقنا على حفظ ناموس خديونا الجليل..)(٤٠).

لقد أظهرت تلك الكلمات حرص النديم بكونه مصرياً على تلك الامتيازات والاتفاقيات التى سلخها من الباب العالى والتى جعلت مصر بمقتضاها ولاية متميزة داخل الدولة العثمانية التى لها الحقوق المعترف بها فقط، كما نلاحظ فى ذات الوقت حرصه فى صياغته على استخدام أسلوب التمييز لقوم يتحدث عنهم "بناء" التأكيد على ايجاد ما يفصل بين مصر والدولة العثمانية عندما يذكر "السيادة علينا" "قيامنا بخدمته"، "امتياز اتنا" "اتفاقنا".

على أية حال فإن الدعوة الحقيقية التى حمل لواءها النديم كانت فكرة "الرابطة الشرقية" ، والتى رأى فيها صوناً للشرق بأجمعه من أن يقع فى شرك

الأطماع الأوربية، حيث كان النديم من دعاة "الجامعة الشرقية" تلك الدعوة التى سوف تستمر مع صفحات جريدته "الأستاذ" فى فترة لاحقة.

د - يعقوب صنوع

انصبت اهتمامات يعقوب صنوع* حول الحث على ضرورة تغيير الأوضاع الداخلية للمجتمع المصرى سواء السياسية أو الاجتماعية، ومن ثم كان كل همه هو كشف النقاب عن عيوب ونواقص المجتمع، ساعيا إلى طرح الحلول التى تسهم فى حل مشاكله، ومن ثم انغمس يعقوب فى العمل الإصلاحى بإتخاذ وسائل عديدة عصرية سوف نشير اليها بعد قليل.

وفى ضوء اهتماماته بمصر والمصريين، لم يتطرق إلى فكرة الرابطة الإسلامية، بل استبعدها من تفكيره - ربما من منطلق يهوديته - عندما ركز على ضرورة اتحاد المسلم والقبطى واليهودى تحت بوتقة واحدة مع تحقيق قدر من المساواة والحرية لجميع أبناء الوطن المصرى دون تفريق بين عنصر وآخر، وبهذا يحقق قيام المجتمع المصرى على أساس مبدأ "المواطنة"(٤١)، فيرى أن الرابطة الوطنية التى تربط أبناء الوطن الواحد أوثق بكثير من الرابطة الدينية التى تربط مصر بدولة الخلافة العثمانية، وهكذا لم يختلف يعقوب صنوع عن سابقيه فى تبنى هذه الرؤية الجديدة.

وقد زادت النزعة الوطنية لدى صنوع - فى فترة تالية أثناء مساندته للثورة العرابية - وأصبح من المؤمنين بشعار "مصر للمصريين" الذى رفع بمثابة شعار آنذاك، بل ذهب إلى جعل هذا الشعار عنواناً لاحدى جرائده فيما بعد ، بالإضافة إلى أنه قام بطرح أفكار جريئة عن تصوره لسلطة الحاكم، عند ما عبر عن رأيه فى فكرة الجمهورية فى قوله : (يبين لى أن أفكارى جمهورى من الوطنيين خلع الأمة للحاكم أعنى الخديو وقومه وجعل مصر حكومة جمهورية تجرى بمقتضى

قانون الجمهوريات الحرية، وتنتزع عموم الأجانب من دوائر حكومتها وتستمر في إصلاح شئونها، أننا نرى المصريين اليوم يجمعهم قبول واحد وهو خلع الخديو)(٤٢)

ويبدو أن فكرة النظام الجمهورى كانت تدور فى مخيلة مثقفى ذلك العصر ربما نتيجة احتكاكهم بالمؤثرات الغربية الحديثة، ومن ثم مثلوا استجابة منطقية للأفكار الحديثة عن نظم الحكم الجديدة، وسنلحظ ذلك أثناء مناقشات قادة الثورة العرابية وزعمائها.

هـ - أديب اسحق*

لقد أسهم المهاجرون الشوام فى خدمة الوطنية المصرية اكثر من المصريين أنفسهم، فكانت أفكارهم أكثر تحررا وتحديدا، فالجامعة الوطنية بالنسبة لعقول كانت فى صورة أقرب وأوضح من فكرة الجامعة الدينية، اذ ساعدتهم الأصول الجغرافية والعرقية التى تمتعوا بها فى المحافظة على جسور الاتصال مع الغرب ومن هنا كان تقبلهم السريع لاستخدام المفاهيم الغربية(٤٣).

فأديب اسحق يعرِّف الوطن بقوله : (المسكن الذى يقيم به الإنسان، و عرفهم البلاد يتوطنها سواد الأمة الأعظم، ويتوالدون فيها، ولا يشترط فيه مسا معلومة بدرجات معينة، وأقليم واحد بتخوم معروفة، وإنما يعرفه ما ذكر من تو معظم الأمة به، وقد يضاف إلى الوطن بلاد لم تكن منه، وهى أما تكون فتو ضمت اليه عنوة، وأما أن تنضم اليه برضا أهلها)(٤٤).

يدفعنا قول أديب اسحق السابق إلى وصف آرائه وأفكاره بالجموح، ر لأن تلك الأفكار قد بنيت على أسس ثقافته الغربية - كما ذكرنا - بل وتأ عقيدته أيضاً، يتضح ذلك فى التناقض بين دعوته لعدم ضرورة وجود معال حدود جغرافية لتحديد وطن بعينه مع قوله أن يقبل انضمام شعوب أخرى دون

يشير إلى جنسية أو معالم تلك الأمم الجديدة، كما يمكننا أن نضيف ملاحظة تجاهله التام لعنصر اللغة ايضا - فى هذا الموضع - رغم ما لهذا العنصر من وجاهته فى كافة ما طرح من قبل من رؤى وتصورات مفكرى عصر إسحق.

وله فى حب الوطن كلمات منها : (وقد أختلف فى سبب حب الوطن، فقيل أن السبب فيه الألفة، فإن الانسان اذا ألف شيئا أحبه، وأجيب بأنه قد يخرج الانسان من وطنه صغيرا، فينبت فى آخر، ولا ينسى مع ذلك حب وطنه . وقيل إن حب السكان، يورث حب المكان . وعندنا أن ياء الاضافة فى قولى "وطنى" هى السبب فى حبى لوطنى . كما أن ياء النسبة فى قولنا فرنسوى هى السبب فى حب الفرنسوى لأمته فتأمله . فلله من ياءين نسبة، وياء إضافة، يدعوان إلى فضيلتين حب الأمة وحب الوطن) (٤٥)، أن فحوى كلمات إسحق توضح إلى أى مدى كان تأثير الأفكار الغربية عليه ايجابيا دفعه الى أن يعدد أسباب حب الوطن فى نفس أبناء الوطن.

وانطلق أديب إسحق إلى تعريف الأمة حيث قال : (أنها الجيل من كل حى ومن الرجل قومه وفى عرف أهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً الخاضعة لقانون واحد . وقد زعم بعض الناس أن من لوازم وحدة الأمة وحدة لغتها وهو وهم لأنه إما أن يُراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس أولاً، فإن كان الأول فهو فاسد، لأنه قد يولد الانسان بين قوم، فيتعلم لغتهم، وهو بعيد عنهم نسبا . فإمتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس، وان كان الثانى فهو من قبيل ايجاب ما ليس بواجب، ولو اقتصر أهل هذا الرأى على استحسان وحدة اللغة فى الأمة لأحسنوا . فقد ثبت بما ذكر أن الأمة هى الجماعة من الناس تتجنس جنسا واحدا، أى تتسم بسمة واحدة على اختلاف أصولها ولغاتها، وتتعارف باسم تنتسب اليه وتدافع عنه) (٤٦). وقد أستدل البعض(٤٧) على أن قول إسحق فى أن (الأمة من الرجل هى قومه)، بأن إسحق جعل "القومية" من "الأمة " بمثابة

"الوطنية" من "الوطن"، وبهذا يكون قد وضع تصورا لمفهوم "القومية" آنذاك
كنا نرى أن فهم مفكرى ذلك العصر لمفهوم "القومية" كان ضعيفاً، بل لا
وجود، أو بمعنى أصح لم يكونوا بعد قد استطاعوا أن يُفرقوا تفريقاً تاما
مفهوم "الأمة" "والقومية" في ذلك الوقت المبكر من تطور هذه المفاهيم ونموها

وعلى الجانب الآخر كيف لنا أن تتضح الصورة إذا ما وضعنا قوا
الأمة هى الجماعة من الناس تتجنس جنسا واحدا، أى تتسم بسمة واحد
اختلاف أصولها ولغاتها، وتتعارف باسم تنسب اليه وتدافع عنه) مع قوله ا
حينما حاول تحديد معالم الوطن قائلا (وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن
وهى أما أن تكون مفتوحا فضمت اليه عنوة، وأما أن تنضم اليه برضا أ
هذا الرأى قد خلا من تحديد سمات تلك الأمم التى قد تتحد مع أمة أخر
يكسب آراءه دائماً قدراً من الغموض واتساع المعنى.

رغم هذا التباين الذى نلاحظه فى أفكار أديب اسحق إلا أننا نسلم
من الولاء الشخصى منه للدولة العثمانية (٤٨)، من زاوية تجاوبه مع ص
المفكرين المعاصرين له فى الإيمان بضرورة وجود الدولة العثمانية، من
صد الأطماع الأوربية عن بلاد المشرق، هذا بالإضافة إلى أنه اتخذ من ال
العثمانية وسيلة ليؤكد من خلالها على أن نزلاء مصر الشرقيين ينتمو
الوطن المصرى ولهم نفس حقوق المصريين، لارتباطهم بجامعة التب
السياسية(٤٦).

يمكن القول بأن أديب إسحق عند تناوله لألفاظ "الوطن" و"الأمة" كان
الشبه من المرصفى(٣)، وإن كان إسحق قد استبعد ضرورة وحدة اللغة كأ
لوحدة الأمة في قوله : وقد زعم (بعض الناس أن من لوازم وحدة الأمة
لغتها وهووهم .... ولو اقتصر اهل هذا الرأى على استحسان وحدة الل
الأمة لأحسنوا)، هذا بالإضافة إلى أنه لم يشر للرابطة الدينية، وإن
المرصفى قد أشار اليها إلا أنه لم يحدد ما المقصود بها.

بناء على ما سبق يمكن النظر إلى إسحق بأنه كان ممثل أفكار الثورة الفرنسية في مصر، وقد اتضح ذلك جلياً من خلال تناوله للوطن والوطنية والأمة بالشرح والتفصيل، فقد انعكس احتكاكه بالحضارة الأوربية الحديثة على نهج تفكيره وساعده على بلورة فكرة الوطنية بشكل محدد بالقياس إلى مثقفى عصره، حيث لم يذهب مذهب من دعا إلى ضرورة قيام الجامعة الإسلامية – فى فترة لاحقة – فالشوام عموماً كانوا يحبذون دفع فكرة "العروبة" (٥١) إلى الامام خطوات، ولربما كان للدين دخل فى ذلك، فمسيحيو الشام كانوا هم المتحمسين لتلك الفكرة، بالإضافة إلى نظرة العداء للدولة العثمانية من جراء القلاقل والفتن التى حدثت لهم فى أوطانهم مما جعلهم بعيدين كل البعد عن المناداة بالجامعة الإسلامية فى ظل الخلافة العثمانية.

ونجد تأييداً لفكرة العروبة من قبل إسحق فى قوله : (فنحن فى الوطن اخوان تجمعنا جامعة اللسان كلنا وان تعدد الافراد انسان .... أم لا يعلمون أن مثل هذا الاجتماع منزه عن المقاصد الدينية، منحصرا فى العصبة الجنسية والوطنية، مؤلفا من أكثر النحل العربية، يزلزل الدنيا اضطرابا ويستميل الدول جذبا وارهابا ... فتعدّد للعرب الضالة التى ينشدون، والحقوق التى ينشدون...)(٥٢) لقد اتخذ من اللسان العربى مقوماً من مقومات الوطنية، أما مسلمو الشام فقد مال معظمهم إلى تيار الجامعة الإسلامية العثمانية، بالاضافة إلى اشتغالهم بالثقافة الإسلامية وبالتاريخ الإسلامى من أمثال رشيد رضا وعبدالرحمن الكواكبى، ومنهم من كان داعية لآل عثمان فى أخريات حياته من أمثال فارس الشدياق. (٥٣)

على أية حال يمكن القول بأن أديب إسحق كانت قوميته مصرية وشرقية(٥٤)، فجنباً إلى جنب كان ممن ينادى "بمصر للمصريين"، من خلال مقالاته لاثارة حمية المصرى للدفاع عن دياره فيقول : (ومصر – ولا حياء فى

الحب بلد تركت فيه زهرة أيام الشباب، وخلفت باكورة غرس الآداب، وهززت غصن الأمانى رطبا، ... ولست أول محب زاده البعد وجدا ... فحذار أهل مصر ان العدو لكم بالمرصاد، وانكم لمحفوفون بالعيون والأرصاد)(٥٥)، لقد سعى أسحق إلى تنبيه المصريين بالاخطار المحدقة بهم، فيتحدث إلى الأمة المصرية حاثا إياها بالنهوض من كبوتها لتصل إلى مصاف الأمم الحرة، فهو يتحدث اليها من منطلق كيانها المتفرد بأمجادها التى يجب أن تفخر بها وتسعى جاهدة للحفاظ عليها، لقد آمن أديب بدعوة "مصر للمصريين" ودفعها إلى المجتمع المصرى فتلقفتها آذان العامة ترددها دون أدنى شك فى أنها صالحة لذلك الزمان الذى رأت فيه بلادها خاضعة للدخيل الأجنبى يعبث بمصائرها كيف يشاء.

رغم هذا لم ينتبه أديب إسحق لما نادى به تواً حيث لم يستطع أن يخرج من اطار التناقضات التى توصف بها أفكاره فقوله السابق قد فرق بين شخصيته وبين شعب مصر، عندما وجه خطابه بصيغة "لكم" و "منكم" وكأنه لم ينتم لهذا الشعب إذا سلمنا بالضوابط والعناصر التى نادى بها هو نفسه وتنطبق عليه في ذات الوقت تلك العناصر التي تكفي أن تجعله يتحدث بصيغة الجمع وليس الفصل بينه وبين أفراد الشعب المصرى.

وعلى هذا النحو مزج أديب بين الرابطة الوطنية والرابطة الشرقية على نحو ما فعل النديم، اذ وجد أن الشرق أيضاً يحفوه المخاطر {نحن إلى الاتحاد والتآزر والائتلاف والتضافر أحوج منا الى الغذاء والماء ... ولاسيما أننا فى العصر الذى ارتفع به شأن الغرب وعمت النعمة فى أقطاره وانخفض مقام الشرق وشملت النعمة أمصاره، فإن لم تجمعنا سماء تظلنا أو أرض تقلنا أو لغة ننطق بها أو مصلحة نحرص عليها ... فلا أقل من أن يجمعنا شمول المصيبة والبلاء والانحطاط والشقاء} (٥٦)، ومن ثم رأى ثمة مجالاً أوسع يخدم فيه جميع الأمم الشرقية فسعى نحوه، وقد لا يخفى علينا كونه مهاجراً قد دفعه إلى التمسك

بالدفاع عن الرابطة الشرقية التى تحمى حقوق نزلاء مصر الشرقيين، إذ كان مسعاه تسوية هؤلاء النزلاء بأهل البلاد المصريين فى كافة الحقوق والواجبات التى للمصرى، حيث وجد فيهم قابلية، بالاضافة إلى {اتحاد مصلحتهم بمصلحة الوطن المصرى، وميل أنفسهم إلى إعلاء الكلمة الوطنية}[٥٧].

وفى مسعاه لتقريب فكرة "الرابطة الشرقية" إلى أذهان المصريين قال متحدثا اليهم : {لا يليق بذى الدراية والذكاء أن يحصر الوطنية المصرية فى أهل الفلاحة وان يلتمس لهم مكانهم فإن أقل ما فى ذلك من الوهم أن يخرج ثلاثة أرباع سكان القطر ان لم نقل خمسة أسداسهم أو تسعة أعشارهم من الوطنية}[٥٨].

لقد كان أديب يسعى دوماً لإلحاق العناصر السورية داخل المجتمع المصرى بالأمة المصرية لإشتراكهم فى اللغة والمشرب والتبعية العثمانية ، وينفى أن تصبح مصر أسيرة أقباطها فقط ، لأن هذا يخرج المسلمين والبيت العلوى والأمراء والوزراء من الأجنبيين [٥٦]، فمن وجهة نظره اعتبر أن الأمة السورية والأمة المصرية تمثلان الأمة العربية الناطقة بلسان عربى واحد ، وفى نفس الوقت يتبعان الدولة العثمانية سياسياً إذ تُعدان من رعاياها العثمانيين . وهكذا يكون إسحق قد أكد على الوحدة السياسية للمجتمع المصرى دون النظر إلى الوحدة الدينية ، ومن ثم سلخ العقيدة من منظوره سعياً وراء جامعة وطنية.

و- سليم النقاش

لقد ارتبط ذكر سليم النقاش بأديب إسحق لإسهاماتهما المشتركة فى المجالات الثقافية داخل المجتمع المصرى – كما سنرى لاحقاً – ومن ثم قام بدوره فى إثراء الحياة الفكرية داخل جدران المجتمع المصرى .

وقد اختلف سليم النقاش مع أديب إسحق في النظرة إلى الفكرة الوطنية، إذ رفض تمتع الممالك الشرقية بهذه الفكرة ، حيث قال : { إن ممالك الشرق قد

حرمت هذه المزية) ، هذا بالإضافة إلى أنه اعتبر أسرة محمد على أجنبية ودخيلة على مصر ، لذا نفى وجود وطنية مصرية ، من منطلق أن الوطنية لاتوجد إلا فى الوطن المستقل ، فالوطنية {لاتقبل الدخيل ولا يلائمها ماغير معدنها ..}(٦٠)، فالمعلوم أن سليم النقاش كان ممن يؤمنون بمصر للمصريين ، فمن الطبيعى أن تكون أهدافه متمثلة فى التخلص من الأسرة العلوية ، ولعل دليلنا على ذلك مؤلفه الذى حمل عنوان "مصر للمصريين " يوضح تمسكه بذلك المبدأ، وعلى الرغم من أنه لم يكمل مسيرة الوطنية المصرية عندما تخلى عن مساندة الثورة العرابية ، إلا أنه قد كتب وصفاً عظيماً عن الفترة الثورية سماه "مصر للمصريين" (٦١)، ضمنه تاريخاً لمصر من زاوية كفاحها فى سبيل نيل حريتها ، ونستشف من العنوان ، رغبة فى تأصيل الروح الوطنية المصرية ، ولعل ذلك مادفع إسماعيل إلى جمع الأجزاء الأولى من الكتاب ليتخلص منها، كما رجح البعض ذلك ، لما كان يحتويه من دعوة قومية(٦٢)، على أية حال لم يصلنا من هذا المؤلف غير الأجزاء من الرابع إلى التاسع الخاص بعهد توفيق والثورة العرابية ومحاكمات زعمائها (٦٣)، أما فيما يتعلق بعهد محمد على باشا والخديو إسماعيل فلم نعثر عليه .

وقد نظر الكتاب الغربيون إلى مؤلف سليم النقاش على أنه كان إنتاجاً طبيعياً لكاتب مسيحى سورى مهاجر ، معزول عن التيارات الوطنية نظرا لما غلبت عليها من مسحة إسلامية ، ومن هنا خرج مؤلفه عن أن يكون بمثابة دعاية سياسية للعرابيين (٦٤).

صفوة القول أن الأفغانى والنديم قد اختلفا عن أقرانهما السابقين الطهطاوى والمرصفى وعلى مبارك ، فى عدم التركيز على الخصوصية المصرية ، وعدم وضع تعريفات تحدد الوطن المصرى من وجهة نظرهما ، ويمكن إرجاع ذلك بسهولة إلى كون الأول غير مصرى بالإضافة إلى دعواه إلى الرابطة الإسلامية التى أملت عليه تفكيره ، ومسعى الثانى للدعوة إلى الجامعة الشرقية ، أما الإمام

محمد عبده فقد أشار فى عام ١٨٧٦ إلى الشعب المصرى وما يمثله من خصوصية مصرية ، وبالمقابل نجد يعقوب صنوع وأديب إسحق يهدفان إلى تكوين مجتمع سياسى يقوم على أسس علمانية [٦٥]، ربما كان سعيهما فى هدم الرابطة الدينية للمجتمع المصرى كان نابعاً من كونهما مخالفين فى العقيدة ، فأحدهما كان يهودياً والآخر مسيحياً ، ولهذا يمكن النظر إلى إسهاماتهما الفكرية والثقافية داخل المجتمع المصرى من وجهة كونهما قد ساعدا على نمو فكرة الوطنية المصرية بإنتزاعها رويداً رويداً من أحضان الفكرة الإسلامية التى صبغت المجتمع المصرى آنذاك .

وهكذا نخلص إلى أن تيار النهضة الفكرية فى عصر إسماعيل لم يعد مقصوراً على المصريين فى حضور واحد من الزعماء البارزين والمؤثرين فى تشكيل الفكر القومى ألا وهو جمال الدين الأفغانى[٦٦]، جنباً إلى جنب فى حضور أبناء الشام، جنباً إلى جنب مع المفكرين المصريين ، وقد ساهم جميعهم فى تقوية التيار الوطنى الذى رسخ الشعور "بالمصرية" مع مرور الوقت.

٢ - المؤسسات الثقافية ونمو الفكرة الوطنية

مثلت المؤسسات الثقافية فى عصر إسماعيل جانباً عملياً ساهم فى نمو فكرة الوطنية المصرية ، لما أحدثه من تأصيل للروح المصرية التى تجاوبت مع أحداث البلاد الداخلية والخارجية بفضل ما أتيح للشعب المصرى من وسائل عصرية استطاع عن طريقها الإلمام بكافة الشئون المصرية ، إذ تمثلت تلك الوسائل فى المؤسسات ذوات الصبغة المدنية من صحافة ومسرح وأدب .

أ- مولد الصحافة الوطنية

تعددت الصحف واختلفت اتجاهاتها وتياراتها ودخلت العناصر المثقفة فيها حيث ساهمت فى نشأتها ، وساعدت الظروف الداخلية والخارجية – التى مرت بها مصر حينذاك – على تمهيد الطريق أمام الصحافة لتلعب دوراً هاماً فى تهيئة المناخ الملائم لنمو الرأى العام المصرى محاولاً المساهمة فى تشكيل العقلية المصرية .

ومن هنا لم يقتصر دور الصحافة على معالجة المسائل المتعلقة بشئون مصر الداخلية فقط ، بل تعدتها إلى الإهتمام بالشئون الخارجية للعالم المحيط بها ، فلعبت دورها فى مهاجمة الموقف الاستعمارى للدول الأوربية من جهة ، وعلى الجانب الآخر تصدت للتدخل الأجنبى داخل القطر المصرى، محاولةً إظهار مساوئه على جميع مرافق البلاد وإيجاد حل مناسب للخروج من الأزمة المالية المستفحلة* فى ذلك الوقت بسبب السيطرة الأجنبية .

وبفضل الخديو إسماعيل ورغبته التى لازمته دائماً فى أن يحاكى أنماط الحياة الأوربية كانت النهضة الصحفية التى شهدها عصره التى تمثلت فى إنشاء العديد من الصحف والمجلات العلمية والأدبية والسياسية**، التى نرى أننا فى غير حاجة لتناولها فى اطار بحثنا هذا .

لم يقتصر دور الخديو إسماعيل على إنشاء الصحف بل زودها أيضاً بالدعم الأدبى مثل إمدادها بالمعلومات والأفكار اللازمة (٦٧) لمادة الكتابة إلى جانب الدعم المالى ، إلى جانب أنه حاول جاهداً التقرب من الكتاب المصريين والشوام والأجانب على حد سواء ، ونحن نعلم أن سياسات إسماعيل هذه كانت نابعة من كونه رأى فى الصحافة خير معين للدفاع عنه ضد الباب العالى ، إذ دفع الكتاب والصحفيين لتناول القضية المصرية لتوضح حق مصر أمام الدول

الأوربية فى صراعه مع الباب العالى (٦٨)، وهذا شئ يحسب له فى إطار الأفكار المنادية بالحرية والديمقراطية فى عصرنا .

إنعكاساً على ذلك ، ظهرت الصحافة الشعبية الحرة فى بيئة خصبة تموج بالأفكار الجديدة ، فقد برز أعلام من المفكرين والعلماء ساعدوا على نموها وتطورها وإحداث تأثير فى المجتمع المصرى (٦٩).

ومن أمثلة هؤلاء المثقفين الذين ساهموا فى نمو الرأى العام عن طريق الصحافة جمال الدين الأفغانى، حيث وعى أهمية الدور الذى تلعبه الصحافة فى إيقاظ الرأى العام ، لذا وجه إهتمامه إلى الحث على إنشاء الصحف لتكون أحد المنابر لنشر الوعى بين أفراد المجتمع المصرى، ولقد كان أتباعه الممثلون فى هؤلاء الصحفيين الشبان أمثال أديب إسحق، إبراهيم اللقانى ، عبد الله النديم ، مثلما كان الوضع بالنسبة للشباب الأزهرى أمثال محمد عبده ، الذين قد تطبعوا جميعاً بضرورة الحاجة إلى الإصلاح لإعتبار ذلك مقدمة تؤدى إلى إنتعاش قوة البلاد(٧٠)، ومن ثم كانت الكتابات تدور حول الحرية والإستبداد وتقدم الغرب وأسباب تخلف الشرق، وعن الحكم الشورى .... إلخ. وعلى صفحات الجرائد حدث نوع من إصلاح العقول إلى حد ما كما أراد الأفغانى وكما كانت دعوته .

جعل الأفغانى جُل همه مهاجمة الدول الأوربية وخاصة بريطانيا ، {إذ كان يدرك ماتنطوى عليه سياسة التوسع الغربى من تهديد لاستقلال دول الإسلام ، فحاول تعبئة الجماهير روحياً }(٧١)، ومن هنا إلتقت صيحاته مع الشعور القائم بين أفراد المجتمع المصرى من تبعات التدخل الأجنبى فى موارد البلاد مما أدى إلى انهيار الاقتصاد المصرى ، فكان سبباً فى خلق رأى عام متحد ضد الحكومة لأول مرة فى تاريخ مصر الحديثة (٧٢).

والجدير بالذكر أن الأفغانى وجد تربة صالحة لغرس بذور اليقظة والوعى بين أفراد المجتمع المصرى ، لذا آتت بالثمار المرجوة منها ، ونما تيار الرأى

العام بالتدريج ، وتفتحت الأذهان شيئاً فشيئاً ، وتهيئة الأفكار لتقبل الإصلاح ، فلم يكن الأفغانى عبقرياً ليخلق حركة ، لكن الظروف كانت مهيأة لذلك فى أواخر عهد الخديو إسماعيل ، فتجاوب مع تلك الظروف وحدثت النهضة ، وهذا عكس ما إدعاه تشارلز آدمس(٧٣)، الذى أرجع أسباب النهضة إلى تعاليم الأفغانى وحده وإعتبرها أثراً من آثاره ، متجاهلاً أن هناك تلازماً زمنياً بين جهود الأفغانى من جهة وبين تقبل أفراد المجتمع لهذه النهضة والتفاعل معها(٧٤).

لعب الأفغانى دوراً مؤثراً ومنبهاً فى إيقاظ الرأى العام ، ولهذا اعتبرته الحكومة المصرية من المهيجيين فعملت على طرده من مصر(٧٥)، إذ أسهم فى إحياء الوطنية المصرية بطريق غير مباشر عن طريق إسهاماته المتعددة فى كافة المجالات ، فلم تقتصر على صفحات الجرائد فقط ، مما أدى إلى نمو الشعور الوطنى ، وهذا ماسوف نتعرض له فى حينه.

وجنباً إلى جنب عمل الإمام محمد عبده على تكوين رأى عام ناضج إلى حد ما ، فمن خلال المقالات التى كان يكتبها بالوقائع المصرية(٧٦)، تعرض لنقد الأوضاع الاجتماعية داخل المجتمع المصرى ، حثاً على إصلاح المجتمع بما يوائم ظروفه وأحواله ، بعيداً بعض الشئ عن الخوض فى المسائل السياسية ، فأخذت دعوته تنصب على نشر التعليم ، أى العمل على الإصلاح بالتدريج. وبهذا كون تياراً معتدلاً .

واعتبر البعض(٧٧)طريق الإمام فى الإصلاح هو نقطة الضعف عنده ، متجاهلين بأن الإصلاح السياسى لأى مجتمع كان يلازمه حتماً إصلاحاً إجتماعياً يصل بأفراد المجتمع إلى مرحلة من النضج اللازم ليساعدهم على الوصول إلى مرحلة الوعى الكامل بحقوقهم السياسية فيطالبوا بها، فكيف يتأتى لمجتمع جاهل أن يطالب بحقوقه المسلوبة منه إذا لم يكن يعيها ؟ فمن قوله { وليس من الحكمة أن تعطى الرعية مالم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من

التصرف بما له قبل بلوغ سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد} (٧٨)، ومع ذلك لم يمنعه إعتداله بأن يكون واحداً من الزعماء الروحانيين لحركة عرابى(٧٩).

إنضم عبد الله النديم إلى تلاميذ الأفغانى فأصبح أحد مشيدى صرح الإصلاح داخل المجتمع المصرى ، إذ عمل على إيقاظ الرأى العام عن طريق المقالات الصحفية المتنوعة عن الحرية ، الوطنية ، مساوئ الخديو إسماعيل ، نقد المجتمع بعرض مفاسده طرح الحلول للتخلص منها ، بالإضافة إلى حثه على مهاجمة التدخل الأجنبى .

فعلى صفحات جريدة "مصر" ثم "المحروسة" و"العهد الجديد" ، نشر أفكاره متخذاً من إصلاح أحوال المجتمع هدفا له ، لذا خاطب جمهور المصريين بلغتهم العامية إذ كان فلاحاً أصيلاً فهم وطنه وفكرة الوطنية (٨٠)، لذا استطاع أن ينفذ إلى قلوبهم قبل عقولهم ، فقد أقبل القراء على الإطلاع على مايدور على صفحاتها من مقارنات بين الشرق والغرب ، وحديثه عن التعاون بين أفراد المجتمع والوحدة بين عناصر الأمة ..... إلخ .

ومن هذا المنطلق إتخذ النديم من الصحافة وسيلة لنشر آرائه ومعتقداته التى يؤمن بها والتى رأى من الضرورة توصيلها إلى المصريين ، فقد كان يدرك فضل الصحف فى العمل على تثقيف وتوعية الفئات غير المستنيرة ، بالإضافة إلى دورها فى تمدين البلاد(٨١) وبهذا فطن إلى أهمية وجود صحيفة خاصة تكون لسان حاله، وتربط بين أفراد المجتمع فيقرأها الخاصة والعامة، فكانت "التنكيت والتبكيت" فاتحة الصحافة الوطنية(٨٢)، تناقش مشكلات المجتمع وتحاول إيجاد العلاج لها ، وقد نجحت الصحيفة ووصلت إلى المصريين فى المدن والقرى ، تسهم فى تكوين العقلية المصرية عن طريق توصيلها رؤيته الفكرية إلى الشعب المصرى (٨٣)، هذا بالإضافة إلى أنها إتسمت بالروح الوطنية إذ كانت لسان

الشعب فى المطالبة بحقوقه ، خاصة وأنه تحدث بلسان العرابيين - فى فترة لاحقة - بعد أن أصبح واحداً منهم ، ومن ثم كان إصداره "للطائف" لتصبح جريدة الثورة ، فإنعطفت أكثر نحو مناقشة شئون مصر السياسية والحربية وإستطاعت أن تنال نصيباً من الشهرة من وراء إيقاظها للرأى العام وتعبئتها للشعب للقيام بالثورة .

وأخيراً لا يسعنا إلا القول بأن النديم كان {رجلاً أعدته الأقدار لأن يكون صحفي مصر الأول}(٨٤)، إذ أيقظ الرأى العام المصرى فى بعض جوانبه، ومن ثم حرك العقول من غفلتها ووجهها نحو خدمة بلدها .

إن تلاحق الأحداث بصورة مذهلة فى عصر الخديو إسماعيل كان من الطبيعى أن يصحبه مزيد من الحريات، ومن هنا كان ظهور الصحافة الهزلية لمبتدعها يعقوب صنوع وليدة التغيرات الإجتماعية التى لامست المجتمع المصرى ، إذ كانت جريدته {أبو نظارة زرقاء} بمثابة بانوراما حية لذلك العصر ، حيث إمتلأت صفحاتها بالمحاورات العامية حول إنتقاد الأحوال العامة والتنديد بالحكومة ورجالاتها فى قالب فكاهى مما دفع الكثير إلى قراءتها(٨٥)، بالإضافة إلى تنديدها بضعف الخديو إسماعيل ، وبالاطماع الأوربية خاصة البريطانية إذ أنه كان تحت جناحي فرنسا تؤازره وتشد عضده ، فلولا الحماية الإيطالية والمساندة الفرنسية التى تمتع بهما صنوع ماكان أحد يمنع عنه يد إسماعيل ، وقد أشار إلى ذلك بنفسه فى القول : {أنا مصرى ابن مصرى وده لى أعظم إفتخار لأن نكران الأصل عندى أقبح عاد فإذا والدى المرحوم سعى وتحصل على حماية فدا من شوفه الظلم الحاصل على الرعاية فله تعالى الحمد أنى رعية إيطاليان وإلا فرعون كان فى ألف دهية رمانى} (٨٦).

كان من وراء الإقبال على شراء جريدة صنوع أن بدأت المؤمرات تحاك للقضاء عليه حتى تم إغلاق الصحيفة ونفيه (٨٧)، فخوف الحاكم يأتى من وعى

الجماهير بسياساته ، وقد إستطاع صنوع بهزله أن ينفذ إلى العقول المصرية شارحا لهم المفاسد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخل المجتمع المصرى.

لقد كان من المنطقى أن يزداد الهجوم على الخديو إسماعيل أولاً ثم على الخديو توفيق والإنجليز فى فترة لاحقة من خلال مقالاته اللاذعة (٨٨)، على صفحات جرائده فى باريس، حيث اعتبر بمثابة رسول مصر إلى أوربا، يروى عنها كل مستحسن ويدافع عن شعبها وعن حقوقه المسلوبة ، ومن هنا كانت جريدته تهرب إلى مصر وتباع منها آلاف النسخ سراً (٨٩).

لقد استخدم صنوع أسماء مستعارة يخفى وراءها كتابات تحريضية ضد الخديو اسماعيل ووزرائه وأمرائه، اذ كانت معظم لعباته التياترية تنتهى بنهاية ثورية، تشجع الجماهير على الثورة (٩٠)، ومنها ما وجدناه تحت عنوان (شيخ الحارة) اذ يقول عنها أنها لعبة تياترية حصلت أيام الفراعنة، تدور حول قيام الفلاح المصرى ورجال الجيش ومشايخ الازهر بثورة ضد شيخ الحارة*، ومن خلال هذه اللعبة شن هجوماً سافراً على الخديو إسماعيل عندما أفسح عما يجيش فى صدره تجاه رعاياه المصريين حيث يقول فى أحد مشاهدها فى حوار شيخ الحارة مع نفسه (الله ينعلكم يا أهل مصر يعنى أنا عملت لكم ايه ؟ أنا شاريكم من عبد العزيز ودايما السيد يفعل فى عبده كما يشاء فلوسكم دى فلوسى وأنتم ملزومين تخدمونى بالسخرة والفرق بينى وبينكم ايه ؟ أما الفلاحين بيموتوا من الجوع ان شا الله ما فضلوا الفلاح ماهوش بنى آدم الفلاح بهيم وربنا خلقه للتعب زى التور والتور أنفع منه لان بيعطنى لحمه آكله أما الفلاح نتن وهو حىّ وبعد موته القبر فيه خسارة ...)، ان هذه الجرأة التى تحدث بها صنوع على صفحات جريدته كانت بمثابة غليان للأفكار وتحريض على ثورة ضد الظلم، فقد رسم للمصرى البسيط الصورة التى يراها لهم "شيخ الحارة" ثم أوجد لهم

الحل المناسب للتخلص من هذا الجور في صورة ثورة كانت في نهايتها مع المنظر الخامس عندما تم القبض على "شيخ الحارة" واعوانه وغنى الجميع :-

أنت فين يا أبو نضـــارة   تجى تشوفنــا منصـورين

على عمك شيخ الحــارة   وعلى اولاده المنحـوسـين

النهـــارده يـــوم عظـيم   أفرحوا يا أهل النيل(٩١)

لقد علت صيحات الفرح فى نفس صنوع عند عزل اسماعيل، فقد وجد جزءاً من حلمه يتحقق، وان طريقه الذى سلكه ضد الخديو قد نضجت ثماره، اذ يقول له، (أبو السباع أعلم من كثرة ظلمك الملك من يدك ضاع ...)، إلا أن فرحته تلك تساوت مع حزنه بتولية توفيق اذ يعلق قائلا : (.... حرام تولوا الولد العبيط ده على وادى النيل ....) (٩٢)، فالمعلوم أن يعقوب قد آمن بأن الأمير حليم* هو المناسب لحكم مصر.

لقد سار صنوع فى نفس طريقه ساعياً وراء تنوير أفراد الشعب المصرى بحقوقه ومدافعاً عنهم ضد ظلم الحاكم وأعوانه، حتى كان العدد ٣٠ فى شهر ديسمبر ١٨٧٩ أخر أعداد أبى نظارة زرقاء وقد أمضاه "خادم الحرية المصرية" ليستمر مجاهداً من أجل الحرية على صفحات الاثنتى عشرة جريدة التى أصدرها فى باريس تحت مسميات مختلفة (٩٣)، وان كانت فى النهاية ذات مضمون واحد تهدف إلى جعل "مصر للمصريين"، وهذا ما سوف نتعرض له فى الجزء الخاص بالصحافة أثناء الاحتلال البريطانى.

وعلى الجانب الآخر ساهم المهاجرون من الشوام فى توعية المجتمع المصرى بالعمل على انضاج الرأى العام من خلال جهودهم فى الحياة الثقافية المصرية(٩٤) خاصة فى مجال الصحافة، وكانت فرصة تشجيع الخديو إسماعيل

لهم قد هيأت المناخ المناسب للتعبير عما يجيش فى صدورهم من كبت واضطهاد من جراء المعاناة التى عايشوها فى بلادهم** وان كان لا يغيب عن بالنا أن المهاجرين الأوائل منهم عملوا على الاشتغال بالتجارة بشكل أساسى، بهدف جمع المال والبحث عن الشهرة والنفوذ، إلا أن العمل الصحفى قد جذب بعضهم فى عصر إسماعيل(٩٥).

والجدير بالذكر أن هؤلاء الشوام اتخذوا من مصر وطنا جديداً لهم، ومن هنا كان سعيهم للإشتراك فى النهضة الأدبية والفكرية مما شجع أحد الباحثين الأمريكيين(٩٦) على أن يصفهم (السوريون بالمولد والمصريون بالتبنى)، فالكتاب الشوام كانوا يعتبرون أنفسهم والمصريين سواء لاشتراكهم فى الرابطة العثمانية، أو لأنهم لم يشكلوا مجتمعاً متميزاً عن المصريين من منطلق اشتراكهم فى وحدة اللغة(٩٧)، لعل ذلك ما سهل فى عمليه اندماجهم داخل المجتمع المصرى، اذ ما لبثوا أن كشفوا النقاب عن عقول مفكرة أسهمت جنباً إلى جنب مع المصريين فى إحداث نهضة ثقافية داخل أرجاء مصر.

فقد شهدت الصحافة المصرية – فى عصر إسماعيل – مولد صحيفة الأهرام* لمؤسسيها سليم وبشارة تقلا عام ١٨٧٦ الى جانب ظهور المقتطف** ليعقوب صروف وفارس نمر، والهلال لچورچى زيدان، وبروز أعلام الفكر والأدب الشوام كـأديب اسحق وسليم النقاش .. الخ، ولاريب أن هؤلاء الأدباء والمثقفين حملوا على عاتقهم مهمة توعية المجتمع المصرى عن طريق نقل صورة الغرب المتقدم إلى الشرق المتخلف فى سبيلهم للنهوض بالأجيال الناشئة إلى درجة من الوعى واليقظة.

ومن أمثلة هؤلاء المفكرين أديب إسحق، الأرمنى الكاثوليكى الذى يعد من أبرز الأرمن الذين أسهموا فى نهضة الصحافة المصرية وتطور الفكر المصرى الحديث(٩٨)، اذ أفسح فى جريدة مصر والتجارة المجال للحديث عن الحياة

النيابية وسبل تحقيق الديمقراطية، والعمل على نشر التعليم والتنديد بالتدخل الأجنبى فى مصر، وبهذا يكون قد ساهم فى تكوين الرأى العام المصرى، خاصة عن تقديم المقالات التى تشرح للجمهور علاقة الملك بالرعية، ومعانى الحرية، وعن النظام الشورى(٩٩).

وقد عمل إسحق أثناء إقامته فى باريس على عقد المقارنات بين حال المجتمع الأوربى، وحال المجتمع المصرى وما آل إليه من انحطاط وضعف، ويخرج من ذلك ليقدم كلمات إلى المصريين ليُوقظ هممهم فيتحدث قائلاً : (لا يستطيع الواقف على التاريخ إلا أن يتعجب من سكون الشعب المصرى فى خلال القرون والأجيال التى توالت فيها على الأمم والممالك أدوار عمارة ... فما علة هذا السكون ... وثبت فى التقاليد عن أن منشأ التمدن انما هو مصر...)(١٠٠) إنها دعوة يحث من خلالها المصريين للسعى وراء مضمار الحضارة الحديثة تلك الحضارة التى مصر بها أليقة، فيردد (يأيتها الأمة المصرية انهضى من عثرة الغفلة وانظرى إلى الذين نالوا السعادة، فانك أهل لاعظم المواهب) (١٠١)

صفوة القول لعبت الصحافة دوراً هاماً فى تطور المجتمع المصرى ابان عصر اسماعيل، فإليها يرجع الفضل فى إحياء الروح الوطنية، إلى جانب إحداث نهضة أدبية، اذ غلبت الكتابة عن حب الوطن وما يستلزم بذل مجهود لترقيته، بالإضافة إلى تناولها لقضايا هامة مثل العلاقة بين الحاكم والمحكوم، تلك المقالات التى أضاءت الطريق أمام المطلعين عليها، ومن ثم أحدثت من جانبها تطوراً فى الحركة الفكرية، وفى الشعور بالذاتية.(١٠٢).

ومن المناسب أن نشير إلى أهم القضايا التى عالجتها الصحافة المصرية فى تلك الحقبة، وأثرت بالتدريج فى زيادة الوعى لدى المصريين، وفتحت بينهم وبين العالم الخارجى جسور المعرفة والعلم.

فالحرب الروسية – العثمانية (١٨٧٧ – ١٨٧٨) قد أحدثت غلياناً فى الأفكار، نتج عنه ردود فعل قوية من قبل المثقفين وظهر ذلك جلياً على صفحات

الجرائد فى مصر بين مؤيد للدولة العثمانية مثل جريدة مصر لأديب إسحق والأهرام لسليم وبشارة تقلا، وبين معارض لها ويميل إلى الجانب الروسى مثل الوطن لميخائيل عبدالسيد، بالإضافة إلى جميع الصحف فى كافة العالم الإسلامى التى عملت على إثارة انتباه الرأى العام (١٠٣)، من خلال الادلاء بآرائها فى الحرب الدائرة، ولا يسعنا المقام هنا للخوض فى أسبابها وأحداثها ونتائجها* ولكن ما يشغل اهتمامنا هو أنه بين الجناح المؤيد والمعارض ظهرت المقالات التى تتسم بالحماس والتأييد لأىٍ من الجانبين، ومن ثم أضاءت هذه المقالات الرنانة أمام الرأى العام الموقف السياسى الذى كانت الأغلبية تجهله، وقد انعكس ذلك بالايجاب فى وجود يقظة فكرية - إلى حد ما - محصورة بين قرّاء هذه الصحف.

لقد اتسمت طبيعة المقالات التى تناولت هذه الحرب بإطلاق العنان للآراء الحرة والاخبار التى تمس الدولة العلية، تلك الحرية التى سمحت بها الجهات الرسمية فى مصر(١٠٤)، مما ساعد على ايجاد نوع من الحرية السياسية - لم تكن متوفرة من قبل - فقد وجد الخديو فى تلك الحرب فرصة سانحة لفك عُرى الروابط بينه وبين الدولة العثمانية، بالإضافة إلى أن هذه الحرب قد شدت انتباه واهتمام المصريين بشكل ملحوظ، مما جعل البعض(١٠٥) يرجع ذلك إلى الثوابت السياسية القائلة أن تقسيم الدولة العثمانية كان معناه وقوع مصر تحت وطأة الاحتلال الأجنبى، ومن هذا المنظور كانت الرغبة متعلقة بالميل نحو الدولة العثمانية للحفاظ على السيادة الاسمية لها على مصر، متناسين أو مستبعدين تأثير الرابطة الروحية على المصريين، لأنها كانت هى العامل المباشر فى تحريك الشعور تجاه الميل نحو دولة الخلافة الإسلامية.

على أى الأحوال لقد أثرت هذه الحرب على الأوضاع الفكرية فى مصر، فقد أتاحت المزيد من الحريات على صفحات الجرائد وتركت أثرا ملحوظا . حيث

لأول مرة يباح لهذه الصحف أن تشتغل بالأمور السياسية وتتصل بالعالم الخارجي، وقد استنتجت الصحف الأجنبية أن أوضاع مصر أثناء الحرب الروسية – العثمانية قد بدأت تتخذ ملمحا جديدا ظهر فى أنهم بدأوا يترقبون الأخبار الواردة من الآستانة ليس هذا فحسب، بل أخذوا يعلقون عليها ويتناقشون حول أسباب النزاع، وقد اتخذت تلك الصحف من ذلك دليلاً على أن الرأى العام المصرى بدأ يتكون(١٠٦)، هذا بالإضافة إلى أنها السابقة الأولى التى يشترك فيها مجلس شورى النواب فى إبداء الرأى فى اشتراك مصر فى الحرب الدائرة(١٠٧)، كل ذلك أدى إلى تحريك المياه الراكدة، وأخذت تموج الأفكار والآراء بين أفراد المجتمع المصرى، بطابع لا نستطيع أن ننزع عنه العاطفة الدينية التى كانت لاتزال مسيطرة على الأفئدة والعقول فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ومن القضايا التى دخلت دائرة اهتمام الصحافة قضية الاهتمام بمجلس شورى النواب، إذ أخذت على عاتقها مهمة مراقبة تحركات المجلس الجديد لعام ١٨٧٦، فتطالبه أحياناً بعلنية الجلسات، وأحيانا أخرى تحثه على الأشتغال بالأمور الدستورية(١٠٨)، إلى حد مهاجمة سلطة الخديو الاستبدادية والمطالبة بحكومة دستورية وحياة نيابية حقيقية، وبهذا بلغت الصحافة من القوة ونضج الرأى ما جعلها تستهين بما يعترضها من مشاكل وما يلحق بها من عقوبات، لكى تسير فى طريقها عاملة على تهيئة الأفكار وشحذ العقول للنهوض بالمجتمع من عثراته، اذ أصبحت احدى الثمار الهامة الدالة على فاعلية الصحافة فى ترسيخ الاتجاه النيابى مما أدى إلى نمو الوعى القومى بين أفراد المجتمع المصرى آنذاك.

لا جدال أن الصحافة الوطنية أرست دعائم الوطنية المصرية، ونزعت عن مصر ثوب الولاية العثمانية(١٠٩)، فمن واقع اهتمامها بمعالجة شئون مصر

الداخلية وسعيها فى تهيئة المناخ العام الملائم لتشكيل الرأى العام المصرى أدى ذلك إلى دفع الفكرة الوطنية خطوات إلى الامام، بخاصة عندما رفع شعار "مصر للمصريين" – فى فترة لاحقة – مما هيأ النفوس لتقبل الثورة على الأوضاع المتردية، حيث مثلت الصحف العباءة التى جمعت التيار الثورى فى إطارها.

ب - نشأة المسرح المصرى

لقد نجح الخديو اسماعيل فى خلق بيئة متمدينة على النمط الأوربى، بما استحدثه من الأساليب الأوربية كإجبار الموظفين على اتخاذ الملابس الأوربية، وإعداد الموائد على طريقة الافرنج، إلى جانب ما كان يدور من حفلات (البالو) داخل القصر الخديوى ومنها انتقلت إلى بيوتات الأرستقراطية التركية آنذاك، إلى جانب إقامة حفلات سباق الخيل (١١٠) ... الخ

فمعلوم أن الخديو إسماعيل كان مولعاً أشد الولع بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الأوربية نتاج تأثره بالعقلية الأوربية أثناء وجوده فى أوربا – فانصب جم تفكيره فى أن يجعل لعرش مصر مظاهر العروش الأوربية، ومقياس ذلك كان فى نزوله من القلعة بما تمثله من بقايا العصور الوسطى إلى قصر عابدين بما يمثله من العصور الحديثة، اذ يُعد ذلك نقلة حضارية للمجتمع المصرى فى جانبها المادى، بما كان يمثله ذلك القصر من نموذج أوربى.(١١١)

لقد انعكست آثار الحضارة الأوربية فى – جانبها المادى – على المجتمع المصرى فجعلته يشهد تغيراً جذرياً فى أنماط حياته وطرق تفكيره تغير أصبح إرثاً بفعل احتكاكه بالمؤثرات الغربية وما تبعه من استجابة محلية تمثلت عن تفتح فى الأذهان وتغير فى سلوك الأفراد، كل ذلك كان من الطبيعى أن يصحبه وضع علامات بارزة على طريق الوعى القومى المصرى.

ولقد أدت هذه المتغيرات فى جانب منها إلى إنشاء مسرح مصرى تقدم عليه أعمال باللغة العربية، وقد صادفت هذه الفكرة التى دعا إليها يعقوب صنوع

هوى فى نفس إسماعيل، الذى أبدى تشجيعاً كبيراً للمسارح الأجنبية فى مصر، فقد افتتح مسرح الكوميدى فرانسيز عام ١٨٦٩ مع الاحتفال بإفتتاح قناة السويس، وتلاه فى عام ١٨٧١ إنشاء مسرح الأوبرا الإيطالية.(١١٢)

غير أن هذه المسارح ظلت أجنبية لا تقدم أعمالاً عربية وكان ممثلوها من الأجانب الذين أحضروا من أوربا(١١٣) ،فكانت فكرة يعقوب صنوع فى انشاء مسرح مصرى تمثل التجربة الوطنية الأولى فى هذا المجال، التى استمرت على يديه من عام ١٨٧٠ - ١٨٧٢ حتى تم اغلاق مسرحه من قبل الخديو اسماعيل.

لقد أتيحت الفرصة لصنوع أن يقدم اثنين وثلاثين مسرحية من تأليفه اذ أصبح مؤسساً لفن كتابة الروايات المسرحية(١١٤)، إلى جانب بعض المترجمات، وقد غلبت على لغة مسرحياته اللغة العامية، ومن هنا ذاع صيتها، وأقبل على مشاهدة عروضه رجال البلاط والوزراء، بل دعاه الخديو اسماعيل للتمثيل أمامه على مسرحه الخاص بسراى قصر النيل، اذ مثل ثلاث روايات ذات مضمون اجتماعى شرقى، وقد دعاه الخديو أمام وزرائه وقال له : (اننا ندين لك بانشاء مسرحنا القومى ... انك أنت موليرنا المصرى وسيبقى اسمك}،(١١٥) حيث مثل المسرح المصرى بالنسبة للخديو اسماعيل انعكاساً لصورة التقدم الحضارى الأوربى الذى يريد أن تلحق به بلاده.

وبالمقابل كان صنوع يتمتع بحس فنى عالٍ نابع من كونه درس الفن المسرحى وقرأ عن الأدب التمثيلى، وحرص على مشاهدة العروض المسرحية إبان فترة إقامته فى إيطاليا(١١٦)، ومن هنا كان إدراكه للرسالة الخطيرة التى يحملها الفن المسرحى إلى عقول وقلوب جمهوره.

وقد نجح يعقوب فى جذب جمهور عريض لمسرحه من خلال تقديمه للأعمال الهزلية المسلية - فى أول أمره - مما جعله بعيداً عن الرقابة الحكومية، ولكن تدريجيا بدأ يمزج الهزل بالجد، ويقدم مسرحيات تمس قضايا المجتمع المصرى

الأخلاقية والسياسية(١١٧)، كاشفاً أمام جمهوره عيوب المجتمع فى سخرية وإن كانت قاسية فى بعض الأوقات، بالإضافة إلى تعرضه لمساوئ الخديو اسماعيل وحاشيته وندد بظلم الحكام فى عهده، مما اعتبرته السلطات الرسمية كفيلاً بإيقاظ الوعى عن طريق تهييج الأفكار حيث كان بلغته العامية ينفذ إلى عقول الأفراد حتى البسطاء منهم الذين تحمسوا لمسرحه، إذ أقبل عليه أولاد البلد والعمال والموظفون والأعيان ليشاهدوا فناً نابعاً من بيئتهم (١١٨)، إلى هذا الحد يمكن القول بأن إقبال الجمهور على مسرحه مثل بداية وعى داخل المجتمع المصرى، ومن هنا كان اغلاق مسرحه.

وقد أخذ عليه البعض انصباب اهتمامه فى مسرحياته على تناول الطبقة الأرستقراطية متجاهلاً عامة الشعب(١١٩)، إنه يمكن إطلاق ذلك الحكم على أُولى مسرحيات يعقوب صنوع "اوبريت" حيث أنها كانت للتسلية، وبهذا ينطبق عليه القول أن بدأ بذلك النوع حتى ينال رضاء الخديو وحاشيته وفى نفس الوقت يحصل على المال المناسب، ثم يشرع بعد ذلك فى تناول الموضوعات الجادة(١٢٠).

ليس بالضرورة إطلاق حكم مطلق على دور المسرح الايجابى – فى تلك الآونة من نشأته – فإحتمالية أن يحمل ملامح سلبية كانت واردة، طالما نضع فى اعتبارنا قياس الأمور بروية، حيث كان من الصعب فى البداية أن يعى الجمهور المغزى من وراء فكرة مسرحية ما، ومن هنا كان العبء الأكبر يقع على كاهل صنوع الذى يقوم بشرح الفكرة والهدف الذى تسعى وراءه حتى يهيأ أذهان جمهوره للعرض المسرحى، وفى بعض الأوقات كان يعقب على المسرحية، ليشرح لهم ما صعب فهمه(١٢١).

وقد رسم صنوع لجمهوره رسماً معبراً عن المشاكل التى صادفته فى حياته المسرحية، وكان ذلك فى عمله المسرحى"موليير مصر وما يقاسيه"، فقد

بسط الصورة أمام جمهوره بهدف إشراكهم فى نشاط الممثلين وأزماتهم(١٢٤)، بما يعتبر بمثابة بانوراما حية لتاريخ مسرحه منذ نشأته.

لقد تجاوب صنوع مع مطالب وآلام وأحلام الشعب المصرى، وعبر عن كل ما يجيش فى صدورهم من ضيق على الأوضاع القائمة داخل البلاد، ومن هنا مثل استجابة منطقية لواقع الأوضاع، ومن ثم قدم "صنوع" لمصر الوطن خدمات جليلة بإسهاماته فى تغذية الوطنية المصرية بأن جعل شعاره "مصر للمصريين" محاولاً تطبيقه عن طريق نشر الوعى بين أجيال المصريين عن طريق ممارساته لألوان النشاطات الثقافية المختلفة ما بين صحافة ومسرح ومنتديات علمية، محاولاً بذلك النفاذ إلى عقول المصريين، فكان مُعولاً لبناء الشخصية المصرية.

وقد أستؤنفت الحركة المسرحية على يد غير المصريين أيضا سواء كانوا أرمن أو شوام، حيث ساهمت فئة قليلة من الأرمن على سبيل المثال - في الإنتاج المسرحي باللغة العربية خاصة الأرمن الكاثوليك النازحين إلى مصر من بلاد الشام هربا من معارضة طائفتهم بشدة للفن المسرحي، وبذا شارك هؤلاء النازحين فى نشأة الفن المسرحي وتطوره فى مصر، فأديب اسحق قد اشترك مع سليم النقاش في تمثيل أول رواية عرضت باللغة العربية فى مصر وهى رواية «أندروماك» أو «شارلمان»(١٢٣).

قدم سليم النقاش على مسرح زيزنيا بالاسكندرية أعمالا مسرحية كان قد قدمها عمه مارون النقاش فى بيروت، وبمساعدة أديب اسحق أضاف مسرحيات مترجمة ومقتبسة(١٢٤)، وبهذا يمكن القول أن تلك الاعمال لم تمس الحياة المعيشية لافراد المجتمع المصرى، وبذا يكون تأثيرها على فئة معينة دون الأخرى.

أدى انخراط سليم النقاش وأديب إسحق فى الصحافة إلى أن تولى أمر الفرقة الشامية يوسف الخياط – الأرمنى الكاثوليكى – الذى انتقل بها إلى

القاهرة، ذلك الرجل الذي اعتبر البعض فرقته أهم اسهامات الأرمن في مجال المسرح العربي. فقد قدمت هذه الفرقة عدداً من العروض المسرحية مثل «شارلمان»، «المظلوم»، «هارون الرشيد»... إلخ(١٢٥)، كانت موضوعات تلك المسرحيات وغيرها تدور في إطار تاريخى أدبى له مغزى اجتماعى إصلاحى، ولعل ذلك كان وراء إثارة حفيظة الخديو إسماعيل ولم يسمح بتشجيع التمثيل بعد ذلك فى عهده.

وان كنا نؤكد على ملاحظة مؤداها أن الفرق الشامية عندما عمدت الى تقديم الأعمال التى تنتقد الخديو إسماعيل وسياساته إنما رغبت اتباع نفس مانهجه يعقوب صنوع ليس دفاعاً عن حقوق المصريين، بل لرغبة ترتكز على أهداف تجارية محضة من حيث الاستجابة الواسعة من لدن الطبقات الشعبية التى أقبلت على تلك العروض.

وهكذا استمرت فترة الشد والجذب فى تاريخ المسرح المصرى، سرعان ما يغضب الخديو فيسرع إلى الأغلاق، وتبدو الفرصة المناسبة للاستئناف ويستمر الوضع هكذا حتى تظهر فرصة أخرى فى فرقة يتولى قيادتها سليمان القرداحى الشامى الأصل(١٢٦) ومن ثم تنشط حركة التمثيل المسرحى وتلقى قبولا من الجمهور على أيدى آخرين – وقتاً – ثم تخبو وقتاً ولكن تبقى الاستمرارية التى خلقت وعياً حقيقياً بين أفراد المجتمع المصرى بمرور الوقت.

ومن هذا المنطلق أسهم عبد الله النديم فى عهد الخديو توفيق فى عرض بعض المسرحيات الهادفة التى عالجت عيوب المجتمع المصرى السياسية والإجتماعية (١٢٧)، فقد اتخذ من المسرح الذى أقامه فى مدرسة الجمعية الخيرية وسيلة للاتصال بالجمهور، عاملا على نشر الوعى بين أفراد المجتمع المصرى.

ولعل وجود النديم فى الإسكندرية ساعده على خوض غمار الفن المسرحى ربما من منطلق أن الثغر كان محلاً لميلاد المسرح(١٢٨) مرة أخرى على يد الفرق الشامية التى أسهمت بشكل محدود فى النهضة المسرحية

إن الرغبة الجارفة لدى النديم فى تثقيف المجتمع المصرى دفعته إلى الكتابة المسرحية، فكتب رواية "الوطن وطالع التوفيق"، التى عرضها على مسرح زيزينيا فى حضور الخديو ووزرائه، وقد سعد الخديو توفيق بهذه الرواية، لأنها كانت تأمل الخير على يديه، إذ ركزت هجومها على سياسات رياض باشا، بالإضافة إلى أنها أتسمت بالدعوة للاصلاح الإجتماعى والوحدة الوطنية، بالإضافة إلى رسم صورة لما كان عليه حال البلاد وقتذاك من فوضى واضطراب، فإنها كانت فى مضمونها تحارب الظلم(١٢٩).

لاجدال اذن فى أن هذه الرواية كانت تحث الجمهور المصرى للنظر إلى حال وطنهم نظرة واقعية ناقدة لما يدور داخل جدران المجتمع المصرى محاولة حث الهمم على تغيير ما استطاعوا من أنواع الظلم الواقعة عليهم، ولعل فى تسمية هذه الرواية "بالوطن" ما يقرب الجمهور المشاهد إلى فهم أن اصلاح حال وطنهم، لا يتأتى إلا من خلالهم.

مما سبق، نكون قد عرضنا لنشأة المسرح المصرى ومدى إسهامه فى نضوج الوعى بين أفراد المجتمع المصرى – وان كان بدرجات متفاوتة – من حيث التأثير إذا قورن بوسيلة مثل الصحافة بما تركته من آثار مباشرة على الواقع المصرى. على أية حال يعد المسرح احدى الحلقات المتصلة والأكثر تأثيراً نظراً لأن المسرح يقدم العروض بطريقة الحديث المباشر وبالتالى فهو ذو تأثير نفسى أقوى من تلك الأفكار المكتوبة على صفحات الجرائد، هذا بالإضافة إلى اعتباره حلقة الوصل بين أفكار الأدباء وتصوراتهم حول المجتمع المصرى وبين جمهور المصريين، وبهذا نجح فى توصيل الأهداف التى تطلع إليها مؤسسوها، وقد

نخرج من نشأة المسرح المصرى إلى أن الخديو اسماعيل قد نجح فى أن يجعل من مصر قطعة من أوربا كما أراد إلى حد كبير، وإن نجح على المستوى المادى فحسب.

فالمعلوم أن سياسات الخديو اسماعيل أتسمت بفرض الأفكار الأوربية بسرعة مذهلة على المجتمع المصرى، أسرع مما ينبغى للألمام بها وفهمها واستيعابها، ومن هنا كانت ثمار مساعيه سطحية لم تمس قاع المجتمع المصرى.(١٣٠)

جـ - دور الأدب فى تقوية الوعى الوطنى

لقد كان الأدب فى جميع أشكاله، رد فعل لأحوال المجتمع المصرى وما يعتريه من مشاكل وهموم محاولاً عرضها ونقدها وايجاد الحل لها، حتى ولو كان الحل ثورياً، وقد ساعد الانتشار الواسع للصحافة فى نقل دور الأدب إلى أفراد المجتمع المصرى، بالإضافة إلى وجود حلقات اتصال بين الجمهور المتلقى لصور الأدب وبين الأديب، سواء على ساحات المقاهى والمنتديات العلمية أو المحافل، أو الصالونات الأدبية، تلك المصادر على تنوعها كانت وليدة أوضاع المجتمع المصرى فى تلك المرحلة التى سبقت فترة الاحتلال.

وبفضل توفر مصادر التعليم التى تعددت ما بين إيفاد البعثات العلمية إلى الخارج، وإنشاء المدارس وصدور الأعمال العديدة للرموز الفكرية فى تلك الفترة، ومع الانفتاح على الغرب، كان الوعى الثقافى يستشرى فى جنبات المجتمع المصرى، إذ أتيح لمصر رجال ظهرت على أيديهم بواكير نهضة أدبية وعلمية، فالافغانى يجعل من منزله الخاص "جامعة حرة" تزخر بالدروس التى يلقيها بين زواره، إلى جانب التفاف المفكرين والمثقفين والطلاب حوله فى قهوة البوستة(١٣١) التى اتخذها منبرا ثانيا لنشر آرائه وأفكاره، حيث كان يرشد مريديه من المصريين حول ضروره إصلاح أساس التضامن الوطنى كخطوة لتقوية الوضع

بالمقارنة بالسيطرة وعوامل الاحباط الأوربية(١٣٢)، وكان سبيله فى ذلك أن ينتقل هنا وهناك عاملاً على ايقاظ الروح الوطنية.

لقد أخذ الأفغانى يقرب منه العوام ويقول لهم : (أنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد، ... تسومكم حكوماتهم الحيف والجور،وتنزل بكم الخسف والذل،وأنتم صابرون .. لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة....)(١٣٣)، وبهذا الأسلوب المباشر كان يحرض مستمعيه على عدم الرضوخ، وأن ينفضوا عن كاهلهم العجز والخمول، ويسعوا جاهدين لنيل حقوقهم من الحكومات الظالمة التى تستعبدهم، لقد نظر الأفغانى إلى سلالة محمد على هنا نظرة الأجنبى الذى كان كل همه الاستفادة من خيرات البلاد، على عكس نظرة الطهطاوى على سبيل المثال – الذى اعتبرهم الحكام الحقيقيين للبلاد.

بل لقد ذهب إلى حد الإشتراك فى المحافل الماسونية متخذاً منها ميداناً جديداً يثرى الحياة الثقافية المصرية، بما يدور فيها من مناقشات نتج عنها تبادل فى الأفكار بين المثقفين، إلى جانب دورها فى توحيد عناصر الأمة المصرية.(١٣٤)

ولعل خطورة تأثير الأفغانى على الشعب المصرى تتضح فى لهجة الاخطار الرسمى الذى تضمن طرده من مصر، بالإضافة إلى أنه يعطينا صورة حية لإستجابة الشباب المصرى آنذاك لتعاليمه التى كان يلقيها بينهم(١٣٥)، إذ خشيت السلطة السياسية من تجاوب الشباب المصرى مع ذلك الرجل الذى ولد داعية سياسياً أكثر منه مذكراً وراغباً فى الاسترسال نظرياً – إلى حد بعيد – بل واستخدامه كافة الوسائل من أجل إحياء المساعى التى هدف إليها، إذ لم يفشل فى محاولته لاستحضار هويتهم الأصيلة لهم أنفسهم (١٣٦).

ولقد التقت أهداف الإمام محمد عبده مع أهداف الأفغانى فى ضرورة إصلاح العقول أولاً، وإن اختلفت وسائل كل منهما عن الآخر، فالأول رأى الطريق السلمى المعتدل هو الغاية المرجوة للاصلاح، بإستخدام التروى فى معالجة

المشاكل السياسية، وسلك طريق الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى، إن منهج محمد عبده يذكرنا بالخطوات المعتدلة التى سلكها على مبارك، وإيمانه بأن إصلاح التعليم خير من أنواع الاصلاح السياسى – كما سبق القول – أما الأفغانى فقد سلك طريق الثورة التى رأى فيها الحل الأمثل.

وقد انعكست سياسة محمد عبده فى مقالاته الأدبية التى دارت حول مناقشة الحكومة الشورية، والمفاهيم الخاصة بالحرية والقانون وعن الوطن والوطنية.(١٢٧)

وقد نهج تلميذ آخر نفس المنهج عن الأفغانى فى العمل على يقظة المصريين، ألا وهو عبد الله النديم، فقد اتخذ من الخطابة وسيلة للاتصال بالجمهور، ومن ساحة الجمعية الخيرية الإسلامية محفلا لالقاء الخطب بها كل أسبوع، بالإضافة إلى تنقله بين القرى والمدن مخاطبا جموع الناس، عاملا على إيثار حميتهم(١٣٨)، مثيراً لمشاعرهم بخطبه النارية فى كل مناسبة، فقد كان فى مسعاه يستنهض الهمم وعزائم الرجال، ليخرج بجيل مجسد للهوية الثقافية الوطنية،(١٣٩) يقوم بإدوار ايجابية فى خدمة المجتمع المصرى.

فمع تصاعد الأحداث المؤدية إلى الثورة، كان للنديم النصيب الأكبر فى الدعاية لها ونشر مبادئها وأفكارها بين العامة والخاصة، اذ وعى لما للخطابة من أثر سريع فى نفوس البشر، ولم يقتصر دوره على الخطابة بين الشباب المدنى من المصريين، بل كان يخاطب أيضاً الشباب العسكرى محرضاً إياهم على الاستشهاد فى سبيل الأوطان، حتى كان يرددون وراءه (رضينا بالموت فى حفظ الأوطان)(١٤٠)، وبهذا أسهم النديم فى تكوين رأى عام يقظ.

ولقد لعبت المقالة الأدبية دوراً هاماً فى العمل على النهوض بالمجتمع المصرى، محاولة إصلاحه من كافة الأوجه، فأديب إسحق يكتب تحت عنوان "أمانى" يدافع عن المصريين ضد الامتيازات الأجنبية التى أجحفت بحقوقهم داخل

بلادهم، عاملاً على حث المصريين على النهوض بالمطالبة بحقوقهم المسلوبة(١٤١)، وفي سبيله لايصال ذلك يحاول أديب إسحق بث روح الغيرة الوطنية بينهم.

زادت النزعة الإصلاحية لدى إسحق فى تخيله "لمدينة فاضلة" خالية من الاستبداد قوية قادرة على إدارة شئونها بنفسها، وقد نشر تصوره لهذه المدينة بجريدة مصر تحت اسم "العصر الجديد" عام ١٨٧٩، ولاريب أن فى عرضه لهذه الفكرة كان واقعاً تحت تأثير المؤثرات الغربية التى أتاحت له إخراج (أول يوتوبيا عربية فى الفكر العربى الحديث)(١٤٢)، حملت فى ثناياها شعار المساواة والعدل والحرية، وهكذا يعد أديب إسحق من كبار كتاب المقالة الصحفية فى مصر، وخير من يمثل فن المقالة في الأدب العربي الحديث(١٤٣).

وفى الواقع قدمت المقالات بأقلام كتابها سواء الشوام أو المصريين بين الفينة والاخرى أهم القضايا التى تتعلق بإصلاح المجتمع المصرى، عاملة على نشر الحريات وتفتح الاذهان من خلال عقد المقارنات بين حال الشرق والغرب.

لقد كان الأدب وسيلة معبرة تعكس للقارئ صورة المجتمع الذى يعيش فيه، فى الوقت الذى ترسم له طريق النجاة من مساوئ هذا المجتمع، بطريقة سلسة، وفى اعتقادنا أن هذه الوسيلة بإستخدام الأدب كانت محصورة فى فئة بعينها، فئة تثقفت بالثقافة الغربية واستوعبت الحضارة الأوربية، فأستطاعت أن تبلور الأفكار الجديدة داخل المجتمع المصرى، أما غالبية أفراد ذلك المجتمع فيصعب عليهم فهم تلك النظريات السياسية الجديدة، وانما من السهل عليهم التفاعل مع فنون أخرى تخترق عقولهم بسهولة مثل الخطابة أو الشعر – على سبيل المثال – ولعل التدخل الأجنبى السافر قد دفع البعض إلى الخروج من اطار التفكير النظرى إلى حيز العمل فتلفظ بالشعر ناقداً هذه السياسات، بل ذهب البعض إلى الحض على الثورة للتخلص من الأوضاع السائدة.

وكان صالح مجدى الذى خصص خمس عشرة مزدوجة فى ديوان تحت اسم "وطنيات" ردد فيه كلمات الوطن والوطنية، مشيدا بأمجاد مصر محاولاً غرس حب الوطن فى أبنائه، ثم ما لبث أن صب جام غضبه على سياسات إسماعيل الهادمة، فسعى يحث المصريين على الثورة للتخلص من هذه الأوضاع.(١٤٤)

وجنباً إلى جنب مع مشكلات المجتمع وعثراته كان الشعر العربى يلعب دوراً فى إحداث نوع من الوعى بين أفراد المجتمع المصرى، فمحمود سامى البارودى قد وُصف برائد الشعر المصرى الحديث، بفضل إسهاماته الشعرية فيما يخص قضايا وطنه، وبفضل نشأته العسكرية انخرط فى وصف الجندية والمعارك الحربية فى شعره، حاضاً الأجيال الجديدة على الانضمام إلى سلك الجندية حتى تتاح لهم فرصة الاشتراك فى الدفاع عن الوطن ضد الأطماع الأوربية سواء الداخلية أو الخارجية.(١٤٥)

ولقد ترددت أصداء النهضة الأدبية التى عايشها المجتمع المصرى فى تلك الآونة اذ وصلت بآثارها إلى رواد المقاهى وأعضاء المحافل الماسونية، بالإضافة إلى الصالونات الأدبية (١٤٦) التى جذبت رجالات الفكر والأدب والسياسة أمثال الإمام محمد عبده، سعد زغلول، قاسم أمين، على مبارك ... والكثير غيرهم، مما أتاح لها المساهمة فى انتعاش الحركة الثقافية - بقدرٍ كبير - داخل المجتمع المصرى، ولم تعد مناقشة قضايا المجتمع المصرى حكرا على المصريين فقط، بل تطلعت الطبقة الأرستقراطية التركية إلى المساهمة فى لعب دور ايجابى لحل مشاكل مصر سواء على المستوى السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى، ربما مرجع ذلك كان الانصهار الذى شهدته تلك الطبقة مع مكونات الروح المصرية.

ولعل أشهر الصالونات الأدبية فى ذلك العصر كان الصالون الذى تبنته الأميرة نازلى فاضل*، فكان ملتقى لرواد الأدب والشعر والحكم، لا يكتفون فيه

بممارسة تلك الألوان من الأدب بل يتدارسون أحوال البلاد ذاتها، وقد التقت أهداف تلك الأميرة مع أهداف الوطنيين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى مناوئة سياسات الخديو إسماعيل، وفى فترة لاحقة ناصرت الثورة العرابية(١٤٧)، لهذا أسهم صالونها فى توليد تيار الوطنية المصرية وتجميعه على صعيد واحد.

مثلت المنتديات العلمية محوراً آخر دارت حول رحاه النهضة الثقافية فى مصر فى فترة ما قبل الاحتلال البريطانى، فقد ذهبت جهود المفكرين والأدباء فى انشاء الجمعيات المختلفة ما بين علمية وسياسية وخيرية، فى محاولة منهم لمقاومة ازدياد التدخل الأجنبى والعمل على رأب صدع المجتمع المصرى، بالإضافة إلى ما قامت به هذه الجمعيات من دور فى نشر الوعى الوطنى.

ومن ثم كان انشاء "جمعية المعارف" ١٨٦٨، التى حملت على عاتقها مهمة تقديم ثقافة عربية متميزة تُقدم للقارئ المصرى، وتقف على قدم المساواة أمام الثقافة الغربية التى أخذت تغزو المجتمع المصرى، ومن هنا كان الاهتمام بإحياء كتب التاريخ والادب العربيين(١٤٨)، وبهذا انتعشت الحياة الثقافية - إلى حد ما - داخل المجتمع المصرى.

ولقد نزل يعقوب صنوع الميدان الاجتماعى يعارك بآرائه، ومن ثم استفاد من كونه مرشداً كى ينظم اللقاءات مع الشباب المصرى للعمل على تطوير أفكاره حول الحرية والوطنية المصرية(١٤٩)، إلى جانب أنه أسس جمعيتين علميتين هما "محفل التقدم" ١٨٧٢، ومحفل "محبى العلم" ١٨٧٥، فقد مثلا اتصالاً مباشراً بالجمهور، وكانتا بمثابة منتديات للعلم والآداب وكان أعضاء الجمعيتين يقومون بالقاء المحاضرات عن تقدم الآداب والعلوم فى أوربا، الى جانب محاضرات فى السياسة والأدب والتاريخ .. الخ، وقد ضمتا فى صفهما جنبا الى جنب مع القبطى المسلم واليهودى(١٥٠)، وبهذا اسهمتا على ترابط أبناء المجتمع الواحد.

وقد انخرط فيهما طلبة الازهر وشيوخهم، وكبار ضباط الجيش المصرى[١٥١]، ودارت المناقشات والحوارات داخل المحفلين، مما زاد من تقوية تيار الوعى الوطنى، ومن هنا هرع الخديو اسماعيل الى اغلاقهما، ولكن مهما يكن من أمر فقد بدأت العقول الناشئة تستشعر بصيص النور، وأصبح الحديث عن ضرورة الاصلاح السياسى والاقتصادى والإجتماعى هو الشغل الشاغل للمصريين آنذاك، ولا يوقفه أي عائق حتى ولو كان قرارا عن السلطة.

تعد "الجمعية الجغرافية الخديوية" من ضمن اسهامات الخديو اسماعيل فى اثراء الحياة العلمية، اذ قام بإنشائها عام ١٨٧٥ بهدف العناية بالابحاث الجغرافية والعلمية، وربما كان توسع الخديو فى القارة الافريقية قد انعكس على تأسيس هذه الجمعية التى كرست جهودها للبحث العلمى الجغرافى الخاص بإكتشاف إفريقية[١٥٢].

وجنباً إلى جنب انخرط عبد الله النديم فى ميادين العمل السياسى بمستوييه السرى والعلنى محاولاً ايجاد حلول لمشكلات المجتمع السياسية والإقتصادية والإجتماعية، فقد حمل على عاتقه هو وأقرانه محاولة النهوض بالبلاد الى المستوى الذى يستطيع به أفراد الشعب المصرى المطالبة فيه بحقوقهم على أكمل وجه.

فقد انضم النديم أول أمره إلى العمل السياسى السرى متمثلاً فى جمعية "مصر الفتاة" – التى سنتحدث عنها فيما بعد – ولكنه سرعان ما انقلب مؤسسا "الجمعية الخيرية الاسلامية"، لينضم إلى العمل السياسى العلنى الذى يتناسب مع طبيعته الشعبية، وبهذا تنوعت الاهداف وراء انشاء هذه الجمعية، عن طريق فتح المدارس التى أصبحت نافذة طل منها شعاع الاستنارة والوعى عاملاً على إيقاظ الرأى العام وتنبيهه إلى اثارة الوعى الوطنى بالعمل على نشر الروح الوطنية بين أفراد الأمة المصرية، وبفضل النديم سرعان ما انخرطت هذه

الجمعية فى الأمور السياسية، تندد بالتدخل الأجنبى، وتدور المناقشات حول الحرية والاستقلال، وبأسلوب النديم حدث الغليان فى الأفكار فى عقول الناشئة، وأستطاع تحريك النفوس ضد الاستبداد، ومن ثم قصد النديم من انشاء الجمعية الخير الاسلامية (أهدافا سياسية مغلفة بأهداف خيرية)(١٥٣).

وتمشياً مع سياسة الخديو توفيق للتقرب أحياناً من الشعب، شجع على إنشاء الجمعيات، فحث النديم على انشاء جمعية أخرى بالقاهرة، فأنشا فى سبتمبر ١٨٨٠ "جمعية المقاصد الخيرية"، الى جانب "جمعية الشبان" بالاسكندرية، التى شجع على تأسيسها النديم، بغرض مساندة الثورة وتأييدها(١٥٤).

هكذا اتسم النشاط الثقافى فى عصر الخديو اسماعيل وبدايات عصر الخديو توفيق بالحيوية والازدهار، نتيجة لتنوع الانتاج الادبى للمفكرين والأدباء – آنذاك– اذ لعبوا دوراً هاماً فى احياء النهضة الأدبية فى مصر، إلى جانب اسهامهم فى انضاج الوعى داخل ارجاء المجتمع المصرى، اذ أتاحوا لأبناء الوطن قدرا من اليقظة ساعدهم على استيعاب كم المتغيرات التى ألمت بالمجتمع المصرى.

إلا أن خروج الأفغانى من مصر فى عام ١٨٧٩، قد أفقد مصر قسماً كبيرا على المستوى المحلى بخسارة تلك المميزات التى خرجت عن هؤلاء الذين ساهموا فى تطور تيار الوطنية المصرية الموحد، بإضافة وجهات نظر تتعلق برؤياهم الخاصة فى التاريخ، ولكونهم صاروا جبهة تواجه أفكار الحرية والراديكالية والوطنية فى أوربا، ومن هنا بدأوا فى تنحية ظاهرة التصوف الاسلامى جانبا، تلك الظاهرة التقليدية فى مقاومة الاضطهاد، ليستبدلوا ذلك بثورية الأفغانى النشطة(١٥٥)، تلك الثورية التى انعكست مظاهرها الايجابية فى فترة ما قبل الاحتلال فى صورة مجالس نيابية وثورة شعبية كما سنرى فى الفصل التالى.

هوامش الفصل الثانى

١ – سلامة موسى : تاريخ الوطنية المصرية، نشوؤها وتطورها، ص٢٦٧.

٢ – Guerville, A.B., New Egypt, London, N., D., p., 94

٣ – عبد الغفار محمود السيد، دور العناصر التركية السياسى والاجتماعى فى مصر خلال القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، كلية البنات، ج عين شمس، ١٩٩٠،ص ٥٧١، ٥٧٨.

٤ – محمود عزمي: رجال التاريخ الحديث فى مصر، محمد سعيد باشا، مقالة فى السياسة الاسبوعية، عدد ١٠٠، فى فبراير ١٩٢٨، كذلك:

Richmond, J.c.,B., Egypt 1798 - 1952, p.114

٥ – طارق البشرى : المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠،ص ٣١.

٦ – محمد عارف : عبر البشر فى القرن الثالث عشر، ج ١، د. ت ، ص٩٦-٩٧.

٧ – على إبراهيم عبد اللطيف : علاقة مصر بتركيا ١٨٨٢ – ١٩١٤، رسالة ماچستير، كلية الآداب، ج عين شمس، القاهرة ١٩٨٠، ص٨.

٨ – محمد عارف : المصدر السابق، ص ٩٧.

٩ – Richmond, J.c., B., Op. Cit., p. 115

١٠ – Silva, Arthur, white: The Expansion of Egypt under Anglo - Egyptian Condo-manium, London, 1899, p.58

١١ – Guerville, A.B.,op.cit.,p.94

* حول حياته ونشأته، راجع، چورچى زيدان: بناة النهضة العربية، دار الهلال، د.ت، كذلك محمد سعيد عبد المجيد، نابغة الشرق السيد جمال الدين الأفغانى، دار الكتاب العربى ، د.ت .

١٢ – عزت قرنى: العدالة والحرية عند جمال الدين الأفغانى، مقالة فى، المجلة التاريخية المصرية، م ٢٦، ١٩٧٩، ص ١٢٧-١٢٨ .

١٣ – محمد عبده : مذكرات الإمام محمد عبده، تحقيق، طاهر الطناحى، دار الهلال، د.ت، ص ١٥.

١٤ – Badaw, Zaki, M.A. : The reformers of Egypt, London, 1970, p.20

١٥ – Richmond, J.c.,B., op. cit. p.115

١٦ – طاهر عبد الحكيم: الشخصية الوطنية المصرية، ص ١٥٤.

١٧ – محمد عمارة (د.): موقظ الشرق وفيلسوف، الإسلام، جمال الدين الأفغاني، مقالة في، مجلة القاهرة، عدد ٦٦، في ١٥ ديسمبر ١٩٨٦، ص ٣٦.

١٨ – السيد محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ محمد عبده، ج١، مطبعة المنار بمصر، ١٩٣١، ص ٧٣.

١٩ – Wendell, ch., The Evolution of the Egyptian National Image, p. 168

٢٠ – رحاب خضر عكاوي(د.):جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق، دار الفكر العربي، ١٩٩٣، ص ١٠٦.

٢١ – أحمد عبد الرحيم مصطفى: تطور الفكر السياسي، ص ٣١.

٢٢ – لويس عوض (د.) : تاريخ الفكر المصرى من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩، ج٢ ، ص١٠٦ وكذلك، فتحي الرملي، البركان الثائر جمال الدين الأفغاني، دار الثقافة العامة، ١٩٦٢، ص ١٧٣ وقد تم نشر المقال في جريدة مصر فبراير ١٨٧٩، وللأسف لم نستطع العثور عليها.

٢٣ – عبد المنعم إبراهيم الجميعي (د.) : الجذور التاريخية لفكرة الجمهورية في مصر، ص ١٢.

٢٤ – أنيس صايغ : المرجع السابق، ص ٦٦.

٢٥ – محمد عبده : المصدر السابق، ص ١٥.

٢٦ – السيد محمد رشيد رضا : المصدر السابق، ج١، ص٩١٧-٩١٨.

٢٧ – محمد عبده : المصدر السابق، ص ١٦-١٧.

٢٨ – محمد عمارة : الأعمال الكاملة للأمام محمد عبده، ج ١، ص ١١١.

٢٩ – أحمد زكريا الشلّق: حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية، ط١، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢١٧.

٣٠ – أحمد أمين : زعماء الأصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٣١٤.

٣١ – عزت قرني (د.) : في الفكر المصري الحديث، محاولات في إعادة التفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ١٨٠.

٣٢ – عبد الله النديم: كان ويكون، ج١، مطبعة المحروسة بمصر، القاهرة، ١٩٢٦، ص ١٠.

٣٣ – عبد المنعم إبراهيم الجميعي (د.) : عبد الله النديم، الاعداد الكاملة لمجلة الأستاذ، ج١، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ٧٩.

٣٤ – عبد المنعم إبراهيم الجميعى (د.) : من تراث عبد الله النديم، التنكيت والتبكيت، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ٣١٢.

٣٥ – نفس المرجع، ص ٢٥٤ – ٢٥٥.

٣٦ – نفس المرجع، ص٨٩.

٣٧ – عبد المنعم إبراهيم الجميعى (د.): عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، ط١، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٦٧.

٣٨ – فاروق أبو زيد : تطور الفكر الليبرالي ومفهومه فى الصحافة المصرية، ص ٦٣.

٣٩ – صلاح عيسى : الثورة العرابية، ط١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٢، ص ٢٢١.

٤٠ – عبد المنعم إبراهيم الجميعى (د.) :" التنكيت والتبكيت، ص ٢٤٢.

* هو يعقوب بن رفائيل صنوع، وكان رفائيل إيطاليا من ليفرنا جنسية، يهوديا ديانة، هاجر إلى مصر ودرس بها وتزوج من فتاة مصرية يهودية، وقد ولد لهما يعقوب فى فبراير ١٨٣٩، حول نشأته وحياته نجوى إبراهيم فؤاد عانوس: مسرح يعقوب صنوع، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٨٠.

٤١ – لويس عوض (د.) : المرجع السابق، ص ٣١٤.

٤٢ – إبراهيم فؤاد عبد العزيز : ظهور طبقة المثقفين فى مصر ودورها فى الحياة السياسية من ١٨٦٣ حتى نهاية ثورة ١٩١٩، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة طنطا، ١٩٨٩، ص ٨٦.

* أديب اسحق الدمشقي ١٨٥٦–١٨٨٥م، من مسيحى دمشق، ولد فيها وتعلم فى إحدى مدارسها، وانتقل إلى بيروت كاتبا فى ديوان المكس [الجمرك] ثم اعتزل العمل وتولى الإنشاء فى جريدة ثمرات الفنون، فجريدة التقدم البيروتيتين، وسافر إلى الإسكندرية وانتقل منها إلى القاهرة، لمزيد من التفاصيل حول نشاطه الصحفي والمسرحى فى مصر، انظر، خير الدين الزركلى، الأعلام، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، مجلد ١، ط٩، ١٩٩٠، ص٢٨٥.

٤٣ – جاك كرابس جونيور: كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر، ص ٢٥١.

٤٤ – أديب أسحق: الدّرر، بيروت ١٩٠٩، ص ١٠١.

٤٥ – أديب إسحق : المصدر السابق، ص ١٠١ – ١٠٢.

٤٦ – نفس المصدر، ص ١٠٠ – ١٠١.

٤٧ – رئيف خورى: الفكر العربى الحديث، أثر الفرنسية فى التوجيه السياسى والاجتماعى، منشورات دار المكشوف، بيروت ١٩٤٣، ص ١٢٩.

٤٨ – مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، ط١ ، بيروت ١٩٥٢، ص ١٨٩.

٤٩ – التجارة، عدد ١٧ ، فى ٩يونيو ١٨٧٩.

٥٠ - أحمد زكريا الشلّق : رؤية فى تحديث الفكر المصرى، حسين المرصفى ، ص ٣٤.

٥١ - وائل ماهر عارف : معالجة الصحافة المصرية لأفكار الحقبة من سنة ١٨٧٦ - ١٩٠٠ وقضاياها (بالتطبيق على المقتطف والهلال) رسالة ماجستير، كلية الاعلام، قسم الصحافة، جامعة القاهرة، ١٩٩٤، ص ٨٧.

٥٢ - طلعت إسماعيل رمضان : أديب اسحق وفكره السياسى ١٨٥٦ - ١٨٨٥، مقالة فى، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة، العدد الثانى، ١٩٧٨، ص ٦١-٦٢.

٥٣ - لقد قام فارس الشدياق بتأسيس «الجوائب»: عام ١٨٦٢، للدفاع عن سياسة الباب العالى، راجع، لويس عوض (د.): المؤثرات الأجنبية فى الادب العربى الحديث، ص ١٩٦ .

٥٤ - أنيس صايغ : المرجع السابق، ص ١٠٩.

٥٥ - نقلا عن مارون عبود، المرجع السابق، ص ١٨٩.

٥٦ - التجارة، عدد ٩١، فى ٢٧ سبتمبر ١٨٧٩، تحت عنوان: "الشرقيون فى الشرق" .

٥٧ - التجارة، عدد ١٧، فى ٩ يونيو ١٨٧٩.

٥٨ - التجارة، عدد ٩١، فى ٢٧ سبتمبر ١٨٧٩.

٥٩ - التجارة، عددا، ١١٠، ١١١، فى ٢٧ أكتوبر ١٨٧٩، و٢٨ أكتوبر ١٨٧٩.

٦٠ - فاروق أبو زيد: المرجع السابق، ص ٤١-٤٢، نقلا عن صحيفة العصر الجديد ١٨٨٠.

٦١ - چاك كرابس چونيور: المرجع السابق، ص ٢٥٤.

٦٢ - أنيس صايغ: المرجع السابق، ص ١٠٩.

٦٣ - سليم النقاش: "مصر للمصريين"، ج ٤ - ٩، مطبعة جريدة المحروسة بالأسكندرية، ١٨٨٤

٦٤ - چاك كرابس چونيور: المرجع السابق، ص ٢٥٦.

٦٥ - أحمد زكريا الشلّق : الجامعة الإسلامية والقومية المصرية فى فكر أحمد لطفى السيد ، عدد ١٠، مستخرج من حولية كلية الإنسانيات والعلوم الأجتماعية بقطر ، ١٩٨٧ ، ص ٢٧٤.

٦٦ - Gendzier, I., James Sanua And Egyptian Nationalism, essayin, M.E.J., Vol. 15, Winter,1961,p.20

* للإطلاع على الأزمة المالية فى عصر اسماعيل، راجع، أحمد صادق موسى: تاريخ الدين المصرى العام المالى والسياسى، ط١، ١٩٤٤، كذلك چون مارلو: النهب الأستعمارى لمصر، ترجمة د. عبد العظيم رمضان، ١٩٧٦.

** حول نشأة الصحف الرسمية فى عهد الخديو اسماعيل، راجع عبد الرحمن رافعى، عصر اسماعيل، ج١، ط٣، ص٢٤٨ - ٢٥٠.

٦٧ - Wendell, ch.,op.cit.p.145

٦٨ – خليل صابات، سامي عزيز، يونان لبيب رزق: حرية الصحافة في مصر ١٧٩٨ – ١٩٢٤، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٨ كذلك Richmond, G. C.B., op.cit., p.115

٦٩ – عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر، ج١، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٥٤، ص ٢٩ وما بعدها.

٧٠ – Vatikiotis, P.J., The History of Egypt, p.155

٧١ – جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده : العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى، مقال "لحيدر بامات"، دار العرب البستاني، ط١، ١٩٥٧، ص ٢٥.

٧٢ – Badaw, Zaki, M.A., Op. Cit., p.20

٧٣ – الإسلام والتجديد في مصر، تعريب، عباس محمود، تقديم: مصطفى عبد الرازق، لجنة ترجمة دار المعارف الاسلامية، القاهرة، ١٩٣٥، ص٤.

٧٤ – Wendell, ch.,Op .Cit.,p.168

٧٥ – Gold, schmidt, Arther : Modern Egypt, The formation of Anation state, The America university, in Cairo, 1988, p.33

٧٦ – Jamal, M., A., The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism,p.19

٧٧ – قدري قلعجي: محمد عبده بطل الثورة الفكرية في الأسلام، ط٢، بيروت ١٩٥٦، ص ٣٨.

٧٨ – المنار، عدد ٥١، في ٢ أغسطس ١٩٠٥.

٧٩ – Cromer, the Earl of., Modern Egypt, London, 1911,p.598

٨٠ – Jamal, M., A., Op. Cit.,p.19

٨١ – الأستاذ، عدد ١١، في أكتوبر ١٨٩٢.

٨٢ – أنور عبد الملك: نهضة مصر، ص ٤٨٥.

٨٣ – علي عباس علي : المرجع السابق، ٥٨.

٨٤ – عبد اللطيف حمزة: المرجع السابق، ص٥٩.

٨٥ – أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن، ١٨٧٣–١٨٩٢، ج١، ط١، القاهرة ١٩٣٤، ص ١١٠

٨٦ – أبو نظارة زرقاء، عدد ١٥، في ١٤ يوليو ١٨٧٩.

٨٧ – نص مسرحي مجهول ليعقوب صنوع ضد الخديو اسماعيل، تحت عنوان "الجهادي"، عرض وتعليق، فريدة مرعي، الهلال عدد يونيه ١٩٦٩ ص ١١٧ .

٨٨ – Richmond, J.C.B., Op. Cit., p.115

٨٩ – لويس عوض : المرجع السابق، ص ٢٢٩.

٩٠ – نجوى عانوس : اللعبات التياترية. يعقوب صنوع ١٨٣٩ – ١٩١٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص٧، كذلك، عبد الحميد غنيم : صنوع رائد المسرح المصرى، الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت،ص ٥٢ .

* لقد أطلق هذا اللقب على الخديو اسماعيل، وأحيانا يلقب "بفرعون"، أما توفيق ولى العهد فيلقب : "توقيف"، والفلاح المصرى يلقب "أبو الغلب"، والخليفة يلقب شيخ "التمن"، أما الأمير حليم الذى كان يميل إليه فيطلق عليه "كريم"، راجع، أبو نظارة زرقاء، عدد٤، فى ١١ إبريل ١٨٧٩، وعدد ٧ فى ٢ مارس ١٨٧٩.

٩١ – أبو نضارة زرقاء: عدد ٤، فى ١١ إبريل ١٨٧٩.

٩٢ – أبو نضارة زرقاء ، عدد ١٥، فى ١ يوليو ١٨٧٩.

* وهو محمد بن عبد الحليم بن محمد على الكبير وكان بحسب فرمان الوراثة القديم أحق بالعرش من توفيق، لأنه أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سناً، ولكن بعد تبدل هذا النظام فى عهد الخديو اسماعيل بعد صدور فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ أصبح العرش لتوفيق.

٩٣ – إبراهيم عبده : أبو نضارة إمام الصحافة الفكاهية وزعيم المسرح فى مصر ١٨٣٩ – ١٩١٢، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٥٣، ص ٧٦.

٩٤ – جمال الدين الشيال : المؤرخون السوريون فى مصر فى القرن التاسع عشر،بحث فى، المجلة، عدد ٢٣ ، فى نوفمبر ١٩٥٨، كذلك Holt,P.M.,Egypt and the fertile Creescent,P.206

** حول اضطرابات ١٨٦٠ التى دفعت إلى هجرة الشوام إلى مصر، راجع، طلعت اسماعيل رمضان، البحث السابق، ص٤٣.

٩٥ – مسعود ضاهر: دور اللبنانيين فى الصحافة المصرية إبان الاحتلال البريطانى، مقالة فى، مجلة الفكر العربى، عدد ٥٠، مارس ١٩٨٨، ص ١٤٢.

٩٦ – جاك كرابس جونيور : المرجع السابق، ص ٢٥١.

٩٧ – يونان لبيب رزق (د.): الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، ج١، ١٨٧٦–١٨٨٢، مركز تاريخ الأهرام بكورنيش النيل، القاهرة، د.ت، ص ٣٥ .

* حول نشأة الاهرام وأهم القضايا التى تناولتها فى تلك الحقبة، راجع، إبراهيم عبده (د.): جريدة الأهرام تاريخ وفن ١٨٧٥–١٩٦٤، مؤسسة كل العرب، ١٩٦٤، ص٢٠ – ٢٧، كذلك يونان لبيب رزق (د.)، المرجع السابق.

** حول نشأة المقتطف والهلال، راجع الدراسة التى أعدها وائل ماهر عارف: مرجع سابق.

٩٨ – محمد رفعت الإمام: الأرمن فى مصر، القرن التاسع عشر، دار نوبار للطباعة، القاهرة ١٩٩٥، ص٢٢٥.

٩٩ – التجارة، عددا ٤٠، فى يونيو ١٨٧٩، و٦٧، فى أغسطس ١٨٧٩.

١٠٠ – أديب اسحق: منتخبات، ج٢، مطبعة آداب فى الأسكندرية، ١٩١٧، ص٨٤–٨٥.
١٠١ – أديب أسحق : الدّرر، ص١٢٨.
١٠٢ – أمين سامى : تقويم النيل ١٨٧٣–١٨٧٩، م٣،ج٣، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٦، ص ١٥٧١.
١٠٣ – Richmond, J.C.B.,OP.cit.,p.115
* حول أدوار الحرب الروسية – العثمانية، راجع عبد الرحمن الرافعى: عصر اسماعيل، ج٢،ص١٣٩ كذلك، أحمد عبد الرحيم مصطفى، علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ١٨٦٣–١٨٧٩، دار المعارف، ١٩٦٧،ص١٩٣–١٩٤.
١٠٤ – إبراهيم فؤاد عبد العزيز : المرجع السابق، ص٢٩.
١٠٥ – محمد صبرى : تاريخ مصر من عهد محمد على إلى اليوم، طبعة ١٩٢٦، ص ١٥٣، كذلك، نجيب توفيق: الثائر العظيم عبد الله النديم، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت، ص ١٥.
١٠٦ – محمد صبرى : المرجع السابق، طبعة ١٩٩١، ص١٤٤، نقلا عن جريدة البرجريه.
١٠٧ – يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق، ٨٩–٩٠.
١٠٨ – لطفية محمد سالم : القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١، ص٨٤.
١٠٩ – عثمان البيلى : تطور الصحافة المصرية، مقال فى عالم الفكر، عدد ١٤، ١٩٨٩، ص ٤٠.
١١٠ – حول الحراك الاجتماعى الذى مس المجتمع المصرى على إثر إحتكاكه بالغرب، راجع، توفيق حامد المرعشلى: صفحات فى تاريخ مصر، ط٢، ١٩٢٩، ص١٧١، كذلك، صالح رمضان محمود: دراسات فى الحياة الاجتماعية في عصر الخديو إسماعيل، رسالة ماچستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٦٥، ص ٣٨–٣٩.
١١١ – يونان لبيب رزق (د.)، المرجع السابق، ص ٣٣، كذلك،
Chirol,Valentine : the Egyptian Problem, London, 1920, p.25
١١٢ – عمر الدسوقى : المسرحية، نشأتها وتاريخها وأصولها، ط٢، القاهرة، ١٩٥٧، ص١٧.
١١٣ – أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث فى مصر، ص ٢٨.
١١٤ – Gendzier, Irene: Op. Cit., p.20
١١٥ – أنور لوقا: مسرح يعقوب صنوع، مقال فى، مجلة المجلة، عدد ٥١، فى مارس ١٩٦١، ص٥٥.
١١٦ – نجوى عانوس: المرجع السابق، ص٣٥.
١١٧ – أنور لوقا : المرجع السابق، ص ٥٨.
١١٨ – عبد الحميد غنيم : المرجع السابق، ص٩٠.
١١٩ – أنور عبد الملك : المرجع السابق، ص٣٤٤.
١٢٠ – أنور لوقا : المرجع السابق، ص ٦٠.

١٢١ – عبد الحميد غنيم : المرجع السابق، ص ٩٢.

١٢٢ – أنور لوقا : المرجع السابق، ص٦٩.

١٢٣ – محمد رفعت الإمام : المرجع السابق، ص٢٣٩.

١٢٤ – عمر الدسوقي : المرجع السابق، ص٢١.

١٢٥ – محمد رفعت الإمام : المرجع السابق، ص٢٣٩.

١٢٦ – عمر الدسوقي : المرجع السابق، ص٢٦–٢٨.

١٢٧ – عبد الحميد غنيم : المرجع السابق، ص٩٧.

١٢٨ – يونان لبيب رزق (د.): عصر النديم، بحث في، ندوة الأحتفال بذكرى مرور مائة عام على وفاة عبد الله النديم، المجلس الأعلى للثقافة، في ٢٧–٢٩ مايو ١٩٩٥، ص ٨٤.

١٢٩ – على الحديدي: عبد الله النديم، خطيب الوطنية، د.ت، ص١٠٣–١٠٥.

١٣٠ – تشارلز آدمس: المرجع السابق ، ص ٣٥.

١٣١ – أحمد أمين : المرجع السابق، ص ٦٤.

١٣٢ – Vatikiotis,p.J.,op.cit.,p.135

١٣٣ – السيد محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده، ج١، ص٤٦.

١٣٤ – حول دور الأفغاني في الحركة الماسونية وربطها بالحركة الوطنية، راجع، على شلش (د.) الماسونية في مصر، مصر النهضة، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، ١٩٩٣، ص ٤٤ وما بعدها.

١٣٥ – التجارة، عدد ٧٥، في ٥ سبتمبر ١٨٧٩ .

١٣٦ – Safran, Nadav: Egypt In Search of political Community, p.45

١٣٧ – السيد محمد رشيد رضا: المصدر السابق، ص ١٩٤–٢٠٣.

١٣٨ – على شلبي: دور القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، بحث في كتاب، مصر المصريين مائة عام على الثورة العرابية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٨١، ص١٤١.

١٣٩ – عبد الحميد حواس: وعلى التحرير من الفولكلور إلى الثقافة الوطنية، بحث في ندوة عبد الله النديم، ص٢٤.

١٤٠ – عبد الرحمن الرافعي: شعراء الوطنية في مصر، ص ١٨–١٩.

١٤١ – عبد اللطيف حمزة: المرجع السابق، ج٢،ط٢، ص ٣٤–٣٥.

١٤٢ – فاروق أبو زيد: أول يوتوبيا في الفكر العربي الحديث، مقال في مجلة قضايا عربية، عدد ٢، آيار ١٩٧٤، ص ٩٤–٩٦.

١٤٣ – محمد رفعت الإمام : المرجع السابق، ص٢٢٧.

١٤٤ – محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر، من الثورة العرابية الى قيام الحرب العالمية الاولى، ج ١ ، ط٢، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٦١-٦٣.

١٤٥ – أنيس صايغ : المرجع السابق، ص٧٣.

١٤٦ – عبد الغفار محمود السيد : المرجع السابق، ص ٢٩٨.

* هى ابنة الامير مصطفى فاضل أخو الخديو اسماعيل والذى كان يعتبر نفسه أحق منه بالعرش، لذا ظل هو وابنته مناوئين للخديو اسماعيل ولتوفيق من بعده.

١٤٧ – السيد فهمى الشناوى: صالون نازلى هانم، مقال فى، الهلال، عدد ٩، فى سبتمبر ١٩٨٢، ص ٤١، كذلك، عبد المنعم إبراهيم الجميعى: صالون الأميرة نازلى فاضل، بحث فى، المجلة التاريخية المصرية، م٣٨، ١٩٩١-١٩٩٥، ص ٣٤٩-٣٥٠.

١٤٨ – أحمد هيكل : المرجع السابق، ص٤٧.

١٤٩ – Gendzier, Irene : Op. Cit.,p.19

١٥٠ – لويس عوض (د.) : المرجع السابق، ص ٢٨٦.

١٥١ – إبراهيم عبده: المرجع السابق، ص ٣٤.

١٥٢ – Holt,P.M., Op. Cit.,p.205

١٥٣ – عبد السلام عامر : الجمعية الخيرية الاسلامية، منذ تأسيسها حتى الحرب العالمية الثانية من ١٨٩٢-١٩٣٩، بحث فى، المجلة التاريخية المصرية، م٣٨، ١٩٩١-١٩٩٥، ص٤٢٤.

١٥٤ – عبد المنعم إبراهيم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، ص٧٧.

١٥٥ – Richmond,J.C.B.,Op.Cit.,p.117

الفصل الثالث

المظاهر الإيجابية لعصر ما قبل الإحتلال

١- الحياة النيابية بين الميول الوطنية والسياسات الخديوية.

٢- العرابيون و"مصر للمصريين" ١٨٨١ - ١٨٨٢م.

فى ضوء ما تقدم من خلال الفصول السابقة نكون قد عرضنا جانباً من الحالة العامة التى عايشها المجتمع المصرى، وما استتبعها من تبلور للرأى العام فى عهد الخديو اسماعيل وما سوف يؤدى اليه من نضوج للوعى السياسى الذى قام بدوره بافراز القوى المصرية المتمثلة فى عنصريها المدنى والعسكرى كما سنرى فيما يلى:

١ - الحياة النيابية بين الميول الوطنية والسياسات الخديوية

لم تكن فكرة الخديو اسماعيل فى تأسيس مجلس النواب ١٨٦٦، نظاما جديداً فى مصر، فقد سبقه كلاً من بونابرت ومحمد على - كما سبقت الإشارة - بدرجات متفاوتة، أما اسماعيل باشا فقد انشأه "على نسق وترتيب مجالس الأمم المتمدنة والحكومات الدستورية المقيدة"(١).

والجدير بالذكر أن البعض رأى فيه أن الخديو اسماعيل دعا مجلس النواب فى ١٨٦٦ لوضع برنامج تدريجى للقومية المصرية (٢)، إلا أن هذا القول لا يتلاءم مع الواقع، فإن هذا المجلس لم يكن سوى وجهة دستورية تتفق مع ميول إسماعيل التحديثية، ومع رغبته فى الاقتباس عن الغرب الأوربى طرق الحكم الديمقراطية، وأخيراً حتى يبدو أنه تراجع عن قدر محدد من الحكم المطلق (٣)، الذى كان جوهره ينم عن شخصية استبدادية(٤)، ومما لاشك فيه أن تلك الخطوة من جانب الخديو إسماعيل قد

أحيت الآمال فى إمكانية وجود حكومة دستورية فى المستقبل القريب (٥).

وبعد فترة وجيزة من تكوين مجلس النواب، كان الاستعداد لافتتاح قناة السويس ١٨٦٩، مما جعل البعض (٦) يذهب إلى القول بأن الخديو إسماعيل كان يعد العدة لإعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية، ومن هنا أنشأ تمهيداً لذلك مجلس شورى النواب ليواجه إرادة الدولة وإن كنا نعتقد أن ذلك القول يعطى للمجلس حجماً أكبر من حجمه الحقيقى، فلم يكن لهذا المجلس كل تلك الفاعلية (٧) - على الأقل مع بدايات إنشائه.

ورويداً رويداً سيلعب المجلس دوراً إيجابياً عندما يطالب بأن تكون الوزارة مسئولة أمامه بحيث يكون للمجلس مكان فعلى فى حكم البلاد، فمع تفاقم الأزمة المالية ووطأة التدخل الأجنبى أخذ الخديو اسماعيل جانب المعارضة وعمل على توثيق الروابط مع أعضاء مجلس النواب للعمل على تحطيم السيطرة الدولية على مصر (٨).

ومع نهاية عام ١٨٧٨ كانت الفكرة النيابية قد رسخت فى الأذهان، حيث استندت على عوامل أساسية أدت مجتمعة إلى ضرورة إنشاء ذلك المجلس، تلك العوامل التى تمثلت فى ازدهار الصحافة ونشأة المسرح والإجادة فى استخدام وسيلة الأدب التى مست طبقات المجتمع المصرى المختلفة، وبهذا ساعدت على تنبيهه وتوعية أفراد المجتمع المصرى بالمطالبة بحقوقه المسلوبة.

لقد مرت الحياة النيابية بفترات اتسمت بعدم الاستقرار الذى يرجع أساساً إلى حداثة فكرة المجلس، إذ أسفرت بداية الأمر عن توقف استمر من عام ١٨٧٧ حتى اعيد إفتتاحه فى يناير ١٨٧٩ واستمر حتى ٦ يوليو ١٨٧٩، وكان آخر المجالس فى عهد الخديو اسماعيل، إذ شهد جلسة هامة تمثلت فى رفض النواب الانفضاض من قبل النظر فى المسائل المالية

والأشغال الداخلية، مما ترتب عليه من اجتماع النواب والأعيان فى هيئة "جمعية وطنية" بدار السيد البكرى نقيب الأشراف، ثم بدار اسماعيل راغب باشا ووضعوا ما يسمى "باللائحة الوطنية" (٩).

على أية حال أدت هذه المتغيرات إلى إسناد الوزارة إلى شريف باشا(١٠) واضع أول دستور فى تاريخ مصر الحديثة، ذلك الدستور الذى لم يقدر له أن يرى النور حيث تم عزل اسماعيل فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩.

ومن المفارقات أن تبدأ الحياة النيابية بمجلس ١٨٦٦ الذى يهدف فى المقام الأول من جانب الخديو اسماعيل إلى إشراك هذا المجلس فى طلب القروض من الأجانب، فى نفس الوقت الذى يكون فيه أخر مجلس لعصر إسماعيل باشا ١٨٧٩ يهدف إلى التخلص من هذه الديون !

لقد مثل عصر اسماعيل النواة الحقيقية "لمصر للمصريين"، حيث انشغل أفراد الشعب المصرى بمشاكله محاولاً ايجاد الحلول المثلى لها متخذين من الخديو اسماعيل رمزاً للوصول بهم إلى حياة أفضل ونلمس ذلك جلياً فى الرد على خطبة العرش التى افتتح بها دور الانعقاد لمجلس شورى النواب الأخير فى عهده مرددين {نحن نواب الأمة المصرية ووكلاؤها، المدافعون عن حقوقها، الطالبون لمصلحتها، التى هى فى نفس الأمر مصلحة الحكومة، .... وأنا لانألوا جهدا فى دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصلحة الحكومة قياما باداء واجباتنا التى هى فى نفس الحقيقة مقاصد ولى النعم .....}(١١).

لقد وضع النواب أنفسهم على قدم المساواة مع الخديو إسماعيل من حيث محاولة كل طرف مزاولة سلطاته وفق أهداف محددة تتحد جميعها لتحقيق الحرية والايفاء بمصالح وحقوق الرعية(١٢)، هذا بالاضافة الى بروز الهوية الوطنية لهؤلاء النواب عندما يصرحون بالقول: {نحن نواب الأمة

المصرية ووكلاؤها)، بما يعبر عن الروح المصرية الساعية لخدمة وطنها.

بهذا يتضح لنا وبعد دراسة عصر الخديو إسماعيل إمكانية وصف ذلك العصر بأنه بحق يُمثل الاتجاهات القومية فى مصر تلك الاتجاهات التى رمت إلى إنشاء نظام برلمانى مصرى ثابت، وإلى فصل مصر عن الدولة العثمانية وإنشاء حكومة مصرية وطنية(١٣)، مما دعا البعض إلى القول بأن القومية المصرية بدأت واضحة تماماً للمرة الأولى بعد خلع إسماعيل(١٤)، مع الأخذ فى الاعتبار أن تلك الاتجاهات لم تكن فى بعض جوانبها أهداف الخديو إسماعيل فقط فجنباً الى جنب كان تيار الوطنية المصرية ينمو ليسهم بدوره فى ترسيخ تلك الاتجاهات، فقد أسهم المفكرون بكل قوتهم فى تشجيعهم الحركة الدستورية والقومية، ونهج هؤلاء نفس المنهج، فى دفع الحركة التى قضى عليها بفعل الاحتلال البريطانى، والأهم من ذلك كله هو أن إتساع نطاق وحجم ودور ومصالح الطبقة الوسطى *Middle class*، ووعيها بذاتها كان السبب الرئيسى وراء إعتبار عصر إسماعيل يمثل الاتجاهات القومية فى مصر.

ورغم هذا الاستقرار النسبى بين الخديو إسماعيل وعلاقاته مع مجلس شورى النواب إلا أن تولية الخديو توفيق أتت بأوضاع مغايرة اذ تملص من مساندة الحركة الوطنية الوليدة، عندما أحل رياض باشا محل شريف باشا فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٩، تلك الوزارة التى أثارت بأفعالها السخط العام فى نفوس المصريين، خاصة عندما رفض الخديو توفيق دعوة الأمة لانتخاب برلمان جديد، وحتى بعد رضوخه وافتتاح برلمان ١٨٨١ – ١٨٨٢، مالبثت أن بقى عدة شهور حتى وقوع الثورة العرابية وبهذا أنحل هذا المجلس على وجه السرعة(١٥)، وهو المجلس الذى شهد مشروع دستور ١٨٨٢، وهكذا قضى على الاتجاه الدستورى كما عبر عنه شريف باشا وزملاؤه من الأتراك

المتمصرين الذين كانوا يريدون تطبيق النظم الديمقراطية الغربية في مصر[١٦].

فمن جهة أخرى رسم رجال الاحتلال البريطاني صورة مغايرة للحياة النيابية في مصر عندما ألغوا دستور شريف باشا وفرضوا دستور ١٨٨٣ الذي أفسح المجال لظهور – مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية على مسرح الحياة النيابية ـ ظهوراً ينم عن انعكاس لسياسة رسمها المحتل، ولعل تغيير اسم المجلس إلى مجلس شورى القوانين يقودنا إلى قبول الرأى بأن تلك التجربة كان المحتل يريد بها محو صفة النيابة عن الأمة، حتى لا يخوضوا في تحقيق دعواهم {نحن نواب الأمة}، كما كان متبعا من قبل[١٧]، فكانت تلك السياسة هى السمة العامة للمحتل أى محو ما هو مؤد إلى الإحساس بهوية وطنية ذات معالم محددة.

وقد انعكست تلك السياسة أول ما انعكست على وأد مرحلة الانتعاش واليقظة التى شهدها المصريون من خلال ممارسة النواب المصريين للحياة النيابية فى تلك الفترة، التى اعتبرها البعض حركة تكميلية للثورة الفكرية التى ظهرت فى مصر فى القرن التاسع عشر[١٨].

٢ - *العرابيون ومصر للمصريين*:

تبدأ بعد ذلك ثورة من طراز جديد توازى فى أهدافها ما سبق من معالم الثورة الثقافية والفكرية التى شملت المجتمع المصرى، ونقصد بالطبع الانتقال الطبيعى من ثورة ثقافية فكرية ينتج عنها بطبيعة الحال ودوماً المضى إلى الخطوات التطبيقية، ونرى ذلك قد تمثل فى نشوب الثورة العرابية التى جُسدت بعد أن استوعبت كافة المظاهر الايجابية التى مست كافة عناصر المجتمع المصرى فى تحقيق قدر من الوعى السياسى والفكرى والثقافى حتى تكون هذه السمات مجتمعة هى نفس البوتقة التى خرج منها

الاطار الذى صارت عليه الثورة من حيث أسبابها ومكوناتها وأهدافها.

ندرك هذه الحقيقة بعد نجاح سعيد باشا فى إذكاء روح الجندية بين الجيش المصرى عندما فتح الباب للطبقة الوسطى المصرية للتعيين فى وظائف الدولة، علاوة على ترقية المصريين إلى أعلى الرتب فى الجيش(١٩)، مع تحسين أوضاعهم داخل سلك الجندية، وكانت الاصلاحات التى أدخلها سعيد باشا هى النواة التى أفرخت طبقة الضباط المصريين الذين حملوا على كواهلهم عبء اصلاح الأحوال السياسية داخل المجتمع المصرى بالطرق السلمية أولاً عن طريق إنشاء الجمعيات السرية - كما سنرى - ثم باتباع طريق الثورة ثانياً.

وقد أبدى سعيد باشا ميلاً نحو المصريين ففى خطبة له ذكر {... وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب واهذبه تهذيبنا حتى اجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة...}، واعتبر عرابى تلك الخطبة أول حجر فى أساس نظام "مصر للمصريين"، بل ذهب إلى أن سعيد باشا هو واضع أساس النهضة الوطنية، ومن هنا يمكن القول أن سعيد باشا قد ساعد بشكل غير مباشر فى دفع الفكرة الوطنية خطوات إلى الامام(٢٠)، حيث وضح تأثيره على رجال الثورة العرابية الذين اعتبروه الأب الروحى للقومية المصرية.

وجاء عصر اسماعيل ليساعد على نضوج الروح العسكرية لدى المصريين والتى شابها بعض المفاهيم السيئة وكثير من المغالطات التى نتجت عن مساوئ سياسات القهر التى نهجها محمد على عند تكوينه لجيشه والتى أتت بكثير من الثمار على مستوى ابناء الوطن المصرى(٢١)، ولجملة أسباب لا يسمح المقام للخوض فيها، تألفت جمعية سرية باسم "مصر الفتاة"، أجمعت آراء المؤرخين(٢٢) على تحديد عام ١٨٧٦ تاريخا لتأسيسها

وعلى رئاستها من قبل على الروبى، ومالبث أن إنضم اليها أحمد عرابى وعلى فهمى، إلى جانب بعض العناصر المثقفة اذ أصبحت نواة لأول حزب سياسى فى مصر(٢٣)، حيث جعلت الجمعية أهدافها مصوبة نحو تحسين وضع المصريين فى الجيش المصرى، وقد ساهمت جمعية "مصر الفتاة" على انضاج مدارك فئة العسكريين الشبان عندما لامست عقولهم فى الخطب التى كان يلقيها عرابى بينهم أو ما يقرءونه على صفحات جرائد يعقوب صنوع، حيث كانت أبو نضارة زرقاء لسان حالهم.

قدم يعقوب صنوع على صفحات جريدته أكبر دليل على الحالة البائسة للضباط والجيش في عهد الخديو اسماعيل فى صورة مسرحية عنوانها "الجهادى" ، فيتحدث على لسان غلبان بك الذى كان "اميرالاليا" فى جيش اسماعيل بالقول: { من يوم ما تولى علينا شيخ الحارة يقصد الخديو اسماعيل السعد سابنا ومشى، فين أيامك السعيدة يا سعيد، كانت الجهادية متشرفة ومسرورة مش زى اليوم جيعانه ومقهورة...} ، وفى موضع آخر يشير الى مدى الفقر والبؤس التى عايشها أفراد الجهادية زمن اسماعيل باشا فيقول على لسانه ايضا: {.... وأحنايا أولاد مصر على الحصيرة ولا نحن واجدين لقمة نسد بها جوعنا وساكتين على غلبنا...}(٢٤).

ومالبث المناخ العام أن اتسع لمزيد من الثورية حيث كانت مظاهرة الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ إفرازاً طبيعيا لنشاط جمعية "مصر الفتاة"، فى تحقيق أهدافها، وقد نخرج من هذه الحركة أنها قد هزت الخضوع والطاعة التى غلبت على المصريين وخاصة العسكريين منهم طوال العهود السابقة(٢٥).

ولقد كان الجو مهيئاً أمام ظهور جمعيات أخرى تعمل بشكل أو بآخر

فى الإسهام فى نمو الوعى القومى بين أفراد المجتمع المصرى، تلك كانت "جمعية حلوان" التى تأسست فى أبريل ١٨٧٩ وكان لنشأتها أيضاً أسبابها(٢٦)، وقد كان من أبرز أعضائها شريف باشا، شاهين باشا، عمر لطفى باشا، راغب باشا وسلطان باشا، مجتمعين على أمر قيام وزارة مستقلة مسئولة، ومزيد من الحريات لمجلس النواب ليصبح فى مصاف مجالس أوربا النيابية(٢٧)، ولقد عملت جمعية حلوان فى بداية أمرها فى العلن حيث رفعت مطالبها للخديو إسماعيل الذى أظهر نوعاً من الديمقراطية وأنه مساند لمطالبهم الوطنية، ولكن فى مرحلة تالية سيضطر أعضاؤها إلى العمل فى الخفاء عندما تتوجه سياستهم صوب خلع الخديو إسماعيل.

وقد قامت الأرستقراطية التركية بتحديد مطالبها ناسبة إلى نفسها تمثيل عناصر الأمة المصرية، فيما عبرت عنه فى بيان ٤ نوفمبر ١٨٧٩.(٢٨).

وكان انضمام جمعية "مصر الفتاة" مع "جمعية حلوان" نهاية المطاف لهما كجمعيتين سياسيتين، حيث أفرزا ما سمى بالحزب الوطنى مجازاً اذ لم يكن حزباً سياسياً بالمعنى الحديث للكلمة فلم يكن ثمة شروط للعضوية او الاستمرار(٢٩) ــ على سبيل المثال ــ رافعاً شعار "مصر للمصريين" ضاماً بين جناحيه جميع القوى الثائرة على الأوضاع فى مصر تعمل فى الخفاء من أجل تغيير الأوضاع المتردية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

ينبغى بنا قبل تناول مبادئ الحزب الوطنى الذى لم يعلن عنها إلا فى ديسمبر ١٨٨١ أن نشير إلى جمعية سياسية أخرى حملت على كاهلها الكفاح فى مضمار العمل السياسى، تلك هى جمعية "مصر الفتاة" السرية، إذ خرجت عن الطابع العسكرى الذى أصطبغت به "مصر الفتاة" التى سبق الحديث عنها فتأسست ما بين أواخر حكم إسماعيل وأوائل حكم توفيق بالإسكندرية(٣٠).

ضمت "مصر الفتاة" تحت جناحيها شباب الأسر الشامية واليهودية المتمصرين داخل المجتمع السكندرى، وكان أديب إسحق وسليم النقاش من أعضائها البارزين، فضلاً عن عبد الله النديم الذى أنضم إليها لفترة - كما مر بنا- على أن الجمعية اختطت لنفسها أهدافاً هى خلع الخديو إسماعيل وتولية توفيق، ثم مالبثت أن أيدت الأمير حليم بعد أن خابت آمالها فى توفيق(٣١).

إن ما يعنينا من أمر هذه الجمعية تلك الوثيقة الاصلاحية التى رفعتها إلى الخديو توفيق فى سبتمبر ١٨٧٩ عارضة فيها مشروعاً أصلاحيا شاملا القطر المصرى(٣٢)، أنها صورة مرسومة بدقة لحال المجتمع المصرى منذ عهد إسماعيل كما حددته اللائحة، تُبين إلى أى مدى كان إنتشار الوعى بين أفراد المجتمع والذى جعلهم ملمين بكل التفاصيل التى تصف الواقع المصرى، ويزداد الاحساس بالوعى عندما يتم عرض الأسباب التى أدت الى شقاء البلاد، وسرعان ما نجدها تنصب فى قالب سياسى حول الحكومة الاستبدادية.

نزداد دهشة عندما نتأمل الحلول المقترحة للإصلاح كتوزيع السلطة الذى يؤدى إلى أن {يصير أهل البلاد أمة حقيقة}، إن أخطر ما فى هذه الوثيقة هى التطرق إلى وضع الشروط فى اختيار الناخب أهمها من وجهة نظرها أن يكون مصرياً، {ونريد بالمصرى كل عثمانى مولود فى مصر أو مقيم بها منذ ثلاثة أعوام على الأقل من غير تمييز بين الاجناس والمذاهب وهذه الصفة نعترفها لكل أجنبى يتجنس بالجنسية المصرية}، أنها دعوة مبكرة لوضع قانون للجنسية المصرية شاملا ما ارتآه من كل العناصر الوافدة إلى مصر جنباً إلى جنب مع كل عثمانى مولود بها.

بهذا يتضح لنا أن رغبات العناصر غير المصرية والتى استقرت

بمصالحها ومعيشتها فى المجتمع المصرى قد أدلت بدلولها هى الأخرى وفق مصالحها الشديدة الخصوصية نكتشف هذا فى رغبتهم التى مؤداها الدعوة إلى إمكانية منح صفة {المصرية} لكل عنصر أياً كان غير مصرى مجرد قضائه فترة زمنية بأن يتمتع باكتساب هذه الصفة، وبالتالى ما يترتب عليها من مزايا، لذا بدت هذه الدعوة من لدن العناصر غير المصرية. وكأنها دعوة فضفاضة غامضة لا يظهر منها ومن أهدافها سوى تأمين المصالح لمختلف الطوائف والعناصر غير المصرية فى المجتمع.

وبظهور الحزب الوطنى فإنه يكون قد مثل - ومن وجهة نظرنا - قمة النضوج والوعى السياسى والوطنى، ويتضح ذلك جلياً عند مطالعة أهداف الحزب* والتى نشرت فى أول يناير ١٨٨٢.

فقد وضع الحزب الوطنى اطاراً عاماً ومحدداً لولائه للسلطان العثمانى ولخديو مصر يتضح ذلك فى المبدأ الاول والثانى {... ويعترف بالسلطان عبد الحميد كمتبوع وخليفة وأمام المسلمين ....} ، {يخضع الحزب للجناب الخديو الحالى ...}، وبهذا نقبل وصفه بأنه جدد المطالب المصرية القومية فى ذلك الحين(٣٣)، من خلال تأكيد أعضائه على استقلال مصر {كما يحافظ الحزب على حقوقه وامتيازاته الوطنية بكل ما فى وسعه ويقاوم من يحاول إخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية} وقد تحدث أعضاء الحزب بلسان الأمة المصرية جميعها فى الرغبة على تأكيد وضع مصر الخاص داخل الدولة العثمانية الذى حددته الفرمانات التى عقدت بين الباب العالى وخديو مصر الأسبق، من هنا جاء حرص أعضاء الحزب على تأكيد الروابط والعلاقات التى تربط مصر بالدولة العثمانية فى إطار الاستقلال الذى رسم لها ، لكن دون التطرق إلى دعوة بانفصال مصر عن الدولة العثمانية التى كانت تمثل للمصريين – وحتى ذلك الوقت – الرابطة الروحية باعتبار مصر جزءاً من دار الإسلام تعيش فى كنف الخلافة الإسلامية

العثمانية.

بالإضافة الى أنهم ألزموا الخديو بالمحافظة على حقوقهم باعتبارهم أمة لها كيانها المستقل ولها حقوق تطالب بها {... ويطلبون من سموه التعاون معهم بأمانة ....كما أنهم يحذرونه من الاصغاء إلى الذين يحسنون إليه الاستبداد والاجحاف بحقوق الأمة ..}.

وعلى هذا النحو رأوا أنهم مطالبون بالدفاع عن كافة حقوق الأمة {... فإنهم يأملون أن يستخلصوا ماليتهم من أيدى أرباب الديون ... حتى يأتى يوم تكون فيه مصر للمصريين}، المبدأ الثالث، وبذلك يكتمل البناء العملي لفكرة مصر للمصريين اذ أنهم قد وصلوا الى مرحلة من الوعى السياسى تؤهلهم لاستكمال بنائهم القومى {... وقد عرفوا الآن الحرية الحقيقية فى هذه السنين الأخيرة فعقدوا خناصرهم على استكمال تربيتهم القومية ..}، المبدأ الرابع.

ومن ثم انطلقوا على تأكيد مصرية الحزب الوطنى وأنه ممثل لجميع الأمة[٣٤] ليؤكدوا شرعيتهم فى الدفاع عن وطنهم فى المبدأ الخامس {الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى، فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب...}، وهكذا فصل الحزب الدين عن السياسة مدافعاً عن شعار "مصر للمصريين"[٣٥]، ومن ثم نستطيع القول بأن الأفكار الحديثة التى طرحت من أجل النهوض بالمجتمع المصرى سياسياً على يد أديب إسحق ويعقوب صنوع قد أفلحت فى استبعاد الدين من مضمار الحياة السياسية.

ولقد جسد الحزب الوطنى الجامعة الوطنية المصرية فى صورتها الجامعة لكل {من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها ينضم إليه لأنه لا ينظر الى اختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع أخوان وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية ...}[٣٦]، ولقد ذهب البعض[٣٧] إلى القول بأن هذا الحزب

ببرنامجه وأهدافه يُعبر عن سمة من سمات التجربة الليبرالية فى العمل السياسى.

على أى حال، لقد رسم الحزب الوطنى الأهلى صورة للوطنية المصرية، لم تكن كاملة النضوج، لذا خرجت مشوهة بعض الشئ لأنها لم تفصل فصلا كاملا بين أهل مصر الوطنيين وبين من يسكنها ويتكلم لغتها من غير أبنائها، فكانت وطنية فضفاضة جمعت كل من يسكن أرض مصر، ولم تفصل بين ما هو مصرى وبين الوافد، وذاك أمر طبيعى فى ذلك الوقت المبكر من نضوج الوعى القومى، فلم تتبلور بعد الفكرة الوطنية بشكل نهائى، فإننا مازلنا فى مرحلة بذر ثمار الفكرة.

ومن خلال المبدأ السادس والأخير أكد الحزب على أنه لامناص من تحقيق المزيد من الحريات السياسية لكى يتسنى إصلاح البلاد من كافة الأوجه لترقى بذلك حياة الأمة المصرية، {آمال الحزب معقودة على اصلاح البلاد ماديا وأدبيا، لا يكون ذلك الا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق نظامه بالمعارف واطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للأمة...}.

ويقدم لنا رفعت السعيد[٣٨] وجهة نظره فى عدم تطابق مبادئ الحزب الوطنى مع مبادئ عرابى التى يؤمن بها ويعلنها فى جميع المناسبات، إذ جاءت هذه المبادئ مقننة بعض الشئ لنيل الرضا السامى من جانب الخديو، ى إذن تعبر عن وجهة نظر المعتدلين داخل الحزب الوطنى من أمثال ام محمد عبده.

لقد اعتمد فى تفسير وجهة نظره على كلام أحمد عرابى قبل كتابة تلك بادئ حيث أعلن {...والجيش هو روح الحركة الوطنية وهو القوة الوحيدة القادرة فى الوقت الحاضر على حماية المصريين من الحكام الأتراك ومن محاولتهم لفرض سيطرتهم من جديد...}[٣٩]، إن الذى يجعلنا نميل إلى

وجهة النظر هذه أن ما شاهدته مصر من أحداث فتحت الطريق للثورة، وبهذا تكون قد خالفت مبادئ الحزب التى تتسم بالاعتدال.

لقد إنطلق عرابى ورفاقه ينفضون عن كاهلهم المبادئ المعتدلة ويتحدثون بأكثر ثورية عن "مصر للمصريين" شعاراً مرفوعاً ضد العناصر التركية والچركسية داخل المجتمع المصرى، محاولين تحقيق قدر من المساواة بين أهل البلاد الحقيقيين وبين الوافدين من هذه العناصر التى احتكت بالعسكريين داخل الأجواء العسكرية فى الجيش، ورويداً رويداً نمت تلك الحركة فى البلاد متبنية شعار "مصر للمصريين"، ومن أجل وصف مشاعر الكراهية لدى شرائح مختلفة من الشعب الناتجة عن تزايد السيطرة الاوربية ذات السطوة والنفوذ(٤٠) على عصب الحياة داخل القطر المصرى، فهو يمثل رفضا للوجود التركى الچركسى، وللوجود الأجنبى حاملاً فى طياته جعل "مصر للمصريين" فهم أبناؤها الحقيقيون فعلى لسان عرابى يردد {... وما قصدنا بسعينا افسادا ولا تدميرا ولكن رأينا أهلنا فى إذلال واستعباد ولا يتمتع فى بلادنا الا الغرباء فحركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الامة}(٤١) وفى خطاب يرفعه عرابى الى بلنت يقول فيه {... وغايتنا الوحيدة هى تخليص البلاد من العبودية والظلم والجهل ...} (٤٢)، وتلك كانت أهداف أحمد عرابى، ولهذا أصبح بالنسبة للمصريين رمزاً للحرية والعدالة (٤٣) التى يتطلعون إليها، حتى يتم التخلص من تلك السنوات العديدة التى عانوا خلالها من براثن العبودية والحرمان والإرهاب - إن جاز التعبير..

وما لبث المناخ العام أن اتسع لمزيد من الثورية كإفراز طبيعى للوعى

الذى صاحب انتشار الأفكار الحرة على يد صحافة الثورة* التى لعبت دورها فى تهييج النفوس وتكوين رأى عام مستنير عن طريق نشر المقالات التى تتعرض لمصر ومشاكلها بأسلوب ثورى، فأعطت لشعار الثورة "مصر للمصريين" عمقاً حقيقياً فى صراعها ضد الحكم الاستبدادى والسيطرة الأجنبية.

وعلى هذا النحو أصبح عرابى زعيماً للحركة الوطنية المصرية بعد تمكنه من تكوين تحالف ضم ثلاث قوى شعبية داخل المجتمع المصرى(٤٤) على صعيد واحد رافعين شعار "مصر للمصريين"(٤٥) مرددين [إن سكان مصر كالواحد بدون فرق بين المذاهب والعقائد الكل إنسان تجمعنا جامعة الانسانية](٤٦)، وبهذا مثل ذلك الشعار جامعة الوطن الرافضة لأى دخيل عليها، ونستشف تلك الصورة فى رواية عرابى من أن نوبار باشا قد أرسل اليه مندوبا ليشكره على إنقاذ الوطن من المستبدين وعرض على عرابى أنه [... مستعد لان يقود حركتنا الوطنية .. وأجبناه بأن مبدأنا هو أن تكون مصر للمصريين – وللنزلاء عندنا حسن الضيافة ...](٤٧)، ولعل فى إلحاق صفة "المصرى" بأسماء الضباط المصريين دليل على أنها ثورة قومية هدفت الى جعل مصر للمصريين، ومن هنا جاء اشتراك جميع القوى الفكرية والعسكرية فى الأمة(٤٨)، بعد أن كان الجيش هو بؤرة السخط العام،(٤٩) بفضل ذلك التمييز الواضح بين الأتراك والچراكسة والألبان من جهة وبين أبناء المصريين الوطنيين من جهة أخرى(٥٠).

وفى هذا المناخ الذى سيطر عليه شعار "مصر للمصريين" طرحت فكرة جديدة على الأذهان ألا وهى قيام نظام جمهورى(٥١) انطلقت من خلال

اجتماع العرابيين بمنزل حسن موسى العقاد، ورغم حداثة هذه الدعوة إلا أننا نرى أنها كانت حديث الصفوة، فهل كان من السهل إقناع العامة بها؟ يستبعد ذلك تماماً ففي مخيلة هؤلاء تقديس شخص السلطان خليفة المسلمين، وبالتالى لا يجرؤوا على الخروج عنه وإقامة نظام يفصل ما بينهم وبين حاضرة العالم الاسلامى، وقدمال البعض(٥٢) إلى اعتبار أن هذه التصريحات لم تكن من قبيل وجود خطة واضحة لقيام حكم جمهورى فى مصر، وإنما من منطلق هجومهم على النظم المستبدة كان يعنى تفضيلهم للنظام الجمهورى، فالبارودى يردد قائلاً:

كنا نود انقلاباً نستريح به حتى إذا تم ساءتنا مصائره(٥٣).

إضافة لهذا تكرار تعدد الدعوات من قبل محمد عبده وعبد الله النديم باللعنات للسلاطين والأمم التركية من عهد جنكيزخان وهولاكو إلى عبدالحميد، لدرجة أن النديم أعلن عن ثورة غضبه عندما قال أنه سيهدم عرش السلطان قبل أن يموت(٥٤)، وبهذا يتضح لنا أن تناول طرح الأفكار الحديثة على بساط البحث كان من قبل المثقفين المصريين آنذاك.

لقد راودت فكرة خلع الخديو أيضاً مخيلة العرابيين، فيذكر عرابى أنه عقب إعلان اللائحة المشتركة ووجود الأساطيل الأوربية بأنه {حضر العمد والاعيان ومشايخ العربان والعلماء والتجار وغيرهم وحصل فزع شديد لوجود تلك الأساطيل وقبول لائحة التدخل الاوربى وأجمع الرأى على رفضها وعلى خلع الخديو وقدموا لى محررات بأختامهم وفتوى شرعية من أفاضل العلماء بوجوب خلع الخديو على مقتضى الشرع الشريف الاسلامى....}(٥٥)، وأثناء محاكمة الضباط لم ينكر عرابى أنه كان ضمن من نادوا بضرورة خلع الخديو(٥٦).

نقف الآن أمام سؤال هام ألا وهو من كان ذلك الشخص البديل لتولى الأريكة الخديوية؟. تشير المصادر التى أمكن الحصول عليها على البرنس حليم، ففى رواية لسليم النقاش يذكر: {عمل العرابيون على السعى فى خلع الخديو وتولية البرنس حليم باشا مكانه وكثيرا ما صرحوا بذلك فى مجالسهم...}(٥٧).

لا ريب أن الامير حليم قام بنفسه للسعى أيضاً من أجل إسناد الخديوية إليه، فاستطاع أن يستميل بعض الوطنيين الذين سعوا لنشر أفكاره وإظهار أحقيته بعرش مصر من توفيق باشا(٥٨)، إن حليم باشا كان مناسباً فى نظر من أراد أن يحتفظ بأسرة محمد على باشا على خديوية مصر، ولكن ماذا كان موقف الرافضين للأسرة بأكملها، حيث رأى بعض الثوار أن عليهم عبء الغاء نظام الحكم القائم آنذاك، واجتثاث الأسرة العلوية من جذورها(٥٦).

لقد صرح عبد الله النديم ومحمد عبده بضرورة التخلص من أسرة محمد على من منظور إساءتها لمصر، فيذكر محمد عبده فيما كتبه عن المسألة العرابية {أن من أهم أسباب هذه الفتنة ... أحتقار الخديو ورجال بلاطه وكذا وزراؤه وكبار ضباط جيشه من الترك والچركس للمصريين لخلص، والتعبير عنهم بالفلاحين للتحقير والتعيير ...}(٦٠)، أليس الذل لهوان سبباً كافياً لمقت هذه الأسرة ومحاولة التخلص منها؟، ففى رسالة بلنت قال فيها : {فإن كل مصرى ... يكره الأتراك ويمقت ذكرهم ولا يستطيع مصرى أن يفكر فى نزول الأتراك بلادنا بدون أن يشعر بعاطفة قوية تدفعه الى امتشاق سيفه والهجوم على هذا المعتدى ... وكفى الأتراك ما لهم من حقوق الفرمانات. فعليهم أن يقفوا عند هذا الحد ولا يتعدوه ...}

واذا حاولوا دخول البلاد كان رده {... فإننا سنغتنم هذه الفرصة لكى نحقق أستقلالنا التام}(٦١).

ساق عرابى رواية يجب تناولها بحذر، أنه فى أوائل يناير ١٨٨٢ تقابل مع البارودى الذى أطنب عليه الثناء لقيامه بنشر راية الحرية فى مصر ثم {أقسم أنه مستعد لأن يضحى حياته ويجود بآخر نقطة من دمه فى تنفيذ رغبتى . ويجرد حسامه وينادى باسمى خديويا لمصر اذا رغبت فى ذلك ...}، وكان جواب عرابى {أنى لا أريد إلا تحرير بلادى ولا أرى سبيلاً لنوالنا ذلك الا بالمحافظة على الخديو ...ولا أريد انتقال الأريكة الخديوية إلى عائلة أخرى لما فى ذلك من الضرر ... }(٦٢)، وهذا القول يتناقض ما مع ما ذكرته هدى شعرواى(٦٣) بأن عرابى كان ينتظر من الجميع أن يعلنوا أنهم اختاروه خلفاً للخديو عند عزله، ولعل فى رواية قلينى فهمى نرى تخبطاً من قبل ساسة الثورة العرابية فى سياستهم ازاء الوضع الذى ستصبح عليه البلاد، فقد قال أن البارودى فى تلك الليلة ذكر ما يلى : {أنى أنا أولى بالملك لأنى من سلالة ملوك، وقال عرابى أنا رئيس الحركة الوطنية وموجدها} وقال آخرون غير ذلك الى أن قال طلبه عصمت باشا {لكل منا أعمال عظيمة فى هذه الحركة فيجب أن نعامل كلنا بالسواء بلا تمييز واحد على الآخر فيحسن أن نجعل كل مديرية خديوية قائمة بنفسها وكل منا يكون خديويا لها}(٦٤).

وفى نفس الوقت فإن مقولة عرابى تلك تتناقض مع ما ذكره فى رسالته السابقة لأبى نضارة عن كلامه لخلع لخديو، ولكن تبقى الدهشة، فإن هذه الرواية التى دارت بينه وبين البارودى كانت قبل وصول المذكرة المشتركة وما استتبعها من أحداث، وهذا دليل على تمسك العرابيين فى أول

أمرهم بالخديو عاملين على إصلاح أحوال البلاد تحت مظلته، ولكن مع تتابع الأحداث اشتط العرابيون فى ثورتهم لدرجة أوصلتهم إلى السعى لخلع الخديو والأسرة بأكملها.

يمكننا القول أن العرابيين سلكوا عدة طرق عادلة فى محاولة منهم لإصلاح حال الأمة المصرية بالطرق السلمية التى لم تنجح مع الخديو وحاشيته، ورويداً رويداً دفعتهم الأحداث فى خضم ثورة قومية بكل المقاييس، لأنها جمعت كافة عناصر الأمة على صعيد واحد رافعين شعار "مصر للمصريين" ومع كل ذلك لم تخرج عن دائرة تبعيتها للدولة العثمانية فى اطار الاستقلال الذاتى الذى نعمت به مصر بفضل الفرمانات الشاهانية، فالسلطان العثمانى بالنسبة لهم هو خليفة المسلمين، وباعتبار مصر جزءاً من دار الاسلام فهى تابعة له.

ولأول وهلة يتضح الدور الذى لعبه العرابيون فى تحديد العلاقات مع الدولة العثمانية والتفريق بين الحكومة العثمانية ممثلة السلطة السياسية، وبين سلطان المسلمين ممثل السلطة الدينية فى مصر، فعرابى يذكر لبلنت: {كلنا أبناء السلطان ويجب علينا أن نعيش كأسرة فى منزل. وكما أن أعضاء الأسرة الواحدة يكون لكل منهم غرفة ينظمها حسبما يهوى ولا يحق لرب البيت أن يستبيح حرمتها فكذلك لكل شعب من الشعوب الاسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها على ما يحب ويهوى، وقد كسبت مصر استقلالها ولكننا نخطئ اذا طلبنا أكثر من ذلك ولا يبعد أن نفقد حريتنا فى مثل هذه المجازفة}(٦٥).

وفى تصورى أن تلك المقولة دليل واضح على مدى الوعى الذى ألم بأفراد الأمة المصرية، فإن عرابى بكلماته هذه يفصل فصلاً تاماً بين الدين والسياسة مع تكرار التبعية الدينية لسلطان المسلمين، وفى نفس الوقت يؤكد على استقلالية مصر من الناحية السياسية عن الباب العالى، فلها مطلق

الحرية فى التصرف فى شئونها الداخلية كما تشاء دون التدخل من جانب الدولة العثمانية التى تكن لها مشاعر الاحترام والطاعة الواجبة تجاه رمز الخلافة الاسلامية.

وعلى الجانب الآخر ماذا كانت نظرة السلطان العثمانى العرابيين؟. هل كان يقابل قيام ثورة تحمل بين جنباتها نزعة قومية بالسلب، ويقف متفرجاً حتى تنسلخ مصر من حوزته؟ لقد أجمعت الآراء(٦٦) على أنه من الطبيعى أن يحاول الباب العالى انتهاز الفرص لانقاص مزايا الاستقلال الداخلى الذى نالته مصر، إضافة إلى ذلك خشيته من انتشار المفاهيم الثورية داخل أجزاء ولايات دولته.

سعى كل من الخديو توفيق وعرابى لدى السلطان العثمانى، لاظهار حسن نواياهما كل على حده وطعناً فى الآخر، فقد سعى توفيق من خلال مراسلاته مع الباب العالى لاظهار الثورة بمظهر قومى هدفها فصل مصر عن الدولة العثمانية تخلصاً من العنصر التركى الممقوت لهم(٦٧)، ومن جانب عرابى وثق صلته بالسلطان وأظهر حركته بمظهر الدفاع عن ديار الاسلام ضد التدخل الاجنبى الذى ينحاز له الخديو توفيق فيكتب الى ممثل السلطان متحدثا فى هذا الشأن: {أعلن للسدة العلية السلطانية أن الشعب المصرى الشاهانى لما رأى اتحاد توفيق باشا مع دولة الانكليز على وقوع الفرقة بيننا وبين متبوعنا مولانا أمير المؤمنين لشق عصا الاسلام محاذاه وتحقق له ذلك من الحرب التى آثارتها علينا الانكليز بغتة اجتمعت كلمة أهل البلاد على حفظها والدفاع عنها وتسابقوا فى سلك الجهادية تطوعا ...}(٦٨)، لقد أثبت عرابى بهذه الوثيقة طاعته لخليفة المسلمين، حيث كان الطابع الاسلامى يُغلف هذه الفترة بالولاء للدولة العثمانية.

ومن جانبه لجأ السلطان عبد الحميد إلى اتباع وسيلة جديدة يحسم بها الرؤى ويلتمس الحقيقة بنفسه، ومن هنا جاء لإرسال الوفود

الشاهانية[٦٩] لتقصى الحقائق، مع استمرار المراسلات مع عرابى لاستمالته، فكان ذلك الجانب النظرى فى علاقة السلطان بعرابى.

وتمثل الجانب العملى فى سياسات الباب العالى بما أصدره السلطان من منشور عصيان عرابى الذى أُعتبر ضربة قاصمة للفكرة الثورية التى قامت عليها الثورة فى الدفاع الدينى عن بلاد المسلمين، وقد سعى عرابى إلى دحض هذا المنشور من منطلق أنه {...مخالف لأحكام الدين الاسلامى لأننا انما نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الاسلامية وأن الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال فرض واجب علينا ...}، وينطلق عرابى أكثر ثورية قائلاً: {... ولوفرض وصدر مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته لأحكام الدين ...}[٧٠]، لقد خلع عرابى لواء الطاعة الدينية عندما تخلى عنه سلطان المسلمين، ولكنها ثورة غضب ما يلبث أن يؤكد أن هذا المنشور صدر من غير أمر السلطان ورضائه، حيث أن الأمة المصرية تدافع عن بلدها {... وهى لم تخرج على سلطانها بل تقاتل أمة أجنبية أعتدت عليها فى عقر دارها}، أنه يحاول أن يمنى نفسه بصدق قوله.

ألم تكن فكرة العصيان هذه وما أحدثته فى النفوس تُثبت أن الروابط النفسية قائمة بين شعب مصر وبين الدولة العثمانية، تلك الروابط التى يمكن القول بأنها ممثلة فى الرابطة الروحية، فمازالت العاطفة الدينية هى الغالبة على الشعور العام لكافة المصريين.

بهذا يمكننا أن نصل إلى تحديد مؤداه أن العرابيين مزجوا دعوتهم الوطنية لجعل "مصر للمصريين" بدعوتهم الدينية بأن ثورتهم "جهاد فى سبيل الله"، وفى اعتقادى أنه كان من الصعب جمع كل هذه القوى المشاركة فى الثورة العرابية تحت لواء الوطنية فقط، فدرجة الوعى التى وصل اليها المجتمع لم تكن كافية أو متساوية بين مكونات المجتمع المصرى المختلفة لحشد تلك الأعداد، انما إلباس الثورة رداء الطابع الدينى كان وراء التكتل

خلف العرابيين، ذلك مع الإحتفاظ بفضل تلك الثورة فى اثارة الشعور القومى فى مصر وأظهرت - إلى حد ما - تطور الوعى القومى بقوة وحدة من خلال النجاح فى حشد قطاع من تلك القوى التى زخمت بها الحركة العرابية فى ذلك الوقت على أساس من الشعور الوطنى.

وهكذا تبلور شعار "مصر للمصريين" فى أول أمره حول إثبات وترسيخ الشخصية المصرية، تلك الشخصية الرافضة للسيطرة التركية، ثائرة ضد التواجد الأجنبى، رافضة لوجوده على أرضها تستظل فى نفس الوقت بظلال الخلافة الإسلامية، حافظة لاستقلالها الداخلى ترضى كل الرضا بذلك، أن مبدأ "مصر للمصريين"، شعاراً نبع من فعل المؤثرات الغربية على العقلية المصرية فكان نتاج عصر ماج بالأفكار الحديثة المنقولة عن الغرب الأوربى، ومن ثم أحدثت تأثيراتها المحدودة على العقلية المصرية، وذلك أثناء عصر الخديو اسماعيل ومع أحداث الثورة العرابية، أما الشعار ذاته سوف يرفع فى فترة لاحقة مع بدايات القرن العشرين ليكمل فكرة الوطنية المصرية ويصيغ القومية المصرية بشكل أكثر تحديداً بعد أن تم أعاقت النمو الطبيعى للأمة المصرية - من قبل - على يد البريطانيين والأتراك على حد سواء، مما أدى إلى تضارب فكرة القومية المصرية تحت زعامة عرابى(٧١)، وهذا ما سوف نواصل بحثه.

بناءً على ما سبق لا يمكن إنكار ما كان للحركة العرابية من فضل فى نشر الوعى بين المصريين، ففى العقود الوسطى من القرن التاسع عشر كانت مصر تقترب من مرحلة مفترق الطرق فى تاريخها، وذلك من خلال ثلاثة اتجاهات، الاتجاه الأول: تمثل فى النزعة الاستقلالية التامة، وتمثل الاتجاه الثانى فى القدرة على الانسلاخ عن تبعيات الامبراطورية العثمانية أما الاتجاه الثالث فى السيطرة الأوربية وقد أتضح هذا الاتجاه فى خلع الخديو اسماعيل، أول الطريقين فى ذلك الحين قد أغلق من قبل أمامها، وفى أثناء العقد التالى تمكنت من الابتعاد عن طريق الهيمنة الاوربية(٧٢)، وان كانت وقعت تحت السيطرة البريطانية المباشرة.

صفوة القول أن نتاج عصر الخديو اسماعيل وبدايات الخديو توفيق أفرخ لنا نهضة ثقافية هدفت إلى تحديث المصريين، على كافة المستويات المدنى منها والعسكرى، فأحمد عرابى كنموذج للضباط المصريين، ومحمد عبده كنموذج المفكرين المصريين - على سبيل المثال - قد استطاعا أن يلعبا دوراً جوهرياً وحيوياً فى خلق الوطنية[٧٣]، جنباً إلى جنب مع مثقفى ذلك العصر، وبكل المقاييس استطاعت الفكرة النيابية والثورة العرابية أن تمثلا المظاهر الايجابية من قبل المصريين، بعد أن أيقنوا ضرورة تركهم الجوانب السلبية فى تفكيرهم، لينزلوا إلى ميدان العمل يعاركون بأفكارهم ومقترحاتهم من أجل خدمة الأمة المصرية التى يشهد تاريخها بعظمتها، ومن ثم استمرت ثمة رابطة بين عصر ما قبل الاحتلال، وعصر الاحتلال تلك الرابطة التى تمثلت فى استمرارية الوعى بين أبناء مصر، اذ ظل حياً نامياً، وإن بدا عليه فى بعض الفترات الذبول، وهذا ما سوف تثبته الفصول التالية.

* * *

هوامش الفصل الثالث

١ – ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، ج٤، ط١، ١٩٠٠ ص ١٤٥.

٢ – Jamal, M., A., The Intellectual origins of Egyptian Nationalism, p.23.

٣ – Holt, p.M., Egypt and the Fertile crescent 1516 - 1922, p.204.

٤ – Dicey, Edward, The Egypt of the future, london, 1907, p.159.

٥ – Lutfi, Al. S. Afaf, Egypt And Cromer, A Study in Anglo - Egyptian Relations, London, 1968, p.7.

٦ – لويس عوض (د.) : تاريخ الفكر المصرى الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩، ج ٢ ص ٢٦.

٧ – الكسندر شولش : مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ – ١٨٨٢، تعريب، رءوف عباس حامد، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٠١ – ١٠٢.

٨ – The New Encyclopedia Britannica, vol. 6, William Benton, publish er, 1976, printedin U.S.A., p. 496.

٩ – لمزيد من التفاصيل حول الحياة النيابية فى عصر الخديو إسماعيل، انظر چاكوب لاندو الحياة النيابية والاحزاب فى مصر من ١٨٦٦ إلى ١٩٥٢، من تاريخ مصر، ترجمة وتعليق: سامى الليثى، د.ت.

١٠ – حول دور شريف باشا فى الحياة النيابية، راجع، طلعت إسماعيل رمضان: محمد شريف باشا ودوره فى السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٧٢، ما بعدها.

١١ – عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل، ج٢،ط١، مطبعة النهضة، ١٩٣٢، ص ١٩٠–١٩١.

١٢ – الكسندر شولش : المرجع السابق، ص١٠٥.

١٣ – أمين سعيد: الاتجاهات السياسية خلال ٦٠ سنة فى الشرق العربى مقال فى المقتطف، المجلد ٨٨، مايو ١٩٣٦،ص ٦١٠.

١٤ - Marlowe, John, Anglo-Egyptian Relations 1800 - 1956, Second Edition, Copyright, 1965, p. 112.

١٥ - محمد خليل صبحى : تاريخ الحياة النيابية فى مصر من عهد ساكن الجنان محمد على باشا، الجزء الرابع، الخاص بمجلس النواب المصرى ١٨٨١ ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٧، ص ٩٩-١٠٠ كذلك البرت شقير : الدستور المصرى والحكم النيابى فى مصر وتاريخ ذلك من ١٨٦٦ حتى الآن، مطبعة المقتطف، المقطم بمصر ١٩٢٤، ص ٦.

١٦ - Young, George: Egypt, London, 1930,p.106.

١٧ - لويس عوض : المرجع السابق، ص ١٣٥.

١٨ - البرت شقير : المصدر السابق، ص١٣٥.

١٩ - أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦-١٨٨٢،دار المعارف، د.ت، ص ٨٣.

٢٠ - أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الاسرار، فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ١٢٩٨ هـ، ١٨٨١-١٨٨٢م، ج١، مطبعة مصر، القاهرة، د.ت، ص ١٦.

٢١ - يونان لبيب رزق (د.): مصر المدنية فصول فى النشأة والتطور، ص ١١٦.

٢٢ - سمير محمد طه : أحمد عرابى ودوره فى الحياة السياسية المصرية، ص ٣١-٤٢، كذلك عبد العظيم رمضان (د.): الجيش المصرى فى السياسة ١٨٨٢-١٩٣٦، ص ١٤.

٢٣ - Holt,p. M., (Editor): Political And Social change In Modern Egypt, ZAYID, MAHMUD, The origins of the Liberal Constitutional list party In Egypt, London, 1968, p.334.

٢٤ - نص مسرحى مجهول ليعقوب صنو ع، عرض وتعليق فريدة مرعى.

٢٥ - لطيفة محمد سالم : القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، ص١١١، حول أحداث ١٨ فبراير ١٨٧٩، راجع، سليم النقاش : مصر للمصريين، ج ٤، ص٨٣-٨٤.

٢٦ - جمع شريف باشا جماعة الأتباع ذوى النفوذ الذين تضرروا من فقدان مراكزهم على إثر تشكيل الوزارة الأوربية ١٨٧٨، بالاضافة إلى طبقة الملاك الذين كانوا غير راضين عن التدخل الأجنبى والسلطة المطلقة للخديو إسماعيل، الكسندر شولش: مصر للمصريين، ص ١٥٥، ١٥٦.

٢٧ - رءوف عباس حامد (د.) : المعارضة الوطنية وإرهاصات الثورة، بحث فى مصر للمصريين مائه عام على الثورة العرابية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ١٩٨١، ص ٦٠-٦١.

٢٨ - صدر هذا المنشور كما تجمع المصادر باللغة الفرنسية باسم الحزب الوطنى، وطبع منه ٢٠ الف نسخة، وقد وجد البعض فيه نوعا من سياسة رمى القفاز فى وجه التدخل الأوربى ورياض باشا،

لمزيد من التفاصيل حول بيان ٤ نوفمبر انظر، عبد الرحمن الرافعي: الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى، ط٣، ١٩٦٦، ص٨٠-٨٢.

٢٩ – Holt, P.M., (Editor), op. cit., p. 335.

٣٠ – خرج على شلش من الدراسة التى أعدها بعنوان :مصر الفتاة جمعية سياسية ووثيقة اصلاحية ١٨٧٩، بأن هذه الجمعية تأسست أوائل حكم توفيق او على الاقل قبل شهر من عزل الخديو إسماعيل، وان للافغانى دوراً كبيراً فى الحث على نشأتها وأنها تكونت بعد طرده اى بعد أغسطس ١٨٧٩، واصدرت صحيفة باسم "مصر الفتاة" تولى تحرير القسم العربى منها أديب اسحق وكان مديرها چوسيو اليونانى احد عمال بنك الانجلو اچيبسيان ، انظر ص ٣٠-٤٣، وقد أخطأ چاكوب لاندو عندما أرجع ظهورها إلى بداية عام ١٨٨١، انظر چاكوب لاندو، المرجع السابق، ص ١٠٥.

٣١ – رءوف عباس حامد (د.): المرجع السابق، ص ٦٣-٦٤.

٣٢ – حول برنامج اللائحة ، انظر على شلش: المرجع السابق، ص٤٣-٤٧، وقد قام بنشر النص كاملا انظر ص ٥١-١٢٠.

* وثائق تاريخية عن الاحزاب والتنظيمات السياسية فى مصر، الطليعة ، عدد٢، فى فبراير، ١٩٦٥، ص ١٤٨.

٣٣ – أنيس صايغ: الفكرة العربية فى مصر، ص ٤٨ .

٣٤ – نفس المرجع ، ص ٤٨.

٣٥ – Zayid, M., y., Egypt's Strugle for Independence, Beirut, 1965, p.21.

٣٦ – سميرة بحر : الأقباط فى الحياة السياسية المصرية، القاهرة ١٩٧٩، ص٢٤.

٣٧ – محمد عمارة (د.): موقع الفكر الإسلامى الحديث من الاتجاه الليبرالى، مقالة فى الطليعة، عدد٨، أغسطس ١٩٧٢.

٣٨ – الاساس الاجتماعى للثورة العرابية، كتب قومية، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٠١.

٣٩ – نفس المرجع ، ص ٢٠٢.

٤٠ – Lutfi, Al-S., Afaf., Marsot, Ashort History of Modern Egypt, p.72.

٤١ – عبد المنعم ابراهيم الجميعى: من تراث عبد الله النديم، التنكيت والتبكيت، ص٣١.

٤٢ – ويلفرد بلنت : التاريخ السرى الاحتلال انجلترا مصر، ج٣، القاهرة، د.ت، ص ٣٢٣.

٤٣ – Holt, P.M., (Editor): Op. cit., p.335.

* حول أساليب الدعاية التى إتبعتها ومارستها الثورة العرابية، راجع، صلاح عيسى: الثورة ومسألة السلطة (٣)، مقال فى الكاتب، عدد ١٣٣، ابريل ١٩٧٢ ص ١٠٧-١١٤.

٤٤ – Lutfi, Al.S.Afaf., Egypt And Cromer, p.16.

٤٥ – Kinross, lord, The Ottoman Centuries, The Rise And Fall of The Trikish Em-pire, New York, 1977, p.546.

٤٦ – لطيفة محمد سالم : المرجع السابق، ص١٩٧ نقلا عن تقرير لأحمد عرابى.

٤٧ – مذكرات عرابى ، ج١، ص ٢٦٩.

٤٨ – حسين فوزى النجار : أحمد عرابى ، مصر للمصريين، ص ٢٥.

٤٩ – The Encyclopedia Americana, Vol., 10, p.16.

٥٠ – Marlowe, John, op. cit., p.112.

٥١ – Blunt, wilfrid, scawen, Secret History of The English Occuption of Egypt. London , 1907, p.343.

٥٢ – عبد المنعم ابراهيم الجمعيى (د.) : الجذور التاريخية لفكرة الجمهورية فى مصر، ص١٦.

٥٣ – محمد صبرى (السربونى) : أدب وتاريخ، ط٢، ١٩٢٧، ص٥١.

٥٤ – ويلفرد بلنت : المصدر السابق ، ص ٤٥٤.

٥٥ – وثائق جديدة وخطيرة عن الثورة العرابية، عرض وتعليق، فريد مرعى ، الهلال، عدد٣، مارس ١٩٧١، ص ٧٧.

٥٦ – مذكرات أحمد عرابى ، ج٢، "مذ كرات الزعماء" مخطوطة، دار الوثائق القومية، تحت رقم ح ١٨٥٢، ص ٤١٧ للإطلاع على محضر استجواب أحمد عرابى أمام قومسيون التحقيق بمصر من التهم المنسوبة إليه فى حركات الثورة، محافظ الثورة العرابية، م٨، رقم الملف ٥٣/تاريخ ٢٨ ذو القعدة ١٢٩٩ هـ.

٥٧ – سليم النقاش : المصدر السابق ، ص ٢٧٨.

٥٨ – عبد المنعم إبراهيم الجميعى (د.) التنافس على الخديوية المصرية بين الامير حليم والخديو توفيق، مقالة فى، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٨–٢٩، ١٩٨٣، ص ٣٦٣.

٥٩ – لطيفة محمد سالم (د.) : مساعى الامير حليم والخديو إسماعيل من أجل عرش مصر أثناء الثورة العرابية، مقالة فى المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٣٠–٣١، ١٩٨٣–١٩٨٤، ص٤٢٠.

٦٠ – السيد محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، ج١، ص ٢٦٢

٦١ – بلنت : المصدر السابق، ج٣،ص٣٣٠.

٦٢ – مذكرات عرابى، كشف الستار ج١، ص٢٧١–٢٧٢.

٦٣ – مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة، العدد ٣٦٩سبتمبر ١٩٨١،ص١٩.

٦٤ – المقطم، عدد ١٠٥٦٠، فى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٣، تحت عنوان : المرحوم سلطان باشا والمرحوم عرابى باشا للحقيقة والتاريخ.

٦٥ – ويلفرد بلنت : المصدر السابق، ج١، ص ٢٣.

٦٦ – عبد الرحمن الرافعي : المصدر السابق ، ص ١٦٤، عبد المنعم ابراهيم الجميعي (د.) : موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية ، مقالة في المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٦ .١٩٧٩، ص ١٤١.

٦٧ – لطيفة محمد سالم : القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، ص ١٧٣.

٦٨ – وثائق الثورة العرابية، محفظة ٨، ملف ٥٣ /٦ بتاريخ ٢٤ يوليو ١٨٨٢. خطاب من أحمد عرابي إلى بسيم بك ممثل السلطان.

٦٩ – حول البعثات التي أرسلت من قبل السلطان والمكاتبات مع عرابي، انظر أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن، ج١، ص ١٢٣–١٢٥.

٧٠ – مذكرات عرابي، ج٢، ص ٣٩٠.

٧١ – Young, G., op. cit., p. 59.

٧٢ – Holt,P.M., Egypt and the Fertile crescent, p.210.

٧٣ – Rifaat, M.A., (Bey) The Awakening of Modern Egypt, 1946, p.124 And, Mary Rowlatt: Founders of Modern Egypt, London, p. 3.

* * *

الفصل الرابع
المظاهر الإيجابية لعصر ما قبل الإحتلال

١ - الاحتلال ومفهوم "النضال الوطنى".

٢ - الوطنية المصرية والجامعة الاسلامية فى الصحافة المصرية ١٨٨٢ - ١٨٩٩.

٣ - محاولات تأصيل الوطنية المصرية بين دعاة الفرعونية والفكرة العربية.

١ - الاحتلال ومفهوم "النضال الوطنى"

مّثل الاحـتـلال البـريطانى فى جـانب منه دافـعـاً لنمـو تيـار الوطنيـة المصـرية، وقد ظهر ذلك جلياً فى أن مـشـاعـر السـخط قد عـمت المصـريين جمعيهم - هذه المرة من رؤيتهم للاحتلال البريطانى كوجود قائم بذاته داخل مصر - ففى العهد القريب كانت مشاعرهم رافضة ذلك التزايد الأجنبى فى مـرافق البـلاد، ولكن بعـد مـجئ الاحـتـلال صـار الوجـود حـقـيـقـيـا بل كيـانا أعترفت به الدول الأوربية بل والدولة العثمانية فقد أشـار علوبة باشا فى ذكرياته بالقول (أخذ الشـعور القومـى يستيقظ وبدأ يلتهب بسبب الاحتلال وبسبب ما قام به المحتلون وأذنابهم من أعمال منفرة ومكائد تقع آثارها على الشعب ..)(١)، وهكذا كان من الطبيعى أن تزداد الكراهية وتنقلب إلى عداء سـافـر، إذ أثار هذا الاحتلال حـمـيـة المصـريين، وخـاصـة أنـهم وجـدوا فى الخديو توفيق صورة للضعيف الخائن الذى دخل القاهرة على أسنة رماح الإنجليز.

ومن هذا المنطلق كان دخول الإنجليز مـصـر نتاج سـيـاسـة الوفـاق بين السلطات البريطانية والخديو توفيق، وهكذا يدحض القول بأن تلك السياسة قـد أدت إلـى فـتـور عـام فى فكرة الاسـتـقـلال ومن ثم أخـرت من نمو فكرة

الوطنية المصرية[٢]، وهكذا نجد أن سياسة الوفاق ترجع جذورها إلى عهد الخديو توفيق التى أتخذها كسابقة أولى بين المحتل والحاكم، ما يلبث خلفاء الأخير أن يتخذوها سياسة ثابتة - فى بعض الأحيان - كما سيأتى ذكره، وقد فسر البعض تلك السياسة وأرجعوها إلى خوف الخديو توفيق من انتشار تيار الوطنية، علاوة على خوفه من ازدياد القوة العسكرية والتيار التحضرى، من القيام بالاخلال بالأمن من جديد[٣].

وهكذا كانت هزيمة عرابى وما صاحبها من الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢، ليست فقط السبب فى إضعاف الروح المعنوية للمصريين، بل حطمت أيضاً تلاحم القوى الذى تولد عن ثورته، وفوق هذا كان الخديو توفيق الذى لم يعارض الاحتلال، بل يدين له باستمرارية حكمه، بل كان يرجع إليه الفضل والقدرة على هزيمة عرابى، وتشتيت أنصاره الذين اختفوا من التواجد المؤثر بعد تسريح الجيش المصرى ونفى قادته، واستبداله بجيش صغير ضباطه من الإنجليز، وبهذا عملوا على إضعاف مصر لا تقويتها[٤]، فخرجت شكل السيطرة العسكرية والأمنية على مصر فى صورة قبضة حديدية أدت الى استكانة واستسلام الشعب المصرى أمام هذه الأوضاع[٥]، ولكنها كانت سكوناً لبعض الوقت وليس لكل الوقت، إذ كانت نفوسهم مازالت مختمرة بالفكر الثورى الذى بذره رجال الثورة العرابية، ومن ثم استطاعوا أن ينفضوا عن كاهلهم روح الاستكانة التى غلبت على مشاعرهم، واعتبروا تلك السياسات المستبدة من قبل سلطات الاحتلال بمثابة تحد للشعور الوطنى لديهم ولهذا قبلوا هذا التحدى واستعدوا له، وقد كان فى مخيلتهم أن الاحتلال البريطانى غير شرعى فى الأساس، فعلى الرغم من أنه أصبح واضحاً أن بريطانيا حكمت مصر، لكن الحقيقة فإن السلطان العثمانى كانت له السيادة التى لم يتنازل عنها[٦].

وفى هذا السياق تكونت الجمعيات السرية ساعية إلى مقاومة المحتل فضلاً عن زعزعة مركز الخديو توفيق وحكومته، بإعتباره طرفاً مشاركاً فى صنع الوضع الذى آلت إليه البلاد، فبرزت الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣ "جمعية الانتقام" والتى حملت مسميات أخرى مثل "العصبة الوطنية المصرية" و"العصبة السرية الانتقامية"، وقد أرجع يونان لبيب رزق(٧) السبب فى تعدد المسميات ربما إلى الطابع السرى الذى تلفعت به تلك الجماعة.

على أية حال، كانت تلك الجمعية تهدف إلى تحرير الوطن بطرد الإنجليز من مصر، وإن قيل أنها كانت تهدف أيضاً الوصول إلى الحكم، ربما من منطلق أنها كانت تهاجم الأسرة الحاكمة وحاشيتها، حيث نجحت تلك الجمعية إلى حد ما فى زعزعة شرعيتهم فى البلاد، ذلك عن طريق قيامها بتوزيع الخطابات التهديدية والانذارات والمنشورات، وإن كانت قد عزفت عن استعمال القوة(٨).

تعددت الروايات عن مصادر تمويل تلك الجمعية وهوية القائمين عليها(٩)، لكن لا يسمح المقام هنا الخوض فى ذلك فاننا ننأى بقدر المستطاع عن تطور الحركة الوطنية فى مصر، ومن ثم نحرص على إظهار دلائل الفكرة الوطنية التى ظهرت هنا مع انشغال الرأى العام بهذه الجمعية، وبما يمكن اعتباره ارهاصة طبيعية لما حاق بالبلاد من اعتداء قوى خارجية عليها، ومن ثم كان وجود تلك الجمعية وبحق {علامة هامة على عدم خمود جذوة المقاومة الوطنية المصرية}(١٠)، بالاضافة إلى أعتبار كونها رد فعل وطنياً على ما ارتكبه المحتل من سياسات آثمة فور تثبيت أقدامه، ولهذا أخذ الشباب الوطنى على عاتقه مهمة النضال فى تلك المرحلة من عمر مصر الحديث فى محاولة منه لاستمرارية الروح الوطنية داخل أبناء الوطن المصرى.

فقد وأد الاحتلال البريطانى – ولو إلى حين – الشعور الوطنى الوليد للمصريين، مما أصاب العقول فى مصر بالشلل المؤقت، وإن كان استغرق هذا التوقف السنوات العشر الأولى من وقوع الاحتلال تلك السنوات التى قضتها السلطات البريطانية للعمل على تثبيت أقدامها على المستوى الفكرى، فإنه من الناحيتين السياسية والعسكرية قد حققت ما تريد بإتباع سياسات رادعة هدفت من ورائها إلى تحقيق هيمنتها*، وعلى الجانب الآخر، وفى مسعاها للبحث عن معين يدافع عن سياساتها وجدت السلطات البريطانية ضالتها فى استقطاب بعض الأرمن العاملين فى مجال الصحافة لمساعدتها على تثبيت أقدامها وفى الترويج لمشروعاتها ومخططاتها الأستعمارية، فقد أسس – على سبيل المثال – الكسان صرافيان صحيفة «الزمان» فى ٦ مارس ١٨٨٢ وهى أول صحيفة يومية تصدر فى القاهرة، كانت هذه الصحيفة أولى الصحف التى رحبت بالاحتلال ووقفت بجانبه، وأخذت تروج على أمتداد جميع أعدادها لقوة بريطانيا العظمى وتسوغ مزايا احتلالها لمصر أمام الرأى العام المصرى، بل ذهبت فى أكثر من موضع إلى دعوة المصريين لقبول الاحتلال البريطانى والتعاون مع قواته وسلطاته حتى يتحقق لمصر رفاهيتها من وجهة نظرها. وكذا إسكندر كريكور صاحب مجلة "الزراعة"، وتجدر الإشارة إلى أن تلك الصحف الأرمنية رغم وقوف بعضها إلى جانب الأحتلال البريطانى مسوغةً لمشروعاته الاستعمارية المتباينة، إلا أن ذلك لم يمنع من إصدار بعض الأرمن أيضاً لصحف باللغة العربية تدافع عن حقوق المصريين(١١).

وعلى الجانب الآخر وجدت السلطات البريطانية ضالتها أيضاً وبشكل كبير فى تدعيم نفوذ الجاليات الشامية بإتخاذهم بديلاً للعناصر المثقفة ذات

الاتجاه الإسلامي أو الوطني داخل القطر المصرى، ومن جانبهم وجد المثقفون الشوام في ذلك فرصة للتقارب مع المحتل.

وفي ضوء ذلك لعب الشوام دوراً هاماً في نشر القيم والتقاليد الليبرالية، وفوق هذا غرسوا دعائم المنهج العلمي داخل المجتمع المصرى بما مثلوه من تلك الثقافة الغربية التي نهلوا من ينابيع فكرها، ولقد لقيت دعوتهم صدى لدى بعض المصريين(١٢)، ممّنْ استهوتهم فكرة الحريات.

على أنه لا يجب أن نطلق الحكم على كافة المهاجرين الشوام، إذ انقسموا إزاء قضية الوطنية المصرية، حيث مثل الأغنياء منهم تلك القوة المساندة لسياسة المحتل، أما باقى تلك المجموعة وخاصة المفكرين والأدباء فقد ناصروا الوطنية المصرية كل من زاوية رؤياه(١٣)، فمنهم من ساند الوطنية المصرية العثمانية - كما سوف يتضح لنا ذاك - ومنهم من أيّد الوطنية المصرية الخالصة، ومنهم من دعم الفكر الوطني من باب مهاجمة الاحتلال البريطاني لا أكثر ولا أقل، اذ كانت تميل الى تلك الفئة التي قامت بمساندة السياسة الفرنسية ومنها جريدة الأهرام لسليم وبشارة تقلا، وقد تجلت المساندة للقضية الوطنية من قبل جريدة الاهرام في صيف عام ١٨٨٤ عندما ذهب بشارة تقلا الى لندن أثناء عرض المسألة المصرية على مؤتمر لندن، إذ ألقى خطابا بيّن فيه مطالب المصريين التي انحصرت في جلاء قوات الاحتلال عن البلاد، وقد رفضت صحف لندن حديثه معتبرة أنه لا يتحدث باسم مصر والمصريين، وقد كان رد فعل تلك الواقعة خطيراً داخل مصر فما لبثت أن توافدت على دار الأهرام الوفود مقدمة تأييدها لدعوى صاحب الأهرام وانابته في التحدث باسم مصر والمصريين(١٤).

وقد مثلت جريدة "المقطم" – اليد الأولى المساعدة للمحتل – بوقا لسياسته، حيث كانت لا ترى ثمة غضاضة فى استمرار الاحتلال البريطانى، ولا تألو جهداً فى ترديد كلمات المديح والثناء لدولة بريطانيا العظمى ولرجالها المخلصين أمثال السير افلن بارنج[١٥]، وقد أسفر اتجاه المقطم عن سياسة ذات صبغة احتلالية، ربما يرجع مدلولها الى أن تلك العناصر الشامية كانت تنطلق أفكارها من أرضية وخلفية تفتقد روح الوطنية المصرية بل تفتقد القدرة على نشر الوعى الوطنى بين أبناء الوطن على غير أحساسهم عندما يتحدثون عن بلادهم التى احتلت وبحثهم فى سبل إنقاذها، بل لقد اتخذت هذه العناصر الشامية من "المقطم" مصدراً لبث الأفكار الشديدة العصرية والمثالية فى محاولة منها لتحويلها لمجال التطبيق العملى دون النظر إلى الاعتبار الوطنى.

رغم ما سبق فإن جريدة المقطم بإجتذابها قطاعاً من المصريين يقرءونها يحسب لها أنها ساعدت على نمو تيار الوطنية المصرية – ولو بشكل غير مباشر – إذ استطاعت أن تعزل قراءها عن فكرة الجامعة الاسلامية، وتصب اهتماماتهم فى قالب مصرى حديث.

وقد لعبت "المقتطف " نفس الدور وإن تفوقت على "المقطم" اذ هامت بالحياة الأوربية، عارضة أخبار الدول الأوربية وسيرة قادتها وعظمائها، وبهذا نأت بنفسها عن الخوض فى المسائل الداخلية المصرية وأصبحت نظرتها استعلائية لافراد المجتمع المصرى، وفوق هذا أصبحت معزولة عن مجريات الأمور التى تمس ذلك المجتمع[١٦]، فعلى صفحاتها كانت تعرض المقارنات المستمرة بين أحوال الشرق والغرب ناقمة على ذلك الشرق الذى ابتلى بكافة الرزايا ولم يستطع مجاراة الأمم الراقية الساعية دوماً فى مضمار الحضارة والتقدم[١٧].

أمام هذا يمكننا القول بأن مجلة "المقتطف" بإتباع تلك السياسة كانت تستنهض همم أهل الشرق وتدفعهم إلى إحداث نهضة حقيقية ترقى بهم إلى مصاف الأمم المتقدمة، فقد أخذت من استعراض أحوال الغرب وتاريخه نقطة إنطلاقة لبعث الأرواح الوطنية لأبناء الشرق عموماً، ومن هنا اعتبرت بحق واحدة من أعظم ما صدر من دوريات علمية فى العالم العربى، بما احتوته من مقالات ذوات اهتمامات اجتماعية، كان العديد منها مترجماً عن أعمال صادرة بالصحف الأوربية(١٨)، بما يمكن اعتباره عصارة الفكر الأوربى الحديث مقدمة إلى أبناء الشرق.

يتضح إذن أن مجلة "المقتطف" بصبغتها العلمية جذبت إليها فئة من القراء استطاعوا أن يكسبوا المزيد من المعارف والعلوم الحديثة، ومن ثم باعدت بينهم وبين فكرة الجامعة الاسلامية التى كانت مطروحة آنذاك، وبهذا تكون قد ساهمت بشكل غير مباشر كذلك فى سلخ الفكرة الدينية من مخيلة البعض بتقريب الفكرة الوطنية إلى أذهانهم، حيث يمكن القول بأن التيار الذى نهجه الشوام عن طريق استخدام تلك الأدوات الصحفية ربما قد نبع من مسيحيتهم التى مالت إلى التمسك بالرابطة الوطنية وابتعدت منطقياً عن الرابطة الدينية، هذا بالاضافة إلى ثقافتهم الغربية التى وجهتهم اتجاهاً عصرياً قومياً بعض الشئ.

ومع بدايات عصر الخديو عباس حلمى الثانى انتعشت الروح المصرية بالتدريج حيث أتاحت تربيته وثقافته الأوربية قدراً من الاستقلالية والحرية فى سلوكياته تجاه المحتل من ناحية، وتجاه مساندة العناصر الوطنية من جهة أخرى، تلك العناصر التى وجدت فيه ضالتها هى الأخرى، اذ أنه تحت رعايته انشأ "الحزب الوطنى لعام ١٨٩٧" كجمعية سرية ترمى الى تحرير مصر وكان

على رأس اعضائها : أحمد لطفى السيد، مصطفى كامل، محمد فريد، وقد طلب الخديو من أحمد لطفى السيد - كما يشير الأخير فى مذكراته - بأن يسافر إلى سويسرا لاكتساب الجنسية السويسرية ثم يعود الى مصر ليحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل، رغم ما أصابه من نجاح فى رحلته تلك كما نرى من حيث أنه أدرك أن أوربا ليست هى المعول فى تحقيق استقلال مصر - حيث كانت تلك نصائح وجهت له - من قبل ساسة أوربا وألا يحرر مصر إلا المصريون(١٩)، ولعل هذا الفهم هو الذى انصبت عليه سياسات أحمد لطفى السيد فى فترة لاحقة.

وهكذا استطاع التيار الوطنى رويداً رويداً أن يكشف عن نفسه وتُتاح له فرصة التعبير عما يدور فى خلجاته، إذ كان الخديو عباس يميل بتوجهاته نحو الوطنيين المصريين، وان لم تسلم تلك التوجهات أيضاً من اتخاذ سياسات متباينة بين التيار المعتدل والتيار المتطرف فى آن واحد.

على أية حال ساهم مصطفى كامل فى نهج تيار خدمة الوطنية المصرية فكان منذ طفولته المبكرة يشترك فى النشاط (الأدبى - الوطنى) عن طريق الخطابة فى الجمعيات الأدبية التى أسس بعضها مثل جمعية الصليبية الأدبية التى رأسها وانتظم فى سلكها نحو سبعين عضوا وكان محور أحاديثها تدور حول المناقشات السياسية، وفوق هذا كان يكتب فى جريدة الأهرام والمؤيد مع الاشتراك فى المظاهرات ضد سلطات الاحتلال، واستمر يمارس تلك النشاطات المختلفة الى أن أصدر مجلة (المدرسة)، وهو مايزال طالبا عام ١٨٩٣(٢٠).

وقد صدّر مجلته بجملة {حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك} وشملت موضوعاتها الجانبين الوطنى والعلمى إلى جانب الأناشيد الوطنية

والموضوعات الأدبية اذ حملت على عاتقها تبصير وتثقيف عقول النشء من أبناء الوطن المصرى بإعتبارهم المستقبل الذى سوف يضئ القطر المصرى ومن هنا كانت خطتها وطنية قائمة على البحث فى جذور الأمة المصرية لمطالعة الأجيال الجديدة على ماضى أجدادهم وتاريخ بلادهم وما كانت عليه من عظمة وتمدن وما كان من ملوكها الساعين إلى تجديدها ورقيها إيماناً منهم بمحبة وطنهم.

ومن ثم حثت المجلة الشباب المصرى على دراسة التاريخ وتبيان الأهمية التى من أجلها يدرس، وقدمت مجلة المدرسة نصائحها للنشء فى صورة حية نابضة بالوطنية تهدف من ورائها إلى غرس معانى الوطن والوطنية فى قلوبهم وإظهار مصر كوطن مستقل ينتظر من أبنائه خدمته وتقديم منفعته على ما عداها، جنبا الى جانب مع عرض الأناشيد الوطنية بهدف تهذيب العقول وأئتلاف الافئدة حول حب الوطن فى محاولة من قبل ابنائها لاستعادة مجد مصر الخالدة:

هلموا يا بنى الأوطان طرا   لنرجع مجدنا ونعز مصرا
هلموا كى نوفى القطر حقا   نسيناه فضاع بذاك قدرا
هلموا وادركوا العلياء حتى   ننال بلادنا عزا وفخرا(٢١)

وهكذا مثل مصطفى كامل رد فعل وطنياً مدافعاً عن استقلال مصر حيث بدأت معارضته للحكم البريطانى منذ أن كان تلميذا(٢٢)، ومن ثم شارك بكل همة ونشاط فى العمل على تأصيل روح الوطنية المصرية سواء فى الداخل أو الخارج، اذ رسمت لنا الرسائل المتبادلة بينه وبين صديقه فؤاد سليم الحجازى فى عام ١٨٩٥ الى أى مدى كانت وطنيته يقظة مجاهدة فى

كل مكان يسعى اليه بهدف استمالة الرأى العام الأوربى لمساندة القضية المصرية، وبهذا أظهر الأمة المصرية بأنها أمة حية تقدر الحرية حق قدرها(٢٣). فهو القائل (أن أمة دبت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للأستقلال لا تموت أبدا. وان صواعق السياسة كلها لا تحول ضميرا لاذ بالوطن عن وجهته!)(٢٤).

وهكذا عمل مصطفى كامل على بعث الروح الوطنية، فقد علقت جريدة الريفورم على خطبته الشهيرة تلك بالقول : (والحق يقال أن مصطفى كامل باشا هو الوحيد الذى أتبع طريقة الخطابة وهو الذى وحده يسمعنا الخطب السياسية فى مصر)، خاصة وأنه أستطاع أن يجمع أكثر من ستة آلاف إنسان فى مظاهرة وطنية، حضرها صفوة المحامين والأطباء الوطنيين فى الدلتا والقاهرة، علاوة على كل الشبيبة المصرية من جميع المدارس، وقالت فيهم «الريفورم» أن هؤلاء الطلبة الذين سيكونون غداً رجال مصر وقوتها)(٢٥).

وفى هذا الإطار بعث الروح الوطنية التى وأدها الاحتلال فى النفوس المصرية بدهائه وعمله بتخدير أعصاب الرأى العام المصرى وإماتة الشعور الوطنى، لكن تطور حركة الأمة المصرية الى حركة سلمية(٢٦) ساعدها فيما بعد على مواصلة الكفاح من أجل استقلال مصر وبهذا انفلت من قبضة المحتل هؤلاء الرجال الذين تخلصوا من القيود وذلك بالاستعانة بالرأى العام، ومن ثم كان هؤلاء الرجال هم الوطنيون حقا(٢٧) حاملى لواء النضال الوطنى من أجل هدف سامٍ وهو تحقيق استقلال مصر وفى سبيلهم لذلك كان تدعيمهم لفكرة الوطنية المصرية.

٢- الوطنية المصرية والجامعة الإسلامية فى الصحافة المصرية ١٨٨٢ - ١٨٩٩

تزامن مع تشجيع الخديو عباس للوطنيين المصريين وجود صحافة عملت على إحياء الشعور الوطنى مرة أخرى فى جنبات المجتمع المصرى قبل عهد الخديو عباس الذى لم يضن بمساعداته المالية للصحف إسهاماً منه فى تشجيع يقظة وظهور الحركة الوطنية(٢٨)، وفوق هذا ظهرت فى ذات الوقت صحف أخرى عملت على وأد الحركة المؤدية الى تأصيل فكرة الوطنية المصرية، فاتحة الأبواب أمام انتشار الفكرة الإسلامية وتيار الجامعة الإسلامية، هذا بالإضافة إلى صحف أخرى دعت للتمسك بالرابطة الشرقية تحت ظل من الخلافة العثمانية، وبين ثنايا ذلك كله كانت تنطلق الصحف بواقع الحال آنذاك، حيث زخرت الصحافة فى الفترة من ١٨٨٢-١٨٩٩ بالعديد من الأقلام التى انقسمت بين دعاة الجامعة الإسلامية ودعاة تأصيل الوطنية المصرية كل بجهده المبذول وبأهدافه المعلنة والمستترة، ومن ثم لعبت الصحافة دوراً إيجابياً فى دفع الفكرتين على الساحة المصرية، تاركة ما سوف تُسفر عنه الأيام من انتصار لإحدى الفكرتين على الأخرى.

كان من أبرز من تولوا مسئولية الدفاع عن فكرة الوطنية المصرية "يعقوب صنوع" الذى أستأنف نشاطه الصحفى مع بدايات الاحتلال لتحقيق "مصر للمصريين" بإصدار صحيفة فى ١٩ يناير ١٨٨٣ تحت اسم "أبو نظارة زرقا" صب فيها جام همه على كل ما يشغل مصر، حاملاً عبء الدفاع عن الشعب المصرى، مستخدماً لهجة عنيفة ضد الاحتلال البريطانى الذى يكن له كراهية عميقة، فى محاولة منه لبعث الروح الوطنية من جديد، تلك الروح التى قضى عليها الاحتلال، ومن ثم شرع فى استثارة أبناء الوطن المصرى بهدف إيقاظهم من الرقاد الذى ران عليهم.

وعلى نفس المنوال صارت جريدته التى تحمل اسم "الوطن المصرى" فى سبتمبر ١٨٨٣، ولعل ذلك الاسم له دلالته فى تمسكه بكل ما يمس معانى الوطن والوطنية فى محاولة لترسيخ الهوية الوطنية المصرية فى دفاعه عن القضية المصرية، وكانت "أبو نظارة مصر للمصريين" التى توقفت عن الصدور مع أخر عدد لها فى سنة ١٩١٠ قد خرجت بثوب جديد - إلى حد ما - حيث كانت حية متطورة مسايرة لكل الأحداث فى كل مكان خارج وداخل مصر، وكل ما يمس شئون الدولة الانجليزية نفسها وعلاقاتها الخارجية(٢٩)، عارضة سياساتها المتباينة أمام جمهور القراء من المصريين.

والجدير بالذكر أن يعقوب جاهد بعدة طرق من أجل إحياء الشعور الوطنى للمصريين. فمن خلال مراسلات المنفى بينه وبين أحمد عرابى نستشف طرق النضال المصرى التى سلكها يعقوب بقلمه وأحمد عرابى بسيفه من أجل إيقاظ الهمم وتوحيد صفوف أبناء الوطن للوقوف ضد السياسات التى مارستها سلطات الاحتلال(٣٠)، ومن ثم عمل على غرس الروح الثورية فى أفئدة وقلوب بنى جلدته(٣١).

على أية حال مثل يعقوب صنوع فى الخارج الآمال الوطنية الرافضة للوجود البريطانى، وبهذا يعد من دافعى الفكرة الوطنية بين أبناء الوطن الواحد دون الاعتماد على الدولة العلية أو المحتل أو القوى الخارجية الأخرى فى محاولة منه لاصلاح أوضاع القطر المصرى.

وفى الداخل كان "عبد الله النديم" يستأنف هو الآخر نشاطه الصحفى بإصدار صحيفة الأستاذ فعلى صفحاتها جعل من "الجامعة الوطنية" رابطة تفوق فى أهميتها "الجامعة الدينية" اذ قال : {ليعد المسلم منكم الى أخيه المسلم تآلفاً للعصبية الدينية وليرجع الاثنان إلى القبطى والاسرائيلى تأييداً

للجامعة الوطنية وليكون المجموع رجلاً واحداً يسعى خلف شئ واحد هو حفظ مصر للمصريين}(٣٢)، وهكذا أخرج عنصر الدين من مقومات الجامعة الوطنية مؤكدا بذلك على الهوية الوطنية للمجتمع المصرى، ومن ثم لم يتطرق الى موضوع الجامعة الاسلامية الكبرى تحت مظلة الدولة العثمانية، بل اكتفى بان تكون مصر للمصريين فى ظل التبعية الروحية للدولة العلية.

وتحت عنوان "الجامعة الوطنية والاختلاط العمرانى" أكد النديم على الوحدة الوطنية بين العناصر المكونة للأمة المصرية، ولم يفرق بين أبناء الوطن الحقيقيين، وفوق هذا لم ير ثمة غضاضة فى انضمام الوافدين إلى الوطن المصرى لانصهارهم فى بوتقة الجامعة الوطنية حيث قال {فنحن معاشر المصريين نفتخر بين الأمم بهذه الجامعة التى لا تتحل عقدتها ولا يبدد نظامها}(٣٣).

وفى عام ١٨٩٣ دعا المسلمين والأقباط بحكم أنهم أبناء مصر الذين ينسبون إليها وتنسب إليهم بأن يبحثوا عن حوافز الوطنية والتمسك بما يؤيد سيرهم المصرى، وقد اقتراح عقد جمعية مصرية يكون هدفها البحث فى الوطن وخصائصه وواجباته وضرورياته. وبهذا تزداد علاقات الوطنية بين أبناء المجتمع المصرى(٣٤)، ولقد لخص النديم "الحياة الوطنية" بأنها التى تقوم على انتشار المعارف والصنائع فى الأمة، والعمل على توسيع دائرة العمران وحفظ الوطن من الأخطار(٣٥) بهدف تحديث وتمدين الوطن المصرى ليصل الى مصاف تلك الأمم الحرة الراقية.

واعتبر عبد الله النديم من الوطنيين الذين جاهدوا بكل ما أوتى من قوة فى سبيل إعلاء شأن الوطن حتى أنه لم يستطع أن يعُول نفسه بعد نفيه مما جعل الحكومة المصرية تخصص له معاشاً شهرياً(٣٦)، وان كانت حياته

قد إنتهت بالمنفى من وطنه إلا أن فاعلية تلك المقالات التى كانت تتصدر صفحات مجلة الأستاذ قد انعكست بصورة ايجابية فى إقبال المصريون على قراءتها، فما كان من رد فعل سلطات الاحتلال إلا أن أسرعت بإغلاق المجلة ونفى النديم، إلا أن مجلة الأستاذ رغم ذلك ظلت قبساً من نور يهتدى به وطنيو مصر طوال جهادهم فى الفترات اللاحقة.

صفوة القول أن صحف "يعقوب صنوع" و "عبدالله النديم" قد حددتا موقفهما من الاحتلال البريطانى، ورسمتا سياستهما المصرية العاملة على بث الروح الوطنية بين أبناء مصر خارجياً وداخلياً، فى وقت أصبح فيه المجتمع بوجه عام وبخاصة الجيل الجديد يشعر بخيبة أمل خاصة فى عام ١٨٩٥ حيث أصبح هناك عدم ثقة وإرتياب من هدف انجلترا تجاه مصر(٣٧).

جنباً إلى جنب ظهر اتجاه وطنى آخر نأى بفكره عن الجامعة الإسلامية وعن الرابطة الشرقية اذ كان تياراً مصرياً جديداً فكان ظهوره أمراً طبيعياً فى وسط التقلبات وقوى الشد والجذب الموجودة على الساحة المصرية، ويحمد لهذا التيار أن أتاح لفكرة الوطنية المصرية مصادر إحيائها وإثبات وجودها، حيث جاهد بدوره لبعث الشعور الوطنى والتمسك بدعوة مصر للمصريين هادفاً إلى تأكيد وحدة الأمة المصرية، ويؤخذ على هذا التيار أنه لم ير ثمة غضاضة فى وجود الاحتلال فى القطر المصرى، من منطلق أن مصر عليها أن تستفيد آنذاك من التقدم الذى أحرزته بفضل ذلك الاحتلال، حتى تسنح لها الفرصة لاحراز المكانة المرموقة وسط المجتمع الدولى وتصبح قادرة على إدارة دفة أمورها بنفسها، وقد انساق هذا التيار وراء دعاوى الاحتلال بأن مصر لم تصل حتى ذلك الوقت إلى المكانة التى تؤهلها للاستقلال بشئونها(٣٨)، وفوق هذا رأى هذا التيار الجديد أفضلية

بقاء مصر تحت الاحتلال البريطاني عن أن تلتصق بالدولة العثمانية، وقد مثلت جريدتا مصر والوطن هذا التيار الجديد، وربما كانت علة ذلك تكمن في كونهما يمثلان أقباط مصر فمالا – بطبيعة الحال – إلى الرابطة الوطنية وابتعدوا منطقياً عن الرابطة الدينية الممثلة في خليفة المسلمين.

فقد شنت جريدة "الوطن" لميخائيل عبد السيد هجوماً على الدولة العثمانية وأخذت تدعو فيها "لمصر والمصريين"، مع مسايرة تحبيذ تقدم الإنجليز وإصلاحاتهم في مصر[٣٩]، وإن تطرقت في بعض الأحيان إلى إعلان رفضها للتزايد الاجنبي داخل جهاز الدولة، وما يتمتع به من إمتيازات عديدة[٤٠].

وتمشياً مع ذلك سعت جريدة "الوطن" لتأصيل فكرة الوطنية المصرية بحث المصريين على التمسك بلوازم محبة الوطن التي تتمثل في عدم الاستخفاف والحط من كل ما هو وطني وعدم الركون نحو الأجنبي في كل شئ[٤١]، واستمرت أصداء تلك الدعوة تتناولها الصحف حتى نشرت جريدة "العلم المصري" لبطرس ميخائيل مقالاً تحت عنوان "المحبة الوطنية" تحث المصريين على التمسك والتحلي بالغيرة الوطنية وأن يكون تعصبهم للوطن بالدفاع عنه وبذل النفس والنفيس من أجل منفعة الوطن[٤٢].

وجنباً إلى جنب ساهمت جريدة "مصر" بدورها في الحفاظ على الهوية الوطنية المصرية. ففي افتتاحية عددها الأول أشارت الى الأهداف الوطنية التي من أجلها انشئت الجريدة كما ذكرت : {لخدمة أمتنا وتوحيد كلمتنا والمطالبة بحقوقنا والمدافعة عن صوالحنا ... سياسة جريدتنا : غاية شريفة واحدة وهي خدمة الوطن والمدافعة عنه والذب لصيانة حقوقه}[٤٣].

ولقد دافع توفيق عزوز على صفحات جريدة "مصر" عن وجود الوطنية فى ضمير الشعب المصرى ففى دفاعه عن هجوم كاتب أوربى يعتبر فيه جسم الأمة المصرية يتألف من عناصر أجنبية وليس فى البلاد عنصر وطنى محض، فجاء رده عليه بالقول القاطع للشك عن اكتساب المصريين لحق الوطنية المصرية(٤٤).

لقد طرحت جريدة "مصر" تعريفاتها حول معانى الوطن والوطنية والأمة ومقومات قيامها رامية إلى تأصيل فكرة الرابطة الوطنية التى تربط الأمة المصرية تلك الرابطة النابذة لمقوم الدين كمقوم من مقومات الأمة، مستندة الى أن "مصر للمصريين" بما تؤول اليه من بلورة الجامعة الوطنية تلك التى تحافظ على استقلال الفرد وتحميه وتحقق قوة الوطن ووحدته الوطنية(٤٥).

يمكننا القول أن الصحف القبطية مثلت اتجاهاً نحو تأكيد الخصوصية المصرية وتأصيل الهوية الوطنية للمصريين، حيث كان تأكيدها دوماً على وجود الوطن المصرى المستقل عن أية تبعيات أخرى سبباً فى حماية ذلك الوطن من أن تجرفه التيارات المختلفة التى لازمت الاحتلال البريطانى وكانت رد فعل له، ويمكن إرجاع مغزى هذه النزعة الوطنية لدى صاحبى جريدتى "مصر" و"الوطن" على وجه الخصوص الى كونهما يمثلان العنصر القبطى داخل الوطن المصرى بما مثله ذلك العنصر من بعد عن فكرة الجامعة الاسلامية، فى ذات الوقت الذى لم يتجه فيه الى مساندة الاحتلال البريطانى بشكل سافر دون الالتفات الى المصلحة الوطنية كما فعلت جريدة "المقطم"، بل كانت مساندته للمحتل على استحياء، اذ اختارت كلتا الصحيفتين موقعاً وسطاً تخدمان فيهما الوطنية المصرية عن طريق

النهوض بالشخصية المصرية أدبياً ومادياً لتصبح قادرة على قيادة دفتها بنفسها[٤٦].

صفوة القول أن أقباط مصر ساهموا فى العمل على نضوج فكرة الوطنية المصرية فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وسوف تستمر مجهوداتهم فى دفع الفكرة الوطنية نحو الاكتمال مع بدايات القرن العشرين وإن اعتراها بعض الانحرافات عن مسارها الطبيعى كما سنرى فيما بعد.

* * *

أما عن فكرة "الجامعة الإسلامية" وفكرة الإسلامية ذاتها فإنها قد دفعت خطوات إلى الأمام على يد دعاة الجامعة الإسلامية المساندين لسياسات السلطان عبد الحميد الثانى تلك الفكرة التى وصف البعض[٤٧] نتائجها بالنسبة لمصر خلال السنوات المبكرة من القرن الحالى بأنها لم تجذب إليها غير القليل من المشايعين، ويمكن القول بأن هذا الاتجاه كان رد فعل للوجود البريطانى فى القطر المصرى، اذ إنعكس ذلك سلبيا فى تمسك بعض المصريين بأهداب التبعية العثمانية كوسيلة تحميهم من بطش الاحتلال، بما يمثله المحتل من اختلاف معهم فى الدين والجنس واللغة، ومن هنا كان ارتكازهم على فكرة الجامعة الإسلامية* التى سعى لها وعضدها السلطان عبد الحميد وساعده فى ذلك كلاً من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده من خلال جهادهما فى باريس على صفحات جريدة العروة الوثقى، إذ حملا لواء الكفاح ضد الاستعمار البريطانى فى العالم الاسلامى أجمع، وضد الاحتلال البريطانى فى مصر خاصة[٤٨]، كمرحلة أولى تبعها بعد ذلك صدور العديد من الصحف المؤيدة للدولة العثمانية الساعية لحث المصريين على التمسك بعلائق الخلافة الكبرى.

استطاعت جريدة "العروة الوثقى" أن ترسم خلال الثمانية أشهر التى صدرت توجها إسلامياً محضاً، حيث عرضت صورة عامة للحالة التى يعيش فى ظلها الشرقيون عموماً، والخطر الكامن من وراء الاستعمار الأوربى الذى يحيط بهم، عارضين ما تحويه الأحداث العالمية من أسرار وتدبير الساسة الاوربيين، اذ استطاع الأفغانى أن يعكس على صفحاتها وجهة نظره الخاصة بالسياسات الدولية، بما يمكن وصفه بإنه كان أول شرقى فى العصر الحديث يأبى فكرة السيادة الأوربية(٤٩).

وقد حملت أعداد جريدة العروة الوثقى رفضاً لفكرة الوطنيات المحلية، متخذة من علاقة "المعتقد" الأساس الذى تبنى عليه الروابط العصبية نابذة الانتماءات الجنسية واللغوية، فى محاولة منها لوأد الفكرة الوطنية، وفوق هذا شنت المقالات هجوما على أنصار الفكرة الوطنية فى مصر، بالاضافة الى محاربة أبناء القطر المصرى الذين اتخذوا من الحياة الاوربية نموذجا لهم فى معيشتهم، مشيرة الى ضرورة الالتفاف حول الراية العثمانية لحل المسألة المصرية(٥٠).

كان الاحتلال البريطانى فرصة أتيحت لدعاة الجامعة الإسلامية لبث آرائهم واتجاهاتهم فى تلك القضية داخل المجتمع المصرى، اذ اتخذت من الدفاع عن البلاد ضد التدخل الأجنبى ذريعة سهلت ائتلاف القلوب حول الدولة العثمانية الحافظة للراية الاسلامية، خاصة وأن الشعور العام بين غالبية المسلمين من المصريين يغلب عليه الشعور الدينى(٥١) آنذاك تلك النظرة المقدسة لخليفة المسلمين.

وعلى نفس الوتيرة سارت تلك الجرائد المعبرة عن الروح العثمانية الداعية الى التمسك بأهداب التبعية العثمانية، فقد طرحت جريدة "الفلاح "

تصورها عن الوطن ومقومات قيامه وخلصت الى أن الدولة العثمانية هى الوطن الحقيقى لكل الممالك الاسلامية التى تستظل تحت حمى رايتها، ومن ثم اعتبرت {مصر بنتا للدولية العلية} وبالتالى تكون {عضوا من جسم الممالك الشاهانية المحروسة}(٥٢).

ولقد ساهمت جريدة " الفلاح" فى تأجيج جذوة الحركة الوطنية بإثارة حمية المصريين وتحريضهم على القيام بالمظاهرات من أجل نيل الحرية والاستقلال، فى ذات الوقت الذى سعت لتحطيم الاتجاهات المنادية بفكرة الوطنية المصرية فى محاولة منها لفرض الجامعة العثمانية اذ قالت فى معرض حديثها {إن حفظ حقوقنا اليوم واعادتها لنا ... باجتماع كلمة الوطنية المصرية العثمانية}(٥٣)، وهكذا ألبست الدعوة العثمانية ثوب الوطنية المصرية، ومن ثم تعددت المقالات على صدر صفحاتها تلك التى تحمل عناوين براقة عن الأمة والوطن والوطنية، تلك الوطنية التى راودت خيال دعاة الجامعة العثمانية(٥٤).

وعلى نفس المنوال، كانت "المنار" السيد محمد رشيد رضا تتبع نفس منهج الدفاع عن الجامعة العثمانية وضرورة التمسك بتلك الرابطة المقدسة فتعلو الصيحات الواردة عبر المقالات {فالوطن الوطن أيها المصريون، الوطن الوطن أيها العثمانيون ... حافظوا على جامعتكم العثمانية، واخلصوا للدولة العلية ... }(٥٥).

وإن كانت جريدتا "الفلاح" و "المنار" قد مثلتا اتجاه أصحاب الجرائد الشامية المحبذة لفكرة العثمانية والموالية لنصرة الدولة العثمانية، فإن جريدة "المؤيد" لصاحبها الشيخ على يوسف، قد سارت على نفس المنهج، وإن كانت مثلت الاتجاه المصرى المؤيد للخلافة العثمانية، حفاظا للرابطة الروحية

والسياسية التى تربط مصر بالدولة العلية(٥٦)، والتى تكفل حفظ مركز القطر السياسى من الضعف والانحلال، مستندة فى ذلك على هذا المنهج المرحلى الملائم لظروف القطر المصرى آنذاك، حيث أكدت على أن أرتباط المصرى بالجامعة العثمانية دليل على وجود القطر المصرى بين الحكومات الشرقية.

انعكس الوجود البريطانى على سياسات جريدة "المؤيد" فكانت مقالاتها رد فعل منطقى لذلك الوجود، اذ تمثلت فى زيادة التعلق بالتبعية العثمانية فى محاولة للتخلص من الاحتلال البريطانى للقطر المصرى، ومن ثم ركزت "المؤيد" سياستها على تلك الجامعة العثمانية الضامنة لحقوق جميع الممالك الاسلامية(٥٧)، ولهذا أستمرت مقالات المؤيد تفسح صفحاتها لتتبع أخبار الأستانة العلية، الى جانب مساندة سياسات الخديو، ومهاجمة سياسات الاحتلال، كما سيأتى ذكره لاحقاً.

بناء على ما سبق، فإن ظهور الصحف المؤيدة للدولة العثمانية داخل القطر المصرى قد استطاع أن يعبئ الجماهير المصرية روحياً للانضمام تحت لواء الخلافة الإسلامية الكبرى فى ظل السلطان عبد الحميد الثانى، تلك الدعوة التى ساهمت فى تأخير التطور الطبيعى لنمو فكرة الوطنية المصرية، تلك الفكرة التى أصيبت بإنكسار من جراء هزيمة الثورة العرابية التى كانت فى أحد جوانبها تسهم بشكل غير مباشر فى بلورة فكرة الوطنية المصرية.

على أية حال، بين مؤيدى فكرة الوطنية المصرية، والآخرين المناصرين للجامعة الاسلامية العثمانية، برز اتجاه ثالث - كان محدوداً - إلى حد ما - عمل على سلخ الدين كمقوم من مقومات قيام الأمة، واعتبر وحدة اللغة والجنس أساسا لقيامها، داعين بذلك إلى "الجامعة الشرقية" التى تضم فى

بوتقتها المسلم والقبطي والسوري والتركي ... الخ جنبا الى جنب، وقد تبنى هذا الاتجاه أيضاً الشوام من المهاجرين.

فقد أخذ هذا التيار يحذر من مغبة التمسك بالجامعة الدينية بديلاً عن الجامعة الوطنية، إذ الأولى كانت سبباً في تأخر الشرق وإنحطاطه، وأدت إلى فصم عُرى الاتحاد الوطني بين أبناء الشرق(٥٨)، ومن ثم أنبرت الأقلام تبث الدعوى بين المصريين خاصة والشرقيين عامة للعمل على النهوض بأمتهم من براثن الانحطاط والتأخر باتخاذ طريق العلم والمعرفة وتقدير الرجال حق قدرهم، والتمسك بجامعة الوطن، ونبذ الاختلافات المذهبية، ومن ثم أكدت على أن {الأمة مجموع أفراد تضمهم وحدة اللغة وجامعة الجنس}(٥٩).

من السهل استنباط أن المهاجرين الشوام في سبيل حفظ حقوقهم وتأمين أوضاعهم داخل القطر المصرى سعوا الى التمسك بالجامعة الوطنية التى تجمع العناصر المكونة للمجتمع المصرى آنذاك، حيث كانوا حريصين كل الحرص على وجود رابطة تجمعهم بإخوانهم المصريين، ومن ثم وجدوا ضالتهم فى الدعوة الى جامعة الوطنية(٦٠).

صفوة القول أن هذا الاتجاه ساهم بشكل غير مباشر فى التخلص رويدا رويدا من الاعتماد على فكرة الجامعة الاسلامية *pan - Islamism* فى الفترات التالية أمام تصاعد فكرة الوطنية المصرية *Egyptian Patriotism*.

٣ - محاولات تأصيل الوطنية المصرية بين دعاة الفرعونية والفكرة العربية

بادئ ذي بدء نقرر أن اندماج الأقباط في معترك الحياة السياسية في مصر تم مع مجئ الحملة الفرنسية وظهر بشكل جلي مع بناء محمد علي لمصر الحديثة إلى أن وصل إلى ذروته في فترة بحثنا - في تعيين غالي باشا رئيسا للوزراء ١٩٠٨ -١٩١٠، وقد أتاح التعليم الحديث الذي نعمت به مصر وما تبعه من البعثات التعليمية وما نتج عن ذلك من إحتكاك بالغرب الأوربي أتاح ذلك للأقباط الأستفادة من منجزات الحضارة الأوربية الحديثة مثل غيرهم من مسلمي مصر.

إلا أنه مع بدايات الاحتلال البريطاني لمصر وما استتبعه من اتباع سياسات لفصل أقباط مصر عن مسلميها ، بالاضافة إلى الدور الذي لعبته الإرساليات التبشرية المساندة من قبل الدول الغربية للعمل على تفكيك المؤسسة الدينية الوطنية للقبط(٦١)، فعلى الرغم من اعترافات بعض الساسة البريطانيين بالكيان الواحد الذي جمع مسلمي مصر وقبطيها في بوتقة واحدة بحيث يصعب الفصل بينهما(٦٢)، من منطلق عدم وجود ثمة فروق قومية أو لغوية ومن هنا جاءت المحاولات من قبل سلطات الاحتلال في مصر على اختراق وفصم عرى الروابط الحميمة للعمل والتركيز على تعميق الفارق الديني الذي هدفت ورمت إليه تلك السلطات(٦٣).

على أية حال، أدت هذه المتغيرات إلى وجود استجابة منطقية من قبل بعض الأقباط بفعل المؤثرات الغربية المشار إليها، بالاضافة إلى المؤثرات المحلية التي أفسحت الطريق لمزيد من الانشقاق في صفوف المصريين، تلك التي تمثلت في الدعوة المشار إليها سابقاً - للجامعة الاسلامية العثمانية - والتي ساعدت على خلق ردود أفعال رافضة لها بين صفوف المثقفين

الأقباط، ولهذا سعوا بدورهم إلى البحث عن معالم محددة تعترف بوجودهم بجانب العناصر الأخرى المكونة للقطر المصرى، هذه الرغبة قد تولدت من خشية أن ترمى الى إحتمالية تعرض كيانهم للذوبان فى وسط ذلك المحيط من الاشكاليات الثقافية الاسلامية، وبهذا أصبحوا من دعاة القومية الفرعونية(٦٤).

بهذا تفجرت لديهم الرغبة فى العمل على إحياء الفرعونية، لكن يمكننا القول بأن محاولة أقباط مصر ربط أنفسهم بسلالة المصريين القدماء، هى نظرة قديمة ولم تكن حديثة، فإذا نظرنا الى تقرير "بورنج" الذى رفعه الى الحكومة البريطانية عام ١٨٣٩م نجد تلك المقولات التى كانت شائعة لدى الأقباط فقد ذكر {ويزعم الأقباط أنهم دون سواهم أحفاد الفراعنة، .. ولكن ليس هناك من الأسباب الكافية ما يجعلنا نعتقد أن القبط وحدهم من سلالة قدماء المصريين.}(٦٥)، ومن هنا عملوا على ربط جذور تاريخ مصر الفرعونية بتاريخ مصر الحديثة فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، سعيا وراء "بلورة قومية مصرية" أرتأت لهم فى بُعدها الفرعونى(٦٦)، وقد أتاح استكشاف التاريخ المصرى القديم الفرصة للألمام بهذا الأرث الحضارى لمصر الفرعونية.

وقد عمل الأقباط على تكوين الأطار الفكرى لإحياء الدعوة الفرعونية من جديد(٦٧)، سعيا لتدعيم فكرة الوطنية المصرية من منطلق أنهم الورثة الشرعيون لأجدادهم الفراعنة مؤسسى الحضارة المصرية القديمة(٦٨)، ومن ثم وقع عليهم عبء أحياء هذا الارث فى كافة جوانبه، ولقد ساندت جريدتا مصر والوطن العمل على إحياء كل ما يمت بصلة بالتاريخ المصرى القديم، ففى إشارة الى الجذور التاريخية لمصر الفرعونية ربط فيها تادرس شنوده

المنقبادى بين تلك الجذور وبين اختيار شعار جريدة مصر الذى أنصب حول رسم أثرى مصرى قديم(٦٩).

ومن جانبها عملت جريدة "الوطن" على إحياء اللغة القبطية، تلك اللغة الناطقة بآثار الأمة المصرية القديمة(٧٠)، وقد ساندتها فى تلك الدعوة ايضا جريدة "مصر" باعتبار {حياة اللغة دليل حياة بنيها}(٧١)، وقد تبنت تلك الدعوة بشكل أعمق مجلة "عين شمس"، اذ دل ذلك المسمى على المضمون الذى احتوته، حيث حملت على عاتقها مهمة الربط بين العنصر القبطى وبين قدماء المصريين، وفوق هذا حمّلت الشعب المصرى بكافة عناصره مسئولية إحياء اللغة القبطية(٧٢)، ولم تقصرها على الأقباط فقط.

وفى الجانب الأخر كانت هناك بعض الدعوات لقصر الاهتمام بتلك اللغة بين الأقباط فقط، حاملة لهجة عنيفة تنم عن تعصب دفين(٧٣).

وقد سلك دعاة الفرعونية مسلكاً آخر وهو العمل على إبراز الشخصية المصرية القبطية والعمل على سموها عن طريق المدح فى السلالة الفرعونية المكونة للعنصر المصرى(٧٤)، وكانت الأقلام تكتب ما تنطق به الألسنة مخاطبة ذلك بالقول {... أيتها الأمة المصرية سلالة أمة المجد العريق سلالة تلك الأمة القديمة التى تنطق الصماء بعظمتها وقدرتها...}(٧٥)، فكانت دعوة للنهضة بهذه الأمة القبطية وقد وضح ذلك فى القول : {أليس من العار أن نكون أمة بلا لغة}(٧٦)، وقد بدأ مصطلح "الأمة القبطية" فى الظهور على مسرح الحياة المصرية من منطلق إحداث نوع من التوازن مع مصطلح "الأمة الاسلامية"(٧٧) الذى كان موجوداً على الساحة المصرية آنذاك.

وقد انعكست محاولات إحداث هذا التوازن بين عنصرى الأمة فى صورة طريق مسدود، حيث أنبأ بالخطر المحدق بها، ومن ثم ظهرت بعض

المقالات المعتدلة التى تُحمل الطرفين مسئولية العمل على التئام الجرح قبل أن يندمل، وبهذا حرصت على إبراز ملامح الوحدة الوطنية التى نعمت بها مصر طوال عهدها، وفوق هذا أظهرت مواضع الخطر التى تهدد الوطن من عقبات التهور والطيش مما يسمح للأيدى الأجنبية بالتصرف فى مقدرات الشعب المصرى كيفما تشاء، عملاً على انفكاك عرى الوحدة الوطنية وما يتبعه من تمزق الجامعة الوطنية التى تجمع عنصرى الأمة المصرية(٧٨)، وفى مسعاه لفرض الروح الوطنية ساعد هذا التيار المعتدل على تأكيد شعار "مصر للمصريين" كما سوف يتضح فى الفصل التالى.

لا جدال فى وجود تلازم زمنى بين دعاة إحياء الفرعونية وبين من ساهموا على إبرازها على حد سواء بشكل عملى، إذ حملت العديد من الجمعيات والنوادى والمدارس القبطية المناداة بأن لمصر شخصية مستقلة أتيحت لها من خلال المميزات التى نعمت بها تلك الشخصية منذ عهد الفراعنة، وفوق هذا كان للاحتلال البريطانى الفضل فى التشجيع على ذلك الاتجاه حرصاً منه على مواجهة دعاة الجامعة الاسلامية تلك الدعوة التى هددت الوجود البريطانى فى داخل القطر المصرى، هذا بالاضافة إلى الجهود الفردية التى ساهمت من خلال موقعها على إبراز الصبغة الفرعونية للقطر المصرى مثل العالم الاثرى الفرنسى ماسبيرو الذى ألقى بأفكاره من خلال المحاضرات التى أكد فيها على أن المصريين المحدثين هم استمرار للسلالة الفرعونية(٧٩)، ومن ثم استغل الاقباط تلك الدعوة مؤكدين على أن الشعب القبطى لم تختلط دماؤه بأية دماء عربية أو تركية وأنه هو بقية الأمة المصرية القديمة، عاملين على تأصيل الشخصية المصرية الفرعونية، ومن ثم توالى ظهور المجلات التى تحمل اسماء فرعونية مثل مجلة "رمسيس"، بل

ذهب الاقباط الى اتخاذ اسماء فرعونية مثل رمسيس ومينا، ونادوا أنفسهم بأحفاد رمسيس فى أول سابقة تظهر على مسرح الحياة المصرية(٨٠)، وفوق هذا نُظمت القصائد الشعرية التى ترثى حال أحفاد العظماء، وتطلب منهم الإقتداء بأجدادهم ليكونوا خير خلف لهم(٨١).

والجدير بالذكر أن الأهتمام بالفرعونية لم ينصب على أقباط مصر دون سواهم فقد وُجد بين المسلمين أيضاً من أظهر أعجابه بتلك الحضارة الضاربة بجذورها فى اطناب التاريخ، فلطفى السيد ـ على سبيل المثال ـ فى مقالاته على صفحات "الجريدة" يظهر ذلك الميل إلى تلك الحضارة مؤكدا فى سبيله لذلك على مصر للمصريين كما سيأتى ذكره لاحقا، ولعل ذلك يدفعنا الى القول بأن تلك الدعوة حملت فى ثناياها العمل على احياء كيان سياسى متميز يظهر الشخصية المصرية بعنصريها القبطى والمسلم لينصهرا فى بوتقة حضارة واحدة كانت منبع وجود العنصر المصرى، وبهذا تكون تلك الدعوة إلى احياء الفرعونية فى جانب منها على الأقل قد أسهمت فى بلورة فكرة الوطنية المصرية، مؤكدة فى سبيلها إلى ذلك على مبدأ "مصر للمصريين"، وبهذا تكون نأت تلك الدعوة بقطاع من الشعب المصرى عن الدعوة للجامعة الاسلامية، تلك الدعوة التى شغلت حيزاً كبيراً من تفكير العقلية المصرية بعنصرها المسلم.

على أية حال تركت الدعوة رواسب تراكمت لتسفر فى النهاية عن أزمة طائفية بين عنصرى الأمة المصرية، تلك الأزمة التى كادت أن تطيح بوحدة الأمة، لولا تدارك تبعاتها من قبل عقلائها الذين عملوا على رأب الصدع كما سنرى فى الفصل التالى.

وإذا كنا قد استعرضنا الآراء المختلفة التى صاحبت المناداة بفكرة العودة الى الأصول الفرعونية لكيان الأمة المصرية، إلا أننا يمكن مقابلة تلك الآراء وهذه الدعوة السابقة بنظير لها تمثل فى المناداة بالدعوة الى الأهتمام باللغة العربية من قبل مسلمى مصر، افرازاً للسياسة التعليمية التى أتبعها الاحتلال البريطانى، مما جعل البعض يعترف بفشل كرومر فى سياسته التعليمية فى مصر، اذ اختفت انواع عديدة من التعليم - كانت موجودة منذ محمد على - عقب الاحتلال(٨٢)، إلى جانب إلغاء التعليم المجانى الذى كان قائما منذ محمد على، الأمر الذى جعل التعليم يقتصر على الأغنياء فقط فى مقابل حرمان أولاد الطبقات الفقيرة منه(٨٣)، فقد ذكر علوبة باشا [أن الإنجليز عملوا على حفظ النظام وتحسين الرى لكنهم حرصوا كذلك على تنفيذ أمرين هما: الحيلولة دون انتشار التعليم ودون ازدهار الصناعة والتجارة بين المصريين(٨٤)، وهكذا رسم الاحتلال البريطانى الاطار العام للسياسة الثقافية له داخل القطر المصرى التى كانت السبب المباشر وراء الدعوات التى أخذت تتبارى للاهتمام بلغة القرآن الكريم والحفاظ عليها من عوامل الاضمحلال والتفكك.

تلك السياسه التى كان من ضمنها إهمال التعليم بالعربية الفصحى فى مقابل انتشار اللهجة العامية فقد أيقنت سلطات الاحتلال أن الوسيلة الوحيدة والفعالة لمحو وجود شعب واستقلاله هو العمل على محوه أدبيا عن طريق القضاء على لغته الوطنية(٨٥)، وهكذا تذوب وتضعف اللغة العربية، ومن هنا تبنى المثقفون المصريون دعوة تهدف إلى النهوض بها وربط ذلك بضرورة توحيد التعليم فى مناهج الدراسة حتى لا يتسبب ذلك فى تكوين جيل لا هو مصرى ولا أجنبى ينتج عنهما لغة جديدة ليس لها جذور

حضارية، فمن جانبه عمل عبد الله النديم على ترديد الصيحات للحيلولة بين اللغة وموتها داعيا إلى إنشاء جمعية من علماء الأزهر تحمل على عاتقها مهمة الحفاظ على تلك اللغة حية متطورة(٨٦).

ومن منطلق حرص الجميع على أن تكون اللغة الوطنية هى أول مواد التعليم فى المدارس، طالعنا پليتيه بك فى كتابه القول المنتخب فى التربية والأدب* بالقول أن [معرفة لغة الوطن معرفة جيدة تورث الشجاعة والكرم والمروءة..]، ورأى أن تعلم اللغة الوطنية من أهم الأمور الموجبة لحسن التربية(٨٧)، وفى نفس الوقت لم ينف أهمية معرفة اللغات الأجنبية فى البلاد نظرا لعلاقات مصر مع بلاد عديدة خاصة مع دول أوربا، قد يدفعها إلى تدريس لغات تلك البلاد لتلاميذ مدارسها لما يترتب عليه من أعظم الفوائد التى رأى لا تكون تربية المصرى آنذاك كاملة إلا إذا كان يعرف بالأقل إحدى تلك اللغات التى صارت أكثر استعمالا فى القطر المصرى(٨٨).

وقد دعمت جريدة "المؤيد" تلك الدعوة مؤكدة على ضرورة الاهتمام باللغة العربية لأنها مستودع علوم الحضارة العربية بالاضافة الى كونها لغة دين الاسلام(٨٩)، وقد كتبت جريدة "الظاهر" عدة مقالات مستحثة فيها المصريين على التمسك بلغتهم حفاظا لهم على وطنيتهم(٩٠)، وقد أيدت جريدة "مصر" من جانبها تلك الدعوة مؤكدة على ضرر التعليم باللغة الاجنبية على أبناء الوطن، اذ سوف تقف اللغة الاجنبية سدا حائلا بين الأمة وبين المدنية الصحيحة(٩١)، ودعت جريدة "وادى النيل" للاهتمام باللغة من منطلق أنها تحبب لقارئها دولته ووطنه وتساعد على نمو القوة الوطنية وتحافظ على وحدة الأمة، تحديا لسياسة المحتل التى أهملت التعليم بتلك اللغة(٩٢).

اتخذ حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية للشيخ على يوسف مبدأ هاماً له وهو أن تكون اللغة العربية لغة التعليم فى جميع المدارس العربية، بإعتبارها لغة البلاد، ولهذا يجب أن يتم بها تعليم العلوم المختلفة لأبناء الوطن، وقد دافع الشيخ على يوسف عن هذه الفكرة فى اجتماع عقد بالجمعية العمومية المصرية فى مارس ١٩٠٧(٩٣).

لم تقتصر الدعوة للاهتمام باللغة العربية فقط، بل تشعبت فشملت تجديدها والنهوض بها وكان من دعاة ذلك أحمد فتحى زغلول الذى وجد أنه لا تقدم للوطن إلا بالاعتناء باللغة العربية وإصلاحها وتهيئتها لتكون أداةً صالحة ترتقى بالوطن وتمدنه(٩٤)، وأكد قاسم أمين بدوره على تجديد اللغة وتجنب الأساليب غير المباشرة فى التعبير وأن يكون أسلوب الناس سلسا بسيطا خالياً من أية تعقيدات، وهكذا كان قاسم امين من المجددين فى اللغة(٩٥)، ويمكن اعتبار ذلك انعكاساً لثقافته الغربية نتيجة سفره لفرنسا واطلاعه على القراءات الفرنسية خاصة.

كان اهتمام المثقفين المصريين بانتعاش ونهضة اللغة العربية محاولة منهم للوقوف أمام ازدهار الثقافة الأوربية التى حرص على ايجادها المحتل، فعلى سبيل المثال، كانت تُدرس بالجامعة المصرية آداب اللغتين الفرنسية والانجليزية دون أن تكون هناك ثمة حلقة لتعليم تاريخ الأدبيات العربية، مما آثار حفيظة البعض ودفعته غيرته على الوطن أن يرفع تقريراً للأمير أحمد فؤاد بإعتباره رئيساً لمجلس الجامعة المصرية آنذاك شارحاً فيه أهمية دراسة تاريخ الأدبيات العربية وضرورة ادخال هذا الفرع من العلم فى الجامعة المصرية لكى يتسنى للنشء المصرى أن يتربى على أدبيات أسلافه، وقد أرفق طلبه بملخص برنامج عن سلسلة محاضرات عن تاريخ أدبيات

اللغة العربية، وقد أرفق النسخة العربية من التقرير بأخرى فرنسية(٩٦)، وهكذا نجد أنه الى جانب الاهتمام باللغة العربية كانت هناك دعوات لاحياء تلك اللغة، جنباً إلى جنب مع ظهور الكتب والدراسات فى آداب اللغة العربية وعلومها مثل تاريخ الآداب العربية لچورچى زيدان، والوسيلة الأدبية لحسين المرصفى ... إلخ، إلى جانب حركة احياء الشعر العربى الكلاسيكى على يد البارودى على سبيل المثال(٩٧)، يمكننا القول بأن اللغة سمة من سمات الأنتماء الثقافى ودعامة ضرورية ضمن الدعائم المكونة لايجاد وتحديد هوية وطنية ثقافية خالصة للشعب المصرى.

والواقع أن الدعوة السابقة للاهتمام باللغة العربية لم يتبعها بالضرورة دعوة لتبنى الفكرة العربية فى مصر، اذ سبقت بلاد الشام الى اعتناق القومية العربية التى بدأت فى منتصف القرن التاسع عشر بواسطة مجموعة محدودة فى سوريا(٩٨)، ويمكن إرجاع ذلك إلى الاحتكاك المباشر بين العرب والأتراك، فكان نتيجته أن تفجرت لديهم تلك الدعوة العربية على يد عبد الرحمن الكواكبى الذى اعتبر رائداً من رواد القومية العربية وحركة البعث العربى، وتبعه سلسلة من المفكرين الذين حملوا على عاتقهم نشر الوعى العربى على المستوى السياسى(٩٩).

فالمعلوم أنه عبر النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كانت الفكرتان المسيطرتان على المستوى الفكرى تنقسمان ما بين دعاة الجامعة الاسلامية ودعاة الوطنية المصرية، ولم تظهر الى جانبهما تلك الرامية الى الفكرة العربية وذلك لعدة أسباب:

أولا: فالمعلوم أن مصر أصبحت ولاية شبه مستقلة منذ تولية محمد على باشا حكم مصر، وبمرور الوقت انعزلت عن مجريات الأمور

السياسية وعن الاحتكاك المباشر بالأقطار العربية مما ترتب عليه خلو الساحة الفكرية لدى مثقفي مصر من أية رغبة ترمى الى الفكرة العربية طالما انتفت الأسس التى يمكن البناء عليها لتدعيم تلك الفكرة، من ناحية أخرى ربما كان الفارق الثقافى والاجتماعى بل وربما الاقتصادى بين مصر والأقطار العربية الخاضعة للحكم العثمانى لا يشجع على تبنى مثل هذه الفكرة، يتضح ذلك من فشل الشوام الذين نادوا بالفكرة كحل لصدامهم مع الاتراك لتظهر لنا النتيجة المتمثلة فى فشلهم اذ لم تنجم دعواهم تلك عن الفكرة العربية لتحدث فى الوقع مما يثبت تلك الفكرة عنهم وان كان على المستوى العملى، إلا أنه من الانصاف أن نذكر أنها قد أحرزت قدرا من التواجد على المستوى النظرى من خلال الجهود التى بذلت لتدعيم التيار، ورغم ذلك لم يستطع الشوام أن يبحثوا عن هوية وطنية خاصة بهم كما فعل أقرانهم المصريون عندما مرت مصر بالعديد من الصدمات مع العنصر التركى داخل المجتمع المصرى، إضافة لما أحدثه الاحتلال، كل هذا دفع المصريين للبحث عن الهوية المصرية الخالصة.

ثانياً: إن وجود الاحتلال البريطانى لمصر زاد من النزعة الوطنية لدى المصريين، فدفعهم للاتحاد وجمع كلمتهم لتتفق كافة عناصر الأمة لتدعيم الجامعة الوطنية المصرية.

ثالثاً: إن سيطرة فكرة الجامعة الاسلامية لدى البعض من المصريين شغلتهم عن التفكير فى روابط وحدوية أخرى، بل دفعتهم إلى رفض أية دعوات للانفصال عن الدولة العثمانية حفاظاً على وحدة الدين الإسلامى(١٠٠).

رابعاً: ظهور الولاء لفكرة مصر الفرعونية من قبل أقباط مصر قد دحض نظيرتها العربية، حيث رفع أقباط مصر أقلامهم فى وجه أية دعوة تصرح بأن مصر عربية بحكم الفتح العربى لها(١٠١).

رغم ذلك ظهرت بعض الآراء المحبذة لتزعم مصر دعوة الخلافة العربية بإعتبارها أكبر مملكة عربية بين الممالك الاسلامية ولأنها تنفرد عن سواها بالاستقلال الذاتى، وقد مال الشيخ على يوسف لهذا الجانب، وان كان لم يسفر عن دعوة علنية، فى نفس الوقت الذى دافع فيه عن الخديو عباس بصدد ما نشر عنه بتشجيعه لقيام خلافة عربية(١٠٢)، وقد ذهبت بعض الآراء فى هذا الصدد بأن الخديو عباس لم تكن لديه القدرة التى تمكنه من تنفيذ فكرة الخلافة العربية، ومن ثم لا يعدو الأمر إلى أسلوب من أساليب المناورة السياسية للضغط على السلطان بهدف تحجيم دوره بالنسبة لمصر(١٠٣)، خاصة وأن الخديو لم يشر فى مذكراته إلى ذكر الخلافة العربية، مما يجعلنا نقبل هذا القول، رغم تأكيد محمد فريد فى مذكراته على عكس ذلك(١٠٤).

جنباً إلى جنب كان مصطفى كامل ينتقد الحركة العربية فى الشام، وساق هجومه ضد دعاة الانفصال عن الدولة العثمانية حفاظاً على دولة الخلافة العثمانية من الانهيار، فالمعلوم أن مصطفى كامل كان من مساندى الدولة العلية ونصرتها، وقد هاجم انجلترا بسبب تحريض كتابها على قيام تأسيس خلافة عربية تحت حمايتها(١٠٥).

وقد سلك محمد فريد نفس مسلكه اذ رفض دعوة عزيز المصرى* الذى عرض عليه الاشتراك فى {جمعية شبان العرب} التى أسسها فى عام ١٩٠٩(١٠٦)، حيث كان يسير على نفس نهج مصطفى كامل فى الولاء للدولة العلية، وقد أنكر أحمد لطفى السيد بدوره الايمان بهذه الفكرة فقد روى فى

مذكراته أنه مع عام ١٩١٠ ظهرت لاول مرة بوادر {البنارابيزم} أو الجامعة العربية، اذ وفد على مصر رجلان من أعيان الشام ولبنان من أجل الدعوة لضم سورية الى مصر، وقد دحض تلك الفكرة بأن مصر للمصريين، وأن المصرى هو الذى لا يعرف له وطناً آخر غير مصر(١٠٧).

على أية حال إن وحدة اللغة والتاريخ والعامل الجغرافى أتاح قدراً من الاتصال والتفاعل بين مصر وجيرانها العرب، وهذا ما جلب فى الأساس الهجرات الشامية الى مصر، حيث أتاحت تلك العوامل المشاركة فى الحياة المصرية والاندماج داخل المجتمع المصرى، وبالتالى كان باعثا لاهتمام العناصر المهاجرة بأن تترك ثمة صلة بينها وبين جذورها، وهذا ما أنصب على السياسة التى اتبعتها جريدة الأهرام على سبيل المثال، اذ أفسحت عن باب ثابت "للشئون العربية"، كان يرصد أخبار المشرق العربى عامة والشام خاصة، ولبنان على وجه الخصوص(١٠٨)، تلك المحاور التى كانت تدور حولها الاهتمامات بالجانب العربى ولم تتعدها حتى وقت بحثنا هذا فى عام ١٩١٤، باستثناء المؤتمر الذى عقد فى باريس ١٧ يونية ١٩١٣، والذى كان مقننا لفلسفة القومية العربية من قبل الشوام على وجه الخصوص الذين خرجوا بصيحة {نحن عرب قبل كل صفة سياسية}(١٠٩).

فى نفس الوقت الذى كانت اهتمامات الشريحة الكبرى من المثقفين المصريين تدور حول تغليب صفة المصرية، بهدف تأصيل روح الشخصية الوطنية المصرية، إذ تكونت عدة أسس ساعدت على نمو تيار الوطنية المصرية وبالتالى أخرت الوعى بإنتماء مصر العربى وهذا ما سيكون موضوع الفصل السابع.

بناء على ما سبق، يمكن القول بأن معالم القومية المصرية قد وضحت كنتيجة للاحتلال البريطاني، تلك القومية التي استمدت وجودها من ثلاثة مصادر، كان أولها الاستياء العنيف من قبل الضباط المصريين في الجيش ضد التمييز الواضح للضباط الچراكسة، كما سبقت الاشارة، إضافة إلى الاستياء الديني الناجم عن الحركة الإسلامية الإحيائية - كما رأينا - ضد النفوذ الغربي والهيمنة الغربية، وكذلك الاستياء السياسي الناجم عن الحركة الدستورية ضد استبداد الأسرة الحاكمة المدعم بواسطة النفوذ الأجنبي[١١٠]، والذي سيأخذ مساره مع الدعوات للاستقلال والحرية ... إلخ التي حرص المصريون على إبرازها في الفترات اللاحقة كما سنرى.

* * *

هوامش الفصل الرابع

١ – محمد على علوبة باشا: ذكريات اجتماعية وسياسية، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨، ص ٦٠.

٢ – أحمد لطفى السيد : قصة حياتى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٦١ .

٣ – Gold, Schmidt Arther : Modern Egypt., p. 33.

٤ – Holt,p.M., (Editor) : Political Social Change in Modern Egypt. (Arther, Zayid, M.y., The Origins of The liberal Constitutionalist party in Egypt ,p. 335.)

٥ – عبد الخالق محمد لاشين (د.) : مصريات فى الفكر والسياسة ،ص ١٠٨ .

٦ – Little, Tom : Egypt, p. 91.

٧ – الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، ج ٢ ، القسم الأول، مركز تاريخ الأهرام، ١٩٩٦، ص ٨ .

٨ – زين العابدين شمس الدين نجم : الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣ "جمعية الانتقام" مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٨٧،ص ٧٦ ,٧٨

٩ – لمزيد من التفاصيل راجع يونان لبيب رزق(د.)، المرجع السابق، ص ٩ – ١٧ كذلك زين العابدين، المرجع السابق، من أماكن متفرقة.

١٠ – يونان لبيب رزق (د.) المرجع السابق ص ، ٨ .

* وقد ظهر ذلك جلياً فى حادثة "دنشواى الصغيرة" فى ١٣ مارس ١٨٨٧، حيث جلد ثمانية من أبناء قرية الكُنَيِّسة، القريبة من أهرام الجيزة وقرية مجاورة لها وبشكل شديد القسوة ليكونوا عبرة لمن يعتبر، بسبب الاعتداء على بعض ضباط الاحتلال لعل ذلك الحادث الذى قام برصده د. يونان لبيب رزق فى دراسته السابقة يعكس لنا صورة من صور "النضال الوطنى" ضد سياسات الاحتلال التعسفية، لمزيد من التفاصيل حول ذلك الحادث، انظر ، يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق، ص ٦٤ – ٧٣ .

١١ – لمزيد من التفاصيل حول دور الصحافة الأرمنية فى مصر منذ تأسيسها عام ١٨٦٥، وكذا الدور الذى لعبته فى تأييد الاحتلال ومهاجمة الدولة العثمانية، أنظر الدراسة التى أعدها الباحث محمد رفعت الأمام تحت عنوان. الأرمن فى مصر، مرجع سابق، صفحات من ٢٢٣ – ٢٣٤.

١٢ – رفعت السعيد (د.) : وعادت الليبرالية تيارا مصريا، مقالة فى الطليعة، عدد ٨، اغسطس ١٩٧٢، ص ٣٦ – ٣٨ .

١٣ – وائل ماهر عارف قنديل : معالجة الصحافة المصرية لأفكار الحقبة من سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٩٠٠ وقضاياهم [بالتطبيق على المقتطف والهلال]، رسالة ماچستير، كلية الإعلام، جامعة القاهرة ١٩٩٤، ص ٨٧ .

١٤ – أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن، ج ١ ، ص ٨٢٧ .

١٥ – أنظر المقطم، عدد ٩٥٠ فى ٢٢ أبريل ١٨٩٢، وعدد ٩٦٢، فى ٩ مايو ١٨٩٢ .

١٦ – ذوقان فرقوط : تطور الفكرة العربية فى مصر ١٨٠٥ – ١٩٣٦، ص ٣٩ .

١٧ – المقتطف، مجلد ١٨، فى ١١ أكتوبر ١٨٩٣ .

١٨ – Tignor, Robert, L., : Modernization and British colonial Rule in Egypt, 1882 - 1914, New Jersey, 1960, p. 249.

١٩ – أحمد لطفى السيد : المصدر السابق، ص ١٨ – ٢٠ .

٢٠ – محمد عمارة (د.) : الجامعة الإسلامية والفكرة القومية، نموذج مصطفى كامل، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٨ – ٢٠ .

٢١ – على فهمى كامل : مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعا، ج ٢ سيرته وأعماله من خطب وأحاديث ورسائل سياسية وعمرانية، ١٩٠٨، ص، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٨٠ (منتخبات مجلة المدرسة، ج ١ لسنة ١٣١٠ هـ).

٢٢ – Holt, p.M., Egypt and The Fertile Crescent p. 222.

٢٣ – رسائل تاريخية من مصطفى كامل الى فؤاد سليم الحجازى، قدم لها عبدالعزيز حافظ دنيا، دار النهضة العربية ١٩٦٩ .

٢٤ – خطابة بطل الوطنية المرحوم مصطفى كامل باشا، القسم المجانى بكلية مصطفى كامل، د. ت، ص ١٩.

٢٥ – مصطفى كامل باشا : رغائب الحزب الوطنى، مطبعة اللواء، ١٩٠٧، ص ٧٠ – ٧٢.

٢٦ – القضية المصرية مترجمة تقرير الحزب الوطنى لمؤتمر السلام، رفع أصل هذا التقرير باللغة الفرنسية إلى الدول بواسطة حضرات قناصلها بمصر، د . ت، ص ٩ .

٢٧ – Lutfi, Al-Sayyid, Afaf : Egypt and Cromer, p. 136.

٢٨ – Lutfi, Al-S., Afaf: Op. Cit. p. 137.

٢٩ – ابراهيم عبده : أبو نظارة، ص ١٥٤ – ١٥٧، ص ١٦٧ .

٣٠ – وثائق جديدة وخطيرة عن الثورة العرابية، عرض وتعليق، فريدة مرعى، ص ٧٠ – ١٠٠ .

٣١ ـ ابو نظارة . مصر للمصريين، عدد ٥، فى ٢٦ ماى ١٨٨٩، باريس تحت عنوان "انتصار الحرية.

٣٢ – عبد المنعم ابراهيم الجميعى (د.) : الاعداد الكاملة لمجلة الأستاذ، ص ٥٢٦ .

٣٣ – الاستاذ، ج ٤ من السنة الاولى فى ١٣ سبتمبر ١٨٩٢ .

٣٤ – عبد المنعم ابراهيم الجميعى (د.) : المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٤٩ – ٧٥٠ .

٣٥ – الاستاذ، ج ٢ من السنة الاولى، فى ٣٠ أغسطس ١٨٩٢ .

٣٦ – ملف عبد الله النديم، نظارة المالية، دار عموم الحسابات المصرية، قسم صرف المعاشات، وثائق دار المحفوظات بالقلعة، تحت رقم ١٧٩٣٠ .

٣٧ – Lutfi, Al-S., Afaf, Op. Cit. p. 137.

٣٨ – الوطن أعداد ٥٥٦ فى١ يناير ١٨٨٧، ٥٧٢ فى ١٢ فبراير١٨٨٧، ٥٧٥ فى ١٩ فبراير ١٨٨٧ .

٣٩ – لويس عوض (د.) : – تاريخ الفكر المصرى الحديث ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

٤٠ – الوطن، أعداد ٤٤٣ فى ١٦ يناير ١٨٨٦، ٤٩٨ فى ٧ أغسطس ١٨٨٦ .

٤١ – الوطن، عدد ١١٩٤، فى ٢٦ مارث، ١٨٩٢ .

٤٢ – العلم المصرى، اعداد ٣٠ فى ٢٦ يناير ١٨٩٤، ٣٩ فى ٣٠ مارث ١٨٩٤ .

٤٣ – مصر، عدد ١، فى ٢٢ نوفمبر ١٨٩٥، تحت عنوان "لماذا سميت الجريدة مصر".

٤٤ – مصر، عدد ٢، فى ٢٩ نوفمبر ١٨٩٥، تحت عنوان "بماذا تقوم الوطنية".

٤٥ – مصر، أعداد ٤٨، فى ٢٢ فبراير ١٨٩٦ ، ١٠٠٠ ، فى ٢٩ مايو ١٨٩٩، ١٠٢٥ ، فى ٢٧ يونيو ١٨٩٩ ، ١٠٢٩ فى يوليو ١٨٩٩ ، ١٠٣٢ ، فى ٥ يوليو ١٨٩٩ ، ١٠٣٦ ، فى ١٠يوليو ١٨٩٩ ، ١٠٤١، فى ١٥ يوليو ١٨٩٩ .

٤٦ – مصر، عدد ١١٣٧، فى ٧ نوفمبر ١٨٩٩، تحت عنوان "المصرى وضرورياته".

٤٧ – Elgood, P. G., Egypt and The Army, Oxford University press, 1924, p. 19.

* لمزيد من التفاصيل حول دور الأفغاني ومحمد عبده في الدعوة للجامعة الاسلامية، راجع، عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج ٣ ، القاهرة ١٩٨٣، ص ١١٩٦ – ١١٩٩، كذلك، أحمد فهد بركات الشوابكة : حركة الجامعة الاسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٠٩، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٨٣ .

٤٨ – رحاب خضر عكاوى (د.) : جمال الدين الأفغانى حكيم الشرق ورسالته فى الرد على الدهريين، ص٩٩ – ١٠٠ .

٤٩ – Badaw, Zaki, M.A., The Reformers of Egypt, p. 22.

٥٠ – جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده : العروة الوثقى، ص ٥، ١٠، ١٨، ٤١٢ (مقالات متفرقة).

٥١ – توفيق على برو : العرب والترك فى عهد الدستور العثمانى ١٩٠٨ – ١٩١٤، رسائل وبحوث، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، دار الهنا للطباعة، ١٩٦١، ص ١٩٣ .

٥٢ – الفلاح، أعداد ٣، فى ٣٠ مايو ١٨٨٦، ٢٨٢ ، فى ١٧ ديسمبر ١٨٩١ ، ٢٩١، فى ٢٣ فبراير ١٨٩٢ .

٥٣ – الفلاح، عددا ٢٩٠، فى ١٤ فبراير ١٨٩٢ ، ٣٤٢، فى ١٦ فبراير ١٨٩٣ .

٥٤ – الفلاح أعداد ٣٠٤، فى ٢٦ مايو ١٨٩٢، تحت عنوان "حقيقة الوطنية"، ٤١٣ فى ٢٧ مارس ١٨٩٤ "الوطنية فى مصر" ، ٤١٥، فى ٣ أبريل ١٨٩٤، "الوطنية فى مصر"، ٤٢٣، فى ٧ مايو ١٨٩٤ "الوطن والوطنية"، ٧١٦ فى ٣٠ مارس ١٨٩٧، "واجبات الأمة نحو الدولة والوطن".

٥٥ – المنار، عدد ١٣، المجلد الأول، فى ٢٥ محرم ١٣١٦ هـ، ص ٢٢٤ .

٥٦ – المؤيد، عدد ٦٠٨، فى ١ فبراير ١٨٩٢، تحت عنوان "مصر بين يدى أميرها الجديد".

٥٧ – المؤيد، عدد ٦١٢، فى ٦ فبراير ١٨٩٢، تحت عنوان "الجامعة العثمانية".

٥٨ – الأجيال، عدد ١١، فى ٢٨ أغسطس ١٨٩٧، تحت عنوان "الجامعة الدينية والوطنية".

٥٩ – الاجيال عددا ٣١ فى يوليو ١٨٩٧، ٥٤، فى ٧ مايو ١٨٩٨ .

٦٠ – الأجيال، عدد ٤٩، فى ٤ يونيو ١٨٩٨، تحت عنوان "مطالبة السوريين بالانتخابات العمومية".

٦١ – ابو سيف يوسف : الاقباط والقومية العربية، ص ١١٢ – ١١٤ .

٦٢ – Cromer, the Earl of. : Modern Egypt, London, 1908, p. 266.

٦٣ – طارق البشرى : مصر الحديثة بين أحمد والمسيح (٣)، مقالة فى مجلة الكاتب، عدد (١١١)، فى ٢ يونيه ١٩٧٠، ص ١٢٨ .

٦٤ – أبو سيف يوسف : المرجع السابق، ص ١١٦ .

٦٥ – نصوص ووثائق فى التاريخ الحديث والمعاصر، جمعها وعلق عليها، محمد فؤاد شكرى، محمد أنيس، محمد رجب حراز، الأنجلو المصرية، د.ت، ص ١٦٧ .

٦٦ – ذوقان قرقوط : المرجع السابق، ص ٢٣٥ .

٦٧ – جمال حمدان (د.) شخصية مصر، ج ٤، ص ٦٥٥ .

٦٨ – محمد كمال يحيى : المسألة الطائفية فى مصر بين الولاء الوطنى والانتماء الدينى ١٩١٠ – ١٩١٢، مقالة فى المجلة التاريخية المصرية، م ٢٨ – ٢٩ ، ١٩٨١ – ١٩٨٢ ، ص ٤١٢ .

٦٩ – مصر، عدد ١، فى ٢٢ نوفمبر ١٨٩٥ .

٧٠ – الوطن، عدد ٤٠٣٤، فى ١٦ أبريل ١٩٠٨ .

٧١ – مصر، عدد ٤٧١٦، فى ٩ نوفمبر ١٩١١ .

٧٢ – عين شمس، اعداد (١) فى أول توت ١٦١٧، ص ٥ – ٦، عدد (٤) فى أول كيهك ١٦١٧، ص ٥٣ عدد (٧)، فى برمهات ١٦١٧ ، ص ١٠٥ .

٧٣ – محمد سيد كيلانى:الأدب القبطى قديما وحديثا، طـ١، القاهرة ١٩٦٢،ص ٥١، فضلا عن مجلة المفتاح.

٧٤ – البيان، ج ١، السنة الاولى، اول مارس ١٨٩٧، ص ١٠ .

٧٥ – اخنوخ فانوس : الارجوزة العصرية، مطبعة الوطن الجديد "بمصر، اكتوبر ١٩٠٤، ص من مقدمة المؤلف.

٧٦ – مصر، عدد ٤٧٧٦، فى ٢٦ يناير ١٩١٢ .

٧٧ – رفيق حبيب ومحمد عفيفى : تاريخ الكنيسة المصرية، ص ١٧٧ .

٧٨ – مصر اعداد (١٠٠٠)، فى ٢٩ مايو ١٨٩٩، (٣٠٤١)، فى ٢٣ مارس ١٩٠٦، (٣٥٧٢)، فى ٤ يناير ١٩٠٨ .

٧٩ – صلاح العقاد (د.) الفكرة العربية فى مصر، بحث فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مستخرج من الموسم الثقافى ١٩٧٢ – ١٩٧٣، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٥٥ .

٨٠ – محمد سيد كيلانى : المرجع السابق ، ص ٤٣ ، ٤٥ – ٤٨ .

٨١ – المفتاح ، ج ٥ ، فى ١٥ مايو ١٩١٠ .

٨٢ – Young, George : Egypt, p. 165.

٨٣ – Guerville, A. B., : New Egypt., London, N.D., p. 158 - 159.

٨٤ – محمد علوبة باشا: المصدر السابق، ص٧٥.

٨٥ – جوليت آدم : انجلترا فى مصر، تعريب، على فهمى كامل، أبى دوجف ٣٠ ابريل ١٩٢٢، ص١٦٢ .

٨٦ – الاستاذ، ج ٨، فى ١١ أكتوبر ١٨٩٢، ص ١٨٠ – ١٨٢، ج ٢، فى ٢ يناير ١٨٩٣، ص ٤٧١ .

* – كان پلتيه بك ناظراً لمدرسة التوفيقية وقت كتابة مؤلفه هذا، وقد قام كلا من أحمد أفندى حسن ناظر مدرسة عباس آنذاك، وكذا اسكندر أفندى جاسپارو لى بتعريبهما لهذا المؤلف فى عام ١٣١٠هـ، وسوف نلقى على هذا الكتاب الضوء لاحقا، انظر الفصل الأخير من هذه الدراسة.

٨٧ – پليتيه بك: القول المنتخب فى التربية والأدب، ط٢، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية، ص٤١ - ٤٢.

٨٨ – المصدر السابق، ص٤٦.

٨٩ – المؤيد، ٣ يناير ١٨٩٣، تحت عنوان "حياة الأمة بلغتها".

٩٠ ـ الظاهر، أعداد ٤٣، في ٤ يناير ١٩٠٤، (٥٤) في ١٨ يناير ١٩٠٤، (٣٨٣)، في ٢٢ فبراير ١٩٠٥.

٩١ – مصر، عدد ٣٢٩٧، في ٥ فبراير ١٩٠٧، تحت عنوان "التعليم باللغة العربية".

٩٢ – وادى النيل، عدد ٢٨، في ٢ يونيو ١٩٠٨، تحت عنوان (تعليم الشعوب "اللغة رابطة الوطنية").

٩٣ – المقتطف، مجلد ٣٢، ج ٤، في ١ ابريل ١٩٠٧، ص ٢٦٥ .

٩٤ – أحمد فتحى زغلول (باشا) : الآثار الفتحية خواطر في العلم والادب والاجتماع، عُنى بجمع شواردها عبد العال احمد حمدان، د.ت، ص ١١٠ .

٩٥ – قاسم أمين، كلمات، القاهرة ١٩٠٨، ص ١١ – ١٤، ص ٤٠ .

٩٦ – تقرير على تاريخ الادبيات العربية، مقدم لصاحب الدولة الامير أحمد فؤاد باشا، رئيس مجلس الجامعة المصرية من صالح بمصلحة الرى بنظارة الأشغال العمومية، ١٣٢٧ هـ، ١٩٠٩م، ص ٣ – ١٠ .

٩٧ – محمد خلف الله أحمد : تطور اللغة العربية منذ بداية العصر الحديث إلى مرحلة انشاء المجامع اللغوية، مقالة في، مجلة البحوث والدراسات العربية، عدد ٥، يونيو ١٩٧٤، ص ١٢٧، ١٣٥ – ١٣٧ .

٩٨ – The Middle East A political And Economic Survey, London, Royal Institute of International Affairs, 1951, p. 18

حول أهتمام الشوام بتيار القومية العربية، أنظر، أنور الجندى : الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية، د.ت، ص ١٠١ – ١٠٣ .

٩٩ – محمد عبد الغنى حسن : طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبى، مقالة في تراث الانسانية، مجلد ٨، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د.ت، ص ١٥٨، كذلك، محمد عمارة (د.) : الاسلام والعروبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٥٠ – ٥١ .

١٠٠ – The Middle East A political : Op. Cit , p. 19.

١٠١ – الوطن، عدد ٤٤٥١، في ٢٦ ديسمبر ١٩١٠، تحت عنوان :المصريون والعرب".

١٠٢ – فاروق أبو زيد : أزمة الفكر القومى في الصحافة المصرية، دار الفكر والفن، د.ت، ص ١١٤ –١١٧

١٠٣ – عبد المنعم ابراهيم الجميعى : الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى ١٨٩٢ – ١٩١٤ ، ١٩٨٢، ص ١٧١ .

١٠٤ – أوراق محمد فريد، م ١، مذكراتى بعد الهجرة (١٩٠٤ – ١٩١٩)، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، سلسلة المذكرات التاريخية،١٩٧٨، ص ١٠٥، نقلا عن الكراسة الثانية من ٤١ – ٧٢ .

١٠٥ ـ مجلة اللواء، عدد ١٢٧٤، فى ٢٣ نوفمبر ١٩٠٣ .

* عزيز بك المصرى ولد عام ١٨٧٧م ١٢٩٤هـ بمصر، والده هو زكريا أفندى على چركسى الأصل، حصل عزيز المصرى على البكالوريا من المدرسة التوفيقية سنة ١٨٩٦م، ثم سافر إلى الآستانة ودخل الكلية الحربية وبرز كضابط فى الجيش العثمانى وشكل جمعيات سرية عديدة، وقد انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي، وقد دفعته حميته الإسلامية إلى التطوع للجهاد فى الدفاع عن طرابلس الغرب، حول دوره فى الحركة العربية إبان الحرب العالمية الأولى، راجع محمد عبدالرحمن برج: عزيز المصرى والحركة العربية ١٩٠٨ – ١٩١٦، القاهرة ١٩٧٩، ص١١٣ وما بعدها. وفي مارس ١٩١٤م قدم للمحاكمة العسكرية حيث حكم بإعدامه، ثم صدر العفو عنه في ٢١ أبريل، وغادر تركيا إلى مصر، انظر اللواء محمد مختار باشا: كتاب التوفيقات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، بيروت ط١، ١٩٨٠م، ص١٣٩٨.

١٠٦ – اوراق محمد فريد، المصدر السابق، ص ٢٥ – ٢٦ دراسة تحليلة د. عاصم الدسوقى.

١٠٧ – أحمد لطفى السيد : المصدر السابق، ص ١٠٧ .

١٠٨ – يونان لبيب رزق (د.) : الاهرام ديوان الحياة المعاصرة، ج ١، ص ١٠٩ – ١١٠ .

١٠٩ – أنور الجندى : المرجع السابق، ص ١٠٢ – ١٠٣ .

١١٠ – Marlowe, John : Cromer In Egypt. London. 1970, p. 255.

* * *

الفصل الخامس

الصحافة والفكر الوطنى المصرى

١٩٠٠ - ١٩١٤

١- ملامح تطور الفكرة الوطنية فى الصحافة المصرية.

٢- القضايا الوطنية من خلال الصحافة المصرية.

حملت الصحافة المصرية منذ نشأتها عبء نشر الوعى بين أبناء القطر المصرى، وقد استطاعت أن تقوى هذا التيار بفضل مساعيها الدؤوبة لنشر كل ما يتعلق بالفكر الوطنى ومراحل تطوره على صدر صفحاتها، ومن ثم أسهمت فى تأصيل روح الوطنية المصرية لدى المصريين بمرور الوقت سواء عن طريق تناول وعرض فكرة الوطنية المصرية أمام أبناء القطر المصرى بين وقت وآخر، أو عن طريق طرح القضايا الوطنية التى تمس القطر المصرى للمناقشة فى محاولة جادة لايجاد الحلول المناسبة لها، إلى جانب العمل على تفتيح العقلية المصرية للمشاركة والتفاعل مع قضايا الوطن، ومن بين ثنايا ذلك كله يدور محور هذا الفصل.

١ - ملامح تطور الفكرة الوطنية فى الصحافة المصرية

لقد توصلنا من خلال الفصول السابقة إلى أن الشعور بالمصرية قد رسخ فى الأذهان رسوخاً يكاد يكون تاماً، فلم يعد شعار "مصر للمصريين" فى الفترة السابقة فى حاجة إلى تحديد إطار له، إلا أنه فى فترة ما بعد الاحتلال أصبحت القضية أكثر إثارة حيث ساهم شعار "مصر للمصريين" فى هذه المرة ليحسم ويدعم فكرة الوطنية المصرية نفسها، فقد أصبح مبدأ "مصر للمصريين" تعبيراً عن القومية المصرية آنذاك، تلك الفكرة التى قدر لها أن تتبلور فى ظل وجود الاحتلال البريطانى، ذلك الذى مثل حافزاً دفع

بالمصريين للارتماء فى أحضان فكرة الوطنية المصرية، لدحض سياسات الإنجليز – فى بداية الأمر – بأن مصر للإنجليز وليست للمصريين.(١)

وقد مثلت الفترة من ١٩٠٠ – ١٩١٤ قمة النضج والوعى بشعار "مصر للمصريين" إذ صار فى أعلى المراتب بالنسبة للتفكير الوطنى لدى المصريين، فعلى سبيل المثال وصف مصطفى كامل دعاة "مصر للمصريين" بأنهم هم أنفسهم أنصار الترقى ودعاة التقدم(٢)، على الرغم من أنه لم يعلن عن وجهات نظره والتى تتعلق بإيجاد الوطن، برغم أن خطبه وكتاباته ألمحت أحياناً بغموض فى تصوراته المتنوعة عن ذلك الوطن، تلك التى ظلت فى الغالب الأعم انعكاساً لتعبيراته وعاطفته الوطنية المغلفة باستخدام الايحاءات الدينية(٣).

على أية حال، نظر دعاة "مصر للمصريين" فى تلك الآوانة على أنهم المجاهدون فى سبيل إعداد "مصر للمصريين" بأموالهم وأنفسهم(٤)، اللافت للنظر أن فكرة "مصر للمصريين" فى طريقها للرسوخ كانت تنبذ الدين جانباً لتنطلق مؤكدة على أن الوطنية فوق كل شئ(٥) تحقيقاً لمصر للمصريين، ورداً على إكساب صفة المصرى على كل من يقطن مصر حيث دافع عبد القادر حمزة على صفحات جريدته عن جعل الوطنية المصرية شاملة لكل سكان مصر سواء كانوا مصريين أو أجانب، بإعتبار أن تلك الدعوة التى روجها اللوردكرومر مستحيلة التنفيذ، لأن هدف المصرى الحقيقى هو – كما أشار حمزة فى مقالته– أن تكون "مصر للمصريين" لا شائعة بين العالمين".(٦)

وعلى الجانب الآخر اعتبر أحمد لطفى السيد دعوة "مصرللمصريين" فى حقيقة أمرها صيغة قومية يسعى المصريون لتحقيقها(٧)، وجاء انعكاس تمسك المصريين بالفكرة على شكل عدة صور يمكن تحديدها فى الآتى:

١ – فك عرى الروابط مع الدولة العلية.

٢ – تقوية الشعور الوطني المصرى.

٣ – صمود فكرة مصر للمصريين أمام الدعاوى الأخرى.

فقد لزم التمسك بفكرة مصر للمصريين أن يكون السعى من أجل سلخ مصر عن الدولة العثمانية، وقد قاد هذا التيار بعض المصريين، فعلى سبيل المثال كان الهدف الأساسى لصحيفة "الجريدة" هو خلق وعى سياسى ناضج، لذا انصب الجزء الأكبر من مقالات لطفى السيد على المشاكل السياسية، وإن كان عمله الأكثر أهمية كان توضيح أفكار الوطنية المصرية[٨]، تلك الوطنية الخالية من أية روابط بالدولة العلية بإعتبار "أننا مصريون قبل كل شئ"، ومن ثم كان دعاويه لقطع الروابط مع تلك الدولة أيا كانت[٩]، وفوق هذا كانت مطالبة بعض المصريين لأصحاب الجرائد فى الاقتصار على تناول أخبار الدولة العلية باعتبارها دولة خارجية لاتهم المصريين وليس لهم علاقة بها وبمصالحها، بإعتبار تمتع أبناء القطر المصرى بوطن خاص يجب الحفاظ عليه صوناً للوطنية المصرية[١٠]، إذ سعت تلك المطالب إلى تحديد الهوية الوطنية المصرية.

وفى جانب آخر منها ساهمت فكرة "مصر للمصريين" فى تقوية الشعور الوطنى المصرى، ونستدل على ذلك من تلك الدعوة التى وجهتها جريدة "الظاهر" لأبناء الوطن المصرى عن استعدادها لتلقيها الكتابات التى يراد بها إحياء آمال المصريين[١١]، وقد أظهرت تلك المقالات أن الشعور الوطنى آخذ فى النمو فى صدور أبناء الأمة المصرية، فلقد تلقت على سبيل المثال خطاباً من تلميذ فى الخامسة عشرة من عمره، ضمنه قصيدة تعبر عن عواطفه تجاه وطنه قال فى مطلعها:

متى يا دهر أحظى بالمراد وأنظر مصر سيدة البلاد

فمصر أنا ابنها وعليَّ دين لها والدين يأمر بالسداد[١٢]

ويمكن اعتبار هذا الفتى نموذجاً مثالياً لافراز الاحتلال البريطانى الذى ساعد على إعداد رجل الغد الذى امتلأت نفسه بالآمال لإحياء وطنه، وهو دليل أيضاً على تغلغل الشعور الوطنى بين جنبات الأمة المصرية، ذلك الشعور الذى تولد فى أنفس المصريين على أثر النهضة الأدبية.

وقد ازداد الشعور الوطنى تبلوراً إلى أن أفرز جمعية تحمل اسم "حياة الوطن" كان الغرض منها هو اقتصار التعاملات التجارية بين الوطنيين فقط، دون الالتفات إلى البضائع الأجنبية صوناً للبلاد وحفاظاً على صناعة بنى بلادهم، وقد أثبتت تلك الجمعية أن الشعور الوطنى كان لا يزال حيا لدى كل مصرى[١٣]، وبمرور الوقت خرجت الصحف بفكرة ضرورة المجاهرة بالوطنية ونبذ الاستكانة والسكون جانباً تحقيقاً للوطنية[١٤]، فقد تحدثت الأهرام بمناسبة احتفال الأسبان بإنقضاء مائة سنة على طرد الفرنسيين من بلادهم عن "مفاعيل الوطنية" معبرة عن روح الخضوع التى شملت أبناء الشرق التى سهلت محو إرادة الأمة وجعل كل فرد من أفراد الرعية "عبداً رقيقاً" حاثة أبناء الوطن على نبذ تلك الروح والبحث عن مقومات الوطنية[١٥]، وهكذا نسجت الصحف العبارات بين الوقت والآخر التى تثبت نمو الشعور الوطنى فى نفوس المصريين[١٦].

وأخيراً وقفت فكرة "مصر للمصريين" بالمرصاد لدعاة الجامعة الشرقية الذين رأوا أن السورى والمصرى والتركى مكونون للعنصر المصرى وأنهم أبناء وطن واحد، دارجين كل شرقى نازح إلى مصر تحت مبدأ "مصر للمصريين"، بل اعتبروا أن الدخلاء الحقيقيين هم المفرقون بين المصرى والسورى والتركى والعربى ونحوهم[١٧]، ومن ثم حافظ مبدأ "مصر

للمصريين" على الخصوصية المصرية من الذوبان فى محيط العالم الشرقى أيضاً.

بناء على ما سبق، فقد خلقت فكرة "مصر للمصريين" الوعى بمقومات الوطنية فى مصر، ومن ثم نما تيار الوطنية المصرية بفعل الأقلام والألسنة التى حملت على عاتقها تفنيد الفكرة الوطنية، ودارت المقالات حول معانى الأمة والوطن والوطنية وأنواعها ومقومات قيامها وماهيتها، وقد انعكس ذلك كله على نمو الوعى القومى الذى ساعد على ترسيخ فكرة الوطنية المصرية بمرور الوقت.

على أنه يجب عدم إغفال حقيقة هامة أن دعوة "مصر للمصريين" مثلت تيارين يفهم من أول وهلة أنهما متنافران، أولهما : جعل "مصر للمصريين" خالصة لأبنائها الحقيقيين دون سواهم، ثانيهما: هو جعل "مصر للمصريين" فى ظل من التبعية للدولة العثمانية كما كان الحال سابقاً قبل الاحتلال، وقد صارت الدعوة تحمل الغرضين معاً – دون أدنى تعارض بينهما – لأنهما بكل بساطة قدمتا مبدأ لا يحتاج إلى تعليق أو وقفة وهو جعل "مصر المصريين"، وإن تعددت المفاهيم عند الأخذ بهذا الشعار، إذ أن جوهره يتضح عند تفنيد معانى الوطن والوطنية فتظهر على السطح الفروق والميول.

فلقد طرحت "الأفكار" على صدر صفحاتها سؤالاً هاماً وهو ما هى الأمة ؟ لتجيب قائلة {هى عشائر ربطتها روابط متأصلة فيها وجوامع حقيقية تجمعها كاللغة والدين والعوائد القومية والأخلاق المتبادلة}(١٨).

وانبرت "الظاهر" و "الحرية" لتعريف الوطن، تلك التعريفات التى منها أنه يأتى فى المرتبة التالية بعد منزلة الدين فى النفس(١٩)، ولقد تلقفت الاعتدال المصرى العبارة المأثورة {حب الوطن من الايمان} لتحث على ضرورة السعى لتحقيق تقدم وارتقاء الوطن(٢٠)، وحول حب الوطن والحفاظ عليه كتبت الدستور والمؤيد ومصر، بروح وطنية عالية (٢١).

من جانب آخر كانت بعض المقالات تدور حول إثبات أن مصر وطن لا يستطيع أحد إنكاره، فقد ناقشت جريدة "المأمون" مقولتين إحداهما تؤكد وجود وطنية مصرية، والأخرى ترى أن مصر لم تعرف الوطنية، وقد دافعت الجريدة عن وجود الأمة المصرية التى تضرب بجذورها إلى عهد الفراعنة حتى اليوم، وأنها تحتاج فقط إلى من يتعهد الوطنية المصرية لتنمو وتصبح فعالة لخدمة الوطن(٢٢).

وعلى صفحات جريدة "مصر" كتب أخنوخ فانوس مقالتين تحت عنوان {أى الجامعات أولى بالسياسة الوطنية}، بدأها بتعريف كلمة جامعة، وأنتهى الى توضيح مضار تقييد أعمال الجامعة الوطنية بأعمال الجامعة الدينية(٢٣).

ولقد أفسحت "الجريدة" لأحمد لطفى السيد على صدر الأعداد الأولى منها سلسلة مقالات لعبد الحميد الزهراوى تحت عنوان "الوطنية فى مصر"، دارت حول ما هو الوطن والوطنية وأين تكمن سعادة الوطن وما هى ضوامن سعادته ... الخ(٢٤).

وقد زاد من النزعة الوطنية فى النفوس تقرير عام ١٩٠٦ وكان فيه قسم كبير عما أسماه كرومر بالجامعة الوطنية، والذى اعتبر فيه الوطنية المصرية إنعكاساً لاحتكاك المصريين بالعناصر الأوربية ليس إلا(٢٥)، مما دفع الأقلام للرد على هذا الحديث بأنه إذا كان فى مقدور اللورد كرومر أن يعيب على المصريين ذلك فلماذا ينكر عليهم النهوض من كل ذلك ليتخلصوا من الاحتلال ؟!(٢٦)

ولقد تطرق سالم سيدهم تادرس إلى محاولات قتل الروح الوطنية المصرية، تلك المحاولات التى يقف وراءها ويساندها الاحتلال وأعوانه، حيث غرس بسياساته فى نفوس التلاميذ المصريين فى المدارس الإنجليزية

التعاليم الخاطئة، ليصل فى النهاية إلى اعتناق فكرها الذى يرمى إلى أن المصرى لا وطن له وعليه أن يستسلم لرجال الاحتلال، وقد اتخذ سالم سيدهم من المقولة {خير لنا أن نموت من أن نعيش بلا وطن} شعار لجريدته، يدافع به عن وجود الوطن المصرى(٢٧).

وعلى صدر افتتاحية "الأهالى" رسم عبد القادر حمزة سياسة جريدته المتمثلة فى العمل على تقوية روابط الجامعة المصرية، وتصدى محمد بيومى فى فترة لاحقة لشرح أنواع الوطنية، محبذاً تلك الوطنية الممزوجة بالعلم تلك التى كانت سبباً فى تقدم أوربا(٢٨)، وكانت المقالات تدور حول تعريف {الوطنى} و {الوطنية الحقة} التى تتفانى فى حب الوطن وتسعى لترقيته وتمدنه(٢٩)، وهكذا يمكننا قبول القول بأن القومية المصرية كانت كامنة داخل النفوس المصرية ولا يمكن قبول وصفها بأنها ميتة(٣٠).

صفوة القول شكلت تلك المقالات الاتجاه الرئيسى فى الصحافة المصرية، ذلك التيار الذى اهتم بتجديد ماهية الوطن وأنواع الوطنيات وخلص إلى ترسيخ الوطنية المصرية فى الأفئدة والعقول المصرية – وإن شاب جنباتها بعض القصور – فذلك راجع الى درجة استيعاب شرائح المجتمع المصرى المختلفة لجوهر الوطنية، إذ لا نستطيع أن ننفى أن التيار المساند "للجامعة الوطنية" كان لا يزال التيار المساند "للجامعة الدينية" داخل مصر، حيث كان من الصعب محو ذلك التيار الأخير من ذاكرة الأمة المصرية، رغم تعدد منابع الاتصال بالفكر الأوربى الحديث والتى أثرت فى بعض جوانب الفكر المصرى الحديث، إلا أن علاقات التبعية الدينية لخليفة المسلمين كانت لا تزال مسيطرة على أذهان البعض ولا نقول الكل، إذ استطاعت تلك النهضة الصحفية أن تنهج جانباً وطنياً فى توعية المصريين، وبفضل عدة عوامل – تمت الإشارة إليها فى مواضع سابقة – أزاحت رداء

الدعوة الدينية لدى المصريين واستطاعت أن تنفذ أشعة النور إلى تلك الأفئدة لتحل "جامعة الوطنية" محل "جامعة الدين"، ولعل تعرض الصحافة المصرية لعدة قضايا وطنية بالتحليل - كما سنرى بعد قليل - قد قرب الفكرة الوطنية بشكل أعمق في نفوس أبناء الوطن المصرى.

٢ - القضايا الوطنية من خلال الصحافة المصرية.

قد ساعد وجود قضايا وطنية شغلت الصحافة المصرية على ازدياد نمو تيار الوطنية المصرية، ومن ثم سوف نفسح المجال هنا لعرض نماذج من تلك القضايا التى ساهمت فى تشكيل وتكوين فكرة الوطنية المصرية.

كانت قضية "الاستقلال" من أبرز القضايا التى شغلت الرأى العام وتابعها على صفحات الجرائد، إذ كان هناك اعتبار مغرى مؤداه أن الاحتلال يجب أن يبقى أو يرحل دون النظر للمميزات التى قد تتخلف عن بقائه، خاصة وأن بقاء الاحتلال يعتمد فى النهاية على تأييد الشعب المصرى(٣١)، وقد تناست بريطانيا الوعود التى قطعتها على نفسها باحترام استقلال مصر ووعودها بالجلاء عنها(٣٢)، ولكن إذا كانت هى قد نسيت أو تناست كل تلك الوعود الجوفاء فإن ابناء مصر لم ينس اذ ما لبثوا أن أفاقوا على واقع أمرهم، ووجدوا ضالتهم من جديد آخذين فى المطالبة باستقلال مصر، إلى جانب هذا كان الأتراك وقوى أخرى قد لعبت دوراً ثانوياً فى الرغبة لخروج البريطانيين من مصر(٣٣)، وهكذا تضافرت الجهود للسعى لتحقيق الاستقلال، ولعل ذلك كان وراء انحراف الفكرة الاستقلالية فى أحد جوانبها عن مسارها الطبيعى، حيث نادت بعض الآراء بتحقيق ذلك الاستقلال لكى تصبح مصر مرة أخرى مجرد ولاية تابعة للدولة العثمانية وفق الفرمانات والمعاهدات التى ميزتها عن غيرها من ولايات تلك الدولة، والبعض الآخر نادى بالاستقلال النهائى عن الدولة العثمانية، وإرجاء

استقلالها عن بريطانيا حتى تصل مصر إلى مرتبة تستطيع من خلالها حكم نفسها بنفسها.

وبناء على ما سبق، اختلفت رؤى كلا الفريقين فيمن يُطلب الاستقلال، من الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية، أم من إنجلترا صاحبة السيادة الفعليُة، وبين هذا وذاك دارت المقالات وكتبت الأقلام، حيث ارتبط جوهر فكرة الوطنية المصرية فى تلك المرحلة بتحقيق الاستقلال(٣٤).

أما عن الفريق الأول لم يرثمة غضاضة فى عودة القطر المصرى إلى حظيرة الدولة العثمانية في سبيل التخلص من الوجود البريطاني، فقد كان على رأسه مصطفى كامل، الذى لم يترك مناسبة إلا وطالب فيها انجلترا بتحقيق وعودها بالجلاء(٣٥)، فقد وقف فى خطبته الشهيرة مدافعاً عن الاستقلال بالقول : (إن الذين يطالبوننا بعدم ذكر الأستقلال، إنما يريدن أن تموت الروح الوطنية فى مصر أى أن تموت الأمة المصرية لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح فى مصر)(٣٦).

وقد سار على نفس منهجه عبد العزيز جاويش الذى وجد أن حل المسألة المصرية فى خروج الإنجليز من مصر وإعادتها الى صاحبة السيادة عليها(٣٧)، وكذا الشيخ على يوسف الذى كان قد بدأ فى تأسيس تيار عقلانى فى السياسة الصحفية، وقد أعطى اهتماماً بالغاً للمقالات التى تتناول العقيدة الإسلامية(٣٨)، ومن ثم وجد فى بخس حق الدولة العلية فى مصر افتراء من إنجلترا(٣٩).

وتحت عنوان "الدولة العلية ومصر" كتب محمود فهمى أن الدولة العلية هى صاحبة السيادة على مصر ومن ثم كان الولاء لها حق فى ذمة كل مصرى، وقد خرج بأن نار الدولة العثمانية أخف وطأة من نعيم أوربا التى لا دين لها غير الاستعمار(٤٠)، وفوق هذا هاجمت جريدة "المعرض" لصاحبها

راغب حسن من يطلبون من إنجلترا أن تحقق استقلال مصر، إذ رأت أن الدولة العثمانية دون غيرها صاحبة الحق فى أن تجيب مصر بهذه المنحة أو ترفض[٤١]، وهكذا كان الاستقلال فى نظر دعاة الدولة العثمانية والمدافعين عن وجودها فى مصر خطوة يشوبها الشك، حتى لو كان ذلك المطلب خطوة أولية نحو بلوغ الاستقلال التام.

وقد سخرت بعض الصحف من أنصار الاعتماد على قوة فرنسا أو الدولة العثمانية لتحقيق استقلال مصر، وحذرت فى الوقت نفسه من المصير الذى يمكن أن تؤول إليه مصر نتيجة تلك المساعدة التى ربما تستطيع كل من فرنسا والدولة العثمانية تقديمها للقطر المصرى، ذلك التحذير الذى مآله المغبة من دفع ذلك الثمن ![٤٢]

مال الفريق الثانى الذى كان على رأسه أحمد لطفى السيد إلى الاعتماد على تحقيق الاستقلال على أيدى أبناء الوطن المصرى دون غيره، فيجب على المصرى أن يسعى لتربية أمته أولاً، حتى تستطيع بلاده أن تصل إلى مرتبة الاستقلال المنشود[٤٣]، وقد ربط بين وجود "القومية المصرية" وبين ضرورة تحقيق الاستقلال حفاظاً على الحقوق الوطنية للأمة المصرية، إيماناً بوجود الشخصية المصرية المميزة[٤٤].

وقد طرحت جريدة "الوطن" سؤالاً خطيراً حول أيهما أنفع لمصر الحماية أم الاحتلال ؟ وبعد أن عددت مزايا ومساوئ كلا النظامين، مالت جانباً إلى تحبيذ نظام الحماية، وبعد أن خلصت من ذلك تلقت الرسائل التى انقسمت بين مؤيد للدولة العثمانية ومؤيد للحماية الإنجليزية [٤٥]، تلك الرسائل التى أسفرت عن شرخ فى الأمة المصرية، إذ مال مسلموها بالتعلق بأهداب الدولة العثمانية، وأقباطها للتعلق بأهداب الدولة الإنجليزية، ولم يخرج رأى وطنى بضرورة التخلص من الإثنين لتحقيق الاستقلال التام.

وقد استمرت جريدة "الوطن" مستمسكة بهذا الاتجاه، حيث أفرخت اهداءها فى {لا نريد اليوم بالاستقلال أن تخرج عساكر الانجليز من وادى النيل ... وانما نريد بهذا العنوان أستقلال الفرد فى أفكاره وأعماله}(٤٦)، وكذا جريدة "مصر" التى رأت أن حل المسألة المصرية متوقف على المصريين أنفسهم ودرجة كفاءاتهم الأدبية والاجتماعية. وبهذا سايرت بهذا القول دعاوى انجلترا(٤٧)، رغم أنه فى فترة لاحقة أشار رمزى تادرس إلى الاستقلال المنشود والمؤدى إلى {الاستقلال التام الذى لا يكون فيه احتلال انجليزى ولاسيادة تركية وإلا فلا معنى للاستقلال إن انجلى الأول وبقيت الثانية !!}(٤٨).

والجدير بالذكر أن أقباط مصر الذين لعبوا دوراً جوهرياً فى نمو تيار الوطنية المصرية، ومن ثم أسهموا فى نضوج الفكرة الوطنية، لم يسير على هذه الوتيرة فى طلبهم للاستقلال، وإن كانت هناك ثمة تبريرات دفعتهم من وجهة نظرهم الى ذلك، فحواها أن الاختيار أصبح بين أمرين لا ثالث لهما – إنكلترا أم الدولة العثمانية – نقول هذا إفتراض خاطئ، اذ كان ثمة اختيار ثالثاً كان الأجدر أن يلتف حوله عنصر الأمة المصرية وهو طلب الاستقلال التام، تلك الدعوة التى تأخرت لبعض الوقت.

واللافت للانتباه أن بعض الصحف قد استندت على أن مصر قد حققت قدراً من المدنية والرقى يسمحان لها بالاستقلال، ويسهمان فى ارتقاء المصرى هو الآخر لنيل حقوقه، تلك الحقوق التى نزعتها سلطة الاحتلال، فقد غرست فى الناشئة روح الاستكانة والخضوع، ومن ثم رأت على المصرى الوطنى أن يرسم مستقبله بنفسه(٤٩)، فقد طالعتنا جريدة "الإكسبريس" بعنوان "استقلال مصر السياسى. مصر تعلن استقلالها قريباً وانفصالها عن السيادة العثمانية"، لقد وضعت تلك الجريدة احتمالية تغير مركز مصر

السياسى نصب عينيها، بإمكانية عقد اتفاق بين انجلترا والخديو فى هذا الشأن، وقد رأت حتى اذا لم يتم ذلك الاتفاق، فالأجدر بمصر أن تحاول إحداث إنقلاب فى مركزها السياسى(٥٠)، وعلى صفحات جريدة "المقطم" تخيلت حواراً بين عثمانى ومصرى، يصل إلى أن العثمانى استطاع أن يحقق استقلاله وينعم به، فى حين مازال المصرى مستعبداً ذليلاً ينقصه ذلك الاستقلال(٥١).

على أية حال، لقد أحيت المطالبة بإستقلال مصر آمال المصريين فى تغيير واقعهم والتخلص من ذلك الاحتلال ومن ثم نمت الحركة الوطنية على نطاق واسع هادفة إلى تحقيق الاستقلال وفى محاولتها تلك نظمت رأياً عاماً أصبح متزايداً بشكل خطير(٥٢)، وهكذا صار أبناء البلد أكثر ارتباطا بفكرة مصر الوطن والدفاع عنه وفى الحفاظ على خصوصية الشخصية المصرية، ومن هنا ساهمت تلك الاشكاليات في نمو تيار الوطنية المصرية داخل جنبات المجتمع المصرى، ذلك التيار الذى بدأ ضعيفاً حتى قوى رويداً رويداً بفضل نضوج الرأى العام المصرى عن ذى قبل، من جراء استجابة المصريين لعوامل التحديث والتمدين التى أدخلت على المجتمع المصرى.

لقد تزامنت مع دعوات الاستقلال الدعوة إلى الحرية التى تفتح الطريق إلى الاستقلال(٥٣)، تلك الحرية المصرية التى تم تقييدها بسبب تمادى أساليب الاستبداد من قبل الاحتلال البريطانى(٥٤)، ومن هنا كان السعى لفك تلك القيود وذلك بتبنى الدعوات للحرية التى هى طريق أية أمة لتحقيق نهضتها ورقيها(٥٥)، ومن ثم روجت جريدة "الحرية" للقول بأنه إذا كان على الأمة المصرية، أن تُقلد الأمم الراقية فى إحياء أعيادها الوطنية، فالأجدر بها أن تتخذ عيداً وطنياً يرمز إلى حريتها واستقلالها وقد اختارت من يوم ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ عيداً للحرية، لتدحض من أتخذ من تولية محمد على مناسبة

تحتفل بها الأمة المصرية(٥٦)، لقد اعتبرت الدعوة التى نشرتها جريدة الحرية سابقة أولى لم يلتفت إليها أحد، ومن هنا يمكن اتخاذها مؤشراً على نمو الوعى القومى لدى أبناء الوطن المصرى، ذلك الوعى الذى أخذ ينمو فى تربة صالحة فأثمر رجالاً يبحثون عن عيد وطنى لهم.

وعلى الجانب الآخر تزعم أحمد لطفى السيد المناداة بمبدأ الحرية الفردية إيماناً منه بأن الحرية لا تقدر بثمن، وفقدانها هو الموت(٥٧)، ومن ثم أصبحت الجريدة على رأس المشايعين لفكرة الحرية بكل أنواعها(٥٨)، وقد أسفر ذلك الاتجاه بمرور الوقت عن تيار ليبرالى مصرى قاد حركة الفكر المصرى الحديث*.

ثانى القضايا التى شغلت الرأى العام لبعض الوقت كانت قضية "الجنسية" تلك التى ساهمت بدورها فى تكوين "القومية المصرية" فى فترة لاحقة، وسلخ مصر عن الدولة العثمانية وأنهت التبعية العثمانية مع دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر ١٩١٤، وبشكل قانونى مع معاهدة لوزان فى يوليو ١٩٢٣.

فالمعلوم أن الجنسية تبعية قانونية وسياسية تضع الدولة شروط قيامها، وينتج عنها فرد يتمتع بجنسية دولة ما، إذ يصبح بهذا من الوطنيين فيها، ويخرج الأجانب بهذا من دائرة الجنسية حتى ولو استقروا بتلك الدولة(٥٩)، وبحثاً وراء جذور فكرة الجنسية المصرية، نجد أنفسنا أمام كون مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة العثمانية، ومن ثم انضمت تحت لواء أحكام الجنسية العثمانية الصادرة فى ١٩ يناير ١٨٦٩، حيث صارت جنسية المصريين عثمانية، وهكذا لم تظهر "جنسية مصرية" تعكس إنتماء الفرد المصرى لبلده(٦٠).

نستطيع القول بأن ذلك التشريع فى هذا الجانب منه عبر عن خطوة سلبية تجاه تطور مراحل الوطنية المصرية، وإن كان له انعكاس إيجابى فى نقطة هامة لنمو الفكرة الوطنية وهى أنها سهلت إنصهار العناصر المسلمة مع القبطية مع اليهودية داخل المجتمع المصرى اذ أذابت الفروق التى كانت بينهم وبالتدريج انطوى تحت لواء الجنسية العثمانية دون وجود فوارق عقائدية بينهم، مما سهل فيما بعد على اتحاد عناصر الأمة المصرية.

لقد كان الوضع الذى وصلت اليه مصر على يد محمد على وخلفائه خاصة الخديو إسماعيل قد أكد على الصفة الاستقلالية للقطر المصرى، وأصبحت مصر على قدم المساواة أمام المحافل الدولية مع الدولة العثمانية صاحبة الحق الشرعى عليها - كما سيأتى ذكره فى حينه - وبقدوم الاحتلال البريطانى لم يتأثر مركز مصر القانونى من هذه الناحية، بل ظلت الجنسية العثمانية هى المعمول بها داخل القطر المصرى، وإن تأكدت الرعوية المحلية المصرية فى ظل ذلك الاحتلال(٦١)، كنتيجة طبيعية لضعف المركز السياسى العثمانى فى ظل وجود السيطرة البريطانية، مما مهد بمرور الوقت للانفصال السياسى عن الدولة الأم.

وقد وضعت الحكومة المصرية ضمن لائحة الانتخاب التى وضعها مجلس النواب المصرى فى سنة ١٨٨٢، التى صدق عليها الخديو توفيق فى مارس ١٨٨٢، بنودا تحدد ما هو المقصود بالمصرى، ففى المادة الأولى:

{يحق الانتخاب لكل مصرى من رعايا الحكومة سواء كان مولوداً فى مصر أو متواطناً فيها مدة لا تنقص عن عشر سنوات ....}، وبهذا شملت كل رعايا الحكومة الأجانب على حد سواء تحت مظلة الجنسية العثمانية، دون أدنى تفريق، وفى قانون الانتخاب الجديد لعام ١٨٨٣ عرفت المصرى بأنه {من رعايا الحكومة المصرية سواء كان مولوداً فى مصر أو متوطناً فيها

مدة لا تزيد على عشر سنوات}، هذا إلى جانب صدور لائحة الاستخدام في ١٨٨٩ التي عرفت المصري بأنه المولود في مصر أو المقيم فيها من مدة خمسة عشر عاماً(٦٢).

وقد سارت الأمور على هذا المنوال دون أن يعكر صفوها شيء، يتمتع فيها السوري والتركي وسائر الأجانب بنفس حقوق المصري صاحب البلد الحقيقي إلى أن اتجهت الأنظار لقضية في غاية الخطورة كان للصحف الفضل في إذكاء نارها أمام أبناء الوطن المصري، وهذه المرة يلعب الشوام دوراً رئيسياً في إيجاد تلك القضية والتي نتجت كرد فعل للشروط التي وضعتها لجنة الامتحان المصرية في عام ١٨٩٠ بغرض تعيين عدد من الموظفين، واشترطت أن يكونوا مصريين مولودين بها، وهكذا أخرجت من نطاقها الأجانب أو مَنْ يتمتعون بحماية أجنبية(٦٣)، وقد سرى هذا الشرط بطبيعة الحال على الشوام داخل القطر المصري الذين تجمعهم بالمصريين الجنسية العثمانية مما أثار حفيظتهم.

وقد تبنت جريدة "الأهرام" المدافعة عن حق الشوام في الجنسية المصرية، وأخذت تقرب بين {المصرية} و {العثمانية} لتخرج بأنهما في النهاية سيان ينتميان لجنسية واحدة هي العثمانية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أصبح قضية مثارة في محكمة الاستئناف، على أثر قيام اثنين من الأدباء السوريين يطلبان بإدراجهما في أعداد المنتخبين، ورفضت محافظة مصر طلبهما، مما دفعهما إلى رفع الأمر إلى القضاء وكان ذلك عام ١٨٩٨، ذلك الاتجاه الذي كان مصيره رفض دعوى المطالبين(٦٤).

تكمن أهمية تلك القضية فيما أثارته من مناقشات على صفحات الجرائد حول شروط الجنسية المصرية، وعلى من يحق له الانتخاب، والأخطر أن تلك القضية كانت السابقة الأولى في التطرق لفتح موضوع لم يكن أحد

يفكر فى خوضه وهو أن تكون لمصر جنسية خاصة بها تحقق من خلالها كيانها وشخصيتها لتكمل صورتها ذات الرتوش الناقصة، وقد كان ذكر احتمالية وجود جنسية سياسية مصرية أحد المعالم الناقصة فى تحديد الكيان المصرى المستقل وما يتعلق بتحديد الشخصية المصرية المستقلة، وبالتالى فى تدعيم مسار فكرة الوطنية المصرية.

إذ أنه كان ثمة تداخل بين الجنسية العثمانية والمصرية لدى الشعب المصرى، وللأسف لم يكن هذا القول شائعاً بين عامة الشعب فقط، بل كانت هناك أمثلة لصفوة ذلك المجتمع المصرى صعب عليها الفصل بين الجنسيتين، وربما كان السبب فى ذلك يرجع إلى شدة ولاء ذلك الطرف للدولة العثمانية، ومن ثم لم يشأ أن يفصل أو يظهر ثمة فوارق بين التابع والمتبوع فى اطار ما قد تم الاتفاق عليه من معاهدات وفرمانات سابقة، ويسهل علينا إرجاع سبب الخلط أيضاً إلى عدم نضوج الوعى السياسى لدى تلك الفئة من المصريين.

كان مصطفى كامل على رأس الاتجاه، فرغم تعليمه وثقافته الفرنسية فى أحد جوانبها، إلا أنه عندما وضع فى اختيار بسيط من لدن الكولونيل بارنج شقيق اللورد كرومر فى يناير ١٨٩٥، الذى بادره بسؤال هل أنت مصرى أم عثمانى ؟ فكان جواب مصطفى كامل: مصرى عثمانى، ولقد لحقت بالكولونيل علامات الدهشة والتعجب ليطرح عليه سؤالاً آخر وهو هل تجتمع الجنسيتان فى أحد؟ فكان رد مصطفى كامل ما يظهر مدى الخلط فى تفكيره فى ذلك الوقت المبكر، مع نهايات القرن التاسع عشر، إذ قال: [ليس الأمر جنسيتين بل فى الحقيقة جنسية واحدة لأن مصر بلد تابع للدولة العلية والتابع [كما لا يخفى على جنابك لا يختلف عن المتبوع فى شئ من أحكامه](٦٥)، رغم ذلك سوف نجد ثمة تغيراً بمرور الوقت من قبل مصطفى كامل كما سيأتى ذكره لاحقاً.

والجدير بالذكر أن صدى تلك القضية ظهر فى العديد من المقالات التى كان بعضها يميل إلى دحض فكرة الجنسية المصرية، محاولاً إقناع جمهور القراء ببطلان صحة ذلك الادعاء، بل وقد استجاب عدد من القراء لهذه القضية وعملوا على إيضاح وجهة نظرهم فيها، فقد أخذ أصحاب الأقلام الرافضة يستندون على كون مصر مستقلة إدارياً وليس سياسياً عن الدولة العثمانية، ومن ثم فإنها مجرد ولاية من ولاياتها لا تتعدى الحد المضروب لها بتلك الفرمانات الموجبة لذلك، وبالتالى رعايا الدولة العثمانية هم عثمانيون معهم فى كافة الحقوق المتساوية، وقد خلص أصحاب ذلك الاتجاه إلى أن {كل مصرى عثمانى سياسيا وتابعية وكل عثمانى مصرى بهذين الاعتبارين}، وقد أنكر ذلك الفريق على المصريين التبعية المصرية لحكومة الخديو، داحضين القول بأن الخديو ذاته مجرد والى عثمانى، وأن الأمة المصرية برمتها خاضعة للسلطان العثمانى وليست للعائلة الخديوية بإعتبار تلك العائلة من سلالة محمد على الذى لم يكن فاتحاً بل والياً.(٦٦)

كانت مقالات "الأخبار" انعكاساً لصدور ذلك الحكم، اذ ما لبثت الجريدة أن خففت من تلك اللهجة حامدة لهذا الحكم كونه أظهر لأول مرة وجود جنسية سياسية مصرية، تلك الجنسية التى كانت الدولة العلية تجهلها، وأخذت تطرح أسئلتها حول {ماذا يفعل العثمانى لو أراد التجنس بالجنسية المصرية؟ وممن يطلب الاباحة له لترك عثمانيته والتجنس بالجنسية، المحكى عنها؟}(٦٧)، ونجد هنا تلك اللهجة التى أمتزجت بصبغة من السخرية بعض الشئ إذ ما لبثت أن أبدت امتعاضاً من هذه الجنسية ودفع الحجج مرة أخرى حيث رأت أنه لو كان لمصر جنسية خاصة بها فكيف - على سبيل المثال - للعثمانى أن يتجنس بها، فى حين أنه لو أراد عثمانى أن يتجنس بأية جنسية أخرى لكان لزاماً عليه أن تتولى نظارة خارجية تلك الدولة مخابرة نظارة خارجية الباب العالى، ومن هنا رأت الجريدة أنه من المعقول

أن يتم ذلك بين نظارة خارجية مصر والعثمانية إذ يتاح بكل بساطة للباب العالى أن يحتج بحكم أن مصر ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وأن جنسيتها العمومية هى العثمانية، وقد خلصت إلى عدم وجود جنسية سياسية خاصة بمصر وحدها(٦٨).

وكان تعليق جريدة "الأهرام" على حكم المحكمة يحمل فى طياته روح شامية حيث رفضت أن يكون هناك ثمة تفرقة بين المصريين والسوريين، ورأت أن إثارة تلك القضية هو لصالح إنجلترا التى ترغب فى أن تصبح مصر مستقلة عن الدولة العثمانية، وربما كان رد فعلها قد انعكس من خلال مرافعة وكيل النيابة "عبد الله سميكة" الذى تطرق إلى ماهية الأمة المصرية ليحصرها فى مجموع السكان المسلمين والأقباط والأجناس الشرقية التى توطنت بمصر قبل أو أثناء قيام دولة مصر على يد محمد على باشا، وكان ذلك لدحض أقوال ممثل المدعين "نيقولا توما" الذى عرف ماهية المصرى بأنه كل من كان قاطناً مصر أصبح تابعاً للحكومة المصرية التى بدورها تابعة للحكومة العثمانية، على أى حال أنهى حكم المحكمة القضية بشكل حاسم عندما أقر بأن لمصر جنسية مدنية سياسية خاصة بها، وأن حق السيادة للدولة العلية فى مصر لا يكفل لها الاتحاد فى الجنسية مع مصر(٦٩).

وعلى الجانب الآخر كان للقراء آراؤهم التى كانوا يرسلونها للجرائد معبرة عن ميولهم، اذ رفض العثمانيون والسوريون تلك الجنسية التى ترفض الاعتراف بالرعايا المولودين فى مصر فى حالة كون أبويهما من رعايا الأجانب أو من المحتمين بهم، إذ رأوا أن {كل من يولد فيها ويسجل اسمه فى سجل مواليدها ويقوم بواجباتها فيها يعد ذا حق فى جنسيتها مهما كانت جنسية أبويه ...}(٧٠) .

وفى أول فبراير ١٨٩٩ نشرت "الهلال" مشروع التجنس بالجنسية المصرية، إذ كان ينص على:

المادة الأولى : يعتبر من المصريين ومن رعايا الحكومة المحلية فيما يختص بلائحة الانتخابات المؤرخة أول مايو سنة ١٨٨٣، أولاً : الأشخاص القاطنون في مصر قبل حكم المغفور له محمد على باشا الكبير أو في أيام حكمه وبقوا متوطنين فيها ما عدا الأجانب والحمايات.
ثانياً : الرعايا العثمانيون المولودون في مصر من أبوين قاطنين في مصر وبقيا متوطنين فيها.
ثالثاً : الأشخاص المولودون في مصر من أبوين مجهولين {لا يعدون أجانب ولا حماية}.

المادة الثانية : يكتسب الجنسية المصرية كل عثماني أقام في مصر خمسة عشر سنة إذا أبلغ ذلك المحافظة أو المديرية التابع لها محل إقامته.

المادة الثالثة: يشترط في اكتساب الجنسية المصرية أن يكون طالبها قد قام بجميع الواجبات التي يفرضها قانون القرعة العسكرية.

أما الأشخاص المنصوص عنهم في المادة الثانية الذين يكونون قد أدوا الخدمة العسكرية في بلاد الدولة العلية أو يكون عمرهم يزيد على ١٩ سنة فتستعاض خدمتهم العسكرية بدفع البدل وقدره ٢٠ جنيهاً(٧١).

وبناء على ما سبق، يكون موضوع الجنسية الخاصة قد شغل الصحف المصرية لفترة طويلة لم يخمد ناره فيها، اذ تم في ٢٩ يونيه ١٩٠٠، إصدار أمر عال مستكمل لشروط النظام القانوني بشأن من يعتبرون من المصريين عند اجراء العمل بقانون الانتخاب، كان فحواه نفس البنود الخاصة بمشروع التجنس بالجنسية المصرية(٧٢).

وقد أخذت الصحف العثمانية في مصر تعلق على التعديلات التي تدخلها الحكومة على مشروع التجنس بالجنسية المصرية بمزيد من السخرية لمساعي الحكومة المصرية واعتبرته نوعاً من أنواع الجنون، إذ أن العثماني

والمصرى من وجهة نظرها جنس واحد مستظل بظل الراية الهلالية العثمانية[٧٣].

وقد انبرت الأقلام الوطنية تدافع عن الجنسية المصرية أثر حديث اللورد كرومر فى تقريره لعام ١٩٠٦ الذى أسفر عن رأيه فى موضوع الجنسية المصرية ضاماً إليه كل العناصر التى تسكن مصر آنذاك حيث قال : (والغاية التى أعرضها هى أن تكون الجنسية المصرية شاملة لكل القاطنين فى القطر المصرى بقطع النظر عن نحلهم ومللهم وأصلهم وفصلهم اذ هذه الجنسية هى الجنسية الوحيدة الممكنة الحصول المستطاعة الانشاءُ)[٧٤]، فقد أخذ صوت مصطفى كامل يعلو عن كيفية خلق جنسية جديدة على طريقة اللورد كرومر، ردا على اقتراحات اللورد بالقول {لقد نسى أن يقول لنا خاصة بأى الوسائل يستطيع إقناع فرنسى يسكن مصر بالعدول عن جنسيته وأن يكون مصريا أو أنه يريد أن أوربيى مصر يأخذون جنسيتها مع الأحتفاظ بجنسيتهم ويكون لهم وطنان وجنسيتان ؟ ...} لقد أستنكر أن يكون للمرء وطنان وجنسيتان، وهذا القول قد خالف القول السابق لمصطفى كامل عن موضوع احتفاظه بالجنسية العثمانية والمصرية فى آن واحد - كما سبقت الاشارة - وقد أكد على أنه يريد أن يرفع الجنسية المصرية إلى مستوى الاجناس الأخرى[٧٥] وهكذا نقف أمام مواقف مصطفى كامل بشأن موضوع الجنسية بالحيرة، ففى الوقت الذى يعترف فيه بأن الوطنى هو الذى يحتفظ بوطن واحد وجنسية واحدة، ينكر على ابناء وطنه هذه الميزة! ولا نستطيع إلا القول بأن تمسكه بعرى الروابط مع الدولة العثمانية أنساه أو شغله عن محاولة إثبات وجود جنسية مصرية خاصة لأبناء الوطن المصرى.

وفى الفترة من عام ١٩٠٧ حتى عام ١٩١٤ أثير موضوع الجنسية المصرية أكثر من مرة، فعبد الحميد الزهراوى يكتب تحت عنوان {الوطنية فى مصر} أن لكل شرعة ومنهاجاً فى تعيين من هم أبناء أوطانهم وقد ذكر

شريعة مصر فقط، فأخذ يسرد ذلك المشروع الخاص بالجنسية المصرية من واقع قانون الانتخاب لسنة ١٩٠٠، وقد خلص صاحب المقال الى أنه يعيش فى عصر حُدد فيه الناس بشعوب وبلاد معينة ومن ثم وجب على المصرى أن يتمسك بوطنه وأن يتفقه جيداً معنى الوطنية(٧٦).

وفى أغسطس ١٩٠٧ أثيرت قضية الجنسية المصرية من جديد حول طلب محمد على علوى أن يتجنس بالجنسية الإيطالية، ورفض نظارة الخارجية المصرية أن توافق على التنازل عن الجنسية المصرية، وقد فتح ذلك باب المناقشة حول عدم أحقية المصرى فى وجود جنسية خاصة منفصلة عن الجنسية العثمانية وليس له أيضاً امتيازات مدنية وسياسية من هذه الناحية، وأن {كل مصرى عثمانى وكل عثمانى من العثمانيين المقيمين فى هذا القطر مصريا مساويا للمصريين، له سائر الحقوق المدنية والسياسية}، وقد خلصت الى أن الوفاق المعقود بين الحكومة العثمانية والحكومات الأجنبية بشأن تجنس العثمانيين بغير جنسيتهم يخرج الحكومة المصرية من هذه الدائرة فلا يتناولها بأى ذكر(٧٧)، وبهذا لا يحق لها الفصل فى تلك الأمور المتعلقة بالجنسية.

وقد علقت (الجريدة) على تلك القضية بعرض وجهة نظر عبد الحميد مصطفى (محام) بشأن الجنسية المصرية وتجنس غيرها، إذ رأى أنه يجوز للشخص الواحد أن يكون له جنسيتان جنسية عامة وجنسية خاصة، وقد رأى استناداً على معاهدة لندن ١٨٤٠ وفرمانات ١٨٤١ الذى جعل مصر ولاية عثمانية تابعة للدولة العثمانية، لا يكون للمصريين جنسية خاصة، إما استناداً إلى فرمان ١٨٧٣ الذى جعل مصر مستقلة فى إدارتها الداخلية عن الدولة العلية استقلالاً تاماً ولا تتبعها سوى فى إدارتها الخارجية، بناء على ذلك يكون للمصريين جنسية خاصة بهم، وذلك هو الأرجح بالنسبة لوضع مصر، إذ أنها حكومة نظامية لا ولاية عثمانية، ومن هذا المنطلق يكون

الكاتب قد حدد جنسية عامة لمصر هى العثمانية وجنسية خاصة هى المصرية، وإنطلاقا من هذا رأى إنه إذا {أراد مصرى أن يتجنس بالجنسية الإيطالية مثلا فلا يكفيه أن يتنازل عن الجنسية المصرية إذ تبقى له فى هذه الحالة جنسيته العامة وهى الجنسية العثمانية وانما يجب أن يتنازل أيضا عن الجنسية العثمانية}، وقد خلص إلى عدم الجواز لأحد بتغيير جنسيته من قبل الخديو فإن ذلك حق من حقوق الباب العالى، اذ يكون قرار الخديو متعلقاً بالجنسية الخاصة، وتبقى العامة المرتبطة بالإرادة السلطانية(٧٨).

والجدير بالذكر أنه مع إعلان الدستور العثمانى، تطلع بعض المصريين العثمانيين إلى الرجوع إلى أوطانهم الأولى، وقد حمل أحمد لطفى السيد على ذلك حيث اعتبرهم من أبناء مصر ينتظر منهم أن يبقوا فيها لخدمتها حتى تنال هى أيضاً استقلالها المنشود وقد ربط رغبته تلك بالاعتقاد السائد بأن (الوطنى المصرى هو كل من ولد من أبويين مصريين أو أقام فى مصر خمسة عشر عاماً من رعايا دولتنا العلية)، فمن خلال نص قانون الجنسية المصرية أثبت وطنية تلك العناصر التى دخلت فى عداد المصريين الوطنيين ومتى آمن المصريون بذلك سهل فهم الوطنية المصرية(٧٩).

لم تترك الصحف المصرية أية مناسبة إلا وأكدت على مشروع الجنسية المصرية والعمل على الالتزام به، فبمناسبة رفع رفيق العظم شكوى للصدر الأعظم فحواها أن العثمانيين لا يأخذون حقوقهم فى مصر، على أثر ذلك ما لبثت جريدة "مصر" أن أعلنت استياءها لتقديم تلك الشكوى للصدر الأعظم فى وقت تتمتع فيه مصر بإستقلالها عن آل عثمان وليس للباب العالى شأن فى مسائل الحكومة المصرية، وأكدت أن الفترة الزمنية التى تستوجب أن يقضيها العثمانى ليعد مصرياً ليست ذات شأن يستدعى الغضب والشكوى (٨٠).

وفى عام ١٩٠٩ أيضاً انتهز لطفى السيد فرصة إثارة موضوع الجنسية المصرية مرة أخرى وفى سبيله لتنفيذ تلك الفكرة قام بتعداد العناصر المكونة للأمة المصرية خالصاً إلى أننا {نبنى عملنا لبلادنا على قاعدة المنفعة من غير أن يكون لمختلف المعتقدات والأجناس أثر كثير أو قليل فى السياسة المصرية العامة}(٨١)، وهكذا اتخذ من مبدأ المنفعة أساساً يرتكز عليه دعاة القومية المصرية لاغياً الجنس كمقوم أساسى من مقومات الفكرة الوطنية.

وتمشياً مع سياسة الاتحاد والترقى فى إحياء الجنسية التركية وتقويتها لتخلق منها أمة تركية، عمل رجالها على إحداث نهضة تركية بتأليف عدة كتب ورسائل فى هذا الشأن، والعمل على التمسك بالرابطة الجنسية البحتة، وتأكيد على أن الدولة تركية لا عثمانية، وذهبوا إلى القول بأن العثمانية وهم من الأوهام(٨٢).

أدت هذه المتغيرات فى جانب منها إلى إفساح الطريق أمام الجنسية السياسية المصرية لتثبت أقدامها وتحقق رسوخها داخل الدولة المصرية، لتسهم بدورها فى تدعيم فكرة الوطنية المصرية، تلك الجنسية التى نقبل وصفها بأن {الجنسية هى قومية الشعوب وليست الوطنية إلا رسوخ العقيدة فى التمسك بتلك القومية وتقديسها}(٨٣).

بقى أن نشير إلى أن بعض المصريين كانوا بعيدين عن فهم وجود جنسية عامة أو خاصة لهم تنسبهم إلى الدولة العثمانية أو مصر، فغاية إدراكهم أن رابطة العقيدة هى التى تجعلهم يدورون فى فلك الدولة العثمانية، وأن مصر وطن لهم بالميلاد، فموضوع الجنسية كان حديث الفئة التى حظيت بنوع من التعليم بالاضافة إلى الصفوة المثقفة من المصريين الذين أتيح لهم

من خلال المقالات الصحفية أن يتعايشوا مع تلك القضية المطروحة حديثاً على مسرح السياسة المصرية.

فقد ذكر محمد فريد فى مذكراته أنه فى ١٥ أغسطس ١٩١٣ سافر الى هولندا لحضور مؤتمر السلام العام بها {... وكنا دائما نقابل بكل أحترام لابسين طرابيشنا الدلالة على جنسيتنا ولو أن القوم كانوا يسموننا الأتراك حتى فى جرائدهم لاعتبار كل لابس طربوشا، تركيا مهما كان جنسه}[٨٤]، وهكذا فإن محمد فريد مع نهايات عام ١٩١٣ أظهر الموقف الأوربى الذى كان يشوبه اللبس والخلط فى إعتبار كل من لبس طربوش تركياً.

والجدير بالذكر أن إطلاعنا على ملفات الخدمة لبعض الوطنيين المصريين قد أتاح لنا فرصة التعرف على وجهة النظر الحكومية التى تدون بها بيانات العاملين فيها من أبناء الوطن، ففى خانة الجنسية لملف الإمام محمد عبده نجدها مصرياً، وخانة التبعية عثمانياً[٨٥]، وهكذا يظهر جلياً إتباع نظام الجنسية السياسية المصرية الخاصة، التى أخرجت المصرى من الجنسية العثمانية، واقتصرت على التابعية تلك السياسة، وبمقارنة ملف خدمة قاسم أمين تحت خانة الجنسية عثمانياً، البلاد المولود بها مصر[٨٦]، فمن المعلوم أن قاسم أمين تركى الأصل فقد أنطبق عليه مشروع الجنسية ولم يحسب من أبناء الوطن، واذا تطرقنا لميخائيل عبد السيد كنموذج للمصرى القبطى نجد خانة الوطن والديانة مصريا مسيحياً ارثوذكسياً وذلك فى النسخة العربى من الملف، أما فى النسخة الأجنبية المكتوبة بالفرنسية نجد خانة الجنسية يتدرج تحتها مصرى الجنسية *Nationalité Egyptien*، وتتدرج تبعيته للدولة العلية فى الورقة الخاصة ببيان خدماته[٨٧].

وهكذا يتضح لنا تطبيق مبدأ الجنسية المصرية الخاصة فى المصالح الحكومية، بل التدقيق والفصل بين الأصول التركية والمصرية، فلم يترك الأمر بلا ضابط أو رابط، ونحن أن نرى ثمة وعياً وطنياً تطور بشكل أقرب إلى الكمال، واقترب من بلورة فكرة الوطنية المصرية فى شكلها النهائى المتمثل فى قومية مصرية على يد الأحزاب المصرية وما عساها فى أن يضيف لنا دعامة من دعامات بناء الوطنية المصرية، كما سنرى فى الفصل التالى.

وفى النهاية نقرر حقيقة مفادها أن السبب من وراء عدم وجود قانون للجنسية المصرية - أثناء فترة دراستنا هذه - بسبب عدم استقلال مصر الفعلى عن الدولة العثمانية وقتئذ، ولكن بمجرد حدوث الاستقلال رسمياً بعد عام ١٩٢٢ صدر قانون الجنسية المصرية نتيجة لهذا الاستقلال المعترف به.

بقى أن نشير إلى قضية تعد فى نظرنا احدى الدعائم المكونة لمصر والمصريين المؤدية إلى تثبيت الفكرة الوطنية المصرية، وقد اتخذت صورة جولات وصولات على صفحات الجرائد المصرية ساهمت فى جانب منها على انتعاش الصحافة المصرية، وإن كانت فى جانب آخر، كانت وشيكة الانحراف عن المسار الطبيعى لفكرة الوطنية المصرية بإنزوائها الى هاوية الفتنة الطائفية، إلا أن الأقلام التى ساعدت على اشتعال الموقف بين العنصرين المصريين هى نفسها التى أخذت رويداً رويداً تنحو إلى الاعتدال وتبحث عن طريق يؤدى بأبناء مصر إلى محطة السلامة.

تلك كانت إشكالية الوحدة الوطنية بين عنصرى مصر مسلميها وأقباطها والتى ترجع جذورها إلى عام ١٨٩٦ اذ ظهر بجريدة "مصر" وعلى يد أحد كتابها الذى لفت الأنظار إلى الحضارة المصرية القديمة بالإشارة إلى أن الأقباط هم ورثة تلك الحضارة، وفى احدى المقالات لأخنوخ فانوس

خريج الجامعة الأمريكية ببيروت وقائد حركة الشبيبة القبطية دعا إلى إحياء اللغة القبطية التى تلاشت تحت الحكم العربى الإسلامى(٨٨).

ومرة أخرى فى عام ١٨٩٧ تشدد أخنوخ فانوس فى موقفه وظهر ذلك جلياً فى تلك المذكرة التى رفعها إلى اللورد كرومر وكانت تحوى مطالب الأقباط المصريين المتمثلة فى جعل الأحد عطلة والاحتفال بالأعياد المسيحية.. إلخ، ولا شك أن تأثر أخنوخ فانوس بالثقافة الغربية قد ساعد على تفتح مداركه وخلجاته وجعلته يحمل لواء الزعامة بين الأقباط، حيث كون فى عام ١٩٠٨ هيئة {مجتمع الإصلاح القبطى} التى تولى رئاستها، والتى أسسها كمنظمة للدفاع عن مصالح الأقباط(٨٩)، وقد أرجع إليها البعض السبب فى إشعال روح التباغض بين عنصرى الأمة(٩٠)، فى حين رأى زعيمها أن مطالبة الأقباط بالمساواة فى الحقوق الوطنية لا يعد فتنة وطنية والأحرى أن يقال أن ذلك سد لأبواب الفتنة ومنع لأسبابها، وقد أكد أخنوخ فانوس فى أكثر من مناسبة على وحدة الأمة المصرية(٩١).

ولعل الشباب القبطى رأى فى هيئة (الإصلاح القبطى)، وكذلك فى الحزب المصرى الذى أسسه أخنوخ فانوس أيضاً – كما سيأتى ذكره لاحقاً – متنفساً طبيعياً لآمالهم وطموحاتهم وأخذوا ينخرطون فى تلك المجالات، ورغم رفض الأكثرية تلك التى فضلت عدم انضمام الأقباط إلى الشئون ذات الصبغة السياسية(٩٢)، إلا أن مسلك الحزب الوطنى صاحب الشعبية الكبيرة آنذاك، والمساند لفكرة الجامعة الاسلامية ومناصرة الدولة العثمانية، دفعتهم إلى النفور من الدخول فى ذلك الحزب، على الرغم من أن مصطفى كامل ورجال حزبه وصحفه كانوا حريصين كل الحرص على نفى تهمة التعصب الدينى بين أبناء مصر بل كثيراً ما دعا إلى الوحدة الوطنية بين أبنائها(٩٣)، ولكن التمسك بالعقيدة كمبدأ عام لسياسة الحزب جعل الأقباط يناوون

بأنفسهم عن الدخول فيه، وبالتالى أرتموا فى أحضان هيئات سهلت لهم بذر بذور الفرقة بين عنصرى الأمة كإستجابة منطقية لواقع الأحوال.

وفوق هذا كان الاحتلال البريطانى يلعب دوراً هاماً فى تعميق الخلاف بين عنصرى الأمة بالاستناد على مبدأ (فرق تسد) الذى عولت عليه السياسة الاستعمارية فى مصر، على الرغم من انبراء الأقلام المدافعة عن السياسة البريطانية، اذ سعت (المقطم) للدعوة الى أن اللورد كرومر جعل جل همه هو إيجاد الجامعة الوطنية المصرية وأن سياسته قائمة على الجمع لا التفريق(٩٤)، ولكن لم يسأل المقطم أى جامعة وطنية يقصدها اللورد كرومر، أهى تلك التى تجمع جميع سكان وادى النيل على أختلاف الملل والنحل والشعوب والأجناس؟ أبهذا تكون جامعة وطنية مصرية؟ نحن بدورنا نشك فى هذا. فلو دقق أصحاب المقطم فى وجهة النظر هذه لوجدوا أن اللورد ينكر على المصريين الوطنيين أصحاب البلاد أن يتمتعوا بجامعة وطنية تضمهم بصفتهم أصحابها الحقيقيين، بل هدف إلى جعل مصر مشاعاً بين جميع الشعوب.

على أية حال انبرت الأقلام لتفسح المجال لعرض مساوئ "التعصب الدينى" الذى يهوى المصريون إليه رويداً رويداً دون أن يشعروا بعظم الخطر الذى يحدق بهم، فعلى صفحات مجلة (الجامعة) كُتبت سلسلة مقالات تحت عنوان (صوت من بعيد) كان أحد محاورها إجابة عن سؤال ألا وهو هل فى مصر تعصب؟، وأخذت المقالات تفرق بين التعصب الجنسي والتعصب الدينى، إذ رأت فى الأول استحساناً فى بعض جوانبه، ورأت فى الأخير آفة خطيرة تهدد كيان أية أمة، لذا أخذت تنفر من تبعات التعصب الدينى، وقد أتخذت من التعريف الأوربى للمصطلح *Fanatisme* دلالة على شدة الايمان

بتغليب دين على دين عند الغرب، ومن ثم كان على أهل مصر أن ينبذوا ذلك التعصب جانباً والعمل على التئام عنصرى الأمة(٩٥).

وتحت عنوان" العناصر الوطنية المصرية. واجبات عقلاء العنصرين المسلمين والأقباط"، كانت دعوة جريدة (مصر) لتقوية الروابط الوطنية مؤكدة على أن {الوطنية لا تعرف جنسا ولا دينا بل وطنا واحدا ذا مصالح مشتركة بين جميع سكانه من مسلمين ومسيحيين واسرائيليين ووثنيين}(٩٦)، وقد حملت العقلاء من عنصرى الأمة مهمة الدفاع عن الوحدة الوطنية.

وقد مثلت السنوات من عام ١٩٠٨ – ١٩١١ فترة شد وجذب بين الصحف الإسلامية والقبطية كل يتبارى للدفاع عن قضيته، وإن ظهرت العديد من الأقلام المعتدلة التى هدأت من المواقف الانفعالية لكلا الطرفين، وقد يحمد لهذه الأقلام العمل على إخماد نار الفتنة الطائفية، تلك التى بدأ ظهورها على صفحات جريدتى مصر والوطن، وقد انعكس رد الفعل فى صورة مقالات على صفحات جريدتى "اللواء" و"المؤيد"، فى فترة طال فيها السجال بين الطرفين(٩٧).

فُيكتب على صفحات (الوطن) تحت إمضاء "ارميا الحزين" هل من شقاق يدعو إلى هذا النفاق، ينكر فيها على عنصرى الأمة أن يكون بينهما ثمة عداوة أو بغضاء تستوجب نفورها إلى هذا الحد، وقد حمل هجومه على جريدتى مصر والوطن، فى الوقت الذى أثنى فيه على الجرائد الإسلامية واعتبرها أكثر حكمة اذ أنصبت نحو العدو المشترك فطالبت بجلاء المحتلين عن مصر ليتحقق المبدأ الأساسي في جعل مصر للمصريين(٩٨).

وقد فتحت تلك المقالة الأبواب لسلسلة من المقالات التى تحبذ الوحدة الوطنية لاعتبار الأقباط والمسلمين هما ربا هذه العائلة المصرية، وقد انتهز عازر حبشى المحامى الفرصة ليعيب على الشرق عامة والمصريين خاصة

تلك الآفة التى مؤداها الخلط بين الدين والوطن، وقد ركز فى مقاله على التمسك بفكرة الوطن ويجعل مصر للمصريين دون سواها(٩٩)، وقد أكدت جريدة (وادى النيل) بدورها على وحدة عنصرى الأمة المصرية موضحة بالقول (أن الوطنية المصرية واضحة لا شأن لها فى الدين فإنما أرض الله وطن للجميع ولا يزال الناقوس بجانب المئذنة حتى فى القدس الشريف)(١٠٠).

وقد أدلى أحمد لطفى السيد بدلوه فى تهدئة الخواطر حيث قال : {على المنفعة تكونت الأمم وأنقسمت الأوطان فهل من يقول أن هناك قبطيا يفضل منفعة الحبشة على منفعة مصر ... وهل من يقول بأن مسلما مصريا يفضل منفعة تركيا على منفعة مصر ..}(١٠١).

وفى خطبة وطنية لسالم سيدهم تادرس أكد على {أن الدين لله والوطنية للجميع. فليس هناك مسلم مصرى ولا مسيحى مصرى بل أن الصادق منهما فى خدمة الوطن هو المصرى الحقيقى}(١٠٢).

وفى محاولة لتهدئة الخلاف كتب فؤاد فلتاؤوس تحت عنوان {الوطنية والدين وجوب الفصل بينهما} دعا إلى اتحاد عنصرى الأمة المصرية والمناداة بمبدأ {مصريون قبل كل شئ}(١٠٣)، اذ أخذت جريدة (مصر) على عاتقها اذابة التباغض بين عنصرى الأمة، فأخذت تتحسس المناسبات التى تدل على روح الجامعة الوطنية المصرية، فبمناسبة الاكتتاب لعين زبيدة بمكة، قد أثبت أن قوائم الاكتتاب لم تقتصر على مسلمى مصر فقط بل كان للاقباط والاسرائيليين نصيبا فى المشاركة وأخذت من ذلك دليلا يوجب التسامح والأخاء بين العناصر المكونة للأمة المصرية(١٠٤)، وفوق هذا أفسحت صدر صفحاتها لأصحاب الجرائد الاسلامية للادلاء فى مسألة الوحدة الوطنية، فقد كتب محمد توفيق الأزهرى صاحب جريدة الرائد العثمانى، حاثا عنصرى الأمة على نبذ المشاغبات الدينية والمشاكل المذهبية للعمل يداً واحدة من أجل تحقيق الجامعة الوطنية(١٠٥).

علاوة على ذلك رفعت جريدة "مصر" شعار ثورة ١٩١٩ فى مرحلة مبكرة، عندما أخذت تردد دائماً أن {الدين لله والوطن للجميع}، داعية المصرى إلى نبذ الخلافات جانباً والعمل من أجل تحقيق الوطنية الصحيحة المؤدية إلى الرقى والاستقلال(١٠٦).

ومن ناحية أخرى حرص الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل على وجه الخصوص على تهدئة العنصرين، ونلمس ذلك من خلال الخطاب الذى أرسله علي فهمى كامل لمحمد فريد، يستحثه فيها على الكتابة فى الجرائد الإنجليزية مقالة عن الأقباط والمسلمين فى مصر يرسم فيها صورة الوفاق بين عنصرى الأمة، ذلك الوفاق الذى استمر سمة سائدة طيلة الثلاثة عشر قرناً التى حكم فيها المسلمون مصر، هادفا بذلك إلى محو صورة التعصب الدينى من أمام أعين الأوربيين(١٠٧).

لم تكن سلطات الاحتلال البريطانى هى وحدها صاحبة فكرة تعميق الخلاف بين مسلمى مصر وأقباطها، بل لعبت بعض الصحف الفرنسية دوراً فى خلق نعرة التعصب بين عنصرى الأمة المصرية، مهاجمة فى سبيلها لذلك العنصر القبطى(١٠٨)، ويمكن إرجاع ذلك الموقف إلى دائرة التنافس الفرنسى - البريطانى، اذ انتهزت الصحف الفرنسية الفرصة لضرب الجناح الأكثر ميلاً لإنجلترا وهو الأقباط، وهكذا تظهر أمام الرأى العام المصرى السياسة الخرقاء التى تتبعها إنجلترا تجاه عنصرى الأمة.

كانت بدايات عام ١٩١٠ نذير سوء على عنصرى الأمة المصرية، رغم استمرار الدعوات المعتدلة من قبل المصريين، إذ أفسحت مجلة "المفتاح" لبعض المصريين صفحاتها لبث دعوات الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة، حيث كتب محمد شاكر ياسين تحت عنوان "ما أحب وما اكره" قصيدة شعرية تشير بعض أجزائها الى ضرورة تحقيق الوحدة بين عناصر الأمة

المسلمة والمسيحية واليهودية(١٠٩)، الا أن مقتل بطرس باشا غالي* رئيس الحكومة المصرية آنذاك – والذى كان وبشهادة الخديو عباس حلمى الثانى من أفضل رؤساء الوزارات، اذ كان دائما معه قادرا على تحقيق انسجام تام فى العمل(١١٠) – إلا أن هذا القتل قد فجر روح العداء والكراهية مرة أخرى بين أبناء الوطن، على الرغم من أن الشواهد تؤكد أنه كان قتلاً سياسياً وليس نتيجة تعصب ديني، كرد فعل لموقف بطرس باشا غالى من مشروع مد امتياز قناة السويس، إن ذلك المشروع بالرغم من أنه أيقظ الشعور الوطني للمصريين وقد أنعكس فى مشاركة الرأى العام فى التعليق على ذلك المشروع، إلا أنه فى جانبه السيئ الذى نتج عن ذلك الحادث كان مهدداً للمسار الطبيعى للوحدة الوطنية التى سعى لها عقلاء الأمة المصرية كما مر بنا.

فقد أفردت جريدة "الوطن" أعدادها لمدة أسبوع حول مقتل بطرس باشا غالى، وسيرته وكلمات الرثاء، واللافت للنظر أن ذلك الحادث تزامن مع وفاة السلطان عبد الحميد فى منفاه بسلانيك، وبعدها بقليل فى شهر مايو كانت وفاة ملك انجلترا ادوارد السابع، ولعل فى موقف الصحيفة من الخبرين الأخيرين ما يلفت نظرنا إذ لم تعر أية أهمية لوفاة الأول سوى ذكره كخبر عادى، فى حين خصصت لوفاة الملك ادوارد السابع عمودين(١١١)، ربما كان وراء ذلك هو أن وفاة الأول لم تمثل سوى وفاة لسلطان مخلوع، أما الثانى فكان ملكاً قائماً على عرش دولة الاحتلال، ولعل ذلك الموقف يعكس لنا ايضا المساحة التي شغلتها أخبار دولة الأحتلال أمام الرأى العام المصرى.

وعاودت "الوطن" مرة أخرى العزف على وتر المساواة فى الحقوق أولاً بين عنصرى الأمة حتى يتم وحدة الأمة المصرية، وطالبت السلطتين الشرعية والفعلية العمل لتلاشى التفاضل بين أبناء الوطن الواحد(١١٢).

أما جريدة "الأهرام" فكانت خصماً للفريقين معاً وأخذت تحذر المصريين من مغبة الإنقسام، إذ أن ذلك يؤدى إلى ضعف الوطن {فالحكمة تقتضى بجمع كل عنصر فى قوة مصر حتى تقوى}، ومن ثم سعت المقالات تدعو إلى الوئام والوحدة بين الأقباط والمسلمين، وهكذا كانت الأهرام للوطن قبل الدين(١١٣)، إذ أسهمت فى القضاء على الخصومة بين الطرفين جنباً إلى جانب مع سائر العقلاء من المصريين.

قامت جريدة "مصر" بدورها لتهدئة الخواطر بعد الحادث الأخير مؤكدة مرة أخرى على أن {الجامع للمسلم والكنيسة للمسيحى والوطن للاثنين معا}(١١٤)، ورفعت جريدة "الحرية" شعار {الدين لله والوطن للشعب}، ناصحة جمهور قرائها بعدم الخلط بين الدين والوطنية، حتى لا يصبح الدين وسيلة لتفريق الجامعة الوطنية للمصريين(١١٥)، ومن جانبها أكدت جريدة "الأهالى" على أن التسامح أساس الأخاء، اذ أنه لا فرق بين أقلية وأكثرية ما دامت البيئة واحدة والمصلحة متبادلة(١١٦)، إلا أن تلك الجهود الداعية للاتحاد قد ذهبت هباء مع مطلع عام ١٩١١، خاصة وأن المحتل لعب دوراً فى الاستفادة من حادث مقتل بطرس باشا غالى ليحدث انشقاقا بين أبناء الأمة المصرية(١١٧).

حيث كان السعى للمؤتمر القبطى ١٩١١ رد فعل واستجابة من قبل أقباط مصر لمقتل بطرس باشا غالى، وان كانت استجابة غلفتها روح التعصب، ودليلنا على ذلك أن بطريرك الأقباط بل ونجل بطرس باشا غالى واصف غالى أنكرا هذا المؤتمر(١١٨)، بل ذهب علوبة باشا فى ذكرياته إلى القول بأن فكرة عقد مؤتمر قبطى (عارضها بطرس غالى باشا بنفسه فى حياته، كما عارضها المسلمون وفريق من الأقباط، وكنت أنا والدكتور أحمد السعد نبث الدعاية فى أسيوط ضد هذا المؤتمر ..)(١١٩). والذى كانت فحوى مبادئه ذات ،

دلالة خطيرة نبأت بإنقسام عنصرى الأمة، ويتمثل ذلك من وجهة نظرنا فى عدة أمور:

أولها : أن فكرة عقد ذلك المؤتمر عبرت عن روح يغلب عليها التعصب الدينى المذموم، إذ إنسلخ العنصر القبطى الذى يعد عنصراً مكوناً لعناصر الأمة المصرية ليقيم مؤتمراً خاصاً به، نابذاً العنصر المسلم جانباً، وبهذا عبروا عن روح الانقسام داخل الأمة المصرية.

ثانيها : تمثل فى إطلاق اسم "المؤتمر القبطى" على ذلك الاجتماع، إذ يعكس صورة قصره على مطالب الأقباط الذين رأوا فى تحقيقها سبيلاً إلى تحقيق المساواة بين عنصرى الأمة، فى حين أن القضية الأساسية التى كان على العنصرين أن يوحدا جهودهما فيها هو الاتحاد للوقوف فى وجه الاحتلال البريطانى بهدف السعى لتحقيق الاستقلال المصرى أولاً، ومن ثم سوف تتاح لكلا العنصرين فرصة تحقيق المساواة والعدالة فى حقوقهما.

ثالثها : لم يراع هذا المؤتمر الحفاظ على الجامعة الوطنية من خلال الانحدار إلى هوة سحيقة لا يسهل الإفلات منها بسبب الانشقاق فى جسد الأمة المصرية.

لقد أحدث المؤتمر القبطى رد فعل ذا بعدين أحدهما سلبى تمثل فى دعوة الصحف الاسلامية الى الاستمساك بعروة الجامعة الاسلامية وقوفا فى وجه الوحدة القومية التى جمعت أقباط مصر فى مؤتمرهم، رغم أختلاف مذاهبهم الكنيسية(١٢٠)، والآخر إيجابى تمثل فى استهجان ذلك المؤتمر الذى يمزق الوطن، وحذرت من سم الانشقاق الذى يسرى فى جسم الأمة المصرية محاولا القضاء على كيانها، ومن ثم ركزت على ضرورة أن يتخذ المصريون

لفظة الوطن دينا عاما يسيرون عليه في ترقية بلادهم(١٢١)، ولا نستطيع أن ننكر أن المؤتمر القبطي والاسلامي الذى عقد كرد فعل لما آلت إليه الأحداث من انقسام أدى إلى انهيار الوحدة الوطنية كان خلفه السلطات البريطانية التى عملت على تعقيد الوضع بدعم كلا الطرفين بهدف توسيع هوة الخلاف بينهما(١٢٢).

فقد كان إنعقاد المؤتمر المصرى فى الفترة ما بين ٢٩ إبريل ١٩١١ إلى مايو ١٩١١، بهليوبوليس من ضواحى القاهرة، كرد فعل لانعقاد المؤتمر القبطى بأسيوط فى الفترة من ٦-٨ مارس ١٩١١، ذلك المؤتمر الذى أحيط بمشاعر عدائية من قبل المسلمين(١٢٣). وكانت لجان المؤتمر المصرى تنعقد فى منزل رئيسه مصطفى رياض باشا ناظر النظار السابق، وبعد فترة إنعقد المؤتمر فى محل «روكسى» بمصر الجديدة يدعى «لونابارك»، وقد كان الهدف منه الرد على ما قاله زعماء المؤتمر القبطى وكذا تهدئة الحال(١٢٤).

وقد مهدت لعقد ذلك المؤتمر الصحف المصرية آملة تحقيق الخير على يديه لابناء الوطن المصرى على حد سواء تحقيقاً للوحدة المصرية، اذ أفسحت للقول أن المؤتمر سيدعو إلى الاتحاد فى الوطنية المصرية إذ لم يكن خاصاً بفريق دون فريق وإنما أعد لمنفعة مصر والمصريين(١٢٥)، وبهذا تكون العاطفة الوطنية هى التى غلفت شعور المصريين أمام هذا المؤتمر المزمع عقده - آنذاك - ومن ثم انعكس ذلك فى عدد الحضور، اذ حضره ما يقرب من الفى مبعوث لمناقشة القضايا ذات الدلالة الوطنية، وقد أشتملت على المطالب التى تقدم بها الأقباط فى المؤتمر القبطى الذى عقد بأسيوط(١٢٦).

وعلى مدار الأيام التى عقد فيها المؤتمر المصرى كانت الكلمات تلقى أيضاً حول مضار الانقسام السياسى لوحدة الأمة، وحول ضرورة فصل الدين عن المصالح القومية حفاظاً على الجامعة الوطنية، والتقوا حول مبدأ

{لا وطن للدين ولا دين للوطنية. عقائدنا جميعا لله ... هذا الوطن للمصريين على السواء}(١٢٧).

وقد عقبت الصحف المصرية على أعمال المؤتمر المصرى الأول باستحسان شديد، إذ اعتبرته دلالة على انبعاث الحياة الجديدة لمصر والمصريين، وإشارة للروح الوطنية التى لا تميز بين دين ودين(١٢٨).

فى الواقع يكمن نجاح ذلك المؤتمر إلى أمرين:

أولهما : أنه كان بؤرة التقاء المصريين على اختلاف طبقاتهم، وعقائدهم، وأحزابهم فكان ممثلاً للأمة المصرية يعمل فى اطار الوحدة الوطنية.

ثانيهما : اتخاذ المؤتمر اسم "المؤتمر المصرى" يعكس حقيقة مؤداها أنه من أجل تحقيق استقرار تلك الأمة المصرية كان انعقاده، وليس لصالح طائفة أو حزب دون الآخر.

صفوة القول أن المؤتمر وما آل اليه أكد على أنه {لا يوجد مصران واحدة مسلمة والأخرى قبطية بل تُوجد مصر واحدة}(١٢٩).

على أى الأحوال مرت عاصفة الفتنة بسلام بعد أن كادت أن تؤدى بكيان الأمة المصرية، وسرعان ما التئمت الجروح، وزالت آثار الشرخ فى كيان الأمة، ويمكننا القول بان انحصار الخلاف الدينى بين المسلمين والأقباط فى فئة بعينها من فئات المجتمع المصرى - يمكن أن نحددها بأنها كانت الفئة المتعلمة والمثقفة - قد خففت من حدة الخلاف، اذ كان غالبية الشعب المصرى يعيش فى المزارع والأعمال الأخرى جنبا الى جنب، بروح واحدة بعيدين كل البعد عن فكرة التعصب الدينى(١٣٠)، ومن ثم يمكن القول بان العامة ببعدهم عن الشقاق الذى حدث بين عنصرى الأمة سهل على

التئام الجروح فى أسرع وقت، وسرعان ما اجتمعت الاهداف مرة أخرى، حول وجوب تحقيق استقلال الأمة، والتأكيد على "مصر للمصريين"، والتفانى فى حب الوطن(١٣١)، لقد نعم القطر المصرى بوحدة جغرافية ولغوية وتاريخية اذابت الفارق الدينى الذى عزف على وتره المحتل لفترة من تاريخ مصر الحديث.

بقى أن نشير إلى بعض القضايا الوطنية الوقتية التى أثيرت عبر مراحل زمنية محددة على صفحات الجرائد المصرية، ومالبثت أن خبت بمرور الوقت ولم تمتد إلى نهاية فترة بحثنا، من منطلق أنها كانت قضايا آنية، ولكن تناولها هنا لا يعد من قبيل سرد الحركة الوطنية المصرية التى ننأى بكل جهدنا عن الخلط بينها وبين نمو فكرة الوطنية المصرية، إلا أن تناولنا لهاتين القضيتين باعتبارهما أهم المحكات لإختبار فكرة الوطنية المصرية، وجاءت دراستهما أيضاً من حال كونهما قد أخرتا أو دفعتا الفكرة الوطنية خطوات محسوبه فى عمر تطورها.

كانت أزمة العقبة «المعروفة بحادثة طابا» أول القضيتين، فمع بدايات عام ١٩٠٦ كانت أزمة العقبة تطل برأسها فى محاولة من جانب الدولة العثمانية للظهور بأنها صاحبة السيادة الشرعية على القطر المصرى، وقد وضعت تلك الأزمة الولاء للدولة العثمانية فى اختبار عسير، أسفر بعد فترة شد وجذب بين الطرف العثمانى والطرف المصرى تسانده السلطات البريطانية صاحبة السيادة الفعلية على القطر المصرى، أسفر عن مفاوضات بين الأطراف المعنية بالقضية(١٣٢).

اتجهت أنظار الرأى العام المصرى إلى تلك القضية فى مسارين مختلفين، أحدهما ساند ودعم الجانب العثمانى بكل ما أوتى من حجج وقوة

بإعتبار مصر بلد عثمانية، وذهب بعضهم بالمجاهرة بالقول (ولا يسعنا الا أن نقول للدولة العلية أن مصر وجميع ما تحتوى عليه ملك لك فتصرفى فيه كيف شئت بدون أن ترى أى ممانعة أو مناقشة من المصريين)(١٣٣).

والآخر ساند الجانب المصرى - البريطانى من منطلق ايمانها بعدم التنازل للسلطان عن أى جزء من الأراضى المصرية، فقد رأوا أن واقع الحال سينبأ باستقلال مصر عن كل من الدولة العثمانية وإنجلترا(١٣٤) - بمرور الوقت - فالأجدر أن تظل السيادة المصرية كاملة على كل شبر من الأراضى المصرية.

وهناك من أيد الجانب البريطانى فى مسعاه بوازع المدافعة عن سياسة المحتل الذى حمل على عاتقه مهمة ترتيب إصلاح أحوال القطر المصرى، والتصدى للتعدى الذى أحدثته الجنود العثمانية على الحدود المصرية، فالمعلوم أن الفرمانات الشاهانية والمعاهدات الرسمية ألزمت الدولة العثمانية بالمحافظة على الاستقلال الذاتى الذى نعمت به مصر عن الدولة العثمانية(١٣٥).

ولقد وجد أنصار المسار الأول تيار من الوطنيين أيده فى دعواه وكان على رأس ذلك التيار مصطفى كامل الذى استنكر موقف انجلترا ودعا الانجليز إلى الجلاء عن مصر بدلا من التظاهر بالدفاع عن حقوقها(١٣٦). أما أنصار المسار الثانى كان على رأسه أحمد لطفى السيد الذى قال : (أن البلاد ثقل عليها الأحتلال فأصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتى به، ولو كان فيه الخير لمصر)(١٣٧).

وفى الواقع تكمن أهمية "مسألة طابا" فى كونها فجرت سؤلاً فى غاية الأهمية، ألا وهو إلى أى مدى وصلت درجة الوعى لدى المصريين بحيث

يستطيعون أن يفصلوا فاصلاً تاماً بين التبعية الدينية للسلطان ال
وبين التبعية السياسية التى تكاد تكون غير موجودة آنذاك، و
أظهرقدراً كبيراً من الولاء المصرى للدولة العثمانية يمكن اعتباره ا
للنزعة الدينية التى سيطرت على الغالبية العظمى من المصريين.

على أى الأحوال ربما عرض هذه القضية على الرأى العام ا
آنذاك قد ساعد على إمكانية الفصل بين الميول الوطنية الاستقلالي
مصر وبين الولاء الدينى للدولة العثمانية – على الأقل فى المستقبل ال
خاصة وأنه كان يسود الوجدان السياسى للمصريين آنذاك نزعتان
سلامة موسى تفسيراً لهما فى سيرته الذاتية حيث قال أن (الأولى
فى الميل نحو الدولة العثمانية، والتمسك بأهدافها بهدف ايجاد حجة
ضد سياسات الاحتلال والمحافظة على الاستقلال المصرى بدعوى أن
جزء من الدولة العثمانية، والثانية كانت الدعوة للاستقلال المصرى
والتخلص من بريطانيا وتركيا معا وان كانت تلك الدعوة ظهرت ف
أمرها ضعيفة)(١٣٨)، إلا أنها أستطاعت إثبات وجودها بمرور الوقت.

يمكننا القول أن التيار الوطنى المساند لحقوق مصر فى شبه
سيناء مثل وعيا بالوجود المستقل للأمة المصرية وبحقها فى الدف
ممتلكاتها حتى ولو تطلب الأمر خوض غمار حرب تدافع فيها عن شر
وحقوقها، والحق لا نستطيع أن نفصل ذلك الشعور الذى نمى لدى المـ
عن الوجود البريطانى فى مصر، حيث أستطاع أن يلعب دوراً إيجاب
التمسك بالحقوق المصرية فى تلك الأراضى مما شجع الكثير على
بآرائهم فى هذه القضية الشائكة وحطم أيضاً الحاجز النفسى لدى ا
منهم للوقوف فى وجه الدولة العثمانية نفسها، وإن كان صعب تحديد
ذلك الدور الإيجابى على نفوس المصريين خاصة منه الضباط وا

المصريين المكلفين بالمحافظة على الحدود المصرية أثناء الأزمة، الا أن بعض الآراء[١٣٩] ذهبت إلى القول أنه من الطبيعي أن تصاب تلك الفئة بفتور العزيمة، حيث لم تعد القضية أمامهم الوقوف أمام عدو يغتصب أرضهم بل وجدوا أنفسهم يقفون بالمرصاد لجيش السلطان العثماني !، صاحب تلك السيادة الشرعية على القطر المصرى آنذاك، فوق هذا كانت لاتزال نظرة قطاعات عريضة من المصريين ومن بينها أفراد الجيش ترى أن الخروج عن الدول العلية يعد بمثابة الخروج عن مبادئ الدين الحنيف.

على أى الأحوال لقد نجحت السلطات البريطانية بهذه التصرفات فى إحراز مكسب وهو سلخ مصر رويداً رويداً عن جسد الدولة العثمانية وإن كان ذلك قد أوقعها فى شباك المحتل فى نهاية المطاف باسدال ستار الحماية على القطر المصرى.

والجدير بالذكر أن هذه الأزمة ساهمت فى منح مصر لمزيد من الاستقلالية إذ قضت على أحد جوانب الروابط المادية التى تربط مصر بالدولة العثمانية، المتمثلة فى وجود المندوب السامى العثمانى فى القاهرة الذى مثل بدوره مظهر للوجود التركى فى مصر[١٤٠] حيث كان الغازى أحمد مختار باشا يحمل مهام شاقة فكان عليه أن يقضى على كل اتجاه لاستقلال مصر، وان يمنع الخديوى بكل الوسائل الممكنة من زيادة امتيازاته وحقوقه التى حصل عليها من فرمانات التعيين، وفوق هذا كان عليه المحافظة دائما على سلطة السلطان العثمانى داخل القطر المصرى[١٤١].

وهكذا فإن هذه الأزمة ساهمت فى تضاؤل النفوذ التركى يوما بعد يوم داخل القطر المصرى، وان كان النفوذ البريطانى أمامها يتضخم ويقوى بمرور الوقت ايضا وتزداد قبضته الحديدية على البلاد، الا أن فكرة التأكيد

على الحدود المصرية داخل إطار التبعية وضرورة الحفاظ عليها في حد ذاتها تعتبر قمة نضوج الوعي السياسي الذي وصلت إليه فئة داخل القطر المصري.

بقي أن نشير إلى مقارنة هامة تعبر عن الفارق في مستوى تفكير المصريين ودرجة ولائهم للدولة العلية من خلال الصحف المصرية، حيث كان الطابع العام لبعض الصحف الوطنية مع السنوات العشر الأولى للاحتلال لا تفكر ولا حتى تجرؤ في التفكير عن المناداة بفصل أي جزء من القطر المصري عن التبعية للدولة العثمانية، ففي عام ١٨٩٢ ومع أزمة فرمان تولية الخديو عباس حلمي الثاني، تطرقت الصحف المصرية لموضوع الحدود واعتبرته موضوع لا يصل في أهميته إلى تعطيل صدور فرمان التولية، لأنها رأت أن (مصر بحدودها وسودانها تابعة للدولة العلية)، وكانت لا ترى ثمة غضاضة في إعتبار خط العقبة وتوابعه في يد الدولة العلية، بل ذهبت إلى القول أن لو فرض وكانت العقبة تابعة للحكومة المصرية، وكانت في ذات الوقت الدولة العلية في حاجة إليها لغرض ما لوجب على الحكومة المصرية إجابة طلب الدولة العلية وإظهار الولاء التام لمتبوعتها، كانت تلك وجهة نظر جريدة "الوطن" لعام ١٨٩٢، وإن حاولنا تحليل وجهة النظر هذه أمكننا رجوعها إلى أنها ربما مثلت إنعكاساً – لوجهة نظر المصريين – نتيجة قرب العهد بين ظهور هذه المشكلة وبين إرغام الحكومة الإنجليزية لمصر على ترك السودان برمته بل والتنازل عن مصوع لإيطاليا، وبهذا لم ير سبباً يدعو الحكومة المصرية للتشديد مع الدولة العلية في مسألة العقبة من منطق أن (الدولة العلية صاحبة السيادة على مصر وأن مصر تابعة لها)(١٤٢)، بل ذهبت إلى أن انجلترا بتعرضها لمسألة الحدود تكون قد انحرفت عن طريق الرشاد حيث أن ذلك يمثل فصل مصر عن الدولة العلية بطريقة رسمية، بل

هاجمت السياسة التى تتبعها انجلترا بصدد مسألة الحدود واعتبرته من قبيل تحقيق المصالح البريطانية دون النظر إلى المصلحة المصرية[١٤٣]، وعلى الرغم من إيمان الجريدة بأن (المحبة الوطنية تقضى على كل واحد بأن لايفرط بشبر أرض من بلاده ولكن نقول أن الدولة العلية هى المتبوعة والمحبة الوطنية لاتستلزم احداث النشوز والوحشة بين التابع والمتبوع)[١٤٤].

إلا إنه مع انفجار الأزمة مرة أخرى عام ١٩٠٦، انتهزت نفس الجريدة "الوطن" الفرصة لطرح أفكارها عن مركز الاحتلال البريطانى فى مصر، ملوحة إلى أن أزمة العقبة كشفت عن الحماية المستورة لانجلترا تلك الحماية التى كشفت عن نفسها فى دفاعها المستميت عن الأراضى المصرية، ولهذا كان الأجدر بالحكومة البريطانية أن تنهى الاحتلال المؤقت ببسط حمايتها على البلاد، على أن تلك الحماية لا تؤدى إلى ابتلاع الاستقلال المصرى، وهكذا كانت وجهة نظر جريدة "الوطن" لعام ١٩٠٧، تلك النظرة المغايرة تماماً للدعوات السابقة فى التمسك بأهداب الدولة العلية.

شتان بين الدعوتين من تمسك بعتبات الدولة العثمانية إلى بسط حماية علنية لإنجلترا، ولعل تطورات الأحداث التى مرت على القطر المصرى فيما بين عام ١٨٩٢ - ١٩٠٧ قد سمح للعديد من الأفكار الجديدة أن تظهر على الساحة المصرية بجانب إختفاء العديد من الأفكار القديمة، بفعل الاحتكاك المباشر مع المحتل، وكذا التعليم الحديث، وإنخراط المصريين فى المدارس الأجنبية.....إلخ، قد أدلى كل ذلك بدلوه فى إحداث تغييرات فى العقلية المصرية وفى نظرتها لواقع الأحوال آنذاك.

على أى الأحوال، ساهمت "أزمة طابا" فى فك عرى الروابط مع الدولة العثمانية، سواء على المستوى الأدبى أو المادى، وهكذا أفسحت الطريق لنمو تيار الوطنية المصرية فى مساره الطبيعى.

ثانى تلك القضايا والتى اعتبرت حجر عثرة فى مسار نمو فكرة الوطنية المصرية كانت الحرب الإيطالية – الطرابلسية ١٩١١، إذ وضعت مصر بشعبها أمام إختيارين كلاهما مر إما الاستعداد لمساندة الدولة العثمانية فى حربها التى أعلنتها على إيطاليا أثر غزو الأخيرة لطرابلس الغرب وبالتالى الحفاظ على الجامعة الإسلامية فى مقابل التقليص من المكانة المتميزة التى تقترب بها مصر من مرحلة الاستقلال الكامل عن الدولة العثمانية، وإما الوقوف موقف المتفرج حفاظاً على الروح الاستقلالية للدولة المصرية حماية للجامعة الوطنية، ولقد نجحت السياسة البريطانية فى وقوفها على الحياد من تلك الحرب فى الحفاظ على استقلال مصر الداخلى، حيث ألزمها هذا الحياد بعدم السماح باشتراك الجيش المصرى فى هذه الحرب، وفوق هذا لم تسمح للجيوش العثمانية بالمرور عبر الأراضى المصرية، وهكذا حافظت على الكيان المصرى مستقل، وإن كانت قد شجعت التأييد فى أبسط صوره ذلك الذى اقتصر على جمع التبرعات لمعاونة الدولة العثمانية.

ومرة أخرى تنقسم الصحف المصرية ازاء تلك القضية بين فريق مؤيد لنصرة الدولة العلية وفريق مناصر لفكرة عدم الخوض فى تلك القضية، وإلى الفريق الأول مالت عواطف الغالبية العظمى من المصريين وسارعوا إلى الاكتتاب من أجل نصرة الدولة العثمانية وغلبت المشاعر الإسلامية على الأفئدة، وظهر الولاء الدينى فى أشد صوره، ووجدوا أن على كل مصرى أن يساعد بما يستطيع من أعمال لمجاهدى طرابلس، وأخذت الحرب توصف على صفحات الجرائد بأنها جهاد لنصرة (إخواننا فى العثمانية وإخواننا فى الدين وفى الإنسانية)(١٤٥).

كانت صحف الحزب الوطنى على رأس المشايعين لمساندة الدولة العثمانية(١٤٦)، وفوق هذا أدلى الشعراء بدلوهم فى مساندة النضال ضد الطليان يندون بالعدوان على الأراضى الإسلامية، موجهين أشعارهم نحو

المصريين في محاولة لحثهم على الوقوف لمؤازرة إخوانهم في طرابلس(١٤٧).

وبالمقابل كان لطفى السيد من أشد المعارضين لفكرة الجهاد الدينى التى طرحت بهدف اعانة الدولة العثمانية فى مصابها، وروج لسياسة المنافع البعيدة عن أية عاطفة تجاه رمز الخلافة، فقد رأى أن مصر الأولى بالاكتتاب والمساعدة من قبل ابنائها لتحقيق تقدمها وعمرانها، ولكن كان التيار المساند لدولة الخلافة هو الأقوى هذه المرة، اذ لم يجد لطفى السيد آذان صاغية بل هوجم أشد الهجوم ومالبث أن أنصرف المصريون يكتتبون ويتبرعون غير مبالين بأن ذلك يزيد روابطهم ويعيد إليهم ولو معنويا فكرة السيادة التركية على الدولة المصرية التى تنعم باستقلالها الداخلى.

وبذا، سجلت الحرب الطرابلسية ١٩١١، وكذا الحرب البلقانية ١٩١٣(١٤٨) – التى استنزفت هى الأخرى الكثير من الأموال لنصرة الدولة العثمانية – سجلتا وقوفاً مؤقتاً لقطار الوطنية المصرية والذى كاد أن تصيبه تلك القضايا بالشلل التام من جراء انقياد الغالبية العظمى من المصريين لمناصرة الدولة العثمانية، لولا أن رياح الحرب العالمية الأولى كانت تقترب من منطقة الشرق الأوسط عاصفة بنفود الدولة العثمانية فى محاولة ناجحة لانجلترا ببسط حمايتها على مصر، وبهذا قضت على الوشائج المتبقية بين مصر والدولة العثمانية.

مما سبق نكون قد عرضنا موقف الصحافة المصرية من الفكر الوطنى المصرى خلال الفترة من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩١٤، وقد أسفرت ملامح نمو فكرة الوطنية المصرية عن قضايا وطنية عديدة لازمت تاريخ الصحافة المصرية فى تلك الحقبة ومن ثم أتاح المشاركة لجمهور القراء فى تلك القضايا الحيوية التى لمست وجود كيان مصرى مستقل استقلالا تاما عن

كافة القوى الطامعة فى ترسيخ وتثبيت أقدامها، تلك القضايا الوطنية التى أثبتت أن الصحافة كانت قبل قيام الأحزاب الميدان العملى الذى يقع على كاهله عبء ممارسة السياسة فكانت المجال الأمثل الذى عن طريقه يمكنهم الدفاع عن مصالح وطنهم(١٤٩).

فقد كانت تلك القضايا الوطنية بمثابة أعمدة قامت عليها فكرة القومية المصرية فى فترة لاحقة، جنباً إلى جنب مع قيام الأحزاب المصرية التى حملت هى أيضاً مسئولية الدفاع عن مصالح الوطن المصرى، إلى جانب قيام بعضها فى أحيان أخرى بدفع فكرة الوطنية المصرية خطوات إلى الأمام كما سيتضح فى الفصل التالى.

***

هوامش الفصل الخامس

١ - المنصف : عدد١، باريس محرم ١٣٢١ هـ، تحت عنوان "مصر للمصريين" ص١١، المجلد تحت عنوان مجموعة جرائد لسنة (١٩٠٠-١٩٠٤).

٢- مجلة اللواء، الجزء الثاني، في ٢٣ ابريل ١٩٠٤، ص ١٨.

٣ - Safran, N. , Egypt Search of political Community, p. 87.

٤ - كشف الخبايا، عدد ٢٧، في ١٤ يوليو ١٩٠٧، تحت عنوان في التقرير الاخير " الوطنية المصرية".

٥ - الاهالي، عدد ٤٤، ٨ ديسمبر ١٩١٠.

٦ - الاهالي، عدد ٨٢٦، ١٠ يوليو ١٩١٣.

٧ - الجريدة، عدد ١٦٠٥، في ٢٠ يونيه ١٩١٢، تحت عنوان "مصر للمصريين".

٨ - Jamal, M. A., The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, p.105.

٩ - الجريدة ، عدد ٧٦٠، في ٣ سبتمبر ١٩٠٩.

١٠ - الوطنية، عدد ٦٨، في ٣٠ سبتمبر ١٩١٣، تحت عنوان "خطر على العقلية المصرية" سلامة موسى.

١١ - الظاهر، عدد ١٥١، في ١٨ مايو ١٩٠٤، تحت عنوان "تقدم الأمم".

١٢ - الظاهر، عدد ٤٠٢، في ١٨ مارس ١٩٠٥، تحت عنوان "الشعور الوطني".

١٣ - الافكار، عدد ٣٠٠، في ٢٣ مارس ١٩٠٦، تحت عنوان "جمعية حياة الوطن".

١٤ - الظاهر، عدد ١٣٠٧. في ٢٥ مارس ١٩٠٨، تحت عنوان "تحليل الشعور الوطني المصري".

١٥ - إبراهيم عبده (د.) : جريدة الأهرام، تاريخ وفن ١٨٧٥-١٩٦٤، ص٤٣٢، نقلا عن جريدة الأهرام، في ١٦ مايو ١٩٠٨.

١٦ - مصر ، عدد ٣٦٠٩، في ٢١ فبراير ١٩٠٨، تحت عنوان "الوطنية المصرية نامية في الصدور".

١٧ - وادي النيل، عدد ٥، في ٦ مايو ١٩٠٨، تحت عنوان "اتحاد الشعوب في مصر المسلم والقبطي

والسورى والشرقى على العموم أخوان : وغيرهم على العموم : صديق" كذلك الأفكار، أعداد ٢٤٤، فى فبراير ١٩٠٥، ٢٤٧، فى ٣ مارس ١٩٠٥، ٢٧٢، فى ٢٥ أغسطس ١٩٠٥.

١٨ – الأفكار، عدد ٣٨، فى ديسمبر ١٩٠٠، تحت عنوان : "الأمة والحكومة".

١٩ – الظاهر، عدد ٥٤، فى يناير ١٩٠٤، تحت عنوان "الدين والوطن"، الحرية، عدد ٦١ فى فبراير ١٩٠٤، تحت عنوان "الحياة والاحياء – الحيوية الوطنية".

٢٠ – الاعتدال المصرى، عدد١، فى اكتوبر ١٩٠٥، تحت عنوان : "الوطن".

٢١ – الدستور، عدد ١١٨، فى ١٤ ابريل ١٩٠٨، تحت عنوان: "حب الوطن"، المؤيد عدد ٧٠٣٨، فى يوليو ١٩١٣، تحت عنوان" "حب الوطن"، مصر عدد ٣٣١١. فى ٢١ فبراير ١٩٠٧، "حب الوطن".

٢٢ – المأمون، عدد،٢٨٦، فى إبريل ١٩٠٦، تحت عنوان "هل فى مصر وطنية ؟".

٢٣ – مصر، عدد ٣١٠١، فى يونيو ١٩٠٦، ٣١٠٢، فى يونيو ١٩٠٦.

٢٤ – الجريدة، الأعداد الاول والثانى والثالث والعاشر والخامس عشر، فى ٩، ١٠، ١١، ١٦، ١٩، ٢٥ مارس ١٩٠٧، ولقد أشار جمال محمد أحمد فى كتابه إلى أن المقالات كانت مجهولة الصاحب ورجح أن يكون كاتبها هو احمد لطفى السيد، إلا أننا برجوعنا الى تلك الاعداد وجدنا أن آخر عدد فيها معنون تحت امضاء عبد الحميد الزهراوى، انظر Jamal, M. A.,: op. cit.,p.105

٢٥ – تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩٠٦،إدارة المقطم١٩٠٧،ص٧ .

٢٦ – كشف الخبايا، عدد،فى ١٤ يوليو ١٩٠٧، تحت عنوان: فى التقرير الاخير ٢١، الوطنية المصرية.

٢٧ – التيمس المصرى، عدد ١، فى سبتمبر ١٩٠٨، تحت عنوان: "خطبة وطنية سياسية" .

٢٨ – الاهالى، عدد١،١ فى ١٩ اكتوبر ١٩١٠، ١٦٧، فى ٩ مايو ١٩١١، تحت عنوان "الوطنية وأنواعها".

٢٩ – المؤيد، عدد ٦١١٠، فى ٥ يوليو ١٩١٠، البلاغ المصرى، عدد ١٢٤، فى ١٠ نوفمبر ١٩١٠.

٣٠ – Lloyd, Lord : Egypt Since Cromer, Vol. I, london, 1933, p. 40.

٣١ – Ibid, p.34.

٣٢ – وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر جمعها وعلق عليها، عبد العزيز محمد الشناوى وجلال يحيى، دار المعارف، ١٩٦٩، ص ٦٩٦–٧٠٦.

٣٣ – Marlowe, John, Cromer In Egypt, London, 1970 ,p.78.

٣٤ – الحرية، عدد ١٢٧، فى ٢ يوليه ١٩٠٥، تحت عنوان "مال المصرى".

٣٥ – التقدم ، عدد ٩ ، ٢٥ سبتمبر ١٩٠٧ ، تونس خطبة لمصطفى كامل فى باريس ١٩٠٧/٩/١٤.

٣٦ ـ خطابة بطل الوطنية، مصدر سابق، ص٣٠.

٣٧ – اللواء، ١٨ مارس ١٩٠٩.

٣٨ – The Historical Dictionary of Egypt, The American University in Cairo press, 1989, p.130.

٣٩ – المؤيد، عدد ٥٥١١، فى ٧ يوليو ١٩٠٨.

٤٠ – الحرية، عدد ٤٤، فى ٢ أكتوبر،١٩٠٣.

٤١ – المعرض، عدد ١١١، فى ٢٩ أغسطس ١٩٠٨.

٤٢ – التمثيل ، عدد ١١٣، فى ٢٧ إبريل ١٩٠٤.

٤٣ – الجريدة، اعداد ٧٩١، فى ٧ أكتوبر ١٩٠٩، ١٦٦٦، فى ١ سبتمبر ١٩١٢.

٤٤ – Safran, N., Op. Cit., p.95.

٤٥ – الوطن، عددا ٣٧٩٥، فى ٢٤ يونيه ١٩٠٧، ٣٨٠٠، فى ٢٩ يونيه ١٩٠٧.

٤٦ – الوطن، عدد ٤٠٠٨، فى ١٧ مارس ١٩٠٨، تحت عنوان "الاستقلال".

٤٧ – مصر، عدد ٣٥٨٣، فى ٢٢ يناير ١٩٠٨، تحت عنوان "ماذا يقول الانجليز عن مصر ؟".

٤٨ – مصر، عدد ٤٣٨٦، فى ٧ أكتوبر ١٩١٠.

٤٩ – الصباح، عدد ١٧٤، فى ٢٣ أكتوبر ١٩٠٤.

٥٠ – الاكسبريس، العدد رقمه ممزق، فى ١١ أكتوبر ١٩٠٨.

٥١ – المقطم، عدد ٥٨٣٨، فى ١٢ يونيو ١٩٠٨، تحت عنوان "بين عثمانى ومصرى".

٥٢ – Marlowe, John, Anglo - Egyptian Relations., p.196.

٥٣ – التمدن، عدد ٨١، فى ١٦ يوليه ١٩٠٣، تحت عنوان "شعور الامم".

٥٤ – Lloyd, Lord,Op.Cit., p.34.

٥٥ – الجامعة، ج٣، فى ١ أكتوبر ١٩٠٦، نيويورك، تحت عنوان "صوت من بعيد".

٥٦ – الحرية، عدد ١٢٠، فى ١٤ مايو ١٩٠٥.

٥٧ – أحمد لطفى السيد : مبادئ فى السياسة والأدب والاجتماع، تقديم وتعليق طاهر الطناحى، د.ت، ص ١٠ من مقدمه المعلق.

٥٨ – الجريدة، عددا ٨٥٢، فى ١ يناير ١٩١٠، ٩٠٢، فى ٢٨ فبراير ١٩١٠.

* انظر الفصل الاخير.

٥٩ – شمس الدين الوكيل: الموجز فى الجنسية ومركز الاجانب، ط٣، الاسكندرية ١٩٦٨، ص١٣.

٦٠ – نبيل عبد الحميد سيد أحمد : الأجانب وأثرهم فى المجتمع من سنة ١٨٨٢ الى ١٩٢٢، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة عين شمس، د.ت، ص ٦.

٦١ – نبيل عبد الحميد: نفس المرجع، ص ٨.

٦٢ – المؤيد، عدد ٥٤٦٣، فى مايو ١٩٠٨، تحت عنوان "من هو المصرى".
٦٣ – يونان لبيب رزق (د.): الجنسية : مصرى، مقالة فى الأهرام، ديوان الحياة المعاصرة (١١٢)، عدد ٣٩٨٤٠، فى يناير ١٩٩٦، ص٧.
٦٤ – نفس المقالة، ص٧.
٦٥ – على فهمى كامل : مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعا، ج٣، ص ١٩–٢٠.
٦٦ – الأخبار، عدد ٥٢٣، فى٣ يونيو ١٨٩٨، تحت عنوان "قضية أمس أو العثمانى فى مصر".
٦٧ – الأخبار، عدد ٥٣٥، فى ١٧ يونيو ١٨٩٨، تحت عنوان "المصريون والسوريون".
٦٨ – الأخبار، عدد ٥٣٨، فى ٢١ يونيو ١٨٩٨، تحت عنوان "الجنسية العثمانية".
٦٩ – يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق، ص٧.
٧٠ – المقطم، عدد ٢٩٩١، فى ٢٤ يناير ١٨٩٩، تحت عنوان "الجنسية المصرية".
٧١ – الهلال ، ج ٩، ٣٣١، فى ١ فبراير ١٨٩٩، تحت عنوان " مشروع التجنس بالجنسية المصرية".
٧٢ – المؤيد، عدد ٥٤٦٤، فى ١٣ مايو ١٩٠٨، تحت عنوان "من هو المصرى ؟".
٧٣ – الفلاح، عدد ٩٣٠، فى ٢٢ يونيو ١٩٠٠، تحت عنوان "التجنس بالجنسية المصرية".
٧٤ – تقرير كرومر عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان، ١٩٠٧ ص١٤ – ١٥ .
٧٥ – أوراق مصطفى كامل، المقالات، الكتاب الثالث، ١٩٩٣، ص ٢٢٣–٢٢٤.
٧٦ – الجريدة ، عدد ٣، فى ١١ مارس ١٩٠٧.
٧٧ – الأخبار، عدد ١٣١، فى ١ أغسطس ١٩٠٧، تحت عنوان (الجنسية المصرية).
٧٨ – الجريدة، عدد ١٣١، ٥ أغسطس ١٩٠٧.
٧٩ – وادى النيل، عدد ٩٨، فى ٢٣ أغسطس ١٩٠٨، الخطبة السياسية الكبرى لحزب الأمة، ألقاها أحمد لطفى السيد.
٨٠ – مصر، عدد ٤٠٤٢، فى ٦ أغسطس ١٩٠٩، تحت عنوان (العثمانيون فى مصر).
٨١ – الجريدة، عدد ٧٨٤، فى ٥ أكتوبر ١٩٠٩.
٨٢ – المنار، مجلد ١٧، ج٧، فى ٢٣ يونيو ١٩١٤، تحت عنوان (الجنسيات فى المملكة العثمانية).
٨٣ – وادى النيل، عدد ١١٦٧، فى ١٢ فبراير ١٩١٢، نقلا عن عرض لكتاب روبرت ليند، الجنسية والاجناس الخاضعة.
٨٤ – أوراق محمد فريد، مذكرات، م١، مذكراتى بعد الهجرة (١٩٠٤–١٩١٩)، إصدار مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨، إشراف د. عاصم الدسوقى، ص٩٠.
٨٥ – ملف خدمة محمد عبده، نظاره الحقانية، محكمة استئناف مصر الاهلية، بدار المحفوظات القومية بالقلعة، تحت رقم، ٢٢٦٧٩.

٨٦ – ملف خدمة قاسم بك أمين، ترجمة كشف ببيان مدد خدمات قاسم بك أمين، الموظف بقسم القضايا بالأسكندرية، بدار المحفوظات القومية بالقلعة تحت رقم ٢٣٦١٢.

٨٧ – ملف خدمة ميخائيل أفندى عبد السيد، مصلحة الرزنامجة، أوراق ربط معاش بدار المحفوظات القومية بالقلعة، تحت رقم، ٢١٥٩٨.

٨٨ – Hamed, Raouf, Abbas, The Copts under British Rule in Egypt 1882-1914, es-say in, Egyptian Historical Review, Vol. 26, 1979, p. 53.

٨٩ – The Coptic Encyclopedia, vol. 2, p.608.

٩٠ – محمد سيد كيلانى: الادب القبطى قديما وحديثا، ص ٨٧.

٩١ – المؤيد، عدد ٥٤٧٧، فى مايو ١٩٠٨، مقالة لاخنوخ فانوس، تحت عنوان {لا خلاف بين الاقباط والمسلمين فى نظر الوطنيين الحقيقيين، وأكد ذلك فى خطبته التى ألقاها بدار التمثيل العربى، انظر الظاهر، عدد ١٢٩٧، فى ١٤ مارث ١٩٠٨.

٩٢ – The Coptic Encyclopedia, Vol.2, p.608.

٩٣ – جوليت آدم: انجلترا فى مصر، ٢٤٦-٢٤٧، كذلك، مصطفى كامل (باشا): دفاع المصرى عن بلاده. مصطفى كامل والانجليز مجموعة تشتمل على مقالات خطب صاحب اللواء، فى لوندرة وغيرها، مطبعة اللواء، ١٩٠٦، ص ٥٩، كذلك، البلاغ المصرى، عدد ١٢، فى ٢٠ يوليو ١٩١٠.

٩٤ – المقطم، عدد ٥٢١٤، فى مايو ١٩٠٦، تحت عنوان "الجامعة الوطنية المصرية".

٩٥ – الجامعة، الجزء الثالث، السنة الخامسة، نيويورك، فى ١٥ سبتمبر ١٩٠٦.

٩٦ – مصر، عدد ٣٣٠٣، فى ١٢ فبراير ١٩٠٧.

٩٧ – لمزيد من التفاصيل حول طبيعة تلك المقالات انظر، طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠، ص ٥٩-٦١.

٩٨ – الوطن، عدد ٤٠٣٠، فى ١١ ابريل ١٩٠٨.

٩٩ – الوطن، أعداد ٤٠٦٣، فى ٢٥ مايو ١٩٠٨، ٤٠٧٩، فى ١٣ يونيه ١٩٠٨، ٤٠٨٦، فى ٢٢ يونيه ١٩٠٨.

١٠٠ – وادى النيل، عدد، ٨٦، فى أغسطس ١٩٠٨.

١٠١ – وادى النيل، عدد ٩٨، فى ٢٣ أغسطس ١٩٠٨، خطبة سياسية لاحمد لطفى السيد.

١٠٢ – التيمس المصرى، عدد ١ السنة الثانية، فى ٦ سبتمبر ١٩٠٨.

١٠٣ – مصر، عدد ٣٧٩٢، فى أكتوبر ١٩٠٨.

١٠٤ – فعلى سبيل المثال نجد فى قائمة اكتتاب أهالى ميت غمر الاسماء الآتية :

–	ج	
٢٠	٩٧	الخواجا جبران عوض
	٢٥	رزق افندى يوسف
	١٠	جرجس افندى عبد السيد
	٤٥	الخواجا فضل ظراد من زفتى
	١٩٥	الخواجا داود صليب سلامة
	٤٠	الدكتور حبيب فضل الله
٢٠	٩٧	الخواجا يوسف واصلان ليفى (الاسرائيلى)
٤٠	٥١٠	

– مصر، عدد ٤٠١٢، فى ٢ يوليو ١٩٠٩

١٠٥ – مصر، عدد ٤٠١٦، فى ١٧ يوليو ١٩٠٩.

١٠٦ – مصر ، اعداد ٤٠٧٦ ، فى ١٧ سبتمبر ١٩٠٩، ٤٠٩٧، فى ١٢ أكتوبر ١٩٠٩، ٤١٤٥، فى ١١ ديسمبر ١٩٠٩ ،

١٠٧ – أوراق محمد فريد، المراسلات، م٢، ج١، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٤٨، خطاب بتاريخ ٢ يونيه ١٩٠٨.

١٠٨ – محمود نجيب أبو الليل : الامانى الوطنية والمشكلات المصرية فى الصحافة الفرنسية منذ عقد الاتفاق الودى حتى اعلان الحرب العالمية الاولى، ط١، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٢٨ .

١٠٩ – المفتاح، ج١، السنة الحادية عشرة، فى ١٥ يناير ١٩١٠، ص١٢.

* وُلد فى ١٨٤٧ وتوفى بالقاهرة فى ٢٠ فبراير ١٩١٠، وهو أكبر أنجال غالى بك فيروز، حول نشأته وتعليمه ودخوله ميدان العمل حتى توليه رئاسة الوزارة، راجع فرج سليمان فؤاد: الكنز السمين لعظماء المصريين، ج١، مصر، أكتوبر ١٩١٧، ص٧٣-٧٦.

١١ – Hilmi, Abbas II: A few words on the Anglo-Egyptian Settlement, Twenty Three years Khedive of Egypt, London, 1930,p. 46.

' – الوطن، اعداد، ٤٥٧١، فى ٢١ فبراير ١٩١٠، ٤٦٣٢، فى ٧ مايو ١٩١٠، ٤٦٣٤، فى ٩ مايو ١٩'.

الوطن، عدد ٤٣٨٥، فى ٦ أكتوبر ١٩١٠، تحت عنوان "الصحف الأسلامية والأقباط" بقلم يق حنين.

١١ – إبراهيم عبده (د.) : المرجع السابق، ص ٣٧٠-٣٨٤ ، نقلا عن جريدة الأهرام.

١١٤ – مصر ، عدد ٤٢١٨، فى ١٦ مارس ١٩١٠.

١١٥ – الحرية، ٣٠٢، فى ١٣ مارس ١٩١٠.

١١٦ – الاهالى، عدده ، فى ٢٣ أكتوبر ١٩١٠.

١١٧ – رياض سوريال بشارة: المجتمع القبطى فى مصر فى القرن التاسع عشر، ص ٢٦٨.

١١٨ – چاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى الى عام ١٩٢٢، ص ٢٥١.

١١٩ ـ محمد على علوبة (باشا): المصدر السابق، ص٧٨.

١٢٠ – المؤيد، عدد ٦٣٢٨، فى ١ ابريل ١٩١١.

١٢١ – الحرية، عدد ٣٣٤، فى مارس ١٩١١، ٣٣٥، فى ٢٦ مارث ١٩١١.

١٢٢ – Hamed, Raouf, Abbas: Op.Cit.,p.57.

١٢٣ – Ibid, p.57.

١٢٤ ـ محمد على علوبة (باشا): المصدر السابق، ص٧٨.

١٢٥ – الاهالى، عدد ١٣٧، فى ٣ ابريل ١٩١١، ١٥٨، فى ٢٨ ابريل ١٩١١.

١٢٦ – The Coptic Encyclopedia, vol. 3,p.948.

١٢٧ – انظر مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول، المنعقد بهليوبوليس (من ضواحى القاهرة)، المطبعة الاميرية بمصر، ١٩١١، ص ٤ – ٩٠ .

١٢٨ – الوطنية، عدد، ١٨، فى ٥ مايو ١٩١١، الاهالى، عدد ١٦٤، فى ٥ مايو ١٩١١.

١٢٩ – رمزى تادرس: الأقباط فى القرن العشرين، ج٢، مطبعة جريدة مصر ١٩١١، ص١٢ .

١٣٠ – احمد لطفى السيد: قصة حياتى، ص٥٣.

١٣١ – راجع على سبيل المثال، الوطن، عدد ٥٥٥٦، فى ٣ يونيه ١٩١٣، المؤيد عدد ٧٠٣٨، فى ١٧ يوليه ١٩١٣، ٧٠٥٦، فى ٧ أغسطس ١٩١٣.

١٣٢ ـ لمزيد من التفاصيل حول جذور أزمة طابا وتباعيتها أنظر الدراسة التي أعدها الأستاذ الدكتور/ يونان لبيب رزق، تحت عنوان: الأصول التاريخية لمسألة طابا، دراسة وثائقية، سلسلة مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣.

١٣٣ ـ المعتصم، عدد ٣١٦، فى ٢ أبريل ١٩٠٦، تحت عنوان، مسألة العقبة بقلم عباس ناصر خليل.

١٣٤ ـ أحمد عبدالرحيم مصطفى (د.): حادثة طابا ١٩٠٦ وتخطيط حدود مصر الشرقية، مقالة فى مجلة «الهلال»، عدد يونية ١٩٧١، ص١٢٤.

١٣٥ ـ المقطم، عدد ٥١٩٧، فى ٥ مايو ١٩٠٦.

١٣٦ ـ نجيب توفيق: مصطفى كامل أضواء جديدة على حياته، كتاب (الهلال) عدد ٣٦٥، مايو ١٩٨١، ص١١٧.

١٣٧ ـ أحمد لطفى السيد: قصة حياتى، ص٢٦.

١٣٨ ـ سلامة موسى: تربية سلامة موسى، سيرة ذاتية، ١٨٩٥ ـ ١٩٤٧، القاهرة د. ت، ص٤٧.

١٣٩ ـ عبدالعظيم رمضان (د.): الجيش المصرى فى السياسة ١٨٨٢-١٩٣٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧، ص٨٦-٨٧.

١٤٠ ـ يونان لبيب رزق (د.): المرجع السابق، ص٨٥.

١٤١ ـ عباس حلمى الثانى «خديو»: مذكرات، ص٨٠.

١٤٢ ـ الوطن، عدد ١١٨٧، فى ٥ مارس ١٨٩٢.

١٤٣ ـ الوطن، عدد ١١٩٥، فى ٣٠ مارث ١٨٩٢.

١٤٤ ـ الوطن، عدد ١١٩٨، فى ١٩ أبريل ١٨٩٢.

١٤٥ ـ الأفكار، عدد ٧٤٩، فى ٢ يوتيو ١٩١٢.

١٤٦ ـ فاروق أبو زيد (د.): أزمة الفكر القومى فى الصحافة المصرية، دار الفكر والفن، د. ت، ص١٥٢-١٥٦، ص١١٤-١١٥.

١٤٧ ـ أحمد هيكل (د.): تطور الأدب الحديث فى مصر، ص٤٩-٥٠.

١٤٨ ـ حول ردود أفعال المصريين تجاه الحرب البلقانية ١٩١٣، راجع المقالات التى نشرتها جريدة الأفكار على سبيل المثال والمساعدات المالية التى قدمت لنصرة الدولة العلية، الأفكار، أعداد ٩٣٩، فى ٣ فبراير ١٩١٣، ٩٤٣، فى ٧ فبراير ١٩١٣، كذا ٩٦٧، فى ١٤ مارس ١٩١٣، و٩٧٠ فى ١٨ مارس ١٩١٣.

١٤٩ – فاطمة علم الدين عبد الواحد : الريف المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢-١٩١٤، رسالة ماچستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٧٦، ص ٣٤٥.

* * *

الفصل السادس

الأحزاب المصرية وفكرة الوطنية المصرية

١٩٠٧ - ١٩١٤

١ - الحزب الوطنى.

٢ - حزب الأمة.

٣ - حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية.

٤ - أحزاب صغيرة.

لقد أتاح الاحتلال البريطاني الفرصة لنمو تيار الوطنية المصرية في مساره الطبيعي وإن كان نتج عنه اتجاهات مختلفة، إلا أنه في النهاية انحصر في تيارين كانا من الصعب الفصل بينهما في السنوات التي سبقت الاحتلال البريطاني، حيث كان ثمة تداخل كبير بين الفكرة الوطنية والفكرة الدينية في مخيلة أبناء الوطن المصري، وإن فضل أنصار التيار الوطني في فترة ما بعد الاحتلال العمل في الاتجاهين الوطني والإسلامي للتخلص من الاحتلال البريطاني وقد مثل تياراً متطرفاً، وفضل البعض الآخر الاتجاه الوطني الخالص مع مهادنة سلطات الاحتلال، وقد مثل تياراً معتدلاً، وهذا ما سوف يتضح لنا من خلال دراسة مواقف الأحزاب المصرية من فكرة الوطنية المصرية.

يمكن القول بأن الصحافة المصرية قد مهدت الأرضية التي سنحت لقيام الأحزاب السياسية من منطلق فاعلية تلك الصحافة وقدرتها على تجميع الرأي العام المصري وإثارته أثناء تناولها تلك القضايا التي مست مستقبل القطر المصري، ومن ثم أسهمت - إلى حد ما - في ظهور حياة حزبية محدودة الإمكانيات والرؤى مقارنة بالحياة التي كانت تنعم بها الدول المتقدمة آنذاك، تلك الحزبية المدعمة بالممارسات النيابية السليمة، أما في مصر فقد أخر عدم النضج الذي أصاب الحياة البرلمانية بدوره انتعاش ونضوج الحياة الحزبية.

ومن ثم حملت الأحزاب المصرية التى ظهرت على المسرح السياسى المصرى عبء الدعوة إلى قيام حياة نيابية فى ظل مجلس حقيقى، بدلاً من أن تكون المجالس النيابية هى السند المنطقى لسياسة الأحزاب السياسية.

وهكذا كان على الأحزاب السياسية أن تنشط قدر طاقتها للعمل على مواصلة الدور الوطنى الذى قامت به الصحافة المصرية فى العمل على النهوض بالقطر المصرى فى محاولة من تلك الأحزاب لتحويل النظريات التى كتبت على أوراق الصحف الى حقائق ملموسة، من خلال جهادها فى العمل على تحقيق حرية استقلال القطر المصرى، وفى نفس الوقت الدعوة الى تقدمه وارتقائه بكافة الوسائل المتاحة، ومن هنا كان ظهور تلك الأحزاب حاملة بين طياتها مبادئ تعمل جاهدة على تحقيقها.

١ - الحزب الوطنى

يعد الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ من أبرز تلك الأحزاب التى ظهرت فى تلك الفترة، وقد وصف البعض[(١)] ظهوره بمثابة إحياء للحركة الوطنية فى مصر، ذلك الحزب الذى ظهر على الساحة السياسية المصرية مرتكزاً على عشر مبادئ حرص على تحقيقها، وأعلن عنها فى اليوم التالى على صدر صحيفة الحزب (اللواء)، وقد يهمنا من تلك المبادئ العشر مبدأين: المبدأ الأول : الداعى إلى {استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن فى عام ١٨٤٠ وضمنته الفرمانات السلطانية ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد (ويدخل تحته كافة البلاد التى ضمت لمصر بمقتضى فرمانات سلطانية) وهو الاستقلال الذى وعدت إنجلترا بإحترامه وتعهدت رسميا بذلك}[(٢)].[(*)]

وكان من المنتظر من زعيم وطنى كمصطفى كامل جاهد فى فترة مبكرة من عمره – كما سبق وأشرنا – وفوق هذا أعتبر أنه كان مبشراً بالوطنية فى مصر

الحديثة [٣] إلى جانب تشربه بالمبادئ الليبرالية التى استقاها من خلال إحتكاكه بالغرب الأوربى، أن يجعل أول مبادئه هو الاستقلال الكامل غير المشروط، وبهذا يتخلص من الاحتلال البريطانى، وكذا البقية الباقية من علاقات التبعية بالدولة العثمانية، ولكنه طالب بإستقلال ذاتى محدود كما أقرته معاهدة لندن ١٨٤٠، ولم يطلب بإنفصال سياسى عن الدولة العثمانية، تلك الدولة التى سعى الخديو اسماعيل فى فترة لاحقة لمعاهدة لندن فى أن يحصل على المزيد من الحقوق والامتيازات لتوسيع استقلال مصر، وكان من المنطقى أنه بمرور الوقت تزداد الآمال الوطنية المصرية نحو الاستقلال الكامل.

فالمعلوم أن قضية الاستقلال كانت تشد الرأى العام المصرى آنذاك،[٤] وإن كان قد قصد به جلاء الاحتلال واسترداد مصر لوضعها السابق كدولة تابعة للدولة العثمانية تحت ظل العائلة الخديوية، فقد كان الأوجب، من هذا المنطلق على الحزب ذى الشعبية الكبيرة أن يلفت الأنظار وينشر الوعى بين الشعب المصرى فى ضرورة المطالبة بالاستقلال الكامل، وبهذا يكونوا على قلب رجل واحد، ولكن فى الحقيقة فإن المعاصرين[٥] أكدوا على أن الرأى العام فى تلك الأوقات يفهم أن الحزب الوطنى يسعى لإخراج الإنجليز بلا قيد أو شرط على أن تبقى السيادة الرمزية للدولة العثمانية، ولم ير الحزب الوطنى بأساً من الإبقاء على هذه السيادة الرمزية لأنها كما رأى معاصروه[*] لم تكن ذات سلطة فعالة فى مصر حتى قبل الاحتلال.

وقد دافع مصطفى كامل عن تلك السياسات المناقضة لأهدافه، وقد نفى أنه يسعى لاخراج الانجليز من مصر لجعلها إقليماً عثمانياً، وفى نفيه هذا أكد لنا مطلبه المحدود ألا وهو الاستقلال فى اطار الحكم الذاتى،[٦] وكذلك رجال الحزب الوطنى لم ير ثمة غضاضة فى أولى مبادئ الحزب مستندين إلى أن السيادة

العثمانية صارت إسمية بمرور الوقت وبالتالى من السهل التخلص منها بعد تحقيق الجلاء.[٧]

وثانيهما المبدأ العاشر : (بذل الجهد لتقوية علائق المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية وإنماء علائق المحبة والثقة بين مصر ودول أوربا.....)، وهكذا جاءت المادة الأخيرة فى برنامجه تأكيدا على الروابط بين مصر والدولة العثمانية[٨].

لقد ربط مصطفى كامل بين الوصول إلى الاستقلال وبين مساندة الدولة العلية، وإذا كان الاحتلال البريطانى السبب فى فرض ذلك الاتجاه نحو التعلق بحركة الجامعة الاسلامية التى تبناها السلطان عبد الحميد الثانى، ومن ثم العمل على توثيق عُرى الروابط بين مصر والدولة العلية تحقيقاً لإثبات عدم شرعية الاحتلال البريطانى[٩]، وهكذا يمكن القول بأن وجود الاحتلال ساهم فى تحول الاتجاه من فكرة المصرية غير كاملة النضوج تلك التى غلبت على الحياة السياسية فى فترة ما قبل الاحتلال المدافعة عن "مصر للمصريين"، إلى حركة مصرية مرتدية رداءً إسلامياً مسانداً ومناصراً لحركة الجامعة الإسلامية[١٠]، على أيدى أنصار الحزب الوطنى، فقد كان الجهاد قبل مصطفى كامل يحمل فى طياته الانفصال عن الدولة العثمانية بفعل تلك المؤثرات الحضارية التى دخلت على المجتمع المصرى مع عصر الخديو إسماعيل، ومع مصطفى كامل كان الجهاد من أجل الاستقلال للتخلص من الاحتلال البريطانى، هذا ما جعله يستند على الدولة العثمانية، ويمكننا القول بأن الظروف أختلفت وليست انتكاسة للوطنية المصرية على يد مصطفى كامل وأنصاره، ولعل الخلط الزائد بين الانتماء القومى والتوجهات الدينية كان السبب فى جعل الحزب الوطنى يلعب دوراً هامشياً فى فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى تلك الفترة التى قد تبلورت فيها قومية مصرية صرفة[١١].

على أية حال، لم تكن تلك المبادئ والأهداف وليدة إنشاء الحزب الوطنى، بل كانت سياسة واضحة قبل ذلك بسنوات طويلة نادى بها مصطفى كامل وأنصاره ونشرها فى خطبه ومقالاته، ومن أجل ذلك كان تأسيس جريدة اللواء عام ١٩٠٠ التى أصبحت الأداة الرئيسية فى دعاياته[١٢]، وفوق هذا أكد من خلال مراسلاته مع صديقه عبد الرحيم أحمد على سياسته التى وصفها بأنها مصرية عثمانية[١٣].

وفى خطبة ألقاها على المصريين بباريس فى أغسطس ١٨٩٥ أكد فيها على أن ضياع مصر من أيدى سلاطين آل عثمان يعد ضياعاً للسلطنة نفسها، من منطلق أن الآستانة وإن كانت مركز الخلافة الإسلامية، فإن مصر تعد روحها وفؤادها، وحرص على إيضاح أن سياسة التقرب إلى الدولة العلية هى أنجح السياسات حيث أن الراية العثمانية هى المستحقة لالتفاف أبناء مصر حولها تحقيقاً للاتحاد والائتلاف[١٤].

لقد أتخذ من سياسة التقرب للدولة العثمانية حجة لمجابهة الاحتلال البريطانى، إذ كانت هناك فكرة مهيمنة وتلح عليه بإستمرار، منذ فترة شبابه المبكرة، تلك التى شكلت الفلسفة السياسية لديه، المتمثلة فى ذلك الاحتلال الأجنبى البغيض، والعمل على إيقاظ مشاعر الاستياء العام[١٥] من ذلك الوجود لدى الشعب المصرى، ومن ثم انبرى فى كل مناسبة مؤكداً على ضرورة تعلق الأمة المصرية بالدولة العلية، فقد انتهز من حادثة طابا - على سبيل المثال - مناسبة ليؤكد على ولائه التام للدولة العلية حيث كان على رأس التيار المساند والمهاجم لسياسات الاحتلال فى المدافعة عن الحقوق المصرية، وذلك مع بدايات عام ١٩٠٦، عندما أطلت أزمة طابا برأسها فى محاولة من جانب الدولة العثمانية للظهور بأنها صاحبة السيادة الشرعية على القطر المصرى، وقد وضعت تلك الأزمة الولاء للدولة العلية فى اختيار صعب، أسفر بعد فترة شد وجذب بين

الطرف العثماني والطرف البريطاني - المصرى عن مفاوضات بين الأطراف المعنية بالقضية[١٦] والذى أكدت فيه إنجلترا تصميمها على تأييد استقلال مصر حتى ولو كلفها ذلك استخدام قوتها الحربية ضد أى اعتداء على أى جزء من الأراضى المصرية من قبل السلطان العثماني[١٧]، وقد رأى البعض فى موقف مصطفى كامل أمر منطقى إذ آمن بتعزيز السيادة العثمانية على مصر لكي يحدث موازنة فى مواجهة الوجود البريطاني[١٨]، على أننا نرى أنه كان واجباً عليه أن يساند الحق المصرى فى السيادة على أراضيه وحتى لو كلفه ذلك شبهة التأييد البريطاني.

لم يكتف مصطفى كامل بسياسته السابقة تجاه السلطان العثماني، بل أكد كذلك على ولائه التام لخديو مصر عباس حلمى الثانى، حيث نجح الأول فى تكوين حركة وطنية وحدت الأمة فى ظل تأييد الخديو ضد الحكم الاستبدادى الفردى للورد كرومر وأداة لوقف فردية سياسته[١٩]، آخذاً فى الاعتبار أن الخديو يعد نائباً عن جلالة السلطان ووكيلاً شرعياً عن الأمة المصرية، تلك الأمة التى أجلست مؤسسى العائلة الخديوية على عرشها[٢٠]، ومن هنا يتضح لنا إيمان مصطفى كامل المطلق بالأسرة العلوية وبذلك يكون قد خالف أقرانه أمثال جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم بعدم اعترافهم بتلك الأسرة، وربما كان السبب راجعاً فى ذلك إلى الفروق بين حكام الأسرة العلوية، فقد خالف باس الثانى كلا من الخديو إسماعيل وتوفيق فى الاعتماد على المصريين ساندة الحركة الوطنية، لاسيما وأن الخديو عباس نفسه وجد فى مصطفى الوسيلة المثلى لتنفيذ أغراضه كدلالة على اهتمامه بالكيان المصرى على بار أن مصطفى كامل هو مؤسس الوطنية المصرية الحديثة،[٢١] بالإضافة إلى ، مصر تحت حكم الأسرة العلوية أصبحت أكثر تماسكاً وأرقى مكانة عما كانت عليه أيام حكم المماليك[٢٢]، ومن هنا كان مصطفى كامل حريصاً فى كل مناسبة على التأكيد على رغبته الهادفة إلى بقاء الاثنين (سلطة الأمير وسلطة السلطان)

لكى يتسنى لمصر أن تحقق فى ظلهما مجدها الوطنى، ومن ثم سعى من خلال خطبه وكتاباته لخلق وطنية مصرية، باستجماع كل الطبقات وحشد جماهير الأمة حول الخديو[٢٣]، بشكل خاص وحول راية الدولة العلية بشكل عام.

وقد أفرزت سياسات مصطفى كامل التى أعلن عنها هجوماً شديداً من قبل بعض الصحف سواء الأجنبية أو المصرية، إذ انكرت صحيفة لاريفورم الفرنسية على مصطفى كامل إيمانه بوجود "وطن مصرى"، بحكم كون مصر ولاية عثمانية، وقد كتبت لوبوسفور عاتبة عليه مناصرة الدولة العثمانية ضد مصر، وقد ذهب أحد الصحفيين الفرنسيين فى القاهرة إلى القول بأن فى مصطفى كامل مصريان مختلفان، أولهما يلبس طربوشاً ويدير صحيفة "اللواء"، إشارة إلى سياسته المساندة للدولة العثمانية، والآخر يلبس قبعة ويعاون فى تحرير "لوفيجارو" الباريسية، إشارة منه إلى سياسته القائمة على خدمة القضية المصرية فى الخارج، وقد خرج من تحليله إلى عدم وجود شبه بين الشخصيتين[٢٤]، وقد أكدت جريدة "التيمس" بدورها على أن حركة الجامعة الإسلامية التى تحركها الآستانة يؤيدها مصطفى كامل بكل قوة وأن مناداته "بمصر للمصريين" تنبع من إيمانه بإعادة مصر إلى حكم السلطان مرة أخرى[٢٥] وقد هاجمت جريدة "الطان" الفرنسية الادعاءات التى فحواها أن مصطفى كامل يسعى ليجعل من مصر ولايه عثمانية فى وقت وصلت فيه البلاد بقوتها الذاتية وبمساعدة القوى الأجنبية درجة عالية من المدنية والارتقاء[٢٦].

وإذا كانت مهاجمة الصحف الفرنسية والإنجليزية لسياسة مصطفى كامل والحزب الوطنى يمكن إدراجها فى حلبة الصراع الدولى الذى حكم العلاقات الدولية آنذاك، فإن الصحف المصرية فى الداخل قد حملت نفس الهجوم على سياسة مصطفى كامل وحزبه، إذ قامت جريدة "الوطن" بنشر جزء من تقرير اللورد كرومر عن {الوطنية المصرية}، ذلك الجزء الذى أنكر فيه كرومر على الحزب

الوطنى أن يكون ممثلاً لمطالب الأمة المصرية، وقد أيدت جريدة الوطن بكل سرور ذلك القول مهاجمة سياسة الحزب القائمة على الخلط بين الوطنية المصرية والجامعة الإسلامية[٢٧]، وقد كان من المنطقى أن ترفض الصحف الوطنية القبطية سياسات الحزب القائمة على تدعيم فكرة الجامعة الإسلامية، فإنه على الرغم من الإشارة فى الفصل السابق إلى أن الحزب الوطنى كان ينزع عنه رداء التعصب الدينى، إلا أن تلك كانت عملاً خارجياً، حيث انصب العمل الداخلى على سياسة مخالفة، وبشكل أعمق بعد غياب مصطفى كامل من الساحة السياسية، حيث غلبت (المسألة الدينية) على خلفائه، من أمثال عبد العزيز جاويش الذى قام بتغليب النزعة الدينية على انتماءاته الوطنية[٢٨].

وعلى الجانب الآخر كانت الصحف الموالية للاحتلال البريطانى تنكل بالحزب الوطنى ورجاله مهاجمة إياهم فى كل مناسبة، فقد احتجت جريدة "المقطم" على سياسة التهور والطيش التى اتخذها الحزب للمطالبة بالاستقلال، مبينة أن أمنية المصريين جميعهم هى الاستقلال، والحكومة الدستورية، ولكن لا داعى للهجة العداء ضد سلطات الاحتلال وضد الخديو للتأكيد على ذلك[٢٩]، وقد تناست تلك الجريدة أن الحركة الوطنية فى طريقها للإعلان عن هدفها قد تلجأ إلى كل الوسائل الممكنة والمتاحة لها حتى ولو كانت فى شكل مظاهرات، بل على العكس فإن ذلك المسلك له بعض إيجابياته إذ يجعل دائماً الروح الوطنية المصرية متيقظة ومتأهبة فى أية لحظة للدفاع عن وطنها، على الرغم من أن مصطفى كامل فى جهاده لمواصلة الكفاح ضد بريطانيا مفضلاً الأتراك عليها كان طريقه لإثارة وتهييج الشعور الوطنى ينصب فى قالب سلمى نحو جامعة إسلامية، وهكذا لم يكن كعرابى، ويمكن إرجاع ذلك الى أن ثقافته الفرنسية وإنتسابه إلى عائلة متوسطة أملت عليه ذلك الاتجاه،[٣٠] علاوة على استفادته من صلته - فى فترة مبكرة - بعبد الله النديم الذى كان أحد قادة الثورة العرابية، والذى نفره من الأساليب العنيفة التى لا تجدى ولكن لم يتبع خلفاؤه نفس سياسته.

بل إن الحزب الوطنى فى احدى مراحله اعتمد على التحرك الجماهيرى وذلك بتنظيم صفوف الفئة المثقفة وخاصة الطلبة ليشاركوا سياسياً فى الحركة الوطنية[٣١] آنذاك، سواء فى صورة مظاهرات أو إضرابات ضد سياسات سلطة الاحتلال، ومن ثم استطاع الحزب تقوية الشعور الوطنى بين تلك الفئة من أبناء الوطن المصرى.

قياساً على ما سبق، يمكن القول بأن مصطفى كامل بهذا الشكل قد انتهى إلى بلورة صورة عامة للوطنية المصرية الممزوجة بالجامعة الإسلامية، ونستشف ذلك من خلال مقالاته وخطبه التى انبرت تعبر عن حب الوطن والحث على الدفاع عن الوطنية جنباً إلى جنب مع دعواته لإحياء الجامعة الإسلامية والمحافظة على بقاء الدولة العلية، حيث أنه لم يكن يرى ثمة غضاضة أو تعارضاً بين الفكرتين الوطنية والدينية، وكان دائماً يبث فى نفوس النشء محبة الوطن والغيرة الوطنية، والعمل على نصرة الوطن حتى يستحق بذلك أن يقول الوطنى أن (مصر بلادى)[٣٢]، وقد لجأ إلى الاستناد على التاريخ المصرى القديم ليذّكر المصريين بماضيهم العظيم وتاريخهم المشّرف قائلاً : {إن مصر هى الوارثة لمدنيتين هما أسمى المدنيات فى التاريخ : مدنية الفراعنة ومدنية الإسلام ...}[٣٣]، وقد دل قوله السابق على مزج بين الفكرة الوطنية المستمدة جذورها من حضارة الفراعنة، والفكرة الإسلامية القائمة على حضارة المسلمين، إذ لم يستطع الفصل بين ذلك الخلط فى الفكرتين، ولكنه فى نفس الوقت كان دليلاً على الاعتراف بجذور الأمة المصرية، وفوق هذا عمل على إيقاظ الشعور الوطنى وبعث الوطنية المصرية عن طريق إحياء ذكرى عظماء مصر الحديثة الذين قدموا خدمات جليلة فى سبيل النهوض بالبلاد[٣٤].

وقد اتخذ من ذكرى مرور مائة عام على تولية محمد على حكم مصر مناسبة ليقترح إقامة احتفال قومى بهذه المناسبة، مشيراً إلى أن إرادة الأمة

المصرية فى السابق لاختيار مؤسس العائلة منذ مائه عام[٣٥]، ولا يخفى أنها كانت وسيلة ذكية من مصطفى كامل للعمل على بعث الروح الوطنية المصرية لمواجهة الاحتلال البريطانى الرابض على أرضها.

ونلمس النزعة الوطنية لديه فى قوله: {الوطنية هى أشرف الروابط للأفراد والأساس المتين الذى تبني عليه الدول القوية والممالك الشامخة} مطالباً أبناء مصر بأن يكونوا على قلب رجل واحد للدفا ع عن بلادهم، وسعياً منه لاحياء الشعور الوطنى لدى أبناء الوطن المصرى، كان شديد الحرص على إظهار مكانة مصر بين العالم ووصفها بأنها جنة الدنيا، ولازمته دوما المقولة الشهيرة : {أنى لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً}[٣٦]، ومن ثم لعب مصطفى كامل دوراً هاماً وبشهادة معاصريه فى تنشيط الاتجاه الوطنى المصرى بنشر الفكرة الوطنية التى أسفرت عن إيقاظ المشاعر المصرية الأصيلة[٣٧]، ولعل القول بأن وجود الاحتلال قد استدعى من مصطفى كامل حرصه على تأكيد فكرة الوطنية المصرية فى كل مناسبة أمام العقل المصرى لتكون محور تفكيره فى كل وقت[٣٨]، وبهذا تتشرب الروح المصرية ينابيع الوطنية الحقة.

دافع مصطفى كامل بكل ما أوتى من قوة لنهضة الأمة المصرية، ومن ثم جعل من الحزب الوطنى روحاً معبرة عن الأمة المصرية تجاه الاحتلال، ولعل حبه لبلده مصر هو الذى أملى عليه تلك الدوافع، والذى يمكن قبول وصفه بأنه كان أول من عمل على زيادة وعى الشعب المصرى وإمداده بالمشاعر الوطنية[٣٩] ولعل جنازته كانت أشبه بمظاهرة وطنية انبرى فى صفوفها كل أفراد الشعب المصرى[٤٠]، وفى إعتقادى أن ذلك وأن دل على شئ فإنه دلالة واضحة على قوة الشعور الوطنى لدى أبناء الوطن المصرى ومدى وعيهم بواقع الأحوال، ذلك الوعى الذى ظهر جلياً فى جنازته التى كانت تعبيراً عملياً على أن الروح الوطنية حية فى نفوس المصريين، ودليل على مقدار فهمهم لجهاد مصطفى كامل فى

سبيل الدفاع عن أمته المصرية، ومن ثم جاء وصفه بأنه محى الوطنية فى مصر[٤١].

صفوة القول أن مصطفى كامل استطاع أن يجمع فى يده كل الخيوط المؤدية إلى تحقيق الاستقلال المصرى، سواء بالعمل على نشر الوعى الوطنى بين الشبيبة المصرية لتقوية الفكرة الوطنية فى أذهانهم، أو بالعمل على تقوية الفكرة الدينية معتمداً فى ذلك على الدولة العلية، أو بالاعتماد على نشر الفكرة الوطنية فى الخارج بمعاونة بعض القوى الدولية المناوئة للاحتلال البريطانى فى مصر كفرنسا فى فترة ما وألمانيا، حتى أن كلمة {الوطنيون} ما كانت تطلق فى فترة ما بعد الاحتلال على مسرح السياسة على كل مواطن مصرى يتخذ من الجلاء والاستقلال هدفاً إلا مع ظهور مصطفى كامل[٤٢]، الذى أعتبره البعض[٤٣] نموذجاً للوطنى المصرى وممثلاً للطبقة الوسطى فى القرن التاسع عشر.

والجدير بالذكر أنه تجدر الإشارة إلى مقولة هامة فحواها "أن زواج الوطنية المصرية من الجامعة الاسلامية زواج مصلحة لا زواج حب"[٤٤]عند مصطفى كامل وحزبه، لندحض ذلك القول مستندين الى أن مصطفى كامل رغم تربيته الحديثة إلا أنه كان للعقيدة مكان الصدارة فى تفكيره، بل كان الدين فى تصوره هو الباعث الأول للحمية فى النفوس ودافعاً للسعى وراء العلم والمعرفة[٤٥] وهكذا كانت نظرته للجامعة الإسلامية نظرة دينية بحته بإعتبارها الجامعة لشمل العالم الإسلامى ضد خطر الأطماع الإستعمارية المحدقة به من كل صوب، وفوق هذا يكون مخالفاً لوجهة النظر العثمانية تجاه الجامعة الإسلامية التى كان مضمونها يحمل معنى سياسياً معارضاً لكل حركات الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية حفاظاً على سلطة آل عثمان، ولعل تضارب المضمونين لدى مصطفى كامل والدولة العثمانية كان سبباً فى إفساح الطريق أمام فكرة الوطنية المصرية فى فكر مصطفى كامل لتسير جنباً الى جنب مع تمسكه بالعقيدة،

بالاضافة إلى إدراكه لحقيقة مؤداها أن الشعور العام لغالبية الأمة المصرية آنذاك يغلب عليه التعلق بالرابطة الروحية التى تربطهم بممثلة الخلافة الإسلامية، وقد عبر عن ذلك فى قوله : [يوجد فى مصر نوعان من الشعور مختلفان : الشعور الوطنى والشعور الاسلامى فالشعور الوطنى، يقتسمه المسلمون والأقباط هذا الشعور هو الذى يدفعنا جميعا الى العمل على النهوض بوطننا، والمطالبة بالحرية التى تتمتع بها البلاد المتحضرة والاستقلال الذى تستحقه. وحيث أن الغالبية من المصريين مسلمين، فانه من الطبيعى أن يتمتع الاسلام بدور هام فى هذه الحركة][٤٦]، ومن ثم يمكننا القول بان استعانته بالدولة العثمانية ومزج الوطنية المصرية بالجامعة الإسلامية فى جهاده وسيلة وغاية فى آن واحد.

على أية حال نهج الحزب الوطنى – فى أحد جوانبه – نفس السياسة بعد وفاة مؤسس الحزب، رغم ثبوت أن وفاته كانت خسارة كبيرة لحزبه، فعلى الرغم من أن خليفته محمد فريد كان قادراً وبليغاً إلا أنه كان يفتقد تأثير مصطفى كامل وخطبه النارية[٤٧]، مع الأخذ فى الاعتبار أنه كان من أحد المناصرين المبكرين لمصطفى كامل[٤٨]، بالإضافة إلى أنه قد أسهم مع مصطفى كامل فى غرس بذور الوطنية بنشر الروح القومية فى البلاد

فالمعلوم أن الوطنيين بعد وفاة مصطفى كامل إنشقوا إلى عدة اتجاهات لا يسمح المقام هنا للخوض فيها، وانما يعنينا ذلك الاتجاه الذى اعتبر امتداداً لفكر مصطفى كامل، حيث حرص على إيضاح أن فكرة الجامعة الاسلامية من منطلق أن العقيدة هى احدى الروابط البشرية مثلها كمثل الوطن واللغة والجنس والإقليم، فاعتبر ذلك الاتجاه أنه من المنطقى أن تكون لجامعة الدين المكانة المناسبة لها عن جامعة الوطن وجامعة اللغة والجنس وجامعه الإقليم[٤٩]، وإن ظهر – بمرور الوقت – جناح متطرف داخل الحزب لم يستطع أن يجمع بين فكرة القومية المصرية وفكرة الجامعة الاسلامية، ونظر هذا الاتجاه إلى أن دعوة

الجامعة الاسلامية هدفها الأسمى هو رد مصر إلى التبعية العثمانية، إذ غلب على ذلك الاتجاه الولاء للخلافة العثمانية فكان فكرهم يخلو من فكرة وطنية مصرية[٥٠]، وقد تطرفوا إلى حد المناداة (مصر للعثمانيين)، وقد مثل ذلك الجناح من الحزب - كما سبقت الأشارة - الشيخ عبد العزيز جاويش ومن ثم سوف ننبذ ذلك الاتجاه جانباً لنركز على الجناح الذى دعا إلى "مصر للمصريين".

كان محمد فريد على رأس الجناح الأخير من الحزب، إذ اتبع نفس سياسة مؤسسه حيث لم ير ثمة تناقض بين الفكرة الوطنية والفكرة الدينية، رافعاً شعار "مصر للمصريين " فى ظل الخلافة الإسلامية، حيث أشار فى مذكراته إلى القول: {أن لا خلاص لمصر من إستيلاء الانجليز عليها إلا بتقوية عرى التبعية للدولة العلية}، ورغم إدراكه عدم قدرة الدولة العلية على إيجاد حل مناسب لحل المسألة المصرية إلا أنه أكد على التمسك بتبعيتها صونا لها من أن تبتلعها إنجلترا صفقة واحدة[٥١].

ولقد ساهم محمد فريد بدوره فى إنعاش الحركة المصرية التى وجهها ضد الخديو والاحتلال معاً، وقد أرجعها البعض إلى سياسة الوفاق التى ظهرت بين الخديو وسلطات الاحتلال[٥٢]، على أية حال لقد خالف بذلك سياسة سلفه فى الارتباط بالخديوية فى بعض مراحل نضاله ولعل ذلك كان نابعاً من كون مصطفى كامل قد نشأ فى طبقة اجتماعية متوسطة، الأمر الذى صعّب عليه الحصول على تلك المبالغ الطائلة التى يتطلبها العمل الوطنى، ومن ثم فقد اعتمد على الخديو عباس فى إمداده بهذه الأموال مما خلق نوعاً من العلاقة الخاصة بين الرجلين، أما محمد فريد بحكم انتمائه لطبقة كبار ملاك الأراضى فلم تخلق مثل هذه العلاقة بينه وبين الخديو، وفوق هذا فعندما سعى الخديو لإيجاد علاقة مشابهة معه رفض محمد فريد بإصرار، وهذا ما دعا البعض إلى القول بأن الزعامة القديمة للحزب الوطنى تمثل [المرونة السياسية] أما الزعامة الجديدة فكانت تمثل [الصلابة العقائدية][٥٣].

وعلى الجانب الآخر يحمد لمحمد فريد أنه حافظ على الهوية الوطنية المصرية عندما بدأ ينأى بالحزب الوطنى رويداً رويداً بعيداً عن الالتصاق بالدولة العثمانية والمناداة بالقول: {أننا مصريون قبل كل شئ}، وإن كان ذلك على أثر الانقلاب الدستورى فى الدولة العثمانية الذى كان وراء تقوية الاتجاه المصرى(٥٤) حيث وجه بفضله الاتحاديون حركتهم اتجاهاً وطنياً بعيداً عن التمسك بالاتجاه الإسلامى، وقد انعكس ذلك أيضاً فى وجهة نظر الاتحاديين إلى "الحزب الوطنى" الذى اعتبر من وجهة نظرهم حزباً مكروهاً(٥٥)، وقد حاول رجال "الحزب الوطنى" من جانبهم التمسك بعلائق المحبة وانتظار الخير من الدولة العثمانية(٥٦) فى الوقت الذى كان فيه رجال الدولة العثمانية يظهرون امتعاضهم من "الحزب الوطنى" فى مناسبات عديدة(٥٧)، بل والأكثر من ذلك مهاجمتهم لفريد نفسه فى التمسك بشعار "مصر للمصريين"(٥٨)، ذلك الشعار الذى حمله فى عقله وعلى صدره فى صورة دبوس مكتوب عليه ذلك الشعار خاصة فى المحافل الدولية التى كان يتردد عليها لنصرة القضية المصرية(٥٩).

وقد استمرت صحف "الحزب الوطنى" بين وقت وآخر تبرز مطلب الحزب الوطنى فى الاستقلال كما قررته معاهدة لندن عام ١٨٤٠، واعتبرت الحزب معتدلاً فى مطلبه هذا ولو أنه كان متطرفاً لطلب الاستقلال التام(٦٠)، وصارت تلك الصحف على ترديد النغمة المؤيدة لحركة الجامعة الإسلامية تحت لواء السلطان العثمانى(٦١)، وقد انتهزت صحف الحزب فرصة العدوان الإيطالى على طرابلس الغرب عام ١٩١١ لتسرع لتكون على رأس المشايعين لنصرة الدولة العلية فى جهادها ضد أعداء الإسلام، على الرغم من أن سلطات الاحتلال لم تسمح بأكثر من التأييد فى أبسط صوره الذى اقتصر على جمع التبرعات لمعاونة دولة الخلافة الإسلامية(٦٢)، وهكذا لم يعر رجالات "الحزب الوطنى" أدنى اهتمام بالحفاظ على الروح الاستقلالية للأمة المصرية وحماية الجامعة الوطنية غير مبالين بأن ذلك الميل يزيدهم تعلقاً ولو على المستوى المعنوى بفكرة السيادة العثمانية على الدولة

المصرية، حيث أن تلك السياسة كانت هى أحد مبادئ الحزب الوطنى كما سبق القول.

وبناء على ما سبق يتضح لنا تلك السياسة التى استمر يتبعها الحزب الوطنى فى العمل على تحقيق "مصر للمصريين" تخلصاً من الاحتلال البريطانى وتمسكاً بالتبعية للدولة العلية.

ولقد شهدت الفترة منذ مغادرة محمد فريد مصر فى ٢٦ مارس ١٩١٢ وحتى قيام الحرب العالمية الأولى نشاطاً ملحوظاً للحزب الوطنى سواء بالعمل السرى فى الداخل، عن طريق تلك الجمعيات السرية التى أعتبرها البعض خطوة هامة ولازمة فى تاريخ العمل الوطنى المصرى[٦٣]، أو فى الخارج حرصاً من محمد فريد على استمرارية مجهوداته فى هذا المجال، حيث فضل الوطنيون السفر لتنظيم الطلبة المصريين فى أوربا، ومن خلال عدة سنوات عقدت المؤتمرات المصرية فى المدن الأوربية، وقد عنى بأمر هؤلاء السياسيين والأجانب والصحفيين والعلماء[٦٤]، وهكذا قويت حركة الطلبة المصريين فى أوربا واستمرت جذوة الروح الوطنية مشتعلة بين المصريين[٦٥] إذ كان محمد فريد يهدف إلى الحفاظ على روح النضال الوطنى بين الشباب المصرى فى الخارج من ناحية، وساعياً إلى مواصلة العمل على تحقيق استقلال مصر من جهة أخرى، ومن ثم نجح محمد فريد – إلى حد ما – فى إظهار الأمة المصرية أمام العالم الأوربى بأنها صاحبة حق تسعى لتحقيق استقلالها، وهكذا كان مرآة معبرة عن أمانى وآمال الأمة المصرية فى الخارج.

صفوة القول بالرغم من أن موقف الحزب الوطنى من فكرة الوطنية المصرية كان ضعيفاً فى مجال العمل للنهوض بالفكرة الوطنية خالصة من أية شوائب دينية تربطها بفكرة الجامعة الإسلامية أو تلزم عليها استمرارية التبعية للدولة العثمانية، إلا أنه برجاله ومواقفه لنصرة القضية المصرية فى الداخل

والخارج والعمل على تحقيق الجلاء والاستقلال - ذلك الاستقلال المؤدى إلى الحكم الذاتي - استطاع الحزب الوطنى أن يحافظ على جذوة الروح الوطنية مشتعلة فى نفوس قطاعات عريضة من الشعب المصرى، تلك النفوس التى كانت فى حقيقتها مؤمنة أشد الايمان بالحفاظ على روابط التبعية العثمانية رمز الرابطة الدينية ومن وجهة نظرهم، وهكذا اتفقت مبادئ الحزب مع الاتجاه العام الذى يغلب عليه الصبغة الدينية، وإن كان بعضه لا يرى ثمة غضاضة بين الحفاظ على "مصر للمصريين" جنباً إلى جنب مع الحفاظ على "التبعية الدينية" للدولة العثمانية، ومن ثم امتزجت الفكرة الوطنية بالفكرة الإسلامية فى مخيلة المصريين من أنصار الحزب الوطنى.

على أية حال لقد ترك الحزب الوطنى بصمات واضحة على تاريخ الحركة الوطنية المصرية أكثر من كونه قد ترك أثراً مباشراً فى تطور فكرة الوطنية المصرية.

٢ - حزب الأمة :

مثل حزب الأمة باتجاهه المعتدل ونزعته الوطنية استجابة منطقية لتطورات المسرح السياسى المصرى عشية ظهوره، وتمشياً مع رغبات فئة بعينها، ونتاجاً طبيعياً لثقافة أوربية حديثة(٦٦)، وإفرازاً لتشجيع معتمد السلطة البريطانية فى مصر(٦٧)، وأخيراً نواة لمدرسة فكرية ترجع بأصولها للإمام محمد عبده، الذى دعم وجودها ليصبح رجالها هم "الجيروند" وإن شئت فقل "المعتدلون" للحركة الوطنية المصرية، الساعين إلى خلق مصر المستقلة(٦٨) الذين رأوا أن جماعة اللواء أضرت ضرراً شديداً بالحركة الوطنية المصرية، بل وإضراراً بمركزهم هم إذا ما انخرطوا فى تيارهم(٦٩) وهكذا كان حزب الأمة مكوناً من الوطنيين المعتدلين(٧٠).

فالمعلوم أن الإمام محمد عبده غلب عليه الاعتدال الذى كان يتناسب مع طبيعته، إلى حد جعله يهادن سلطات الاحتلال فى الوقت الذى هاجم فيه السلطان عبد الحميد وسياسته الداعية إلى جامعة إسلامية فى بعدها السياسى مستنكراً إمكانية تحقيق ذلك الجانب من تلك الدعوة، إلا أنه لم ينف أهمية الحفاظ عليها فى بعدها الدينى الذى يعتبر سياجا يحمى سلطان الدين لدى المسلمين، وتمشيا مع ذلك المنطلق أعتبر حزب الأمة مساهما ومكملا لفكرة الوطنية المصرية بإعتباره نأى بنفسه عن تأييد فكرة الجامعة الإسلامية بل وأنكر وجودها(٧١)، وان كانت ما تزال مطروحة على المسرح السياسى المصرى، إلا أنها قد خبت بعض الشئ أمام تصاعد التيار الوطنى الداعى الى "مصر للمصريين"، ومن ثم أنطلق رجالات الحزب الوطنيين فى إبراز كل ما هو مصرى مؤكدين على الجامعة الوطنية المصرية التى يستظل بظلها أبناء الوطن(٧٢)، وهكذا استطاعت تلك الصفوة أن تحجم فكرة الجامعة الإسلامية وتصيغها فى قالب دينى صرف لا يتعارض مع النمو الطبيعى لفكرة القومية المصرية.

كان على رأس كتاب ومفكرى حزب الأمة أحمد لطفى السيد الذى اعتبر ضمن سلسلة المفكرين المصريين الذى عنوا بتحديد الوطن المصرى وإبراز الهوية الوطنية المصرية والتأكيد على "مصر للمصريين" العاملين على تأصيل الروح الوطنية وتأكيد الشخصية المصرية، والايمان بوجود أمة مصرية منفصلة(٧٣)، وبهذا إنفرد عن مثقفى فترة ما بعد الاحتلال البريطانى باسهاماته الايجابية فى بلورة فكرة "القومية المصرية"، وان كنا لا نستطيع أن نتغاضى عن موقفه من فكرة الجنسية المصرية – كما سبقت الاشارة – التى جعلها مشاعاً لكل من يقطن أرض مصر، وان خالفت سياسة الجريدة موقفه هذا عندما قصرت الجنسية على ذوات الأصول التركية والعربية والقبطية المكونين للقومية المصرية(٧٤)، وإن أستطاع أحمد لطفى السيد فى فترة لاحقة أن يتخلى عن فكرته السابقة عندما أكد على {أن المصريين هم أهل هذا القطر المصرى الأصليون وكل

عثماني أقام فيه على سبيل الفرار واتخذه وطنا له دون غيره من الأوطان العثمانية الأخرى، خالصا إلى أن {مصريتنا تقضي علينا أن يكون وطننا هو قبلتنا لا نوجه وجهنا شطر غيره}(٧٥).

وتمشيا مع ذلك أتخذ مبدأ "مصر للمصريين" صيغة قومية للمصريين(٧٦)، مؤكدا على الانتماء المصرى للوطن فى قوله: {نحن المصريين نحب بلادنا ولا نقبل مطلقا أن ننسب الى وطن غير مصر، مهما كانت أصولنا حجازية أو بربرية أو تركية أو شركسية أو سورية أو رومية}، مبشرا بأن القومية المصرية سوف تستأثر فى عهد قريب بقلوب المصريين، وفوق هذا حدد المصرى بأنه لا يعرف وطنا آخر غير مصر(٧٧).

وفى محاولة منه لإبراز هوية الأمة المصرية أكد من خلال قراءة التاريخ المصرى القديم على جذور الأمة المصرية، وقد انعكس ذلك فى قوله : {ليست أمتنا فى هذا الحاضر ذات وجود مستقل عن أمتنا الماضية، ولكن الأمة كل واحد غير منقسم وغير قابل للتجزئة}(٧٨)، وهكذا اتخذ من البعد التاريخى للأمة تعبيرا عن القومية المصرية وأحد مقومات قيامها(٧٩)، بما يمكن اعتباره قمة النضج لفكرة القومية المصرية التى سلخ عنها الدين برفضة لفكرة الجامعة الإسلامية والأفكار العثمانية التى كانت شائعة في مصر فى ذلك الوقت(٨٠) حيث قال : {... ولابد لذلك من أن يربى فى الأمة معنى القومية المصرية. إن أول معنى للقومية المصرية هو تحديد الوطنية المصرية والاحتفاظ بها والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه والإنجليزى على قوميته لا أن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يسمى خطأ بالجامعة الإسلامية}(٨١)، وبتأكيده على الوحدة الوطنية والرابطة الجنسية – كما سبقت الاشارة – وها هنا يتخذ من التاريخ مقوماً لقيام الأمة المصرية.

يمكن القول أن ثمة تزامن تاريخى لنمو فكرة الوطنية المصرية، فإذا نظرنا إلى فترة ما قبل الاحتلال البريطانى نجد أن وطنيى تلك الفترة قد ساهموا بشكل

غير مباشر فى دفع الفكرة الوطنية خطوات إلى الأمام، حتى جاء تبلورها على يد أحمد لطفي السيد فى محاولة منه للدعوة إلى القومية المصرية.

وهكذا كان الفكر المصرى والفرد المصرى يستقبلان معانى جديدة عليه، ومن ثم لعب لطفى السيد دروا إيجابياً فى إعداد الشخصية المصرية القادرة على العودة إلى ذاتها التى فقدتها(٨٢)، لبعض الوقت وليس كل الوقت بسبب عدة عوامل خارجة عن إرادتها.

وقد ذهب البعض إلى اعتبار لطفى السيد مفكراً وضع نظرية متكاملة عن الأمة المصرية وقام بالدعوة إلى القومية المصرية مبيناً مضمونها ومراحل تكوينها والقاعدة المبنية عليها وقد حولها من مجرد وطنية عند الطهطاوى إلى فكرة قائمة بذاتها(٨٣)، وهذا ما نقبل وصفه فى ضوء النظر إلى إسهامات الذين سبقوه فى وضع لبنات بناء القومية المصرية.

وعلى الجانب الآخر وكما اعتنق حزب الأمة وفى طليعته أحمد لطفى السيد سياسات الإمام محمد عبده تجاه الدولة العثمانية ورث أيضاً منه موقفه تجاه الأريكة الخديوية فقد كان معروف عن الحزب كراهيته لطغيان السراى وسعيه فى منع استبدادها والحد من سلطتها(٨٤). فمن المعلوم أن الأمام محمد عبده يضمر عداءً لأسرة محمد على - كما سبقت الإشارة - وعلى هذا المنوال صارت نظرة أحمد لطفى السيد وحزب الأمة، وان لم تكن نظرة عدائية للأسرة بأكملها بقدر ما عبرت عن موقفها من سياسات الخديو عباس آنذاك، فمن وجهة نظره يعد السلطان العثمانى والخديو المصرى - التركى أجانب عن مصر كما هو الحال بالنسبة للاحتلال البريطانى، ومن ثم فإن الاستقلال الحقيقى لا يتأتى بالاتحاد مع الدولة العثمانية، أو بالدخول فى بعض اتحادات الجامعة الإسلامية الوهمية(٨٥).

ومن جانبه بادل الخديو عباس حلمى الثانى حزب الأمة نفس النظرة العدائية، ويرجع السبب فى ذلك إلى عدة أمور:

أولها : لقد أخذ فى اعتباره كون حزب الأمة قد مثل جماعة الإمام محمد عبده المناوئة لسياسته.

ثانيها : ناهيك عن رغبة رجالات حزب الأمة - خاصة طبقة الأعيان - فى توسيع نطاق مشاركتهم فى السلطة، أدى بهم الى الاحتكاك بالخديو، أما الجناح المثقف بالثقافة الأوربية فقد أزعج الخديو تشبعه بالمبادئ الحديثة التى يخشى من انتشارها بما يمس سلطته(٨٦).

ثالثها : إحراز حزب الأمة مكانة مفضلة لدى دار المعتمد البريطانى، ولعبه دوراً مؤثراً وفعالا فى إدارة اللورد كرومر الذى طمح لاقامة حكومة جيدة على أساس اقتصادى متين(٨٧)، مما جعله محط تخوف الخديو فى إتفاق السلطة الفعلية مع ممثلى الطبقة الأرستقراطية التى وجدت نفسها تحرز مكانة تسمح لها بالقيادة السياسية داخل البلد.

رابعها : احتضان الأميرة نازلى فاضل، سليلة أسرة محمد على، لمعظم رجالات الحزب وعلى رأسهم الأب الروحى لهم الإمام محمد عبده داخل صالونها الأدبى، الذى ساعد على ترويج الأفكار الغربية بعد تطويعها من خلال المصريين الذين ترددوا على هذا الصالون، وما تركته تلك اللقاءات من أثر على أفكار العديد من المصريين من أمثال سعد زغلول الذى قبل التعامل مع الانجليز ووجد فيهم القوة لمحاربة سلطة الخديو(٨٨)، وقد انعكس ذلك كله على سياسات الخديو الحذرة تجاه الحزب فى صورته التعاونية تلك، فالمعلوم أن الأميرة نازلى كانت مناوئة للخديو(٨٩)، مما دفعها لمناصرة رجالات الاحتلال البريطانى على هذا الشكل.

وعلى الجانب الآخر خالف حزب الأمة الحزبين السابقين حيث لم تضم مبادئه ولاء للسلطة الشرعية كما كان حال الحزب الوطنى وحزب الاصلاح، ولقد كانت المبادئ الستة التى وضعها الحزب بوجه عام، برنامجاً اصلاحياً أكثر من كونه سياسياً، أى نفس سياسة الأمام الداعية الى الاصلاح بالتدريج، وكانت نفس سياسة على مبارك فى الاعتدال.

وهكذا غض الحزب الطرف عن تحديد العلاقات ليس فقط مع السلطة الشرعية بل كذلك الفعلية، اذ لم يحدد موقفه من مسألة الجلاء والاستقلال، وإن كان البعض(٩٠) قد أعتبر حزب الأمة لم ينحرف عن أهدافه النهائية المتمثلة فى المطالبة بالأستقلال، ولم ير ثمة غضاضة فى أن تستعد البلاد لتلك الخطوة فى ظل وجود القوة المحتلة، وكذا عدم تطرقه بالاشارة الى علاقة مصر بالدولة العلية(٩١)، وإن كان ذلك على المستوى النظرى، وأما على المستوى العملى فقد تعامل مع كل طرف وفق مبدأ معين لم يكتب على الورق، فبالنسبة للخديو كانت العلاقات بينه وبين الحزب بالاضافة الى أنها حملت ملامح عدائية، إلا أنها تقلبت فى بعض الأحيان بين شد وجذب وفق ما تمليه أوضاع المسرح السياسى المصرى.

وفيما يتعلق بمسألتى الاستقلال والجلاء فقد عبر عنهما أحمد لطفى السيد أشد تعبير عندما أعلن أن الحزب يطالب بالاستقلال التام، مما اعتبره البعض خروجاً على الباب العالى صاحب السيادة الرسمية على مصر، مما جعل لطفى السيد يتراجع ليؤكد أنه استقلال تام (الاوتونومى) وليس كاملاً (الا يندباندانس) أى استقلالاً تاماً تحت سيادة الباب العالى، كاملاً بالنسبة لجميع الدول الأخرى(٩٢)، وقد روى تلك الواقعة لطفى السيد بأسف شديد بأنه لم يطالب بالاستقلال الكامل الذى كان أشمل من الاستقلال التام(٩٣)، وإن نخرج بتأييد بعض الآراء التى أكدت رغبة حزب الأمة إلى الاستقلال عن كلٍ من الدولة

العثمانية وبريطانيا[٩٤]، وإن كان بتوضيحه ذاك قد حصر نفسه مرة أخرى في دائرة الاستقلال التام في اطار السيادة العثمانية كما كان الحال عند الحزبين قولاً وليس فعلاً، ومن ثم نظر البعض الى برامج حزبي الأمة والوطني على أنهما متشابهان بشكل كبير حيث أن كليهما قد أعلنا عن هدفه الرامي إلى الاستقلال الوطني التام[٩٥]، وفي الحقيقة أننا نميل مع الرأي القائل بأن لطفي السيد ورجال حزب الأمة تخوفوا في ذلك الوقت من كسر "حائط الواقع" الذي كان في نفس الوقت أصلب من أن يكسروه فالمشاعر العامة كانت مع الدولة العثمانية[٩٦].

رغم أن علاقة لطفي السيد بالدولة العلية تتسم بالنفور الشديد من التعلق السياسي بها تعتبر دليلاً قوياً على المبادئ النظرية التي آمن بها حزب الأمة في ضرورة الانسلاخ عن تلك الدولة، انسلاخاً يؤدي إلى استقلال كامل للقطر المصري، إيماناً من لطفي السيد برفض كل المفاهيم الوطنية المؤسسة على العقيدة، وقد اعتبر البعض رفضه لمبدأ الجامعة الاسلامية في مواجهة التعاطف الشعبي الشهير تجاهها ليس مجرد تحول نظري جذري ولكن عمل يتسم بشجاعة أخلاقية كبرى[٩٧]، فقد وضعته الظروف في موضع غريب بعض الشئ كوطني ليبرالي يجب أن يدافع عن فكرة القومية المصرية ليس فقط ضد النقاد الغربيين، بل كذلك ضد المصريين الذين يرفضون المفهوم، ومن ثم كانت مهمته التي حملها على عاتقه في الصحافة هي المشاركة في خلق "الأمة"، وقد أدرك أنه لن يتم له ذلك إلا بإنكاره لأي وجود للجامعة الاسلامية كقوة في القرن العشرين، وهذا ما فعله وأكد عليه أمام الصحف الأجنبية[٩٨]، والمصرية على حد سواء.

إلا أن الولاء الديني للدولة العلية قد غلب على رجال الأمة في مواقف بعينها حيث أظهرت تلك المواقف النزعة الاسلامية تجاه دولة الخلافة، ولنأخذ الحرب الطرابلسية ١٩١١ دليلا على ذلك، حيث مال رجالات الحزب نحو تأييد ومناصرة الدولة العلية[٩٩]، في الوقت الذي وقف فيه لطفي السيد موقفاً منفرداً تجاه تلك الحرب كما سبق القول*.

وعلى الرغم من أن ثورة تركيا الفتاة ١٩٠٨ قد هيأت لرجال الحزب المناخ المناسب لتنمية فكرة الوطنية المصرية[١٠٠]، التى كانت أحد مبادئهم غير المعلنة، وقد ظهر ذلك جلياً فى قيام لطفى السيد بدحض فكرة المنادين بإيفاد نواب من أبناء الوطن المصرى فى مجلس المبعوثان، بل هاجم بشدة الاقتراح وكرر فى أنه يأمل فى التخلص من السيادة العثمانية[١٠١]، وقد علق بقدر من الحكمة إذ قال : {إن الحكومة التركية تعتبر مصرنا رأسا، فهل يكبر أن نعتبرها نحن ذنباً؟ أم هل يستوى الرأس والذنب؟ أم هل يستوى السيد والمسود؟}[١٠٢] في محاولة منه لانضاج الرأى العام المصرى على حقيقة مؤداها أن على المصرى أن يحافظ على حقوقه وامتيازاته التى نعم بها وحققت له قدراً من الاستقلال الداخلى، ليكون ذلك الاستمساك خطوة لتحقيق الاستقلال المنشود، إلا أنه مع ذلك نرصد لحزب الأمة ذلك التراجع أمام المضمون الدينى الذى اشتملت عليه تلك الحرب، وإسقاطا لمبادئ الوطنية التى حرص على نشرها على صفحات الجريدة لسان حال الحزب.

تقودنا المواقف المتباينة فى بعض الأحيان داخل حزب الأمة الى حقيقة مؤداها وجود هوة ثقافية بين طبقة الأعيان داخل الحزب وبين فئه المثقفين المصريين المتشبعين بالفكر والثقافة الأوربيين، والذين مثلوا اتجاهاً علمانياً استطاع أن يقود تيار الفكر الوطنى خطوات إلى الأمام[١٠٣]، ومن ثم مثل لطفى السيد وأنصاره تياراً فكرياً داخل حزب الأمة قائم على إيمانهم المطلق بتحديث الوطن المصرى تحديثاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً[١٠٤]، دون إبداء أدنى التزام لوجود الرابطة الروحية التى تضم مسلمى العالم فى بوتقة واحدة، وفوق هذا كان مجتمع الجامعة الإسلامية فى مخيلتهم يمثل مظهران محتملان الدينى والسياسى، وقد رأوا أن المظهر السياسى لم يوجد فى وقت من الأوقات ولن يوجد، معولين على وجود رباط موحد بين الأمم الإسلامية، واعتبروا تلك الفئة فى صالح المسلمين، لأنه لو كان على الآخرين "أن يوجدوا مجتمع الجامعة الاسلامية بالمعنى السياسى، فالأخرون أى {السلطات المسيحية} ستوجد مجتمع الجامعة

المسيحية[١٠٥]ومن ثم فإن رفضهم التعلق بتلك الرابطة الروحية، مع عدم الاعتراف بالرابطة السياسية سهل لهم لعب دور ايجابى فى بلورة فكرة "القومية المصرية"، فى الوقت الذى نأت فيه طبقة الأعيان داخل الحزب عن مسار تطور الفكر المصرى الحديث بفعل عوامل أملت عليها توجهاتها، سواء كانت تلك نابعة من المستوى الثقافى لتلك الطبقة، أم كونها نابعة من مصالح بعينها، باعتبارهم يمثلون كبار ملاك الأراضى الزراعية وكبار التجار والمشايخ، وإن شئت فقل "أصحاب المصالح الحقيقة"، الذين لم يتجاوز تفكيرهم السياسى حد مصالحهم الشخصية ولم يرتفع هدفهم عن هذه المصالح، ولم يكونوا ليفهموا تماماً ما أنطوت عليه اتجاهات الجريدة الناطقة باسمهم أو حتى يعطفون على القضايا التى كان يدافع عنها أحمد لطفى السيد رئيس تحريرها[١٠٦]، ولهذا نقبل وصف حزب الأمة بأنه {يمثل طبقياً طموحات الأرستقراطية المصرية، ولكنه فى نفس الوقت كان على صعيد الفكر أكثر تقدما من ايدلوچيات بعض الشرائح المتوسطة من البرجوازية المصرية}[١٠٧].

يكمن أهمية ذلك التوصيف الذى درج على استخدامه جماعة الجريدة لأنفسهم «أصحاب المصالح الحقيقية» فى كونه توصيفاً يحمل مدلولاً اجتماعياً يسبق المدلول السياسى له، وهذا ما استخدمه لطفى السيد فى توصيف (أعيان البلاد ورؤسائها)، ذلك التعبير الذى أتخذه معلم الأجيال لوأد الحجة التى كانت تتذرع بها سلطات الاحتلال طول الوقت وهى أن الحركة المناهضة للاحتلال يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقية فى البلاد، وقبولنا لهذا التفسير لا يمنع من القول بأن حزب الأمة ليس وحده هو الذى جمع أعيان البلاد ورؤسائها، وهذا القول الذى ذهب إليه البعض أكد على أن الحزب الوطنى قد جاراه فى هذا، وقد ظهر ذلك جليا فى تركيبة لجنة الحزب الوطنى الادارية وكذا لجنته التنفيذية[١٠٨].

يقودنا ذلك إلى توضيح المدلول السياسى. «لأصحاب المصالح الحقيقية»، حيث كان غالبية هؤلاء موجدين فى السلطة سواء فى الوزارة أو فى المناصب الكبيرة فى الأقاليم، وكذا فى المجالس النيابية خلاله، وفى الواقع فإننا نؤيد الرأى القائل بأن رؤية هؤلاء لمسار العمل الوطنى تكون مختلفة، من منطلق أن درجة القرب من دوائر صنع القرار يتيح فرصه الألمام بكل ما يجرى فيها، ومن ثم يكون إتخاذهم للمواقف السياسية أقل تشدداً من تلك المواقف التى يتخذها البعيدون عن تلك الدوائر(١٠٩).

وفى الواقع فإن حزب الأمة بتياريه السياسى والفكرى استطاع أن يجذب العناصر المكونة للأمة المصرية تحت عباءته بدفاعه عن البديهية الواضحة وهى أن "مصر للمصريين"، فقد اتفق رجالات الحزب على غاية واحدة وهى أن المصلحة الحقيقية للوطن فى تخلصه من الإنجليز والخديو معاً بإعتبارهما شراً على مصر والمصريين(١١٠)، مما أدى إلى خلق تيار داخل المجتمع المصرى لم يعرف غير الوطنية الجديدة التى أساسها "مصر للمصريين"(١١١).

وقد انتقد البعض(١١٢) النزعة (المصرية) لحزب الأمة بإعتبارها افرازاً طبيعياً للسياسة التى رسمتها بريطانيا للقطر المصرى سياسياً وفكرياً، ونحن نتحفظ على ذلك القول، وإن كنا نضيف إليه ثمة نقطة أخرى تعتبر من وجهة نظرنا أكثر ملائمة لواقع الحال، إلا وهى أن غالبية الممثلين لتيار الفكر الوطنى أمثال لطفى السيد وأحمد فتحى زغلول وقاسم أمين ومحمد حسين هيكل وغيرهم أكملوا تعليمهم فى جامعات أوربا، ومن ثم تشبعوا بالفكر الغربى وتطلعوا الى الأستفادة من الحضارة الأوربية الحديثة، فكانوا أستجابة منطقية للثقافة الأوربية الحديثة، ومن هنا جعلوا جل همهم تحديث وتمدين مجتمعهم ليواكب تلك الحضارة الحديثة، ومن ثم أتخذوا من ثقافتهم العصرية نقطة إنطلاقة للعب دور فعال فى إصلاح المجتمع المصرى ولهذا كانوا أقرب حالاً من فكرة "القومية

المصرية" وأكثر حرصاً على الحفاظ على الهوية الوطنية المصرية، وهذا ما نقبل وصفه بأن هذه الطبقة داخل حزب الأمة كانت تمضى فى سياسة قوامها تنمية مصالحها والوقوف فى وجه أية اجراءات قد تمس مصالحهم من بعيد أو قريب[١١٣].

وقد أفرز ذلك التوجه الغربى تبنى حزب الأمة لفكرة تنظيم العلاقة مع بريطانيا فى اطار حكم ذاتى كخطوة أولى لحين استكمال تقدمهم ورقيهم اللازمين لتحقيق حكم أنفسهم بأنفسهم ومن ثم نظروا إلى الجلاء كمطلب غير عاجل آنذاك[١١٤]، وفوق هذا توج أحمد لطفى السيد مجهوداته النظرية لخلق وطن مستقل إلى شكل عملى فى مطالبته عقب إعلان دخول إنجلترا الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، بإعتراف إنجلترا بالاستقلال المصرى، وتنصيب الخديو ملكاً على مصر بإعتراف إنجلترا، ولكن مع عدم التفات الجانب البريطانى للاقتراحات المصرية قدم لطفى السيد استقالته "للجريدة" وفى مخيلته اعتزاله الحياة السياسية كما أورد ذلك فى مذكراته[١١٥]، هذا بالاضافة إلى أن مقالاته الأخيرة على صفحات الجريدة تساند مطلبه هذا المدعم بالتأييد المعنوى والمادى لحفظ مركز إنجلترا أثناء الحرب، وأظهرت تكاتفاً فى نصرة بريطانيا العظمى آملين فى تحقيق آمالهم القومية على ثقة انجلترا وصداقتها[١١٦]، وهكذا رأوا أنهم مالوا الى جانب المنفعة التى تعود عليهم باستقلال وطنهم.

وفى النهاية وإيماناً منا بالدور المحورى الذى لعبه لطفى السيد داخل حزب الأمة، وفى رئاسة صحيفة "الجريدة"، يجعلنا نسوق عدة دلائل تضع الرجل وفكره فى موضعه الصحيح، اذ يعد لطفى السيد من خلال مقارنته بمن سبقه أحد الرموز الفكرية التي تولدت عن الاحتكاك بالحضارة الأوربية الحديثة، تلك التى ساهمت فى تكوينه الثقافى الذى إنعكس بالتالى على تكوينه لتيار وطنى أملى عليه تشبعه بالثقافة الأوربية الحديثة اتجاهه ونزعته الوطنية، فأخذ يبرز كل ما

من شـأنه أن يسـهم فى تمدين وتحـديث الوطن المصـرى بما يواكب مـتطلبـات عصره، دون مغالاة بالنقل عن الغرب بل وقف تياراً فاحصاً مدققاً ناقداً، ليختار ما يتناسب مع ظروف الوطن المصرى.

ولقد استطاع لطفى السيد بكل مهارة القائد أن يجعل تيار الوطنية المصرية يشق طريقه وسط الأمواج العالية التى فرضتها فكرة الجامعة الإسلامية على محيط القطر المصرى، ليساعد فى خلق هوية محددة المعالم للأمة المصرية، وفوق هذا كله سعيه لتأصيل الروح الوطنية بجعل "مصر للمصريين" صيغة قومية، ومن ثم سلك عدة طرق على صفحات جريدته فى محاولة منه لتنمية مدارك أبناء القطر المصرى، وتوعيته بذاتيته ووجوده واستقلاليته، ليكون رأياً عاماً قادراً على استيعاب كم المتغيرات التى ألمت بالمجتمع المصرى، ومن هنا كان حديثه موجهاً إلى الشبيبة المصرية شارحاً لهم معانى الحرية والاستقلال والدستور مستفيضاً فى شرح الوطن والوطنية جانحاً بقطاع كبير منهم نحو الاعتدال فى مسلكهم نابذاً من عقولهم الاعتماد على أساليب القوة والعنف فى تحقيق أهدافهم[١١٧]، محاولاً إفهامهم أن على المصرى فى هذا الدور هو العمل لتربية أمته داخلياً تحقيقاً للاستقلال المنشود ولا يحدث ذلك إلا بالتمسك بالوطنية الصادقة التى هى العمل والقول معاً[١١٨].

أمام هذه المجهودات فى مجال الفكر الوطنى المصرى يمكن اعتبار لطفى السيد قريب الشبه برفاعه رافع الطهطاوى فى بحث كلاهما عن تحديد معانى الوطن والوطنية والبحث عن هوية خاصة للأمة المصرية، مع الأخذ فى الاعتبار الفارق الزمنى بينهما وما أحدثه من تراكم مفاهيم وأفكار فى العقلية المصرية من ناحية، وفيما استحدثه الفكر الأوربى الحديث من ناحية أخرى، تلك التى جعلت جيل لطفى السيد يتقدم خطوات أكثر وعيا إلى الأمام فى تحديد الأسلوب المباشر فى طرح أفكارهم وتوجهاتهم.

وقد انفرد لطفى السيد عن رفاعه الطهطاوى فى كونه أدرك شعور عامة الشعب ورصد مشاعرهم آنذاك، وقد أدرك مدى ميلهم لمفهوم الأمة المحمدية اكثر من انجذابهم لمفهوم الأمة المصرية[١١٩]، اما رفاعه الطهطاوى فقد عجز عن أن يعكس لنا مشاعر الشعب المصرى آنذاك نحو أفكار الوطن والوطنية - كما مر بنا- فى الفصل الأول من هذه الدراسة.

ومقارنة بأديب إسحق ويعقوب صنوع نجد ثمة نقاط التقاء فى كونهم قد سعوا لتكوين مجتمع سياسى نابذاً الدين جانباً وهذا ما ظهر فى صورته الجانحة نحو العلمانية - إن جاز التعبير - عند لطفى السيد وتياره، وثمة نقطة أخرى تتعلق بالايمان بنفس مبادئ الامام محمد عبده فى ضرورة التدرج فى الاصلاح ولا يكون طفرة واحدة، وهذا ما ظهر بوضوح فى سياسات حزب الأمة بصفة عامة وعند لطفى السيد بصفة خاصة، مع وجود فارق جوهرى يجب أخذه فى الاعتبار وهو أن الإمام محمد عبده كان يغلب عليه الاتجاه الإسلامى متخذاً من العقيدة مبدءاً هاما فى نظرته الاصلاحية للمجتمع المصرى، إذ أنه - كما سبق القول - كان مصلحاً دينياً واجتماعياً فى آن واحد، أما لطفى السيد فقد كان يغلب عليه الاتجاه الوطنى قبل أى شئ، ومن هنا استطاع أن يسلخ قطاعاً من أبناء مصر من سيطرة الفكرة الدينية ليرتمى بهم فى أحضان فكرة الوطنية المصرية.

كذلك نجد ثمة تقارب وتشابه فى مقدرة كل من عبد الله النديم ولطفى السيد على زعزعة النزعة المقدسة التى كان المصريون ينظرون بها الى الدولة العلية باعتبارها صاحبة السيادة الشرعية عليهم، ومن ثم أسهما فى قطع عُرى الروابط التى كانت تربط مصر بالدولة العثمانية.

كان من الطبيعى أن توجد نقطة خلاف بين فكر لطفى السيد وجمال الدين الأفغانى لكون تشبث الأخير بإحياء روح الإصلاح الثقافى والفكرى فى اطار العقيدة الإسلامية[١٢٠]، حيث كان أحد دعاة الجامعة الإسلامية المخلصين.

وثمة نقطة أخرى تتعلق بتشابه حزب الأمة بحزب أحمد عرابى "الوطنى الاهلى" فى معاداته لسلطة الخديوية والتحفظ تجاه مرامي الدولة العلية، وإن اختلف معه فى مهادنته للاحتلال البريطانى.

كانت تلك النظرة الملقاة على مفكرى ما قبل الاحتلال البريطانى وبين أحد الرموز الفكرية لفترة ما بعد الاحتلال، لتنقلنا إلى تفرد لطفى السيد أيضاً فى هذه الفترة، ففى الوقت الذى انخرط فيه مصطفى كامل بكل قوته فى الحركة الوطنية المصرية مساهما فى إحيائها من رقدتها، لم يستطع أن يكون تياراً فكرياً أو مدرسة فكرية، ويمكن تأييد وجهة النظر القائلة بأن مصطفى كامل يعد مؤسس الوطنية المصرية الحديثة من باب التفكير فى الحركة الوطنية، أما اذا نظرنا إلى الفكر الوطنى فمؤسسه هو لطفى السيد، فرغم كون الأول داعية سياسياً يتشبث بمبادئه باصرار، ودبلوماسي ماهر، وخطيب بارع، وصحفى لامع لكنه لم يكن أبداً مفكراً سياسيا(١٢١). وهذا ما تفرد به لطفى السيد الذى كان أيضاً قيادياً بارزاً داخل حزب الأمة(١٢٢).

ومقارنة بالشيخ على يوسف نجد اتفاقا تاماً يتعلق بوجود الأمة المحمدية كأمة فقط بالمعنى الأولى "للمجتمع الدينى"، واتفقا على انكار وجودها بالمعنى السياسى فى أى وقت(١٢٣)، ومن ثم كان موقفهما الثابت من فكرة الجامعة الإسلامية فى بعدها السياسى، وفيما عدا ذلك كان الشيخ على يوسف على نفس وتيرة مصطفى كامل فى المطالبة بالاستقلال فى إطار الحكم الذاتى، إلى جانب أنه جعل همه فى المطالبة بالدستور، وفوق هذا فإن حزبه، لم يحظ بتأييد طبقى مثل ذلك الذى تمتع به حزب الأمة(١٢٤).

ويمكن إرجاع الفارق فى إسهامات كل من لطفى السيد ومصطفى كامل وعلى يوسف بالنسبة إلى فكرة الوطنية المصرية، إلى عدم وجود أرضية ثقافية مشتركة تجمع بينهم وتتمخض عن ايجاد مدرسة فكرية واحدة، ليس فقط

لاختلاف النشأة والبيئة، فالمعروف أن لطفى السيد كان سليل أسرة تنتمى لطبقة الأعيان، أما مصطفى كامل وعلى يوسف كان انتماؤهما الى الطبقة الوسطى فقد كان مصطفى كامل - على سبيل المثال - ينتمى إلى سلالة من الفلاحين المصريين الأقحاح، وبهذا لم ينتم بأى شكل سواء لطبقة كبار أو حتى متوسطى ملاك الأراضى، الذين يشكلون العمود الفقرى للارستقراطية المصرية آنذاك[١٢٥]، مما أنعكس بالتالى على جذور التكوين الفكرى عند كل واحد منهم، فإذا أعتبرنا الأخيرين احدى الحلقات فى سلسلة حركة الاصلاح الاسلامى التى رأسها الأفغانى وسانده فيها - لبعض الوقت - الإمام محمد عبده، الا أن لطفى السيد يعتبر مكمل لحلقات الفكر المصرى الحديث الذى نهل من مناهل الفكر الأوربى الحديث، وهكذا يحسب عليه عدم اسهامه فى تأجيج سعير الحركة الوطنية كما كان الحال عند مصطفى كامل، وإن كان يحسب له دوره فى التأكيد على الشخصية المصرية، ومن ثم الحفاظ على هوية الأمة المصرية، والتمسك بمبدأ "مصر للمصريين" وبلورة فكرة "القومية المصرية".

صفوة القول، فقد أظهر حزب الأمة تعاطفه مع الوطنيين، وذلك منذ أن اعتادت طبقة الأعيان على إرسال أبنائها إلى المدارس الحكومية، ومع تطور الحركة الوطنية بشكل تصاعدى انخرط هؤلاء الأبناء فيها بشكل متميز ولعبوا دوراً فعالاً، ومن ثم اتخذت الحركة سمة معينة وهذا ما نقبل وصفه بأن نمط الوطنية المصرية فى تلك الفترة بدا كأنها حركة النخبة فقط، مماثلة فى ذلك مع الحركات القومية فى ألمانيا وأوربا الشرقية فى بدايات القرن التاسع عشر[١٢٦].

٣ - حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية:

كون الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد حزباً أطلق عليه حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية والذى أخذ يتشكل فى ظل السياسات السابقة عن القصر[١٢٧]، إذ جعل كل همه مساندة الأريكة الخديوية فى ظل من التبعية

العثمانية، ويتضح ذلك فى المبدأ الأول من مبادئ الحزب الذى نص على تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرمانات الشاهانية لاستقلال مصر الإدارى، وتجب الإشارة إلى أن تلك السياسة لم تكن وليدة حزب الأصلاح حيث أنها كانت سياسة واضحة للشيخ على يوسف ولجريدته المؤيد قبل ذلك بسنوات(١٢٨).

أما نظرته للاحتلال البريطانى كانت في حدود ما تمليه العلاقات السياسية بين القصر وبين السلطات البريطانية، وقد اعتمد الحزب بدوره فى سياسته على تحقيق الاستقلال المصرى على الوفاء بالوعود التى قطعتها بريطانيا على نفسها (المبدأ الثانى)، وهذا ما نقبل وصفه ـ بأن الحزب قد بنى إستراتيچيتة فى المطالبة بالجلاء ـ على الوسائل السلمية(١٢٩).

ونستطيع أن نستشف من اسم هذا الحزب السياسة التى ارتكز عليها فى جهاده وهى المطالبة بحياة نيابية أساسها الدستور، وقد ظهرت تلك السياسة فى المبدأ الثالث الداعى إلى (المطالبة بمجلس نيابى مصرى يكون تام السلطة فيما يتعلق بالمصريين والمصالح المصرية)(١٣٠).

ومن ثم ركز الحزب جهوده فى المطالبة بالدستور وصارت جريدة (المؤيد) لسان حال الحزب تنطق بين الوقت والآخر بتحقيق تلك الأمنية الغالية للأمة المصرية، وقد علا ترديد تلك النغمة خاصة بعد تحقيق الدستور العثمانى وافتتاح مجلس النواب العثمانى، متخذة من ذلك مناسبة لتعديد مزايا الدستور والمطالبة بتحقيقه فى القطر المصرى، بل تمادى الشيخ على يوسف فى مغالاته فى الدعوة التى طرحها لايفاد مبعوثين من القطر المصرى الى البرلمان العثمانى(١٣١)، ضاربا عرض الحائط بالامتيازات التى نعمت بها مصر منذ معاهدة لندن وجعلت من القطر المصرى ولاية تنعم بالحكم الذاتى عن سائر ولايات الدولة العثمانية، بل وتكاد تقترب من مرحلة الاستقلال التام، متجاهلا أن الاقدام على تلك الخطوة

بمثابة ضياع للامتيازات الغالية التى حصلت عليها مصر، وزحزحة لوضع مصر شبه المستقل بالنسبة لولايات الدولة العثمانية الاخرى.

يمكننا القول أن تمسك حزب الإصلاح بتلك المبادئ الدستورية التى جعلها شعاراً لحزبه دفعه فى أن يرتمى فى أحضان الدولة العلية دون أن يشعر بمغبة ذلك على الأمة المصرية، تلك الأمة التى حققت قدراً من استقلاليتها، ولم يستطع أن يفصل بين دعوته لتحقيق الدستور المصرى وبين الانسياق وراء الدستور العثمانى، واهماً نفسه بأن تلك خطوة لا تتعارض مع كيان الأمة المصرية التى تعد من الناحية القانونية دولة تابعة للدولة العثمانية، ومن ثم تتبع متبوعتها فى كل أمورها، وبهذا الاتجاه صار حزب الاصلاح محافظا على عرى الروابط مع الدولة العلية متخطيا فكرة الاستقلال التام ليقف عند حدود الاستقلال المنقوص واذا شئت فقل الحكم الذاتى.

أما فيما يتعلق بفكرة الجامعة الإسلامية فقد استنكر الشيخ على يوسف وجودها من الناحية السياسية، أما وجودها من الناحية الدينية فلا جدال فيه لوجود تلك العقيدة التى تجمع العالم الإسلامى[١٣٢]، ولأنه رأى فى وجودها من هذه الناحية سياجاً يحمى تلك العقيدة، وبهذا نجح الشيخ على يوسف فى إثارة مشاعر التضامن الإسلامى[١٣٣]، ومن ثم لم يكن قلبا مع السلطان العثمانى بالنسبة لفكرة الجامعة الاسلامية كما كان الحال عند مصطفى كامل وأنصار الحزب الوطنى، وتمشيا مع ذلك يمكن القول بأن سياسته المستندة على هيبة الخليفة فى بعض الأوقات لا يمكن وصفها بأنها كانت عثمانية أو إسلامية بشكل خاص، فلم يكن الشيخ على يوسف بشهادة معاصريه رجلاً تركياً بل كان مصرياً قبل أى شئ[١٢٤].

وقد ذهب البعض[١٣٥] إلى القول بأن الشيخ على يوسف مزج بين الفكرة العربية والإسلامية بل ذهب إلى حد الاشتغال بمسألة الخلافة العربية، مستندين

فى ذلك الى فتح أبواب جريدة (المؤيد) لسان حال الحزب أمام الكّتاب العرب المؤيدين للفكرة العربية أمثال چورچى زيدان، عبد الرحمن الكواكبى، وإن أكد الخديو عباس فى مذكراته أن الشيخ على يوسف لم يخضع لاغراء الاتجاه العربى وبريقه[١٣٦]، وإذا دققنا النظر فى سياسة حزب الاصلاح تجاه الدولة العلية ومساندتها لفكرة الجامعة الاسلامية نستطيع أن نؤيد الرأى السابق، حيث نهجت جريدة "المؤيد" سياسة معادية لفكرة الجامعة الاسلامية بعرضها لمقالات تهاجم الفكرة وتدعو إلى فصل الدين عن الوطنية واعتبار نظرية الجامعة الاسلامية نظرية مضادة للوطنية وعلى المصريين أن يتخيروا بين الوطنية وبين الجامعة الإسلامية[١٣٧].

ومن هذا المنطلق هاجمت جريدة "المؤيد" لسان حال حزب الإصلاح سياسات الحزب الوطنى التى وصفتها بأنها تعبر عن أن (مصر للعثمانيين)، أكثر من كونها ترمى إلى أن (مصر للمصريين)[١٣٨]، متناسية أنها فى بعض مواقفها قد ناصرت الدولة العثمانية - كما سبقت الاشارة - فى موضوع الدستور العثمانى إلى حد جعلها تعبر أيضاً عن ذلك المبدأ الرامى بأن تكون (مصر للعثمانيين).

وبنظرة مدققة إلى حزب الإصلاح نجد تلازماً بين الفكرة الدينية والوطنية فى مخيلة القائمين عليه، فنجد الأولى تتجلى فى مواقف بعينها مثل ذهاب الحزب نفس مسلك الحزب الوطنى تجاه الحرب الطرابلسية عام ١٩١١ مدافعاً عن الدولة العلية ساعياً لنصرتها[١٣٩]، إلى جانب تأسيس الشيخ على يوسف لجمعية الهلال الأحمر فى مصر من أجل خدمة الدولة العلية فى أزمتها[١٤٠]، ولا نستطيع أن نفصل ذلك الموقف عن الفكرة الدينية التى غلفت الشعور العام لدى الحزب وأنصاره، بل وقطاع كبير من الشعب المصرى الذين هبوا المساندة الدولة العلية فى جهادها من منظور دينى.

وعلى الجانب الآخر كانت الفكرة الثانية تنصب فى الاهتمام بمبدأ "مصر للمصريين" حيث كانت تسير جنباً الى جنب مع الفكرة الأولى، دون أدنى تعارض، فأفسحت جريدة "المؤيد" المقالات لتعريف الوطنى وما يجب عليه تجاه خدمة قضايا وطنه(١٤١)، وكذا بحثت فى حب الوطن بسياق كلمات مأثورة قيلت فى حب الأوطان، وقدمت نماذج لرجال عظام وصلوا ببلادهم إلى أساس التمدن والعمران عشقاً فى الوطن، وعددت الأمم التى أشتهرت بحب الأوطان خالصة إلى أن الوطنى الحر يفضل وطنه على ما عداه(١٤٢)، عارجة على تأييد مبدأ "مصر للمصريين" الذى هو شعار الحركة الوطنية آنذاك، الذى كان جوهره عند حزب الإصلاح كما كان جوهره عند الحزب الوطنى، الحفاظ على السدة الخديوية بالالتفاف حول العرش الخديوى تحقيقا للوطنية المصرية، مع الحفاظ على الرابطة الدينية بين مصر والدولة العلية(١٤٣)، وهكذا لم يستطع مبدأ "مصر للمصريين" فى مخيلة حزب الاصلاح من أن يتخلص من التعلق بُعرى الروابط مع الدولة العثمانية، بل أرجع الى أن أساس الوطنية المصرية هو المحافظة على الاستقلال الادارى الذى تمتعت به مصر مع التدرج فيه من الحسن الى الأحسن، وهذه السياسة التى أتبعها الحزب يمكن وصفها بأنها إسلامية عثمانية مصرية، وإن جنحت لتصبح إسلامية عربية أولاً ثم عثمانية عندما أظهر الاتحاديون العصبية التركية واضطهاد العرب والعربية(١٤٤)، وقد ألمحت جريدة المؤيد لسان حال الحزب فى لفتة وطنية إلى أن (الأمة المصرية ليست عربا ولا تركاً ولا يوناناً ولا انكليزا ولا فرنسيساً ولكنها من أمة الفراعنة غلب عليها لسان العرب)(١٤٥).

والجدير بالذكر أن حزب الاصلاح لم يضف للحركة الوطنية المصرية جديداً من جراء التصاقه بسياسات الخديو التى يغلب عليها مهادنة جميع الأطراف، ومن ثم سار الحزب فى ركاب الخديو مهاجماً الدولة العلية عندما تكون العلاقات سيئة بين الآستانة والقاهرة، مهادناً إياها عندما تكون العلاقات طيبة، وكذا مع سلطات الاحتلال، ومن هنا لم يقحم نفسه بشكل جدى لمناهضة الاحتلال

وزعزعة وجوده داخل القطر المصرى ومن ثم لم يقم بدور ايجابى وفعال، كما كان الحال عند الحزب الوطنى – كما سبق القول – الذى جاهد داخليا وخارجيا بكل ما أوتى من قوة للحفاظ على الروح المصرية وعلى الثورة الحماسية لابناء القطر المصرى ليقف فى وجه الاحتلال راغما اياه على تحقيق الجلاء، وإن التقى الحزبان فى كون الاستقلال التام لامكان لوجوده آنذاك، إلا أن الفارق الجوهرى بالنسبة لموقف الحزبين من فكرة الوطنية المصرية هو الأوضح، ففى الوقت الذى أعتبرنا الحزب الوطنى عاملا غير مباشر فى دفع الفكرة الوطنية خطوات إلى الأمام بفضل فاعليته فى مجال العمل الوطنى، كان رصيد حزب الاصلاح لا يساوى شيئا، فلم يتعامل مع أبناء القطر المصرى بنفس الروح الوطنية التى تعامل معها رجالات الحزب الوطنى، ومن هنا لم يحظ بتأييد جمهورى مثل ذلك الذى حظى به الحزب الوطنى(١٤٦)، و ربما كانت المقدرة الشخصية لدى زعيمى الحزبين هى التى فرضت ذلك، فقد أحتل مصطفى كامل بمقدرته الخطابية والقدرة على التأثير والحشد الجماهيرى قصب السبق، خاصة وأن الشيخ على يوسف بالاضافة الى عدم تمتعه بتلك القدرات الشخصية فإن التصاقه بسياسات القصر جعلته الى حد ما فى منأى عن التفاعل مع الشعب المصرى.

وقد قدم علوبة باشا(١٤٧) تفسيراً يبدو منطقياً لإعتبار حزب الإصلاح حزب السراى، حيث ذكر أن الشيخ على يوسف كان أزهرياً معمماً وكان يعاونه فى تحرير جريدة المؤيد بعض الأزهريين، وقد رأى أن رجال الدين فى كل بلد يناصرون غالباً الفرد الحاكم، وربما يكون سبب ذلك أنهم ليسوا من أرباب السياسة أو أنهم يؤثرون طمأنينة العيش أو رفعة الشأن فى ظله، هذا علاوة على أن الأوقاف التى ينفق منها رجال الدين من خيرات ومرتبات كانت فى يد الحاكم يتصرف فيها كما يشاء، ومن هنا جاء إلتصاق الحزب بالقصر، وهو رأى يعتد به.

على أى الأحوال فإن الشيخ علي يوسف - وبشهادة معاصريه - يعد مدافعا عن الاسلام أكثر من كونه منشطا لاتجاه وطني قومي[١٤٨]، وهذا هو الانطباع العام الذي اصطبغ على حزبه وطنية مصرية مغلفة بمسحة دينية.

٤ - أحزاب صغيرة:

وتمشياً مع ظهور الأحزاب الرئيسية في مصر كانت ثمة أحزاب ثانوية تدور في فلك الحياة الحزبية في الفترة ما بين عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩١٤، تلتف حول شخص رئيسها وبالتالي تعكس رؤياه واتجاه الأفراد المكونين لحزبه.

وقد تعدد مولد الأحزاب الصغيرة على المسرح السياسي المصري، فظهر الحزب الوطني الحر لوحيد الأيوبي، والمصري لأخنوخ فانوس، والجمهوري لمحمد غانم، ومصر الفتاة لأدريس راغب، متخذين من مبادئ معينة إرتاؤها أهدافاً يدورون في فكلها، ومن بين تلك الأهداف سوف نسعى جاهدين لإبراز موقف تلك الأحزاب من فكرة الوطنية المصرية.

١ - الحزب الوطني الحر:

يعد أول حزب سياسي تكون في مصر في فترة ما بعد الاحتلال البريطاني، في ٢٦ يوليو ١٩٠٧، وقد قام على أكتاف مؤسسه محمد وحيد بك الأيوبي، وقد نشر برنامجه في جريدة "المقطم" الموالية لسياسة الاحتلال البريطاني - كما سبقت الإشارة - ومن هنا كان من السهل علينا أن نستشف ميله التام نحو مسالمة سلطات الاحتلال، تلك النزعة التي كانت أولى مبادئه، فقد بنى وجهة نظره على أن الشعب المصري، ضعيف يحتاج إلى أمة قوية راقية لتصل به إلى بلوغ الاستقلال في اطار من المسالمة والعلاقات الحسنة، وجعل مبدأه السادس والأخير هو (السعي في تفهيم عامة الأمة وبسطائها معنى الوطنية الحقة وشروطها)[١٤٩]، وبطبيعة الحال يقصد بتلك الوطنية هي القائمة على مهادنة المحتل والتسامح معه حتى يتسنى إعداد الأمة لنيل حقوقها.

وتمشياً مع تلك النزعة والميل تجاه بريطانيا لقى الحزب الوطنى الحر هجوماً شديداً من قبل الصحف الفرنسية التى اعتبرته حزباً للضوضاء والفوضى وأنه لا يمثل الشعب مطلقا ورمت اعضاءه بأنهم يجهلون السياسة ويجهلون أصولها وقواعدها(١٥٠)

وبطبيعة الحال كان حزب الأحرار* معادياً للحزب الوطنى ولمصطفى كامل، حيث كانت مبادئهما على طرفى نقيض، إذ اختار الأول طريق المسالمة، بينما كان الأخير يقع عليه عبء الجهاد ضد المحتل لنيل الجلاء والاستقلال، وفى الوقت الذى أنكر حزب الأحرار حق الأمة فى الدستور الذى اعتبره مطلباً سابقاً لأوانه ويضر بمصلحة البلاد، أما الحزب الوطنى فقد أصر على المطالبة به(١٥١)، ولم يقتصر العداء بين حزب الأحرار والحزب الوطنى، بل تعداه إلى العداء بينه وبين حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية للشيخ على يوسف، وقد كان ذلك منطقياً، إذ كان الأول شديد العداء لسلطة الخديو، بينما كان الأخير شديد الميل والتأييد لسلطة الخديو، وفوق هذا كان موقفهما من مسألة الدستور على طرفى النقيض أيضا، فقد سبق وأن أشرنا إلى أهمية هذه المسألة بالنسبة لحزب الاصلاح وما ترتب على ذلك من طلب الشيخ على يوسف بإرسال نواب مصريين إلى مجلس المبعوثان، ومن هنا أسرع محمد وحيد بالرد على ذلك الموقف من قبل الشيخ على يوسف بأن تلك المسألة ترجع إلى رغبة انجلترا التى تعمل على بناء السلطات النيابية فى مصر لتحقيق الدستور المصرى،(١٥٢) وقد كان ذلك الموقف طبيعياً من قبل محمد وحيد الذى جعل المبدأ الخامس لحزبه المتعلق بالدستور متعلقاً بإقناع الحكومة الانجليزية بأن أهل القطر المصرى جديرون بذلك، وكان ذلك متناسقا مع موقفه تجاه تلك المسألة.

وفى الواقع كان محمد وحيد يتحين الفرص ليثبت ولاءه للاحتلال البريطانى قلباً وقالباً، فقد منحت له الحرب الطرابلسية – على سبيل المثال –

الفرصة بأن يرسل إلى اللورد كتشنر خطاباً يعرب فيه عن أسفه من موقف المصريين تجاه نصرة الدولة العثمانية وسعي بعض الفئات لتهييج العامة واثارة خواطر المصريين لجعلها حربا دينية، وفوق هذا الأسف يؤكد مبادئ حزبه فى تقديم الولاء التام للحكومة البريطانية وذلك فى قوله : (يعارض حزب الأحرار المصرى فى كل حق تدعيه دولة تركيا فى مصر ويعتبر مصر جزءاً من السلطنة البريطانية المصونة طالما يتعذر نيل الاستقلال التام)[١٥٣] وهكذا ظهر موقف حزب الأحرار تجاه الدولة العثمانية التى لم يعلن عدم ولائه لها فقط، بل سلخ مصر من ضمن ممتلكاتها واعتبر القطر المصرى جزءاً من السلطنة البريطانية. ولا ندرى على أى سند قانوني بنى موقفه هذا، هل بنى رؤيته على تأييد كامل للشعب المصرى وحكومته ؟! لقد جرفه تيار الاحتلال إلى حد ملك عليه نفسه بحيث لم يستطع أن يبحث عن استقلال حقيقى لبلاده، بل كل ما ذهب إليه هو اقتطاع مصر من ممتلكات الدولة العثمانية ليرمى بها فى أحضان الممتلكات البريطانية.

على أى الأحوال لم يكن لحزب الأحرار تلك الشعبية التى تجعلنا نلتفت إليه، فإنه قد قضى على كل الأمانى التى غرسها الوطنيون فى نفوس الشعب المصرى، بل ويعد محطما لمبدأ "مصر للمصريين" ومبدداً لآمال الأمة المصرية فى تحقيق سيادتها على أرضها، بل حتى لم يراع الرابطة الدينية التى تربط مصر بالدولة العلية. وبهذا تجاهل المشاعر الدينية لغالبية المصريين تجاه رمز الخلافة الإسلامية.

وهكذا لم يضف الحزب الوطنى الحر "لمحمد وحيد"، وإن شئت فقل حزب "الأحرار" شيئاً للوطنية المصرية، ولا "لمصر للمصريين"، حيث شطح فى حديثه حداً غير معقول.

٢ - الحزب المصرى:

أعلن أخنوخ فانوس* عن تكوين الحزب المصرى فى ١١ سبتمبر ١٩٠٨، ضمنه مبادئ حزبه الخمسة، ولعل المبدأ الثانى والخامس هما ما يلفتان انتباهنا، فالأول متعلق باستقلال مصر، حيث لم يحدد فيه ذلك النوع من الاستقلال هل هو استقلال كامل عن الدولة العثمانية وإنجلترا، أم استقلال منقوص يشمل رعاية إحدى الدولتين لمصر، والمبدأ الأخير وهو ما دعا فيه إلى اعتبار كلمة مصرى مطلقة على الأصيل والمتجنس بالجنسية المصرية ووجوب تسهيل شروط التجنس، فلا غبار عليه من حيث إيمانه بقانون الجنسية المصرية، أما تسهيل شروط التجنس فهي من قبيل فتح الباب لكل وافد مهما كانت جنسيته ليصبح مصرياً بالجنسية وهذا ما لا يقبله واقع الحال.

على أية حال لقد بُنى الحزب على فلسفة مؤداها الاعتماد على صداقة إنجلترا فى حصول مصر على استقلالها(١٥٤) ومن بين الوسائل التى إرتآها الحزب لتحقيق أهدافه هي فصل الدين عن السياسة فصلاً تاماً، والمساواة فى الحقوق الوطنية بين المصريين والوطنيين بلا تمييز بسبب الجنس أو الدين(١٥٥).

وبذلك الاتجاه مثل الحزب المصرى اتجاهاً علمانياً ليس هذه المرة بفعل المدارس الأجنبية الحديثة فقط، تلك التي أخرجت جيلاً من الشباب المصرى يغلب عليه الاتجاه الوطنى مع تعلقه بالوجود البريطانى، وثمة نقطة أخرى هى أن أخنوخ فانوس هو أحد خريجي الجامعة الأمريكية ببيروت الذى أتيحت له قدر من الثقافة الغربية تلك التى وسعت مداركه – كما سبق الإشارة – وجعلته زعيما للشبيبة القبطية

وهكذا نستشف النزعة القبطية داخل الحزب المصرى، فى مقابل تلك النزعة الإسلامية داخل الحزب الوطنى لمصطفى كامل(١٥٦)، تلك النزعة التى حاول مصطفى كامل طرحها جانباً وجاهد من أجل أن يضع نهاية للخلاف الذى كان

بين المسلم والقبطى، وذلك الذى جعل البعض(١٥٧)، يميل إلى القول بأنه حاول أن يوحد كل المصريين فى حزب سياسى واحد، ومن ثم يمكن اعتبار الحزب المصرى انعكاساً للسياسات التى اتبعها الحزب الوطنى فى مساندة فكرة الجامعة الإسلامية، وفوق هذا يمكن اعتبار الحزب المصرى استجابة منطقية لمقدمات الفتنة الطائفية التى بذرت بذورها مع بدايات عام ١٩٠٨ والتى كان لسياسة المحتل دور كبير فيها كما سبق الإشارة.

ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار الحزب المصرى إفرازاً للجناح السياسى المتطرف للأقباط، دعمته الأوضاع التى غلبت على القطر المصرى آنذاك(١٥٨)، بظهوره على سطح المسرح السياسى المصرى معلناً عن نفسه فيما نصفه بأنه مثل البادرة الأولى لتكوين أحزاب قبطية مصرية.

والجدير بالذكر أن أخنوخ فانوس قام بنشر مشروع حزبه بجريدة المقطم أيضاً، وقد علق على ظهور هذا الحزب من أجل خدمة الوطن المصرى، وقد طلب من الأدباء قراءته وبحثه ونشر اقتراحاتهم لكى يتسنى له إستدراك ما ينقصه قبل تقرير المبادئ النهائية له، وقد قام بالرد على تعليقات جريدة المقطم بالنسبة لمشروع الحزب على صفحات جريدة مصر عارضا للأسئلة التى طرحت عليه، عاملا على تفنيدها وإزالة الغامض بشأنها أمام القراء، وهكذا تسنى لنا كشف الغموض الذى كان يكتنف تلك المبادئ، فيما عبر عنه بأنه مشروع حزب بأن تكون مصر بلاد مستقلة استقلالا تاما صحيحا، ويكون الخديو عباس ملكاً وسلطاناً على مصر، خلفاً للمصريين القدماء أمثال رمسيس، وهكذا ربط بين دعوته السابقة لفكرة الفرعونية وإحياء التراث القديم وبين إعتبار ملوك مصر الجدد هم سلالة أولئك الفراعنة، على الرغم من إيمانه المطلق بكون الخديو عباس هو سليل أسرة محمد على الأجنبية عن البلاد المصرية، وفوق هذا أكد على أن طلب الاستقلال السياسى خير من أن يظل المصريون تابعين، مع احتفاظ

المصريين بالإخلاص والإحترام لعرش الخلافة الإسلامية، ولعل إشارته الأخيرة كانت لضمان جذبه أصوات من المسلمين إلى حزبه وقد استند على سياسة تركيا الفتاة دليلاً لتخليص مصر من التبعية وتحقيق حريتها هى الأخرى[١٥٩].

وبناء على ماسبق ، فقد وضحت تلك المبادىء التى تحتوى على دعوة لانسلاخ مصر من التبعية السياسية للدولة العلية، بهدف تحقيق مصر لاستقلالها العام ، وهكذا خالف أخنوخ فانوس الاطار العام الذى رسمته غالبية الأحزاب المصرية فى علاقتها بالدولة العلية ليطالب صراحة بنبذ تلك التبعية وبهذا مثل الحزب المصرى نزعة وطنية تُحمد لمؤسسه، إلا أنه بإقتراحاته بجعل الجنسية المصرية فضفاضة لكل من يقطن القطر المصرى شاملاً الأجانب يكون قد جعل مصر مشاعاً بين سائر الأجناس دون الاحتفاظ بجنسية تحمى أهلها وفوق هذا فإن الاقتراح بعقد معاهدة مع إنجلترا تضمن للوجود البريطانى مركزه فى مصر فى حالة السلم والحرب يكون قد انحرف عن مسار الاستقلال التام الذى دعا إليه من قبل.

وفى الواقع كان ذلك الحزب هكذا موضع إعجاب الصحافة الإنجليزية ونعتوا تلك المبادىء بأنها (وطنية محضة لايقصد بها إلا سلامة مصر للمصريين) وعلاوة على ذلك أشادوا بأخنوخ فانوس واعتبروه وطنيا صميما خالف سنة الباشوات الأتراك وكذا دعاة الجامعة الإسلامية،[١٦٠] وهكذا عبرت تلك الصحف عن وجهة نظر الساسة البريطانيين الذين رحبوا بهذا الحزب، إلا أن السياسة البريطانية قد أرجأت البحث فى جعل مصر مستقلة استقلالاً تاماً[١٦١].

وهكذا رفض الساسة الخوض فى مسألة استقلال مصر كما يراها الحزب المصرى ، فى الوقت الذى شجعوا فيه العمل على تسهيل شروط التجنس لتصبح مصر بلداً مفتوحاً للأتراك والسوريين واليونانيين وغيرهم من المهاجرين الأوربيين دون النظر إلى مصلحة أهالى البلد الأصليين ، وحقهم فى الحفاظ على وطنهم

الخصوصى بعيداً عن أيدى الأجانب تعبث فيه كما تشاء، ومن ثم تذوب الهوية الوطنية للشخصية المصرية فى محيط الأجناس الوافدة على القطر المصرى.

وسواء أكان الحزب المصرى معبراً عن فئة بعينها استحسنت قيام حزبه وعدته جامعاً للأقباط بإختلاف مذاهبهم ، ونظرت اليه باعتباره أداة من أدوات الأقباط فى الوقوف أمام الاحزاب المتعددة على الساحة السياسية المصرية،(١٦٢) أو كان ممثلاً للأقباط الذين اعتنقوا البروتستانية ، ومن ثم رأى فيهم البعض إنفصالاً عن الجسد الأساسى لأقباط مصر من أبناء الكنيسة الأرثوذكسية ، مما لم يكن يسمح له بالتعبير عنهم(١٦٣) نحن نرى بدورنا أنه كان فى استطاعة الحزب المصرى أن يلعب دوراً إيجابياً فى نمو فكرة الوطنية المصرية لو قام معتمداً على تحقيق مبدأ (مصر للمصرين) حفاظاً على الوحدة الوطنية لأبناء الوطن المصرى آنذاك، نابذاً العناصر الدخيلة جانباً، أو كان يستطيع أن يلعب دوراً آخر فى مساندة الحركة الوطنية المصرية بتأجيج جذوتها ضد المحتل لتحقيق الجلاء والاستقلال التام.

٣ - الحزب الجمهورى:

كان محمد غانم صاحب الحزب الجمهورى إستجابة منطقية للمؤثرات الغربية التى نتجت عنها الثورة الفرنسية حيث كان متشبعاً بمبادىء الثورة الخلابة وشعاراتها (حرية - إخاة - مساواة) ومن ثم جذب مجموعة من المثقفين على نفس شاكلته متأثرين بالثقافة الفرنسية ، مؤمنين بتدرج الأمة عبر ثلاث مراحل أولها : نيل الدستور وثانيها: هو الاستقلال التام،(١٦٤) وهكذا كان يتسم بالوضوح فى نوع الاستقلال الذى يبغيه لمصر رافضاً للسيادة العثمانية والبريطانية على حد سواء ، واسم الحزب يعبر عن واقع الأحوال فى الرغبة من التخلص من أسرة محمد على وقلب مصر إلى جمهورية، إن تلك الأهداف تذكرنا بالحزب الوطنى الأهلى لأحمد عرابى الذى طالب بالتخلص من أسرة محمد على

وقلب مصر إلى جمهورية – كما سبق الاشارة – وبهذا يمكن اعتباره إمتداداً طبيعياً لذلك الحزب[١٦٥] إن جاز القول ، مع الفارق المتمثل فى التفاف العديد من أبناء القطر المصرى حول الحزب الأخير، أما الحزب الجمهورى فقد كان أنصاره من بين المثقفين الذين مثلوا انعكاساً لمؤثرات الثورة الفرنسية داخل المجتمع المصرى ، إذ كان الحزب يحتفل بيوم ١٤ يوليو ذكرى سقوط الباستيل ويشارك فى احتفالات الجالية الفرنسية بهذا العيد[١٦٦] ممنياً نفسه والشعب المصرى باليوم الذى يصبح فيه لمصر عيد للجمهورية، وبهذا مثل الحزب الجمهورى برجاله اتجاها ليبراليا داخل المجتمع المصرى إلا أنه مع ذلك لم يحظ برعاية واهتمام سلطات الاحتلال مثلما كان الحال مع حزب الأمة الذى مثل اتجاها ليبرالياً أيضاً، ،يمكن تفسير ذلك إلى أن الأول كان ليبرالياً متشبعاً بفكر الثورة الفرنسية التى اتخذها مثلاً أعلى له فى الوقت الذى تقمع فيه الحكومة البريطانية أية اتجاهات جمهورية داخل القطر المصرى حتى ولو كانت تلك أمنيات على الورق بحكم التنافس الدولى بين إنجلترا وفرنسا من جهة، وبحكم اختلاف النظم السياسية بينهما ما بين ملكية وجمهورية ، وفوق هذا كان على الحزب الجمهورى للوصول الى غايته أن يحقق الاستقلال التام، ومن ثم كان من الطبيعى أن تقف له سلطات الاحتلال بالمرصاد اذ مالبث أن طُوى فى صفحات النسيان بعد عدة أشهر.

ويبدو أن الحزب الجمهورى لقى ترحيبا من قبل بعض الصحف فقد كتبت على ـ سبيل المثال ـ جريدة الأخبار مرحبة بحزب يدعو لحكومة جمهورية ، معتبرة أن ذلك النوع من الحكومات هو أقرب الحكومات إلى مبادىء العدل والإنصاف ومراعاة لكرامة الانسان،[١٦٧] وقد أفسحت صفحاتها لمحمد غانم رئيس الحزب داعياً إلى حزبه شارحاً منهجه القائم على بث المبادىء الجمهورية بين أبناء الوطن المصرى مقرباً إليهم فكرة إقامة الحكومة الجمهورية التى تجعل مصر فى درجة الدول المتمدنة وتسهم فى ترقية شعبها، وأردف فى قوله الى أنه وجب على

كل مصرى يشعر بالوطنية الحقة ان يسعى لتحقيق ذلك المقصد تحقيقاً لسيادة الامة المصرية[١٦٨].

وقد عرج محمد غانم إلى اعتبار حزبه هو حزب المستقبل إذ أن الدافع من ورائه كان الغيرة الوطنية، وبهذا يتوقع له كل نجاح، وقد أدرك أن فكرة الجمهورية جديدة العهد فى مصر وغريبة عند العامة على وجه الخصوص، ومن هنا حمل على عاتقه نشر مبدأه الذى اعتبره هو مبدأ كل الحكومات الجمهورية الراقية القائل {سيادة الامة مصدر كل سيادة} ورأى من الطبيعى أن ينظر اليه العامة بدهشة بحكم أن مصر بدور التكون الذاتى أنذاك[١٦٩].

واقع الامر أن محمد غانم طرح فكراً جديداً على أبناء الوطن المصرى فى فترة ما بعد الاحتلال، والحق أن طرح فكرة الجمهورية من قبل الحزب الجمهورى كانت فكرة لم يتطرق إليها أحد من الأحزاب السابقة الذكر، بل كان حزب الأمة بإعتداله المعروف يرفض طرح فكرة الجمهورية على الشعب المصرى،[١٧٠] وهكذا يُحمد لمحمد غانم العمل على طرح حلول جديدة لحل المسألة المصرية ورسم شكل جديد للحياة السياسية المصرية ، وفوق هذا تنبه لفكرة أزعجت سلطات الاحتلال ، مما جعله مساهماً - إلى حد ما - فى تطور الحركة الوطنية، وليس مساهماً فى نمو فكرة الوطنية المصرية وان كان فى طريقه لنشر مبادئه كان يؤكد بمبدئه (سيادة الامة مصدر كل سيادة) على الهوية الوطنية المصرية بطريق غير مباشر، وان كان ينتظر من رجل تشبعت روحه بالمبادىء الليبرالية أن يسعى جاهداً لتدعيم فكرة الوطنية المصرية وطرحها على بساط البحث وتحديد مقوماتها ونشرها بين النشء المصرى حتى يغرس فى النفوس حب الوطن والتفانى فى خدمته بدلاً من اتخاذ الأعياد الفرنسية رمزاً لأمانيه !.

٤ - حزب مصر الفتاة:

اتخذ إدريس راغب بك هذا الاسم لحزبه الوليد، ومن ثم اعتبر البعض تكوين هذا الحزب وتسميته إنعكاساً لنجاح حزب تركيا الفتاة عام ١٩٠٨[١٧١] وفيما يتعلق بموقف الحزب من الأطراف القائمة فى مصر، نجد أن صاحب الحزب لم ير ثمة غضاضة فى بقاء الاحتلال البريطانى، فى نفس الوقت يعلن عن ولائه لسلطة الخديو وللسيادة العثمانية ، ورأى أن على مصر أن تتمهل عشرين عاماً حتى يقدر لها أن تتمتع بحقوقها الدستورية كاملة وقد أطلق عليه البعض اسم الحزب الدستورى[١٧٢]، ربما من هذا المنطلق.

وفى سياق تعليق جريدة وادى النيل على حزب مصر الفتاة أمكن التعرف على مبادئه حيث أوردت الجريدة أن مشروع القانون الذى قدمه ادريس راغب ضم سبعة وستين مادة صرح بين سطورها بكيفية تكوين الخديوية المصرية ومقر سيادتها وحقوق الوراثة الخديوية بها ومسئولية سمو الخديو وحقوقه، حتى شروط إعلان وعقد الصلح وترأس الجمعيات والحفلات الوطنية وحقوق المصريين السياسية وحرية المطبوعات والأديان ومسئولية النظار وطريقة انتخاب الأعضاء فى المجالس النيابية وتعيين الموظفين العموميين وطريقة عقد الجمعية العمومية ومجلس النواب والأعيان ورواتب أعضائهما وقد علقت الجريدة (وبالاختصار كل ما يخالج افكار الملوك العاشقين للحكم الدستورى).

وقد انكرت جريدة "وادى النيل" عدم تعرض الحزب لمسألة استقلال البلاد لتصبح مصر دولة حرة، واعتبرت هذا المشروع قاتلاً للعواطف الوطنية لمدة عشرين سنة هى السنين التى حددها رئيس الحزب لترتقى فيها الأمة تحت ظل النفوذ الأجنبى[١٧٣].

ولقد لعب ادريس راغب بحزبه على كل الخيوط ليظهر بمظهر المدافع عن حقوق الأمة المصرية فهو يؤيد السلطة الشرعية والفعلية فى آن واحد ويرهن

استقلال مصر بمدة تُقتل فيها المشاعر الوطنية اكثر من أن تنضج في اطارها فكرة الوطنية المصرية.

والأرجح أن إدريس راغب وأنصاره داخل حزبه كانوا بعيدين كل البعد عن إدراك معاني الوطن والوطنية، أو حتى استيعاب النمو الطبيعي لفكرة الوطنية المصرية آنذاك، ومن هذا المنطلق لم يسهم قيد أنملة في نمو الفكرة الوطنية.

* * *

صفوة القول، تأرجح التأثير الإيجابي لتلك الاحزاب جميعها بين مد وجزر إذ لو قبلنا وصف تلك الأحزاب بأنها أشبه ما تكون إلى نقابات وطوائف أكثر من كونها أحزاباً بالمعنى المتفق عليه حيث ارتبطت في غالبيتها بأشخاص مؤسسيها وبالتالي دارت في فلكهم،(١٧٤) واقترنت بنجاحهم وفشلهم، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر فاعلية بعضها إذ كانت دليلاً واضحاً على نمو الوعي القومي لأبناء الوطن المصري سواء أكانت قد أسهمت في تطور الحركة الوطنية المصرية أو ساهمت في بلورة فكرة الوطنية المصرية والحفاظ على مصر للمصريين .

على أية حال، لم تتفق الأحزاب المصرية في مجملها على تعريف الوطنية المصرية وإن التقى بعضها في تيار الحركة الوطنية ضد الوجود البريطاني، في الوقت الذي نأى البعض الآخر عن ذلك كله وارتمى في أحضان السلطة الفعلية، في محاولة منه لإحراز مكان ما على مسرح السياسة المصرية ليس إلا، وفي تصوري أن لو كانت تلك الأحزاب وحدت جهودها لكانت كفت عن نفسها عناء الفرقة والاختلاف ولأصبحوا على قلب رجل واحد في مناهضة سلطات الاحتلال، واستطاعوا أن يبلوروا صيغة واحدة "للقومية المصرية" في وقت كان فيه المجتمع المصري قد وصل إلى درجة من الوعي لا غبار عليها.

وأخيراً، كانت البصمات التي تركتها الأحزاب المصرية على نمو فكرة الوطنية المصرية في مجملها ضعيفة إذا استثنى منها "حزب الأمة" لأحمد لطفي

السيد الذى استطاع أن ينحو جانباً من ذلك الحزب الذى غلبت عليه أيضا المصالح ـ كما سبق القول ـ ليكون تياراً فكرياً وطنياً لأنه وحده كان فعلاً وقولاً حزب الطبقة الوسطى الحديثة، وما عداه من: وطنى. إصلاح. وغيره كان إما يمثل القوى القديمة فى المجتمع أو برجوازية صغيرة أو غير ذلك، أما حزب الأمة فقد استطاع أن يعمل جاهدا على تحديث وتمدين الوطن المصرى ويبلور صيغة "للقومية المصرية" التى استطاعت ان تصمد فى فترة مابعد الحرب العالمية الأولى وتثبت أقدامها.

* * *

هوامش الفصل السادس

١ – Little, Tom : Egypt, p. 103.

٢ – اللواء، عدد، ٢٤٧٥، فى ٢٣ أكتوبر ١٩٠٧، خطبة مصطفى كامل بالإسكندرية..

* للإطلاع على نص الخطبة التى ألقاها مصطفى كامل باشا بتياترو زيزينيا بمدينة الإسكندرية مساء يوم الثلاثاء ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧، شارحا فيها الحالة الحاضرة وقتئذ فى مصر، نجدها منشورة كاملة تحت عنوان: خطابة بطل الوطنية المرحوم مصطفى كامل باشا، وتقع فى ٦٤ صفحة من القطع المتوسط، وموعدة بدار الكتب المصرية تحت رقم ع/٨٤٨١٣

٣ – Lutfi, Al-Sayyid, Afaf : Egypt and Cromer, p. 155.

٤ – يونان لبيب رزق (د.): مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى، ندوة مصطفى كامل، عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور مائة عام على مولده، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٩٨ .

٥ – محمد على علوبة باشا : المصدر السابق، ص ٦٠.

* صاحب الذكريات كان من أنصار الحزب الوطنى، ثم أندمج فيه بعد وفاة مصطفى كامل بقليل، وقد سافر فى عام ١٩٠٩ مع محمد فريد إلى تركيا لتهنئة رجل الثورة بالدستور.

٦ – أوراق مصطفى كامل، المقالات، الكتاب الثالث، ص ١٨٤ .

٧ – عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية فى تاريخ مصر القومى ١٨٩٢ – ١٩٠٨، ط ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٥٠، ص ٣٤٦ – ٣٤٧ .

– Lutfi, Al-S., Afaf : Op. Cit., p. 190.

ـ زكريا سليمان بيومى (د.) : الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧ – ١٩٥٣، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٩٥ .

١٠ ـ محمد محمود السروجى (د.) : الفكر السياسى لمصطفى كامل، ندوة مصطفى كامل، ص٥٢ .

١١ – يونان لبيب رزق (د.) : الخيارات الدينية للأحزاب السياسية فى مصر، مقالة فى مجلة فكر للدراسات والابحاث، عدد ديسمبر ١٩٨٥، ص ١١٨.

١٢ – Holt, P.M.,: Egypt and The Fertile crescent, p. 223.

١٣ – محمد أنيس : صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل، القاهرة، ١٩٦٢، ص٤٤.

١٤ – على فهمى كامل: مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعاً ، ج٣، ص ١٩٧ – ٢٠٤.

١٥ – Lutfi, Al-S., Afaf: Op. cit ., p. 155.

١٦ – لمزيد من التفاصيل أزمة طابا وتبعياتها، انظر الدراسة التى أعدها يونان لبيب رزق (د.)، تحت عنوان الأصول التاريخية لمسألة طابا، دراسة وثائقية، مركز تاريخ مصر المعاصر، سلسلة مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣ .

١٧ – Dicey, Edward: The Egypt of The Future, p. 149-150.

١٨ – Holt, P.M.,: op. cit., 224.

١٩ – Richmond, J., B., : Egypt 1789 - 1952, London, 1977., p. 158.

٢٠ – مجلة اللواء، عدد ٤ ، فى ١٥ فبراير ١٩٠١، ص ٢٤٢.

٢١ – Lloyd, lord : Egypt Since Cromer, Vol. I, P. 41.

٢٢ – مجلة اللواء، عدد٥، فى ١٥ مارث ١٩٠١، ص ٣٠٤.

٢٣ – The New Encyclopedia Britannica, U.S.A, 1976, Vol.6, p.497.

٢٤ – محمود نجيب أبو الليل: الامانى الوطنية والمشكلات المصرية فى الصحف الفرنسية، ص ٤١ – ٤٤ .

٢٥ – الظاهر، عدد ٩٦٣، فى ٣١ يناير ١٩٠٧.

٢٦ – مصطفى كامل باشا: دفاع المصرى عن بلاده، مصطفى كامل والانجليز، مجموعة تشتمل على مقالات وخطب "صاحب اللواء"، فى لوندرة وغيرها فى صيف ١٩٠٦، مطبعة اللواء، ص ١٢١.

٢٧ – الوطن، عدد ١، ٣٧٢٩، فى ١٤ إبريل ١٩٠٧ ، ٣٧٣٠ ، فى ١٥ إبريل ١٩٠٧ .

٢٨ – يونان لبيب رزق (د.): الخيارات الدينية للأحزاب السياسية فى مصر، ص ١١٧ .

٢٩ – المقطم، عدد، ٦٠١٢، فى ٨ يناير ١٩٠٩ .

٣٠ – Gherson, Randol ph : The Anglo - Egyptian Question, p. 466.

٣١ – على بركات (د.) دور الطلبة المصريين فى الحركة الوطنية قبل الحرب الاولى ١٩٠٨ – ١٩١٤، مستخرج من دورية كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الاول، مايو ١٩٧٩، ١٢٩–١٣٠.

٣٢ – مجلة اللواء، عدد ٧، فى ١٥ مايو ١٩٠٧، ص ٤٤٠.

٣٣ – مصطفى كامل باشا: المصدر السابق، ص٦٥.

٣٤ – إبراهيم الدسوقى عبد الله المسلمى: صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٠–١٩٥٣، ج١، رسالة دكتوراة، كلية الاعلام، جامعة القاهرة، ١٩٨٥، ص ٢٥٣–٢٥٥.

٣٥ – على السيد ابراهيم عجوة: فن الدعاية والاعلام عند مصطفى كامل، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٠، ص٥٨.

٣٦ – أوراق مصطفى كامل، الخطب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، أشراف وتحقيق د. يواقيم رزق مرقص، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤، ص١٦٥، ص ٣٠٥.

٣٧ – عباس حلمى الثانى (الخديو)، مذكرات، عهدى، ترجمة د. جلال يحيى، مراجعة د. اسحق عبيد، تقديم: أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق ١٩٩٣، ص١١٥.

٣٨ – محمد عمارة (د.): الجامعة الاسلامية والفكرة القومية، نموذج مصطفى كامل، ط١، دار الشروق، ١٩٩، ص ١٠١ .

٣٩ – Mansfield, peter: The British In Egypt, London, 1951, p. 165-166.

٤٠ – أحمد لطفى السيد : قصة حياتى، ص ٧١ – ٧٢ .

٤١ – چوليت أدم : انجلترا فى مصر، ص ٢٢١ .

٤٢ – أحمد رشاد: مصطفى كامل، حياته وكفاحه، ط١، القاهرة ١٩٥٨، ص ٢٦٧.

٤٣ – Mansfield, Peter : Op. Cit., P., 166.

٤٤ – آرثر ادورد جولد شميث (الابن): الحزب الوطنى المصرى (مصطفى كامل – محمد فريد)، ترجمة فؤاد دوارة، تقديم فتحى رضوان، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٣، ص٨٨.

٤٥ – راجع مقالة مصطفى كامل فى مجلة اللواء، عدد ١١٦٥، فى ٣٠ يوليه ١٩٠٣، "العلم والاسلام".

٤٦ – أوراق مصطفى كامل، المقالات، الكتاب الثالث، ص ٢٠٨.

٤٧ – Holt P.M (editor): political And Social Chang In Modern Egypt, (Zayid Moh-mud: The Origins of the Liberal Constitutionalist party In Egypt, London, 1968, .p.339

٤٨ – Gold schmidt, Arther: Modern Egypt, P. 51.

٤٩ – اللواء، فى ١٤ مارس ١٩٠٩، عبد الرحمن الرافعى : الجامعة الاسلامية والبانسلمزم والفرق بينهما.

٥٠ – لويس عوض (د.): تاريخ الفكر المصرى والحديث، ج٢، ص٢٨٢.

٥١ – مذكرات محمد فريد، القسم الاول تاريخ مصر ابتداء سنة ١٨٩١ مسحيه، حققه وقدم له د. رءوف عباس حامد، القاهرة ١٩٧، ص ١٢٠، ١٩٦.

٥٢ – عبد الرحمن الرافعى: بطل الكفاح الشهيد محمد فريد، دار الهلال، د.ت، ص ٥٧–٥٨.

٥٣ – يونان لبيب رزق (د.) : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الأحتلال البريطانى ١٨٨٢ – ١٩١٤، ص ٨٤ – ٨٥ .

٥٤ – يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق، ص ٩٤ .

٥٥ – أوراق محمد فريد، المراسلات، ج١، م٢، ص١٦ .

٥٦ – البلاغ المصرى، عدد ٨، ١٦ يوليو، تحت عنوان بين مصر وتركيا.

٥٧ – توفيق على برو: العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى، ص ١٩٩.

٥٨ – أوراق محمد فريد، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤-١٩٠٩، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨، اشراف أ.د/ عاصم الدسوقى، ص ١٨٠ – ١٨١.

٥٩ – عبد المنعم إبراهيم الدسوقى الجميعى (د.): الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى ١٨٩٢-١٩١٤، ط١، ١٩٨٢ ص ٢٩٧.

٦٠ – البلاغ المصرى، عدد ١٦٩، فى سبتمبر ١٩١٠، ١٧٢، فى يناير ١٩١١.

٦١ – لمزيد من التفاصيل حول صحافة الحزب الوطنى ونظرتها للدولة العثمانية، انظر، يواقيم رزق مرقص (د.) صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧-١٩١٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥، ص ١٥٧ – ١٦٤.

٦٢ – محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ١٩١٢-١٩٣٧، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٥١ ص ٤٩-٥٠.

٦٣ – لمزيد من التفاصيل حول العمل السرى الذى أتبعه الحزب الوطنى فى الداخل ضد الاحتلال، أنظر يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق، ص ٢١٨ – ٢٢٤ .

٦٤ – Gold, Schmidt, Arther, Op.Cit., p.57.

٦٥ – لمزيد من التفاصيل حول نشاط الحزب الوطنى فى الخارج، انظر، على بركات (د.): المرجع السابق.

٦٦ – لمزيد من التفاصيل حول تركيب الحزب وأصوله الاجتماعية، انظر الدراسة التى أعدها أحمد زكريا الشلّق (د.): حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية، دار المعارف، ١٩٧٩، ص٨٩ وما بعدها.

٦٧ – Holt,P.M., Op.Cit.,p.225.

٦٨ – Cromer, the Earl of: Modern Egypt, London 1908, p.599 - 600.

٦٩ – يونان لبيب رزق (د.) : الجذور التاريخية للتجربة الحزبية، الفصل الأول من كتاب الأحزاب المصرية ١٩٢٢ – ١٩٧٣، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، أغسطس ١٩٩٥، ص ١٤.

٧٠ – Marlowe, John: Anglo - Egyptians 1800 - 1956, p. 168.

٧١ – أحمد لطفى السيد : صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر من مارس ١٩٠٧إلى مارس ١٩٠٩، مصر ١٩٤٦، ص ٩٩-١٠١.

٧٢ – تقرير كرومر عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان ١٩٠٦، ص ١٦ .

٧٣ – Jamal, M.,A., The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, p.106.

٧٤ – أحمد زكريا الشلّق: المرجع السابق، ص ٢٣٥.

٧٥ – أحمد لطفى السيد: تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، ط٢، دار المعارف ١٩٦٥، ص ٧٣-٧٤.

٧٦ – الجريدة، عدد، ١٦٠٥، فى ٢٠ يونيه، تحت عنوان "مصر للمصريين"، بقلم، أحمد لطفى السيد .

٧٧ – أحمد لطفى السيد : المرجع السابق، ص٦٩، ٧١-٧٢.

٧٨ – احمد لطفى السيد : مبادئ فى السياسة والأدب والاجتماع، د.ت، ص ٢٠٩.

٧٩ – احمد زكريا الشلّق (د.) : الجامعة الإسلامية والقومية المصرية فى فكر احمد لطفى السيد، ص ٢٨٧.

٨٠ – Jamal, M.,A., Op. Cit., p.106.

٨١ – الجريدة، عدد ١٦٦٧ ، فى ٢ سبتمبر ١٩١٢ ، تحت عنوان : إلى الشبيبة ٢ – غرض الأمة هو الاستقلال.

٨٢ – حسين فوزى النجار: لطفى السيد والشخصية المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٣٥

٨٣ – حسن عبد العزيز: حركة الفكر القومى من حكم محمد على إلى الحرب العالمية الثانية، مقالة فى مجلة الطليعة عدد١، يناير ١٩٦٧، ص ١٠٥.

٨٤ – محمد على علوبة باشا: المصدر السابق، ص٦١.

٨٥ – Jamal, M., A., : Op. Cit., p.106.

٨٦ – أحمد زكريا : حزب الأمة ، ص ١٢٧-١٢٨.

٨٧ – Gherson Randolph: Op. Cit., p. 461.

٨٨ – عبد الخالق محمد لاشين: سعد زغلول ودوره فى السياسه المصرية حتى سنة ١٩١٤، ج١، دارالمعارف، د. ت، ص ٧٧، ٧٩

٨٩ – عباس حلمى الثانى (خديو) المصدر السابق، ص ١١١.

٩٠ – Hourani, Albert, The Anglo - Egyptian Agreement: some causes And Implica- tions essay In, The Middle East Journal, Vol. 9, summer 1955, p.243.

٩١ – للاطلاع على مبادئ الحزب انظر، أحمد زكريا الشلّق (د.) : المرجع السابق، ص٨١.

٩٢ – الجريدة ، عدد ٢١١، فى ١٦ نوفمبر ١٩٠٧.

٩٣ – أحمد لطفى السيد: قصة حياتى، ص ٥٧ .

٩٤ – Lutfi, Al-s., Afaf : Op.Cit., p. 190.

٩٥ - Richmond, J., C., B., : Op.Cit., p.160.

٩٦ - يونان لبيب رزق: المرجع السابق ، ص ٢٢٣.

٩٧ - Safran, N., : Egypt In Search of political Community, p.95.

٩٨ - Wendell, ch: The Evolution of the Egyptian National Image, p.230 - 231.

٩٩ - أحمد زكريا الشلّق (د.) : المرجع السابق، ص ٢٣٢.

* انظر الفصل الخامس.

١٠٠ - يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق، ص ٢٤٥ .

١٠١ - Lutfi, AL-S., Afaf : Op. Cit., p. 191.

١٠٢ - أحمد لطفى السيد: صفحات مطوية، ص ٣٧.

١٠٣ - أحمد زكريا الشلّق (د.) : العلمانية والفكر المصرى الحديث، مقالة فى المجلة التاريخية المصرية، مستخرج، مجلد ٣٠/٣١، ١٩٨٣-١٩٨٤، ص ٤٤٧.

١٠٤ - أحمد لطفى السيد : الحالة الحاضرة، خطبة القاها فى ١٨ مايو ١٩٠٨، طبعت على نفقة فرنسيس ميخائيل، مطبعة الجريدة بمصر، ١٩٠٨، كذا، محمد عمارة (د.): قاسم أمين الاعمال الكاملة دار الشروق ١٩٨٩، نصوص الاعمال الكاملة، ص ١٣٧-٥١٧، كذا أحمد زكريا الشلّق (د.) رؤية فى تحديث الفكر المصرى، احمد فتحى زغلول وقضية التغريب، مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧، ص٣ - ٦٠.

١٠٥ - Wendell, ch., Op.Cit., p.229.

١٠٦ - فاطمة علم الدين عبد الواحد : الريف المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢-١٩١٤، ص ٣٤٨ .

١٠٧ - غالى شكرى (د.) : النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث، ص ٢٣٢.

١٠٨ - فقد أشار الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق فى دراسته إلى أن اللجنة الأولى تشكلت من أربعة باشوات ٢٤ من البكوات وأثنين فقط من غير حملة الألقاب، بينما ضمت اللجنة الثانية أحد الباشوات وثمانية من البكوات كلهم فيما عدا على فهمى كامل شقيق رئيس الحزب من أسر كبار ملاك الأراضى المعروفة، راجع الجذور التاريخية للتجربة الحزبية، ص ١٤ - ١٥.

١٠٩ - يونان لبيب رزق (د.): نفس المرجع، ص ١٤.

١١٠ - على عبد الرازق : من آثار مصطفى عبد الرازق، دار المعارف بمصر، ص١٢.

١١١ - سلامه موسى: تربية سلامة موسى ، سيرة ذاتية ١٨٩٥-١٩٤٧، القاهرة د.ت، ص ٥٩ .

١١٢ - طاهر عبد الحكيم: الشخصية الوطنية المصرية، ص ٢٦٣.

١١٣ - فاطمة علم الدين : المرجع السابق، ص ١٨٠.

١١٤ – رؤوف عباس حامد (د.) : أحمد لطفى السيد، الاب الروحى لليبرالية المصرية، مقالة فى، الهلال، عدد٩ ، سبتمبر ١٩٩٥، ص ١٠.

١١٥ – أحمد لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ١٢٨، ١٣١.

١١٦ – الجريدة أعداد، ٢٢٨١، فى سبتمبر ١٩١٤، «المصريون والانكليز»، ٢٢٨٦، فى ١٣ سبتمبر ١٩١٤، "منافعنا".

١١٧ – الجريدة، أعداد، ١٦٦٥، فى ٣١ أغسطس ١٩١٢، ١٦٦٦، فى ١ سبتمبر ١٩١٢ .

١١٨ – الجريدة، عدد، ٧٩١، فى ١٧ أكتوبر ١٩٠٩.

١١٩ – Wendell, ch., : OpCcit., p.231.

١٢٠ – Richmond, J.C.B., : Op.Cit., p.116.

١٢١ – Safran, N., : Op. Cit., p. 85.

١٢٢ – Mansfield., Op.Cit., p. 165.

١٢٣ – Wendell, ch., Op. Cit., p. 228.

١٢٤ – يونان لبيب رزق (د.) : الحياة الحزبية فى مصر ، ص ٣١.

١٢٥ – يونان لبيب رزق (د.): الجذور التاريخية للتجربة الحزبية، ص١٥.

١٢٦ – Tignor, Robert: Modernization and British Colonial Rule In Egypt 1882 - 1914, New Jersey, 1966,p.259, 258.

١٢٧ – The Historical Dictionary of Egypt, p. 130.

١٢٨ – السياسة، عدد ٦، فى ٢٠ مارس ١٩٠٤.

١٢٩ – سليمان صالح : الشيخ على يوسف جريدة المؤيد ، تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين ٣٧، ١٩٩٠، ص ١٤٠.

١٣٠ – لمزيد من التفاصيل حول مبادئ الحزب انظر، سعيد اسماعيل على : المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢–١٩٢٣، البناء الاقتصادى وقوى التشكيل السياسى، الانجلو المصرية، ١٩٧٢، ص ٤٩٨–٤٩٩.

١٣١ – المؤيد، أعداد، ٥٥٢٨ فى ١٧ يوليو ١٩٠٨، ٥٥٣٤، فى أغسطس ١٩٠٨، ٥٥٣٦ فى أغسطس ١٩٠٨، ٥٥٤٤، فى ١٣ أغسطس ١٩٠٨.

١٣٢ – عبد اللطيف حمزة (د.): أدب المقالة الصحفية فى مصر، ج٤، ط٢، دار الفكر العربى ١٩٥١، ص ٦١–٦٢.

١٣٣ – Holt, P.M., : Op.Cit., p.226.

١٣٤ – عباس حلمى الثانى (خديو): المصدر السابق، ص ١١٢ ، ١١٤.

١٣٥ – محمد عبد الوهاب سيد أحمد: حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية ١٩٠٧–١٩١٤، رسالة ماجستير ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٠، ص ٢١٧.

١٣٦ – عباس حلمى الثانى (خديو): المصدر السابق، ص ١١٣.

١٣٧ – المؤيد ، عدد ٦٢١٥، فى ١٢ نوفمبر ١٩١٠.

١٣٨ – المؤيد، عدد، ٦١٧٨، فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٠.

١٣٩ – محمد عبد الوهاب سيد احمد : المرجع السابق، ص ٢٢٣.

١٤٠ – المنار، ج ١٢، م ١٦، فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٣، تحت عنوان "الشيخ على يوسف سياسته العامة والعثمانية خاصة"، ص ٩٤٧.

١٤١ – المؤيد، عدد، ٥٥٤٩، فى ١٩ أغسطس ١٩٠٨.

١٤٢ – المؤيد، عدد، ٧٠٣٨، فى ١٧ يوليه ١٩١٣، تحت عنوان "حب الوطن".

١٤٣ – المؤيد، عدد ٧٠٥٦، فى أغسطس ١٩١٣.

١٤٤ – المنار، ج١٢، م ١٦، فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٣، ص ٩٤٧.

١٤٥ – المؤيد، عدد، ٧٠٩٩، فى ١٤ أكتوبر ١٩١٣.

١٤٦ – يونان لبيب رزق: المرجع السابق، ص ٣١ .

١٤٧ – المصدر السابق، ص٦١.

١٤٨ – عباس حلمى (خديو) : المصدر السابق ، ص١١٢.

١٤٩ – وثائق تاريخية عن الأحزاب والتنظيمات السياسية فى مصر، الطليعة، عدد٢، فبراير ١٩٦٥، ص ١٤٩–١٥٠.

١٥٠ – محمود نجيب أبو الليل : المرجع السابق، ص ٥٨–٥٩.

* لقد غير اسمه فى عام ١٩٠٨، من الحزب الوطنى الحر إلى حزب الاحرار وأصدر جريدة الاحرار فى ١٨ مارس ١٩٠٨ وللأسف لم نستطع العثور على أى عدد من أعدادها.

١٥١ – مذكرات محمد فريد، القسم الاول، تاريخ مصر من ابتداء من سنة ١٨٩١ مسيحية، حققه وقدمه، د. رؤوف عباس حامد، القاهرة ١٩٥٧، ص ٥٢–٥٣.

١٥٢ – عبد الغفار محمود السيد: الحركة الوطنية فى مصر فى عهد ١٩٠٧–١٩١١، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٤٠، ٢٤٥.

١٥٣ – مصر، عدد، ٤٦٧٨، فى ١٧ أكتوبر ١٩١١.

* ولد فى مركز أبنوب من أعمال مديرية أسيوط غضون عام ١٨٥٦، أدخله والده الخواجه قانوس روفائيل فى مدرسة أسيوط الإنجيلية فتعلم فيها مبادئ اللغتين العربية والإنجليزية والعلوم اللاهوتية، ثم قدم إلى القاهرة مع أولاد خاله، وانتظم فى سلك مدرستها الإنجيلية، وبعدها رحل

إلى بيروت فدخل في كليتها الكبرى، ولما عاد إلى مصر اشتغل بالتجارة، وقد سعى إلى تأليف الجمعيات الخيرية عام ١٨٧٨، وقد انتخبته أبنوب نائبا عنها عام ١٨٨٣، وقد اختاره الأميركيون أيضا نائبا عنهم فى أسيوط، وما لبث مع إفتتاح المحاكم الأهلية في سنة ١٨٨٤ أن اشتغل بالمحاماة، وفى أثناء ذلك ناب عن البروتستانت في لجنة قانون القرعة العسكرية، فخدمهم خدمات جليلة حتى أصبح عميدهم الأكبر الذى رأس مجلسهم الأعلى بالقاهرة، فرج سليمان فؤاد: الكنز الثمين لعظماء المصريين، ص ١٨٦-١٨٩.

١٥٤ - Little, Tom: Op.Cit., p.119.

١٥٥ - وثائق تاريخية من الأحزاب والتنظيمات السياسية فى مصر، الطليعة، ص ١٥٥-١٥٦.

١٥٦ - يونان لبيب رزق (د.) : الحياة الحزبية فى مصر، ص ٣٨.

١٥٧ - Elgood, P.G., Egypt And The Army, p. 21.

١٥٨ - رفيق حبيب ومحمد عفيفى : تاريخ الكنيسة المصرية، ص ١٧٩.

١٥٩ - مصر، عدد، ٣٧٧٥، فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٨، الحزب المصرى بقلم، أخنوخ فانوس .

١٦٠ - مصر ، عدد، ٣٧٨٠، فى ١٧ سبتمبر ١٩٠٨، رأى الستندرد فى الاقباط والحزب المصرى الجديد.

١٦١ - مصر، عدد، ٣٧٩٠، فى ٢٩ سبتمبر ١٩٠٨.

١٦٢ - الأخبار، عدد ٢٩، فى ٨ فبراير ١٩٠٨، تحت عنوان "حزب قبطى"، امضاء قبطى حر .

١٦٣ - يونان لبيب رزق (د.) : الخيارات الدينية للأحزاب السياسية فى مصر، ص ١١٦.

١٦٤ - يونان لبيب رزق (د.): الحياة الحزبية فى مصر ، ص ٦١.

١٦٥ - محمد أنيس (د.) : الحزب الجمهورى المصرى ١٩٠٧ - ١٩٠٨ مقالة فى الكاتب، عدد، ١٠٥، ديسمبر ١٩٦٩، ص ١٦ .

١٦٦ - جلال السيد (د.) : الثورة الفرنسية والفكر العربى، مقالة فى الهلال، عدد ٧ ، يوليو ١٩٨٩، ص ٣٨.

١٦٧ - الأخبار، عدد ٢٣٩، فى ٧ ديسمبر ١٩٠٧، الجمهورية فى مصر.

١٦٨ - الاخبار، عدد، ٢٥٢، فى ٢٢ ديسمبر ١٩٠٧، تحت عنوان (الحزب الجمهورى) سيادة الأمة مصدر كل سيادة، بقلم، الداعى الى الحزب الجمهورى محمد غانم .

١٦٩ - الاخبار، عدد، ٢٥ فى ٤ فبراير ١٩٠٨، تحت عنوان "الجمهورى وقول أعدائه فيه" بقلم، محمد غانم.

١٧٠ - الجريدة، فى ٨ يناير ١٩١٠، تحت عنوان "جمهورية مصرية".

١٧١ - أنيس صايغ: الفكرة العربية فى مصر، ص ٦١.

١٧٢ – سعيد اسماعيل علي : المرجع السابق، ص ٥١١.
١٧٣ – وادى النيل، عدد، ٤٣٢، فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٩.
١٧٤ – عبد الخالق محمد لاشين : المرجع السابق، ص ٨٣–٨٤.

* * *

الفصل السابع

الأسـس المكونـة لفكـرة الوطنيـة المصريـة

١ – انعكاسات اكتشاف التاريخ المصرى القديم.

٢ – تأسيس أسرة حاكمة تتوارث عرش مصر.

٣ – التوسع المصرى وفكرة الأمبراطورية المصرية.

٤ – انصهار العناصر التركية داخل المجتمع المصرى.

الأسس المكونة لفكرة الوطنية المصرية

شهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نمواً طبيعياً لتيار الوطنية المصرية بفعل عدة أسس تمثلت في :

١ - انعكاسات اكتشاف التاريخ المصري القديم :

بدأت في نهايات القرن الثامن عشر عملية إستكشاف آثار مصر القديمة بواسطة بعض الرحالة الأوربيين والعلماء(١)، ومن ثم تعد الحملة الفرنسية على مصر صاحبة الفضل الأول في اكتشاف التاريخ المصرى القديم، على المستوى النظرى عن طريق إشارات بونابرت المتعددة في أكثر من مناسبة الى التاريخ المصرى القديم، ففى أثناء موقعة الأهرام الشهيرة بين جيش بونابرت وبين المماليك نادى بونابرت رجاله وأشار بيده الى أهرام الجيزة قائلا لهم : (تقدموا وخذوا فى اعتباركم أن أربعين قرنا تطل علينا من فوق هذه الآثار)، بل إن اطلاق اسم "معركة الاهرام" على تلك الموقعة يمكن قبول وصفه بأنه كان من باب الفخر والهيبة(٢).

قام نابليون بنفسه بزيارة إلى داخل الهرم الأكبر ودخل الجناح الملكى والذى يرجع الى ثلاثة آلاف سنة ماضية(٣)، جنبا إلى جنب كانت إيماءاته

المتكررة إلى الحضارة المصرية القديمة التي قامت على أكتاف الفراعنة إشارة تنم عن إعجاب وتقدير لهذا القطر المصرى وريث حضارة الفراعنة وصاحب قصب السبق فى ميادين المعرفة والعلوم منذ آلاف السنين، بل أن مصر كانت هى المركز الحضارى الذى نقل عنه الغرب علومه وفنونه(٤).

على المستوى العملى كانت أعمال الحفر والتنقيب فى طول مصر وعرضها تعبر عن جهد يدفعه رغبة ملحة للكشف عن جوانب جديدة مميزة للقطر المصرى أمام أعين أوربا بما يمكن إعتباره أنبل غاية حددتها الحملة في عملها على نقل ثمرة أعمالها تلك إلى الأجيال الجديدة واضعة أمامهم كل ما يمكن إدراكه من الميراث الضخم لواحدة من أعظم حضارات العالم قاطبة(٥)، وبهذا يمكننا القول بأن علم الآثار المصرية فى العصر الحديث قد بدأ مع حملة بونابرت الى مصر فى عام ١٧٩٨(٦).

كان فك رموز الهيروغليفية المصرية على يد الأثرى الفرنسى شامبليون *Champolion* نقطة الإنطلاقة فى إكتشاف التاريخ المصرى القديم، تلك الإنطلاقة التى أدت إلى إستثارة المهتمين بأعمال البحث والتنقيب من قبل علماء الغرب – على الأقل فى المرحلة الأولى – عن الآثار القديمة، إلى جانب أنها أدت إلى إنشاء علم الدراسات المصرية القديمة.

ويعد رفاعة الطهطاوى أول من استفاد من مجهودات علماء الغرب فى هذا المضمار، إذ كشف أمامه النقاب عن تاريخ قديم لمصر كان مجهولاً فى جانب كبير منه، خاصة وأن العرف الذى كان سائداً – آنذاك – انصب حول اعتبار تاريخ ما قبل الاسلام غير قابل للمناقشة، ومن هنا كانت الكتابات التاريخية السائدة تبدأ أول ما تبدأ بخلق العالم وتنتهي بالعصر الذى يعيش فيه مؤرخو تلك الفترات(٧).

ولعل الذى فجر لدى رفاعة الاحساس بأهمية الآثار القديمة، تلك الأصداء التى نتجت عن فك طلاسم اللغة الهيروغليفية التى كانت مازالت مدوية فى باريس أثناء بعثته(٨)، ومن هنا وعىَّ أهمية بعث معالم التاريخ المصرى القديم، هذا بالاضافة الى تأثره بأعمال النهب التى طالت آثار بلاده عندما رأى فى باريس "المسلة" التى أهداها محمد على إلى الفرنسيين، وأنعكس ذلك التأثر فى مؤلفه "تخليص الابريز" اذ علا صوته مرددا صيحات الحزن على سلب آثار البلاد(٩).

لم تقتصر دعوة رفاعة للأهتمام بآثار الأجداد فقط، بل تتطلع فى مواضع أخرى إلى تعريف أهل وطنه بالمعلومات التى أستطاع أن يلم بها من جراء أحتكاكه بالغرب الأوربى محاولا نقل الصورة أمام المصريين، فقد رأى أنهم أولى بالتعرف على تاريخ أجدادهم وبذلك ربط بين المصريين الجدد وبين الفراعنة فى محاولة لربط الفرع بالجذور للتوكيد على الشخصية المصرية المتميزة، وفوق هذا يتضح لنا أن بدايات دعوة رفاعة بالاهتمام ببعث التاريخ المصرى القديم كانت على أرض الثورة الفرنسية ومنها أنطلق فى مؤلفاته إلى التركيز على عظمة هذا التاريخ، بالإضافة إلى اهتمامه بنشره بين تلاميذه حتى يكمل مسيرته التربوية لتخريج جيل من أبناء وطنه واعيا لتاريخ بلاده، مجاهداً فى ترقيته وعمرانه، ففى مؤلفه الذى أعده لتربية الناشئة كان يردد لهم القول: (لا يشك أحد أن مصر وطن شريف أن لم نقل أنها أشرف الأمكنة فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث)(١٠)، فقد كان حريصا كل الحرص على بيان عظم ذلك التاريخ القديم الذى خلفه الأجداد فى صورة آثار عظيمة يتعجب لها أولوا الألباب(١١).

كان من البديهى أن ينعكس وعيه بحضارة مصر القديمة على احساسه بمصر الوطن ليخرج لنا شعرا وطنيا يفخر فيه بأمجاد مصر اذ قال مردداً:

ديار مصر هى الدنيا وساكنها هم الآنام فقابلها بتفضيل

يا من يباهى ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل(١٢)

على هذا النحو ترجم رفاعة اهتمامه بإحياء الحضارة المصرية القديمة فى صورة تقديم مشروع لحماية الآثار، تحول بمقتضاه فناء مدرسة الألسن إلى نواة لأول متحف للآثار(١٣)، جنبا إلى جنب مع إنشاء مدرسة "اللسان المصرى القديم" التى كان الغرض منها تعليم اللغة الهيروغليفية وآدابها، بالاضافة إلى أن مجلة "روضة المدارس المصرية" تبنت مشروع الأهتمام بالتاريخ القديم عن طريق نشر الأبحاث والمقالات المنصبة عليه(١٤)، تلك المقالات التى ساعدت بدورها على ابراز الجوانب المضيئة فى الحضارة المصرية القديمة ومن ثم زاد التأكيد على خصوصية الوطن المصرى.

وبناء على ما سبق توفرت للمصريين الوسائل التى تعرفوا عن طريقها على تاريخ بلدهم، حيث كان رفاعة واحدا ممن كانوا لا يدعون مناسبة إلا وتطرق فيها إلى الإشارة لأمجاد مصر القديمة وتميزها، ففى خطبة له بمدرسة الألسن أكد على ذلك التفرد بالقول : {أما بعد فلما كانت مملكة مصر بمقتضى الحكمة الالهية ممتازة عن سائر ممالك البرية بأنها أهل لسيادتها على جميع الممالك وكأنها ما برأها البارى الا لذلك وهو أعلم بما هنالك كما يدل عليه ما سبق لها فى الأحقاب الخالية والأزمان المتعاقبة المتتالية}(١٥)، وعلى صدر إفتتاحية مجلة "روضة المدارس" يؤكد رفاعة على أن من يطلع على فوائد كتب الآثار التاريخية يستطيع بكل يسر أن يصل إلى الأنفراد والتميز الذى وصلت إليه مصر عن سائر الممالك بفضل سمو درجتها ونمو بهجتها(١٦).

وأخيراً حمل رفاعة على عاتقه مهمة كتابة تاريخ لمصر يبدأ من أقدم عصورها حتى يصل إلى العصر الذى يعيش فيه، ومن هنا كان مؤلفه "أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل" تعبيرا عن حبه لوطنه الذى نشأ عن إعجابه وافتخاره بماضى الأمة المصرية - إن جاز التعبير - وهكذا أراد

أن يقدم لأبناء وطنه ما يساعد على ترسيخ فكرة الوطن فى أذهانهم(١٧)، وقد ظهر ذلك أيضا بصورة جلية عندما خصص الباب الأول من مؤلفه "بداية القدماء وهداية الحكماء"* فى الكلام عن المصريين القدماء، وقد بدأه بالقول: [القطر المصرى جزء من أفريقية وهو أقرب أجزائها لآسيا يفصله عنها البحر الأحمر]، تلك الجملة التي أقر بعكسها الخديو إسماعيل فى فترة لاحقة، على أية حال ركز رفاعة حديثه عن خصوبة أرض مصر والخيرات التي جلبها نيلها السعيد.. إلخ(١٨).

وقبل أن يقوم رفاعة بسرد تاريخ مصر القديم وتوضيح محاسنها أكد على تمدن الأمة المصرية وترقيها حيث قال: [ودلت التواريخ على أن المصريين من أقدم الأمم المتمدنة وكانت هذه المملكة من منذ زمن النبيين زاهية مزهرة...](١٩)، وبين الفينة والأخرى يؤكد الطهطاوى على خصوصية المكان وسر تفوق أبنائه، وشهرتهم ذائعة الصيت في العلوم والفنون... إلخ، جنبا إلى جنب تمجيده لعقلية المصرى القديم باني الأهرامات ومشيد آثارها العظيمة، وآثار المصرى فى الكتابة الهيروغليفية، ومن ثم أخذ فى سرد الأشعار العديدة التى تغنت بجمال مصر وسحرها، وفى نهاية مؤلفه لم يفت أن يكتب تذييل عن أصول معبودات المصريين التى لفتت إنتباه الكثير فى داخل القطر وخارجه(٢٠)، وبهذين العملين يكون رفاعة قد أقدم على الدعوة إلى إحياء التاريخ المصرى القديم، حاملاً إحساسا عاليا من الإيمان بخصوصية الوطن المصرى واضعا يده على الدليل العملى وراء ذلك الأحساس، ذلك الدليل الذى تمثل فى عظمة الحضارة المصرية القديمة، ومن ثم يعتبر رفاعة واضع لبنة من لبنات بناء صرح الوطنية المصرية فى العصر الحديث.

على كل حال سار على مبارك على نفس نهج رفاعة فى الإعتزاز بتاريخ المصريين القدماء، ونلمس ذلك جليا من خلال مؤلفه "علم الدين" فهو دوما يسعى

على تأكيد فضل مصر على سائر الأمم الأخرى، لما تميزت به من تقدم وعمران في العلوم والفنون وسائر المعارف الأخرى، من خلال سرد تاريخها والتوقف عند آثار مصر الفرعونية مشيرا إلى براعة المصريين القدماء مستحضرا الصورة أمام أبناء بلده عندما تحدث عن كيفية بناء الاهرام ومقاييس بنائها، مع لفت الأنظار دوما إلى مردود تلك العظمة النابعة من قدرة المصرى وشدة مهارته وعلو أفكاره(٢١).

ولا يفوته أن يشير إلى المسلة المصرية في باريس بقوله : {هذا أثر من آثار المصريين الذين أخنى عليهم الزمان دال بذاته على عظم قدرتهم وقوة بأسهم وسطوتهم وغزارة علومهم ورزانة عقولهم...}(٢٢)، لقد سعى على مبارك من خلال إشاراته المستمرة إلى ترسيخ الإيمان بماضى الأجداد الدال على عظمتهم، حتى ينفض المصرى عن كاهله الخمول ويسعى جاهدا في العمل على تقدم وعمران بلده ليصل بها إلى نفس المرتبة التى وصل اليها أولئك الفراعنة.

ومن هذا المنطلق خصص بعض الأجزاء من "الخطط التوفيقية" للحديث عن آثار مصر وعلاقة مصر بجاراتها في العصر الفرعوني، وفوق هذا نقل ما سرده المتحدثين عن الأهرام شعرا مثل قول أحدهم :

خليلىّ ما تحت السماء بنية   تماثل فى إتقانها هرمى مصر

وقال آخر : تبين أن صدر الأرض مصر   ونهديها من الهرمين شاهد(٢٣)

على كل الأحوال، لم يقتصر الاستشهاد بالتاريخ المصرى القديم على المفكرين المصريين بل ذهب الولاة الأتراك أيضا الى العزف على ذلك الوتر، فسعيد باشا في أثناء خطبة له تحدث قائلا : { .. إنى نظرت في أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض . فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والاشوريين

والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان هذا قبل الإسلام وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة ..}(٢٤)، اذا ربطنا تلك الاشارة التى كان وراءها علم بتاريخ المصريين، وبين اهتمام وتشجيع سعيد باشا للدراسات التى قدمت عن تاريخ مصر الفرعونية، يمكن القول بأنه أسهم بدوره فى إنجلاء ذلك التاريخ أمام المصريين ليسهم فى بلورة وعيهم بتاريخ بلدهم، حيث أصبحت مصر محور أهتمام علماء الغرب للبحث والتنقيب فى مجال علم المصريات، ولعل اشهرهم فى ذلك الوقت كان المسيو أوجست مرييت *Auguste Mariette* الذى أسهم فى هذا المجال من خلال موقعه كمدير للمتحف المصرى، الى جانب جاستون ماسبيرو العالم الأثرى الشهير(٢٥).

ساهم عصر إسماعيل باشا إيضا فى تدعيم الهوية الوطنية المصرية، وقد ظهر ذلك فى مناسبات عديدة من خلال التأكيد على خصوصية القطر المصرى من خلال الإشارة إلى أمجادها القديمة وقد حدث ذلك – على سبيل المثال – عند افتتاح مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦، فى قول النواب : { .. إن ما قطفناه من زواهر الأخبار التاريخية وعرفناه من سوالف آثار الديار المصرية، أنها كانت فى الأعصار الخالية رافلة فى حلل المفاخر الحالية، وأن بقية الأقطار كانت تستمد من نيل معارفها الوافر، معترفة بأنها مغترفة فى الأصل من نيل عوارفها الزاخر..}(٢٦) وربما كانت هذه الأشارة السريعة إلى أمجاد مصر القديمة وليدة الأحداث المتلاحقة التى ساهمت فى نضوج الوعى المصرى.

وقد تم إنشاء أول مدرسة للدراسات الأثرية فى القاهرة عام ١٨٦٩، تلك التى قام بتأسيسها العالم الألمانى هنرى بروكش، الذى أسهم فى تخريج وظهور الأثريين المصريين الذين وجهوا عنايتهم نحو دراسة تاريخ مصر القديم أمثال محمود الفلكى وعلى بهجت وأحمد كمال* الذى أعتبر أول مصرى فى العصور

الحديثة يبرع فى دراسة اللغة الهيروغليفية وفى كتابة تاريخ مفصل عن مصر القديمة(٢٧)، ومن ثم أسهم بدوره فى بلورة الوعى بأهمية مصر الوطن.

قياسا على ذلك، يعد أحمد كمال استجابة منطقية لأهتمام علماء الغرب بالتاريخ والحضارة المصرية، بالاضافة إلى إيمانه بعظمة مصر القديمة ورقى حضارتها، وبهذا خرج علينا بالعديد من ثمار بحثه وجهده فى هذا المضمار ما بين جهود نظرية تمخضت عن تقديم دراسات وابحاث إلى جانب عمله على نشر الثقافة الأثرية فى القطر المصرى والعمل على تخريج أثريين مصريين يضعون نصب أعينهم الأهتمام بالحضارة المصرية القديمة، إلى جانب جهود عملية تمثلت فى الرحلات الاستكشافية والتفتيشية، فضلا عن أعماله فى المتاحف والحفائر(٢٨)، وهكذا قدم الرجل لمصر الحديثة كل ما يمت بصلة لماضيها الغابر عبرة وعظة وأقتداء بحضارة الفراعنة.

تحسن الإشارة هنا أنه الى جانب هؤلاء الأثريين المصريين الذين أنتجوا أعمالا تاريخية عن مصر الفرعونية، كان المثقفون المصريون يلعبون دورا هاما فى إلقاء الأضواء بين الفينة والأخرى على ذلك التاريخ موجهين أهدافهم نحو أبناء مصر عاملين على إيقاظ هممهم وإثارة حميتهم، فالأفغانى سلك مسلكا معتدلا فى مخاطبة المصريين حيث يذكرهم بعظمة أجدادهم الفراعنة قائلا : {أنظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيوة، وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة وأجدادكم..}(٢٩).

نشر حسين أفندى زكى* كتابا تحت عنوان "مختصر تاريخ الأمم الشرقية القديم"**، وقد ذكر أن بعض أصدقائه دفعوه لتأليف كتاب تاريخى، فقام هو باستخراجه من اللغة الفرنسية وترجمه إلى اللغة العربية فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى، وقد كان الكتاب مقسما إلى أربعة أجزاء، يعنينا منه الجزء الأول

الذى جاء تحت عنوان "الكلام على مصر" شاملا على أصول تاريخ مصر فى الأزمان الخالية، وقد أستقى المؤلف معلوماته من التوراة وكتابات المؤرخين الثلاثة، هيرودوت، ديودر الصقلى واسترابون، وكذا الكاهن المصرى مانيتون، وقد أكد صاحب الكتاب، على القول المشهور بأن فك رموز الكتابة المصرية القديم قد زاد من منفعته وأهميته الاستكاشافات الأثرية التى كانت جارية فى مصر وقتئذ(٣٠).

علاوة على هذا، ذكر حسين أفندى أن بعض البلاد الأجنبية كإنجلترا وألمانيا حرصت على إلقاء العديد من الدروس التى تتعلق بمعرفة آثار مصر وعوائدها فى مدارسها، وتنقل المؤلف كذلك بين صفحات مؤلفه ساردأ تاريخ عائلات الملكة المصرية القديمة والوسطى والحديثة، ولم يغفل كذا الحديث عن النيل وفضله على المصريين، إلى جانب إشارته لجهود ميرييت باشا الاستكشافية(٣١).

فى النهاية ختم مؤلفه بباب عن تمدن المصريين حيث ذكر [أنه كلما أمعن الإنسان النظر فى معرفة مصر وتاريخ الأمم الشرقية ينكشف له الغطاء عن أصل هذا التمدن](٣٢).

لم يغفل محمد عبده الإشارة الى الاستكشافات الأثرية التى أستمرت تنقب وتبحث وراء التاريخ المصرى القديم فقال مرددا : { .. إن فى هذه الآثار لدليل على أن سكان هذه الأقطار السعيدة كانوا على جانب عظيم من التقدم فى الصناعة على أختلاف أنواعها ..}(٣٣)، وفى موضع آخر ردد القول : { .. أن مملكة مصر كانت فى سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك وكعبة يؤمها كل سالك وناسك ..}(٣٤)، إن روح الفخر بهذا الماضى تنبعث من حديث الأمام، وهذا الشعور بدأ يأخذ مكانه تدريجيا ضمن اهتمامات المصريين بفعل الأهتمام بعلم المصريات وما كشفه من كنوز المصريين القدماء.

قـام النديم بدوره بالإشـارة الى التـاريخ القـديم تحت عنوان "ملخص من بداية القدمـاء" قائلا: {.. دلت التواريخ على أن المصريين من أقدم الأمم المتمدنة وكانت هذه المملكة من عهد الأنبياء زاهية بهية ...}(٣٥).

وقد أدلى أديب إسحق بدلوه فى الإشادة بعظمة المصريين القدماء فيقول : {.. نكتفى بالنظر الى عظمة الأهرام وجمال هيكل لقصر لنتيفن إن هذه الأعمال هى نتيجة تمدن عظيم لا نتيجة طاعة ناقصة}(٣٦)، وقد خرج من هذه الاشادة مستفسرا عن علة التأخر الذى وصل إليه المصريون بعد بلوغهم أعلى درجات التمدن !

أما أحمد عرابى فإنه يستدل من خلال مذكراته بالتاريخ المصرى القديم على أن احتلال الانجليز لمصر سيكون مؤقتا بفضل همم وسواعد أبناء مصر المدافعين عنها من سالف الزمن حتى العهد القريب، فأعتبرها مقبرة لكل من أعتدى عليها وأحتلها ببطشه وجبروته، ووجه حديثه للناشئة لكى تعمل ليل نهار لاسترداد المجد المصرى القديم(٣٧).

وهكذا الحال فى فترة ما بعد الاحتلال البريطانى فكانت علاقة مثقفى مصر بالتاريخ المصرى القديم ذات شقين، مثل الشق الأول منها جانبا نظريا تمثل فى إلقاء اشارات عابرة فى أحاديثهم وخطبهم عن الحضارة المصرية القديمة فى محاولة لإيقاظ الروح الوطنية المصرية، فقد وقف مصطفى كامل أمام تلاميذ مدرسته فى احدى خطبه قائلا : { .. أما أن لكم أن تنظروا للأهرام وتقولوا إنا أحق الأبناء بمجد الآباء...}(٣٨)، وبذلك أظهر أمام النشء أن المصرى هو سليل الأمة المصرية القديمة حاملة لواء المدنية والحضارة.

أما لطفى السيد فقد أتخذ من الاعتزاز بأمجاد التاريخ المصرى على قوة مصر وقابليتها للارتقاء وحقها الطبيعى فى الاستقلال والسيادة، بإعتبار الأمة

المصرية الحاضرة لم تكن ذات وجود مستقل عن الأمة القديمة، وبذلك يؤكد على الجسم الواحد للأمة المصرية، ويمكن إستشفاف النزعة الوطنية فى اهتمام لطفى السيد بالألمام بالآثار القديمة ومعرفتها للوصول الى معرفة معالجة الحال وبذلك يتبدل مستقبل سعيد للقطر المصرى(٣٩).

تمثل الشق الثانى فى الدعوة الى دراسة التاريخ المصرى الذى استبدلته سلطات الاحتلال بسرد التاريخ الأوربى(٤٠)، وهكذا لم يعد ثمة تاريخا وطنيا يدرس فى المدارس المصرية(٤١) كمحاولة من قبل سلطات الاحتلال لطمس معالم هوية الوطن المصرى لإخراج جيل من المصريين يجهل تاريخ بلاده.

وهنا إنبرت الأقلام الوطنية فى تحقيق تلك الدعوة والعمل على نشرها بين أبناء الوطن، فأفسح مصطفى كامل عن مقصده بالقول : {أقصد بتعليم التاريخ أن يعرف المصرى أنه إن كان من سلالة الأمة المصرية القديمة فهو ابن الأكرمين وسلالة أئمة المتمدنيين}، وقد هدف من وراء ذلك أن يتحقق بتعليم النشء تاريخ بلدهم إدخال حب مصر فى أفئدتهم(٤٢)، وبهذا يصلون بوطنهم المصرى إلى أعلى درجات الرقى اقتداء بتاريخهم المجيد.

وفى محاولة من لطفى السيد لمساندة الدعوة لدراسة التاريخ المصرى قال أنه لا يطلب من أبناء الوطن أن يصلوا لمقدرة شامبليون أو ماسبيرو أو أحمد كمال فى العلم بالآثار المصرية، ولكن المطلوب من وجهة نظره هو {محاضرة مستمرة ودرس دائم فى الجامعة المصرية أو غيرها من دور العلم يسهل السبيل على أبناء مصر أن يعرفوا ماضيهم لا على الوجه العلمى الدقيق ولكن على الوجه الذى يعرفه السياح الاوربيون من آثار وتاريخ أجدادنا الأقدمين}(٤٣).

ولاشك أن المثقفين المصريين أستطاعوا أن يسهموا فى نمو تيار الوطنية المصرية لدى أبناء الوطن، وذلك من خلال محاولتهم الدؤوبة للإشادة بالتاريخ

المصرى القديم ومن ثم بالكيان المستقل للأمة المصرية، وكذا العمل على تأصيل الروح الوطنية المصرية، وبهذا ساهموا فى سلخ مصر الفرعونية رويدا رويدا عن مصر العثمانية التى كانت فى مخيلة الكثير لفترات طويلة لتفسح المجال أمام إيجاد أمة مصرية مستقلة سياسيا واداريا وتاريخيا عن جسم الدولة العثمانية، ولا جدال أن ظهور الدعوة الفرعونية بين أقباط مصر - كما سبقت الاشارة - كانت إنعكاسا لإكتشاف التاريخ المصرى القديم.

وجنبا إلى جنب كانت المؤسسات الثقافية كالصحافة تهتم بالقاء الأضوء على التاريخ المصرى القديم، "فالأهرام" على سبيل المثال أدلت بدلوها بالمعلومات وإن ثبت عدم صحتها فيما بعد عن الآثار المصرية(٤٤)، وكانت جريدة "الفلاح" - رغم نزعتها العثمانية - تنقل لقرائها أخبار الاكتشافات الجديدة، فقد نشرت أقتراح مدير الانتكخانة المصرية بإنشاء جريدة عربية تبحث فى تاريخ كل قطعة من هذه الآثار المستكشفة، وقد أوردت استحسان الحكومة المصرية للاقتراح ومساندته ماليا، بالإضافة إلى تناول صفحاتها للتاريخ المصرى القديم بروح وطنية، اذ نشرت مقالا تحت عنوان "أحوال الأقدمين فى مصر" يظهر مدى إعجاب المصرى بماضى أجداده(٤٥).

وقد تناولت جريدة "العلم المصرى" فى معرض حديثها عن مقام مصر بين الدول، فعددت مزايا القطر المصرى جغرافيا وسكانيا، وألمحت إلى التاريخ المصرى القديم مشيدة بسكان القطر المصرى القدماء الذين حققو تقدم البلاد وعمرانها ورفع شأن المصرى الى مرتبة عالية من المدنية(٤٦).

وقد كتب زكى حاتم تحت عنوان "مصر والمصريون" مشيدا بتاريخ الأمة المصرية، مدللاً بتسابق السائحين الى زيارة القطر المصرى لمشاهدة آثار تلك

الأمة الخالدة الذكر، بل والعمل على استعراض جزء من تاريخها القديم فيما يخص معتقدات المصريين ومعبوداتهم وفنونهم وعلومهم(٤٧).

وتمشيا مع ذلك أعتبرت بعض الصحف حكام مصرهم ورثة المصريين القدماء، فقد نظرت جريدة "الحرية" إلى توسع محمد على بازدراء عبرت عنه بقولها : {..طمحت نفسه إلى نيل الخلافة لأنه لم يكفه عرش الفراعنة فبعث بولده إبراهيم إلى سوريا ليمتلكها عنوة ... } وهكذا أعتبرت محمد على وريث عرش الفراعنة العظام(٤٨).

وعلى هذا المنوال نسجت معظم الصحف المصرية آمالها فى إحياء الأمة المصرية من مرقدها بإعتبارها سليلة المجد وأمة الفراعنة الأولين ومقبرة الأمم، اذ لعبت بالدهر ولم يستطع أن يلعب بها، فكانت عظمة تاريخها هى الدالة على ذلك، وقد أعتبرت أبناء مصر بكونهم أحفاد الفراعنة قد ضلوا سبيل أجدادهم وذلك بعدم سعيهم للحفاظ على حياتهم وبقائهم من أن تدوسه الأمم القوية(٤٩).

ومن جانبها عرضت مجلة "المفتاح" صورة للمصرى القديم صاحب أعظم الأختراعات والاكتشافات ناسبة إلى المصريين القدماء أعظم حضارة عرفها العالم بأجمعه، هذا بالاضافة إلى رصد المقالات الدالة على درجة التمدن والتقدم التى وصل إليها المصرى القديم فى العديد من المجالات(٥٠).

وقد قدمت مجلة "المقتطف" العديد من المقالات التى تكشف عن جوانب كانت خفية فى حياة المصريين القدماء، فعرضت لعاداتهم وتقاليدهم فى المناسبات المختلفة، وفوق هذا تابعت المجلة الاكتشافات الحديثة أولاً بأول(٥١).

صفوة القول أن المقالات قدمت كماً من المعرفة عن الحضارة المصرية القديمة، تلك التى كان يجهلها أبناء الوطن، ومن ثم ساهمت فى توعيتهم بتاريخ بلادهم، والمقصود من العرض السابق أن عملية الإدغال فى التاريخ والاهتمام

بالبحث عن وسائل تحديد الهوية الوطنية المصرية كانت هى الشغل الشاغل لقطاع كبير من الشعب المصرى، صب جُل همه على هذا الجانب المضيئ من تاريخ الوطن المصرى نائيا - إلى حد ما - الى الالتفات لتلك الدعوة التى كانت سائدة داخل المجتمع المصرى آنذاك والتى تعنى وجود رابطة اسلامية تذوب فيها القطرية.

٢ - تأسيس أسرة حاكمة تتوارث عرش مصر :

أنفرد القطر المصرى بوجود سلطة مركزية قوية فى ظل حكم محمد على الذى كان بعيداً كل البعد عن أى تفكير ديمقراطى، إذ غلبت عليه الصفة الديكتاتورية الشرقية التقليدية(٥٢)، خاصة وأن الصورة أمامه لم تكن كاملة التبلور لكى يفكر فى تأسيس حكم يسمح فيه للبعض للمشاركة فى سياسة الحكم نظرا - على الأقل- لظروف عصره، أمـا القول بأن حكم محمد على لمصر مثل فترة حكم ليبرالى(٥٣) فهو قول مرفوض تماما، لعل تلك الظروف قد ساعدت على خلق كيان مصرى متميز، ذلك الكيان الذى ساعدت معاهدة لندن ١٨٤٠ على الاعتراف به.

فوجود أسرة حاكمة تتوراث عرش مصر مخالفا لما كان عليه نظام الحكم قبل تولية محمد على جعلها مرتبطة بشعب مصر من جهة، ومن جهة أخرى أعطى لمصر شخصية متميزة عن سائر الولايات الأخرى داخل الأمبراطورية العثمانية(٥٤)، وقد ضاعفت معاهدة لندن من الأحساس بالكيان المستقل الذى نتج عن الأمتيازات التى بمقتضاها أصبح حكم مصر وراثيا، وتمتعت مصر بقدر من الاستقلالية فى شئونها الداخلية، إذ يمكن القول بان هذه المعاهدة اشتملت على القاعدة التى بنى عليها الاستقلال المصرى.

ومن ثم تميزت الفترة التى تلت عصر محمد على خاصة عصر اسماعيل باشا بالشد والجذب بين مصر والدولة العثمانية، فالباب العالى يسعى جاهدا لتقليص الإمتيازات التى تمتعت بها مصر فى ظل معاهدة لندن ١٨٤٠، واسماعيل باشا من جانبه يبذل أقصى ما فى وسعه ليزيد من إمتيازات مصر اذا لم يستطع أن يحقق الاستقلال التام(٥٥).

ولامراء أن إسماعيل باشا كان له النصيب الأكبر فى تثبيت أقدام أسرة محمد على وذلك عن طريق الفرمانات التى استطاع استصدارها من الباب العالى عاملا من خلالها على توسيع قاعدة الاستقلال الذاتى المصرى الذى كاد أن يدنو من الاستقلال التام(٥٦)، ناهيك عن الصورة الفخمة التى كان عليها الموكب الذى صاحبه فى زيارة للأستانة للحصول على تلك الفرمانات، حيث صحبه اسطول فخم من سفن ترفع العلم المصرى، بما وُصف أنه الأول والوحيد الذى يفعل هذا بعد أساطيل الفراعنة منذ آلاف السنين(٥٧).

وإذا كان محمد على قد حقق استقلال مصر بقوة السيف فإن اسماعيل باشا كان مغايرا إذ أتبع سياسة جديدة وهى الاعتماد على قوة المال*، ومن ثم أستطاع أن يحصل فى النهاية على عرش خاص له ولذريته وملك يضاهى به السلطان العثمانى فى الآستانة وبشهادة معاصريه فقد استطاع أن يكون حكومة {أنفردت دون نظيراتها بمحاولة التقدم والرقى إطلاقا فى كل ما يتصل بأسباب الحضارة الحديثة}(٥٨).

وفى تصورى أن عوامل التشجيع التى لقيها اسماعيل باشا من بعض الصحف الأجنبية كانت لها صدى فى وعيه، اذ كانت تلعب دور المحرض على الاستقلال عن الدولة العلية، ففى الدراسة التى قدمها محمود نجيب أبو الليل توصل إلى أن الصحف الفرنسية حملت هجوما شديدا على سياسة الخضوع

للسلطان العثماني محرضة إياه على الاستقلال السياسي. وبلهجة جريئة تنشر بأنها {لا تسمح للأسرة الحاكمة الإسلامية المصرية أن تضع نفسها بمحض إختيارها من ناحية الاستقلال السياسي في مرتبة أقل عن مرتبة باى تونس أو امبراطور مراكش}، وفي موضع آخر إشارة إلى {أن مستقبل مصر في استقلالها، وان تعاون الاوربيين ضروري لها للحصول على هذا الاستقلال}(٥٩)، وهكذا نجد دعوة صريحة للانفصال السياسي من وجهة نظر أوربية ترى مصر جديرة بهذا الاستقلال.

وكان الخديو اسماعيل بدوره يؤكد على استقلاليته في مواضع عديدة، ففي أثناء حفل افتتاح قناة السويس أصدر الدعوة بإسمه إلى الأباطرة والملوك والأمراء ليدعوهم إلى حفل افتتاح القناة، وقد أُستقبل في كل بلاط كملك مستقل، وبهذا تخطى قواعد البروتوكول المتبعة في كون الدولة العلية هي الواجهة الخارجية لتعاملات مصر مع العالم الخارجي، وهذا ما يدعم الفكرة القائلة باستقلالية الأسرة الحاكمة في مصر عن كافة أوجه التبعية للدولة العثمانية.

فعندما أرسل الخديو اسماعيل نوبار باشا ليمهد الطريق أمام حكومات أوربا بصفته مفوضا من قبل خديو مصر يكون قد أكد استقلالية الأسرة الحاكمة التي حكمت مصر بشكل متتابع في تعاملاتها الخارجية، اذا ما أعتبرنا أن العلاقات الخارجية المصرية تسير وفق ما يشبه وزارة الخارجية في العصر الحديث، حيث أصبحت آنذاك أهم رموز السيادة المصرية، حيث عكست مدى ما حصلت عليه مصر من مظاهر الاستقلال الوطني(٦٠).

أدت هذه المتغيرات من فرمانات وإصرار على الأحتفاظ بالوضع شبه المستقل في علاقات الأسرة الحاكمة بالعالم الخارجي إلى تحقيق جزء من الطموح السياسي الذي أبتغاه كل من محمد على باشا والخديو إسماعيل والذي

أكد من خلاله علي وجود الخصوصية المصرية كشئ ملموس أنعكس في تفرد مصر عن سائر ولايات الامبراطورية العثمانية، ورسخ وجود أسرة محمد على على عرش مصر، حيث نجحت مصر من خلال صراعها مع الدولة العثمانية أن تتجاوز وضعها القانوني بصفتها ولاية في تلك الدولة لا يجوز لها أن تستقبل ممثلين سياسيين، فأصبح لها وزارة للخارجية منذ عام ١٨٢٦ تحت اسم "ديوان التجارة والأمور الأفرنكية" وأصبح لممثلى الدول صفة سياسية وإن استمروا بلقب {قنصل جنرال ووكيل سياسى}(٦١).

ومع تسليمنا بأنه لم يكن في مقدرة الخديو اسماعيل الحفاظ على تلك الاستقلالية، فالخديو توفيق كان معول هدم لمركز مصر المستقل، اذ بفضل معاونته للإحتلال البريطاني على تثبيت أقدامه ساعد على فقدان مصر لاستقلالها الذاتي، إلا أننا لا نستطيع أن نبخس الرجل حقه في رصد بعض المحاولات التي تنم عن استقلالية فترة حكمه - إلى حد ما - تلك التي ظهرت من خلال الدراسة التي أعدها يونان لبيب رزق(٦٢) لجريدة الأهرام، التي تم من خلال مقالاتها لعام ١٨٨٣ رصد لثلاثة أحتفالات شهدتها سراى عابدين لتسليم أوراق أعتماد ثلاثة من ممثلى الدول الأوربية والآسيوية كان أولهم قنصل ايران وثانيهم قنصل المانيا وثالثهم قنصل اوستريا (النمسا)، بما ينم عن أحتفاظ مصر على المستوى الخارجي بمعاملاتها المتميزة.

فبالمقارنة بين المركز الذي أحرزته نظارة الخارجية في عهد الخديو إسماعيل بمركزها إبان فترة الاحتلال البريطاني، نجد الفارق الهائل، اذ {رجعت مرة أخرى النظرة إلى المصريين في البلاد الأوربية على أنهم تابعون لسفارات الدولة العثمانية}(٦٣)، وكان على ناظر الخارجية ألا ينطق ببنت شفه فيما يتعلق بالمعاهدات التجارية أو غيرها التي بين مصر والدول الأخرى ما لم يؤخذ رأى

اللورد كرومر(٦٤)، حيث أعتبرت الشئون الخارجية لمصر ذات أهمية خاصة لحكومة جلالتها، فلم تتعد مهام ناظر الشئون الخارجية المصرى الأعمال البسيطة حيث أصبح مجرد أداة اتصال بين ممثلى الدبلوماسية الخارجية فى بلاط الخديو وحكومة مصر، وكوسيط إيضا بين الحكومة والقوى الخارجية من أجل تحقيق أهداف عملية لنظارة الشئون الخارجية فى دار المعتمد البريطانى(٦٥).

فعلى الرغم من أن الخديو عباس كان على غير شاكلة والده الا أنه لم يستطع أن يستعيد مجد جده الخديو إسماعيل، حيث باءت معظم محاولاته ليظهر بمظهر المستقل أمام سلطات الاحتلال بالفشل، ومن أمثلة ذلك موقفه من الوزارة الفهمية، كذا حادثة الحدود ١٨٩٩، على أن كلتا الأزمتين قد أثبتتا رفض الخديو بأن يلعب دورا صغيرا على مسرح السياسة المصرية، ذلك الدور الذى رسمه له اللورد كرومر(٦٦)، النابع من سياسة عامة أقرتها سلطات الاحتلال منذ أن وطأت بأقدامها أرض مصر، وهى المحافظة على السيادة العثمانية جنبا إلى جنب مع الحفاظ على نظام الخديو، وإن إستطاع المحتل أن يفرغ الساحة السياسية من تأثير هاتين القوتين ليستأثر بالنفوذ الكامل(٦٧).

ولعل تلك السياسة التى أتبعها اللورد كرومر مع الخديو عباس كانت السبب فى ازدياد النزعة الوطنية لديه، إذ كان يردد دائما أنه يفضل الموت على أن يتنازل عن أقل جزء من حقوقه، ويمكن بسهولة إرجاع تلك الروح لإيمانه بجهود مؤسس مصر الحديثة فى جعل مصر أمة حرة نسبيا، تلك الأمة التى وجد أن نمو شعورها الذاتى والوطنى كان فى عهد جده وأبيه، حتى وصل إلى قمته فى عهده(٦٨)، فقد ذكر علوبة باشا عن الخديو عباس بأنه شاع عنه أنه قال للمحيطين به (إما أن أكون خديويا بالمعنى الصحيح واما أن أحمل حقيبتى) أى يترك الحكم... ومن ثم شايع الخديو عباس رغبات المصريين وآمالهم وظهر

بمظهر الوطنى الغيور ففرح الناس به وتوسموا الخير فى حكمه وأحبوه غاية الحب(٦٩). ومن هنا صدقت رؤية اللورد كرومر فيه بأنه (سيكون مصريا بحتا)(٧٠).

فمع نهاية عام ١٩١٣ توجهت الأنظار إليه بإعتباره ملكا لا ينقصه غير اللقب الملكى والتاج والصولجان، ضاربة عرض الحائط بكون مصر تعد ولاية تابعة للدولة العثمانية، مكبلة بتعهدات تمس سيادتها، علاوة على أن خضوعها للعثمانيين كان من نتائجه أنها أصبحت ايضا تحت الوصاية الدولية(٧١)، فقد رأت وجهة النظر تلك أن مصر أصبحت فى مصاف الممالك المستقلة، وأن عباس حلمى الثانى أصبح فى مصاف ملوك أوربا لا ينقصه غير تعيين السفراء فى الممالك الأجنبية وعقد المحالفات السياسية والحربية واستقلاله بعلم خاص ببلاده ووضع اسمه على نقوده(٧٢).

ونحن بدورنا نرى أن الخديو عباس قد حافظ على مركز مصر المستقل، حيث إستطاعت فى عصره أن تحقق أسباب سيادتها وفخرها(٧٣) بمعاونة أبناء مصر الوطنيين – هذه المرة – عن الدولة العلية، وإن كان ينقصها الأهم وهو مركزها المستقل عن الاحتلال البريطانى، إذ كانت تلك المسحة المستقلة تحت عباءة احتلال قابض على أرضها استطاع أن يسير دفة الأمور داخل القطر المصرى كما شاء مع رياح الحرب العالمية الأولى.

وهكذا فإن الوضع الذى آلت إليه مصر لا يمنعنا من القول بأن وجود أسرة حاكمة حكمت الشعب المصرى لمدة طويلة – كأسرة محمد على – كان عاملا هاما فى إعادة خلق "الأمة المصرية" التى توالت عليها الأمم المختلفة فى محاولة لطمس معالم بقائها ووجودها، ومن ثم أسهم وجود هذه الأسرة فى نمو تيار الوطنية المصرية، فالمعلوم أن خضوع شعب لنظام حكم ذا معالم محددة

يؤدى إلى توحيد إنظمته وقوانينه واداراته، ومن ثم تزداد الأمة ترابطا(٧٤)، وهذا الذى حدث داخل أركان الدولة المصرية الوليدة، فوجود أسرة حفظ لها بقائها ورسخ ذلك العامل الذى هيأ الاعتراف بوجود الأمة المصرية بمرور الوقت، مما خلق فى النفوس شعوراً عاماً بوجود دولة مصرية مستقلة عن جسد الدولة العثمانية.

٣ - التوسع المصرى وفكرة الامبراطورية المصرية :

منذ أن شرع محمد علي فى تشييد الدولة الحديثة داخليا وخارجيا، أعتبر ذلك نقطة تحول فى تاريخ مصر، الذى ختم عهده بمعاهدة حفظت للأسرة الحاكمة وجودها فى البلاد، إلا أنها فى نفس الوقت حطمت طموحاته الرامية إلى تأسيس إمبراطورية مصرية عظمى، كما وصفها البعض بذلك(٧٥)، ومن هذا المنطلق يمكن التساؤل لمعرفة هل كانت فتوحات محمد علي من أجل تكوين دولة مصرية له ولأسرته يكون هو حاكمها الأوحد ومن بعده أبناؤه وحفدته؟ أم سعى لتكوين إمبراطورية عربية تضرب عرض الحائط بالامبراطورية العثمانية؟ أم أنه كان عثمانيا إسلاميا فى مسعاه؟ إن خوض غمار هذه القضية بالمناقشة سيعرفنا بالدليل إلى أى مدى كان التوسع المصرى لصالح الأسرة الحاكمة أكثر منه للقطر المصرى، وإن كان فى نفس الوقت قد حقق قدرا من علو الشأن والمنزلة الرفيعة للمصرى عموما فى هذا المجال، وساهم فى نمو فكرة الخصوصية المصرية فى عقول الكثير من أبناء الوطن، وقرب إليهم مجد أجدادهم الذين استطاعوا فى الماضى البعيد أن يضربوا بقوتهم ومجدهم حول أنفسهم سياجاً من الحدود التى أصبحت جزءً من امبراطوريتهم العظيمة.

بادئ ذى بدء يمكن توضيح أن مصر التى رسم سياستها محمد علي كانت تقوم على الاحتفاظ بها وتقويتها والذود عنها فى أى وقت(٧٦)، ومن ثم عزم على

أن يؤسس فيها ملكا وراثيا، ومن هذا المنطلق سعى للانفراد بالسلطة والعمل على إصلاحها وإنعاشها ليرقى بها إلى مصاف الأمم المتقدمة[٧٧]. وكذا يحقق له ولأسرته قدرا من الاستقلالية، لا أن يستولى عليها والٍ آخر يأتى من بعده، وكانت تلك صورة واضحة لوالى طموح مثل محمد على، خاصة وأنه يعلم خصوصية هذا الأقليم وما يتميز به عن سائر الأقاليم الأخرى.

وقد آثارت سياسة محمد على الخارجية تجاه الدولة العثمانية جدلا كبيرا بين العديد من الكتاب أفضت فى النهاية إلى خروج وجهتى نظر مختلفتين، فالأولى : ترى أن محمد على كان يرمى إلى تكوين إمبراطورية قوية مستقلة عن الباب العالى[٧٨]، فقد ساق صاحب كتاب الكافى القول: {وأشتدت رغبته فى هدم أركان الدولة العثمانية وأخذ سائر ما بيد سلطانه من الايالات وتدمير معالم الخلافة}،[٧٩] وقد أكدت وجهة النظر هذه أن محمد على كان يهدف إلى أن يصبح ملكا مستقلا مكوناً أسرة حاكمة عن طريق تحقيق الاستقلال التام، وخاصة وأنهم رأوا أنه منذ أن وضعت مصر تحت حكم أسرة محمد على صار وضعها كدولة[٨٠] ذات سيادة مستقلة[٨١].

كانت وجهة النظر الثانية ترى أن محمد على رفض أن يكون معول هدم فى العالم العثمانى حتى ولوكان الهدم اسمه الاستقلال، إذ أخذ فى إعتباره أن أنفصام الوحدة العثمانية معناه تشتت قوتها وأجزائها[٨٢]، هذا بالاضافة إلى أنه نظر للدولة العلية بعين الاعتبار خاصة وأنها كانت تود عزله عن مصر، ومن ثم سعى لتنفيذ أغراضها ومراميها[٨٣]، ومن هذا القول الأخير نميل الى الرأى بأن جوهر سياسة محمد على كانت قائمة على فهم عميق لمرامى السلطان العثمانى، الذى كان يخشى ايضا نزعات محمد على الاستقلالية، لذا وضع أمامه الحرب الوهابية لتضعف قوته وتستنزف أمواله وبذا يكسر شوكته ويضمن خضوعه

لسلطان المسلمين، ومن هنا يتخلص من حاكم جديد مزعج، أو أن ينجح فى مهمته فيخلص السلطان من حركة دينية سياسية خطيرة، وفى كلتا الحالتين لن يفقد العثمانيون شيئا(٨٤)، وقد شاءت الاقدار أن تكون الحرب الوهابية وسيلة من وسائل تدعيم مركز محمد على وبغير قصد حفزّت إنتصارته فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية(٨٥)، وبمرور الوقت قويت هذه الفكرة الاستقلالية خاصة بعد أن أمن حدوده الجنوبية "منابع النيل" بعد فتح السودان*، مما أعتبر البعض أن تلك الخطوة من محمد علي قد أحيت الدور السياسى المصرى فى إفريقيا بعد إنقطاعه لمدة ثلاثة مائة عام(٨٦).

جنبا إلي جنب كانت إنتصاراته فى حرب المورة قد أكسبت مصر منزلة معنوية كبيرة وأكدت علي الفكرة الإستقلالية عنده، ومن ثم سعى فى خطواته التالية إلى خوض حروبه ضد الدولة العثمانية نفسها آملا فى إحراز الاستقلال التام عن السلطان العثمانى، وقد أعتمد هو وابنه إبراهيم باشا بالدرجة الأولى على القوة العسكرية(٨٧)، ومن ثم تميزت إنتصاراتهم بنجاحات عسكرية متتالية(٨٨)، واعتبر محمد على هو المسئول عن الاستقلال الذى خطط له بشكل حاسم ليفرض على الباب العالى الاعتراف بحقوقه فيما يخص مناطق استقلاله عن الأقاليم العثمانية التى حوله والداخلة فى دائرة التوسع العسكرى(٨٩)، اذ ما لبث أن اعلن الاستقلال فى عام ١٨٣٨ ورفض دفع الجزية فى المستقبل للباب العالى(٩٠)، ولكن ضاعت بعد ذلك أحلام محمد على فى توسيع ممتلكاته سدى اذ ما لبثت أن تحطمت تلك الأحلام بعقد معاهدة لندن ١٨٤٠، وأخيراً تم فى عام ١٨٤١ أسدال الستار بشكل درامى على حروب محمد على والدولة العثمانية، حيث تم تجريده من تلك المكاسب التى حققها، وان كانت قد حفظت لأسرته حق وراثة العرش المصرى(٩١).

على أية حال، لا يهم كثيرا خوض غمار حروب محمد على وابنه إبراهيم باشا، بقدر الاهتمام بالوقوف عند أهدافهما، فقد تبين مما سبق أن محمد على فى سبيل تأكيد سيطرته على مصر وحقه فى الاحتفاظ بها عمل على توطيد مركزه والحصول على استقلال ذاتى لكن فى إطار التبعية العثمانية، عن طريق تأمين الحدود المصرية بحدود توسعية فى الشام شرقا وفى السودان جنوبا، وبذلك تحقق له السياج الذى يحميه كما كان يعتقد من عوامل التزعزع والاضمحلال[٩٢] هذا من جهة، وعلى إثبات قدرته وتفوقه أمام الباب العالى من جهة أخرى، وكان ذلك فى أول أمره ولكن مالبث أن إنقلبت فكرة التوطيد رأساً على عقب فور شعوره بأنه أصبح ندا للسلطان العثمانى بعد إنتصاراته الساحقة ، ومن هنا بدأت تتبلور فى عقله فكرة أن تكون مصر التى يسعى لتوطيد مركزها والإستقلال بها عن الدولة الأم، أن تكون نواة لإمبراطورية عظمى يدير هو شئونها فإنه ليس أقل شأناً من السلطان العثمانى الذى أحتاج مساعدته من قبل ... أهمل الروابط الواجبة التماسك عندما حقق قدراً

فى زحفه إلا عند حدود الأقاليم التى يتحدث أهلها اللغة العربية ، وتأكيده دوما على إحياء الأمة الإسلامية العربية(٩٥)، وترديد القول بأنه قد خطط لإتخاذ مصر كقاعدة للقومية العربية(٩٦).

والحق أن المصرية والعربية كانتا فى تصوره واحدة ، فانه عندما تحدث عن الجنس العربى كان يقصد المصريين وحدهم(٩٧)، ومن ثم فإن قيادته للجيش المصرى قوت عنده الشعور بقيمة هذا العنصر المكون لجيشه ، ناهيك عن أنه إعتاد القول أنه {قد جاء إلى مصر شاباً وأن شمس مصر الساخنة قد حولته إلى مصرى} ، ولم يذكر أى بلد آخر غير مصر ، فقد كان يكره العثمانيين ويحتقرهم ، وبذلك يكون على النقيض من والده الذى كان يعتبر نفسه عثمانياً حتى ولو ذهب للحرب ضد العثمانيين ، كان إبراهيم مصرياً(٩٨)، ولعل قبولنا لذلك القول مبنى على أساس أن إبراهيم باشا انتمى إلى مصر بحكم وفوده فى سن مبكرة على خلاف والده ، ومن ثم كان حنينه وإنتماؤه لمصر الموطن وليس الوطن.

على هذا النحو ، فإننا نختلف مع القول بأن مشروع محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الرامى إلى تأسيس أمبراطورية عربية لنفسه قد أخفق بسبب إفتقاره إلى الوعى بالهوية العربية(٩٩)، إذ لم يكن ينتظر من قائد ألبانى الأصل أن يكون الرسول القادم لجمع شتات العرب تحت راية أمبراطوريته وبذا يحقق لهم فرصة التخلص من نير الحكم العثمانى هذا من جهة ، علاوة على أن الروح التى جمعت الولايات الواقعة تحت الحكم العثمانى كانت مؤمنة بوجود الدولة الإسلامية آنذاك ولم تتطلع إلى نوع آخر من الوحدة .

إنعكاساً على كل ذلك ، يمكن الإشارة إلى محمد على بإعتباره يمثل البادرة الأولى التى إستطاعت إثبات الدور الإسلامى -- المصرى الذى قاده نحو عاصمة الخلافة فى محاولة لوضع أسس إمبراطورية إسلامية كبرى يجدد بها

أحوال العالم الإسلامى فتكون بديلاً للإمبراطورية المتصدعة الأركان ، وسوف يمثل الخديو إسماعيل البادرة الثانية فى هذا المضمار وإن إختلفت مراميه كما سيظهر فيما بعد.

شهد عصر سعيد باشا تفقداً للسودان هدف من ورائه تذكير أهله بواليهم وقصد إحكام الروابط بينه وبينهم، وقد وصفه البعض(١٠٠) أنه كان يتفقد أحوال رعيته بروح سمحة وبكل عناية خاصة ، وبهذا خرجت من دائرة أن تكون مجرد رحلة أو نزهة يقوم بها ولكنه فى نفس الوقت لم يتعد حدود ذلك .

لاجدال أن التوسع المصرى فى أفريقيه أضفى على مصر قدراً من الاستقلالية إذا إبتعدت تدريجياً عن المجال الحيوى للدولة العثمانية فى محاولة منها لإثبات وجودها فى أرض جديدة .

لقد ورث إسماعيل باشا إمبراطورية إفريقية فى شمالى السودان ، إذ أصبحت السودان بدءً من عام ١٨٢٢ جزءً من الإمبراطورية المصرية بدلاً من أن تصبح إقليماً خاضعاً للسيادة العثمانية(١٠١)، ومن ثم كانت رغبته الجارفة لتوسيع الإمبراطورية المصرية فى إفريقية محاطة بعدة دوافع ، إلا أن الذى يلفت النظر ذلك الدافع ألا وهو خلق وحدة سياسية مع الجهات الإفريقية المطلة على نهر النيل تتفق مع الوحدة الطبيعية بين هذه الجهات للوقوف أمام أطماع الدول الأوربية المتنافسة على القارة السوداء(١٠٢)، وقد نجح فعلاً فى بسط النفوذ السياسى المصرى مرة أخرى بعمق فى إفريقية(١٠٣)، حيث نجح الخديو إسماعيل فى مد سلطان حكومة القاهرة على الساحل الغربى للبحر الأحمر الذى أصبح ساحلاً مصرياً بالكامل ، بل ووصل إلى القرن الإفريقى حيث أمكن ضم أغلب موانئ الصومال الشمالى ، وفوق هذا أقام نظام حكم متحضراً فى تلك الأقاليم(١٠٤).

وفى تقديرنا أنه كان لايرغب فى أن يلحق به مصير جده ومن ثم بنى

سياسته على المرونة والمراوغة التى تسمح له بالتوغل دون الدخول فى صراع مع القوى الأوربية ولاحتى العثمانية وقد ظهر ذلك جلياً فى مسعاه للتفاوض مع الباب العالى الذى أسفر عن نجاح الخديو إسماعيل فى جعل السلطان العثمانى يتخلى عن مينائى سواكن ومصوع لمصر فى مقابل دفع خمسين ألف جنيه تركى(١٠٥)، حيث كان المال سلاحاً ثابتاً فى يد الخديو إسماعيل يعالج عن طريقه كافة أموره مع الباب العالى، حيث أعتبر أن دفع الرشاوى الغالية الثمن لحاشية السلطان هى الوسيلة المؤثرة فى بلاط السلطان، إذ يحقق من خلالها هيمنته وسيادته(١٠٦) كما كان يعتقد .

ومن ثم فإن سياسة الخديو إسماعيل القائمة على إرضاء الدول الأوربية والدولة العثمانية كانت دافعاً لإنطلاق الحملات العسكرية إلى الجهات الإستوائية رويداً رويداً حتى شملت العديد من الجهات داخل القارة ، وبذلك أضاف للمجال الحيوى لمصر خارج حدودها، وإزاء ولعه بتكوين إمبراطورية ترفع شأنه بين الدول الأوربية يكون قد أستكمل رونق الحكم الذى يبغيه لنفسه ، عندما رفرف العلم العثمانى -المصرى من حدود الكنغو إلى البحر الأحمر، وفى المناطق الإستوائية(١٠٧).

ليس بإمكان أحد إنكار مدى الفطنة فى سياسة الخديو إسماعيل عندما تنبه إلى إستحالة أن ينهض بمصر دولياً بإتخاذ سياسة التوسع شرقاً مثلما فعل جده من قبل ، هذه الحقيقة دفعت إسماعيل وبدرجة من الوعى أن يتخذ من أقطار حوض النيل الإفريقية مجالاً بديلاً هدف من ورائه إلى النهوض بالإقتصاد المصرى ، وفوق هذا ربما تطرقت إلى ذهن الخديو إسماعيل فكرة خصوصية مصر وضرورة سيطرتها على منابع النيل كما ذهب البعض إلى ذلك(١٠٨).

يمكن القول إذن أن إحاطة مصر بسياج من الحدود الآمنة فى ظل السعى

لتكوين إمبراطورية مصرية بعيدة عن أية أهداف عربية أو إسلامية أو عثمانية قد ثبت من الكيان الخاص للقطر المصرى وجعل مصر تنأى شيئا فشيئاً عن الدولة العثمانية وتسعى لتنشيط وتأكيد خصوصية إقليمها ، وهكذا يمكن إعتبار محاولة الخديو إسماعيل هذه المرة عاملاً أدى إلى تنمية الشعور بالوطنية المصرية.

على أية حال كان حلم تكوين إمبراطورية مصرية يراود حكام مصر فى فترة ماقبل الإحتلال البريطانى ، أما بقدوم الأخير فقد تغيرت موازين القوى فلم تعد هنا القوة الحربية التى يعتمد عليها ، إذ تزامنت ثورة محمد أحمد المهدى فى السودان مع أحداث الثورة العرابية فى مصر وما تبعها من إجراءات تم بمقتضاها تسريح الجيش المصرى ونفى قادته ، مما نتج عنه إختفاء بعض العسكريين من التواجد المؤثر إذ كانوا يلعبون دوراً محورياً فى الشئون السياسية – كما سبق الإشارة – وقد مر عدد كبير من السنوات منذ فشل الثورة العرابية حتى تمكن المصريون مرة أخرى من إستخدام القوة ضد السلطات البريطانية نظراً لفقد الإتصال بين العناصر المصرية الموجودة فى الريف المصرى الذين كانوا يمثلون غالبية الشعب المصرى وبين الوطنيين الثوريين النشيطين فى المدن(١٠٩)، جنباً إلى جنب مع تفشى ظاهرة الهروب من الجندية مع السنوات الأولى للإحتلال البريطانى ، فلم يكن الجيش الجديد الذى تم تشكيله بعد الإحتلال بقيادات إنجليزية يمكن أن يغرى أى مصرى فى الخدمة فيه بدواعى الدفاع عن الوطن هذا من وجهة النظر السياسية ، علاوة على أن طول مدة الخدمة العسكرية أدى إلى حرمان أسر فقراء الفلاحين من قوة العمل الكاملة لمصادر الرزق وذلك بالنظر إلى وجهة النظر الإجتماعية فى تلك المعضلة(١١٠).

أدت هذه المتغيرات فى جانب منها إلى صعوبة إنقاذ الوضع فى السودان أيضاً فإما الإلتفات إلى تخليص مصر من ثورة كادت أن تطيح بخديوها وإما الإلتفات لتخليص السودان من ثورته التى كادت أن تطيح بالحكم المصرى فيها ،

وقد أسفر تدهور الأوضاع في السودان عام ١٨٨٣ عن ظهور السياسة التي تبنتها إنجلترا خاصة تجاه السودان وهي إنسحاب مصر منها ، وقد رضخ الخديو توفيق وحكومته لهذه السياسة البريطانية التي وصفها الخديو عباس بأنها {كانت تخطط لكي تعمل من السودان رأس جسر إلى ممتلكاتها الإفريقية}(١١١)، وقد تم إخلاء السودان مع حلول عام ١٨٨٤ .

ونحن بدورنا نرى أنه كان على الخديو توفيق أن يحافظ على ذلك الأرث الأمبراطوري الذي تركه له والده، إذ لم يستطع أن يزيد مساحته، ولكن تحت وطأة الأحتلال الذي أتخذ من نقاط ضعف الخديو فرصة للوثوب على السودان المصري آنذاك ليحقق رغبته في السيطرة على القارة السوداء في سياق التسابق الدولي على إمتلاك تلك القارة، ومن هنا كانت المحاولات التي أعدتها الحكومة البريطانية لاستعادة السودان مرة أخرى، ولكن هذه المرة ليس تحت العلم العثماني – المصري بل في صورة حكم ثنائي وفق إتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ التي رسمت مستقبل إدارة السودان(١١٢) تحت مظلة العلم المصري البريطاني، وبهذا أصبحت السودان تحت السيادة المصرية الانجليزية، كخطوة أولى لإنفراد السلطات البريطانية بذلك الجزء المكمل للامبراطورية المصرية التي كونها الخديو اسماعيل وكان شديد الحرص على الحفاظ عليها.

إن ما يلفت الأنظار في تلك الإتفاقية أنها تتنافى من الناحية القانونية مع الفرمانات الصادرة لولاة مصر من قبل فإن لهؤلاء الولاة حسب تلك الفرمانات عقد المعاهدات التجارية فقط، أما حق عقد المعاهدات السياسية فلم يكن منصوصاً عليه قانونا(١١٣)، ومن هذا المنطلق نرى أن توقيع مصر على تلك الاتفاقية السياسية مع إنجلترا يعد السابقة الأولى لخروج ولاة مصر عن الإطار الشرعي الذي يربطهم بالدولة العلية، ومن ثم يمكن إعتبار تلك الخطوة بمثابة وثبة

للخديو عباس نحو المزيد من الإنسلاخ عن الدولة العثمانية، وإن لم يكن الدافع وراءها أهداف وطنية إنما بسبب الضغوط البريطانية، إلا أنه مع ذلك لا يقلل من كونها كانت نقطة إنطلاقة نحو نيل مصر مزيد من الحقوق الوطنية هذا بالنسبة لمصر، أما فيما يتعلق بالخديو عباس فإن تلك الاتفاقية نقبل وصفها بأنها أعتراف بالسلطة الواهية للخديو فى السودان(١١٤).

نخلص من هذا إلى أنه بفضل الاحتلال البريطانى تقوقعت مصر داخل حدودها وفوق هذا أصبحت قضيتا الجلاء والاستقلال هما شغلها الشاغل، فقد أنتهت الظروف التى تسمح لخلفاء الخديو اسماعيل لأن يفكروا فى توسيع رقعة الأمبراطورية المصرية، اذ كان عليهم من باب أولى أن يحافظوا على تلك الأمبراطورية التى كانوا قد ورثوها، حيث عملوا بدورهم على تركها لعبة فى يد سلطات الاحتلال تعبث بها كيفما تشاء.

لقد كان حلم الخديو إسماعيل بالأمبراطورية المصرية والعمل على توسيعها نابعا من ظروف داخلية وخارجية مواتية ساعدته على تحقيق مشروعه، وهذا ما تم له، أما خلفاؤه فإلى جانب المحتل الذى رأى أنه من المنطقى أن يستولى على السودان بحكم كونه جزءاً من الأمبراطورية المصرية التى يسيطر عليها فالذيل يتبع الرأس، الى جانب ذلك كان عدم كفاءة الخديو توفيق التى ظهرت فى عدم الحفاظ على الدولة المصرية ذاتها ضد التدخل الفعلى البريطانى، اذ كان من المنطقى أن يفقد القدرة إيضا على الحفاظ على ممتلكاتها فى إفريقية، وكان عباس الذى يدرك أهمية ضمان حدود مصر الجنوبية لم يستطع أن يقف فى وجه سياسات الاحتلال بشأن السودان، وفوق هذا يمكن القول أن عدم وجود الطموح الشخصى الذى كان قد أملى على الخديو اسماعيل رغبته الجارفة فى تكوين تلك الأميراطورية فى وقت كان يحاول فيه إثبات مقدرته فى الوقوف على قدم المساواة

مع الدولة العلية لتنفيذ سياسته الرامية إلى الاستقلال التام عنها، وقد كان عدم وجود ذلك الطموح لدى خلفائه سببا فى إهدارهم لتلك الامبراطورية المترامية الأطراف هذا من جهة، ومن جهة أخرى ربما أغناهم شعورهم بالاستقلالية عن الدولة العثمانية مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عن الحفاظ على تلك الأمبراطورية فلم تعد هناك تلك الروح من التحدى للدولة العلية، ومن جهة أخيرة كان تركز الأهتمامات المصرية فى بؤرة واحدة ضد سياسات المحتل سببا فى ضياع تلك الأمبراطورية المصرية.

على أية حال لقد أنهارت الأمبراطورية المصرية فى وقت كانت وصلت فيه مصر إلى درجة من التفرد والرقى عن سائر ولايات الأمبراطورية العثمانية، بل ووقت ظهرت فيه مصر كدولة مستقلة عن الدولة العلية بل تفوقها تمدنا ورقيا، خاصة أنه تزامن مع وقت استطاعت فيه الأسرة الحاكمة نفسها تثبيت أقدامها داخل القطر المصرى فلم يعد ثمة خوف من تزعزع هذا المركز المتميز.

صفوة القول أنه إذا كان تكوين امبراطورية مصرية فى عهد الخديو إسماعيل عاملا مشجعا على نمو تيار الوطنية المصرية من جراء إنسلاخ مصر عن جسد الدولة الأم وإحساس الشعب المصرى - إن لم يكن شريحة عظمى منه - بإستقلاليته وعظمته فى آن واحد، فإن سلخ تلك الأمبراطورية رويدا رويدا عن مصر فى فترة ما بعد الاحتلال البريطانى كان سبباً فى أزدياد الوعى الوطنى لدى أبناء القطر المصرى بضرورة الحفاظ على الممتلكات المصرية فى إفريقية، إذ أعتبرها البعض جزءً من جسد الأمة المصرية يلزم الحفاظ عليه تحقيقا لوحدة وادى النيل.

٤ - إنصهار العناصر التركية داخل المجتمع المصرى:

بادئ ذى بدء يجب أن ننوه إلى أن التأثير التركى قد تصاعد بشكل ملحوظ فى عهد محمد على إذ كون طبقة أرستقراطية تركية مثلت قمة المجتمع المصرى، فالمعلوم أن محمد على أستطاع أن يكسر قوة المماليك بإستخدام الأصول التركية، ومن ثم كون مزيجاً من العناصر التركية والشركية القديمة والجديدة المستجلبة فى إداراته(١١٥)، وبشهادة المعاصرين فإنه حتى عام ١٨٣٩ كان الترك يتولون أرفع مناصب الحكم ولم يصل المصريون إلى أى منصب من مناصب النفوذ والسلطان التى كانت معظمها حكرا على الترك(١١٦)، وكذا الحال فى عهد عباس باشا الأول*.

إلا أن ذلك التصاعد ما لبث أن خبأ شيئا فشيئا فى عهد كل من سعيد باشا وإسماعيل باشا، حيث كان الأول يمقت الأتراك والچراكسة حتى انه قد ورى عنه قوله: {أود ان أعرف ما هى العروق والشرايين التركية والشركسية فىّ لأفتحها وبذلك أتخلص من آخر نقطة من هذا الدم الممقوت}(١١٧)، وعلى الأرجح أن ثقافة سعيد باشا الغربية هى التى أملت عليه تصرفاته تلك وحنقه على بنى جلدته، إذ أصبح أكثر نضجا وتقدما منهم، ومن هذا المنطلق كان مسعاه لتثبيت العنصر المصرى فى جهاز الدولة مما فجر لدى المصريين الإحساس بأنهم على قدم المساواة مع العنصر التركى، وبهذا قرب العنصر المصرى من رأس الأسرة الحاكمة مما أتاح لهم قدراً من المشاركة فى شكل السلطة(١١٨) - إلى حد ما - مما مهد لدى المصرى الوعى بالانتماء إلى هذه الأسرة فى فترات لاحقة.

وعلى الرغم من أن الخديو إسماعيل لم تكن لديه نفس روح سعيد باشا فى التقرب إلى المصريين وأن الظروف السياسية التى كان يتعرض لها هى التى كانت تملى عليه سياسته والدليل على ذلك الروح التى كانت سائدة بين عناصر

الجيش التى أدت إلى إستحكام الشقاق بين الأتراك – الچراكسة والمصريين فيما يتعلق بالشئون العسكرية داخل جهاز الدولة المصرية(١١٩)، حيث لم تكن العناصر سواء التركية – الشركسية أو طبقة الفلاحين المصريين داخل الجيش المصرى تستخدم المعايير الأخلاقية، لكنهم أعتمدوا على الأخذ بالتصنيف بين الطبقات المكونة للمجتمع، ولقرون عديدة كانت القوة الحقيقية فى مصر مستخدمة بواسطة رجال أجانب غرباء وهم الذين شكلوا النخبة العسكرية والادارية من المماليك(١٢٠) فى السابق، ومع ذلك أنكر البعض أن الچراكسة أجانب عن مصر بل هم مصريون على إعتبار أنهم قضوا فيها طول حياتهم وأستوطنوا البلاد وتناسلوا فيها، بل وذهب إلى القول بأنهم مصريون لا فرق بينهم وبين سلالة الفراعنة القدماء، وأنهم والمصريون سواء تجمعهم جامعة الوطن، ومع أن ذلك القول قد ضرب عرض الحائط بالحقائق والثوابت المتفق عليها بلىّ ذراعها من منطلق أننا لسنا شواهد تظهر حقيقة تلك العلاقة بين أفراد الأسرة الحاكمة وبين المصريين، حيث أشار بعض المعاصرين بالقول (أن الذى أثر فى نفوس المصريين وباعد بينهم وبين الأسرة الحاكمة حتى كرهوها، أن أفراد هذه الأسرة كانوا يتكلمون فيما بينهم سواء فى مجتمعاتهم أو دورهم إما باللغة التركية أو اللغة الفرنسية، وما كانوا يحترمون لغة البلاد ولا يودون التخاطب بها إلا عند الضرورة وكان الأمين منهم أو النبيل يخاطب أكبر مصرى بأنفه وعظمة ويعتبر ذلك تفضيلا منه على المصرى وكانوا يعاملون بعضهم بشئ غير قليل من العنجهية..)(١٢١)، إلا أن نظرة مصطفى كامل تلك يمكن النظر إليها من خلال أنها رمت إلى محاولة لم الشمل والتئام الجروح بين تلك الطبقة وبين المصريين فى محاولة للوقوف أمام أى خطر يمس البلاد(١٢٢) كانت قد أستطاعت أن تنجو من خطر الاحتلال الذى أغتنم تلك الفرصة ليفرد أجنحته كالطائر المتوثب للإنقضاض على فريسته.

على أية حال فإن الحياة المدنية فى عصر الخديو إسماعيل شهدت تراجعا ملحوظا للتأثير التركى بفعل عوامل ساهمت فى التقليل من حجم الفروق الطبقية بين طبقة الأتراك والچراكسة والمصريين، حيث مثلت طموحات الخديو فى جعل مصر قطعة من أوربا بوتقة أنصهرت فيها تلك العناصر جميعها بفعل المؤثرات الغربية التى أُدخلت على المجتمع المصرى آنذاك، بالاضافة إلى أن عصر إسماعيل قد شهد ميلاد أبناء تلك الطبقة الحاكمة من الأتراك والچراكسة فى مصر، وهكذا غلبت الدماء المصرية كتطور طبيعى لتوقف تدفق الدم التركى إلى مصر كما كان الحال فى الماضى، وفوق هذا كان بعض الأتراك المصريين فى الغالب الأعم أبناء لأمهات مصريات أو أزواجاً لسيدات مصريات إذ إتسعت بهذا علاقات المصاهرة مع المصريين مع إختفاء العناصر المهاجرة من بقية بلاد الدولة العثمانية، ومن ثم يمكن القول بأن هذه الطبقة ضعفت تركيتها وأصبحت أقرب إلى المصرية(١٢٣).

في نفس الوقت رأى البعض أن تدفق رءوس الأموال الأوربية على مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وما تبعه من إتساع نشاط المستثمرين الأجانب، وزيادة مصالحهم الإقتصادية داخل مصر قد أسهم فى ضعف العنصر التركى والچركسى، إذ تراجعت المكانة المرموقة التى تمتعا بهما أمام تصاعد العناصر الأجنبية داخل مؤسسات الدولة وخاصة على عهد الاحتلال(١٢٤)، وهكذا تكون المؤثرات الغربية بكافة أشكالها قد استطاعت أن تقضى على المؤثرات التركية رويدا رويدا فى مصر، وتعيد صياغتها فى قالب مصرى.

ولقد لعبت اللغة العربية دورا إيجابيا فى إنصهار العناصر التركية والچركسية داخل المجتمع المصرى، فقد كان الأتراك يترفعون عن تعلم اللغة العربية بإعتبارها لغة البلاد المغلوبة(١٢٥)، ولكن بالتدريج حلت اللغة العربية محل

اللغة التركية تبعا لاحتياجات السلطة الحاكمة منذ عهد محمد على ومرورا بسعيد باشا الذى اصدر أمراً بأن تحرر المراسلات الرسمية باللغة العربية، ومع ذلك ظلت تلك الطبقة محتفظة بمكانتها الاجتماعية مستخدمة اللغة التركية، مائلة إلى الأتجاه الأوربى فى سلوكياتها الاجتماعية[١٢٦]، إلا أنه مع عهد الخديو إسماعيل كانت اللغات الرسمية فى الدولة هي التركية والفرنسية والعربية، وإن إستطاعت العربية أن تحرز مكانة عالية، خاصة مع الدعوات التى لازمت المثقفين المصريين لإحياء اللغة العربية فى فترة ما بعد الاحتلال، والتى لم تكن خاصة بالمصريين الخلصاء منهم، بل تعدتها إلى الأتراك المصريين، فعلى سبيل المثال كان قاسم أمين المعروف بأصوله غير المصرية من دعاة إصلاح اللغة وتجديدها مؤكدا فى سبيله لنشر تلك الدعوة بأن المصريين هم خلفاء العرب فى لغتهم[١٢٧]، إلى جانب أحمد شوقى الذى أستطاع أن يحقق اللغة العربية نهضة عظيمة بشهادة الخديو عباس حلمى، حيث كان شوقى مديرا للإدارة العربية فى ديوان الخديوى[١٢٨]، فقد بلغت اللغة العربية فى ذلك الوقت درجة من الرقى تسمح لها بمواجهة إزدهار الثقافة الأوربية التى حرص على إيجادها المحتل، ومن هذا المنطلق أصبح تبنى دعوة الأهتمام باللغة العربية أداة إيجابية ساعدت على ذوبان العناصر التركية داخل المجتمع المصرى.

وقد ذهب البعض[١٢٩] إلى القول بأن سلطة الحكم فى عهد الخديو عباس حلمى كانت تكره الأتراك، ويمكن إعتبار ذلك منطقيا فى ظل وجود خديو يعتبر نفسه مصريا، وهكذا تفوق عباس حلمى عن سابقيه فى الإيمان بالوطن المصرى ومن ثم ساند الحركة الوطنية المصرية فى أوقات عديدة، فجهوده قد أنصبت فى قالب مصرى صميم يرمى إلى خدمة الأمة المصرية التى يتربع على عرشها، وفوق هذا كانت نظرة غالبية المثقفين المصريين للخديو عباس يحدوها الأمل فى أن

يتحقق مستقبل أفضل لمصر على يديه، وكانت تلك نظرة جديدة للجالس على عرش مصر مقارنة بالفترة السابقة للاحتلال البريطانى على وجه الخصوص، إذ كانت نظرة المثقف المصرى لأسرة محمد على بأكملها بأنها أجنبية ولم تكن الحركة الوطنية التى قادها عرابى ضد التدخل الاجنبى فقط بل كذلك ضد الخديو توفيق وحاشيته التركية، أما الفترة اللاحقة للإحتلال البريطانى فقد أتسمت فى أغلب الأحيان بوقوف الخديوى والشعب المصرى فى خندق واحد، ففى أثناء السنوات العشر كانت عملية الاستيعاب تتم بواسطة الطبقة الأرستقراطية المصرية التركية، وكانت تدريجيا قد صارت مستوعبة لديهم بل ومحددة لدى الطبقة الممثلة لغالبية الشعب المصرى، وقد أستمرت بثبات، مع استمرار ووجود فجوة سياسية ولغوية وإجتماعية بين المصريين والأتراك، رغم كل ذلك إلا أنه ما لبثت التداخلات العقائدية واللغة والعادات والمشاركة فى الأستياء العام يتخطى كافة هذه الاختلافات(١٣٠)، ومن هذا المنطلق كان سعى الخديو عباس حلمى والمثقفين لتحقيق قضية أسمى وهى الجلاء والاستقلال كل من وجهة نظره.

وتمشيا مع ذلك يمكن القول بأن نمو الشعور بالخصوصية المصرية الذى تأسس على تفرد مصر بماضى تفاخر به، ساعد على جذب العناصر التركية للنظر بدقة إلى مصر الوطن، وإن كان إنتماء ولاة مصر تنازعه عاملان أولهما : الانتماء التركى بحكم الجنس والنشأة واللغة والثقافة والانتماء المصرى، من جراء إستمرارية وجود أسرة محمد على على عرش مصر، وإن كان إنتماء لمصر الموطن وليس مصر الوطن(١٣١)، حتى الخديو عباس حلمى كان ينطلق عليه هذا النوع من الإنتماء، فعلى الرغم من مصريته شديدة الوضوح إلا أنه كان لسلوكه طرق غامضة بعض الشئ مما يدفعنا إلى القول بأن انتماءه كان للموطن أكثر من الوطن، وإن كان قد تفوق فى الإنتماء الأخير، والدليل على ذلك شراؤه بشراهة أملاك واسعة فى أستانبول، جعلت أصابع الأتهام تشير إلى إنتماءاته.

على اية حال توجت العوامل التى ساهمت فى التقليل من الفروق الطبقية نجاحها مع عام ١٩١١، اذ مثلت قمة الإنصهار التركى داخل المجتمع المصرى أثناء الحرب الإيطالية – العثمانية، حيث أشار الخديو عباس فى مذكراته إلى محاولة أنور باشا قيامه بالدعاية للأتراك أثناء عبوره مصر وصولا الى برقة، فقام بفتح أبواب المدارس الحربية التركية لكل العناصر غير الناضجة من مصر، وكان يكفى الرسوب فى أمتحانات المدارس المصرية لكى يجد أحدهم لنفسه مكانا مميزا فى أستانبول، وقد أنجذب بعض الأولاد لهذا العرض، {الا أنهم كانوا لا يعرفون اللغة الأم بالنسبة إليهم إلا بطريقة غير كاملة، ويجهلون التركية}[١٣٢]، وقد نبع ذلك من أن كثيراً من العائلات التركية كانت تتحدث العربية بشكل أدبى إلى جانب أستخدامها للغة العامية داخل المجتمع المصرى، وإن كانوا فيما بينهم يتحدثون التركية بشكل ينم عن منزلتهم الرفيعة فى المجتمع المصرى[١٣٣] ليس إلا، وفى تقديرنا أن ذلك كان دليلاً قويا على إنصهار العناصر التركية مع أبناء المجتمع المصرى إنصهارا دفعهم إلى نبذ لغتهم الأم جانبا وتعلم لغة الموطن الذى عاشوا فيه، وهكذا أصبحوا والمصريين سواء فى وحدة اللغة بمرور الوقت.

بقى أن نشير إلى تلك الرموز السياسية والفكرية من العناصر التركية والچركسية التى تفاعلت مع قضايا أبناء مصر وأستطاعت أن تلعب دورا إيجابيا فى الحفاظ على الهوية الوطنية المصرية، ومن ثم مثلت دليلا قويا على إنصهار تلك العناصر الوافدة مع المصريين الحقيقيين آنذاك، حيث لم يكن لأتراك مصر سياسيا الميل الشخصى للباب العالى[١٣٤].

ولقد وجد من تلك الرموز التى لم تعرف غير مصر وطنا لها ومن ثم ظهرت أسهاماتها الجادة فى أحداث الثورة العرابية كالفريق راشد باشا حسنى أبو شنب فضة الشركسى الأصل كان بطل معركة القصاصين، بل أنه أشترك مع

أعيان البلاد فى إعلان خيانة الخديو توفيق والتمرد على حكمه(١٣٥)، ومن ثم مثل جزءا من التيار الوطنى آنذاك.

ومن رجال السياسة الذين خدموا مصر برغم أصولهم التركية كان شريف باشا الذى نجح رغم هذا فى أن يطبع لنفسه صورة إيجابية فى الوجدان الوطنى المصرى(١٣٦)، ولعل مصادر ثقافته الأوربية هى التى أتاحت أتباع الاساليب الحديثة فى مسلكه وبذلك أعد نموذجا للرجل الأوربى، وعلى الرغم من أنه كان مخلصا للطبقة التى إنحدر منها بل كان يعده الباب العالى رجله الأول فى مصر إلا أنه مع ذلك كان شديد الحرص على الامتيازات التى حصل عليها خديو مصر من الباب العالى، ومن ثم خدم أستقلالية وخصوصية القطر المصرى بحرصه على عدم تغلغل نفوذ السلطان العثمانى فى شئون مصر، ونستشف ذلك من خلال معارضته لسعى عزل الخديو إسماعيل وتولية حليم باشا من قبل الباب العالى(١٣٧).

والجدير بالذكر أن شريف باشا كان من مساندى المطالب الوطنية فى مجلس شورى النواب وفى إجتماعات الوطنيين فى تلك الفترة، ومن منطلق إيمانه بالاصلاح والدستور كان دافعه وراء اصدار فكرة دستور ١٨٨٢م، إلا أنه يجب القول بأن فكرة الدستور فى عقل الطبقة التركية تنحصر فى تخليص السلطة من يد الخديو ووضعها فى يدهم، اذ كان واثقا من كفاءة تلك الطبقة الأستقراطية من تقلد زمام السلطة، فى حين يرى قلة كفاءة المصريين لها، والدليل على ذلك قوله لبلنت : { ان المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة أطفال، وقد قدمت لهم الدستور الخليق بهم فإذا لم يرضهم كان عليهم أن يعملوا بدونه}(١٣٨)، وهكذا لا يمكن إنكار النزعة التركية لدى شريف باشا، ولكن يمكن تصنيفه بسهولة ضمن

التيار المعتدل الذى نادى بالتدرج فى الإصلاح بما يلاءم حال المجتمع المصرى من أمثال على باشا مبارك ومحمد عبده ... الخ

وعلى الجانب الآخر اتسمت سياسات شريف باشا تجاه التدخل الأجنبى بروح وطنية عالية وقد أتضح ذلك من خلال مواقفه العديدة سواء التى ظهرت فى صيف عام ١٨٧٨ برفضه المثول أمام لجنة التحقيق الأوربية مفضلا الاستقالة، أو تلك التى ظهرت فى شتاء ١٨٨٤ برفضه سياسات سلطات الاحتلال القائمة على فصل السودان عن مصر، مفضلا تقديم استقالته، إذ كان شريف باشا على رأس التيار الوطنى الذى رأى أن العلاقة بين مصر والسودان علاقة عضوية غير قابلة للانفصام.(١٣٩)

وهكذا باندماج شريف باشا فى الحياة المصرية يكون قد مثل واجهة لصورة التركى الذى خرج من رحم الطبقة التركية الحاكمة وكان من أكثر العناصر تجسيدا لها، وفى نفس الوقت مساندا بمواقفه المختلفة ضد كافة القوى الفعالة فى القطر المصرى على حد سواء(١٤٠)، يكون قد ساهم فى نمو تيار الوطنية المصرية، حيث أنغمس فى قضايا الوطن المصرى سياسيا محاولا الخروج به من المشاكل التى تعتريه، وإن كانت نظرته للعنصر المصرى يشوبها الغطرسة والاستعلاء إلا أنه فى النهاية لم يكن من دعاة التمسك بالعلائق مع الدولة العثمانية بل حرص على أن تكون {مصر للترك المصريين}.(١٤١)

مثل محمود سامى البارودى أحد الرموز الفكرية والسياسية ذات الأصول الچركسية، من تلك العائلات التى أقامت فى البلاد منذ فترة طويلة وكونت طبقة حاكمة تقليدية، وكان مثله مثل شريف باشا مصلحا ووطنيا.(١٤٢) وفوق هذا كان البارودى مصرى المولد، وهكذا أنصهر مع أفراد المجتمع المصرى فى بوتقة واحدة هدف من ورائها الحفاظ على "مصر للمصريين" ، وقد تعددت منابع ثقافته

ما بين عربية وتركية وفارسية ومن ثم أسهمت فى نمو وعيه تجاه المبادئ الحرة وابتعد رويدا رويدا عن مظالم الطبقة الحاكمة واستبدادها،(١٤٣) اذ كان ممثلا للتيار المعتدل داخل الحركة العرابية فكان فى اجتماعاتهم يصر دائما على أن مصر للمصريين ويذكر أسماء وطنية ساهمت فى تحرير شعوبها، ويتناول معانى القومية بالشرح ويوضح أمام الجميع مزايا مصر وحضارتها القديمة التى جعلت لها قصب السبق،(١٤٤) ولعل معرفته الجيدة بالأدب العربى والتركى وأهتمامه بمعرفة التاريخ المصرى هى التى أملت عليه توجهاته تلك، الى جانب أشتهاره بأنه كان شاعرا من طراز ممتاز(١٤٥).

وكان البارودى يجاهد بشعره فى بعث الروح الوطنية واتجه رويدا رويدا اتجاها ثوريا بحتا اذ كان يردد القول :

إنى أرى أنفسا ضاقت بما حملت   وسوف يُشهر حد السيف شاهره

لقد غلبت عليه الروح الثورية وتملكت عليه نفسه فسعى لحشد الثوار من أجل خوض غمار الحرب قائلا :-

فيا قومُ هّبوا إنما العمر فرصة   وفى الدُهر طُرْقُ جمة ومنافعُ
أصبراً على مس الهوان وأنتُم   عديد الحصى ؟ إنى إلى الله راجع
وكيف ترون الذل دار إقامة   وذلك فضل الله فى الأرض واسع
أرى أرؤساً قد أينعت لحصادها   فأين ولا أين السيوف والقواطع (١٤٦)

وفى الواقع كان البارودى نموذجا صارخا رافضا لأسرة محمد على داعيا الى تغيير نظم الحكم واعطاء المصريين حقوقهم المسلوبة منهم، ومن هذا المنطلق ساهم فى نمو تيار الوطنية المصرية عندما أصبح نموذجا للمثقفين (المولّدين) الذين ذابوا فى مصر الموطن وتناسوا شيئا فشيئا أوطانهم الأصلية وأعتبروا

أنفسهم مصريين، والدليل على ذلك شعره الذى نظمه فى منفاه والذى يعبر فيه إلى حنين للوطن، وهكذا كان نموذجا لانخراط بعض العناصر التركية والچركسية فى صميم مشاكل المجتمع المصرى ومساهمتها فى ايجاد حل مناسب للخروج من أزماته.

وبالمقابل كانت نظرة المصرى الى العنصر التركى والچركسى فى بعض الأحيان بإعتبارهم مصريين لا يختلفون عنهم فى شئ، خاصة مع وجود تلك الرابطة الروحية التى تجمعهم فى بوتقة واحدة تحت راية خليفة المسلمين، فى وقت غلبت المسحة الإسلامية على العقول، فنرى عبد الله النديم يشير إلى قمة الإنصهار التركى داخل المجتمع المصرى فى قوله : (نحن أبناء مصر بل سكانها ولا نفرق بين تركى وعربى وجركسى فكلنا أهل البلاد، فإننا لو أرسلنا التركى إلى بلاده الآن ما أهتدى لموضع بيت أبيه فى بلده ولو أرسلنا الچركسى ما عرف طريق الوصول لمحل مولده واذا نظرنا اليهما بالنسبة الى مصر وجدناهما صاحبى أطيان وعقار ولهم أولاد وعائلات وقد قطعوا عمرهم الطويل فى خدمة الحكومة ومعاشرة المصريين فهم الآن منا حقوقنا حقوقهم خصوصا وكلمة الدين تجمعنا من قبل وقد صارت علاقة الوطن عهدا ثانيا لربط المحبة واتفاق الكلمة وعدم التفرقة الجنسية ...].(١٤٧)

بقيت الأشارة إلى إسهامات الأسرة الحاكمة نفسها فى خدمة المجتمع المصرى، فإلى جانب الخديو اسماعيل الذى تم فى عصره تحديث المجتمع المصرى، نجد نموذجا آخر فى أسرته مثل ظاهرة جديدة لخروج زوجات الخديو للمشاركة فى الحياة العامة، حيث كانت جشم آفت هانم زوجة اسماعيل الثالثة التى كانت وراء إقامة أول مدارس لتعليم البنات فى مصر وهى مدرسة السيوفية التى تأسست فى عام ١٨٧٣ ، تلك التى خرجت من قفص الحريم الذى كان سمة لازمت بلاط هؤلاء الحكام حتى عهد الخديو توفيق.(١٤٨)

شهدت فترة ما بعد الاحتلال البريطانى ايضا بروز قيادات فكرية وسياسية أخرى ستلعب دورا إيجابيا على مسرح الحياة السياسية المصرية بصفتهم مصريين نايذين أصولهم التركية جانبا هادفين الى خدمة الأمة المصرية التى عاشوا بين جدران مجتمعها بصفتهم أتراكا متمصرين.

فالأميرة نازلى فاضل لم تكن وافدة من تركيا ولكنها بحكم المولد مصرية منحدرة من أصول تركية، وكان صالونها الأدبى يضم - كما سبق الإشارة - فى فترة ما قبل الاحتلال صفوة المجتمع المصرى، وقد استمرت أبواب صالونها مفتوحة فى فترة ما بعد الاحتلال للمثقفين المصريين جنبا إلى جنب مع رجال السياسة والأدب إلى جانب ايضا كبار المسئولين الانجليز أمثال اللورد كرومر المعتمد البريطانى، والسير رونالد ستورز "مستشرق" والجنرال كتشنر وغيرهم الكثير، وقد ماج بجميع ألوان الموضوعات الأدبية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وكل ما يخص شئون القطر المصرى(١٤٩).

وقد سلك البعض من المؤرخين فى تفسير رؤيتهم مسلكا معتدلا، فحواه أن المترددين على تلك الصالونات لم يبالوا بخطر الاحتلال البريطانى بقدر ما كان يقلقهم تلك الفوضى الإجتماعية التى غلبت على المجتمع المصرى فى فترة ما بعد الاحتلال، تلك المتمثلة فى الزحام والضوضاء إلى جانب تفشى بعض العادات السيئة والأمراض الإجتماعية، وكان ذلك القلق نابعا من تلك النظرة الإستعلائية من قبل الطبقة الأرستقراطية داخل تلك الصالونات الأدبية، وقد أدت تلك الأوضاع داخل المجتمع المصرى إلى ردود أفعال ظهرت فى كتابات المثقفين المصريين فى تلك الآونة فى محاولة لابراز نقائض ذلك المجتمع محاولين إيجاد تفسيرات تلك الأزمات الاجتماعية من أمثال قاسم أمين وأحمد فتحى زغلول ومحمد المويلحى وغيرهم(١٥٠).

ومثلت النوعية من الكتابات ذات الصبغة النقدية للمجتمع المصرى اتجاها جديدا فى الفكر المصرى الحديث - كما سنرى لاحقا - اتجاها يحاول طرح المشاكل ساعيا لايجاد الحلول المناسبة لها، وهكذا يمكن القول بأن الصالونات الأدبية عموما وصالون الأميرة نازلى ذات الأصول التركية خصوصا كان له دور فعال فى ازدهار الحركة الفكرية والسياسية فى مصر.

قدم لنا قاسم أمين صورة للوطنى المخلص، فرغم أصوله الكردية، الا أنه اعتبر مصريا فكانت ولادته بطره من ضواحي القاهرة، ونشأ بالأسكندرية وبها تعلم وعاش بالقاهرة وبها تثقف ودرس شطرا من حياته في الأزهر الشريف.(١٥١) ورويدا رويدا أنغمس فى الحياة السياسية المصرية وشارك بدور ايجابى فى تحديث وتمدين المجتمع المصرى، وكانت لقاسم أمين العديد من الاشارات الوطنية التى تباعد بينه وبين أصوله غير المصرية، وتجعلنا ننظر اليه كوطني خدم مصر الوطن، فقد قال عن الوطنية فى خطبته الأخيرة قبل وفاته بثلاثة أيام أثناء الاحتفال بإنشاء الجامعة المصرية {إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيرا ولا تعلن عن نفسها . عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم فيحسن بنا أن نقتدى بهم ونهجر القول ونعتمد على العمل}(١٥٢).

وهكذا يمكننا أن نضم قاسم أمين الى دعاة الوطنية المنتجة أمثال على باشا مبارك الذى أعتبر الوطنية عملاً بلا قول، فأخذ على عاتقه نشر الوعى بين أفراد الشعب المصرى ليخلقوا مجتمعا متمدنا، ولعل مسلكه هذا كان وراءه الثقافة الأوربية التى تأثر بها أثناء أقامته فى الوسط الفرنسى مدة بعثته الى فرنسا فى عام ١٨٨١ .

وبناء على ما سبق يعد قاسم أمين أحد الرواد الذين سلكوا طريق الأصلاح الاجتماعى فى محاولة لتمدين المجتمع المصرى، سواء عن طريق تربية أبنائه وتهذيبهم وحثهم على طلب العلم أو تعريفهم معانى الديمقراطية والحرية والخصال التى يجب توافرها فى الفرد الحر حتى يتسنى له تقويم النفس البشرية لتصل الى مرتبة من الكمال والرقى،(١٥٣) ومن ثم أنغمس فى مشاكل المجتمع المصرى محاولا اصلاحها بروح مصرية أصيلة، خالية من أية شوائب تجعلنا نشك فى اتجاهاته ومراميه، اذ أكد بنفسه أن الأتراك جنس انكمش نتيجة ذوبانه فى المصريين وأنه منذ عهد بعيد لم يعد يلعب أى دور فى حكم البلاد.(١٥٤) والحقيقة فإن قاسم أمين قد أعطانا بنفسه صورة لذوبان العناصر الوافدة داخل المجتمع المصرى التى أعتبرت مصر وطنا رئيسيا لهم.

وعلى الجانب الآخر كان أحمد شوقى أمير الشعراء نموذجا للوافد الذى ظل مرتبطا بوطنه إلا انه أعتبر مصر موطنا عظيم الشأن بالنسبة له، فالمعلوم أن شوقى كان متعدد الجنسيات – إن جاز التعبير – بما نقبل وصفه بأنه كان مواطنا عالميا بالتعبير المعاصر، اذ قال عن نفسه (أنا عربى تركى يونانى جركسى] لأن أباه من أصل كردى عربى، وأمه تركية وأم أبيه شركسية، وأم أمه يونانية، ومن ثم اعتبر افرازا طبيعيا للدولة العثمانية التى كانت تضم العديد من الجنسيات المختلفة(١٥٥).

والحق أن مولده فى مصر الذى كان فى أكتوبر ١٨٧٠، جعلنا لاننكر عليه حبه لمصر ذلك الموطن الذى ولد وعاش فيه، ولكنه لم ينضم الى صفوف الحركة الوطنية، ولم يدعم ايضا فكرة "مصر للمصريين"، اذ عاش مؤمنا أشد الايمان بوجود الدولة العثمانية وبفكرة الجامعة الاسلامية بإعتباره تركيا متمصرا، فغلبت عليه رابطة الدم، والانتماء للأرستقراطية التركية، ومن ثم صاغ العديد من

القصائد ذات الصبغة التركية تجلت فيها مشاعر الانتماء لتلك الطبقة(١٥٦)، ولعل شوقي كان من تلك الزمرة التى رأت فى الخلافة الاسلامية تحت مظلة الدولة العثمانية خير حافظ للعالم الأسلامي، وفوق هذا كان الشعور الدينى الذى غلب علي العديد من أبناء مصر سواء الحقيقيين أو المتمصرين آنذاك، هذا بالاضافة الي أن أصوله غير المصرية جعلته أقرب وأوثق صلة بذلك الجنس التركى، ومن ثم كان شديد الصلة والانتماء لأسرة محمد علي التى نشأ وتربى وعاش فى ظلها، فلم يأل جهدا فى مديحها فى العديد من المناسبات(١٥٧)، ومن ثم نجد ثمة تلازما بين انتماء الأسرة العلوية لمصر انتماء لبلد أصبحت موطنا لهم، وبين انتماء أحمد شوقى لمصر أيضا.

وعلى صعيد أخر كان مشروع انشاء الجامعة المصرية البوتقة التى انصهرت فيها العناصر الوافدة جنبا الى جنب مع المصريين الاصلاء كل يتسابق للمساهمة معبرا سواء عن حبه لموطنه أو وطنه على حد سواء، اذ أقبل أمراء الأسر المالكة والأعيان في الأكتتاب للمشروع وكانت الأميرة فاطمة عمة الخديو عباس من تلك النماذج التركية التى وهبت أملاكا تبلغ ٣٣٠٠ فدان لكى يعطى الجزء الرئيسي من ايرادها للجامعة ، مع قطعة أرض تبنى عليها مبانى الجامعة ومبلغ ثمانية عشر ألف جنيه ذهبياً، وجنبا الى جنب كان الأمير يوسف كمال قد تبرع للجامعة بملكية مائة وخمسة وعشرين فدانا فى مديرية القليوبية، الى جانب مبلغ مالى لتحسين تلك الأراضى بالأضافة إلى إسهاماته العديد فى ترقية ونهضة القطر المصرى،(١٥٨) تلك الجامعة التى كانت أهلية تضم بين جنباتها كافة سكان القطر المصرى، ومن ثم مثلوا بإسهاماتهم تلك أنصهارا تاما للعناصر التركية داخل المجتمع المصرى، مما أفسح الطريق أمام نمو فكرة الوطنية المصرية الخالصة من أية شوائب تربطها بالدولة العلية، فقد تناست تلك الطبقة

مع الوقت أوطانها وأندمجوا بشكل فعلى داخل مصر التى أصبحت موطنا لهم يقدمون خدماتهم للأمة المصرية بقدر طاقاتهم.

وهكذا انخرط المثقفون المصريون جنبا الى جنب مع الأتراك المتمصرين فى العمل من أجل تهيئة المناخ المناسب للاصلاح الأدبى والاجتماعى جنبا إلى جنب مع الاصلاح السياسى الذى حمل عبء الدفاع عنه أقرانهم استعدادا لرياح التغيير التى أوشكت أن تغير وتجدد من أوضاع المجتمع المصرى سياسيا وإقتصاديا واجتماعيا.

وإن كانت مصر مع إعلان الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ قد غيرت وضعها السياسى إلا أنه بمرور الوقت وبفضل قادة الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى أستطاعت رويدا رويدا أن تغير من كافة أوضاعها، وقد توجت تلك الأصلاحات فى بعض جوانبها مع ثورة ١٩١٩، فعلى سبيل المثال استطاعت المرأة المصرية أن يكون لها دور ايجابى فى فترة ما بعد الحرب وأثبتت أن النهضة النسائية فى مصر لم تكن على مستوى أميرات البيت المالك فقط، بل استطاعت - وبفضل كوكبة من المصلحين - أن تحقق مكانة متميزة داخل المجتمع المصرى.

وهكذا قدمنا صورة صادقة لجهاد مصريين ذوى أصول تركية أملت عليهم غيرتهم على بلد تمتعوا برخاء عيشها من أن يعملوا لنهضتها ورقيها، وتسوق دليلا على انقطاع الصلة بين الأتراك المتمصرين وبين أوطانهم الأصلية بحكم معايشتهم لأفراد المجتمع المصرى، وإحتكاكهم بمشاكلهم، ولعل قانون الجنسية المصرية قد قدم لنا صورة لقمة الإنصهار الذى حدث لتلك العناصر داخل القطر المصرى، فكانت صورة على المستوى النظرى، أما انخراط الأتراك داخل المجتمع المصرى كما أتضح يعطى صورة عملية لانصهار وذوبان تلك العناصر الوافدة

ومن ثم مساهمتهم فى نمو فكرة الوطنية المصرية بإعتبارهم أحد الأسس المكونة لتلك الفكرة.

بناء على ما سبق يمكننا القول بأن نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين شهدا ضعف مراكز الطبقة التركية - الچركسية داخل القطر المصرى، وتراجعهم إلى الصفوف الخلفية، حيث ساعد بروز الطبقة الوسطى المصرية، وكذلك الدور الذى لعبه الاحتلال البريطانى إذ ساعد على فقدهم لنفوذهم السياسى من ثم الأقتصادى. وإن كان بقدر محدود. وهذا ما ساهم فى حجب الأتراك والعثمانيين وخلق ظاهرة الأتراك المتمصرين أو المصريين المستتركين، رويدا رويدا فإن مصاهرتهم للمصريين من الأعيان وأحتكاكهم بأفراد المجتمع المصرى وتداول اللغة العربية بينهم شيئا فشيئا، أصبحت تلك العناصر الوافدة جزءاً لا يتجزأ من جسد الأمة المصرية اذ طبعت الشخصية المصرية المتميزة خصائصها عليهم، مما ساعد على إنضمامهم إلى تيار الوطنية المصرية.

صفوة القول مثلت تلك الأسس سابقة الذكر عنصرا محوريا فى البناء الوطنى والقومى للمجتمع المصرى، فكان دوران تلك الأسس فى دائرة إثبات الذات وتأصيل الشخصية المصرية المتميزة تأكيدا على الهوية الوطنية المصرية، ومن ثم أضافت وساهمت فى نمو الوطنية المصرية إذ لعبت دوراً إيجابياً فى جانب من ذلك البناء، ما لبث فقدم المثقفون المصريون ليلعبوا الدور الايجابى الآخر فى ذلك البناء، ومن ثم ساهم الجانبان فى دفع فكرة الوطنية المصرية نحو مراحل نضوجها الأخيرة كما سنرى فى الفصل التالى.

هوامش الفصل السابع

١ – Bosworth. C. E. : Al-Jabarti and The Frankish Archaeologist, essayin, International of Middle East Studies, Vol. 8, April , 1977, P. 230.

٢ – هنرى لورنس وآخرون : الحملة الفرنسية فى مصر ، ص ١٤٩ .

٣ – Gibson, John, The History of Napoleon Bunaparte, P. 94.

٤ – وثائق ونصوص فى التاريخ الحديث والمعاصر، ص ٥٣، خطبة افتتاح الديوان العام فى ٦ أكتوبر ١٧٩٨ .

٥ – هنرى لورانس وآخرون : المرجع السابق ص ٦٥٤ ، بقلم : چان كلود جولڤان .

٦ – The Encyclopedia Americana, Vol. 10, P. 62.

٧ – أحمد عزت عبد الكريم : رفاعة مؤرخاً ، بحث فى ندوة رفاعة الطهطاوى ، ص ٨٥ ،

٨ – أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى، ٢٧ .

٩ – رفاعه رافع الطهطاوى : تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ .

١٠ – رفاعه رافع الطهطاوى : المرشد الأمين ، ص ٩١

١١ – رفاعه رافع الطهطاوى : مناهج الألباب ، ص ١١٣ .

١٢ – رفاعه رافع الطهطاوى : مقدمة وطنية مصرية ، ص ٤ .

١٣ – محمد عمارة (د.) : رفاعه الطهطاوى ، رائد التنوير فى العصر الحديث ، ص ٧٤ .

١٤ – صلاح عيسى : الثورة العرابية ، ص ٢٢٠ .

١٥ – أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ، ص ٦٤ .

١٦ – روضة المدارس ، العدد الأول

١٧ – أنيس صايغ : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

* طبع هذا الكتاب بدار الطباعة ببولاق مصر عام ١٢٥٤هـ، وقد قدمه لمحمد على باشا حاملا مديحا وثناء على الرجل، وقد ذكر مصطفى الزرابى فى المقدمة أن محمد على باشا [كان تولعه بالتواريخ شديدا] وكتب الطهطاوى مقدما الكتاب أيضا لمصطفى بك مختار مدير المدارس والچفالك آنذاك، وقد تمنى رفاعة أن يستعمل هذا الكتاب فى المدارس حتى يستفيد منه تلاميذها، حيث وقع الكتاب

فى ٢٧٢ صفحة قطع متوسط، بدأه بسرد التاريخ منذ بدء الخليقة وحتى ظهور الإسلام، انظر صفحات من ٢-٤٤، وقد خصص الباب الأول فى الكلام عن المصريين وملوكهم وأراضيهم، انظر، ص٢-٥٣.

١٨ - رفاعة بدوى رافع: بداية القدماء وهداية الحكماء، ص٤٤.

١٩ - نفس المصدر، ص٤٥.

٢٠ - نفس المصدر، ص٤٩-٥٣، راجع صفحات ٢٦٩-٢٧١.

٢١ - على مبارك : علم الدين ، ج٣ ، ط ١٨٨٢ ، المسامرة ٨٣ ، ص ٩١٤ . ٩١٨ - ٩٢١ .

٢٢ - نفس المصدر ، المسامرة ٨٥ ، ص ٩٦٥

٢٣ - على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وقراها ، ج١٣ ، ط ٢١ ، ١٨٩٣ ، ص ٧٣ - ٧٦ ، ج ١٦ ، ص ٢ ، ١٦ .

٢٤ - أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار ، ج١ ، ص ١٦

٢٥ - The Encyclopedia Americana, Vol. 10, P. 63 .

٢٦ - لويس عوض (د.) : تاريخ الفكر المصرى الحديث من عهد إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ ، ج٢ ، ص ٣٢ .

* أحمد كمال بن حسن بن أحمد علامة أثرى ١٨٥١-١٩٢٣، أصله من جزيرة كريت، ولد ونشأ وتوفى بالقاهرة، كان يجيد الفرنسية والألمانية والإنجليزية والتركية والهيروغليفية، وقد تقلب أحمد كمال باشا أعمال كثيرة كان آخرها أمانة متحف (القاهرة) إلى جانب القاء دروس عن الحضارة القديمة فى الجامعة المصرية، من أشهر مؤلفاته فى هذا المجال: "العقد الثمين في تاريخ مصر القديم"، "اللآ الدرية فى قواعد اللغة الهيروغليفية"، "بغية الطالبين فى علوم قدماء المصريين"، و"ترويح النفس فى مدينة عين شمس"، إلخ، إلى جانب نشره للعديد من الأبحاث باللغتين العربية والفرنسية، راجع خير الدين الزركلي، الأعلام، ص١٩٩.

٢٧ - محمد جمال الدين مختار : أحمد كمال العالم الأثرى الأول فى مصر ، مقالة فى المجلة التاريخية المصرية ، م ١٢ ، ١٩٦٤ - ١٩٦٥ ، ص ٤٤ .

٢٨ - لمزيد من التفاصيل حول جهود أحمد كمال فى مجال الآثار ، راجع ، المرجع السابق ، ص ٤٦ ومابعدها .

٢٩ - محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، ج ١ ، ص ٤٧ .

* كان يشغل وظيفة مدرس اللغة الفرنسية فىالمدارس الأميرية عند كتابة هذا المؤلف.

** طبع هذا الكتاب بمطبعة المقتطف بمصر عام ١٨٩٢ فى أربعة أجزاء وخصص الأول عن مصر، والثانى عن تاريخ بلاد العراق وبابل، والثالث عن تاريخ أهل مادى وفارس، أما الرابع فكان عن تاريخ مملكة صور، ويقع الكتاب فى أربعين صفحة من القطع المتوسط.

٣٠ - حسين أفندى زكى: مختصر تاريخ الأمم الشرقية القديم، ص٣، ٥.

٣١ - نفس المصدر، ص٦-٧.

٣٢ - نفس المصدر، ص٣٩-٤٠.

٣٣ - فاروق محمد أبو زيد : تطور الفكر الليبرالى ومفهومه في الصحافة المصرية ١٨٤٢ - ١٨٥٢ ، ماجستير ، ص ٧٠ .

٣٤ - يونان لبيب رزق (د.): ديوان الحياة المعاصرة ، ج١ ، ص ٥٩ .

٣٥ - عبد المنعم الجميعى (د.) : التنكيت والتبكيت ، من تراث عبد الله النديم ، ص ٣٩ - ٤٠ .

٣٦ - أديب إسحق : الدّرر ، ص ١٢٥ .

٣٧ - أحمد عرابى : مذكرات ، ج٢ ، ص ٧١١ .

٣٨ - مجلة اللواء ، عدد ١ ، ١٥ نوفمبر ١٩٠٠ ، ص ٥ .

٣٩ - الجريدة ، عدد ١٧٤٤ ، فى ٨ ديسمبر ١٩١٢ ، تحت عنوان "الآثار القديمة" .

٤٠ - المنار ، عدد ١٥ ، فى ٩ صفر ١٣١٦ هـ ، ص ٢٦٠ .

٤١ - أنور عبد الملك (د.) : نهضة مصر ، ص ٣٨٩ .

٤٢ - مجلة اللواء ، فى ١٥ أكتوبر ١٩٠٠ ، ص ٢٤ .

٤٣ - الجريدة ، عدد ١٧٤٤ ، فى ٨ ديسمبر ١٩١٢ .

٤٤ - يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

٤٥ - الفلاح ، أعداد ، ٨٤ ، فى ٥ يوليو ١٨٨٧ ، ٨٩ ، فى ٦ أغسطس ١٨٨٧ .

٤٦ - العلم المصرى ، عدد ٤٣ ، فى ٤ مايو ١٨٨٤ ، تحت عنوان " مقام مصر الآن بين الدول "

٤٧ - الأجيال ، عدد ٣٩ م٢ ، فى ١٩ مارس ١٨٩٨ .

٤٨ - الحرية ، عدد ١٢٠ ، ١٩٠٥ .

٤٩ - الأفكار ، عدد ١٢ ، فى ٣٠ سبتمبر ١٩٠٠ ، الأهالى ، عدد ١٧٢ ، فى ١٥ مايو ١٩١١

٥٠ - المفتاح ، فى ١٥ أغسطس ١٩٠٩ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧ ، وفى ١٥ يناير ١٩١٠ ، ص ، ١٧ - ٢١ ، وفى ١٥ مايو ١٩١٠ ، ص ١٣٩ - ١٤٤ .

٥١ - المقتطف ، الأجزاء ، التاسع والعاشر والحادى عشر ، للسنه السابعة عشر، فى ١ يونيو ١٨٩٣، ص ٤٦٩ - ٥٧٧ ، ١ يوليو ١٨٩٣ ، ص ٦٤٦ - ٦٤٧ ، ١ أغسطس ١٨٩٣، ص٧٢٢ - ٧٢٦ .

٥٢ - كتب فتحى رضوان ، مقالاً تحت عنوان وثيقة دستورية من عصر محمد على ، تظهر عقلية محمد على ونظرته الصارمة إلى أمور السياسة والحكمة ، إنظر الهلال ، عدد ٢٩ فى سبتمبر ١٩٦٩ ، وعن تلك الصفة الديكتاتورية أنظر أيضاً ، هنرى دودويل : الإتجاه السياسى لمصر فى عهد محمد

على مؤسس مصر الحديثة ، ص ٢١٨ ، كذلك .Chirol, V., The Egyptian Problem, P. 19

٥٣ – Holt, P.M., {editor} : Political And Social change In Modern , Egypt, L.D.E.I. Ghton, H.S., The Impact of Egypt on Britain A study of public opinion}, London, 1968, P. 232 .

٥٤ – صلاح العقاد (د.) : الفكرة العربية فى مصر ، ص ١٤٨ – ١٤٩ .

٥٥ – أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ – ١٨٧٩، دار المعارف، ١٩٦٧ ، ص ١٩ .

٥٦ – لمزيد من التفاصيل حول الفرمانات التى حصل عليها الخديو إسماعيل ، أنظر ، أحمد شفيق ، حوليات مصر السياسية ، ج٢ ص٦ ، كذلك .Milner, Alfred, England In Egypt , P.36 - 37

٥٧ – عباس حلمى الثانى (خديو) ، مذكرات، عهدى ، ص ١٨ .

* فقد بلغ مقدار الجزية السنوية مع الفرمان الشامل الذى حصل عليه فى يونيه ١٨٧٣ ٧٥٠٫٠٠٠ ألف جنيه تركى، أى بما يوازى ٦٧٥٫٠٠٠ جنيه إسترلينى، كما ذكر ملنر ، أنظر ،

Milner, Al Fred, Op. Cit., P. 36

٥٨ – نصوص ووثائق فى التاريخ الحديث والمعاصر ، جمعها وعلق عليها ، محمد فؤاد شكرى ، محمد أنيس ، محمد حراز ، ص ٢٤٩ ، تقرير فارمان فى ٨ يوليو ١٨٧٩ .

٥٩ – محمود نجيب أبو الليل : الصحافة الفرنسية فى مصر منذ نشأتها ، ص ١٧٣ ، ١٦٣ ، نقلها عن لوبروجيه اجيبسيان .

٦٠ – يونان لبيب رزق (د.) : وزارة الخارجية المصرية بين الإلغاء ١٩١٤ والإعادة ١٩٢٢، بحث فى المجلة التاريخية المصرية، م ٢٣ ، ١٩٧٦ ، ص ٢٦٩ .

٦١ – يونان لبيب رزق (د.) : الأهرام ديوان الحياة المعاصرة ، ج ٢ ، القسم الأول ، ص ١٢٦ .

٦٢ – نفس المرجع ، ص ١٢٦ .

٦٣ – الجامعة العثمانية ، ج ٧ ، الإسكندرية فى ١٥ يونيو ١٨٩٩ .

٦٤ – التمدن عدد ٨٢ ، فى ٣٠ يوليه ١٩٠٣ .

٦٥ – Silva, Arther, white : The Expansion of Egypt under Anglo-Egyptian Condominium, London, 1899, P. 287 .

٦٦ – عباس حلمى الثانى (خديو) : مذكرات ، ص ٦١ وما بعدها.

٦٧ – Holt, P.M., Egypt and The Fertile., P. 217 .

٦٨ – عباس حلمى الثانى (خديو) : المصدر السابق، ص ٢١ .

٦٩ – علوبة باشا : المصدر السابق، ص ٧٠.

٧٠ – لورد كرومر : عباس الثانى ، ص ٢١ .

٧١ – Milner , Alfred : Op.Cit., P. 36 .

٧٢ – الوطنية ، عدد ٧٠ ، فى ٢١ أكتوبر ١٩١٣ .

٧٣ – Guerville, A.B., New Egypt, P. 131 .

٧٤ – نقولا زيادة : القومية والعروبة ، يافا ١٩٤٥ ، ص ٧٤ .

٧٥ – The Middle East A Political and Economic Survey, P. 151.

٧٦ – صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية ، ص ١٤٢ .

٧٧ – محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، ج٢ ، ص ١٠٤٣ .

٧٨ – ادوارد وليم لين : المصريون المحدثون ، ص ٤٧٤، كذلك هنس رزنر : مصر فى عهد الإحتلال الإنكيزى ، ص ٦ .

٧٩ – ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

٨٠ – Mirrit Boutros Ghali: The Egyptian National Consciou ness Esay In, The Middle East Journal, Vol. 32, Winter 1978 , P. 62 .

٨١ – The Middle East Apolitical., P. 151 .

٨٢ – محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ص ٦٣ .

٨٣ – على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة، ج، ص، ١٧٩ .

٨٤ – Lutfi, Al-Sayyid, Afaf, Ashort History., P. 55.

٨٥ – عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، ص ١٢٥ .

* لمزيد من التفاصيل حول الأسباب التى دفعت محمد على لفتح السودان ، إنظر وجهات النظر المختلفة عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، ص ١٦٩ ، ميخائيل شاروبيم : المصدر السابق ، ص ٣٩ .

Hill, Richard : Egypt in the Sudan 1820. 1881, London, 1966, P. 7.

٨٦ – Y. Tareq. Ismael: The U.A.R. in Africa Egypt 's policy unde Nasser, Copyright, 1971, P. 14.

٨٧ – Vatikiotis, P. J.: The History of Egypt P. 70.

٨٨ – The New Encyclopedia, Vol. 6, P. 493.

٨٩ – ..ra, Alain: The First Egyptian student Mission., Essayin M.E.S., May 1980, P. 7.

٩٠ – Lord Kinross : Author of Ataturk, The Ottoman Centuries The ris and fall of The Turkish Empire, New York, 1977, P. 468.

٩١ – Colvin, Sir, Aucxland : The Making of Modern Egypt,. London, New York, D.T., P. 18 - 19 .

٩٢ – عبد الحميد حمدى :محمد على رأس العائله المالكة ، مقالة فى السياسة الاسبوعية ، عدد ١١٤ ، مايو ١٩٢٨ .

٩٣ – Paton, A.A., A History of The Egyptian Revolution , Vol., II, London, 1863, P. 73 .

٩٤ – محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

٩٥ – عبد الرحمن زكى : حملة الشام الأولى والثانية ١٨٣١ – ١٨٣٩ ، مجموعة أبحاث، إصدار الجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، مكتبة مدبولى، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٩٦ ، ومابعدها .

٩٦ – The Middle East Apolitical., P. 153 .

٩٧ – أنور عبد الملك : نهضة مصر ، ص ٢٦٢ .

٩٨ – Lutfi, Al- Sayyid, Afaf , (M) . Op.Cit, P. 59.

٩٩ – The Middle East Apolitical., P. 18 .

١٠٠ – محمود عزمى : رجال التاريخ المصرى الحديث ، محمد سعيد باشا ، مقالة فى السياسة الإسبوعية ، عدد ١٠٠ ، فى فبراير ١٩٢٨ .

١٠١ – Lutfi, Al-Sayyid, Afaf : Op. Cit., P. 55.

١٠٢ – لمزيد من التفاصيل حول الأسباب وراء التوسع المصرى فى أفريقية آنذاك إنظر عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية في أفريقيا في عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ – ١٨٧٩ ، رسالة ماچستير ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٨١ ، ص ١٤ – ٣٩ .

١٠٣ – Y., Tareq, Ismael : OP. Cit., P. 14.

١٠٤ – يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق ص ٢٨٤ .

١٠٥ – Little, Tom : Egypt, P.70.

١٠٦ – Kinross, Lord, Op. Cit., P. 545.

١٠٧ – عباس حلمى الثانى (خديو) : المصدر السابق ، ص ٢٤ .

١٠٨ – توفيق حامد المرعشى : صفحات فى تاريخ مصر ، ص ١٧٧ .

١٠٩ – Holt, P. M., {editor}, {Zayid, M., The origins of The Liberal constit utionalist party In Egypt, P. 335}.

١١٠ – يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق ، ص ١٠٨ – ١٠٩ .

١١١ – عباس حلمى الثانى (خديو) : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

١١٢ – Silva, Arthur, white , Op.Cit., P.423 - 424 .

١١٣ – راشد البراوى : مجموعة الوثائق السياسية ، المركز الدولى لمصر والسودان وقناة السويس ، ج١ ، ط١ ، النهضة المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ٣٥ .

١١٤ – The History Dictionary of Egypt, P. 91 .

١١٥ – Lutfi, Al.S.Afaf : Egypt and cromer, P.7.

١١٦ – نصوص وثائق فى التاريخ الحديث والمعاصر ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، تقرير بورنج عضو مجلس العموم البريطانى رفعه إلى حكومته عام ١٨٣٩ .

* حول تصاعد التأثير التركى فى مصر فى القرن التاسع عشر ، إنظر ، محمد صلاح الدين حلمى : حياة الأتراك الإجتماعية فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، رسالة ماجستير ، كذلك عبد الغفار محمود السيد : دور العناصر التركية السياسى والإجتماعى فى مصر خلال القرن ١٩ ، رسالة دكتوراة .

١١٧ – أحمد حسين : موسوعه تاريخ مصر ، ج٣ ، ص ٩٩٠ .

١١٨ – صلاح عيسى : الثورة ومسألة السلطة (٤) مقالة فى الكاتب ١٣٥ ، يونيو ١٩٧٢ ، ص ٨٩ .

١١٩ – تقرير أحمد عرابى باشا عن الجيش المصرى، مطبعة الجامعة بمصر ،١٨٨٢ م ص٢ وما بعدها.

١٢٠ – Lutfi, Al.S.Afaf, Op.Cit., P. 6.

١٢١ – علوبة باشا : المصدر السابق، ص ٧٩.

١٢٢ – مصطفى كامل : المسألة الشرقية ، ج٢ ، ط٢ ، ١٨٩٨ ، ص ٥٠ – ٥١ .

١٢٣ – يونان لبيب رزق (د.) : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الإحتلال البريطانى ١٨٨٢ – ١٩١٤ ، ص ٣ ، كذلك الكسندرشولش : مصر للمصريين، أزمة مصر الإجتماعية والسياسية ١٨٧٨ – ١٨٨٢ ، ص ٢٢ .

١٢٤ – السيد عبد الحليم الزيات (د.): التحديث السياسى فى المجتمع المصرى (دراسة سوسيو تاريخية) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ٤٤ .

١٢٥ – أ.ب. كلوت بك:لمحة عامة إلى مصر، (٣)، ط٢، ترجمة محمد مسعود، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٢٢ .

١٢٦ – Little, Tom, Op.Cit ., P. 98.

١٢٧ – محمد عمارة : قاسم أمين ، الأعمال الكاملة ، ط٢ ، دار الشروق ١٩٨٩ ، ص ١٤٣ .

١٢٨ – عباس حلمي الثاني (خديو) : المصدر السابق، ص ٤٨ .

١٢٩ – محمد فريد : مذكراتي بعد الهجرة ١٩٠٤ – ١٩١٩ ، م١ ، ص ٤٥ .

١٣٠ – Marlowe, John: Cromer In Egypt, P. 257 .

١٣١ – عبدالغفار محمود السيد : المرجع السابق ، ص ٥٦٩ .

١٣٢ – عباس حلمى الثانى (خديو) : المصدر السابق ، ص ٨٣ .

١٣٣ – Milner , Alfred : Op, Cit., P. 319 .

١٣٤ – Ibid, P. 320.

١٣٥ – لويس عوض (د.) : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

١٣٦ – يونان لبيب رزق (د.) : الأهرام ديوان الحياة المعاصرة ، ج٢ ، القسم الأول ، ص ١٥٩ .

١٣٧ – طلعت إسماعيل رمضان : محمد شريف باشا ودوره فى السياسة المصرية ، ص ١٥٧ – ١٥٨ .

١٣٨ – ويلفرد بلنت : التاريخ السرى لإحتلال إنجلترا مصر ، ج١ ، ص ١٩٢ ، ٢٥٧ .

١٣٩ – يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، ٢٦٠ .

١٤٠ – يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

١٤١ – الأخبار ، عدد ٥١ ، فى ٦ مارث ، ١٩٠٨ ، نقلاً عن كتاب كرومر.

١٤٢ – Blunt, Wilfrid, Scawen : Secret History., P. 141 .

١٤٣ – حول نشأة البارودى وحياته أنظر محمد صبرى (السربونى) : أدب وتاريخ ، ط ٢ ، ١٩٢٧ ، ص ١٩ – ٢١ ؛ كذلك ، عد الحميد حمدى : رجال التاريخ الحديث فى مصر (١٣) محمود باشا سامى البارودى ، مقالة فى السياسة الإسبوعية ، عدد ٦٨ ، فى ٢٥ يونيه ١٩٢٧ .

١٤٤ – لطيفة محمد سالم : القوى الإجتماعية فى الثورة العرابية ، ص ٢٠٠ .

١٤٥ – Blunt, W., S., Op. Cit., P. 141.

١٤٦ – أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث فى مصر ، ص ٦٤ .

١٤٧ – عبد المنعم إبراهيم الجميعى (د.): المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

١٤٨ – يونان لبيب رزق (د.) : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

١٤٩ – لويس عوض (د.) : المرجع السابق ، ص ١٦١ .

١٥٠ – تيموثى ميتشل : إستعمار مصر ، ص ١٧٩ – ١٨٠ .

١٥١ – إبراهيم عبده وآخرون : الموسوعة الذهبية ، م١٠ ، مؤسسة سجل العرب ١٩٨٠ ، ص ١٠٩٠، كذلك يوسف أليان سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، م٢ ، عمود ١٤٨١ – ١٤٨٢ .

١٥٢ – فرح أنطون : قاسم أمين وخطبته الأخيرة مقالة فى الجامعة ، عدد مايو ١٩٠٨ ، ص ١٢٢ .

١٥٣ – قاسم أمين : قطرات ، مقالة فى الهلال ، عدد نوفمبر ١٩٢٣ ، ج١ ، م ٤٢ ، ص ١٥ .

١٥٤ – محمد عمارة (د.) : قاسم أمين الأعمال الكاملة، ص ٢٢٨ .

١٥٥ – السيد فهمى الشناوى (د.): شوقى ودوره السياسى ، مقالة فى الهلال عدد أكتوبر ١٩٨٢ ، ص ٤٤ .

١٥٦ – أحمد عبد الرحيم مصطفى (د.): شوقى والخلافة، مقالة فى الهلال ، عدد نوفمبر ١٩٦٨ ، ص ١٧٩ – ١٨٣ .

١٥٧ – عثمان أمين (د.) : أحمد شوقى بين الخديو عباس ومحمد عبده ، مقالة فى الهلال ، عدد نوفمبر ١٩٦٨ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

١٥٨ – عباس حلمى الثانى (خديو) : المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

* * *

[redacted]

الفصل الثامن

الوطنية المصرية فى ظل مراحل نضوجها حتى عام ١٩١٤

كان من الطبيعي أن تسفر الأسس المكونة لفكرة الوطنية المصرية - كما عرضناها . عن اهداء المجتمع المصرى لكوكبة من المثقفين المصريين الذين جاءوا بمثابة النتاج لإنصهار هذه الأسس السابقة، ولكى يساهموا بمساهمات بارزة فى بناء صرح الوطنية المصرية فى محاولة لتحديد الهوية الخالصة للوطن المصرى، وهذا ما يختلف عن مراحل سبق تناولها فى الفصول المختلفة لهذا البحث تلك المراحل التى كانت تشير إلى خلوها من التكاملية من حيث ظهور الكفاءات فى عدد كثير من المجالات، وتجاه هذا الوضع الجديد الذى صار يعيشه المجتمع المصرى مع بدايات القرن العشرين فإننا نسوق دلالة ذلك الحصاد فيمن ظهر من نخبة مثقفة متميزة من أبناء الوطن المصرى نمت لديها العاطفة الوطنية بوضوح من خلال عمليات تحديث مصر فسعت للإرتقاء بالفكر المصرى الحديث واضعة نصب أعينها بلوغ مرتبة أوربا.(١)

فقد شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين انبثاق نهضة وطنية ثقافية أثرت بشكل أو بأخر على تطور المجتمع المصرى، رغم المحاولات المبكرة من قبل سلطات الاحتلال البريطانية لوأدها مستخدمة عدة طرق سواء من خلال القضاء على اللغة الوطنية للشعب المصرى التى كانت بمثابة دعامة مساندة لإيجاد وتحديد هوية وطنية ثقافية للأمة المصرية، أو من خلال

العمل على طمس معالم هوية الوطن المصرى عن طريق استبعاد دراسة التاريخ الوطنى للقطر المصرى، وكذا بمحاولتها ضرب الوحدة الوطنية بتعميق المبدأ الاستعمارى فرق تسد فى محاولة منها لتفتيت كيان الأمة المصرية، وفوق هذا كان سعيها للحيلولة بين الشباب المصرى وبين التربية العلمية السليمة القادرة على إخراج جيل من الشباب الوطنى المساند لقضايا بلاده ومن ثم كان مسعاها لإيجاد هوة ثقافية بين أبناء الوطن الواحد من خلال النظام التعليمى القائم آنذاك، وهكذا وقفت سلطات الاحتلال بهذه السياسة التعليمية العقيمة سدا حائلا أمام وجود أرضية مشتركة تحفظ التراث الحضارى لأبناء الوطن الواحد وتجمعهم فى بوتقة ثقافية واحدة حفاظا على الهوية الوطنية الثقافية المصرية.

إلا أن تلك المحاولات من قبل سلطات الاحتلال قد باءت بالفشل، بل أدت إلى نتائج عكسية تجلت فى ازدياد النزعة الوطنية لدى المثقفين داخل القطر المصرى تلك الصفوة التى غذَّت ينابيع الفكر المصرى بثقافتها سواء الوطنية أو الغربية التى اعتبرت استجابة منطقية لاستيعاب تلك العقول المصرية للمؤثرات الثقافية الأوربية، وبهذا حالت بين الفكر المصرى الحديث وبين نضوبه بل زادته تدفقا فى رافدين مثَّل أحدهما اتجاها اسلاميا يرمى إلى تحديث الثقافة والمجتمع الإسلامى نابذا الجمود العقلى والدينى على حد سواء مؤمنا بأن جوهر الإسلام لا يتناقض مع الحضارة الحديثة اذ لم يكن ثمة تناقض بين الدين والعلم أمثال السيد جمال الدين الأفغانى وتلميذه الأمام محمد عبده وتلميذ الأخير الشيخ مصطفى عبد الرازق.(٢)

ومثَّل الآخر اتجاها وطنيا يهدف إلى تحديث الوطن المصرى بإتباع عدة طرق : أولا، غرس وتعميق قيم الوطن والوطنية فى الوجدان المصرى فى محاولة لإيجاد هوية وطنية ثقافية مصرية لأبناء القطر المصرى، ثانيا، تربية وتهذيب أبناء

المجتمع المصرى بغرس المعايير الأخلاقية السليمة لسلوكياتهم وكانت إحدى الوسائل المستخدمة هنا هى كشف النقاب عن مساوئ النظام الاجتماعى المصرى فى محاولة لايجاد الحلول لها، جنبا إلى جنب مع تقديم النصح والارشاد للأسرة المصرية على وجه العموم والنشء على وجه الخصوص فى محاولة لتقويم سلوكيات المجتمع المصرى، ثالثا، اتباع أسلوب المقارنة بين الأمم المتقدمة والمتأخرة فى إطار لعبة الحداثة بين الشرق والغرب كمحاولة لحث الهمم، وإيقاظها من سباتها، رابعا، المشاركة فى كل ما يلم بالمجتمع المصرى من آمال وآلام والتعبير عنه شعرا ليصل إلى قلب الشعب المصرى قبل عقله فى محاولة لإحداث نوع من التفاعل الايجابى من قبل أفراد المجتمع المصرى مع تلك القضايا التى تمس البلد والإيمان بها من أجل تقدم الوطن ورقيه، خامسا : ذلك الاتجاه الوطنى لإرساء قواعد الفكر الليبرالى المصرى على يد دعاة القومية المصرية.

على أية حال سوف نتناول الاتجاه الوطنى الأخير الذى غذّى الفكر المصرى الحديث، اذ ضم تلك الكوكبة من المثقفين المصريين الذين مثلوا اتجاها وطنيا ساعد على نمو تيار الوطنية المصرية ومن ثم أسهم فى بلورة فكرة "القومية المصرية".

أولاً : كان غرس قيم الوطن والوطنية فى الوجدان المصرى تيارا تبناه كل من محمد مختار ، محمد عمر ، أمين حمدى.

حيث أن محمد مختار الذى كان ناظراً لمدرسة النحاسين وقت طبع كتاب له عام ١٨٩٣ تحت عنوان "الوطنية"(٢) ، تناول فيه بالشرح حق الوطن على بنيه وأعتبره حقا مقدسا وأفضل ما يؤدى من حقوق بعد حق الله سبحانه وتعالى، وفوق هذا خصص مساحة من الشعر عن ذلك الوطن الذى يتغنى بحبه ويفتخر به

ليتضح أمامنا أنه "مصر" قائلا :

إن البـــلاد كثـــيرة	وأعزها عندى الوطن
فيــه نشــأت منعمــا	وبه وقيت مـن الوهـن
وبه أفتخرب على البلاد	ومن بها أيضا سكن
مصر السعيدة موطنى	من ذا يفاخرنى ومـن

لقد كانت صورة الوطن والموطن فى مخيلته هى مصر فعدد محاسنها كوطن ومدح من سكنها من أبنائها، ليقرب الصورة أمام النشء بأنها وطن يستحق بذل النفس والنفيس من أجل حمايته والحفاظ عليه.(٤)

ولكنه فى نفس الوقت عاب على أبناء الوطن المصرى اكتفاءهم بترديد لفظة "الوطنية" على أفواهم بإعتباره موقفا سلبيا، ومن ثم سعى لتحميلهم عبء العمل من أجل نهضة ورقى ذلك الوطن عمل بلا قول وبذلك يكون موقفهم إيجابيا فى ترقية وتقدم وطنهم، إذ رأى أنهم بموقفهم الأول (يقتلون أوقاتهم ويميتون أعمارهم بالأشتغال بما لا يفيد)(٥)، وقد هدف محمد مختار فى كلماته تلك إلى كشف النقاب عن عيوب ونواقص تفكير بعض أبناء الوطن حتى يتم تدارك ذلك الخطأ الفاحش لسلوكيات بعض أفراد المجتمع المصرى إذ أن عدة مصر فى رجالها، وفى محاولة منه لتقويم حال الوطن وإرتفاع شأن بنيه، ومن ثم أخذ يعدد نماذج لتلك الرجال التى ترى الوطنية أقوالا لا أعمالا.

وقد عرَّج **محمد مختار** فى كتابه على الحكومة القائمة آنذاك عاقدا الأمل فى إصلاح أبناء الوطن على الخديو عباس الذى تعلم "كيف تكون الأميال الوطنية"، وفى لمحة تربوية منه أشار إلى الأعتماد على العمل من أجل افتتاح المدارس والكتاتيب والعمل على اتساع دوائر التعليم ونشر العلوم والمعارف فى

أنحاء القطر المصرى بهدف تهذيب النفوس والارتقاء بإبناء الوطن الى درجة من التقدم والتمدن مساوية للأمم المتقدمة الأخرى، خاصة وأنه رأى أن أبناء مصر يتميزون بأنهم على حد قوله : "أرباب قرائح ذكية وحافظتهم قوية متى تصدوا شيئا تعلموه فى أقرب وقت وزمان وكم قام على قابليتهم واستعدادهم لعظائم الأمور أعظم برهان").(٦)

ومن ثم وجه كلامه إلى الوطنيين من أبناء مصر دون تفرقة بين عنصريها المسلم والقبطى بل تحدث باسم "الوطنية" فى أكثر من موضع، مثل قوله : (فيجب علينا معشر الوطنيين) ، وكذا قوله : (أيظن الوطنيون)، ولم يشر فى كلامه للفظة "المسلمين" ، مؤكدا على الوحدة الوطنية للقطر المصرى مشيرا بالقول : (فيجب على من جمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرفه وإعطامه وثروته لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهى تكون بين الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بمزية النخوة الوطنية)(٧)، وبذا يكون قد خاطب المصريين باعتبارهم أمة متوحدة تنعم بخصوصية منفردة عن سائر الولايات الأخرى آنذاك.

ولكن الملفت للنظر أن جرى على لسانه لفظ "العرب" فتحدث بلسان "العربى" وتحدث عن المروءة العربية فى قوله : (ألسنا نحن العرب والعرب نحن فلماذا لا تستنهضنا الهمم ولا تستفزنا الغيرة الوطنية ولا تحرضنا المروءة العربية ولا تحثنا الهمة الأدبية على المساعدة والأخذ بناصر بعضنا بعضا لإعادة فخرنا ونصرنا وشرفنا وعزنا ومجدنا ورونقنا ...) أنه لا ينسب هنا الأمة المصرية إلى جذورها الفرعونية بل يخالف أقرانه . فى فترة ما بعد الاحتلال . بانتسابها فى قوله للعنصر العربى، ولا يسعنا هنا إلا القول أنه قد أستشهد بالأخلاق العربية من باب حث المصريين على الاتحاد الوطنى والعمل لخير الوطن اذ تابع

قوله السابق على الصورة الآتيه : (أفهل هناك مانع لتلك الطرق التى فتحوها لنا وقالوا اقتفوا أثرنا وعلى ظنى بل ويقينى أنه لا يمنعنا عن ذلك سوى عدم الاتحاد الوطنى ولعمرى لو اقتفينا منهج أوربا التى أخذت العلوم عنا واقترضتها منا لعدنا كما كنا فيه والعود أحمد...)(٨)، ومن ثم فإن حديثه يحمل فى طياته دعوة للنهضة الوطنية بالسعى لاسترداد ماضى العرب الحضارى الذى نقله عنه الغرب الأوربى، بإعتباره إرثاً حضاريا عظيماً، وهكذا نسب الأمة المصرية إلى المحيط العربى ولم ينسبها إلى الأصل الفرعونى، ولم يجعلها مشاعا وسط العالم الاسلامى، بل أنه سلخها عن جسد الدولة العثمانية فى وقت كانت فيه فكرة الجامعة الإسلامية على أشدها، وفوق هذا لم يتطرق إليها بالإشارة، اذ لم يقدم فروض الولاء كما درج معظم سابقيه على فعل هذا فى مؤلفاتهم، ومن ثم غض الطرف عن الوجود السياسى والروحى لتلك الدولة، ومن ثم صب حديثه فى قالب مصرى وطنى راجيا إلى إصلاح أحوال القطر المصرى متخذاً من الحضارة العربية السابقة نبراسا يهتدى به.

وقد أدرج محمد مختار وجهة نظره الرامية إلى إصلاح أحوال القطر المصرى مع طرح الحلول المؤدية إلى ذلك فى قوله : (هذه الأمة أحق الناس والله بإعتناق الفضائل واطراح الرذائل وأحوجهم إلى الجد والنشاط فى الأعمال النافعة لأوطاننا فعلينا أن نحب الأرض التى نشأنا بها وربينا فى نعمائها .... ومن علامات الرشد أن تكون النفس لوطنها تواقه ولمسقط رأسها مشتاقة وليس حب الانسان لوطنه مجرد وجوده فيه ومعيشته به بل لوجود أهله وعشيرته بل ونشأة أسلافه فى أرضه)(٩)، من هنا سعى محمد مختار لغرس الوطنية فى نفوس أبناء القطر المصرى بتأكيده على القول بأن حب الوطن فضيلة جليلة وخاصة اذا كان ذلك الوطن مصدر عز وفخار ومجد كمصر اذ قال عنها : (فإنها

وطن شريف أصل المجد وأسباب الشرف فى القديم والحديث كيف لا وهى جنة حُسن شائقة المنظر ...) ، ولم يكتف بذلك بل دعم كلامه عن مميزات مصر بالأدلة القرآنية موجها كلامه إلى أبناء جلدته بالقول : (فإذا علمتم أيها المصريون وتحققتم أيها الوطنيون أن بلدتنا هذه هى البلد الأمين .. كان لابد من محبتها والذود عن مصالحها والتعاون فيما ينجحها)(١٠)، ونستشف النزعة الوطنية لدى محمد مختار فى مزجه بين حب الوطن وبين السعي لترقيته وتمدينه ذلك الخط الوطنى الذى سار عليه فى مؤلفه هذا الذى حمل اسم ورسم خدم به فأرسى قيم الوطن والوطنية فى نفوس أبناء مصر، حيث نجح فى أن يقدم تلك القيم فى قالب وطني خالٍ من ثمة شوائب أخرى، ومن ثم كان تأكيده على الهوية الوطنية الخالصة للأمة المصرية.

صفوة القول أن محمد مختار بتلك الكلمات يعتبر نموذجا للمثقف المصرى فى فترة ما بعد الاحتلال البريطانى، ذلك النوع من المثقفين الذين نأوا بأنفسهم عن الخوض فى المسائل السياسية التى كانت مطروحة آنذاك على مسرح الحياة السياسية المصرية، مفضلا خوض القضايا الفكرية والاجتماعية التى تمس أبناء القطر المصرى تلك القضايا التى قدمت لنا كاتبا رومانسيا بالدرجة الأولى، ويمكن تحليل مسلكه هذا إلى طبيعة عمله التى أملت عليه اتجاها تربويا اذ حمل على عاتقه مهمة تربية جيل وطنى يدرك متطلبات عصره ومستلزمات تقدم وطنه مثله كمثل رفاعة الطهطاوى وحسين المرصفى فى هذا المجال، ويحمد له أنه بهذه الروح الوطنية التى حاول تأصيلها بين أبناء الوطن أنه ساهم فى نمو تيار الوطنية المصرية.

أمام هذا القول نجد ثمة تشابها بين محمد مختار ورفاعة الطهطاوى الذى تغنى بحب الوطن المصرى وكان عاشقاً له مع وجود فارق جوهرى فى كون لفظ

"الوطن" لدى محمد مختار كان واضح المعالم في مخيلته ومخيلة أبناء الجيل الحاضر آنذاك، وفوق هذا لم يمزج ذلك اللفظ بأية اتجاهات إسلامية، ومن ثم أعتبر حديث صريح واضح موجها لأبناء الوطن المصرى دامغا لفظة الوطن والوطنية في عقولهم بمفهوم جديد على غير ما ألفوه لتصبح في مخيلتهم مرتبطة بالأعمال نابذة الأقوال التي لا هدف يرجى من ورائها لتقدم الوطن المصرى، وثمة تشابه أخير بينهما في إتفاقهما للولاء للأسرة الحاكمة، فقد نظر محمد مختار الى الخديو عباس على أنه أمير استطاع أن ينشر لواء العدل بين المصريين الذين سعى الى تمدينهم ورقيتهم، نفس الولاء الذى حمله رفاعة في السابق لمحمد على، ونستطيع أن ننظر الى الاثنين من خلال إعتبارهما يدوران في فلك السلم الوظيفى داخل الدولة المصرية.

* * *

شغل **محمد عمر** وظيفة مستخدم بمصلحة البوستة المصرية، أصدر كتابه "حاضر المصريين أو سر تأخرهم" عام ١٩٠٢(١١) ، وقد كتب مقدمة هذا المؤلف أحمد فتحى زغلول مظهراً ثناءً على هذا المؤلف الذى أعتبره استجابة ضرورية من قبل أبناء الوطن المصرى الذين قد قرأوا (سر تقدم الأنكليز السكسونيين) لديمولان عالم الاجتماع الفرنسى – تلك النسخة التي قام فتحى زغلول بترجمتها إلى العربية هادفا من ورائها أن يستفيد بها أبناء وطنه(١٢) ، وهذا ما حدث فقد نهج محمد عمر منهج ديمولان فى أنه أدرك التأخر والانحطاط الذى أصاب الأمة المصرية فأعد العدة ليبحث في علل ذلك التأخر في محاولة منه لإيجاد الدواء المناسب لتلك العلل، لذا قسم المجتمع الى ثلاث طبقات : الأغنياء والمتوسطين والفقراء، وقام بتناول تلك الطبقات بالشرح المفصل، فى محاولة لكشف النقاب عن مساوئ ونواقص حدثت لجسد الأمة المصرية حتى يتم تداركها بمعرفة الداء حيث ذكر في مقدمته بيت الشعر التالى :

إذا أنت لم تخير طبيبك بالذى   يسوءك أبعدت الدواءَ عن السقمِ

هكذا جسد محمد عمر صورة كاتب طبقي اجتماعي أستطاع أن يرسم صورة معبرة لطبقات المجتمع المصرى(١٣)، تلك الصورة التى ضمت ملامح البؤس والشقاء الذى كان حليفا لصيقا بمظاهر التخلف والتحضر للمجتمع المصرى آنذاك.(١٤)

بقى أن نشير فى دراستنا عن معانى الوطن والوطنية كما أوردها محمد عمر فى كتابه، فقد قام بتعريف "الوطن" بأنه هو:(الجهة التى ينتسب الإنسان إليها بصفته فردا خاضعا لأحكامها ونظاماتها سواء كان ذلك بحق الولادة أو الاقامة أو الانتساب للأمة)(١٥)، وهكذا جعل الوطن شاملا لكل من يولد على أرضه مهما كانت أصوله، أو من أقام وانتسب إلى الأمة، ولعل هذا التعريف لا يخرج عن مضمون مشروع الجنسية المصرية الذى كان قد تحدد من قبل فى عام ١٨٩٩ وتأكد فى عام ١٩٠٠ مع العمل بقانون الانتخاب، ومن ثم كان تناول محمد عمر "للوطن" بالتعريف يتواكب مع مناقشات مشروع الجنسية المصرية، مما يجعلهما فى صورة قريبة الشبه، فإنه لم يتطرق إلى تحديد حدود الوطن، وأكثر من ذلك فقد نظر إلى المقيم والمنتسب فى أمة باعتباره من أبناء الوطن وبذلك قد خالف العرف المتفق عليه وهو أن الوطن هو "محل الإنسان مطلقا"، لما سوف يترتب على ذلك من تحديد "ابن الوطن" بأنه الفرد المولود فيه، وبهذا التعريف الذى وضعه محمد عمر مع بدايات القرن العشرين نرى تراجعاً لتعريف ابن الوطن إذ ألتقى مع رفاعة الطهطاوى باعتبار الوافد إلى الوطن يعد من ابنائه طالما توطن به واتخذه وطنا، فكأن تلك المؤثرات الغربية التى انتشرت داخل المجتمع المصرى، أو تلك النهضة التعليمية التى ألمت بأفراده لم تقدم جديداً لرؤى هؤلاء المثقفين للوطن الحقيقى لتجعله قاصرا على أبنائه دون الالتفات إلى العناصرالوافدة إليه.

وقد تناول لفظ "الوطنية" بالشرح إذ قال : (هى الشعور الذاتى برابطة الانتساب التى تجمع بين الإنسان ووطنه ومن يشترك معه فى هذه النسبة أى بوحدة مصلحة الطرفين ولضرورة السعى فى رفعته وتقويته والذود عنه رفعة وتقوية وذودا عن المصلحة الفردية ....)(١٦)، ولقد فسر محمد عمر الشعور بالوطنية على أساسين مكملين لبعضهما البعض أحدهما يقوم على العلاقة المكانية التى تربط الإنسان بوطنه فتجعله ينتسب إلى ذلك الوطن ويمتلك عليه شعور دائم بالحنين إليه، والآخر يقوم على العلاقة المنفعية التى تقوم على المصلحة بين أبناء الوطن ومن يشترك معهم فى الانتساب لهذا الوطن ومن ثم يسعى كلا الطرفين للعمل على تقدم ورقى هذا الوطن دفاعا عن المصلحة الشخصية.

زادت النزعة الوطنية لدى محمد عمر فى فصله للدين عن الوطنية بدعوته إلى إمكانية وجود "جامعة وطنية" تعمل على الاتحاد الوطنى بين أبناء الوطن الواحد، وقد عاب على الشرقيين جهلهم فى عدم فهمهم لمعنى الوطنية التى ألبسوها رداء الدين فلم يستطيعوا أن يتصوروا وجود جامعة أخرى تشد أزرهم وتقويهم وتجمع شملهم سوى جامعة الدين فقد أشار بالقول : (إن انحطاط العلم فى الشرق وفقدان قاعدة البحث فى الحقائق جعل الأكثرية فيه لا يفهمون معنى الوطنية كما هو . وجلهم إن لم أقل كلهم يعتقدون أنها قائمة فى جامعة الدين . نعم إن الدين يقوى تلك الروابط ويهذب أميالهم ولكنه لا يحول دون هذه الجامعة إن أدرك كل فرد ماهية دينه والغاية الجوهرية منه . إنما الجهل قد أبعد هذه الحقائق عن أكثر الشرقيين فهم يعتقدون أن لا جامعة حقيقية غير جامعة الدين فزال الاتحاد الوطنى من نفوسهم وضعفت وحدتهم وأخذت فى الانفراط)(١٧)، وهكذا سلخ العقيدة عن الأطار العام لفكرة الوطنية فى وقت كانت فكرة الجامعة الإسلامية مسيطرة على عقول غالبية المصريين المسلمين هؤلاء الذين لم يدركوا

بعد معنى الوطنية الحقة.

وكان من الطبيعى أن يهاجم فكرة "الجامعة الإسلامية" القائمة على تضامن العنصر المسلم داخل القطر المصرى مع سائر مسلمى الأرض نابذاً العنصر القبطى المكون الآخر للأمة المصرية، وهذا ما جعله يطرح سؤالا هاما ألا وهو : (لنفرض أن للمسلمين جامعة ووحدة مستقلة عن جامعة ووحدة المسيحيين فهل يمكن للبلاد أن تنهض من خضوعها وأنحطاطها الحالى ؟ وأن تحصل على استقلالها بمثل هذا الانقسام ؟ وهل يمكن أن يتوقع أن البلاد تخلو يوما من الأيام من أحد هذين العنصرين ؟) وقد كان جوابه عن تلك الأسئلة التى طرحها جامعا مانعا اذ قال : (كل هذا يستحيل فلا وطنية بدون اتحاد حقيقى ولا فلاح ولا استقلال بدون وطنية)، وهكذا أبان ضرورة قيام "جامعة وطنية مصرية" مناهضة لوجود "الجامعة الإسلامية" ترمى إلى ترقية وإعلاء شأن القطر المصرى وإخراجه من حالة الخضوع والانحطاط الذى أصابه من جراء الاحتلال البريطانى القابض على أرضه، ولا سبيل إلى ذلك – كما أورد محمد عمر فى مؤلفه – إلا اذا تضافرت جهود الأمة المصرية لتحقيق وحدتها الوطنية أولا ومن ثم نستطيع تحقيق استقلالها الوطنى ثانيا، حيث كما قال لا أمل قط (بأختصاص البلاد بعنصر واحد دون الآخر)، وقد طرح الحل المناسب للخروج من هذه الأزمة فى قوله : (وحيث أنه لابد من اجتماع العنصرين فى معيشة واحدة تحت سماء واحدة ... وهذه لا توجد الا بالاتحاد وهذا لا يكون إلا بتربية النفوس على أن الدين لا ينافى العلاقات الوطنية).

وهكذا قدم محمد عمر درسا فى التربية الوطنية لأبناء الوطن المصرى، ذلك الدرس الذى توصل فيه الى أنه لا أمل فى وجوده بين المدارس الحكومية التى تقوم فكرة التعليم فيها على (تناقض المصلحة الوطنية الحقيقية)، ومن ثم أوجد

حلا مناسبا وهو تعميم ونشر تلك الدعوة الوطنية عن طريق فتح مدارس للبنات في جميع أنحاء القطر إلى جانب اكثار عدد المدارس للأولاد، بالأضافة إلى طرقه باب فكرة حديثة العهد على أذهان المصريين وهي الدعوة إلى (إنشاء جامعة في العاصمة يستحضر لها أساتذة من بلاد لا غاية سياسية لها في القطر)(١٨) ومن هنا التقت دعوته مع دعوات العديد من المثقفين المصريين حول انشاء الجامعة المصرية الأهلية أمثال مصطفى كامل وقاسم أمين، ومن ثم كان محمد عمر ممن لهم قصب السبق في الدعوة لهذا المشروع وإن لم يشر اليه أحد ممن كتب عن تاريخ إنشاء الجامعة المصرية، وفوق هذا أعتبر محمد عمر مكملا لسلسلة المثقفين المصريين بدعوته إلى تعليم البنات داخل القطر المصري أمثال رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك وقاسم أمين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

وقياسا على ما سبق يعد محمد عمر من طليعة المصريين العلمانيين - إن جاز لنا التعبير* الذين جعلوا من العقيدة علاقة بين الإنسان وربه، ومن ثم عمل على تنحية العقيدة جانبا ليفسح الطريق أمام بروز الهوية الوطنية لأبناء القطر المصري، وفي مسعاه لذلك أكد على عدم تنافر الدين والوطنية إذ أن (الدين عبارة عن اعتقاد بتعاليم خصوصية لا تتعدى دائرة الضمير. هي قاصرة على علاقة الإنسان بربه .... فوحدة الدين هي فقط الإرتياح الذي يشعر به الإنسان عندما يرى آخر مشاركا له في رأيه ومذهبه . والمصلحة الدينية قائمة فقط فيما يجده إنسان في شريكه في الاعتقاد من التعضيد في إقامة الشعائر الدينية التي ربما يعجز الفرد الواحد عن إقامتها بالأحتفال المألوف . فكل ذلك يزيد الاتحاد قوة وجمالا ولكنه في الحقيقة خارج عن العلاقات الضرورية التي تحتاج الوطنية إليها)، وفي محاولة منه لفصل الدين عن الدولة ذكر (.... انما يسن اليه (المقصود

الدين) القواعد التى تتعلق بشؤونه مع غيره فى دائرة علاقاته الأدبية لا فى علاقاته الاجتماعية التى يعود أمرها إلى القوانين النظامية السياسية)(١٩)، ومن ثم يمكن النظر إلى محمد عمر بإعتباره استجابة منطقية للمؤثرات الغربية التى دخلت المجتمع المصرى نتيجة الأحتكاك بالحضارة الأوربية الحديثة، ومن ثم كان نتاج عمليات تحديث المجتمع المصرى على أساس الفكر الأوربى الحديث.

صفوة القول يمكن اعتبار محمد عمر بمؤلفه هذا دليلا على نضوج الوعى السياسى لأبناء الوطن المصرى مع بدايات القرن العشرين، إذ أستطاع أن يفصل الأمة المصرية عن الجسد العام للعالم الأسلامى بدحضه فكرة الجامعة الإسلامية، ومرة ثانية بفصلها عن التبعية للدولة العثمانية سواء أكانت الروابط لذلك سياسية أو روحية بإعتبارها مركز الخلافة الأسلامية، ونستشف ذلك من تجاهله الإشارة إلى الدولة العلية فى هذا المؤلف، بل اقتصر على مهاجمة فكرة الجامعة التى تبناها السلطان عبد الحميد ممثل الدولة، ومن ثم رأينا فى بحثنا هذا أن يوضع محمد عمر فى دائرة الضوء التى غابت عنه، بفضل اسهاماته العديدة سواء فيما يتعلق بوضع تعريف للوطن والوطنية، ومن ثم أسهم فى تطور فكرة الوطنية المصرية، إلى جانب دعوته لإيجاد جامعة وطنية مصرية كخطوة أولى لتحقيق استقلال مصر، ومن ثم قدم لنا رؤية وطنية مصرية بدأها بعرض علة تأخر الوطن المصرى وختمها بإيجاد الحلول المناسبة للخروج من أزمتها، كنموذج لرجل من رجال الطبقة المتوسطة – وكما يمكن تصنيفه مجازاً لأنه كان من مستخدمى البوستة المصرية وعموما لم تتيسر المعلومات الكافية عنه الأمر الذى لا يمكن معه الألمام بمجهودات أخرى له ربما أسهم بها فى تحديث الفكر المصرى، وقد أنكر عليه البعض تأليف هذا الكتاب فى محاولة لنسبه إلى أحمد فتحى زغلول، ولقد قام بدحض تلك المقولة أحمد زكريا(٢٠)، ونحن بدورنا نرى أنه

ثمة أناس عاشوا فى الظل بعيدا عن دائرة الضوء الا أنهم أسهموا فى تغذية روافد الفكر المصرى الحديث بمؤلف أو بمواقف أو خطب أو مقالات وكان منهم محمد عمر.

* * *

أصدر **أمين حمدى** كتابه تحت عنوان "الحياة القومية"* شارحا فيه معنى الحياة القومية ومعددا الأسس التى تبنى عليها، مع الوصول إلى نتائج وثمار تلك الحياة القومية إذ يعرفها أولا بأنها : (روح تسرى فى الروابط الأجتماعية بين أفراد الأمة الواحدة تجعل لها شخصية مستقلة عن غيرها من الأمم الأخرى وشعارات تمتاز بها عن شعائر الأقوام).

وقد أتخذ أمين حمدى من التضامن والوحدة القومية أساسا للحياة القومية إذ يقول : (فالوحدة القومية صفة من صفات الاستقلال الذاتى وهى أسمى معانى التضامن القومى بل هى الرداء المقدس لشخص الأمة فى محفل الحياة والدرع المنيعة فى ميدان التنازع الاجتماعى والسلاح الماضى فى معترك التمسك بالبقاء)(٢١)، وفوق هذا أعتبر وحدة اللغة عاملاً رئيسيا وهاماً من عوامل قيام الوحدة القومية، نابذا وحدة الدين والجنس جانبا.

أما عماد الوحدة القومية فقد قسمها إلى ثلاثة أقسام :

١ - **المبادئ القومية** : التى اعتبرها طوق النجاة للأمة، (هى حلية الأفراد وشعار المجموع فما تشربت بها النفوس فى أمة الا كانت على طريق الفلاح).

٢ - **الأخلاق القومية** : وقد لخصها فى (عزة النفس والأخلاص والارادة والشجاعة الأدبية والثبات فى الأعمال وتطهير النفوس من جراثيم الاجتماع)، وقد اعتبرها معايير تقدم الأمم فى مضمار الحياة

٣ – الآداب القومية : جعلها سر نبوغ الأمم فى جامعة الحياة العظمى، فكانت دعوة لأفراد المجتمع للتمسك بالآداب القومية.(٢٢)

وقد خلص إلى أن نتائج الحياة القومية هى تحقيق المجد القومى والسعادة القومية والاستقلال الذاتى، فقد أشار بالقول : (السعادة القومية : أو المجد القومى هى والاستقلال الذاتى كأس النجاح فى مستبق الحياة ومظهرها هى التمتع بالحرية المشروعة فى أوسع معانيها والضن بالمصالح القومية العامة من أن تعبث بها طبائع الاستبداد).(٢٣)

وتمشيا مع ذلك نستطيع أن نستشف الأهداف التى كان يسعى من ورائها فى تلك الدعوة إلى تحقيق الحياة القومية، حيث كان يرمى أمين حمدى فيها إلى تحديث وتمدين المجتمع المصرى إذ أشار بالقول : (وما أثر التربية القومية التى تلك حدودها الا اندفاع الأمم جمعا ووحدانا فى طريق المدنية الصحيحة تحت أعلام السلام)، ومن هنا يمكن اعتبار ذلك الكتيب الذى حمل عنوانا مبهرا، بمثابة درسا فى التربية الوطنية بهدف تنشئة جيل من أبناء الوطن يقدرون معانى الحرية والوحدة والمجد والاستقلال القومى، وأن كانت إشارته إلى الاستقلال تحوى مضموناً غلب على رجالات الفكر والثقافة فى تلك الآونة وهو ذلك الاستقلال الذاتى فى ظل من التبعية العثمانية، فرغم تلك الروح الوطنية التى تسرى فى جنبات ذلك المؤّلف إلا أنها لم تستطع التخلص من قيود ذلك الاستقلال المنقوص، وإن كان من الواضح أنها تبعية سياسية وليست روحية، أى تخلت عن رداء الدين، فقد كتب تحت عنوان "معنى الواجب" بأنه (هو سر إرتباط كل جامعة قومية وما الجامعة القومية إلا جمعية عظمى شعارها الواجب فكلما رأيت من أفراد تمسكا به فأعلم أنهم أعضاء نافعون فى جسم جامعتهم وأنهم وسطاء تقدمها والا فأعلم أنهم أشلاء يتدهورون بها فى هوة التلاشى والاندماج فى

جامعة أخرى أعضاؤها أعرف منهم بذلك المبدأ الجليل الواجب ... وبالجملة فمعنى الواجب أكسير المجد القومى ونتائجه الحرية والنظام والعدل والشرف والتقوى والتضامن والمجد الصحيح)(٢٤)، فإشاراته تلك إلى الدعوة للجامعة القومية تتنافى مع الدعوة فى التمسك بالجامعة الاسلامية، ومن ثم يمكن اعتباره من دعاة الجامعة الوطنية المصرية، هذا بالاضافة إلى أنه أعتبر العرفان بمعنى الواجب هو روح الحياة القومية، فالتربية السليمة تقوم على معرفة الفرد لواجبه نحو خالقه ووطنه والناس ونفسه المعرفة الحقة.

بقى أن نشير إلى ميل المؤلف إلى قضايا الاصلاح الاجتماعى بهدف إعلاء شأن الأمة المصرية، مشيرا إلى أن أندفاع أفراد الأمم إلى تيار الفساد يكون سببا فى ابتعاد الأمة عن درجة الحياة القومية، ومن هنا كان يدعو لمحاربة الرذائل التى هى دلائل الهمجية مؤكدا على أن لا تحقيق للمدنية الحديثة الا باتباع (دوائر العمل على أصول الاجتماع ونظريات الأخلاق القومية وقواعد الأقتصاد والسياسة) وقد أعترف أن تلك النظم لم تتوفر لأمة قط ولكنه يعقد الأمل فى تحقيقها على أصوات الضمائر بإعتبارها مقياساً يرسم درجة اندفاع المجتمع نحو درجات الكمال والرقى.(٢٥)

لقد بنى أمين حمدى نظريته على أمل تحقيق مجموعة من المبادئ القومية رأها تلى فى أهميتها وخطورتها العقيدة الدينية، فلا مناص للأمة كى تكون فى دور الحياة القومية إلا بإتباع تلك العقائد القومية.(٢٦)

وفى النهاية يعد أمين حمدى من أوائل من استخدموا لفظ "القومية" فى مباحثهم، وفى يقيننا أنها كانت وقتئذ بديلا لكلمة "الوطنية" وربما يرجع عدم استخدامه للفظ الأخير إلى كثرة تداوله مع بدايات القرن العشرين، أو ربما تأثر بالفكر الأوربى الحديث لمفهوم القوميات، فأخذ من انتشار ذلك اللفظ فى الفكر

الغربى فرصة لعرضه على المجتمع المصرى، ومن ثم يكون قد أدلى بدلوه فى قضايا الفكر السياسى والاجتماعى المطروح آنذاك على مسرح الحياة المصرية من منظور جديد إلى حد ما.

* * *

ثانيا : كان طريق المواجهة وكشف النقاب عن نواقص وعيوب المجتمع المصرى الأخلاقية التى تهدده بالانهيار والتمزق هو مسلك فئة من المثقفين المصريين رأوا ضرورة محاربة الفساد وضربه من جذوره، جنبا إلى جنب مع محاولة سلوك الأسرة المصرية بإرشادها إلى التربية السليمة بإعتبار الأسرة عماد المجتمع، وقد حملوا على عاتقهم تنفيذ تلك المهمة بإتباع أسلوب حضارى يتفق أو ينسجم مع ثقافتهم الأوربية ومن ثم أتخذوا من مدنية وحضارة أوربا نبراسا يهتدون به فى محاولاتهم الاصلاحية داخل المجتمع المصرى، وكان سلاحهم الماضى آنذاك هو "أقلامهم" التى هى السبيل لنصرة أمتهم،[٢٧] وهناك عدة نماذج فى تلك الكوكبة من المثقفين المصريين أمثال : قاسم أمين ، محمد المويلحى ، محمد حسين هيكل ، أحمد حافظ عوض ، محمد حلمى زين الدين وإبراهيم رمزى.

تعددت إسهامات **قاسم أمين** الاجتماعية والتربوية لأنه أعتبر أن الأسرة والعدل والوطنية هى الأسس التى يجب أن يقام عليها أساس مجتمع متمدن[٢٨]، ومن ثم كان إسهامه فى المجالين السابقين بشكل جلى، اذ ركز على إصلاح العائلة المصرية جنبا إلى جنب مع غرس قيم التربية الصحيحة داخل المجتمع المصرى حتي يتخلص من عيوبه ونواقصه، وقد أحتوت مؤلفاته فى هذه الميادين بدءا من "أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ"، "المصريون (الرد على دوق داركور)"، وقد كتبه بالفرنسية عام ١٨٩٤ ردا على ذلك الكاتب الفرنسى الذى نشر كتابا

عن مصر والمصريين عام ١٨٩٣ حاملا فى طياته هجوما عليهم وعلى الاسلام والمسلمين، و"تحرير المرأة" الذى أثار ضجة فكرية كبرى وقت اصداره فى عام ١٨٩٩، حتى "المرأة الجديدة" الذى أصدره عام ١٩٠٠، ومن ثم سوف نتناول إسهامات ذلك الرجل بشكل بانورامى حتى يتسنى الألمام بإسهاماته التى أنصبت حول الاهتمام بمتطلبات مجتمعه فى تلك الآونة فى محاولة لانتشال ذلك المجتمع من حافة الهاوية.

فهو القائل فى مقدمة كتابه "تحرير المرأة"(٢٩) : (وليس من العار علينا أننا وجدنا فى مثل هذه الحالة لأن كل عصر لا يسأل الا عن عمله . وانما العار أن نظن فى أنفسنا الكمال وننكر نقائصنا وندعى أن عوائدنا أحسن العوائد فى كل زمان ومكان . إذ لا يمكن لأمة أن تقوم بإصلاح ما إلا إذا شعرت شعورا حقيقيا بالحاجة إليه ثم بالوسائل الموصلة . لا أظن أنه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك فى أن أمته فى احتياج شديد إلى إصلاح شأنها).

لقد وضع قاسم أمين أصبعه على موضع الداء داخل المجتمع المصرى فوجده فى حال المرأة المصرية ومن ثم شرع فى معالجته بالدواء المناسب حيث دافع عنها فى كتابه تحرير المرأة داعيا إلى ضرورة حصولها على درجة معتدلة من التعليم وألا يتم استمرار حجبها عن المجتمع،(٣٠) ومن ثم عاب على من يطالبونها بالإبقاء على جهلها، فى الوقت الذى تستطيع فيه أن تصل إلى نفس مرتبة المرأة الغربية باقبالها على الاشتغال بالعلوم والآداب(٣١)، خاصة وأنه اعتبر المرأة الجديدة (هى ثمرة من ثمرات التمدن الحديث بدأ ظهورها فى الغرب على أثر الأكتشافات العلمية التى خلصت العقل الإنسانى من سلطة الأوهام ...)(٣٢)، وكانت الفترة التى قضاها قاسم فى فرنسا قد أملت عليه أن يسعى لتربية المرأة المصرية تربية قوامها التحرر الذى يبيح لها التغير للأفضل لتسهم فى ترقية

وتمدن وطنها كما كان الحال عند الغرب الأوربى، ومن ثم أيد فى كتابه "المرأة الجديدة" ضرورة إحداث تغيير فى عقل المجتمع المصرى بإحداث ثورة ثقافية وفكرية في البلاد.(٣٣)

على أية حال، لم يسلم قاسم أمين من ألسنة المهاجمين عندما شرع فى دعوته تلك لتحرير المرأة فقد كان محمد طلعت حرب على رأس مهاجميه مطالبا إياه بأخذ العادات المناسبة للمجتمع المسلم عن الغرب وترك مالا يتلاءم مع طبيعة المجتمع وأن تكون تربية المرأة في إطار ما يقتضيه الدين والشرع،(٣٤) وكذا كانت آراء محمد فريد وجدى الذى رأى أن المرأة فى المدنية المادية ليست كاملة ولا سائرة إلى الكمال(٣٥)، ومن الطبيعى أن تكون دعوة قاسم أمين بمثابة صدمة آنذاك لمجتمع شرقى مغلق على نفسه في بعض جوانب حياته على الرغم من تلك المؤثرات الغربية التى تدفقت عليه منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، الا أنها لم تستطع أن تؤثر فى العقلية المصرية بالدرجة الكافية.

على أية حال كانت الدعوة بمثابة مواجهة وتحد لعادات وتقاليد رزح تحتها المجتمع المصرى لعدة قرون فى محاولة لتغييرها وإعادة تشكيلها من جديد على أساس علمي، بعد أن أدرك قاسم أمين أن عملية خلق نظام سياسى جديد لابد وأن يبدأ بتكوين أمومة مصرية متعلمة إذ فى تلك الآونة تستطيع أن تنتج العقلية المناسبة للمصريين(٣٦)، ومن الطبيعى أن لا تلقى دعوته آنذاك الأقبال اللازم عليها، ولكن بمرور الوقت استطاعت أن تحقق بعض أمانيها، ولعل ظهور المرأة جنبا إلى جنب مع الرجل المصرى فى ثورة ١٩١٩ كانت خير دليل على أن المجتمع بدأ فى التحول والتغير نحو تحديث نفسه.

والجدير بالذكر أن دعوته تلك لم تقتصر على تربية المرأة وحدها بل أصر على تربية النشء بإعتبار التربية هى الأسس التى يشيد عليها بناء المجتمع، تلك

التى تتمثل فى الاحساس الريفى عن طريق غرس محبته فى نفوس الأطفال، كذلك الأحساس الوطنى الذى يتولد عند الطفل من الحديث والقراءة والاحاطة بكل ما يعلى شأن الوطن، وأخيرا كان الاحساس النابع من مراقبة الوازع النفسى والضمير الذى يجب تعويد الطفل عليه منذ الصغر، وقد وعى جيدا أن عيوب التربية داخل المجتمع المصرى لم تقتصر على الأطفال فقط، بل هناك من أهم أحق بتربيتهم من جديد لمساعدتهم للتخلص من عيوبهم اذ تعرض فى كلامه للحقيقة التى مؤداها أن المصريين مشهورون بالكسل فقد دعا لمحاربته والتخلص منه، اذ كان جزءً من كل الآفات الاجتماعية التى أصابت المجتمع المصرى(٣٧)، ومن ثم كان عليه كمصلح اجتماعى يعمل لتطوير وتحديث المجتمع أن يسعى جاهدا لمحاربة تلك الآفات الخطيرة، والواقع أن وطنية قاسم أمين كانت الدافع وراء محاولته لاصلاح الوطن.

ولقد زادت النزعة الوطنية لدى قاسم أمين فى دفاعه المستميت عن حقيقة مصر والمصريين التى حاول الدوق داركور تشويهها، عن طريق نقد المجتمع المصرى، وكان قاسم أمين فى دفاعه سيفا ذا حدين، فمن ناحية لا يرى ثمة غضاضة فى كشف النقاب عن عيوب المصرى فى الوقت الذى ينفى فيه عيوب حاول الدوق إثباتها، لأنه أعتبرها مجرد نظرة عابرة لزائر فرنسى لبلد لم يغص فى اعماقه كى يتكشف حقائقه.(٣٨)

ويمكن القول أن كتاب قاسم أمين "المصريون"، يعتبر بمثابة حوار بين العقلية المصرية ذات الحس الوطنى وبين العقلية الغربية بكل نظرة الازدراء التى تحملها للمجتمعات الشرقية على وجه العموم، لذا فهو يعد حوارا فى مرحلة مبكرة بين الشرق والغرب أو اخر القرن التاسع عشر.

صفوة القول كان قاسم أمين مكملا لسلسلة المثقفين المصريين الذين لعبوا دوراً فعالاً فى ترقية وتعليم المرأة المصرية، حيث بدأت – شريحة على الأقل – من

الشعب المصرى بمرور الوقت - تعى ضرورة تعليم البنات، وخير دليل على ذلك هو تأثر أعداد تلميذات المدارس حسب تقديرات البعض(٣٩) ويمكن القول أن دعوة قاسم أمين ورفاعة فى هذا المضمار قد أسهمت فى نهضة وتقدم الوطن المصرى، حيث تمكنت تلك الكوكبة التى كانت نتاج البيئة المصرية أن تتفاعل وتتأثر أيضا بالبيئة الغربية التى قضوا فيها سنوات أتاحت لهم النظرة المدققة لكل من المجتمع الشرقى بكل ما يحمل من إرث حضارى وللمجتمع الغربى بكل ما يحمل من إرث حضارى أيضا، فى محاولة اللحاق بالحضارة الأوربية الحديثة تلك التى تركت آثارها على عقولهم، ومن ثم سعوا للأخذ بيد مجتمعهم الى طريق التقدم والتمدن الذى يعيشه الغرب الأوربى.

* * *

كان آل المويلحى ينعمون برغد العيش خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر اذ كانت عائلة تجارية كبيرة، وكان **محمد المويلحى** مع فترة الاحتلال أحد موظفى الحكومة المصرية(٤٠)، وقد كتب روايته المشهورة "حديث عيسى بن هشام"، وهى رواية خيالية جادت بها قريحة المؤلف فى استلهام أبطالها فأحدهما مصرى وهو قصصى "عيسى بن هشام" والآخر باشا تركى كان ناظراً للجهادية فى فترة سابقة للأحداث، وقد وضع المويلحى نصب عينيه إصلاح المجتمع فأتخذت رحلته فى حديث عيسى بن هشام منحى داخليا، ومن ثم كانت الرحلة الأولى محلية بحثاً عن روح مصر من خلال الماضى بمقارنته بالمتغيرات التى طرأت على هذا المجتمع الجديد الذى ذهل منه الباشا التركى أشد الذهول نتيجة عدم إدراكه لطبيعة تلك المتغيرات(٤١)، ومن هنا وأثناء تنقله بين قطاعات المجتمع المختلفة أستطاع أن يتعرض المويلحى لذلك كله بالنقد والتحليل.

ويدور مسرح أحداث الرواية بدءً من مقابر الامام خارج القاهرة فى عودة خيالية لأحد الأموات وهو الباشا التركى، وتمر أحداثها من خلال محاورات بين

الشاب المصرى والباشا التركى عن أحوال قاهرة المعز، وما ألم بها من متغيرات فى سلوك أفرادها وما جد على المدينة من شوارع وأماكن حتى يصل إلى الاحتكاك المباشر مع أفراد المجتمع المصرى وهنا نجد الطامة الكبرى حيث يجد صنوفا من البشر وما يحملونه من أخلاق وعادات ممقوتة، وتنتهى رحلتهما بزيارة لمدينة باريس لحضور المعرض العالمى لعام ١٩٠٠(٤٢)، ويمكن اعتبار تلك الرواية وصفا لطبيعة الأوضاع المتردية، وتعبيرا عن مساوئ النظام الاجتماعى المستشرى فى جنبات المجتمع المصرى، وقد وصفها البعض بأنها تعبير عن المخاوف السياسية للطبقة الأرستقراطية المصرية من جراء الفوضى التى ألمت بأركان المجتمع المصرى.(٤٣)

وقد نلمح بوضوح تلك الفوضى التى هددت الطبقة الأرستقراطية من خلال تطاول المكارى على احمد باشا المنيكلى، بالاضافة إلى سعى المكارى إلى انقياد الباشا إلى قسم الشرطة ليكون القانون هو الفاصل بين الاثنين فى عصر غلبت عليه الحرية والمساواة بين الكبير والصغير، وإنكار ذلك من الباشا الذى يصيح قائلا : (فاللهم عفوك وصفحك، هل قد امت القيامة وحان الحشر ! فأنطوت المراقب وأنحلت الرياسات، وتساوى العزيز بالذليل، والكبير بالصغير، والعظيم بالحقير والعبد بالمولى، ولم يبق لقرشى على حبشى فضل، ولا لأمير منا على مصرى أمر).(٤٤)

وبين ثنايا المحاورات نلمح ذلك التغير الذى أصاب المجتمع المصرى إذ تفشت الكثير من العادات السيئة بين الشباب مثل انتشار الرشوة وكذا لعب ليسر، بالاضافة إلى إقبال المصريين على شراء المصنوعات الأوربية من الخارج بماأعتبرها عادة سيئة.(٤٥)

وقد رسم لنا المويلحى صورة غاية فى الابداع مع دخولهم المحكمة الأهلية إذ صعق الباشا من هول ما رأى فقال مردداً (ما هذا الخلط، وما هذا الخبط ؟

وسبحان الله ! هل أصبح المصريون فرقا وأحزابا، وقبائل وأفخاذا، وأجناسا مختلفة غير مؤتلفة، وطوائف متبددة، حتى جعلوا لكل واحدة محاكم على حدة ؟)، ومن ثم أخذ عيسى بن هشام على عاتقه شرح كيف أن المصريين أمة واحدة وما هذا الذى يراه الامن قبيل الترتيب والتنظيم فى القضاء والحكم.(٤٦)

وفى حديث لهما عن مجالس العلم والأدب استرسل عيسى بن هشام عن التقدم الذى أصابهما من إشاعة العلوم وكثرة الفنون والمطابع، وأصبح من السهل على الناس إقتناء الكتب ومطالعتها، ولكنه فى نفس الوقت يتحسر من قلة عدد (الراغبين فيها والمطالعين لها فكسدت سوقها، وبارت تجارتها، وأغفلها من ينتفع بها، للاشتغال بسواها من الأمور الباطلة، والأشياء التافهة ...) ومن ثم أخذ يعدد مساوئ المجتمع الذى أصبح فيه أكثر أمور الناس تنصب حول اشتغالهم ببعضهم البعض، ولم ينظروا إلا تحت أرجلهم وما يشغل قوت يومهم، ومن هنا أدرك السبب فى انعدام مجالس العلم ومجامع الأدب، إذ أصبحت الجرائد والصحف هى الوسيلة الوحيدة لاتصالهم بأخبار الأدب.(٤٧)

وأمعن عيسى بن هشام فى حديثه بالدلائل القاطعة على فساد المجتمع المصرى، ليؤكد للباشا صدق حديثه فأخذ بيده يزوره تلك المجالس والمحافل ليقطع الشك باليقين، وقد تم له ذلك بزيارة مجالس الأعيان والتجار وأرباب الوظائف، ثم انتقل به إلى المناسبات والأفراح المصرية وما يغلب عليها من الغلو والأسراف، وأتباع العادات الغربية بما لا يتلاءم مع الطبيعة الشرقية المحافظة كالأعراس وغيرها، وطاف به بعد ذلك فى الحدائق والمطاعم والمقاهى وبيوت الدعارة فى محاولة من المويلحى لكشف عورات المجتمع المصرى وما جد عليه من تغيرات تتنافى مع عاداته وتقاليده، ولا يفوته فى تلك الرحلة أن يصحبه بجولة الى الأهرام، الا أن الصورة تنفجر أمامنا عن نظرة ماقتة على القدماء المصريين

الذين سخَّروا الأمة المصرية فى بناء تلك الصخور الصماء، ويختتم رحلته بزيارة لمدينة باريس التى أتاحت له فرصة مشاهدة مظاهر المدنية الغربية، وهنا أيضا يلفت نظره ذلك الزحام وتلك الضوضاء داخل المجتمع الأوربى[٤٨] بما تعتبره نقدا خبيثا أشار فيه بصورة خاطفة إلى تلك الفوضى أيضا التى تساوت فيها المجتمعات الشرقية بالغربية، بل ربما كان يرمى إلى تأكيد أن مفاسد المجتمع المصرى التى أشار إليها هى نتاج تلك المؤثرات الغربية التى دخلت عليه.

وهكذا هدف المويلحى من رحلته الثانية الخارجية التعرف على طبيعة الوافد الجديد المتمثل آنذاك فى مدنية الغرب[٤٩]، واذا كان توصل فى رحلته الداخلية إلى مواطن العلل التى اصابت المجتمع وبؤرتفشى أمراضه، فإنه فى رحلته الخارجية أدرك ايضا أنه إذا كان لهذه المدنية وجهها الحسن فإن لها ايضا الوجه الآخر القبيح، فلا تؤخذ على علتها.

وتجدر الإشارة إلى أن القالب الذى صاغ فيه محمد المويلحى روايته كان قالباً وطنياً قصد منه كشف النقاب عن مساوئ مجتمع أراد له يغير ويبدل تلك الصورة القاتمة الألوان لتصبح صورة وردية تتناسب مع الطبيعة الشرقية للوطن المصرى، وتتلاءم مع حضارته الإسلامية تلك الغالبة على المجتمعات الشرقية بوجه عام حيث كان الإسلام هو الغطاء المظلل للمجتمعات التى ظلت تحت الحكم العثمانى لقرون عديدة، ولا يفوتنا القول بأن الصياغة اللغوية فى حديث عيسى بن هشام للمويلحى كانت فريدة حيث أنه ظل يوظف النمط البديع التقليدى فى إطار نثرى نظمى[٥٠]، مما جعل الصورة التى أراد رسمها سهلة الفهم، وفوق هذا ذهب البعض[٥١]، الى القول بان رواية المويلحى تلك قد عكست تأثير أساتذة علم الأخلاق الأوربيين عليه أمثال ديماس *Dumas* وولتر سكوت *Walter Scott.*

صفوة القول أن المويلحى فى روايته حديث عيسى بن هشام أراد أن يوضح أمام الجميع أن لمدنية الغرب محاسنها كما أن لها مساوئها فعلى الشرقيين عموما أن يأخذوا منها ما يتلاءم مع طبيعتهم، وينبذوا كل ما هو ضد طباعهم، وهذا هو مغزى حديثه(٥٢)، إذ استطاع بجدارة أن يكشف الغطاء عن أفات المجتمع المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين محاولا الخروج من هذه الأزمة بوضع الأيدى على مواضع الداء ليسهل وضع الدواء المناسب له، وهكذا قدم صورة للواقع المصرى الأليم الذى ما كان على أفراده الا أن ينتنبهوا لتلك الأوضاع فى محاولة لتغييرها كخطوة أولى لتحقيق الذات والاستقلال، فكيف يتأتى لشعب جاهل يموج فى التخلف والجهل بأن يتطلع إلى تحقيق استقلاله، إذن كان المويلحى ضمن تيار وطنى عمل على تمدين وتحديث الوطن المصرى، حيث أستطاع أن يكشف عن الملامح الرئيسية فى وجه مصر، من وجهة نظر الطبقى الوسطى الناهضة كما وصفها البعض بذلك(٥٣)، تلك الطبقة التى كان مقدراً لها أن تثور فى السنوات التالية لتحقيق الأهداف التى حددها ورسمها بشكل جلًى فى روايته.

وبإعتبار حديث عيسى بن هشام أولى الروايات التى كتبت فى مصر، وقد صيغت على شكل دراسة نقدية للمجتمع فى مصر(٥٤)، يمكن بسهولة مقارنتها بأعمال يعقوب صنوع المسرحية بإعتبار الأولى مكتوبة للقارئ المصرى بصورة سلسة ولكنها تقتصر على الفرد المتعلم الذى يجيد القراءة والكتابة، أما أعمال يعقوب فكانت تجسيدا صورياً بأشخاص يتحدثون ويعرضون وجهة نظرهم أمام الجمهور فلم تقتصر على فئة دون أخرى داخل المجتمع المصرى، بل كانت تصل إلى عامة المصريين ايضا، وفى المجمل كانت الصورتان تقدمان نقدا للمجتمع المصرى فى محاولة جادة للنهوض به من غفوته.

* * *

اذا كان المويلحى قدم لنا صورة المجتمع القاهرى، فقد قدم لنا **هيكل*** صورة للريف المصرى الأصيل، فى صورة مأسوية لوجدان فترة من تاريخ مصر يتمزق فيها العقل بين الريف والمدينة، وكذا صورة للتمزق بين الجهل والعلم فأخرج لنا ثمرة ذات شكل رومانسى(٥٥) كانت تلك هى رواية زينب عام ١٩١٤، التى أعتبرت من أعظم الروايات المصرية، تلك القصة التى ركزت على الريف المصرى وحياة فتاة ريفية، بعرض جوانب الكبت والأهمال فى الحياة المصرية، الفلاحون والحياة الريفية، وضع المرأة فى المجتمع المصرى، والمشاعر العاطفية بين الشباب من الجنسين، كل تلك الجوانب كانت صورة واضحة بشكل صارخ فى رواية محمد حسين هيكل "زينب"، مع أحتوائها لإشعار وتنبيه للحياة الأدبية فى مصر فى القرن العشرين.(٥٦)

وقد أهدى رواية "زينب" إلى مصر فقد قال : (إلى هذه الطبيعة الهادئة المتشابهة اللذيذة ... إلى هؤلاء الذين أحببت وأحب ... إلى بلاد بها ولها عشت وأموت .... إلى مهبط وحى الشعر والحكمة أول الأزل ...)(٥٧)، وهذا الأهداء ينم عن مشاعر فياضة بحب مصر الوطن الذى طالما اشتاق إليه وهو فى غربته، إذاً كان للبعد المكانى دوره فى إخراج هذه الرواية التى نجحت فى تصوير المآسى والآلام التى غطت المجتمع المصرى، بنظرة يحدوها الأمل فى إخراج المجتمع الشرقى من براثن العيش، متخذا من الوسط الأوربى الذى كان وقتئذ يعيش فيه مثالا يحتذى به، فالمعلوم أن هيكل قد كتب هذه الرواية أثناء رحلة سفره لنيل درجة الدكتوراه فى الحقوق بباريس، فقد ذكر فى مقدمتها أنه كتبها فى ابريل ١٩١٠ وفرغ منها فى مارس ١٩١١، الا أنه تردد بعض الوقت، ربما خشية ردود فعل الرأى العام على الشكل والمضمون الذى قدمت من خلاله هذه الرواية(٥٨)، وقد أدى تردده هذا إلى أن ينشرها بإمضاء مصرى فلاح فى عام ١٩١٤ فى

وقت كان يشتغل فيه بالمحاماة بما كان ينافى آنذاك مع المجاهرة بكتابة اسمه عليها، وقد ذكر فى مجمل كلامه أنه قدم كلمة "مصرى" حتى لا تكون صفة "للفلاح" اذ هى أخرت فصارت "فلاح مصرى" بحكم ما كان واقع الحال من نظرة دونية إلى جماعة الفلاحين، فقد أراد أن يظهر أن المصرى الفلاح يشعر فى أعماق نفسه بمكانته واحترامه، (وأنه لا يأنف أن يجعل المصرية والفلاحة شعارا له يتقدم به للجمهور)، وبشهادته أن فكرة "المصرية" لم تظهر واضحة المعالم ولها مكانتها المحترمة الا بعد الحرب العالمية الأولى.(٥٩)

وفى الواقع لا تعنينا أحداث القصة فى ذاتها* ولكننا نتناولها بوصفها كانت رمزا معبرا عن واقع اجتماعى وسياسى يعيشه المصريون، اذ أراد مؤلفها أن يعكس فيها آراءه فى الحياة السياسية والاجتماعية للوطن المصرى، فى محاولة لتغذية روافد الفكر المصرى الحديث من الأدب الروائى ليعبر عن الأوضاع القائمة آنذاك.

وعلى ضوء الأقتراب من رواية زينب نجد أنها حافلة بصور لمناظر الريف المصرى وأخلاق أهله وعاداته فى الربع الأول من القرن العشرين، ولاشك أن غربته عن وطنه مصر كان الدافع الذى حرك هيكل لكتابتها فى وقت كان فيه طالب علم منعزل عما يحرك مشاعره تجاه وطنه ولهذا كان استعادة ذكرى ما تركه فى مصر يزيد حنينه إلى وطنه، خاصة عندما يجد باريس خالية من كل ما خلفه من ميراث الريف المصرى الأصيل، ومن هنا تاقت نفسه إلى تصوير ما تحمله من ذكريات لأماكن وحوادث وصور الريف المصرى، إذاً كانت "زينب" تمثل رؤية المدنى إلى الريف المصرى الذى ينتمى إليه، ومن ثم جعل من "زينب" (ثمرة حنين للوطن) وما فيه كما ذكر، وأعتبرها فى نفس الوقت بادرة جديدة قدمها إلى الأدب المصرى(٦٠)، إذاً فهى ثمرة ثقافة فرنسية جعلته يتخذ من "زينب" رمزا عن

مصر، بما نقبل وصفه بأنه (اتخذ منها رمزا على إحساسه بمأساة مصر كما يشخصها الريف بفقره وأمراضه وتخلفه).(٦١)

وقد أعتبرت رواية هيكل أول أثر ادبى هام لمدرسة الامام محمد عبده الذين التف أفرادها حول الجريدة ثم السياسة(٦٢)، ومن ثم عكست تأثير تلك المدرسة لمفهوم "الحرية" كما وجدوه فى المجتمعات الغربية، حيث دلالة اللفظ الاجتماعى فيما يتعلق بالعلاقة المباشرة بين أفراد المجتمع الواحد. وعموما يمكن النظر إلى هذه الأعمال الأدبية سواء حديث عيسى بن هشام للمويلحى أو زينب لهيكل من خلال اظهارها بوضوح كبير لتأثير الأدب الغربى، فى وقت كانت فيه الرواية شكل جديد تماما فى الحياة الأدبية للمصريين، ومن ثم وظفت الأعمال الأدبية تلك لتكون وسيلة للنقد الاجتماعى أكثر منها عملا فنيا جماليا بشكل مطلق.(٦٣)

صفوة القول أن محمد حسين هيكل بكتابته لرواية "زينب" كان حلقة مكملة لصورة واقع الوطن المصرى بكشفه النقاب عن عادات وأخلاق الريف المصرى، تلك الصورة التى عرض جانبا منها قاسم أمين فى كتابه المصريون، ومحمد المويلحى فى روايته حديث عيسى بن هشام تلك التى مست المجتمع القاهرى وما غلب عليه من تغيرات فى سلوكه وأنماط حياته، بالإضافة إلى اعتبار رواية "زينب" مساندة وتأييد للدعوة السابقة التى تبناها قاسم أمين لتحرير المرأة، حيث رسم هيكل فى روايته ظلم المجتمع الجاهل للمرأة المصرية، وفوق هذا كان هيكل قد كون صورة كاملة الرتوش، اذ أنه إلى جانب تلك العادات المتوارثة التى لم تحطمها عوامل الزمن حتى ذلك الوقت داخل الريف المصرى كانت "زينب" تعبر أكثر ما تعبر عن صورة بديعة الجمال لذلك الهدوء والسكون الذى يغلب على الريف المصرى وذلك على عكس ما كان يعانيه رفيقاه السابقان من تفشى الضوضاء داخل المجتمع القاهرى.

* * *

حمل رجال آخرون مهمة عرض سلوكيات مثالية للأسرة المصرية فى محاولة لتهذيب وتعليم أفرادها - بدءا من الطفل مرورا بالشاب وصولا لرب وربة العائلة - بأصول التربية الحديثة بتقديم النصح المباشر لهؤلاء فى محاولة للوصول إلى مجتمع يتمتع بالرقى والتمدن الذى هو أساس قيام أمة حديثة متمدنة.

قصد **أحمد حافظ عوض** المحرر بجريدة المؤيد عند كتابة "كلمات فى سبيل الحياة" البحث فى شئون الحياة المصرية، وكانت كلماته عبارة عن مقالات أدبية وفلسفية نشرها بجريدتى المؤيد والاستقلال، فقام بجمعها وطبعها أحد الأفراد وصدرت عام ١٩٠٤ تحت ذلك العنوان، وقد قسم العمل إلى خمس فصول.

وإيمانا من أحمد حافظ عوض بأن مبحث الحياة هو (أهم المباحث التى يجب أن توجه إليها أنظار الأمة المصرية) فقد كتب كلمات فى سبيل الحياة موضحا فى فصوله على العلاقة بين السعادة والعمل، متخذا من صورة المجتمع الغربى - الانجليزى على وجه الدقة - قدوة يجب أن يحتذى بها المصرى وصولا لتحقيق فائدة المجموع العام.(٦٤)

وقد توصل إلى أنه لا وجود لسعادة بدون علم، ويستدل على ذلك بالاشارة الى علماء أوربا الذين بلغوا من المجد مبلغا عظيما، ولكنه لم ينس أن يوضح أى تلك العلوم هى المحققة لسعادة الإنسان فوجدها تنحصر فى خمس :

أولا : العلوم التى تؤدى إلى المحافظة على الحياة ووقايتها من الأمراض.

ثانيا : العلوم التى تساعد على حفظ الحياة مع توفر أسباب المعيشة.

ثالثا : العلوم التى تساعد على تربية الأطفال والأعتناء بشأنهم.

رابعا : العلوم التى تؤهل المرء لأن يكون عضوا عاملا فى الهيئة الاجتماعية مساعدا على ترقيتها ووضعها على أكمل نظام يؤدى إلى سعادة البشر.

خامسا : العلوم التى تزيد فى رفاهية الإنسان ويقضى بها أوقات فراغه ويزيد بها فى ملذاته.

وقد خلص إلى أن ذلك لا يعتبر دليلا على أن الإنسان لا يلزمه أن يتعلم علوم الأدب والكلام وعلوم الدين فعلى الإنسان أن يلم بأطراف العلوم النافعة لحياته وينقطع إلى ما تميل نفسه إليه من العلوم والمعارف(٦٥)، وهكذا قدم أحمد حافظ عوض الأسس التى تساعد أبناء المجتمع المصرى على التقدم والرقى ومن ثم تساهم فى تحديث وتمدين الوطن المصرى.

ونلمس نزعته الوطنية فى دعوته للمصريين للقراءة ومطالعة الكتب المفيدة حتى تصل مصر إلى درجة الأمم المتحضرة إذ أشار بالقول : (ومما يجب به أن تقاس درجة الأمة من المدنية والحضارة مقدار ما يطبع وينشر فيها من الكتب)، وحذر من ترويج كتب الخرافات والأوهام داخل الأمة إذ أن ذلك يجعلها (أمة متأخرة المدنية منحطة الأخلاق سافلة المبادئ)، وقد وضع أصبعه على موضع الداء داخل الأمة المصرية إذ وجد أن (المصرى يستصعب بذل النقود فى شراء الكتب بينما هو يبذل ماله بسخاء فيما لا يفيد ولا يجدى)(٦٦)، وقد أدرك أن البلاد فى حاجة إلى نهضة أدبية وثقافية تهدف إلى ترقية الأفكار وتهذيب العقول.

وعلى الجانب الآخر تطرق أحمد حافظ عوض إلى عيوب الكتّاب فى بدايات القرن العشرين هؤلاء الذين يكتبون كأنهم يعيشون فى القرون الوسطى (متناسين أنهم فى عصر الكهرباء والبخار، ما يزالوا فى عصر الناقة والبعير) ناصحا أياهم أن تكون مهمتهم هى عرض صور المدنية الحالية ويقصد بها تلك التى يعيشها الغرب الأوربى وبذلك يتحقق تناسب الأفكار مع المكان والزمان(٦٧)، ومن ثم قدم رأيه راميا من ورائه تحديث الكتابات العربية لتساير ركب الحضارة الأوربية الحديثة حتى يتسنى للأمة المصرية أن تصبح فى مصاف الدول المتقدمة.

وفى الفصل الأخير قارن بين المجتمع المصرى والأوربى فيما يتعلق بشئون الأسرة اذ وجد أن الأوربيين قد عرفوا السعادة المنزلية تلك التى حرم المصريون منها، ورأى أن لا أمل للتطلع إلى ذلك النوع من السعادة إلا بتربية البنات وإصلاح شئونهم وإباحة اختيار الزوجة .... الخ(٦٨)، ومن ثم ساند دعوة قاسم أمين السابقة لتحرير المرأة من قيودها التى تكبلت بها طوال عدة قرون.

وتحت عنوان (مدرسة الحياة المصرية هى المدرسة المفسدة) نجد أحمد حافظ عوض متأثرا بالكتابات الغربية التى أطلع عليها مثل مؤلفات ماكس نوردو الفيلسوف الألمانى ورئيس حزب الأشتراكيين آنذاك إلى جانب بعض الفلاسفة أمثال هلفسيوس، ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة نقد بعض المظاهر السلبية داخل المجتمع المصرى تلك التى يتأثر بها النشء مثل المحسوبية والوسائط والتزوير .... الخ، حرصا منه على تربية جيل من أبناء وطنه قادرين على تحديث وتمدين الوطن المصرى إذ ذكر : (فإذا لم تكن هناك ناشئة متعلمة لا توجد أمة راقية، واذا لم تكن الأمة راقية، لا تكون الناشئة راقية) وهكذا ربط تمدن الوطن بوجود شباب متعلم، وربط الأمة المتمدنة بوجود شباب راقٍ، على أنه لم يفقد الأمل فى وجود تلك الأمة الراقية وذلك الشباب المتعلم، إذ وجد ثمة بريق أمل حيث أوضح فى مقالته الأخيرة تحت عنوان (النجاح فى الحياة) على أن فى الشرق رجال كثيرون لو واتتهم الفرصة المناسبة وساعدهم المجتمع الذى ينتمون إليه بوسائل التقدم والأرتقاء لكان فيهم أمثال بسمارك وغلادستون وتشمبرلين ونابليون وسبنسر..... وغيرهم.(٦٩)

والخلاصة قدم لنا أحمد حافظ عوض رؤيته الاصلاحية فى محاولة لترقية وتمدين المجتمع المصرى بكشف الستار عن بعض العيوب التى تعتريه فى دعوة للتخلص منها وصولا إلى أمة مصرية لها خصائصها المميزة.

* * *

أستطاع **محمد حلمى زين الدين** فى روايته مضار الزار* أن يقدم لنا صورة أخرى للمجتمع المصرى وقد خص حديثه لفئة بعينها غلب عليها الجهل حدا جعلها تسير خلف الخرافات والأساطير، ومن ثم جاءت روايته هنا لتعكس لنا جهل المرأة المصرية داخل المجتمع المصرى وليس ظلم المجتمع الجاهل للمرأة كما حدث فى رواية هيكل.

نشر محمد حلمى زين الدين الذى كان مترجم ديوان عموم الأوقاف روايته عام ١٩٠٣ وتمكن من وضع أصبعه على موضع الداء فى محاولة لكشف الستار عن بعض الأمراض المتفشية داخل المجتمع المصرى مع بدايات القرن العشرين، وفى محاولته تلك أيقن أنه سوف يكون فرصة لسهام الغضب والحقد من جميع السيدات المصريات اللاتى يسلكن ذلك المسلك، اذ أدرك جيدا من التواريخ القديمة والحديثة بأن أى إنسان من أى طبقة اذا خالف جيله بالدعوة إلى فضيلة أو نهى عن رذيلة يحوطه الهجوم اللاذع، ومع ذلك حمل على عاتقه مهمة محاربة تلك الرذيلة إذ قال فى مجمل كلامه : (هذا الزار هو الداء هو الوباء هو النار....)(٧٠)، ومن الملفت للنظر أن حلمى زين الدين هاجمته المرأة المصرية تلك الجاهلة فى الوقت الذى حظى فيه قاسم أمين بتأييد المرأة المصرية فى دعوته لتحريرها.

بعدئذ أنتقل مؤلف تلك الرواية بعد أن فرغ من كلمته التى وضح فيها مضار تلك العادة السيئة إلى عرض عمله فى شكل قصة تقع فى خمس فصول، وقد تميزت أحداث قصته بأن أشخاصها حقيقيون، اذ عرض لصورة عائلة من أغنياء التجار قد صادق أحد أبنائها الذى قام بدوره بقص تجارب عائلته مع كوديه (شيخة زار) كانت جارتهم فى السكن فأصبحت بمرور الايام وبالاعلى الأسرة بأجمعها(٧١).

ومن خلال فصول القصة شن المؤلف حربا شعواء على تلك الكودية، التى أرجع أحترام بعض الناس لها بسبب جهل النساء والرجال البسطاء، هؤلاء الذين كانوا يستجيبون لها فى كل صغيرة وكبيرة دون إعمال العقل فى هذا أو ذاك، بدءً من أمرهم بالابتعاد عن الأطباء التى زعمت أنهم غشاشون مخادعون، مرورا بإقامة الموائد لترضية الأرواح، ووصولا إلى حفلات الزار التى تستنزف موارد الأسرة المالية، اذ كانت مهمة تلك الكودية هى كسب الأموال بالحيل المعهودة آنذاك(٧٢).

وسار يسرد المؤلف على لسان صاحبه القصص والوصفات التى كانت تدور بين الكودية وتلك العائلة، وكيف أن أحد أفراد تلك العائلة راح ضحية الجهل وضحية شيخة الزار وسذاجة عقل ربة الدار التى مالبثت هى الأخرى أن ذهبت ضحية الإنصات إلى نصائح تلك الكودية(٧٣).

وقد تعرض محمد حلمى زين الدين فى روايته لمقالة سيدة تدعى زينب أفندى فواز نشرتها بجريدة وادى النيل تنعى فيها تلك العادة السيئة وكيف أنها مفسدة لاورائها غير جمع المال، اذ قامت تلك السيدة بوصف إحدى حلقات الزار التى شاهدتها بنفسها اذ كان يمنع من حضور تلك الحفلات الرجال، وقد أوردت أن ما دعى النساء إلى هذا العمل هو أعتقادهن بأنه يتفق مع الشريعة الإسلامية وذلك ناشئ بالطبع عن جهل النساء وعدم إطلاعهن على الحقائق اذ أنهن لا يعرفن من أمر الدين شئ سوى أسماء الأولياء، وهكذا أستطاعت هذه السيدة الفاضلة أن تضع يديها على موضع الداء إذ أدركت أن الجهل هو من عدم تربية البنات التربية السليمة داخل الأسرة المصرية(٧٤)، ومن ثم ينشأ جيل جاهل بأبسط الأمور يساهم بمرور الوقت فى تفشى العادات السيئة داخل المجتمع المصرى، مما يعرقل مراحل تقدم وتطور الأمة المصرية نحو الحداثة.

ختم المؤلف قصته بعرض لبعض الأناشيد التى تنشد فى حفلات الزار بإعتبار ذلك كما قال : (استكمالا للفائدة وتفكهة للقارئين)، وتحت عنوان حسن الختام عرض الوصية المشهورة التى أوصت بها الأم إبنتها ليلة زفافها، تلك التى حددت أسس العلاقة الناجحة بين الزوجين[٧٥]، ربما تطلعا من المؤلف لنشأة أسرة مصرية سليمة البنيان ومن ثم تكون أحد الأعمدة الصالحة التى يقوم عليها مجتمع سليم، ومن خلال هذا العرض السريع لعمل زين الدين من المناسب القول أنه يعد أحد المصلحيين الإجتماعيين الذى قام بدرس دقيق لمشكلة تواجه المجتمع ومن ثم وضع الخطة لحلها.

هكذا قدم **محمد حلمى زين الدين** روايته على حد قوله، الا أننا فى الحقيقة لا نذهب إلى اعتبار «مضار الزار» رواية بالمعنى المتفق عليه إذ أنها أشبه لسرد موقف حدث لعائلة ما من جراء ممارسة تلك العادة البالية، ومن ثم يمكن القول أنها قصة قصيرة – إن جاز التعبير– من ثم نضعها فى حجمها الطبيعى، فإنها لا تتساوى على الأقل مع رواية حديث عيسى بن هشام للمويلحى، ولا رواية زينب لهيكل.

إن ما يعنينا من أمر رواية مضار الزار تلك المحاولات الجادة من قبل فئة بعينها داخل المجتمع المصرى سعت جاهدة لكشف النقاب عن مساوئ ذلك المجتمع فى محاولة لوضع الدواء المناسب لتلك الأمراض الاجتماعية المتفشية داخله، فى محاولة اصلاح ما يمكن إصلاحه لترقية وتمدين الوطن المصرى الذى لا يتأتى له ذلك إلا بمحاربة كل ما يسيئ إلى المجتمع المصرى، وقد استخدم زين الدين هنا أسلوب الرواية الاجتماعية التى تقدم شخوصا يشبهون شخصيات الواقع المعيشى فى ظروف اجتماعية مختلفة ويسهل التعرف عليها أى أنها تبدو واقعية تعيد تشكيل ملامح عالم يماثل العالم الذى نعيش فيه وتقدم شخصيات تشبه شخصيات البشر فى الحياة المعيشية.

على أية حال إذا كان **قاسم أمين** قد خاض معركته لتحرير المرأة من التخلف والجمود وسانده هيكل بروايته زينب فى محاولة لمحاربة المجتمع الجاهل الذى ظلمها فإن حلمى زين الدين قد خاض معركته لمحاربة تلك الرذائل التى سببتها جهل تلك المرأة الذى أنعكس على أسرتها بأجمعها، وقد أتفقت الآراء السابقة على أن الحل هو تربية المرأة المصرية منذ الصغر تربية سليمة قوامها التعليم والمعرفة الحقة، ومن المفارقات التى تستحق الأمعان أن تلك الرذيلة التى حاربها زين الدين فى مؤلفه كانت تعكس واقع المجتمع المصرى مع بدايات القرن العشرين، ما تزال بين جنبات المجتمع المصرى، وهو على مشارف القرن الواحد والعشرين !

* * *

عرب **إبراهيم رمزى** ١٨٨٤ – ١٩٤٩ عملين أولهما نشر عام ١٩١٢ تحت عنوان "إياك".(٧٦) وثانيهما نشر عام ١٩١٤ تحت عنوان "عليك".(٧٧)

ولا ريب أن العمل، الأول يحمل اسما ينم عن محتواه فقد سعى لتقديم عدة نصائح للآباء والأبناء على حد سواء، حوت شكلاً تحذيرياً مستخدمة كلمة «إياك» بداية لكثير من الجمل، ومن ثم وضع نصائحه فى قالب يلزم قارئه بتنفيذ تلك النصائح الموجهة .

فقد قام إبراهيم رمزى بتقسيم مؤلفه هذا إلى عدة نصائح تحمل عناوين متعددة تلم بكل سلوكيات الأسرة المصرية اليومية مثل المأكل والمشرب الملبس، بالإضافة إلى سلوكيات الأسرة فى الأستقبال والزيارات ..ألخ، وقد خص المرأة بعدة نصائح وجهها إليها حتى تستطيع أن تثقف نفسها، وأن تهتم بالذوق السليم وتلتزم بآداب الحديث .. آلخ، وختم المؤلف نصائحه بتوجيه حديثه إلى الشباب من الجنسين حيث دعاهم إلى حسن التصرف فى المواقف التى يتعرضون لها فى

حياتهم اليومية، وأن يحسنوا الحديث والمعاملات بين أفراد الأسرة، ومن ثم ينعكس ذلك بعلاقاتهم بالمجتمع بأكمله(٧٨).

أما عمله الثانى «عليك»، فقد تأثر فى كتابته بالعديد من الكتاب الغربيين كما أشار هو بذلك، أمثال صمويل سمايلز وبالكون.. وغيرهم الكثير، خاصة فى مجال علم الإجتماع، ومن هنا يعتبر هذا العمل تعريب أكثر منه تأليف، فكما أشار بنفسه إلى ذلك بقوله (فليس فيه من العمل إلا التنسيق والنقل)، وقد قدمه للشباب على وجه الخصوص وللأسرة المصرية على وجه العموم بهدف تبصرهم (بمقتضيات العيش وأسرار النجاح الأدبى والمادى)(٧٩).

ركز إبراهيم رمزى فى مؤلفه هذا – إن جاز التعبير – على تقديم رؤيته فى قالب نصائح ايضا، دارت هذه المرة حول قيمة العمل وفائدته والحث على السعى له وإتقانه مع مراعاة السرعة فيه وأحترام مواعيده.. آلخ، وفوق هذا عدد الكثير من الصفات الحسنة التى يجب توافرها فى الرجال مثل الإيمان، العدالة، الحكمة، الشجاعة وغيرها من الأخلاق الكريمة، وعندما أنتقل إلى المرأة، وضح أمام نساء ذلك العصر ضرورة إلتزامهن بالصدق والأحساس بالمسئولية، ..ألخ من الصفات الحسنة التى يجب أن تتحلى بها المرأة، وختم عمله بتعدد أنواع الفضائل التى يتحلى بها الإنسان(٨٠).

وفى الواقع فإن آثار إبراهيم رمزى عديدة ما بين التأليف المسرحى والترجمة والكتابة، وقد يظهر ذلك جليا من خلال تتبع إنتاجه الأدبى و المسرحى، مما يدفعنا بالقول بأنه كان ابن عصره، وثمرة ثقافته ووليد البيئة المادية والاجتماعية والفكرية التى درج عليها فى النصف الأول من القرن العشرين(٨١)، إلا أننا ننظر إلى هذين العملين من زاويتين هما : الأولى اقبال فئة من أبناء المجتمع المصرى على قراءة المؤلفات الغربية فى محاولة لإستيعابها وتقديم

خلاصتها إلى أبناء وطنهم فى محاولة للتقريب بين الشرق والغرب فى إطار ما يتناسب مع قيم وعادات المجتمع المصرى، ولعل وظيفته كمترجم فنى بنظارة الزراعة أتاحت له فرصة القراءة والبحث فى هذا المضمار، الزاوية الثانية وهى أن ابراهيم رمزى فى عمليه وضع أصبعه على مساوئ وعيوب فى سلوكيات الأسرة المصرية، ومن ثم حاول معالجتها عن طريق مخاطبة أفرادها فى صورة نصائح متعددة يتيح الأصغاء لها إلى وصول الأسرة المصرية إلى مرحلة من الرقى والكمال، ومن ثم يمكن أن نضم ابراهيم رمزى بإسهاماته تلك إلى زمرة رواد التربية الحديثة فى مصر.

قام **أحمد حسن*** بتقديم عملين** هامين هدف بهما خدمة فئة معينة من أبناء مصر، الا وهم أبناء المدارس المصرية، أولهما قام بتعريبه بناء على طلب مؤلفه الذى رأى أنه سيكون خدمة لأبناء مصر، وكان عنوانه «القول المنتخب فى التربية والأدب»، وقد أكد المترجم فى المقدمة على الهدف الذى من أجله قام بتعريب هذا العمل فى قوله، (قياما بخدمة وطننا العزيز وجعلنا هدية لابنائه)(٨٢)، وخاصة وأن المترجم هنا يؤمن أشد الإيمان بأن (ترقى المجتمعات الإنسانيةإنما يكون بحسب المساعى المصروفه والهمم المعطوفة وليست تلك الا بتصحيح المبادئ الصحيحة وغرس الملكات السليمة فى النفوس الناطقة)(٨٣).

احتوى مؤلف پليتيه بك على عدة نقاط هامة دارت كلها على سبيل المثال حول الغاية من التربية، التربية بواسطة العائلات، الكلام فيما يجب أن يكون عليه الأطفال من حسن التربية والأسوة الحسنة... آلخ، لتصب فى قالب تربوى وظف لخلق جيل من أبناء الوطن يتمتع بالمعرفة الحقة جنبا إلى جنب مع تحليه بالأخلاق السليمة، وبذا يتم تطور ورقى الوطن وتمدنه بفضل هذا الجيل، ونرى ذلك واضحاً عندما تطرق الى التربية بواسطة العائلات فقال : (كلما حسنت تربية العائلات

حسن حال الأمة)،[٨٤] وكذا في قوله عن تربية البنات (... ومتى تهذبت أخلاقها وتحسنت تربيتها كانت نافعة للأمة التى هى فرد منها[٨٥].

لم يلق مؤلف القول المنتخب فى التربية والأدب مسئولية التربية على عاتق الأسرة حدها بل جعلها مسئولية الحكام والعلماء الأفاضل ايضاء وذلك من خلال نقده لعيوب التربية والتعليم قبل عصر محمد على القائمة على الحشد بلا علم ولا شرح ممأدى إلى شيوع الجهل سواء لجهل المعلمين وعدوم انتظام الدروس، أو لجهل النساء اللاتى سرن أسيرات المنازل، الا أن تلك الصورة القاتمة تغيرت تماما كما ذهب المؤلف فى قوله، وذلك بقدوم محمد على حيث (اتسع مجال الأفكار وانبعثت العقول واهتدت الشعوب إلى مزية الحياة المدنية)، وهكذا رأى أن الحاكم الواعى بمقدرات بلد يستطيع أن يخدمها أجل الخدمات، خاصة مع بروز كوكبة من أبناء الوطن سعت هى الأخرى لتحقيق الترقى والتطور، وقد رصد ذلك من خلال سعى بعض الفضلاء من العلماء إلى تأصيل الفضيلة فى نفوس الأطفال بإعتبارهم هم شيوخ المستقبل[٨٦]، تلك التى تمثلت فى ثلاثة أوجه:-

أولها : مكارم الأخلاق التى هى أساس صلاح الأعمال وسبيلها التربية.

ثانيها : التعليم وهو تحصيل العلوم النافعة.

وثالثها: حفظ الأجسام المتلقية لتلك المبادئ بالصورة الصحيحة[٨٧].

وقد دلل المؤلف على تلك الأوجه وضرورة القيام بتنفيذها حتى يتحقق الهدف من وجودها، وذلك فى إشارته على سبيل المثال- عن المدرسة والبروجرامات حيث قال : (أنها مواد وضعت لتسهيل طريقة التعليم حتى تنجم عنها الفوائد الجمة. وتلك المواد بتعلمها تساعد على حسن التربية بوجه عام)، ومن ثم أورد نماذج هامة من تلك المواد، مثل تعليم اللغة الوطنية التى هى أول

مواد التعليم فهى الموجبة لحسن التربية، إلى جانب تعلم بعض اللغات الأجنبية لتحقيق أعظم الفوائد(٨٨).

وعندما أنتقل المؤلف إلى دراسة التاريخ، كان بهدف تأكيد أن به تنمو المحبة الوطنية بإعتباره رسول السلف إلى الخلف على حد قوله – ولا ريب أن المؤلف يعلم تمام العلم تاريخ القطر المصرى الذى يضرب بجذوره لآلاف السنين، ومن هذا المنطلق شرح لتلاميذ المدارس المصرية أهمية دراسة تلك المادة ليصل إلى حقيقة مؤكدة مفادها أن (كل شعب لا تاريخ له لابد أن يحصل له الانحطاط يوما ما ولا يكون له أدنى منزلة بين الأمم الأخرى)(٨٩).

هكذا نكون قد عرضنا لأهم العناصر التى وردت بكتاب القول المنتخب فى التربية والأدب، وقد اكتملت المنظومة بترجمة أحمد حسن الذى وضع مقدمة كما أشرنا إلى مقتطفات منها أفادت فى التعرف على الهدف الذى سعى اليه بترجمته لمؤلف پليتيه بك، ليتبلور أمام جيل كامل من أبناء الوطن المصرى أهمية العمل على إعلاء شأن الوطن، ذلك العبء الذى يقع على كاهل أبنائه فعن طريقهم يتم رقى وتقدم الوطن ومن ثم نختم بكلام أحمد حسن فى مقدمته للكتاب حيث قال: (فإن كل جيل من البشر هو عنوان ما قبله ومقدمة ما بعده وشبان كل عصر كبار آتية وصغار ماضية. فكيفما كانت مقدمات الأعمال فى أمة كانت نتيجة الآمال فيها وكيفما اتجهت سفن الأحوال فى مجتمع الى وجهة رست على جودى وضعيته من الاستقبال)(٩٠).

ثانى تلك الأعمال التى قدمها أحمد حسن كتاب محاسن الأدب، وقد قام بتأليفه بناء على رغبة يعقوب باشا أرتين* وكيل نظارة المعارف آنذاك – الذى أشار اليه بإنشاء كتاب فى الأدب ينتفع بمطالعته أبناء الوطن خصوصا أبناء المدارس، وبذا يعود نفعه على الجميع بالخير والصلاح، وقد اتفقتا وجهتى نظر

المؤلف ويعقوب باشا في أن الوصول إلى أعلى درجات التقدم والنجاح في وقت قصير لن يتحقق الا بسلوك أنجح الطرق المؤدية إلى ذلك وهو طريق تعليم النشء كل ما يساعد في تربية جيل منه يحمل معاني الشرف والمروءة والوفاء ...إلخ من هذه الأمور، من ثم قام المؤلف بتقسيم كتابه إلى عدة عناوين دارت جميعها حول السلوكيات فجاءت - على سبيل المثال - على النحو التالي: ثمرة الأدب - آداب المجالسة - الأجتهاد - الأخاء - الشرف - كما أورد حكم منثورة في مكارم الأخلاق ....إلخ(٩١).

ومن هذا المنطلق أكد أحمد حسن على فضل العلم فقال (إن العلم للنفس الإنسانية كمال تتحلى به وهو نور العقل وسراج القلب)(٩٢)، ولم يكتف بذلك بل أدرك بصائب عقله أن المتلقي لحديثه هو تلميذ في مرحلة التكوين العقلي والوجداني لذا قدم له معاني الوطن والوطنية حتى يغرس فيهم حب وطنه فينشأ جيل مرتبط بأرضه مدافعا عن شرفه، فعن الوطن قال :(الوطن قطعة من الأرض تعمرها أمة من الناس قد نشأت بها تحت سمائها وانتعشت أرواحها بطيب هوائها وأغتذت أجسامها ببنائها وصفاء مائها وضمت أرضها عظام من سلف من أبنائها. وقد أتحدت في الأخلاق والعادات وجهتها واتفقت في لغتها كلمتها وخضعت لقوانين واحدة غايتها حفظ النظام واستتباب الأمن العام)(٩٣).

نلمس نزعة المؤلف الوطنية والاصلاحية عندما ردد في حديثه كلمات - وإن كانت معلومة - الا أنها تأكيد على واجبات أبناء الوطن نحو وطنهم حتى يحققوا رفعة وطنهم وتقدمه فقال: (من أهم الواجبات على كل وطني أن يحب وطنه ويعمل لما يعود عليه بجزيل الفائدة ويعضد كل من أبنائه الآخر في نفع ذلك الوطن كأنهم أعضاء عائلة واحدة)(٩٤)، ولم يكتف بترديد تلك الكلمات بل أخذ يضرب الأمثال بأناس من أبناء الوطن كانوا وما زالوا يؤدون واجباتهم على أكمل وجه، فقد ذكر

منهم الجندى والزارع والمشرع .. الخ فقال: (الجندى مثلا يحافظ على حياة أبناء وطنه والزارع يجتنى لهم الزرع ليأكلوا من ثمره والمشرع يسن لهم القوانين فيحفظ لهم حقوق المدنية ويعلمهم حسن المعاملة)، وقد رأى مؤلفنا أن سلوك هؤلاء الأبناء على هذا النحو يعود بالنفع على المجتمع فيصير العيش فيه هنيئا رغيداً، ويتحقق بذلك عز الوطن وسعادته، وقد ختم حديثه فى هذا الموضوع بتلك الجملة المشهورة (أن حب الوطن من الإيمان)(٩٥).

ولا ريب أن موقع أحمد حسن كناظر لأحدى المدارس المصرية أتاح له أن يرقب عن كثب ما يحتاجه أبناء المدارس المصرية، ومن ثم كان تقديم كتاب فى الأدب يعود نفعه وخيره عليهم، فإن تقديم نصائح موجهة كثيرا ما تحقق الغرض المرجو منها، ومطالبته بأن يتحلى بجميع الصفات الحسنة التى تؤهله ليكون رجل الغد الذى يحقق لوطنه العزة والشرف والرقى والتقدم.

ومن ثم يمكن اعتبار كل من أحمد حافظ عوض ، محمد حلمى زين الدين وابراهيم رمزى وأحمد حسن بإنغماسهم فى معالجة مشاكل المجتمع هدفوا إلى خدمة الوطن المصرى ومن ثم كانت وراءهم نزعة ساعية لتمدين وتحديث الأمة المصرية إيمانا بوجودها ومن ثم ساهموا فى نمو فكرة الوطنية المصرية بشكل غير مباشر عن طريق تهذيب وتعليم فئة من المجتمع فى حاجة لتقويم سلوكياتها من جديد حتى يتسنى لها بعد ذلك أن تفصل مصر الوطن عن المحيط الاسلامى الذى كانت تنتمى اليه آنذاك بحكم الخلافة الاسلامية التى تمثلت فى آل عثمان وقتئذ، وبذلك يتحقق لأفراد الأمة الحفاظ على الهوية الوطنية المصرية، وهكذا غلبت على تلك الكوكبة بدءً من قاسم أمين وختاما بأحمد حسن ملامح وقسمات المصلحين الاجتماعيين الذين قادوا أمتهم بهدف إنقاذ مصر والمصريين بالتربية والتعليم والتثقيف الوطنى بهدف خلق وعى وطنى بين صفوف الأمة المصرية.

* * *

ثالثا : جنحت الفئة الثالثة فى التيار الوطنى الذى غذى الفكر المصرى الحديث إلى عقد المقارنات بين الشرق والغرب بهدف تحفيز النفوس للتطلع إلى نيل حقوقها وأختيار موقع أفضل لها وسط الأمم المتقدمة فى محاولة منهم لاستثارة وإيقاظ العقلية المصرية من غفلتها، وقد أتيحت لهم المقارنة بحكم احتكاكهم بالحضارة الأوربية الحديثة سواء من خلال القراءة إلى جانب مخالطة الأوربيين فى داخل مصر أو بالسفر والترحال من خلال البعثات التعليمية الى جانب حضور ندوات علمية مثلوا فيها وطنهم، ومن أمثلة هؤلاء عبد الله النديم، حسن توفيق المصرى، أمين فكرى المصرى، مصطفى كامل ، أخنوس فانوس وقد تم تناول تلك الكوكبة ترتيبا زمنيا يتوافق مع إصداراتهم لمؤلفاتهم.

كانت المناظرة بين الشرق والغرب تستهوى كل من يقف بتأمل المآل التى وصل إليها الشرق بعد أن كان منارا مشعا للغرب يستقى منه علومه وآدابه، وفى تلك الآونة أنقلبت الآية لتصبح علينا كشرقيين أن نقارن بين حال الأمم الغربية وما صارت عليه من تقدم ورقى وبين حالنا اليوم، وكان من بين هؤلاء **عبد الله النديم** الذى أصدر كتابه تحت عنوان "كان ويكون" عام ١٨٨٣، فى صورة محاورة بينه وبين صديق له أوربى، وقدم مؤلفه بالقول : (قدمته خدمة للأمم الشرقية على أختلاف أديانهم وأجناسهم وأوطانهم)(٩٦)، وقد أعتبر ما كتبه تحت عنوان "كان ويكون" هو (شوارد وأفكار وتتمة أعمال وإرشاد إلى إجتماع شرقى ومقابلة غربية علما وأدبا لا خشونة وتظاهرا)(٩٧)، أى أنه كان حوارا حضاريا إن جاز التعبير.

لقد طرأت فكرة هذا الكتاب على النديم وقت إختفائه فى أعقاب هزيمة العرابيين فقد تذكر صديقاً له فرنسى يمتلك أبعادية بالقرب من بلدته، وكان ذلك الصديق يقوم بكتابة الحوادث عن مشاهدة فى أوقاتها حيث كان يشتغل بمسائل الشرق من فترة طويلة ولم يهاجر إلى فرنسا أيام مهاجرة الأوربيين عن مصر مع

أحداث الثورة، وكان هذا الصديق الغربى يعلم العربية والتركية، وقد تعرف النديم عليه فى عام ١٢٩٢ هـ بالاسكندرية كما أشار إلى ذلك فى مؤلفه، من خلال تردد الصديق الأوربى على الديار المصرية والأقطار العربية الشامية كل سنة ثم يعود إلى فرنسا، وعندما أرسل له النديم يدعوه لزيارته فى مخبئه على أمل أن يمد النديم بالمواد التى تساعده فى كتابة مؤلفه هذا لم يتردد وحضر إليه.(٩٨)

والملفت للنظر أن النديم رغم حرصه الشديد بألا يعرف أحد مكانه، الا أنه وثق فى ذلك الصديق الغربى وثوقا قال هو نفسه فيه : (ومع هذا الطلب والتشديد اكتب لرجل يغايرنى جنسا ووطنا ودينا وأعرفه بنفسي ومكاني وأستدعيه الحضور عندى)(٩٩)، ويمكن ارجاع ذلك إلى إيمان النديم بصدق ووفاء هذا الأوربى :

وقد بدأت المناظرة يوم ١١ مارس ١٨٨٣ عن طريق طرح سؤال من الأوربى والقاء أجابته من قبل النديم، وقد أعتبرا عملهما هذا إنعكاسا لمناظرة بين متناظرين (لا رابطة بينهما إلا الصورة الإنسانية)، وقد أتفق الصديقان على أن يتركا الميل الجنسي والحب الوطني جانبا والاجابة بحقائق لا تنكر، وأطلق النديم على نفسه شرقى، وعلى صديقه غربي وعنوانا أوربا بالغرب مقابلة للشرق، وسمى الدين الاسلامى بالمسألة الشرقية والدين المسيحى بالمسألة الغربية مجاراة للسياسيين فى تعبيرهم على حد قوله.(١٠٠)

ولا يهمنا كثيرا التعمق فى تلك المناظرة * وأنما سوف نقوم بإختيار بعض الأمثلة لذلك الحوار الحضارى بين الشرق والغرب بما يسهم فى خدمة بحثنا، فعلى سبيل المثال، عندما تناولا المسألة المصرية بالذكر، أشار النديم اى أنه كان من الضرورى تعميم مدارس الجمعيات الوطنية لتتخلص البلاد من الأمية وقد تحدث عن أسهامه فى هذا الشأن بدعوته لفريق من الأقباط وعقد بهم جمعية

قبطية على قواعد الجمعية الأسلامية راميا إلى أن (يتوحد سير الوطنيين لعلمى أن الحقوق الوطنية لا تعرف إلا من طريق العلم ولا تحفظ إلا بتوحيد الكلمة)، ومن ثم أدرك أهمية الحفاظ على الوحدة الوطنية للأمة المصرية ووجد أن طريق تحقيق تلك الوحدة يتركز فى نشر أنوار العلم والمعارف فى طول البلاد وعرضها، هذا بالأضافة إلى نفيه عن المسلمين تهمة التعصب الدينى للأوربيين قائلا بأن الأوربى فى الممالك الأسلامية يتمتع بكل ما يجب من عاداته وأخلاقه دون أدنى تعصب.(١٠١)

وفى مجمل كلامه عن السياسة البريطانية لم يفته أن يتحدث عن مضمونها القائم على مصلحة انجلترا فقط معتمدا على عدم وجود رابطة بين الانجليزى والمصرى حتى يتعاطف معه فهما يختلفان (جنساً ودينا ولغة ووطنا وتابعية)(١٠٢)، ولعل فى اللفظين الأخيرين تحديدا واضحا وفصلاً بين مصر كوطن مستقل وبين تبعيتها للدولة العثمانية بما يخدم رسوخ فكرة الوطنية المصرية فى عقول ونفوس شريحة من أبناء الأمة المصرية.

صفوة القول رسم عبد الله النديم بمؤلفه "كان ويكون" صورة لحضارتين مختلفين غلب عليهما حوار العقل وليس العاطفة، وقد أتاحت ثقافته الواسعة التى اكتسبها عن طريق قراءته للعديد من الكتب فى الأديان والآداب والتاريخ .... الخ، إلى جانب إختلاطه بالعلماء فى الشرق ومعرفته بالعديد من المتفرنجين الشرقيين على حد قوله وامتزاجه بأجناس مختلفة من الأوربيين،(١٠٣) أن ينقل صورة علمية موضوعية للمجتمع الشرقى أمام أعين الشرقيين عامة والمصريين على وجه الخصوص، فى محاولة للنهوض والرقى للوصول إلى مصاف الأمم المتقدمة الراقية.

* * *

سجل بعض رجال البعثات المصرية مشاهداتهم وأنطباعاتهم عن الغرب الأوربى الذى قامـوا بزيارتـه فى كتب ذات قيمـة عاليـة أفادت فى مقارنة الشرق والغرب وكان منهم **حسن أفندى توفيق المصرى** معلم اللغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين، حيث نشر مؤلفه «رسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا فى سنة ١٨٨٩) فى عام ١٨٩١. وقد حمل على عاتقه مهمة أن يقدم للمصريين ثمرات تجوله فى الأقطار الأوربية المذكورة فى العنوان، وكان ذلك من جراء ادراك صاحب الترجمة لفائدة الترحال وما يجنيه صاحبه من التعرف على غرائب تشحذ الأذهان وتدرب الإنسان على كل ما هو جديد، وقد أبدى اعجابه بالرحالة الأوربيين الذين ساحوا فى البلاد المختلفة شرقا وغربا ساعين لاستكشاف البقاع ومعرفة أحوال الأمم وما عاد عليهم من كسب للمعرفة ومحو الجهالة، واستزاد المؤلف من إتساع نطاق علمى الجغرافيا والتاريخ الذى رأى أنهما (أساس التمدن ومركز دائرة المعارف)، وقد أقتدى بهؤلاء الرحالة فى تسجيل انطباعاتهم عن رحلاتهم حتى صارت مؤلفاتهم عدداً عديدا، بهدف تقديمها للمطالعين مساهمة فى تثقيف عقولهم بكل ما هو جديد وغريب، بالاضافة إلى شحذ هممهم بكل ما يعود عليهم بالفائدة(١٠٤).

وفى الواقع، عندما أتيحت للمؤلف فرصة رحلة إلى بلاد أوربا والمكوث بمدينة ـ برلين عاصمة الامبراطورية الألمانية ـ لاكتساب العلوم والفنون، فقد أنتهز هذه الفرصة وتجول فى انحاء البلدان، فأتجه الى بلاد ألمانيا الغربية ثم الى شمال وشرق بلاد سويسرا ومنها إلى ألمانيا الجنوبية متبعا أهم البلاد مستكشفا أحوالها الطبيعية الجغرافية والتاريخية، ومن ثم استطاع أن يحصل على فوائد جمه وضعها فى مؤلفه كما فى قوله : (إيفاء بحقوق الوطنية وشكراً للمعارف العمومية)(١٠٥).

وهكذا فإن حسن توفيق المصرى - كما لقب نفسه بذلك فى ختام مؤلفه - ربما من منطلق أنه عد نفسه ممثل مصر أمام الغرب الأوربى - أراد أن يؤكد على صفته المصرية اعتزازا وفخرا بجنسيته تلك، وبالتالى تأكيد على خصوصية الوطن المصرى الذى ينتمى إليه، هكذا فقد قدم للقارئ المصرى خلاصة ما توصل إليه من علوم ومعارف أوربا فى كافة الميادين، إلى جانب قيامه بوصف تربية وأخلاق أبناء المجتمع الأوربى، وترديده لبعض الألفاظ التى كانت شائعة آنذاك فى المجتمع الغربى مثل لفظ الحرية، محاولا اطلاع ابناء وطنه على منجزات الحضارة الأوربية الحديثة لكى يتسنى لهم الافادة منها قدر الإمكان.

* * *

كتب **أمين فكرى المصرى** فى عام ١٨٨٩ رحلته إلى أوربا تحت عنوان «ارشاد الألبا إلى محاسن أوربا» أثناء انتدابه من قبل الحكومة المصرية كعضو فى الوفد المصرى لحضور مؤتمر المستشرقين الثامن الذى تقرر عقده فى استكهلم وكرستيانيا عاصمتى السويد والنرويج، ولكن لم يتسن له أن ينشر مؤلفه كما كان يعقد النية اذ فاجأته المنية فى يوليو ١٨٩٠، وقام ابنه بنشر تلك الرحلات بعد جمعها عام ١٨٩٢ تخليدا لذكرى والده.

أتاحت تلك الرحلة لأمين فكرى المرور بعواصم أوربا أثناء سفره وعودته إلى الوطن، وقد أشار فى مقدمة المؤلف أنه كان يهدف بذلك تسجيل كل ما يستوقف النظر من محاسنها أمام أبناء وطنه موضحا ما صرفه أهلها من الهمة والاعتناء بشئون أممهم حتى أستطاعت أن تصل إلى ما وصلت إليه من ثروة ورفاهية أملا من نقل تلك الصورة المتقدمة للغرب الأوربى إلى المجتمع المصرى بأن يقوم أبناء الوطن بإستيعابها وأن يسعوا جاهدين للأقتداء بتلك الحضارة الحديثة إذ قال : (فإن معرفة أحوال الأمم وما هم عليه من الحضارة

والتقدم والعمران والتمدن أدعى إلى أقتفاء آثارهم طلباً للإصلاح ورغبة فى النجاح)(١٠٦).

أخذ صاحب الكتاب بعد ذلك فى سرد الرحلة منذ تعيين الوفد المصرى للتوجه إلى بلاد السويد والنرويج لحضور المؤتمر الدولى العلمى حتى العودة إلى الأسكندرية، وقد قام المؤلف بتناول كل مدينة يصل إليها بالوصف والتسجيل الجغرافى والتاريخى، مع عقد المقارنات المستمرة بين بلاد أوربا والقطر المصرى، وقد مكث فى باريس مدة ثمان عشر يوما، وكان ذلك يتوافق مع إقامة المعرض الذى أقيم فى تلك السنة، ومن ثم أستفاض فى وصفها، ولم يفته أن يشير إلى زيارتهُ لمتحف الآثار المصرية واصفا إياه وما يحتويه من آثار مصرية لا نظير لها، وقد غلبت على كاتبنانزعة وطنية نستشفها من حديثه المليئ بالفخر والاعتزاز بالحضارة المصرية القديمة، وأستمر على هذا المنوال فى وصفه حتى وقت إفتتاح المؤتمر(١٠٧).

وقد قام المؤلف بعرض للكلمات التى ألقاها أعضاء الوفود فى المؤتمر، مثل كلمة ملك السويد والنرويج التى بين فيها الهدف من هذا المؤتمر وهو (نشر أشعة المعارف وبث التالد والطارف من البلاد المعدودة من الممالك المتحلية بالآداب من قديم الزمان)، وقد ألقى كاتبنا قصيدة مدح فيها ذلك المؤتمر الذى يساهم فى نشر العلوم والمعارف، وقد مثلت كلمته الوفد المصرى فى الخارج، وتناول كلمة الكونت ده لاندبرج التى وجه فيها خطبته بالعربية لمدحت أفندى مندوب جلالة الخليفة، ولصاحب المؤلف مندوب سمو الخديو، أثنى فيها على الخلفاء المسلمين الذين خدموا العلم والعلماء فى الماضى كالمهدى والرشيد ..آلخ، وأنتقل بعد ذلك إلى فضل السلطان عبد الحميد فى هذا المضمار وأيضا وجه كلمته إلى عبد الله فكرى باشا رئيس الوفد المصرى ووزير المعارف بمصر سابقا، ولم يغفل الكونت

أن يمدح القطر المصرى بقوله: (فكلنا يعلم أن مصر من أقدم الممالك فى المدنية وآثارها تشهد بفضلهاالقديم ولها فخر الأسبقية على أكثر بلدان المعمورة)، وأنتقل الكونت من مديحه العام للوطن المصرى إلى مديح خاص لعاصمة البلاد اذ قال : (وإن عاصمة مصر وهى القاهرة لا شك أن لها من أسمها نصيبا فنرجوا لها دوام التقدم حتى تكون قاهرة بعلومها لما دونها من البلاد)، وهذه الكلمات تعكس لنا صورة مصر أمام أعين الأوربيين مع نهايات القرن التاسع عشر، ولعلها كانت صورة مغايرة لمصر تلك التى رسمها الأوربيون لها مع نهايات القرن الثامن عشر. مغلفة بالأساطير والخرافات والجهل كما سبق الإشارة* ومن ثم قُدمت صورة مصر هذه المرة من خلال ذلك الأرث الحضارى الذى يضرب بجذوره أطناب التاريخ.

والجدير بالذكر أن أمين فكرى عند دخوله السراى المنعقد فيها المؤتمر لفت نظره أن واجهتها مزينة بأعلام الأمم المختلفة تخفق من جميع الجهات مغطاة بالرياحين والأزهار مرسوم بأعلى هذه الوجهة صورة الأهرام وأبى الهول إشارة إلى مصر وتعظيما لحضارتها القديمة، ويحيط بها غيرهما من رسوم التماثيل المشهورة فى الهند والصين وغيرها، وبعد الانتهاء من عرض أحداث المؤتمر، عاد إلى سرد رحلته عاقدا المقارنات بين المدن الأوربية وبين عاصمة مصر التى عاب على أهلها عدم الأعتناء بتجديد شوارعها وتحسين مبانيها ولو حدث ذلك لترتب عليه كما أشار - الكثير من المصالح والمنافع العامة التى تؤدى إلى المدنية والتقدم، وقد تابع سرد رحلته حتى وصوله إلى الأسكندرية، وتعيينه فى قضاء الاستئناف وعودته إلى مصر، وقد أتم رحلته في ثمانمائة وثلاث وعشرون صفحة من القطع الكبير(١٠٨).

ولا شك أن حسن توفيق المصرى وأمين فكرى المصرى قد قدما للقارئ المصرى صورة حية لما شاهداه من تقدم وعمران تمنيا حدوثه فى وطنهما مصر،

مستنفرين الهمم شاحذين العقول للتدبر في أمر القطر المصرى، وما يحتاج إليه من أدوات الرقى والتمدن، ومن هنا كان تقديم خلاصة رحلاتهم التى أنصبت فى قالب من الأعجاب والدهشة مع البحث عن الأسباب التى أدت إلى تقدم الغرب الأوربى وتراجع الشرق الاسلامى، من خلال عقد المقارنات بين الحضارتين الشرقية والغربية فى سلاسة منقطعة النظير، اذ أنهما ذهبا إلى الغرب ومازالت صورة المجتمع الشرقى الذى تركاه خلفهما ماثلة أمام أعينهما لا تغرب عن عقلهما، ولعل أول من قاد تلك الكوكبة رفاعة الطهطاوى فى كتابة تخليص الابريز في تلخيص بارين، وعلى مبارك فى قصته علم الدين – كما سبقت الأشارة – وقد صار كل من توفيق وفكرى المصريين على دربهما فى هذا المضمار، ومن ثم اعتبرت مجهوداتهما السابقة بمثابة حلقة مكملة لمجهودات الأولين فى أدب الرحلات.

لقد أخذ **مصطفى كامل** من نهضة اليابان وانتصارها على روسيا القيصرية عام ١٩٠٤ نموذجا يضرب به المثل أمام الأمة المصرية، حيث اعتبر إنتصار تلك الدولة الصغيرة انتصارا للشرق على الغرب، ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة ارشاد المصريين الى هذا المجد البطولى الذى حققته اليابان ومن ثم شرع في اصدار كتابه "الشمس المشرقة" إذ آمن بأن أفضل ما يربى الأمم ويرشدها الى طريق الحضارة والمدنية هو شرح الأسباب التى دفعت بغيرها إلى غايات الرقى ووضعت على رأسها تاجا من العظمة والمجد(١٠٩)، ومن ثم تسير أمته على نفس هداها لتصبح مصر شابة حديثة تفيض فيها آيات الأدب والحضارة والتمدن، فقد أدرك جيدا أن الأمة المصرية لا ينقصها ما يعيقها عن تقدمها ورقيها بل تزيد حضارة وتمدنا (أنه لم تكن مملكة الميكادو منذ خمسين عاما لتدانى فى العظمة مصر محمد على فتبصروا فى الأنقلاب)(١١٠)، لقد أراد أن

يضع أمام أمته مدنية أثبتت وجودها من لا شئ، فى الوقت الذى تتوافر فيه لبلده مصر ما يجعلها فى مصاف الأمم المتقدمة.

داوم مصطفى كامل على ترديد الدروس المستفادة من عظمة اليابان وسر تقدمها اذ قال : (علمتنا اليابان وشعوب قبلها أن الجهاد الوحيد الذى تنهض به البلاد هو الجهاد فى سبيل التغلب على الجهالة ونيل العلم والتقدم واحترام العالم)(١١١)، ومن جانبه أكد على ميل المصريين إلى اليابان واعتبره إرتقاء فى الشعور وقوة فى الادراك والتمييز، ذلك الميل الصادر عن هزيمة روسيا عدوة المسلمين التى تسعى لتفتيت آل عثمان، ومن ثم كان ميل وراءه شعور اسلامى متضامن مع دولة الاسلام، الى جانب الميل الى دولة اليابان بحكم أنها (دولة شرقية نالت من القوة والارتقاء ما لم تنله دولة أخرى فى الشرق)، ومن ثم كان انتصارها للشرق بأجمعه على الغرب، ليدحض الدعاوى بأن الشرقيين أمم أنقضت وزالت مدنيتها ولم يعد لها وجود سياسى، ولم يعد أمامهم غير التسلح بمدنية أوربا ومقاومتها بها، وأنه لا خيار أمام الشرق إلا الاستسلام للغرب وقبول حكمه، ومن ثم كان قيام اليابان وهى تمثل الأمم الشرقية خير دليل على تكذيب تلك الادعاءات فلم يبق على الأمم الشرقية الأخرى غير أن تتخذ من تاريخ اليابان درسا نافعا.(١١٢)

ومن هذا المنطلق كتب الشمس المشرقة (لتنبيه الغافلين وإيقاظ الراقدين وإرشاد الناشئة إلى أن لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة)،(١١٣) وكانت جملته الأخيرة المبدأ الذى سار عليه مصطفى كامل فى كفاحه، فعلى سبيل المثال عندما تخلت فرنسا عن تأييده على أثر الاتفاق الودى مع انجلترا عام ١٩٠٤ لم ييأس وقرر الأعتماد على النفس، والملفت للانتباه هنا أنه أتخذ من اليابان وجهة له ولم يتخذ فرنسا أو انجلترا مثالا يحتذى، وربما كان

وراء ذلك علمه التام لطبيعة الدولتين الاستعماريتين بأنهما لايهدفان خير مستعمراتهما، ومن ثم مثل باتجاه نحو اليابان منحنى جديد خرج به عن الاطار التقليدى الذى لم يسفر عن نتائج إيجابية له، فاليابان دولة حرة استطاعت أن تشق ظلوماتها وتسطع كالشمس المشرقة واعتبر المنتصرين اليابان إنما (ينتصرون للحق والعدل والتقدم والوطنية يثبتون إرتقاء شعورهم بميلهم الدولة الشرقية التى ألقت على العالمين أفضل دروس الجد والاجتهاد والعمل والاتحاد).(١١٤)

وتمشيا مع ذلك لم ير غضاضة فى عقد المقارنة اذ قال فى مقدمة كتابه : (وأنى للكاتب أن يقارن والمقارنة لاتكون بين الصاعد والنازل . والمتقدم والمتأخر والحاكم والمحكوم . والسائد والمسود . والغالب والمغلوب . والشمس المشرقة والشمس التى غربت) ومن ثم شرح فى المقارنة بين الاساطيل اليابانية وبين الاسطول الضخم الذى كان لمصر أوائل القرن الماضى، وقد غاص فى التاريخ ليصل إلى الفروق بين ماكانت عليه مصر أيام محمد على وبين حالها تحت أقدام المحتل، فعلى سبيل المثال أعتبر افتتاح قناة السويس كان إيذانا بضياع مصر عام ١٨٦٩ وبداية لحياة جديدة لبلاد الميكادو* ، الذى استطاع أن يخرج مملكته من غياهب الجهالة والانحطاط، وينقذ بلاده من خطر التدخل الاجنبى والسيادة الغربية ولذلك أعد معيد عظمة الشرق.(١١٥)

وفى النهاية توصل مصطفى كامل إلى الحل المناسب لخروج مصر من أزمتها وقد وجده بأنه (اذا جاء اليوم الذى يفتخر فيه المصرى بأنه مصرى وقبل الموت حبا فى مصر أنذاك ستتحقق لمصر سيادتها وعظمتها واستقلالها)(١١٦). وهذا القول نابع من ايمانه بأن تاريخ الامة المصرية فى القديم والحديث قادر على إحياء تلك النفوس القادرة على تحقيق ذلك.

يمكن القول ، بأن تقديم اليابان للقارىء المصرى بإعتبارها ممثلة الأمم الشرقية كان سببا فى تشحيذ النفوس المتعطشة للاستقلال بأن تسعى جاهدة لتحقيقه من منطلق إيمانه السابق بقدرة الأمة المصرية على ذلك، ولعل استشهاده فى أكثر من موضع بالتاريخ المصرى وتأكيده على أن الأمة المصرية جديرة ايضا بتلك النهضة كان محاولة لتحديد الهوية الوطنية للشعب المصرى ومن ثم كان التأكيد على الشخصية المصرية القادرة على اثبات وجودها ولكن ليس من العدم كما كانت اليابان، بل وراءها إرث حضارى يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ.

* * *

كانت تلك "الأرجوزة العصرية" التى كتبها **أخنوخ فانوس** عام ١٩٠٤ تبحث ضمن ما تبحث فى تاريخ اليابان وأسباب تقدمها، وقد قدمها للأمة المصرية سليلة الأمة الفرعونية التى عرفت بقدم مدنيتها وحضارتها، ومن ثم شرع أخنوخ فانوس فى نقل الصورة المشرفة لتلك الأمة الشرقية التى أستطاعت أن تخوض غمار الحروب وتنتصر لعزتها وكرامتها، ومن ثم اعتبر نفسه عاشقا لوطنه مصر وعليه أدرك ضرورة توصيل ذلك لأبناء وطنه الذين تجمعهم معه الجامعة الوطنية، وقد رأى أخنوخ فى عمله هذا دواء فى صورة شهد يقدم لأمته لتشفى من عللها وتنهض من كبوتها وتصل إلى مصاف الأمم الراقية المتمدنة فإنها أحق بتحقيق النصر،[١١٧] وقد قدم عمله بمضمون المقارنة أيضا لتكون عبرة وعظة لمن يعتبر وسوف نعرض هنا مقتطفات من تلك الأرجوزة فيما عالج فيها انتصار اليابان مثل قوله :

ما لليبانى عن خباه مالا	فزلزل السهول والجبالا
وذكره أصبح فى الآذان	يشجى نفوس القوم كالالحان
وبطشه قد سار فى الركبان	أحدوثة الفرسان والشجعان[١١٨]

وبعد ذلك سرد أخنوخ فانوس تلك الأسباب التى أدت الى ذلك الانتصار فأرجعها الى أنهم تركوا الدين جانبا فلم يعرفوا التعصب فحققوا تقدمهم، ولعلها اشارة من صاحب الأرجوزة الى ضرورة التمسك بالوحدة الوطنية لأبناء وطنه دون الالتفات الى الأديان فقد قال :-

لا يعرفون طرق التعصب   المهلك المفوض المخرب
ليس لدين عندهم مزية   على السوى بل كلها مرعية
لأنها عقيدة الرعية   فهل يجوز العبث بالسوية

وقد نلمس ذلك الاتجاه العلمانى فى شعر أخنوخ الذى جعل فيه الدين علاقة بين الانسان ربه، حتى يتسنى للأمة أن تحقق مجدها ورقيها ويتضح ذلك فى قوله:

ومرجع الدين إلى الخلاق   والموعد الأخير يوم باق
لو شاء ربى وحدة الأديان   لقامت الوحدة كالبنيان

وقد توصل الى أن الذى يصون ويقيم دعائم الوطن هو الاتحاد الراسخ الجذور، وكذا تحقيق العدل والمساواة بين الرعية من قبل الراعى ويتضح ذلك فى قوله :-

لا شئ يحمى حوزة الأوطان   الا وئام بحكم البنيان
لا شئ يحمى علم البلاد   الا اتحاد راسخ العماد
وأن يكون الملك العظيم   خير دليل مجدهم يقيم[119]

وتمشيا مع ذلك حمل على عاتقه مهمة تقديم النصائح لابناء وطنه لتؤدى بهم الى إتباع طريق الفلاح تلك التى حصرها فى الايقاظ من السبات الذى ران

عليـهم سنوات عـديدة، الى جانب ترك الدين لرب الدينونة، وفـوق هذا العـمل على نشر نور العلم والمعارف فى ربوع الوطن، ومن ثم ردد الآبيات الآتية :-

فاطرحوا الغفلة والادهـامـا ان لـكـل غـايـــة مـقــامــا

وفرقوا بين السماء والأرض واقـض لكل حـق أن تقضـــى

فأسرعوا فـى طلـب المعـالى مـن بابهـا يشـرونها بالغـالــى

وافســحوا المجـال للطـلاب فاندفعوا كالسيل فى الرحـاب

وانتشروا فى المدن العظيمة للفن والمعـارف الميميـة(١٢٠)

والجدير بالذكـر أن أخنوخ بعرضـه لانتـصـار اليابان ومـا حـققـتـه من رفع شأن الشـرق بأجمعه قد أكد على مطامع الغرب الدائمة للنيل من الشرق فحكمت عليه بالذل والتحقير، وجاءت اليابان لتثبت مقدرة الشرق واقتداره.

قد سئم الشرق مطال الذل ولـم تعــد مـن طـاقـة للحمـــل

وكل يـوم تشـتكى الأقــوام من مطمع الغـرب حيث قامـوا

أما ترى الشرقى باليابانى . يفخــر فخـــر الأخ لأخـــوان

فهـذه مـن منبئـات الغــرب الشرق للشرقى لا للغربى(١٢١)

وفـى النهـاية قـدم أخنوخ فـانـوس خـلاصـة آرائه فى اصـلاح حـال الوطن المصـرى اذ طلب من المصريين أن يهبوا هبة رجل واحد نابذين الكسـل والخمول جانبا عاملين بكل جد على ترك المجـادلات الدينية والالتفات الى الأخوة المصـرية فهى السبيل إلى تحقيق الجامعة الوطنية لأبناء القطر المصرى.

هيـا اذن لتنفضــوا الغبــارا وتكشفوا الخمار بل والعارا

وشمروا عن ساعد الجد ولا تزّملـوا الخمــول والكســلا

وتجعلوا المصرية الأخاء وكل شئ دونها هباء

يقبل المصرى أخاه القبلة من خالص الفؤاد لا بالغلة

ليس من الحكمة أن تبتعا جامعة الأوطان للدين معا

كل بنى الأوطان فى تكافل من لا يقول هذا فى تغافل(١٢٢)

صفوة القول مثلت تلك الزمرة بدءً من عبد الله النديم ووصولا الى أخنوخ فانوس شريحة من أبناء الوطن المصرى تطلعت إلى رؤية وطنها متقدما فى مصاف الأمم الغربية التى تشع حضارة وثقافة على الشرق، ووجدوا أن الحل الأمثل هو طرح الكسل جانبا والتطلع الى تحقيق الجامعة الوطنية واتخاذ من حضارة اوربا نبراسا يهتدى به فى كثير من ميادين العلم والمعرفة، الى جانب اتخاذه من بعض الدول الشرقية المنتصرة دليلاً على قوة الأمة المصرية الوارثة لحضارة عريقة تضرب بجذورها أعماق التاريخ، ومن ثم قدمت تلك الزمرة خلاصة أحتكاكهم بالحضارة الأوربية الحديثة أمام القارئ المصرى تاركة له الأختيار الأفضل.

* * *

رابعا: قام الشعراء بالادلاء بآرائهم شعرا فى تفاعلهم مع القضايا الوطنية التى تمس المجتمع المصرى جاعلين بؤرة تفكيرهم هى محبة الوطن والعمل على تحقيق جامعة الوطنية ومن ثم ساهموا فى نضوج فكرة الوطنية المصرية من أمثلة هؤلاء أحمد شوقى، حافظ ابراهيم، اسماعيل صبرى، أحمد نسيم، على الغاياتى ومحمد عبد المطلب.

فى إشارة سابقة أوردنا أن **أحمد شوقى** كان شاعر البلاط فكان ذلك الى جانب تمسكه بتركيته باعثا له على مهاجمة الاحتلال البريطانى، فالمعلوم أن

الخديو عباس كان يكن عداء دفينا للانجليز، ومن ثم كان ينتهز الفرص للنيل من سلطات الاحتلال وكذا أحمد شوقى فكانت من بين المناسبات التى انتهزها شاعرنا عشية إقامة جمعية العروة بالاسكندرية احتفالها لوضع حجر الأساس لمدرسة محمد على الصناعية فى ٢٣ مايو ١٩٠٤، حيث ألقى رياض باشا خطبة امتدح فيها الاحتلال، وأثنى ثناء كبيرا على اللورد كرومر، ومن ثم أحدثت تلك الخطبة دويا من الأسى والسخط من قبل الوطنيين، ومن ثم انبرى شوقى يكتب شعرا صب فيه جام غضبه على رياض باشا الذى كان الأجدر به أن ينهض بالشباب لمقاومة الاحتلال لا مهادنته وقد قال فيها :

خطبت فكنت خطبا لا خطيبا ... أضيف إلى مصائبنا العظام

بهجت بالاحتلال وما أتاه ... وجرحك منه لو أسست دام

فهلا قلت للشباب قولا ... يليق بحافل الماضى الهمام ؟(١٢٣)

ومرة أخرى ينتهز شوقى رحيل اللورد كرومر فيكتب قصيدة مستهجنا فيها سياسته مظهرا مدى كره لسلطات الاحتلال وأدواتها فى تثبيت مركزها.

يا مالكا رقّ الرقاب ببأسه ... هلا اتخذت الى القلوب سبيلا

لما رحلت عن البلاد تشهَّدت ... فكأنك الداء العياء رحيلا(١٢٤)

بناء على ماسبق كانت سياسة شوقى تلك المرتبطة بتوجهات القصر سببا فى ابتعاده عن التعبير عن عواطف المصريين وتصوير احاسيسهم ونبضاتهم، فكان من عادته أن يقف أمام الحوادث الجسام التى تمر بمصر بإتباع نفس خطوات القصر وكان ذلك واضحا فى موقفه من عرابى ومن حادثة دنشواى ووفاة مصطفى كامل،(١٢٥) وقد أثرت تلك العوامل على انتاج أعمال مصرية وطنية تمجد شعب مصر وابناءه الوطنيين، إلا أنه فى فترة لاحقة لا تخص موضوع هذا

البحث اتجه اتجاها وطنيا عندما بعد عن القصر فكتب أروع القصائد التى مجدت مصر وشعبها وتاريخها.

ويمكن هنا عرض بعض المقتطفات التى كتبها فى فترة البحث هذا عن روح عاشقة لمصر وتاريخها، اذ كان هذا الميل من منطلق أن مصر بالنسبة له تمثل الموطن الذى عاش فيه وخالط أهله واستمتع برغد العيش فى أرجائه المختلفة، ومن ثم كان ميله لمصر الموطن وليس الوطن الذى ظهر لنا فى تمسكه الشديد بتركيته كما سبق القول، فقد كتب قصيدة تحت عنوان كبار الحوادث فى وادى النيل عام ١٨٩٤ بمناسبة انعقاد المؤتمر الشرقى الدولى فى جنيف وكان مندوب الحكومة المصرية وقد ساقت بعض أبياتها دلالة قاطعة على تمجيد شوقى لمصر وأبنائها وتاريخها القديم فقد قال :

قل لبان بنى فشاد فغالى		لم يجز مصر فى الزمان بناء
أين كان القضاء والعدل والحكمة		والرأى والنهى والذكاء
وبنو الشمس من أعزة مصر		والعلوم التى بها يستضاء

* * *

من كرمسيس فى الملوك حديثا		ولرمسيس الملوك فداء
بايعته القلوب فى صلب سيتى		يوم أن شاقها اليه الرجاء

* * *

سجدت مصر فى الزمان لا يزيس		النّدى من لها اليد البيضاء
فإذا قيل ما مفاخر مصر		قيل منها إيزيسها الغراء(١٢٦)

وهكذا روى **أحمد شوقي** قصة مصر وما مر بها من أحداث منذ عهد الفراعنة فى صورة شعرية غاية فى الوطنية، فهو القائل فى موضع أخر عام ١٩٠٤ :

أحبك مصر من أعماق قلبى وحبك فى صميم القلب نام

سيجمعنى بك التاريخ يوما اذا ظهر الكرام على اللئام(١٢٧)

تطرق أحمد شوقى لموضوع الوحدة الوطنية فساهم فى الدعوة القائمة أنذاك لاتحاد عنصرى الأمة فكتب تحت عنوان يا شباب الديار فى تكريم واصف غالى باشا عام ١٩٠٦ مخاطبا أبناء مصر :

يا بنى مصر لم أقل أمة الـ قبط فهذا تشبُّت بمحال

وأحتيالٌ على خيال من المجد ودعوى من العراض الطّوال

إنما نحن مسلمين وقبطاً أمة وحدت على الأجيال

سبق النيل بالأبوة فينا فهو أصل آدم الُجّد تالى

وانهضوا نهضة الشعوب لدينا وحياة كبيرة الأشغال

والى الله من مشى بصليبٍ فى يديه ومن مشى بهلال(١٢٨)

وكأنه كان يتنبأ بوقوع ما سوف يهدد الأمة بتمزقها، وهكذا كتب بعد مصرع بطرس غالى باشا اذ لاحت نظر الفتنة بين عنصرى الأمة بنى القبط ، أخوان الدهور ، رويدكم هبوه يسوعا فى البرية ثانيا حملتم لحكم الله صلب ابن مريم وهذا قضاء الله قد غال "غاليا" إلى أن قال :-

تعالوا عسى نطوى الجفاء وعهده

وننبذ أسباب الشقاق نواحيا

ألم تك مصر مهدنا ثم لحدنا(١٢٩)

وهكذا سلطنا الضوء على بعض الجوانب الوطنية فى شعر أحمد شوقى تلك التى ظهرت فى مناسبات عديدة مرت على مصر وقتئذ، وكانت تدفع بأبناء مصر نحو الاتحاد والتآخى، الى جانب الدعوة للعلوم والفنون تلك التى ظهرت فى اثناء مشاركته الأمة المصرية سعادتها بإنشاء الجامعة المصرية، اذ قال :-

الق فى أرض منف أس جامعة　　　من نورها تهتدى الدنيا بنبراس

وانفض عن الشرق بأساً كاد يقتله　　　فلا حياة لأقوام مع اليأس

ترك النفوس بلا علم ولا أدب　　　ترك المريض بلا طب ولا أس(١٣٠)

هذا بالاضافة الى إثارة حمية الشباب ضد سلطات الاحتلال فى محاولة للنهوض بالأمة المصرية لتحقق استقلالها وحريتها.

* * *

كان لنشأة **حافظ إبراهيم*** الفقيرة وتربيته على نفقه خاله لوفاة أبيه، ودخوله المدرسة الحربية وتخرجه برتبة ملازم أول وإرساله إلى السودان، كل ذلك كان قد انعكس على حافظ ابراهيم فجعله يميل إلى السكينة والهدوء، لا تغلب عليه الصفات العسكرية من الصرامة والشدة، ومن ثم خرج لنا ذلك الشاعر رقيق الأحساس فاستطاع أن يتجاوب مع آلام وآمال شعب مصر فى صور شعرية رائعة تفيض حبا للوطن وتسعى لخيره ما أمكن الى ذلك سبيل ومن ثم كان أعمق ألتزاما من شوقى لقضايا الشعب، ومن هنا استطاع أن يغذى الحركة الوطنية قوة وحماساً للصمود أمام سلطات الاحتلال راميا إلى تحقيق حرية واستقلال مصر، ففى قصيدة له عام ١٩٠٠ قال فيها :

مَتَى أرى النِّيل لا تَحلوُ مواُرده　　　لغير مُرتهبٍ لله مرتقب

فقد غَدتَ مصرُ فى حال اذ ذُكَرتْ　　　جَادَتْ جفونى لها باللؤلؤِ الرطَّب(١٣١)

على أية حال كان أحمد شوقي وحافظ ابراهيم من الشعراء الذين قادوا الشعر في مصر، مع أنهم كانوا أكثر تقليدية من الآداب التعبيرية الأخرى، من حيث أنهما قد عبرا عن المشاعر السياسية الوطنية المختلفة لكافة جوانب المجتمع(١٣٢)، حيث نظم حافظ ابراهيم هو الأخر شعرا معبراً عن عشقه وافتخاره لتاريخ مصر القديم وحضارتها الضاربة بجذورها فى أطناب التاريخ حيث قال:-

لعمرك ما أرقت لغير مصر ... ومالى دونها أمل يرام

ذكرت جلالها أيام كانت ... تصول بها الفراعنة العظام(١٣٣)

وعلى الجانب الاخر لحياة حافظ ابراهيم كان ارتباطه بالسلطان العثمانى ارتباطاً دينيا فانه رمز الخلافة الاسلامية ولم يكن ارتباطا عضويا كما كان الحال عند شوقي، ومن ثم لم يرثمة غضاضة في مدح خليفة المسلمين منبئا عن شعور ديني، ينتهز له المناسبات ليردد أبياته الشعرية فعدد محاسن سلطان المسلمين...... إلخ(١٣٤).

أما عن علاقته بالاحتلال البريطانى لم تختلف كثيرا عن علاقة شوقى، اذ بدأ أول أمره مهاجما لسياسات الاحتلال مسانداً للحركة الوطنية حتى استطاعت تلك السلطات أن تقيده بالوظيفة والمنح والهبات مما جعله ينصرف عن مساندة الحركة الوطنية(١٣٥)، التي فقدت نصيرا لها يندد بالاحتلال فى كل مناسبة فهو القائل مهاجما سياسة المحتل التعليمية مع الدعوة لانشاء الجامعة المصرية عام ١٩٠٧.

ذُر الكتاتيب منشيها بلا عدد ... ذر الرماد بعين الحاذق الأدبِ

فأنشأوا ألف كتّاب وقد علموا ... أن الكواكب لا تغنى عن الشهب

فما لكم أيها الأقوام جامعة ... إلا بجامعة موصولة السبب(١٣٦)

وفوق هذا كان يستحث أبناء وطنه على مباراة هؤلاء الغربيين فى تقدمهم وتمدنهم، مما يمكن اعتباره استجابة منطقية للمؤثرات الغربية التى دخلت على المجتمع المصرى، فقد قال :

ليت شعرى متى أرى أرض مصر	فى حمى الله تنبت الأبطالا
وأرى أهلها يبارونهم علما	ووثبا إلى العلا ونضالا
قد نفضنا عنا الكرى وابتدرنا	فُرصَ العيش وانتقلنا انتقالا
وعلمنا بأن غفلة يوم	تحرمُ المرء سعيه أحوالا(١٢٧)

بقى أن نشير إلى حافظ إبراهيم المصلح الاجتماعى الذى قدم نقدا موضوعيا لواقع المجتمع المصرى ربما كانت تلك النزعة الاصلاحية التى غلبت عليه نابعة من آلامه وعدم استقراره لفترات طويلة من حياته، فقد كان يشكو دائما من الزمان وأهله ويندب حظه ويرثى وطنه، ومن المنطقى أن يتبلور كل ذلك فى شخصيته بالاضافة إلى ملاصقته فى بعض الأوقات للأمام محمد عبده، ذلك الأتصال الذى نتج عنه أن إزداد نشاطه شعرا ونثرا وترجمة، إلا أنه بوفاة الأمام عاوده اليأس مرة أخرى واعتزل منزله، إلا أنه هذه المرة عكف على كتابة رائعة من روائع الأدب المصرى الحديث الا وهى "ليالى سطيح" فى عام ١٩٠٦(١٢٨).

وقد نهج حافظ إبراهيم نفس منهج المويلحى فى "حديث عيسى بن هشام" حيث دارت "ليالى سطيح" فى صورة خيالية وكانت الاحاديث والحوارات حول نقد مجمل للحياة المصرية اذ غاص حافظ إبراهيم فى العادات والتقاليد البالية للمجتمع المصرى، ومن ثم اتخذ من تلك الموروثات نماذج قام بنقدها.

دار الحوار فى ليالى سطيح «بين ثلاثة من أبناء الوطن كان أحدهم هو شاعرنا والآخر شخص خيالى يدعى «سطيح»، والثالث لم يفصح عن شخصيته

وان كان طاهر الطناحي قد أشار فى مقدمته للكتاب أنه يفهم من الحوار أن هذا الشخص هو قاسم أمين(١٣٩).

ويلاحظ من خلال حوارات تلك الشخصيات السابقة أنها أسفرت عن تقديم صور عديدة، نقد من خلالها كاتبنا تلك العادات البالية التى يمارسها المصريون، وسوف نقوم بدورنا بعرض نماذج لتلك العادات السيئة التى وقف أمامها شاعرنا وتعجب بازدراء منها، فعلى سبيل المثال نظر لعادة مارسها المصريون بشكل شبه يومى الا وهى إلقائهم مخلفاتهم اليومية فى نهر النيل فتحدث بلهجة حادة قائلا : (أف لتلك الأمة جهلت قدر محبيها، ولم تعلم أن من مجراه تجرى عليها هذه الأرزاق، ومن حمرة مائه تخضر تلك الأوراق. أف لها ما أقل شكرانها وأكثر كفرانها)، وأنتقل فى موضع آخر للحديث عن احدى الموروثات فى البيئة المصرية، تلك التى عانى منها من قبل محمد حلمى زين الدين فى روايته المشار إليها سابقا مضار الزار الذى صدر فى عام ١٩٠٣، حيث أخذ حافظ إبراهيم بدوره فى نقد عادة الزار بشكل لاذع، وفى لمحة منه لمعالجة تلك العادات التى إستشرت فأدت إلى فساد الأخلاق داخل المجتمع المصرى، محاولا أن يظهر مغبة تلك السلوكيات الخاطئة اذ يقول: (واذا فسدت الأخلاق فى أمة فقد فسد فيها كل شئ.....)(١٤٠).

وتمشيا مع ذلك وضع حافظ إبراهيم أصبعه على موضع الداء فحدد له الدواء المناسب الذى إرتآه فى ضرورة الدعوة إلى إنشاء الجامعة المصرية التى تكون بمثابة منار شعاع للعلم يفيض على أبناء الوطن المصرى الذى حرم نعمة الحصول على العلوم والمعارف الحديث، إلا بقدر ما يتناسب مع سياسة المحتل، ومن ثم وجد الحل المناسب للقضاء على آفات المجتمع المصرى تلك التى نتجت عن جهل ابنائه، ومن هنا رأى أن لا سبيل إلى الإصلاح إلا إذا أنشأ الكتاب وبنيت

الجامعة فى وقت واحد، أى أنه يقصد (اذ أخرج الأول نصف إنسان أطلعت الثانية إنسان كاملا فتكفل هذا الكافل بصلاح ذلك الناقص فتتماسك الأمة ويكثر فيها الدعاة إلى الخير فليس بينها وبين الحياة إلا أن يخرج لها العلم الصحيح رجالا يقودون الأفكار ويسلكون بها سبيل الرقى)، لقد هدف فى دعوته تلك إلى إعداد جيل من أبناء الوطن المصرى قادرا على تمدين وتحديث وطنه بقدر إستطاعته ولن يتأتى لهذا الجيل ذلك إلا بإتباع سبيل العلم، ومن ثم كان تأكيده دوما على (أن لاحياة لهذه الأمة بغير الجامعة)(١٤١).

ومما هو جدير بالذكر أن النزعة الوطنية لدى حافظ ابراهيم وضحت فى دعوته تلك إلى ضرورة اتحاد المصريين واتفاقهم ليكون ذلك سبيلا إلى تقدمهم ورقيهم، فكاتبنا يطرح سؤلا ينم عن مدى أهمية تماسك الأمة المصرية واتحادها لتحقيق غاياتها المرجوة فيقول: (فمن أين للمصريين أن يتفقوا اذا هم لم يجتمعوا!؟)(١٤٢)، وهكذا قدم حافظ إبراهيم صورة لواقع الحال داخل المجتمع المصرى آملا من ورائها أن يتغير الحال وتبدل تلك الصورة السيئة من أجل تقدم ذلك الوطن المصرى.

عبرت "ليالى سطيح" عن صورة ناقدة لمفاسد المجتمع المصرى فى بدايات القرن العشرين إذ قام بكشف النقاب عنها وهى التى ساهمت فى تأخير نهضة الوطن الذى أنعكس على مدى وعى ابنائه، ومن ثم عبر حافظ إبراهيم فى صورة أدبية عن جانب من جوانب الفساد داخل المجتمع المصرى انبعث من عادات وممارسات خاطفة زادت من أزمات الوطن المصرى الخانقة، هادفا الى نقد الحياة المصرية لاستثارة الهمم واستفزاز نفوس أبناء الوطن نحو الاصلاح الاجتماعى والسياسى للوطن المصرى، ولهذا جاءت لهجته فى بعض الأحيان حادة، ونقده لاذعا فى محاولة لهدم المواريث القديمة من تلك العادات والآداب

للالتفات إلى حاضر الوطن وما ينتظره مستقبل البلاد من تقدم لا يرجى منه الا نبذ ما يتنافى مع السلوك القويم لأبناء الوطن المصرى.(١٤٣)

وهكذا كانت «ليالى سطيح» رحلة داخل المجتمع المصرى هدف من ورائها حافظ إبراهيم أن ينتقد أوضاع المجتمع المختلفة فى محاولة لأدراكها وإصلاحها(١٤٤).

ويبقى أخيراً، القول بأن حديث عيسى بن هشام «للمويلحى» «وليالى سطيح» لحافظ ابراهيم تظهران الى حد كبير مدى التأثر بطبيعة الرواية التعليمية فى القرن التاسع عشر التى أهتمت بتعليم علوم الغرب، الا أنها مع ذلك أستفادت من التطورات الحديثة التى طرأت على الرواية التعليمية فى القرن العشرين من حيث توظيف أهدافها نحو الأصلاح الأجتماعى بتوجيه النقد إلى بعض المظاهر الأجتماعية الغربية التى أنتقلت إلى مجتمعنا الشرقى(١٤٥).

صفوة القول ، اذا كانت سلطات الاحتلال فى فترة لاحقة كما بينا قد استطاعت أن تخمد تلك الشعلة التى استضاءت بها الأمة المصرية فى طريقها لنيل حريتها واستقلالها تحت أقدام الانجليز، الا أن ذلك لم يمنع من ظهور كوكبة أخرى من الشعراء أفاضوا فى تغذية فكرة الوطنية المصرية كما سنرى لاحقا.

* * *

أختلف **إسماعيل صبرى** ١٨٨٥-١٩٢٣ عن سابقيه بأنه لم يمدح السلطان عبد الحميد قط أو أحد من الأتراك، وبهذا جاء شعره مصريا خالصا، اذ ولد فى مصر ونشأ بها وتعلم فى مدرسة الادارة (الحقوق فيما بعد) وأوفد فى بعثة إلى فرنسا فحصل على إجازة الحقوق عام ١٨٧٩(١٤٦) كما أنه لم يزر انجليزيا أو ذهب للوكالة البريطانية وبهذا تحلل من كل قيد يربطه بأحد الأطراف ما عدا وظيفته الحكومية فقد شغل بعض الوقت محافظ الأسكندرية من

عام ١٨٩٦ – ١٨٩٩، وهذا لم يمنعه من ترديد الأشعار الوطنية تعبيرا عن الحوادث التى تمر بها مصر، وفوق هذا كان صديقاً لمصطفى كامل ومن هنا عد اسماعيل صبرى من المناصرين للحركة الوطنية المصرية(١٤٧)، ومن ثم جاءت نظرته إلى مستقبل مصر نظرة وطنية مؤداها تحقيق حريتها واستقلالها ومن ثم انبرى فى أكثر من مناسبة ليفسح عن نوعية الاصلاح التى يرغبها كل وطنى لوطنه.

تمثلت تلك المناسبات التى انتهزها فرصة مع اعلان تركيا الدستور عام ١٩٠٨، فتمنى أن تكون به مصر أولى، فمصر من وجهة نظر لم تعد تابعة للدولة العلية بحق ما تمتعت به من استقلال داخلى، فيقول مرددا :–

يا مصر سيرى على آثارهم وقفى   تلك المواقف فى أسنى مجاليها
لا يؤيسنّك ما قالوا وما كتبوا   بين البريّة تضليلا وتمويها ......
يا آية الفخر هلا تنزلين – كما   نزلت ثمّ – على مصر وأهليها
كيما نجر ذيولأمنك جررها   من قبلنا الترك فى أوطانهم فيها
يا (عابدين) لأنت اليوم مصدرها   ومن ذراك – بإذن الله – موحيها(١٤٨)

ونلمس النزعة الوطنية فى شعر اسماعيل صبرى فى قصيدته التى قالها عام ١٩٠٩ يشيد فيها بعظمة مصر فى الماضى مستحثا أبناءها على السير فى نفس الدرب تحقيقا لعلو شأنها من جديد فقال على لسان فرعون مصر :

لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا   فماؤه العذب لم يخلق لكسلان ...
وابنوا كما بنت الاجيال قبلكم   لا تتركوا بعدكم فخر الانسان ...
اهرامهم تلك حى الفن متخذا   من الصخور بروجا فوق كيوان
قد مر دهر عليها وهى ساخرة   بما يضعضع من صرح وايوان

لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ما يأخذ النمل من أركان نهلان ..

تلك الهياكل فى الامصار شاهدة بأنهم أهل سبق . أهل إمعان(١٤٩)

وعندما بدت نذر الفتنة بين عنصرى الأمة أدلى بدلوه شعرا عاملا على التئام صف الأخوة الوطنية تحقيقا للوحدة التى تحقق قوة الأمة المصرية التى لامراء فى أن فى ضعفها انهيار لكيان الأمة بأكملها فقال :-

ديـن عيـسى فيـكم ودين أخيه أحمـد، يأمرننـا بالأخـاء

مصر أنتم ونحن، الا إذا قامت . بتفريقنا دواعى الشقاء(١٥٠)

وهكذا كان اسماعيل صبرى من الساعين لنهضة الوطن المصرى الجاهدين لاصلاحه تحقيقا لرفعه إلى مصاف الأمم المتقدمة بحرصه على التمسك بحضارة الأجداد والعمل على وحدة البنيان.

* * *

يعد **أحمد نسيم*** ١٨٧٨ ـ ١٩٣٨ صورة للوطنى الصادق فقد نظر إلى مصر نظرة عميقة مؤداها التأكيد على الهوية الوطنية المصرية، والحفاظ على الشخصية المصرية المتميزة، فقد أعتبر أسرة محمد على دخيلة على أرض الفراعنة، ومن ثم لم يرثمة غضاضة فى الهجوم عليها مرددا :-

رثيتك يا أرض الفراعنة الألى قضوا فى بلوغ المجد ما الحق واجبه

ورثت بفضل العلم عزا ممتعا فما بات الا وابن غيرك غاصبه

ولا خير فى عرش من الغرب ربه ولا خير فى مال من الغرب كاسبه

أفيقى فماضى الجهل إلا مذلة ولا العلم الا سؤده عز صاحبه(١٥١)

وقد رأى أحمد نسيم الحل الأمثل لنهضة وطنه فى اتخاذ طريق العلم ونبذ الجهل جانبا فهو المميت للأمم، أما تحصيل العلم فهو المحقق لعز صاحبه وتقدم وطنه فى كافة الميادين.

وقد جُمعت لأحمد نسيم عدة قصائد وطنية تحت مسمى "وطنيات" تجلت فيها روح وطنية جياشة بحب مصر وابنائها وتاريخها العظيم، ويمكن اقتطاف بعض القصائد، منها القصيدة التى ألقاها على تياترو برنتانيا فى ١٨ مارس ١٩٠٩ موجها كلامه الى ابناء وطنه في محاولة منه لاستحضار ماضيهم العظيم، وحاثا لهم على انتهاز الفرص للرقى بأمتهم وتحقيق تقدمها وتمدنها مع ترك اليأس جانبا مؤديا إلى الذلل، ومن هنا ردد فى نهايتها :-

وأنت يا شعب وادى النيل كن حكما فليس غيرك من مستنصف حكم
كم أمة حكمت فى مصر وارتحلت عنها خليفة جد بعد لم يقم
سل أمة الروم هل أبقت لنا أثرا يبقى على الدهر أو سل أمة العجم
مضوا ولم يتركوا فى مصر مأثرة ينبيك عنها لسان النيل والهرم
هذه عجائب هذا القطر من زمن وتلك حالات وادى النيل من قدم
فلا تفكوا عرى القربى ولو رجعت عنكم شفار الظبا مخضوبة بدم
ولا تضيعوا من الدستور فرصته فتقرعوا السن من ذل ومن ندم
ان تيأسوا فانتهاء اليأس مسكنة أو تسأموا فاحتمال الذل فى السأم
ما نال قط المعالى وهى دانية قوم ينام وشعب غير ملتئم
خير لنا الموت من عيش نكابده مع الهوان اذا كنتم ذوى شمم(١٥٢)

وتحت عنوان أبلغ العظات كتب أحمد نسيم قاصدا تعديد عظات التاريخ أمام الأمة المصرية بدء بعزاء السلطان المخلوع عبد الحميد، وذكر جمعية الاتحاد والترقي، وصولا الى ذكر مصر والأسف على أوضاعها المتردية عاقدا أمله على تحقيق نهضتها واسترداد حقها المسلوب بسواعد أبنائها القادرين على استعادة مجدها الغابر، فقال :-

يا مصر كيف نراك أول أمة ... بنى لها ذكر العلاء وطيدا .....
خير البرية أمة لا تنثني ... عن عزمها أو تبلغ المقصودا
يا أمة التاريخ هلاهمة ... شماء تدني المطلب المنشودا .....
وطن يؤمل منكم أن تبذلوا ... مهجا تتوق إلى العلى وكبودا
حتى نرى مصراً تألق نجمها ... وتبدلت بعد النحوس سعودا(١٥٣)

لعب أحمد نسيم دورا فعالا فى نمو تيار الوطنية المصرية بترديده شعرا يفيض حبا لوطنه مصر، ومن ثم أكد على الشخصية المصرية، وحرص الوطنى الصحيح على أرض بلده، ونستشف ذلك فى قوله :

بلادى بلادى !

زيدوا ملامكم أنى أرى وطنى ... أولى بصدقى فى الميثاق والعهد
أرض أحن اليها كلما ذكرت ... كما يحن مشوق القلب فى البعد
على بلادى ما جدت شبيبتها ... سلام ربى فى الاساء والرأد(١٥٤)

* * *

كان **على الغاياتى** من رجالات الحزب الوطنى، وكان شيخا أزهريا ساند الحركة الوطنية على طول الخط، وقد كتب ديوان شعر بعنوان "وطنيتى" آثار

ضجة خطيرة داخل المجتمع المصرى عام ١٩١٠، وتكمن جذور تلك المشكلة فى أن الديوان حوى شعرا يعلى فيه شأن الوطن ويوحى لأبنائه بكراهية المحتل والجهاد من أجل طرده من البلاد، ومن ثم كان رد فعل السلطات البريطانية وراء الأزمة اذ صادرت الديوان، وما علم الغاياتى بذلك حتى فر إلى استانبول وما لبث أن حوكم غيابيا بسنة مع الشغل، وقد أصابت تلك القضية محمد فريد وعبد العزيز جاويش أيضا، فالأول كتب مقدمة الديوان تحت عنوان : "تأثير الشعر فى تربية الأمم" ، كانت أشبه بمنشور ثورى يدعو فيه إلى التحام الأديب بقوى الشعب بمواجهة العدو المشترك، وقد نبه فيه محمد فريد ايضا إلى ضرورة التمسك بشعر العامية لاستقطاب جمهور العمال والفلاحين، اذ أن للشعر الاجتماعى صدى أعمق وأكبر لدى نفوس عامة الشعب، وأوضح أن للأدب رسالة اجتماعية يجب أن يؤديها تجاه الطبقات الشعبية من أبناء الوطن، إلا أن الحظ حالف فريدا اذ كان فى أوربا اثناء عرض القضية فأجلت الى حين عودته.(١٥٥)

أما **عبد العزيز جاويش** فقد حوكم وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر اذ كتب بدوره مقدمة للديوان تحت عنوان "الشعر والشاعر" متضمنا تأييده لمحتويات الديوان، وبهذا اعتبرا فريد وجاويش شريكين فى بث الكراهية ضد الحكومة وسلطات الأحتلال والخديو على حد سواء، وعند عودة فريد استدعته النيابة لتحقق معه، وبعد أيام أحالته إلى محكمة الجنايات التى صدرت حكمها بحبسه ستة أشهر، وهكذا كان ايمان محمد فريد برسالة الأدب فى العمل على تقدم ورقى الشعوب ومساندته فى تربية النفوس وغرس حب الوطن والسعى للحرية والاستقلال فيه جريمة يحاكم عليها بالسجن، فهو القائل فى كلمته تلك (الشعر من أفضل المؤثرات فى إيقاظ الأمم من سباتها وبث روح الحياة فيها . كما أنه من المشجعات على القتال وبث حب الاقدام والمخاطرة بالنفس فى الحروب . . . .

وليس من ينكر أن الأنشودة الفرنسية . . . . المرسيلييز كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوربا الذين تألبوا لإخماد روح الحرية فى مبدأ ظهورها. . . . لقد كان من نتيجه استبداد حكومة الفرد سواء فى الغرب أو الشرق إماتة الشعر الحماسى(١٥٦)

والجدير بالذكر أن تلك القصائد التى جمعت تحت عنوان "وطنيتى" كانت قد نشرت قبل ذلك فى الصحف ولم تعترض عليها الحكومة، وكانت تلك وجهة نظر الدفاع فى القضية الا أن المحكمة لم تقتنع بالدفاع وصممت على أحكامها السابقة.(١٥٧)

والملفت للنظر أن الشيخ على الغاياتى قضى وقتا طويلا فى غربته فلم يعد الى البلاد التى عشقها وتغنى من أجلها وجاهد فى سبيلها إلا عام ١٩٣٧، وبقى فيها الى أن مات فى أغسطس ١٩٥٦، ولكنه مع ذلك واصل جهاده من أجل مصر فى الخارج،(١٥٨) وربما كان الظلم الذى حاق بمصر دافعه فى أن يستمر مهاجراً فهو القائل من قبل :-

رب أن البلاد أرهقها الظلم ... وحاقت بأهلها البأساء

رب ان الصدور أحرجها الوجد ... وأودت بحلمها الأرزاء

فستدارك بلطفك النيل حتى ... لا تجارى حياة مصر دماء(١٥٩)

لا جدال أن على الغاياتى عندما كتب قصائده الوطنية تلك كان يرغب أن يغرس فى النشء روح الجمعية الوطنية والغيرة القومية حتى يشربوا القلوب حب البلاد، وبذلك يستطيعون سحق الأستبداد ومن هنا يصلون إلى مرتبة الأمم المتقدمة الحرة، ومن ثم سوف نسوق بعض المقتطفات من ديوان "وطنيتى" ، فتحت عنوان "طيف الوطنية" قال :-

رب ماذا يصنع المصرى أن جاوز الصبر مدى الصدر فقاما ؟
طال يوم الظلم فى مصر ولم ندر بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتل أنا أمة من عرفنا السلم لا ندرى الخصاما ؟
أو يرى الظالم فينا أننا نحمد الخسف ولا نبغى انتقاما ؟
زعموا زورا فما من أمة سامها العسف ظلوما ثم داما
انما الشعب الذى يرجو العلا ليس يرمنى من أعاديه اهتضاما
كتب النصر لشعب ناهض فى سبيل المجد لا يخشى الحماما(١٦٠)

مثل الغاياتى فى بعض المواضع استجابة منطقية للمؤثرات الغربية فقد جال فى خاطره أن يكون للأمة المصرية نشيد وطنى كسائر الأمم الراقية، يبعث فى النفوس الحماسة الوطنية ويبث فيها حب المخاطرة والاقدام فى الدفاع والنضال، وبهذا كتب تحت عنوان "النشيد الوطنى" عسى أن يصبح نشيدا قوميا لمصر وفيما يلى بعض الأجزاء منه

نحن للمجد نسير ولنا الله نصير
ليس يثنينا نذير عن بلاد تستجير
وعباد فى حداد
نحن شعب لانضام قبل ان نلقى الحمام
فعلى النيل السلام من فتاه المستهام
يوم يقضى فى الجهاد
نحن للمجد نسير ولنا الله نصير

فى هوى النيل السعيد ميت القوم شهيد

ذكره حى جديد يومه للشعب عيد

فيه ذكرى للرشاد(١٦١)

بناء على ما سبق ساهم ديوان "وطنيتى" فى ازدياد وتطور الحركة الوطنية وبذا كان له دوراً كذلك فى نمو فكرة الوطنية المصرية بين قطاع من الشعب استطاع قراءته مع تداول الشباب له، ففيه من المبادئ الوطنية الكثير – فكما سبق أن عرضنا – تنبض روح الأبيات الشعرية بفيض من المصرية والوطنية، فيكفى عنوان الديوان ليبعث فى النفوس معانى الوطن والوطنية، ومن هنا يعد الديوان عاملا مساهما فى إحياء الشعور الوطنى.

بقيت الإشارة إلى آراء على الغاياتى فى قضايا الساعة وقتئذ، فمثلا وضح موقفه من فكرة الجامعة الاسلامية من خلال مقالة نشرتها له مجلة "الافريكان تيمس" الانجليزية بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩١٣ وهو خارج مصر ومن ثم نشرتها جريدة المؤيد حيث أنه كان يعمل مكاتباً لها فى چنيف، وكانت تحت عنوان "الجامعة الإسلامية" أكد فيها على أنه لا يوجد ما يسمى بهذا الاسم فى الدوائر الأسلامية، وأن أوربا هى التى تدفع المسلمين إلى تحقيق تلك الجامعة، وقد رأى أن تلك الفكرة بالنسبة للوطنيين أمرا ثانويا، بل الاهم والأجدر من وجهة نظره هو السعى لتحرير البلاد أولا من المحتل وتحقيق الاستقلال الكامل ثم الالتفات أن سنحت الظروف لمساعدة حركة الجامعة الاسلامية التى يرى فيها حركة سلمية دائما.(١٦٢)

وفى عام ١٩١٤ وضح موقفه أيضا من مسألة الوحدة الوطنية فى مقالة أرسلها من چنيف ايضا أكد من خلالها ضرورة سعى كل مصرى للعمل من أجل جعل مصر للمصريين، وعلى المصريين جميعا أن يجتهدوا أولا فى اذابة الخلاف

بين أبناء الأمة وأن أسلم طريق لذلك هو محو الأحزاب وأن يحل محل الأسماء الثلاثة: وطنى - إصلاح - أمة اسم واحد هو "الوحدة الوطنية" التى لا تقوم لمصر قائمة بدونها(١٦٣)، وهكذا واصل الغاياتى نبضاته الوطنية فى سبيل خدمة الوطن المصرى.

* * *

سوف يكون آخر مطافنا مع واحد من تلك النخبة المختارة من الشعراء وهو محمد عبد المطلب* ذلك المصرى الأصيل الذى عبر هو الآخر فى المناسبات العديدة التى مرت بمصر بشعر وطنى، وفى اختيار نموذج لذلك الشعر الوطنى خلال ثورة غضبه التى أعلنها مع أعلان الحماية البريطانية على مصر فى ديسمبر ١٩١٤ فقال فيها :-

بلاءٌ على القطرين أغطش ليله ... ضحى يوم نحس بالخطوب مؤَّوق
دَجَتْ يوم اعلان الحماية شمسُه ... فيالك من يوم على مصر أورقٍ
به لَفَحْت سود الليالى فليته ... تضى فى بطون الغيب لم يتخلق ..
يُبَوّىءُ عُرش النيل من شاء جانفاً ... فنُشده والخطب بالخطب يلتقى
رويدك حتى تنظرى أتنجلى ... غيابة هذا العار فى المتألق
فمن دون عرش النيل كُل مدّرب ... كمِىّ متى يُرعد له الهول يُبرِق(١٦٤)

هكذا جسد شعراء مصر مأساة شعبهم، آخذين من حضارتها القديمة نبراسا يهتدون به ورمزا ليحتذى به الشباب الوطنى فى طريقهم لتحقيق مجد الوطن، ولا شك أن الأبيات الشعرية المصطبغة بالصبغة الوطنية قد أثرت فى وجدان أغلب الشعب المصرى، فقد كانوا مبشرين بحياة جديدة تحياها الأمة المصرية فى ظل من السيادة والاستقلال وان كانت أمانيهم لم تتحقق فى

المستقبل القريب اذ كانت الحماية البريطانية هى الستار الذى أنسدل على تاريخ تلك الحقبة التاريخية الحافلة بآيات الوطنية.

* * *

خامساً : مثل الاتجاه الاخير الذى غذى الفكر المصرى الحديث مرحلة النضج لهذا التيار الوطنى حيث كان أكثرهم فى الغالب الاعم قد كانوا استجابة منطقية للمؤثرات الغربية، ومن ثم كانت تلك الجماعات الوطنية المصرية التى نمت منذ عام ١٨٩٢ قد أخذت على عاتقها مهمة التأكيد على أصالة الفكر الغربى بأن مصر مؤهلة لكى تكون دولة وأمة وفقا للأساس الممثل فى ولاء مواطنيها، وكان معظمهم ينتمى للصفوة الذين تلقوا تعليمهم بالخارج وكذا فى تلك المدارس المحلية التى أقيمت من قبل الأوربيين أو فى مدارس الحكومة المصرية، وكان غالبية مدرسى تلك المدارس من الأوربيين، اذ كانوا أيضا معظمهم من المحامين والصحفيين أو المدرسين، وقد أكدت تلك الصفوة على أن الأمة الموجودة فى مصر تعد من أقدم الأمم فى العالم، وأنها أخذت تستيقظ بعد قرون من الركود، وقد علموا تلك الفوائد الواردة عن الغرب سواء لأنفسهم أو لبلادهم، وقد أرادوا أن تصبح مصر ديمقراطية برلمانية وذات حكم دستورى،(١٦٥) وكانت أولى الخطوات الناجحة لهم افرازهم لفكر ليبرالى يقوم على مبدأ الحرية الفردية، وقد تجلى أكثر ماتجلى فى تيار الفكر الوطنى داخل حزب الأمة وعلى رأسه أحمد لطفى السيد، فيما أطلق عليه مذهب الحريين *Liberalism* ، قد هدف الى خلق وعى ذاتى داخل الأمة المصرية جعلها متجهة نحو الأعتماد على نفسها فى تحقيق آمالها.(١٦٦)

وعلى أية حال يحمد لهذا التيار أسهامه فى إرساء قواعد الفكر الليبرالى المصرى، تلك الليبرالية التى وقف فهم تيار الوطنية لها عند حدود القرن التاسع

عشر، فهى تعنى عندهم غياب رقابة الدولة واطلاق العنان لحرية (القول – العمل – التعبير – العمل السياسى)(١٦٧)، فقد كان هؤلاء المثقفون متشبعين بالمبادئ الليبرالية التى لعبت دورها فى القرن التاسع عشر فى ميادين الفكر والاقتصاد والحياة العامة.(١٦٨) ولقد أستمد هذا التيار الوطنى فكره الجديد من تراث الفكر الليبرالى الاوربى، ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة نقله الى الشرق فى محاولة لتحديث الفكر المصرى وفى سبيله لتحقيق ذلك نحى الدين جانبا بفصله عن الدولة وجعله علاقة بين الانسان وربه دون أن يتهجم عليه ومن ثم مثلوا اتجاها علمانيا داخل المجتمع المصرى هدف الى تمدينه وتحديثه بإقتراف خطوات الحضارة الأوربية الحديثة، ومن ثم حملوا على عاتقهم مهمة نقل التراث الغربى ناهلين منه ومترجمين وناشرين لذلك التراث الثقافى الأوربى(١٦٩) وجنبا الى جنب صارت دعوتهم التقدمية الى جانب الدعوة الدينية للجامعة الاسلامية، ولكن غمرتهم روح وطنية عالية أنعكست على قطاع كبير من أبناء الشعب المصرى الذى سهل عليه الأحتلال البريطانى قبول تلك المدنية الحديثة، مما أسهم فى بلورة فكرة القومية المصرية على يد ذلك التيار الوطنى الذى كان فى سعيه لأقتباس أنوار الحضارة الحديثة يؤكد على الهوية الوطنية المصرية.

لم يقف الأهتمام "بالحرية" عند لطفى السيد وتياره عند حرية الفكر بل شملت ايضا الحرية الشخصية والاقتصادية وحرية التعليم والقضاء وفوق هذا كانت الحرية السياسية، فقد رأى قاسم أمين (أن الحرية الحقيقية تتحمل ابداء كل رأى ونشر كل مذهب وترويج كل فكر فى البلاد الحرة يجاهر الانسان بأن لا وطن له ويكفر بالله ورسله ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ويهزأ بالمبادئ التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية . يقول ويكتب ما يشاء ولا يفكر أحد ولو كان من ألد خصومه فى الرأى ينقص شيئا من احترامه لشخصه

متى كان صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر . قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية)(١٧٠)، نجد قاسم أمين متأثرا بشكل كبير بالنزعة الليبرالية لفكر الأمام محمد عبده(١٧١) الذى التقى به فى فرنسا واشتغل معه لفترة أثناء قيام الأمام بإصدار العروة الوثقى، وقد تركت فرنسا إنعكاسها أيضا على فكره حيث تركت تلك الحرية التى كانت هى مهدها آثارها فى نفسه، فعلى الرغم من الايمان بأن مؤسسى مذهب الوطنية المصرية لم يستق وحيهم أو أفكارهم من الأمام ولكن فى المقام الأول يستقون تعزيتهم ودعاتهم من أفكاره، خاصة وأن المصدر الرئيسى لوحيهم وأفكارهم كان القومية الليبرالية الغربية، التى كانت فى الأصل على خلاف مع الأفكار الأساسية لمحمد عبده،(١٧٢) الا أن قاسم أمين رغم ذلك ظل مستمسكا بخطة محمد عبده الاصلاحية وسياسته ودون التأثير كثيرا بالنزعات الغربية التى كان يمثلها لطفى السيد، مثله مثل سعد زغلول الذى ظل يدرس المجتمع المصرى من خلال اتصاله بالشئون العامة،(١٧٣) ومن هنا ترك قاسم أمين بصمات واضحة المعالم فى الحركة الاصلاحية الاجتماعية داخل المجتمع المصرى كما سبقت الاشارة.

وجنبا الى جنب عمل تيار وطنى داخل المجتمع المصرى تميز بثقافته العصرية واعتمد على النقل والاقتباس من الحضارة الغربية، وتأثر بالاحتكاك المباشر مع الغرب فى ميادين التربية واصلاح أحوال المجتمع أن يستفيد من ذلك كله فى خدمه وطنه، وكان منهم **أحمد فتحى زغلول*** الذى أشار فى ترجمته لكتاب ديمولان سر تقدم الأنكليز السكسون فى عام ١٨٩٩ عن عوامل التقدم فى المجتمع الغربى، فى وقت كان ينظر فيه غالبية المصريين إلى حقيقة أسس القوى التى كانت تتركز على المؤسسات الديمقراطية الغربية والمشاعر الوطنية الراسخة،(١٧٤) ولا شك أن ذلك الكتاب كان له أعظم التأثير على التفكير المصرى آنذاك.(١٧٥)

وقد عبر فتحى زغلول فى مقدمة الترجمة ايضا عن روح المبادرة الفردية، تلك الروح التى كان للوجدان والعقل المصريين فى حاجة اليهما.(١٧٦) وهكذا عمل على نشر المبادئ التحررية، ولم يتح له نقل آرائه إلا عن طريق الترجمة التى آمن بأن لا سبيل لتطوير المجتمع وتحديثه الا بالأستفادة من التراث الأوربى، ومن ثم شرع فى ترجمة العديد من مؤلفات الفكر الغربى مثل أعمال سبنسر *Spencer* وبنتام *Bentham* وروسو *Rousseau* وجستوف لوبون *Gustave Lebon* ، لكى يوازن بينها وبين ما يحتاجه المجتمع المصرى وما يتواءم مع طبيعته الخاصة.(١٧٧)

وقد صُنف فتحى زغلول منذ ظهور هذا الكتاب ضمن الكتاب الاجتماعيين، حيث أعتبر البعض هذا الكتاب ضمن عوامل تطور ونضوج الأمة المصرية فيما يتعلق بالنواحى الأجتماعية،(١٧٨) فقد نجح فى أن يضع إصبعه على مواضع الداء فى المجتمع المصرى ووجد أن الدواء الذى أعتبر هو (سر التقدم) بالالتفات الى التربية الشخصية التى كانت وراء تقدم الغرب، ومن ثم طلب من المصريين أن يتشبهوا بهؤلاء وأن لا يفنوا شخصيتهم فيفنى وجودهم، ومن ثم إعتنق مبدأ الحريين سواء فى التربية والتعليم أو فى الأصول الأجتماعية والسياسية بل والأقتصادية أيضا، وكان غرضه من وراء الترجمة هو نشر مبادئ الحرية، حرية الأمة، وتنبيه الأفراد والأمة الى اتخاذ مثل أعلى قبلة لهم فى أطماعهم الوطنية،(١٧٩) وقد اتخذ من التجربة الانجليزية نموذجا يحتذى به المصريون فى حياتهم.(١٨٠)

كان **فتحى زغلول** من المصريين الذين أدركوا أن العلم هو سر الأمم الى حضارتها ومن ثم نشر الدعوة أمام الشعب المصرى للأقبال على التعليم حتى يدركوا معانى التمدن والحرية، تلك التى قادت المجتمعات الأوربية الى سبل

تقدمهم ورقيهم، وقد طمح أن يسلك المصريون نفس المسلك فى محاولة لترقية الوطن المصرى،(١٨١) لذلك هدف فى ترجماته إلى أن يقدم لأبناء وطنه صورة لتلك المجتمعات الأوربية من خلال أنظمتها وشرائعها لتكون نموذجا لهم فى محاولاتهم الإصلاحية(١٨٢).

وأخيرا كان **محمد حسين هيكل** وثيق الصلة بلطفى السيد، صلة يطغى عليها النسب والقرابة والصداقة، وفوق هذا الأستاذية حيث تتلمذ هيكل على يد لطفى السيد، وأن على يديه تعلم مبادئ الحرية الفردية، ولقد بدأ حياته الصحفية فى الجريدة وهو طالب بالحقوق، ثم راسلها وهو يدرس فى باريس لنيل درجة الدكتوراه وولى رياسة تحريرها فى فترة وجيزة أثناء عطلة صيف عام ١٩١١،(١٨٣) وكانت بعثته الى فرنسا هى المنهل الثانى الذى نهل منه هيكل أفكاره وغذاها ومن ثم أنضم بأفكاره الليبرالية الى النخبة المصرية التى استمدت ثقافتها من تراث الليبرالية الغربية.

وقد اعتبره البعض أول تلميذ للجريدة وأول رائد من رواد مذهبها، وأقربهم إلى روح لطفى السيد وتفكيره، ومن ثم تشبع بسمات المدرسة الفكرية للجريدة التى غلب عليها سمة التجديد والتعقيل والترشيد، مصبوغتين بصبغة الحرية، ومن ثم حملت كتابات هيكل فى الجريدة وما كتبه على صفحات السياسة اليومية والأسبوعية – فيما بعد – نزوعا تاما إلى الحرية الفردية وتقديسها(١٨٤) فى إطار يتفق مع طبيعة المجتمع المصرى آنذاك، ومن ثم غلبت فكرة "المصرية" على تفكيره مثله مثل رواد الجريدة الذين آمنوا بأن "مصر للمصريين"، لذا حرص على تأصيل الشخصية المصرية، وإن ظهر ذلك جليا فى فترات لاحقة على وجه الخصوص.

وعلى الرغم من إنتساب هيكل إلى حزب الأمة بإنتمائه اجتماعيا إلى النخبة الأرستقراطية ومن ثم حمل فكر النخبة التى أنعزلت عن الجماهير تلك

التى رأت أن تمدين وتحديث الوطن المصرى هو تفكير تلك النخبة فقط فهم القادرون فى النهاية على صنع مستقبل الأمة،[١٨٥] ومن ثم عاشوا الثورة التى تقود إلى الفوضى فالمعلوم أن أعضاء حزب الأمة كانوا بعيدين عن الثورية،[١٨٦] الا أنه مع ذلك لم ينضم إلى الحزب كعضو فيه بل اكتفى بالكتابة فى الجريدة وابداء تعاطفه وتأييده للحزب.

وبات واضحا أن الأتجاه الوطنى الداعى لفكرة القومية المصرية كان لا يزال فى بداية الطريق وفى حاجة ماسة لأنصار تؤيد فكرته، علاوة على ذلك فإن أصحاب هذا الاتجاه كانوا فى أولى خطواتهم نحو تحرير شخصية الفرد المصرى والعمل على ابراز الشخصية المصرية، لذا جاءت جهودهم الفكرية متناثرة، وقد ظهرت أكثر ما ظهرت فى مجال الأصلاح الأجتماعى ولم تتطرق بعد إلى المجال الأدبى بشكل خطير ومؤثر.

وبغض النظر عن ذلك فإننا لا ننكر أن جهودهم كانت سببا فى تمهيد الطريق أمام النهضة الأدبية الحقيقية، فمن محاولاتهم الدؤوبة فى شتى فنون الأدب خرجت لنا أعمال أتسمت بالواقعية والجرأة فى طريقة معالجتها لواقع المجتمع المصرى آنذاك أمثال: رواية زينب لهيكل، حديث عيسى بن هشام للمويلحى ليالى سطيح لحافظ ابراهيم، الزار لحلمى زين الدين ...الخ، فقد اتحدت الغايات من أجل تحديث الوطن المصرى، وقد فهموا أنه لن يتم لهم ما تمنوه الا بتعرية المجتمع المصرى والإيضاح عن أمراضه الأجتماعية التى تفشت بشكل خطير بين جنباته، وساهمت فى خلق شخصية غير سوية عرقلت تقدم وتطور المجتمع، فقد أدرك هؤلاء المفكرون أن مواجهة النفس هو أقصر الطرق المؤدية للإصلاح.

بيد أن تلك المحاولات الدؤوبة من قبل تلك الفئة المثقفة من أبناء مصر كانت لا تزال تعيش فى عقولهم ولم تتعمق بدرجة كافية لتؤثر فى وجدانهم، وكذا فى

مجتمع كبير كالمجتمع المصرى، لذا كانت ضعيفة الأثر تقتصر على دوائر ضيقة أقتنعت بضرورة تحرير المجتمع والفرد من العادات والتقاليد البالية(١٨٧).

وبعامة، لا يعيب تلك المحاولات أن أغلبها أنحصر فى المجال الاجتماعى، إذا نظرنا إليها من خلال ما قدمت تلك الأعمال من مساهمات دعمت تيار الوطنية المصية، وساعدت على بناء أمة مصرية مستقلة بشخصيتها قوية بتاريخها.

وتمشيا مع ذلك يسهل القول أن نمط الوطنية المصرية فى تلك الفترة بدت وكأنها حركة النخبة فقط، مماثلة فى ذلك مع الحركات القومية فى ألمانيا وأوربا الشرقية فى بدايات القرن التاسع عشر، وقد بدأ عمل تلك الطبقات المهنية المؤلفة من محامين وطلبة وغيرهم، وفوق هذا مثلت طوائف المدارس العليا بشكل بارز، إلى جانب أطباء ومهندسين وموظفين الحكومة كانوا أيضا قد أنخرطوا فى تلك الحركة رغم تقلص تأثيرهم فى تلك الحركة، ولا ننسى ثمة طبقات أخرى كانت مستثناة من ذلك المسرح : فلاحون وعمال كانوا لا يزالون بعيدين عن أية تكتلات تنظيمية، إلى جانب طبقة التجار التى ظلت دائما مستبعدة تماما.(١٨٨)

إلا أن القول السابق لا ينفى عن المصريين عموما سعيهم للأرتقاء وميلهم للتمدن وذلك استناداً على القول بأن ما كان من السهل تتمة كافة الإصلاحات والتجديدات التى دخلت على القطر المصرى منذ أيام محمد على على وجه العموم، والخديو اسماعيل على وجه الخصوص إلا بوجود إستعداد من قبل الأمة المصرية نفسها، ذلك الذى أظهرت فيه قابليتها للتمدن بما يسهل معه القول بأن مقومات الوطنية قائمة فى مصر إلا أن الوعى بها هو الذى لم يكن موجودا، دليلنا على ذلك شهادة معاصرة برهنت على أن (من يدعى أن لا وطنية عند المصريين فقد جهل التاريخ المصرى الحديث، نعم قد لا يكون حب الوطن ناميا كما عند الأمم الأورباوية وما هذا إلا النتيجة الطبيعية لظروف الهيئة المصرية) من

منطلق أن الفلاح الجاهل لا يهتم بوطنه وانما يهتم بعيشته بكل قواه ومن هنا صعب أن يطلب منه في الحالة التي هو عليها وقتئذ حب الوطن وهو لا يعرف شيئا، حتى ولا ما هي مصر.(١٨٩).

وهكذا سهل على تلك الكوكبة من المثقفين المصريين بدءً برفاعة رافع الطهطاوي وتلاميذه والأجيال التي تعاقبت من مفكرين ومثقفين ووصولا إلى أحمد لطفي السيد ومدرسته الذين سمحت لهم ظروفهم من خلال تعليمهم الحديث وأحتكاكهم بالحضارة الأوربية الحديثة من خلال الاطلاع والسفر والترحال على أن يحملوا على كاهلهم مهام نهضة ذلك الوطن وترقيته وتمدنه وبذلك لعبوا دورا هاما ساعد على نمو فكرة الوطنية المصرية حتى وصلوا بها إلى مراحل نضوجها مع مطلع عام ١٩١٤، حتى ما لبثت ثورة ١٩١٩ لتحقق مرحلة كمال تلك الفكرة بدخول تلك الشرائح التي كانت مستبعدة من الشعب المصري بحكم كونها كانت غير مؤهلة في السابق لتلعب دورها في بلورة فكرة الوطنية المصرية.

* * *

هوامش الفصل الثامن

١ – Tignor, Robert : Modernization And British colonial, P. 260.

٢ – لمزيد من التفاصيل حول الاتجاه الاسلامي والفكر المصرى راجع، احمد زكريا الشلّق (د.) : العلمانية والفكر المصرى الحديث، ص ٤٣٩ – ٤٤٠ كذلك نفس المؤلف : الشيخ عبد الرازق (١٨٨٨ – ١٩٤٧)، واراؤه الاصلاحية والفلسفية، بحث غير منشور، د.ت، ص ١٢ – ١٥.

٣ – ط١ ، ١٣١٠ هـ – أغسطس ١٨٩٣م، برخصة من قلم المطبوعات بنظارة الداخلية، ولم نستطع للأسف العثور على معلومات كافية عن نشأة وحياة صاحب هذا المؤلف.

٤ – محمد مختار : الوطنية ، ص ٢ – ٣ .

٥ – نفس المصدر ، ص ٤ .

٦ – نفس المصدر ، ص ٨ –١١ .

٧ – نفس المصد، ص ١٢ .

٨ – نفس المصدر، ص ١٣ – ١٤ .

٩ – نفس المصدر، ص ١٨ .

١٠ – نفس المصدر، ص ١٩ – ٢٠ .

١١ – طبع بمطبعة المقتطف بمصر، ١٣٢٠ هـ – ١٩٠٢ م، عدد صفحاته ٣٠٢ .

١٢ – نفس المصدر ، مقدمة بقلم احمد زغلول، ص٤ .

١٣ – لمزيد من التفاصيل حول التقسيم الطبقى أنظر، القسم الاول : الاغنياء والعصبية من ص ٩ – ٨٢، القسم الثانى : فى الوسط، ص ٨٣ – ٢٠٢، القسم الثالث : فى الفقراء، ص ٢٠٣ – ٣٠٢ .

١٤ – Vatikiotis, P. J., : The History of Egypt., P. 232.

١٥ – محمد عمر : المصدر السابق، ص ١٨٣.

١٦ – نفس المصدر، ص ١٨٣.

١٧ – نفس المصدر، ص ١٨٦.

١٨ – محمد عمر : المصدر السابق، ص ١٨٧ – ١٨٨.

* فالمعلوم أن مصطلح العلمانية Secularism، حديث الاستخدام، اذ لم تكن له جذور فى تراث مصر الثقافى على الأقل حتى اواخر القرن التاسع عشر، اذ ان الاصطلاح اوربى النشأة واللفظ، وعلى هذا فإن استخدامنا لهذا المصطلح يعد من قبيل تصنيف اتجاه كتابات بعينها اصطبغت بصبغة علمانية، لمزيد من التفاصيل حول العلمانية والفكر المصرى الحديث انظر الدراسة التى أعدها د./ أحمد زكريا الشلّق تحت هذا العنوان.

١٩ – محمد عمر : المصدر السابق ، ص ١٨٦.

٢٠ – أنظر الحجج التى ساقها للدفاع عن نسب الكتاب إلى محمد عمر فى مؤلفه رؤية فى تحديث الفكر المصرى (٢)، أحمد فتحى زغلول وقضية التغريب، ص ٣٤ – ٣٥.

* ج ٢ فى مايو ١٩١٤، فلم نعثر على الجزء الأول الذى جاء ذكره فى هذا الجزء وقال فيه المؤلف أنه نشره عام ١٩١٠، وقد تم نشر جزء من هذا المؤلف بجريدة "الجريدة" فى ٣١ أكتوبر ١٩١٢، عدد ١٧١٥، بنفس تلك العناوين التى ذكرت فى المؤلف، على أى حال، كان لأمين حمدى اصدارات تحت عناوين مختلفة تندرج تحت مجال الفنون الجميلة مثل ما هو التصوير الشمسى، معلومات عن الرابطة الفنية، المصور المصرى ... إلخ، وبذلك تمكن العلم بأنه كان رئيس ومؤسس الرابطة الفنية وذلك ما ذكره فى مؤلفه فترة الالتقاط فى التصوير الشمسى لبلاد القطر المصرى ج١، د.ت، مطبعة جريدة الصباح، أما مؤلفه لغة الفؤاد أو صور الشعر فى روضة البحرين ذكر مؤلف الحياة القومية ولم يشر الى وظيفة، وقد أشار إلى أنه كتب تلك القصائد فى الفترة ما بين أكتوبر ١٩١٢ وديسمبر ١٩١٢، وقد ظهر من خلال قرعته أن مؤلفه يعشق هذا اللون من الأدب وهو الشعر، فى الوقت الذى لم يضم مؤلفه لغة الفؤاد – أية أبيات وطنية عن مصر، إنما بدأها بمدح لمدينة بور سعيد ومحافظها محمد حداية بك، من خلال قصائد نظمت فى ليالى ساهرة بالمدينة عام ١٩١٥، وعندما بدأ فى وضع الصور الشعرية أنصبت حول الطبيعة، العواطف ، الأدبيات، الأخوانيات .. إلخ، راجع طبعة يوليو ١٩١٥، مطبعة رمسيس، ص ١٣ – ٩٥.

٢١ – أمين حمدى : الحياة القومية ، ص٤.

٢٢ – نفس المصدر، ص٥.

٢٣ – نفس المصدر، ص٦.

٢٤ – نفس المصدر، ص ٤٧ ، ٤٩.

٢٥ – نفس المصدر، ص ٥١.

٢٦ – نفس المصدر، ص ١٩ .

٢٧ – محمد حسين هيكل : فى أوقات الفراغ، القاهرة، د.ت، ص ١٢٩.

٢٨ – المؤيد، فى ٢٦ ابريل ١٩٠٨، عدد ٥٤٥١.

٢٩ – ط٢، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢–٣.

٣٠ – Lutfi, AL.,S., Afaf : Egypt And Cromer, P. 152 - 153.

٣١ – قاسم أمين : تحرير المرأة، ص ١٩– ٢٠.

٣٢ – قاسم أمين : المرأة الجديدة، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٦٣.

٣٣ – Lutfi, AL,.S., Afaf : Op. Cit., p. 153.

٣٤ – محمد طلعت حرب : فصل الخطاب فى المرأة والحجاب، القاهرة ١٩٠١، ص ٤٧–٥٢.

٣٥ – محمد فريد وجدى : المرأة المسلمة، القاهرة ١٩١٢، ص ١٨٢.

٣٦ – تيموثى ميتشل : المرجع السابق، ص ١٧٦.

٣٧ – قاسم أمين : اسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ ، القاهرة ١٩١٨، ص ٤١ – ٤٦، ٥٠ – ٥٣.

٣٨ – لمزيد من التفاصيل حول رد قاسم أمين فى كتابه المصريون، انظر النص الكامل بالعربية فى كتاب محمد عمارة قاسم أمين، الاعمال الكاملة، دار الشروق ١٩٨٩، ط٢، من ص ٢٢١ – ٣٠٧.

٣٩ – Guerlle, A.B., New Egypt, p. 155-156.

حيث ذكر أن عدد البنات فى المدارس منذ سنوات قليلة لا يذكر إلا أنه فى عام ١٩٠٠ بلغ ٢٠٥٠ تلميذة وبعد أربع سنوات فقط أصبح العدد ٤٦٢ر١٠، وإن كن لا يتعدين سن الثالثة عشر والرابعة عشر، حيث كانت أسرهم تسعى لاخراجهم من المدارس رغبة فى تزوجيهن.

٤٠ – تيموثى ميتشل : المرجع السابق ، ص ١٧٩.

٤١ – عبدالمحسن طه بدر (د.): تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ١٨٧٠–١٩٣٨، ط٣، دار المعارف ١٩٧٦، ص٧٥.

٤٢ – محمد المويلحى:حديث عيسى بن هشام، الاعمال الابداعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦.

٤٣ – تيموثى ميتشل : المرجع السابق ، ص ١٧٨ – ١٧٩.

٤٤ – محمد المويلحى : المصدر السابق ، ص ٢٢.

٤٥ – نفس المصدر ، ص ١٥ ، ٢٧–٣٠.

٤٦ – نفس المصدر، ص ٣٧.

٤٧ – نفس المصدر، ص ١٧٥ – ١٧٦.

٤٨ – نفس المصدر، ص ١٧٨ وما بعدها.

٤٩ – على الراعى (د.): دراسات فى الرواية المصرية، ص١٣.

٥٠ – Tignor, Robert : op., cit., p. 251.

٥١ – Vatikiotis, P. J. Op., Cit., p. 233.

٥٢ – محمد المويلحى : المصدر السابق، ص ٤٦

٥٣ – على الراعى (د.): المرجع السابق، ص١٨.

٥٤ – Tignor, Robert, Op., Cit., p. 250.

* محمد حسين هيكل ولد فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٨، قرية كفر غنام أحدى قرى محافظة الدقهلية من أسرة غنية تنتمى لكبار ملاك الاراضى لمزيد من التفاصيل حول نشأته وحياته، انظر، د. محمد سيد محمد: هيكل والسياسة الأسبوعية،تاريخ المصريين ٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢٩–٣٤.

٥٥ – غالى شكرى (د.) : النهضة والسقوط فى الفكر المصرى، ص ٢٣٣.

٥٦ – Tignor, Robert : Op., Cit., p. 250 - 257.

٥٧ – محمد حسين هيكل : زينب مناظر وأخلاق ريفية، كتاب الهلال، عدد ٢٢، يناير ١٩٥٣، ص ٧.

٥٨ – Tignor, Robert : Op., Cit., p. 250.

٥٩ – محمد حسين هيكل : المصدر السابق، ص ٨، ٩ من المقدمة.

* حول التحليل الأدبى لرواية زينب، أنظر، ندوة محمد حسين هيكل وجهود الاستنارة المصرية البحوث الأدبية والنقدية، ملخصات أبحاث، اصدار المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة ١٤–١٧ ديسمبر ١٩٩٦، ص ٦٨ – ١٠٣.

٦٠ – محمد حسين هيكل : المصدر السابق، ص ١٠–١٢.

٦١ – ابراهيم عبد الرحمن، رواية زينب ونشأة القصة الفنية فى الادب المصرى الحديث، ص ٧٧، ندوة محمد حسين هيكل.

٦٢ – الموسوعة العربية الميسرة،م١،اشرف محمد شفيق غربال،دار إحياء التراث العربى،بيروت ٩٦٥،ص٩ .

٦٣ – Tignor, R., : OP., Cit., P. 250.

٦٤ – أحمد حافظ عوض : كلمات فى سبيل الحياة، جمعها وطبعها سيد كامل، مطبعة الشعب، القاهرة ١٩٠٤، ص ١ ،٨ – ١٦ .

٦٥ – نفس المصدر، ص ٢٣ ، ٢٨ – ٢٩ .

٦٦ – نفس المصدر، ص ٣٩ – ٤٠ .

٦٧ – نفس المصدر، ص ٤١ .

٦٨ – نفس المصدر، ص ٤٥ – ٥١ .

٦٩ – تفس المصدر، ص ٨٨ – ٨٩ .

* نشرها عام ١٩٠٣ بمطبعة ديوان عموم الاوقاف.

٧٠ – محمد حلمى زين الدين، رواية مضار الزار، من المقدمة

٧١ – نفس المصدر، ص ٢ .

٧٢ – نفس المصدر، ص ٣–١٢ .

٧٣ – نفس المصدر، ص ١٠–٥٥ .

٧٤ – نفس المصدر، ص ٢٤–٢٧ .

٧٥ – نفس المصدر، ص ٥٦–٨٤. .

* كاتب مسرحي وصحفي وكاتب وأديب، وله نظم، وهو ينتمى إلى أسرة رمزى التركية الأصل والتى عاشت فى مصر قرنا ونصف قرن، وهو أخ غير شقيق للمؤرخ الجغرافى المعروف محمد رمزى الذى برز فى خطط مصر بصفة عامة، وخطط القاهرة بصفة خاصة، ولد فى السادس من أكتوبر ١٨٨٤ بالمنصورة، وتعلم بمصر والشام، وتوفى بالقاهرة فى ٢٧ مارس عام ١٩٤٩، اشتغل عام ١٩١٠ مؤقتا بنظارة المالية، ثم فى المعارف، وقد ساعد فى تحرير جريدتى «اللواء» و«البلاغ المصرى»، ومن قصصه المشهورة، الحاكم بأمر الله، «عزة بنت الخليفة»، لمزيد من التفاصيل حول سيرة إبراهيم رمزى، انظر: إبراهيم الدرديرى: أدب إبراهيم رمزى، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص٩٧–١١٥.

٧٦ – ابراهيم رمزى : اياك، مطبعة الهداية، ١٩١٢ .

٧٧ – ابراهيم رمزى : عليك، مطبعة محمد محمد مطر بمصر، ١٩١٤ .

٧٨ – إبراهيم رمزى: إياك، ص٧–٥٦.

٧٩ – إبراهيم رمزى: عليك، ص٣.

٨٠ – نفس المصدر، صفحات متفرقة.

٨١ – إبراهيم دردیری: أدب إبراهيم رمزى، ص١٢٢.

* كان أحمد حسن ناظراً لمدرسة عباس وقت تعريبه لكتاب القول المنتخب فى التربية والأدب ١٣١٠هـ، ثم ناظراً لمدرسة المحمدية وقت أن قام بنشر عمله محاسن الأدب عام ١٨٩٥م، ١٣١٣هـ.

** صدر العمل الأول عام ١٣١٠هـ، وهو من تاليف پليتيه بك ناظر المدرسة التوفيقية، وقد ترجم أحمد حسن مع اسكندر أفندى جاسپارولى، ويقع الكتاب فى سبعين صفحة من القطع الصغير وقد طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية وقد عثرنا على الطبعة الثانية، أما العمل الثانى فقد نشر عام ١٣١٣هـ ـ ١٨٩٥م، وهو من تاليف أحمد حسن، وقد طبع بمطبعة المعارف بمصر.

٨٢ - يلتيه بك: القول المنتخب فى التربية والأدب.

٨٣ - نفس المصدر، من مقدمة المترجم، ص٦.

٨٤ - نفس المصدر، ص١٠.

٨٥ - نفس المصدر، ص٦٧.

٨٦ - نفس المصدر، ص٩-١٠.

٨٧ - نفس المصدر، ص١٠، ١١.

٨٨ - نفس المصدر، ص٤١-٤٢، ٤٦.

٨٩ - نفس المصدر، ص٤٣.

٩٠ - نفس المصدر، ص٦، مقدمة أحمد حسن.

*** كان وكيل نظارة المعارف للثقافة المصرية وغيرها، وقد اعتبره البعض من أبرز المثقفين فى مصر من الأرمن، فقد تلقى تعليمه فى أوربا وعرف العديد من اللغات من بينها الأرمنية والتركية والعربية والفارسية... إلخ، وقد نهل من مناهل الثقافة الفرنسية حتى أنه كتب جميع أعماله باللغة الفرنسية إلى جانب كتابة العديد من المقالات باللغة الفرنسية أيضاً خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٨٨٣-١٩٠٩ تناولت مجالات عديدة فى الثقافة والأدب والتاريخ المصرى بالإضافة إلى تراجم بعض مشاهير الأرمن فى مصر، راجع، محمد رفعت الإمام: المرجع السابق ص٢٣٣-٢٣٤.

٩١ - أحمد أفندى حسن: فى محاسن الأدب، ص٣، ٩، صفحات متفرقة.

٩٢ - نفس المصدر، ص٩.

٩٣ - نفس المصدر، ص٢٦-٢٧.

٩٤ - نفس المصدر، ص٢٧.

٩٥ - نفس المصدر، ص٢٧.

٩٦ - عبد الله النديم : كان ويكون، ج ١ ، ص ٥ .

٩٧ - نفس المصدر ، ص ١٠ .

٩٨ - نفس المصدر، ص ١٢ .

٩٩ - نفس المصدر، ص ١٨ .

١٠٠ - نفس المصدر، ص ١٥ - ١٦ .

* للاطلاع على المناظرة راجع ص ٢١ - ٢٢٤، وللأسف فإن باقى المناظرة من ص ٢٢٥ - ٢٥٦ مفقودة من النسخة.

١٠١ - عبد الله النديم : المصدر السابق، ص ٧٢ ، ٢٠١ - ٢٠٢ .

١٠٢ - نفس المصدر، ص ٢٠٣ .

١٠٣ – عبد الله النديم : المصدر السابق، ص ١٠ – ١١ .

١٠٤ – حسن أفندى توفيق: رسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا سنة ١٨٨٩، ط١، المطبعة الكبرى بالأميرية ببولاق مصر المحمية، ١٨٩١، من المقدمة.

١٠٥ – نفس المصدر، ص٤.

١٠٦ – أمين فكرى: ارشاد الألبا إلى محاسن أوربا، مصر، فى ١٦ مارث ١٨٩٢، من المقدمة.

١٠٧ – نفس المصدر، ص٦٨-٦٩، ١٠٩، ٢٧٦، ٢٧٩، ٥١٧.

* انظر الفصل التمهيدى من الكتاب.

١٠٨ – أمين فكرى: المصدر السابق، ص٦١٧-٧٨٩.

١٠٩ – مصطفى كامل : الشمس المشرقة، طـ ١، ج ١، مطبعة اللواء، القاهرة ١٩٠٤ ، ص ٣ .

١١٠ – الظاهر، عدد ١٧٧ فى ١٩ يونيو ١٩٠٤، تحت عنوان "الوطنية".

١١١ – جوليت آدم : انجلترا فى مصر، ص ٢٤٨ .

١١٢ – مصطفى كامل : المصدر السابق، ص ٤ – ٥ .

١١٣ – نفس المصدر، ص ٥ .

١١٤ – مصطفى كامل : المصدر السابق ، ص ٢٢ .

* الميكادو وهو متسوهيتو اعظم ملوك اليابان، ولفظة مكيادو معناها فى اللغة اليابانية الباب العادل ويعبرون عنها بأسماء مختلفة مثل سليل السماء – الأمير – السيد الاعلى – الامبراطور – ص٦٩.

١١٥ – مصطفى كامل : المصدر السابق ، ص ٩ – ١٠ ، ص ٦٧ .

١١٦ – نفس المصدر، ص ١٤ .

١١٧ – اخنوخ فانوس : الارجوزة العصرية، مطبعة الوطن الجديدة، مصر، اكتوبر ١٩٠٤، ص ١ – ٢ .

١١٨ – نفس المصدر، ص ٣ .

١١٩ – نفس المصدر، ص ٤ .

١٢٠ – نفس المصدر، ص ٧ .

١٢١ – نفس المصدر، ص ٨ .

١٢٢ – نفس المصدر، ص ١٢ – ١٣ .

١٢٣ – احمد محمد الحوفى : وطنية شوقى، دراسة تاريخية مقارنة، القاهرة ١٩٥٥، ص ١٢٩ – ١٢٨ .

١٢٤ – عمر الدسوقى : فى الادب الحديث، ج ٢ ، طـ ٧ ، ص ٩٣ .

١٢٥ – نفس المرجع، ص ٩٦ – ١٠٠ .

١٢٦ – أحمد شوقي، اجمل ما كتب امير الشعراء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦ ، ص ٨ – ١٢ .

١٢٧ – أحمد محمد الحوفي : المرجع السابق، ص ٩٠ .

١٢٨ – أحمد شوقي : المرجع السابق، ص ٥٢ .

١٢٩ – صالح جودت : شوقي أمير الشعراء، ص ٨٠، الهلال، عدد ٢٩ سبتمبر ١٩٦٦ .

١٣٠ – عمر الدسوقي : المرجع السابق، ص ٥٧ .

١٣١ – عبد الرحمن الرافعي : شعراء الوطنية في مصر، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

١٣٢ – Tignor, R., OP. Cit., P. 250

١٣٣ – عمر الدسوقي : المرجع السابق، ص ١٠٢ .

١٣٤ – نفس المرجع، ص ١٠٣ .

١٣٥ – الموسوعة العربية الميسرة، م ١ ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٦٨٥ .

١٣٦ – أحمد هيكل : تطور الادب الحديث في مصر، ص ١٣١ .

١٣٧ – عمر الدسوقي : المرجع السابق، ص ٥٨ .

١٣٨ – حافظ ابراهيم :ليالي سطيح، الهلال، عدد ١٠٠، ١٩٥٩، مقدمة طاهر الطناحي، ص ٩، ١٩ – ٢٢ .

١٣٩ – نفس المصدر، ص٢٤ من المقدمة.

١٤٠ – نفس المصدر، ص٣٦، ٥٨–٥٩، ٧٤.

١٤١ – نفس المصدر، ص١٧٣–١٧٤.

١٤٢ – نفس المصدر، ص١٧٧.

١٤٣ – حول الاوضاع الاجتماعية للمجتمع المصري اوائل القرن العشرين راجع،حافظ إبراهيم: نفس المصدر.

١٤٤ – عبدالمحسن طه بدر (د.): المرجع السابق، ص٨٤.

١٤٥ – نفس المرجع، ص٧٣.

١٤٦ – الموسوعة العربية الميسرة، م ١ ص ١٥٩ – ١٦٠ .

١٤٧ – عبد الرحمن الرافعي : المصدر السابق،ص ٤١ – ٤٢ .

١٤٨ – عمر الدسوقي : المرجع السابق، ص ١٢٣ .

١٤٩ – عبد الرحمن الرافعي : المصدر السابق، ص ٥٠ – ٥١ .

* أحمد نسيم بن عثمان بن محمد، شاعر مصرى ولد وتعلم وتوفى بالقاهرة، كان يلقب بشاعر الحزب الوطنى، وقد عمل موظفا بدار الكتب المصرية إلى أن وافته المنية، من أعماله الهامة، ديوان شعر يقع فى جزءين إلى جانب «وطنيات» فى جزءين أيضا، راجع، خير الدين الزركلى، الأعلام، ص٢٦٤.

١٥٠ – أحمد هيكل : المرجع السابق، ص ١٣٠ .

١٥١ – عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق، ص ٢٦٣ .

١٥٢ – أحمد نسيم : وطنيات، ج ٢، مصر ١٩١٠، ص ٩ .

١٥٣ – نفس المصدر، ص ١٣ – ١٧ .

١٥٤ – نفس المصدر، ص ٣٩ .

١٥٥ – يواقيم رزق مرقص (د.) : دراسة حول : قضية كتاب "وطنيتى" للشيخ على الغاياتى، بحث منشور فى، المجلة التاريخية المصرية، م ٣٠ / ٣١ / فى ١٩٨٣ – ١٩٨٤ ، ص ٤٦٩ وما بعدها كذلك، رجاء النقاش : صفحات من أدب المقاومة، ص ٣٢ – ٣٣ .

١٥٦ – ابراهيم عبد الله المسلمى (د.) : على الغاياتى من "وطنيتى" الى "منبر الشرق" اعلام العرب ١٣٩، الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٨٩، ص ٦٨ – ٦٩ .

١٥٧ – يواقيم رزق مرقص (د.) : المرجع السابق، ص ٤٧٠ – ٤٧١ .

١٥٨ – ابراهيم عبد الله المسلمى (د.) : المرجع السابق، ص ١٠ – ١٦ .

١٥٩ – عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق، ص ٣٦٨ .

١٦٠ – ابراهيم عبد الله المسلمى (د.) : المرجع السابق، ص ٩٩ .

١٦١ – نفس المرجع، ص ١٠٦ – ١٠٧ .

١٦٢ – المؤيد، عدد ٧١٦٢، فى ٢٢ ديسمبر ١٩١٣ .

١٦٣ – المؤيد، عدد ٧٢٣٨ ، فى ٢٢ مارس ١٩١٤.

* من مواليد مديرية جرجا محافظة سوهاج درس فى الأزهر ودار العلوم وتوفى بالقاهرة عام ١٩٣١، عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم، ص٤١.

١٦٤ – عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق، ص ٣٠٥

١٦٥ – Gold, schmidt, Arthur : Modern Egypt, P. 44.

١٦٦ – عبد اللطيف حمزة (د.) : أدب المقالة الصحفية فى مصر، ج ١ ، ص ، ٢ – ٥٢ .

١٦٧ – رءوف عباس حامد (د.) : مفهوم الليبرالية عند هيكل، الندوة، ص ٨ .

١٦٨ – فاطمة علم الدين (د.) : الريف المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى، ص ٣٤٨ .

١٦٩ – أحمد زكريا الشلّق (د.) : العلمانية فى الفكر المصرى الحديث، ص ٤٤٧ .

١٧٠ – قاسم أمين : كلمات، القاهرة ١٩٠٨، ص ٢٣ .

١٧١ – The History Dictionary of Egypt, P. 736.

١٧٢ – Safran, N.: OP. Cit., P. 85.

١٧٣ – عبد الخالق محمد لاشين (د.) : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية، ج١، ص ٩٠ ، ٣٤

* حمل أحمد فتحى زغلول إسما حقيقيا وهو فتح الله صبرى، ولد فى ٢٢ فبراير ١٨٦٣، بامبان من بلاد الارزغربا فى شمال مديرية الغربية، تعلم فى مدارس مصر ودرس الحقوق فى فرنسا وعاد إلى القاهرة، فتقلب فى المناصب إلى أن وافته المنية فى القاهرة وهو وكيل لنظارة الحقانية عام ١٩١٤، راجع، أحمد فتحى زغلول باشا : الآثار الفتحية، ص ٦ ، وكذا خير الدين الزركلي: الأعلام، ص١٩٤.

١٧٤ – Tignor, R., OP. Cit., P. 243.

١٧٥ – Lutfi, Al - S, Afaf : Egypt And cromer, P. 152.

١٧٦ – أحمد زكريا الشلّق (د.) : رؤية فى تحديث الفكر المصرى (٢) ص ٣١ – ٣٢ ، ٣٦ – ٣٨ .

١٧٧ – Lutf, Al - S., Afaf : OP. Cit., P. 152.

١٧٨ – أحمد فتحى زغلول باشا : المصدر السابق، ص ٦ من الترجمة.

١٧٩ – نفس المصدر، ص ١٧ – ١٩ ملخص خطبة لطفى السيد فى حفل تأبين فتحى زغلول.

١٨٠ – Vatikiotis, P. J., OP. Cit., P. 232.

١٨١ – أحمد فتحى زغلول : المصدر السابق، ص ١٢٤ – ١٢٦ ، ١٤١ .

١٨٢ – عبدالمحسن طه بدر، المرجع السابق، ص٤٩.

١٨٣ – محمد سيد محمد (د.) : هيكل والسياسة الاسبوعية، ص ٣٣ ، ٧٣ .

١٨٤ – عبد العزيز شرف (سندباد) : محمد حسين هيكل والفكر القومى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص٦٢ ، ٢١١ .

١٨٥ – يونان لبيب رزق (د.) : الفكرة الحزبية عند هيكل، ندوة هيكل، ص ٢ .

١٨٦ – Mansfield, P., : The British in Egypt, P. 165.

١٨٧ – عبدالمحسن طه بدر (د.): المرجع السابق، ص٤٦.

١٨٨ – Tignor, R., OP. Cit., P. 258 - 259.

١٨٩ – هنس رزنر : مصر فى عهد الاحتلال الانكليزى، ص ١٢٦ .

الخاتمة

باديً ذى بدئ ننوه إلى أن فكرة الوطنية المصرية فى العصر الحديث نمت وتشكلت فى سياق تطور تاريخى لها بدأ مع تأثيرات الحملة الفرنسية فى نهايات القرن الثامن عشر، وما أسفر عنه من تحريك للمياه الراكدة التى عاش فى ظلها المجتمع المصرى طوال عدة قرون منذ الفتح العثمانى لهذا القطر، فمن المعلوم أن الفكر القومى لم يكن وليد مجتمع شرقى إسلامى شأن مصر التى ارتبطت بتلك الخلافة الإسلامية العثمانية لمدة ثلاثمائة عام أو يزيد حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ لتكون نافذة أطل من خلالها المصريون على منجزات الحضارة الأوربية الحديثة وما ارتبط بها من التعرف على مصطلحات ومفاهيم جديدة على العقلية المصرية وقتئذ.

وبين اندهاش وخوف المصريين من الوافد وتقرب الأوربيين منهم غلبت مشاعر الانتماء الدينى لدى المصريين أمام مشاعر الانتماء الوطنى التى غلفت مخاطبة الفرنسى لهم، فكانت صدمة الغزو الفرنسى هى المسيطرة على العقول وانعكست فى شحن مشاعر الانتماء الدينى ضد الغاصب المختلف جنسا ولغة ودينا، وفي نفس الوقت كشفت الحملة عن مقدار الهوة السحيقة بين الحضارتين الشرقية والغربية والذى انعكس فى مدى التدهور الحضارى الذى كانت تعانيه مصر من جراء كونها جزءً من الدولة العثمانية المتصدعة البنيان وقتئذ، ومن ثم

حركت الحملة الفرنسية العقول المصرية ليس في اتجاه شعور بالقومية ولكن تجاه محاولات التجديد والإصلاح وإحداث نوع من التغيير إذا سنحت الفرصة بذلك، وقد حدث ذلك من خلال محاولات فردية لمصريين جذبتهم الحضارة الأوربية الحديثة فمالوا إلى الجانب الفرنسي، أمثال الشيخ حسن العطار الذى أعتبر المثقف المصرى الأول الذى استطاع أن يعى أهمية التقدم العلمى الأوربى، جنبا إلى جنب مع المعلم يعقوب حنا الذى سبق بفكره عصره بعشرات السنين وتطلع إلى مستقبل مغاير لمصر ينتشلها من واقعها الأليم وقتئذ، حتى ظهرت الفرصة بظهور نجم إقليمي صاعد ليس من أبناء الوطن المصرى ولكنه استطاع أن يستفيد من التجربة الفريدة التى عاشتها مصر مع أيام الحملة الفرنسية التى كان لها الفضل فى دخول مصر إلى المعاصرة فكتب له التاريخ أن يكون هو مؤسس مصر الحديثة.

فكان وصول محمد على إلى السلطة اختيارا شعبيا نرى فيه ثمرة من ثمرات الحملة الفرنسية وإن كانت فكرة غير قابلة للنضج من جراء ابتعاد المصريين عن اختيار من يتولى حكم بلادهم من أن يكون أحد أبناء الشعب المصرى، على أية حال كانت السنوات من ١٨٠١-١٨٠٥ سنوات حاسمة لمصر والمصريين.

ولاشك أن نجاح محمد على فى خلق الدولة المدنية كان بالاستفادة من دروس الحملة الفرنسية وما استحدثته فى مصر من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، فكان مسعاه لنشأة المؤسسات الوطنية التى دلت على عبقريته، فى الوقت الذى أظهرت ميل أبناء مصر وتجاوبهم مع ميول محمد على التحديثية، فخرجت فئة من المثقفين المصريين كانوا بمثابة النواة للحركة الثقافية والأدبية الحديثة فى مصر، تلك التى أسفرت عن حسنين البسيونى الذى أعتبر

البادرة الأولى لنتاج الحملة الفرنسية وعصر محمد على، ورفاعة رافع الطهطاوى الذى مهد للتخلص من الولاء الدينى للخلافة الإسلامية العثمانية وكان أول من وضع اللبنة الأولى فى صرح فكرة الوطنية المصرية، وذلك عندما حدد لمصر حدود إقليمية تفصلها عن الدولة العثمانية، كذا بإعتباره أول من نبه إلى التاريخ القديم لمصر الفرعونية بشكل مقروء ومن ثم أبرز مكانة مصر المتميزة وسط المحيط الإسلامى، وقد مثل رفاعة ورفاقه على مبارك وحسين المرصفى البادرة الثانية من ذلك النتاج نظراً لإسهاماتهم النظرية فى تكوين فكرة الوطنية المصرية وترسيخ مفهوم الوطن المصرى، تلك النخبة التى بدأت فى منتصف القرن التاسع عشر تفكر فى البحث عن الهوية السياسية والثقافية المجتمع المصرى ومن ثم أتيحت لهم الفرصة لإلقاء البذور الأولى للوعى القومى فى التربة المصرية، فنجحوا فى ترك بصمات واضحة على طريق النهضة المصرية الوليدة باعتبارهم يمثلون الاستجابة المنطقية التى تولدت عن الاحتكاك بالحضارة الأوربية الحديثة.

ومع عصر الخديو إسماعيل غذّت عوامل عديدة بناء فكرة الوطنية المصرية، وصبت فى قالب وطنى رافدين أساسيين مدا تلك الفكرة بعوامل بقائها، فمثل الرافد الأول مستوى نظرياً ساهم فى إحداث نوع من اليقظة الفكرية والثقافية داخل جدران المجتمع المصرى، متمثلاً فى تلك الكوكبة من المثقفين والمفكرين التى ساهمت فى خلق وعى وطني وفي تأصيل الروح المصرية سواء بطريق مباشر أو غير مباشر.

فجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم لعبوا أدواراً مؤثرة ساهمت فى يقظة ونهضة المجتمع المصرى ودفعته خطوات إيجابية إلى الأمام فى محاولات لإحداث نوع من الإصلاح السياسى والاجتماعى بين أفراد المجتمع المصرى، على الرغم من أن الأول لم يؤمن بفكرة الوطنية المصرية، فإنه لم يرتبط

"بوطن" بالمعنى الضيق للأوطان، فكان اهتمامه منصباً حول الأمة الإسلامية جميعها، والثانى كان نموذجاً للمثقف المصرى القريب التشبث بالفكرة الإسلامية عن فكرة الوطنية المصرية، بل كان الإمام واحداً من مثقفى ذلك العصر الذى لم يرثمة تعارضاً بين الفكرة القومية والفكرة الدينية داخل اطار الدولة العثمانية، من وحى ما تمثله الخلافة العثمانية من رابطة روحية جمعت كافة المسلمين تحت مظلة واحدة، أما النديم فقد مثل مرحلة انطلق بعدها مفكرون آخرون بخطوات أكثر وعياً، حيث خرج من اطار الإيمان بضرورة وجود الدولة العثمانية، ولعل تميز النديم كان نابعاً من كونه ملتقى عدة ثقافات وذلك من خلال معايشته لنوعيات مختلفة من البشر فى الاسكندرية، مصريون وعرب وفرنج ومتفرنجين .. الخ قد ساعده على التخلص من التعلق بتلك التبعية، وهكذا اتخذ النديم خطاً مغايراً أدى به إلى زعزعة النظرة المقدسة التى كان ينظر بها المصرى إلى الدولة العثمانية، صاحبة السيادة الشرعية عليه، مما ساعد على سهولة تبلور فكرة "مصر للمصريين" فى مخيلة الفئة المثقفة من المصريين، على الرغم من أنه كان يمثل التيار الثورى فى مدرسة الأفغانى الفكرية على غير شاكلة الإمام الذى مثل التيار المعتدل فى تلك المدرسة إلا أنه مع ذلك كان أقرب إلى الوطنية المصرية منه إلى الفكرة الإسلامية مقارنة بالإمام محمد عبده، فإن النديم لم يساير الأفغانى فى دعواه للجامعة الإسلامية.

إن التركيز على تأصيل فكرة الوطنية المصرية والمناخ الذى أتاح لها مزيداً من النمو لا يجعلنا ننكر أن الفكر الإسلامى الحديث شهد حركة بعث وإحياء على أيدى كوكبة من المصلحين أمثال الأفغانى ومحمد عبده الذين قد ساهموا فى دفع الفكرة الوطنية بشكل غير مباشر، ولاشك أن تلك الحركة قد أفادت المجتمع المصرى فى بعض جوانبه.

جنباً إلى جنب كان يعقوب صنوع وأديب إسحق يسهمان فى سلخ الفكرة الإسلامية والارتماء بالمصريين فى أحضان الجامعة الوطنية المصرية، من خلال سعيهم لخلق مجتمع مدنى يقوم على أسس حديثة، ومن ثم ساعد على النمو الطبيعى لفكرة الوطنية المصرية.

نخلص من ذلك إلى أن مراحل نضوج أفكار وأطروحات الفئة المستنيرة قبيل الاحتلال البريطانى لم تسر فى خط مستو دائماً من خلال ملاحظة التباين فى الأفكار والاتجاهات بل والنوايا التى كانت تنبع منها أطروحات الفئة المثقفة التى تم تناولها فى تلك الآونة.

بقيت الإشارة إلى جانب هام غذى الرافد النظرى الذى صب فى بناء فكرة الوطنية المصرية وتمثل فى دور الشوام الذى لا يمكن إنكاره، حيث تقاربت أهدافهم مع أهداف المصلحين المصريين ومن ثم أثروا فى تطور المجتمع المصرى، ولعل تلك الظروف التى عايشوها فى مجتمعاتهم قد يسرت لهم الاندماج داخل المجتمع المصرى، حيث لعبوا دوراً إيجابياً فى الدعوة للقيم والتقاليد الليبرالية وغرس أسس ومنهج التفكير العلمى، وفوق هذا استطاعوا أن يفصلوا بين الفكرة الدينية والوطنية فقد اتخذت ملامح كتاباتهم ملمحاً علمياً صرفاً غلبت عليه العلمانية - إن جاز التعبير - ولأن مصر الوطن لا تعنيهم كثيراً فهم لم يخدموا نمو الفكرة الوطنية نفسها بشكل مباشر بقدر أنهم قد خدموا تطور وتحديث المجتمع المصرى، بالانزواء جانباً علمياً بعيداً عن الأفكار والإشكاليات التقليدية التى كانت مطروحة على الفكر المصرى آنذاك.

ومثل الرافد الثانى مستوى عملياً من خلال تلك المؤسسات الثقافية الوطنية التى نشأ بعضها ونما الآخر فى عصر الخديو إسماعيل، حيث أتيح للشعب المصرى من خلال تلك الوسائل العصرية كالصحافة والمسرح والأدب من الإلمام

بكافة القضايا والمشكلات التى تعترض سبيل التقدم للوطن المصرى، حيث هيأت تلك المؤسسات المناخ المناسب والملائم لنمو الرأى العام المصرى فى محاولة لتشكيل العقلية المصرية القادرة على التفاعل مع العمليات المستمرة لتحديث المجتمع المصرى فى ذلك العصر، بعد أن تم تحديث الدولة فى عصر محمد على.

لا نغالى إذا قلنا أن الصحافة كانت من أبرز المعالم التى أثرت فى تطور فكرة الوطنية المصرية، حيث لعبت دوراً فعالاً فى نهضة الوطن المصرى عن طريق تناول تلك القضايا الهامة كالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وحقوق الوطن والمواطن، وفوق هذا ساهمت فى إحياء الروح الوطنية وزيادة الوعى بين المصريين، إلى جانب إحداث نهضة أدبية وثقافية وترسيخ الاتجاه النيابى، إلى جانب فتح جسور المعرفة والعلم بين القطر المصرى والعالم الخارجى المحيط به، ومن خلال ذلك الاحتكاك والانفتاح على الغرب الأوربى ازداد الحس الثقافى المصرى قوة وتأكدت الهوية الوطنية المصرية.

ولاشك أن المناخ العام لعصر إسماعيل ساعد على نمو الصحافة الوطنية التى مالبثت أن نجحت فى تعبئة النفوس حول إمكانية "الثورة" ولعل تلك المقولة كانت احدى دروس "الثورة الفرنسية" التى تلقفتها آذان مفكرى الشرق وعملوا بدورهم على إستيعابها والإلمام بأهدافها وأصبحت جارية على ألسنتهم ومن ثم مثلوا استجابة محلية للمؤثرات الغربية تلك التى ظهرت فى ترديد دروس ومبادئ الثورة الفرنسية على أيدى مفكرين ومثقفين شرقيين عملوا بدورهم على ايصالها إلى جموع الشعب المصرى.

وساهم المسرح المصرى بدوره فى إرساء دعائم الوطنية المصرية أيضاً بما كانت تحمله العروض من دعوات للاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، مما ساعد على نضوج الوعى بين أفراد المجتمع المصرى وإن كان بدرجات

متفاوتة – كما سبق القول – فقد استطاع صنوع – على سبيل المثال – أن يلعب دوراً إيجابياً من خلال تلك الرموز والإشارات التى كثرت فى لغته واستطاع أن ينقل أخطر الأفكار التى أراد نشرها بين أفراد المجتمع المصرى فى صورة متحركة ناطقة سواء على المسرح من خلال احتكاكه المباشر بالجمهور أو من خلال صورة مقروءة على صفحات جرائده التى كتبت بالعامية وبذلك نجح بأعماله فى إثارة مكامن الألم والثورة فى وجدان المصريين.

ولا ننسى أن نجاح الخديو إسماعيل فى خلق بيئة متمدينة على النمط الأوربى بفضل ولعه بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الأوربية الحديثة قد ساهم فى نجاح تلك المؤسسة فى أن تحدث تأثيراً فى جنبات المجتمع المصرى وإن كانت على المستوى السطحى ولم تمس قاعه، وقد نبع ذلك من تلك السرعة المذهلة التى أتبعها الخديو إسماعيل فى فرض تلك الأفكار الأوربية على العقلية المصرية دون أدنى تفكير فى مدى قدرة أفراد ذلك المجتمع على إستيعابها وفهمها بسهولة.

ولاشك أن النهضة الأدبية أدت إلى نشوء ثقافة قومية واحدة للأمة المصرية أخذت تقوى بمرور الوقت حتى غدت سمة ميزت الشخصية المصرية، إذ نجحت تلك الشخصية فى استخدام الوسائل العصرية المتاحة والكتابة والاتصال بالجمهور فى المحافل والمنتديات العلمية، إلى جانب الصالونات الأدبية التى حفلت بأعلام الفكر والأدب والسياسة، مما ساعد على خلق مناخ ثقافى يسعى للتغيير للأفضل، ومن ثم يمكن القول أن الفصل الثانى من هذه الدراسة قد مثل شواهد لآثار بداية تبلور فكرة الوطنية المصرية فى جوانبها النظرية والعملية.

وهكذا اتسم النشاط الثقافى فى عصر الخديو إسماعيل وبدايات عصر توفيق بالحيوية والازدهار، فكانت تلك العوامل الحضارية التى ساعدت على تقوية التيار الوطنى الذى تبلور فى الشعور "بالمصرية" لدى أبناء الوطن المصرى

واعتبار هذا الشعور قد رفع شعار "مصر للمصريين" فثبت ورسخ الشخصية المصرية فى الوجدان المصرى، اذ تتبعته محاولات لرفع نفس الشعار "مصر للمصريين" تعبيراً عن القومية المصرية بهدف تدعيم وحسم فكرة الوطنية المصرية.

على أية حال صب كلا الرافدان المغذيان لفكرة الوطنية المصرية فى قالب وطنى يخدم تطور تلك الفكرة وبما عبر عنه بأنه مثل المظاهر الإيجابية لعصر ما قبل الاحتلال، تلك المظاهر التى تمثلت فى بروز اتجاهات قومية رمت إلى إنشاء نظام برلمانى مصرى ثابت وإلى فصل مصر عن الدولة العثمانية وإنشاء حكومة مصرية وطنية، بفضل ذلك التشجيع الذى لقيته الحركة الدستورية والقومية من قبل الخديو إسماعيل بل كانت هناك أيضاً إسهامات تلك الكوكبة من المفكرين والسياسيين أمثال الأفغانى ومحمد عبده وشريف باشا .. الخ، تلك النهضة التى قدر لها أن تصاب بالشلل من جراء سياسات الخديو توفيق الذى تملص من مساندة الحركة الوطنية الوليدة التى تبلورت فى الثورة العرابية التى كانت بمثابة انتقال طبيعى من ثورة ثقافية فكرية ينتج عنها بطبيعة الحال ودوماً المضى إلى الخطوات التطبيقية، فظهرت تلك الثورة التى جسدت واستوعبت كافة المظاهر الإيجابية التى مست كافة جوانب المجتمع.

وقد تمكن الوصول إلى تحديد مؤداه أن العرابيين مزجوا دعوتهم الوطنية لجعل "مصر للمصريين" بدعوتهم الدينية من خلال رفع شعار "الجهاد فى سبيل الله"، إذ كان من الصعب وقتئذ جمع كل تلك القوى المشاركة فى الثورة تحت لواء الوطنية فقط، فدرجة الوعى التى وصل إليها المجتمع لم تكن كافية أو متساوية فى درجة الفهم لحشد تلك الأعداد، وإنما كان من المنطقى القول إن إلباس الثورة رداء الطابع الدينى كان وراء التكتل الشعبى خلف العرابيين.

ويمكننا القول بأن شعار "مصر للمصريين" قد تبلور في أول أمره حول تأصيل الذات المصرية تلك الرافضة للسيطرة التركية الثائرة ضد التدخل الأجنبي المتزايد على أرضها، المستظلة في نفس الوقت بظلال الخلافة الإسلامية المحافظة على استقلالها الداخلي، وهكذا سهل القول أن رفع ذاك الشعار وقتئذ كان رد فعل منطقياً للسيطرة والهيمنة الأوربية والتركية على مقدرات القطر المصري، وقد تزامن ذلك على وجه الخصوص مع نمو الطبقة الوسطى المصرية الوليدة.

ولاشك أن عصر ما قبل الاحتلال البريطاني قد أفرخ نهضة ثقافية هدفت إلى تحديث الوطن المصري وساهمت في خلق الوطنية المصرية، وقد ظلت ثمة رابطة بين عصر ما قبل الاحتلال وعصر الاحتلال تلك التي تمثلت في استمرار جذوة المشاعر الوطنية وإن بدا عليها في بعض الأحيان الذبول بفضل الاحتلال الذي وأد – إلى حين – الشعور الوطني الوليد للمصريين، حيث أتيح له إتباع عدة وسائل ساعدته على تثبيت أقدامه، كاستعانته بالصحف الشامية كالمقطم التي مثلت اليد الأولى المساعدة للمحتل وبوقاً لسياسته، ولكن على الرغم من ذلك الخط المعاكس الذي نهجته الصحف الشامية للحركة الوطنية المصرية، إلا أنها قد ساعدت على نمو تيار الوطنية المصرية بشكل غير مباشر عندما استطاعت أن تعزل قراءها عن فكرة الجامعة الإسلامية وتصب اهتماماتهم في قالب مصري حديث، بفضل صبغتها العلمية التي تميزت بها تلك الصحف إلى جانب أنها سعت دوماً لنشر الأفكار الشديدة العصرية والمثالية وقتئذ، حيث اتخذت تلك الصحف من استعراض أحوال الغرب وتاريخه نقطة إنطلاقه لبعث الأرواح الوطنية لأبناء الشرق عموماً والمصريين خصوصاً، حيث أملت عليهم ثقافتهم الغربية ذلك التوجه العصري.

ولعل أهم ما يميز سنوات ١٨٨٢ - ١٨٩٩ فاعلية الصحافة المصرية التى يسمت لنا صراعاً بين فكرتين ظلتا مستمرتين فى العقلية المصرية ودون فصل بينهما وهى فكرة الجامعة الإسلامية والوطنية المصرية، حيث قامت الصحافة فى دفع الفكرتين على الساحة السياسية المصرية تاركة ما تسفر عنه الأيام من انتصار لاحدى الفكرتين على الأخرى، حيث ظهرت بعض الصحف التى اصطبغت بطابع وطنى أسهم فى تحديد الشخصية المصرية والحفاظ على الهوية الوطنية المصرية، وقد عكست تلك الصحف دور أقباط مصر الإيجابى فى دفع الفكرة الوطنية خطوات إلى الأمام فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ومع بدايات القرن العشرين كان لهم أكبر الأثر فى نضوجها ودفعها نحو الاكتمال.

حيث ازداد الشعور الوطنى تبلوراً إلى أن أفرز محاولات جادة لتأصيل الجامعة الوطنية المصرية على يد دعاة الفرعونية والفكرة العربية، حيث لم تقتصر الفكرة الأولى على أقباط مصر دون مسلميها بل شملت العنصرين المكونين للأمة المصرية، تلك التى رمت إلى ربط الجذور التاريخية لمصر الفرعونية بتاريخ مصر الحديث فى القرن التاسع عشر سعياً وراء بلورة "قومية مصرية"، وإن كان أقباط مصر قد حملوا الجانب الأكبر من تلك الفكرة كرد فعل رافض للدعوة إلى الجامعة الإسلامية، ومن ثم سعوا من جانبهم للبحث عن معالم محددة تعترف بوجودهم، وقد تولدت هذه الرغبة ربما خشية تعرض كيانهم للذوبان فى وسط ذلك المحيط من الإشكاليات الثقافية والإسلامية. وبهذا أصبحوا من دعاة "القومية الفرعونية". وهكذا رأى الأقباط أن الوطنيات المحلية أنسب لهم من جامعة عثمانية، وهذا ما جعلهم عنصراً فعالاً فى دفع الفكرة الوطنية خطوات إلى الأمام.

أما الفكرة العربية فكانت إفرازاً للسياسة التعليمية التى اتبعها الاحتلال

بهدف رسم السياسة الثقافية له داخل القطر المصرى، ومن ثم تبنى المثقفون المصريون دعوة تهدف إلى النهوض باللغة الوطنية للشعب المصرى تلك التى تمثلت فى محاولات إصلاح وتجديد اللغة العربية لتكون أداة صالحة ترتقى بالوطن وتمدنه، وقد أمكن التوصل إلى أن الدعوة للاهتمام باللغة العربية لم يتبعها بالضرورة دعوة لتبنى الفكرة العربية فى مصر فى ذلك الوقت المبكر بسبب عدة أسباب تمت الإشارة إليها سابقاً، أدت بنا إلى أن مصر قد سبقت الأقطار العثمانية الأخرى نحو بلورة الجامعة الوطنية المصرية، فى وقت غلبت فكرة العروبة على الأقطار الشامية التى رزحت تحت نير السلطان العثمانى فوجدوا فى تلك الفكرة متنفساً للخروج من بوتقة السيطرة العثمانية.

والجدير بالذكر أن الكتابات المعبرة عن الانتماء العربى فى مصر ظهرت مع ثلاثينيات القرن العشرين على أيدى أمثال عبد الرحمن عزام ومنصور فهمى وزكى مبارك وغيرهم، فى وقت لم يكن فيه ثمة تعارض بين المصرية والعربية.

وقد أمكن التوصل أيضاً إلى أن اهتمامات المصريين من المثقفين كانت تدور حول تغليب صفة المصرية بهدف تأصيل الشخصية الوطنية، ولعل السنوات من ١٩٠٠ إلى عام ١٩١٤ قد شهدت ملامح نمو فكرة الوطنية من خلال الصحافة المصرية، التى رجع الفضل إليها فى تقوية هذا التيار عن طريق نشر كل ما يتعلق بالفكر الوطنى ومراحل نموه على صدر صفحاتها اليومية، حيث مثلت تلك الفترة قمة النضج والوعى لدعوة "مصر للمصريين" التى أعتبرت صيغة قومية سعى المصريون لتحقيقها، وفى سبيلهم لذلك ساهموا فى فك عرى الروابط مع الدولة العلية وتقوية الشعور الوطنى المصرى إلى جانب دحض الدعاوى الأخرى مثل دعاة الجامعة الشرقية، وهكذا خلقت فكرة "مصر للمصريين" الوعى بمقومات الوطنية فى مصر، ومن ثم نما تيار الوطنية المصرية بفضل تلك المقالات التى

دارت حول معاني الوطن والوطنية والأمة .. الخ، وقد إنعكس ذلك كله بالتالى على النمو الطبيعى لفكرة الوطنية المصرية التى لازمها بالضرورة وعى بتلك المفاهيم الحديثة.

وقد استطاعت الجامعة الوطنية المصرية أن تترسخ فى أذهان الوطن المصرى من خلال معالجة الصحافة المصرية فى تلك الحقبة لبعض القضايا التى ساهمت فى تشكيل الوعى القومى المصرى والتى عرضنا نماذج منها تمثلت فى ثلاث قضايا هى الاستقلال والجنسية والوحدة الوطنية تلك القضايا التى كانت بمثابة المقومات الأساسية التى قامت عليها فكرة "القومية المصرية".

وعلى الرغم من تعرض قطار الوطنية المصرية للوقوف المؤقت بسبب ظهور بعض القضايا التى كادت أن تصيبه بالشلل التام من جراء انقياد الغالبية العظمى من الشعب المصرى لمناصرة الدولة العثمانية فى تلك القضايا، حيث اعتبرت حادثة طابا ١٩٠٦ حجرة عثرة فى التطور الطبيعى لفكرة الوطنية المصرية، جنباً إلى جنب مع الحرب الإيطالية - الطرابلسية ١٩١١ التى وضعت مصر بشعبها أمام إختيارين كلاهما مر إما الاستعداد لمساندة الدولة العثمانية فى حربها التى أعلنتها على إيطاليا أثر غزو الأخيرة لطرابلس الغرب وبالتالى الحفاظ على الجامعة الاسلامية فى مقابل التقليص من المكانة المتميزة التى كادت أن تقترب بها مصر من مرحلة الاستقلال التام عن الدولة العثمانية، وإما الوقوف موقف المتفرج حفاظاً على الروح الاستقلالية للدولة المصرية وصوناً للجامعة الوطنية، ولولا أن رياح الحرب العالمية الأولى كانت تقترب من منطقة المشرق الإسلامى عاصفة بنفوذ الدولة العثمانية فى محاولة ناجحة لإنجلترا ببسط حمايتها على مصر فاستطاعت بهذا القضاء على الوشائج المتبقية بين مصر والدولة العثمانية، وفوق هذا يمكن اعتبار الميل فى بعض الأحيان للدولة العثمانية

يعبر عن شعور ديني لا ينقص من المكاسب الوطنية التى فاز بها قطاع كبير من المصريين.

على أية حال تلقت فكرة الوطنية المصرية دفعات جديدة للأمام على أيدى الأحزاب المصرية التى نشأت فى الفترة بين عامى ١٩٠٧ - ١٩١٤، وسواء تمسك هؤلاء المؤسسون بالسيادة العثمانية كحجة قانونية لمداحضة الاحتلال البريطانى أمثال مصطفى كامل الذى كان على رأس الحزب الوطنى حيث فضل العمل فى الاتجاهين الوطنى والإسلامى للتخلص من الاحتلال البريطانى، بما لا يمثل إنتكاسة للنمو الطبيعى لفكرة الوطنية المصرية.

وعلى الجانب الآخر سلك البعض مسلكاً وطنياً محضاً على يدى لطفى السيد وحزب الأمة مع مهادنة الاحتلال، وقد مثل تياراً معتدلاً ساعياً لبلورة فكرة "القومية المصرية"، ومن ثم أعتبر حزب الأمة مدرسة مختلفة فى الوطنية المصرية.

وقف بين الحزبين السابقين حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية وكان على رأسه الشيخ على يوسف الذى نجح فى مهادنة جميع الأطراف، حيث لم يستطع أن يضيف للحركة الوطنية المصرية كما كان الحال عند مصطفى كامل، أو أن يخدم فكرة الوطنية المصرية كما كان الحال عند لطفى السيد، وقد أمكن الخروج بإنطباع عام اصطبغ على حزبه وهو وطنية مصرية مغلفة بمسحة دينية.

وبنظرة شاملة على أحزاب ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعتبرها بمثابة أحزاب حقيقية وربما إطلاق اسم حزب عليها قد فاق حقيقتها من حيث التكوين والتأثير، على أساس إذا نظرنا لمجهودات كافة تلك التجمعات السياسية نجدها لا تتخطى المحاولات النظرية بطرح وجهات نظر متعارضة حيث كان يتبنى كل حزب وجهة ويدافع عنها دون الانتقال إلى مرحلة البحث عما اذا كانت تلك النظريات أو المجهودات كانت تؤتى بثمارها أم لا لخدمة الهدف الأسمى للأحزاب فى غالبيتها

وهو التخلص من الاحتلال. وقد غاب عن تلك الأحزاب باستثناء "حزب الأمة" فكرة الوطن، حيث فشلوا فى دورهم لخدمة الوطنية المصرية عبر مراحل نموها وتطورها.

لا نغالى إذا قلنا أن تلك الأحزاب كانت تجمعات سياسية عديمة الفائدة فى جانب كبير منها لافتقادها للتنظيم الحزبى السليم إلى جانب التشابه فى برامجها، ولكن ذلك لا يجعلنا ننكر أن قيامها فى ذلك الوقت أسهم فى نضوج وعى أبناء المجتمع المصرى بإنغماسهم فى قضايا وطنهم سواء بالالتفات للدستور أو البحث عن الحريات أو السعى للاستقلال، مما أحدث نوعاً من الغليان فى الأفكار بحثاً وراء الأفضل والمناسب لخدمة الوطن المصرى.

والجدير بالذكر أن تلك النهضة الصحفية التى شهدتها مصر جنباً إلى جنب مع ظهور تلك الأحزاب آنذاك يعتبر إنعكاساً للمؤثرات الغربية على العقلية المصرية والتى نتجت عن الاحتكاك مع الغرب الأوربى سواء ذلك الذى حدث لأول مرة مع قدوم "الحملة الفرنسية"، حيث ثبت تفوق الغرب المتقدم على الشرق المتخلف فكان انتصارا للحضارة الأوربية الحديثة صحبها بعض الوعى لدى المصريين فى شكل طفرة بسيطة، أما مع الاحتكاك الثانى من خلال قدوم "الاحتلال البريطانى" كانت مصر قد خاضت فيه مضمار الحضارة الأوربية الحديثة أمام العالم المتقدم من خلال ما تيسر لها من وسائل عصرية التى أتيحت لها فى فترة ما قبل الاحتلال البريطانى وخاصة فى عصر الخديو إسماعيل، تلك الوسائل التى أدت بالمجتمع المصرى ذى السمة الإسلامية الشرقية أن يتحول رويداً رويداً نحو الحداثة والمدنية، ومع الاحتكاك الأخير لم نجد إنتصاراً كاملاً للغرب الأوربى، حيث أثر ذلك الاحتلال بشكل كبير فى الحياة الاجتماعية للمصريين التى رغب الخديو إسماعيل من خلالها جعل مصر قطعة من أوربا،

جنباً إلى جنب مع التواجد الأجنبى الذى أفرز نظم حياة مختلفة شاهدها المصريون أمام أعينهم دون أن يكابدوا مشقة السفر، ذلك التواجد الذى مثل إضافة نوعية للمجتمع المصرى إلى جانب أنهم كانوا يمثلون إضافة بشرية.

وفى الواقع عزت النهضة المصرية الحديثة إلى جانب ذلك إلى عدة أسس غذت وكونت فكرة الوطنية المصرية فى العصر الحديث، حيث أسفر اكتشاف التاريخ المصرى القديم عن نتائج إيجابية من خلال إسهامات المثقفين المصريين فى نمو تيار الوطنية المصرية حيث كان الإشادة بالتاريخ المصرى القديم مدعماً ومؤكداً للكيان المستقل للأمة المصرية ومن ثم حدث نوع من الفصل بين ماضى مصر الفرعونية وبين مصر العثمانية، فقد كان الأدغال فى التاريخ المصرى القديم عاملاً- بلا شك - مساعداً فى تأصيل الشخصية المصرية.

إلا أن العامل الأهم والمؤثر فى نمو تيار الوطنية المصرية كان تأسيس أسرة حاكمة توارثت عرش مصر حيث جعلها ذلك أكثر إرتباطاً بشعب مصر من جهة وأعطى لمصر شخصية متميزة عن سائر الولايات الأخرى داخل الدولة العثمانية، وخلق فى نفس الوقت فى النفوس شعوراً عاماً بوجود دولة مصرية مستقلة عن جسد الدولة العثمانية، حيث ثبت أن {بناء الاستقلال المصرى كان الصرح الذى نشأت فى أحضانه الفكرة الوطنية} يونان لبيب رزق، مصر المدنية فصول فى النشأة والتطور، ص ١١٧.

ولا جدال أن معاهدة لندن ١٨٤٠ كانت القاعدة التى بنى عليها الاستقلال المصرى ومن ثم ساهمت فى إعادة خلق "الأمة المصرية" حيث مكنت مصر من أن تصبح أول دويلة من دويلات الدولة العثمانية يكون لها حدود متعارف عليها، ومن ثم اعتبرت تلك المعاهدة نقطة تحول لتدعيم جهود مفكرى مصر إبان بحثهم عن الشخصية الوطنية المستقلة لبلادهم، ونلمس ذلك من خلال نصوص المعاهدة تلك

التى أعترفت بوجود كيان مصرى حصر أهداف وتطلعات محمد على فى اطار ذلك التحديد الجغرافى للقطر المصرى، وبهذا يمكننا الحسم بملاحظة أن البحث عن الشخصية المنفردة ذات الصفات الخاصة للوطن المصرى نبعت ليس فقط نتاجاً لمجهودات أبنائها من المفكرين والمثقفين والسياسيين فحسب بل يؤكد على إيجابيات النتائج التى تنجم عن التفاعلات الدولية وتضارب المصالح بين الدول مما ساعد فى النهاية على تثبيت وتأصيل وجود الدولة المصرية، وإن تم ذلك بطريق غير مباشر وغير مقصود.

ولامراء أن الخديو إسماعيل كان له نصيب الأسد فى تثبيت أقدام أسرة محمد على عن طريق تلك الفرمانات التى وسعت قاعدة الاستقلال الذاتى المصرى جنباً إلى جنب مع تطلعاته الرامية إلى الحفاظ على استقلاليته أمام العالم الخارجى، ومع عصر الخديو عباس حلمى الثانى استطاعت مصر الحفاظ على مركزها المستقل عن الدولة العثمانية وإن ظل ينقصها الأهم وهو المستقل عن الاحتلال البريطانى.

ومن الملاحظ كذلك أنه كان لمعاهدة لندن ١٨٤٠ جوانبها السلبية حيث حطمت طموحات محمد على الرامية إلى تأسيس امبراطورية عظمى - كما سبق وأشرنا - إلا أن تكوين تلك الامبراطورية فى عهد الخديو إسماعيل كان عاملاً مشجعاً على نمو تيار الوطنية المصرية حيث ساعد انتزاع مصر عن جسد الدولة العثمانية مما انعكس على اعتزاز قطاع من المصريين باستقلاليتهم وتفردهم فى آن واحد، حتى استطاعت بريطانيا العظمى من سلخ تلك الامبراطورية المصرية رويداً رويداً عن جسد الوطن المصرى.

أما فيما يتعلق بانصهار العناصر التركية داخل المجتمع المصرى فقد أسفر عن تمصير الأسرة المالكة بمرور الوقت، وقد حدث ذلك عنده سارك

أفرادها في الحياة السياسية المصرية ولعبوا دوراً في خدمة الوطن المصرى هذا من جهة، وكان ضعف مراكز الطبقة التركية - الچركسية داخل القطر المصرى بفضل سلطات الاحتلال التى لعبت دوراً في فقدهم لنفوذهما السياسى والاقتصادى بمرور الوقت، إلى جانب مصاهراتهم للعائلات المصرية الكبيرة واحتكاكهم بأفراد المجتمع المصرى وتداولهم للغة العربية فى تعاملاتهم بالمجتمع المصرى من جهة أخرى، وفوق هذا كان ظهورُ الطبقة الوسطى المصرية الحديثة وارتباطها بمصالح حقيقية فى البلاد، أدى إلى تراجع مركز الطبقة التركية إلى الصفوف الخلفية، كل ذلك أسفر عن أعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من جسد الأمة المصرية.

لقد كان الثلث الأخير من القرن التاسع وبدايات القرن العشرين أخصب الفترات التى شهدت نضوج فكرة الوطنية المصرية على أيدى نخبة من المثقفين المصريين سعت لإحداث نهضة وطنية وثقافية أثرت بشكل أو بآخر على تطور المجتمع المصرى، جنباً إلى جنب مع محاولات الارتقاء بالفكر المصرى الحديث، حيث كان نضوج فكرة الوطنية المصرية عبر مراحل هذه الدراسة ثمرة التطور التاريخى للوطن المصرى سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وفكرياً، ذلك التطور الذى حطم كثيراً من القيم والتقاليد البالية.

إلا أن نمو فكرة الوطنية المصرية من مجرد شعور عام إلى صيغة قومية قد لازمه وصاحبه تطور مماثل فى نضوج وعى المجتمع المصرى والعقلية المصر ففى ظل كوكبة من المثقفين والمفكرين المصريين اتجهت فكرة الوطنية المص نحو الاكتمال، حيث أتيح لها أن تحقق كمالها مع دخول تلك الشرائح من الشـ المصرى التى كانت مستبعدة فى السابق من القيام بدور فعال ومؤثر بحكم كونها كانت غير مؤهلة لذلك.

ومن ثم لعب المثقفون المصريون دوراً في إنهاض المجتمع المصرى من كبوته وتقويم سلوكياته لمواجهة متطلبات الحياة اليومية، وقد جاءت جهودهم الفكرية متناثرة وقد ظهرت أكثر ما ظهرت في مجال الإصلاح الاجتماعي، ومن هنا ميز البحث بين خمسة مستويات عند النظر إلى ذلك الاتجاه الوطنى الذى هدف إلى تحديث الوطن المصرى وتحرير شخصية الفرد المصرى وإبراز الشخصية المصرية، والذى استطعنا من خلاله التأكيد على أن "مصر هبة المصريين، حيث أن تكوين مصر كان من صنع جماعة من الناس – المصريين" – الذين صنعوا لها تاريخها المجيد (محمد شفيق غربال : تكوين مصر عبر العصور، تاريخ المصريين ٤٢، ١٩٩٠، ص ١٢).

حيث تبلور المستوى الأول من خلال سعى جماعة من المثقفين المصريين للبحث عن هوية وطنية ثقافية مصرية لأبناء القطر المصرى، وقد تم عرض ثلاثة نماذج من تلك الكوكبة التى حجبت عنها الضوء فعاشت في الظل، ولكن بفضل تلك الإسهامات التى قدموها لخدمة معانى الوطن والوطنية أتاحت لهم الظهور والتألق فكان محمد مختار، محمد عمر، أمين حمدى.

مثل المستوى الثانى قمة الإنغماس في المصرية بعرض قضايا ومشاكل المجتمع المصرى في محاولة منهم للتصدى لكل تلك الإشكاليات التى تمس ذلك المجتمع وفى سبيلهم لتحقيق ذلك وكشف النقاب عن مساوئ وعيوب ذلك المجتمع، وقد استطاعوا تحقيق ذلك من خلال مقدرتهم على معايشة كافة أفراد المجتمع المصرى لمشاكله، ومن ثم اتجهوا اتجاهاً إصلاحياً رافعين راية التغيير للأفضل في محاولة لتحديث الوطن، فكان منهم من ظل يصول ويجول في ميادين البحث الاجتماعي محللاً وناقداً، أمثال قاسم أمين الذى خرج علينا بأعمال ساهمت في تمدين المجتمع بمعالجته لأخطر المشكلات الاجتماعية آنذاك التى اعترضت طريق

إصلاحه المتمثلة فى تحرير المرأة، جنباً إلى جنب مع محمد المويلحى ومحمد حسين هيكل اللذين استطاعا أن يوظفا الأدب لخدمة القضايا الاجتماعية التى مست الوطن المصرى، فى محاولة للبحث عن الذات وتحديد هوية وطنية لأبناء الوطن، ومن هنا أعتبر الاثنان من قادة النقد الاجتماعى.

وكان هناك أيضاً من بنى نظريته على جذور راسخة وعلى نظريات قوية فى الأدب والفلسفة وفى التربية الحديثة والنقد الاجتماعى، فكانوا أشبه بتيار متدفق يسرى بأقلامه وكلماته المؤثرة فى جنبات المجتمع المصرى فى محاولة لإصلاح ما عساه أن يكون من أمثال، أحمد حافظ عوض، محمد حلمى زين الدين، إبراهيم رمزى، وأحمد حسن.

ولاشك أن ذلك التيار من الاصلاح الاجتماعى كان وليد تراكمات وإشكاليات سابقة أسفرت عن تفشى العديد من الأمراض الاجتماعية داخل المجتمع المصرى، ومن ثم سعت تلك النخبة مستندة على نشر القيم الأخلاقية وإحداث نوع من الوعى الاجتماعى بهدف تحقيق نهضة إنسانية وأخلاقية للقطر المصرى تتواءم مع النهضة الثقافية والعلمية.

ومع الاحتكاك والانفتاح على الغرب الأوربى تولد المستوى الثالث فى التيار الوطنى الذى عساه أن يكون قد نجح فى استثارة وإيقاظ العقلية المصرية من غفلتها، من خلال إتاحة الفرصة للتعرف على البيئات الأوربية الأخرى من خلال السفر والترحال أو من خلال القراءات الجادة، حيث كرس أصحاب ذلك الاتجاه ثقافتهم الأوربية لخدمة مجتمعهم فتطلعوا إلى محاكاة أوربا ومن ثم عقدوا المقارنات بين الشرق والغرب أمام القارئ المصرى تاركين له الاختيار الأفضل، إيماناً منهم بقيمة الكلمة المكتوبة وبما تؤديه من تقويم وتحديث لأفكار عفى عليها الزمن، حيث تستحضرنا مقولة مشهورة لمحمد حسين هيكل قال فيها : {وليست

حرب الأقلام بأقل مرارة وقسوة من حرب السيوف، فبأقلام كتابها تنصر الأمم مدنيتها . . . وبأقلامهم ترفع أحترام كل فرد منهم لذاته .. وآثار الأقلام هى الخالدة وآثار السيوف الدمار والبوار). (فى أوقات الفراغ، ص ١٢٩).

مثل المستوى الرابع – كما رأينا – تلك الكوكبة المتألقة من الشعراء الذين جادت قريحتهم بأشعار ساند بعضها سعير الحركة الوطنية من أمثال شوقى، ودعم بعضها الآخر نمو فكرة الوطنية المصرية من أمثال حافظ وصبرى ونسيم وعبد المطلب، وخدم البعض الآخر الحركة الوطنية والفكرة الوطنية فى آن واحد من أمثال الغاياتى، وقد ألقينا الضوء على بعض النماذج الشعرية التى جسد خلالها الشعراء مأساة شعبهم، إلى جانب تلك الأبيات الشعرية ذات الصبغة الوطنية والتى أثرت بشكل أو بأخر فى وجدان الشعب المصرى، وإن كانت أمانى تلك الكوكبة التى تناثرت من خلال أشعارهم لم تتحقق فى المستقبل القريب بفضل تلك الحماية التى مثلت ستاراً حديدياً انسدل على تلك الحقبة من تاريخ الوطن المصرى تلك التى كانت حافلة بآيات الوطنية.

أما أهم ما ميز الاتجاه الوطنى فى المستوى الخامس هو جنوحه نحو تحديث الوطن المصرى، حيث شقت تلك النخبة من المصريين بأقلامهم تياراً ثقافياً جديداً أسهم فى تغذية الفكر المصرى الحديث وبلورة فكرة "القومية المصرية".

حيث تبين لنا أن تلك النخبة المصرية غلب عليها المزج بين الثقافتين الشرقية والغربية، وكانوا يعولون أهمية كبيرة على العقل كوسيلة لتغيير العقلية المصرية، رغبة منهم فى تحقيق نهضة الوطن ورفع شأنه، وقد تميزت تلك النخبة بالقدرة على التحليل والمقارنة بحكم إطلاعهم على تجارب الأمم الأوربية، ومن ثم ساهموا فى إرساء قواعد الفكر الليبرالى المصرى بما خلفوه من تراث حول

معانى الوطن والوطنية والليبرالية والديمقراطية .. الخ، بما يمكن إعتباره إنعكاسات للنهضة الأوربية التى تضرب بجذورها لأيام الثورة الفرنسية، فى المقام الأول، وليس نتاجاً صرفاً لهؤلاء الليبراليين، حيث لم يكن ثمة مجتمعاً ناضجاً مستوعباً لكل تلك التغيرات فى وقت قصير كهذا، جنباً إلى جنب خلق وجودهم مناخاً فكرياً أتاح قدراً من الحوار العقلى الذى تغلبت عليه قيم ليبرالية واضحة المعالم.

على أية حال نجح هؤلاء المثقفون فى كسر حاجز العزلة الثقافية والفكرية التى فرضت عليهم بإنفتاحهم على الغرب الأوربى واستطاعوا أن يخلقوا مجالاً يستطيعون من خلاله إحداث نوع من التأثير إلى جانب ذلك التأثر الذى وضح عليهم، حيث تمكنوا من بناء جسور من المعرفة مع الحضارة الأوربية الحديثة، ولكن فى اطار ما يتناسب مع تقاليد وعادات المجتمع المصرى.

وما حاولت طرحه فى هذه الدراسة كان التركيز على أن عملية التحديث التى ذكرناها مراراً وتكراراً عبر مراحل هذه الدراسة - التى تعتبر جزءً لا يتجزأ من نمو فكرة الوطنية المصرية، فقد قدم هؤلاء المثقفون صورة حية لحياة المجتمعات الأوربية سواء الباريسية أو اللندنية أو السويسرية ... الخ، رامين إلى رسم صورة واضحة المعالم لأبناء وطنهم من خلال سنوات متفرقة بدءً برفاعة رافع الطهطاوى ومروراً بعلى باشا مبارك وقاسم أمين ومحمد المويلحى ووصولاً إلى حسن توفيق المصرى وأحمد فتحى زغلول وهيكل وغيرهم، صورة لتلك المجتمعات التى صارت على طريق التمدن الحديث فحققت الكثير لخدمة أوطانهم وبذلك قدموا نموذجاً مثالياً يحتذى به بعد أن تم غربلة كل ما بهرهم فى تلك المجتمعات الغربية، رامين إلى تقديم أفضل ما أنتجه العلم الحديث والعقلية الأوربية فى كافة ميادين الحياة أمام العقل المصرى تطلعاً إلى إقتباس الأفضل

والأنفع بالنسبة لهم بهدف تكوين مجتمع متطور من الطراز الأول، ومن ثم حملوا دعوة التسلح بأدوات العلم الحديث ومنجزاته للوصول إلى مرتبة الغرب الأوربى وأدوات تسلحه، فقد فهموا جيداً أنه لا سبيل للمصرى فى مواجهته للأوربى بدون الألمام بكل مفردات الحضارة الغربية الحديثة.

على أية حال كانت إسهامات ذلك التيار الوطنى بمثابة دعامة من دعامات الوطنية المصرية، فقد اتسع التيار الوطنى للطفى السيد ولفيف كبير من المثقفين والمفكرين المصريين الذين تشبعوا بنفس مبادئه وصاروا على نفس خطاه بحثاً عن صيغة محددة المعالم "للقومية المصرية"، واستطاعوا فى النهاية بعد فترة المخاض العسيرة طوال القرن التاسع عشر أن تتبلور فكرة الوطنية المصرية مع مطلع القرن العشرين إيذاناً بمولد "القومية المصرية".

صفوة القول، شكلت هذه الدراسة فى مجملها رؤية لنشأة ونمو فكرة الوطنية المصرية فى العصر الحديث عبر مراحل من الصعود والهبوط كانت محوراً أساسياً فى تبلور فكرة "القومية المصرية"، فبينما أمكن اعتبار الحملة الفرنسية مرحلة إيقاظ نظرى للوعى القومى لأبناء القطر المصرى – إن جاز التعبير – بينما كان عصر محمد على إيقاظاً عملياً فى بعض جوانبه بفضل تلك المجهودات المشار إليها، أما عصر إسماعيل فقد مثل عصراً ذهبياً لدفع الفكرة الوطنية فى مخيلة قطاع من المصريين وذلك بإكتمال العوامل الحضارية التى قوت التيار الوطنى، وفوق هذا شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر تعايشاً للفكرتين الدينية والوطنية زمناً جنباً إلى جنب ومع سنى الاحتلال البريطانى الأولى كان عدم الاستقرار أيضاً للفكرة الوطنية تلك التى قويت قبيل الحرب العالمية الأولى حيث مثلت على أيدى أحمد لطفى السيد وتياره لتصل بها عبر بحثنا هذا إلى صيغة محددة "للقومية المصرية".

وفى النهاية ليس أيسر على المرء من القول ما الذى أفدناه ونفيده من الحضارة الأوربية الحديثة؟ مع الأخذ فى الاعتبار ألا نجعل من الجزء كل، فمازلنا نحيا بلغة القرن الماضى، مازالت الأمراض الاجتماعية متفشية بين جنبات المجتمع المصرى، فنجد تشابهاً بين واقع الوطن المصرى فى تلك الحقبة التاريخية الغابرة وبين واقعها الآن، وقد سهل استنباط ذلك من خلال تلك الكتابات التى رسمت صورة المجتمع المصرى مع مشارف القرن العشرين، تلك التى ظهرت فى حديث عيسى بن هشام للمويلحى، وزينب لمحمد حسين هيكل وليالى سطيح لحافظ إبراهيم، نجد ثمة شواهد على تأخر المجتمع المصرى وقتئذ ما زالت بيننا إلى اليوم، ولا يسعنا فى النهاية إلا القول أننا فى حاجة إلى إعادة تقويم أنفسنا من جديد لإرساء قواعد العلم والتعلم والثقافة الحديثة من جديد.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا :الوثائق العربية غير المنشورة

ثانيا :الوثائق العربية المنشورة

ثالثا :المذكرات الشخصية المنشورة

رابعا :الدوريات

خامسا :البحوث والمقالات العربية والأجنبية المنشورة وغير المنشورة في مجلات علمية وندوات ثقافية :

أ - العربية

ب - الأجنبية

سادسا :الرسائل الجامعية المنشورة وغير المنشورة

سابعا :المصادر والمراجع العربية والمعربة والأجنبية :-

أ - العربية

ب - المعربة

جـ - الأجنبية

ثامنا :الموسوعات والمعاجم العربية والأجنبية :-

أ - العربية

ب - الأجنبية

أولا : الوثائق العربية غير المنشورة:

(أ) مجموعة دار الوثائق التاريخية القومية بالقاهرة

- محافظ الثورة العرابية

محتوى المحفظة	رقمها	التاريـــخ	رقم الملف
- خطاب من "كتاب أحمد عرابى إلى بسيم بك ممثل السلطان يتضمن انحياز الخديو الى الانكليز واستعداد البلاد كلها للحرب ضد انجلترا"يم	٨	٢٤ يوليو ١٨٨٢	٥٣ ء / ٦
- صورة تلغراف من أحمد عرابى الى بسيم بك يتضمن انحياز درويش باشا ممثل تركيا والخديو بالانكليز ويطعن فى سياستهما	٨	٢٤ يوليو ١٨٨٢	٥٣ ء / ٦
- محضر استجواب أحمد عرابى أمام قومسيون التحقيق بمصر عن التهم المنسوبة اليه فى حركات الثورة	٨	٢٧ ذو القعدة ١٢٩٩ هـ	٥٣ / أ

- مذكرات أحمد عرابي، الجزء الثانى، تحت عنوان : وثائق "مذكرات الزعماء" تحت رقم ح/١٨٥٢٨ / ١٠٢٥٧ / ١٩٥٩ "مخطوطة"

(ب) مجموعة دار المحفوظات العمومية بالقاهرة

- ملفات الموظفين

الأســـــــــم	رقم الملف	محفظة	عين	دولاب
– عبد الله نديم	١٧٩٣٠	٥٩٩	١	٢٩
– قاسم أمين	٢٣٦١٢	٩٤٢	٢	٤٦
– محمد عبده	٢٢٦٧٩	٨٧٣	٤	٤٢
– ميخائيل عبد السيد	٢١٥٩٨	٧٩٨	١	٣٩

* * *

ثانيا: الوثائق العربية المنشورة

- أوراق محمد فريد، المراسلات، المجلد الثاني، الجزء الأول، تحقيق، مصطفي النحاس جبر، اصدار مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦
- أوراق مصطفي كامل، الخطب، إشراف وتحقيق، يواقيم رزق مرقص (د.)، إصدار، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤
- أوراق مصطفي كامل، المقالات، الكتاب الثالث، أشراف وتحقيق، يواقيم رزق مرقص (د.) إصدار، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣
- تقرير أحمد عرابى باشا على الجيش المصرى، مطبعة الجامعة بمصر (سليم حبالين) ١٨٨٢م- تقرير علي تاريخ الأدبيات العربية، مقدم لصاحب الدولة الأمير أحمد فؤاد باشا، رئيس مجلس الجامعة المصرية من صالح بمصلحة الري بنظارة الأشغال العمومية، ١٣٢٧ هـ، ١٩٠٩ م
- تقرير كرومر عن المالية والإدارة والحالة العمومية فى مصر والسودان ١٩٠٦ ترجم فى إدارة المقطم وطبع فى مطبعته، ١٩٠٧
- خطابة بطل الوطنية المرحوم مصطفى كامل باشا، القسم المجانى بكلية مصطفى كامل، د. ت.
- رسائل تاريخية من مصطفي كامل إلي فؤاد سليم الحجازي، قدم لها، عبد العزيز حافظ دنيا، دار النهضة العربية، ١٩٦٩
- القضية المصرية، ترجمة تقرير الحزب الوطني لمؤتمر السلام، رفع أصل هذا التقرير باللغة الفرنسية إلي الدول بواسطة حضرات قناصلها بمصر، د.ت.
- مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول، المنعقد بهليوبوليس (من ضواحى القاهرة) المطبعة الاميرية، بمصر ١٩١١

- مجموعة الوثائق السياسية، المركز الدولي لمصر والسودان وقناة السويس، عرض وتعليق، راشد البرواي، ج١ ، ط١، النهضة المصرية ١٩٥٢
- مراسلات المنفى بين عرابي وأبو نضارة، عرض وتعليق، أحمد عبد الرحيم مصطفي، الهلال، عدد ٣، ١٩٧١
- نص مسرحي مجهول ليعقوب صنوع ضد الخديو اسماعيل، عرض وتعليق، فريدة مرعي، الهلال، عدد ٦، ١٩٦٩
- نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر، عرض وتعليق، محمد فؤاد شكري ومحمد أنيس ومحمد رجب حراز، الأنجلو المصرية، القاهرة، ديمت- وثائق تاريخية عن الأحزاب والتنظيمات السياسية في مصر، ملف الطليعة، فبراير ١٩٦٥
- وثائق جديدة وخطيرة عن الثورة العرابية، عرض وتعليق، فريدة مرعي، الهلال، عدد ٣، ١٩٧١
- وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، عرض وتعليق، عبد العزيز الشناوي وجلال يحيي، دار المعارف، ١٩٦٩
- وثيقة دستورية من عصر محمد علي، عرض وتعليق، فتحي رضوان، الهلال، عدد ٩ سبتمبر ١٩٦٩.

***

ثالثاً: المذكرات الشخصية المنشورة

- أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ١٨٧٣ - ١٨٩٢ ، ج١، ط١، القاهرة ١٩٣٤
- أحمد عرابي : كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ١٨٨١ - ١٨٨٢ ج١ مطبعة مصر، القاهرة د.ت
- أحمد لطفي السيد : قصة حياتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
- سلامه موسي : تربية سلامه موسي، سيرة ذاتية، القاهرة، د.ت
- عباس حلمي الثاني (خديو) : عهدي ١٨٩٢ - ١٩١٤، ترجمة، جلال يحيي، مراجعة اسحق عبيد، تقديم، أحمد عبد الرحيم مصطفي، ط١، دار الشروق، ١٩٩٣
- محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية، ج١، ١٩١٢ - ١٩٣٧، النهضة المصرية، ١٩٥١

- محمد عبده : مذكرات الأمام محمد عبده، عرض وتعليق، طاهر الطناحي، دار الهلال، د.ت
- محمد على علوبة (باشا): ذكريات اجتماعية وسياسية، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.
- محمد فريد : مذكرات، القسم الأول، تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية، حققه وقدمه، رءوف عباس حامد، القاهرة، ١٩٧٥
- محمد فريد : مذكراتي بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩، سلسلة المذكرات التاريخية، إصدار مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨
- هدي شعراوي : مذكرات، رائدة المرأة العربية الحديثة، كتاب الهلال، عدد ٣٦٩، ١٩٨١

* * *

رابعاً: الدوريـــات

- أبو نظارة زرقاء ، ١٨٧٩ (٤، ٧، ١٥)
- أبو نظارة مصر للمصريين ، ١٨٨٩ (٥)
- الأثنين ، ١٩٥١ (٩٠٦)
- الأجيال ، ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ (١١، ٣١، ٣٩، ٤٩، ٥٤)
- الأخـبـــار ، ١٨٩٨ (٥٢٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٨) ، ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ (١٣١، ٢٣٩، ٢٥٢، ٢٥، ٢٩)
- الأستاذ ، ١٨٩٢ ، ١٨٩٣ (ج٢،ج٤،ج٨،ج١١ من السنة الاولي،ج ٢)
- الأعتدال المصري ، ١٩٠٥ (١)
- الأفـكـار ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٥ ، ١٩٠٦، ١٩١٢، ١٩١٣ (١٢، ٣٨، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٧٢، ٣٠٠، ٧٤٩، ٩٣٩-٩٤٣، ٩٦٧-٩٧٠)
- الأكسبريس، ١٩٠٨ (العدد ممزق)
- الأهـــالـــى ، ١٩١٠ (١، ٥، ٤٤)، ١٩١١، ١٩١٣ ، ١٣٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٢، ٨٢٦)

- البلاغ المصري ، ١٩١٠ (١٢٤، ١٦٩)
- البيان ، ١٨٩٧ (ج١ من السنة الأولي)
- التجارة ، ١٨٧٩ (٤، ١٧، ٦٧، ٧٥، ٩١، ١١٠، ١١١)
- التقدم ، ١٩٠٧ (٩)
- التمثيل ، ١٩٠٤ (١١٣)
- التمدن ، ١٩٠٣ (٨١، ٨٢)
- التيمس المصري ، ١٩٠٨ (١)
- الجامعة ، ١٩٠٦ ، ١٩٠٨ (ج٣، عدد مايو)
- الجامعة العثمانية ، ١٨٩٩ (ج٧)
- الجـــريدة ، ١٩٠٧ (١، ٢، ٣، ١٠، ١٥، ١٣١، ٢١١)، ١٩٠٩ (٧٦، ٧٨٤، ٧٩١)، ١٩١٠ (٨٥٢، ٨٥٩، ٩٠٢)، ١٩١٢، ١٩١٣، ١٩١٤ (١٦٠٥، ١٦٦٥، ١٦٦٦، ١٦٦٧، ١٧٤٤، ٢٢٨١، ٢٢٨٦)
- الحرية ، ١٩٠٥ (١٢٠)
- الدستور ، ١٩٠٨ (١١٨)
- الرسالة ، ١٩٣٩
- روضة المدارس ، ١٢٨٧ هـ (١، ٣، ٦، ١٦)
- السياسة ، ١٩٠٤(٦)
- الصباح ، ١٩٠٤ (١٧٤)
- الـظـاهـر ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ (٤٣، ٥١، ٥٤، ٣٨٣، ٤٠٢) ، ١٩٠٧. ١٩٠٨، (٩٦٣، ١٢٩٧، ١٣٠٧)
- العلم المصري ١٨٩٤، ١٨٩٨ (٣٠، ٣٩)
- عين شمس ،١٦١٧، قبطية (١، ٤، ٧)
الفلاح ، ١٨٨٦، ١٨٨٧(٣، ٨٤، ٨٩)، ١٨٩١ - ١٩٠٠ سنوات متفرقة (٢٨٢، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠٤، ٣٤٢، ٤١٣، ٤١٥ ، ٤٢٣، ٧١٦، ٩٣٠)، ١٨٩٢، ١٨٩٣، ١٨٩، ١٨٩٧، ١٩٠.
- كشف الخبايا ، ١٩٠٧ (٢٧)

- اللواء ، ١٩٠٧، ١٩٠٩ (٢٤٧٥)
- المأمون ، ١٩٠٦ (٢٨٦)
- مجلة اللواء ، ١٩٠٠ - ١٩٠٧ (سنوات متفرقة)
- مصر ، ١٨٩٥، ١٨٩٦(١ ، ٢ ، ٤٨)، ١٨٩٩(١٠٠٠، ١٠٢٥، ١٠٢٩، ١٠٤١،
١١٣٧) ١٩٠٦ (٣١٠١، ٣١٠٢، ٣٠٤١) ١٩٠٧ (٣٢٩٧، ٣٣٠٣،
٣٣١١) ١٩٠٨ (٣٥٧٢، ٣٥٨٣، ٣٦٠٩، ٣٧٧٥، ٣٧٨٠، ٧٩٠،
٣٧٩٢) ١٩٠٩ (٤٠١٢، ٤٠١٦، ٤٠٤٢، ٤٠٧٦، ٤٠٩٧، ٤١٤٥)
١٩١٠ (٤٢١٨ ، ٤٣٨٦) ١٩١١ (٤٦٧٨، ٤٧١٦) ١٩١٢ (٤٧٧٦)
- المعتصم، ١٩٠٦، (٣١٦)
- المعرض ، ١٩٠٨ (١١١)
- المفتاح ، ١٩٠٩، ١٩١٠ (ج٨، ج١)
- المقتطف ، ١٨٩٣ (م١٨ ، ج٩ ، ١٠ ، ١١) ١٩٠٧ (م٣٢، ج٤)
- المقطم ، ١٨٩٢ (٩٥٠، ٩٦٢) ١٨٩٩ (٢٩٩١) ١٩٠٦(٥٢١٤) ١٩٠٨(٥٨٣٨)
١٩٠٩، (٦٠١٢) ١٩٢٣ (١٠٥٦٠)
- المنار ، ١٣١٦٠ هـ (١٣، ١٥) ١٣١٠ هـ ، ١٩٠٥ (٥١) ١٩١٣ ١٩١٤(م١٦/ج١٢،
م١٧/ج٧، م١٧/ج٧)
- المنصف ، ١٣٢١ هـ (مجلد تحت عنوان مجموعة جرائد لسنة ١٩٠٠-١٩٠٤)
- المؤيد ،١٨٩٢، ١٨٩٣ (٦٠٨ ، ٦١٢) ١٩٠٨(٥٥١١، ٥٤٦٣، ٥٤٦٤، ٥٤٧٧،
٥٥٢٨) ١٩١٠(٥٥٣٤ ، ٥٥٣٦ ٥٥٤٤ ، ٥٥٤٩ ، ٥٥٥١) ١٩١١
٦١١٠ ، ٦٢١٥) ١٩١٣ (٧٠٣٨ ٧٠٥٦ ، ٧٠٩٩ ، ٧١٦٢)
- الهلال ، ١٨٩٩ (٣٣، ج٩)
- وادي النيل ، ١٩٠٨(٥ ، ٢٨ ، ٨٦ ، ٩٨) ١٩٠٩ (٣٤٢) ١٩١٢(١١٦٧)
- الوطن ، ١٨٨٦، ١٨٨٧ (٤٤٣ ، ٤٩٨ ، ٥٥٦ ، ٥٧٥) ١٨٩٢(١١٩٤) ١٩٠٧
(٣٧٢٩ ، ٣٧٩٥ ، ٣٨٠٠) ١٩٠٨ (٤٠٣٠ ، ٤٠٣٤ ، ٤٠٠٨، ٤٠٦٣، ،
٤٠٧٩ ، ٤٠٨٦)١٩١٠(٤٣٨٥ ، ٤٤٥١ ، ٤٥٧١ ، ٤٦٣٢، ٤٦٣٤)
١٩١٣(٥٥٥٦)
- الوطنية ، ١٩١١ (١٨) ١٩١٣ (٦٨، ٧٠)

***

خامساً: البحوث والمقالات العربية والأجنبية المنشورة وغير المنشورة في مجلات علمية وندوات ثقافية

أ - العربيـــة

- إبراهيم عبد الرحمن : رواية زينب ونشأة القصة الفنيـة في الأدب المصري الحديث، (بحث ضمن، ندوة محمد حسين هيكل وجهود الأستنارة المصرية، إصدار، المجلس الأعلي للثقافة، القاهرة ١٤ إلي ١٧ ديسمبر) ١٩٩٦
- أحمد زكريا الشلّق : العلمانية والفكر المصري الحديث، (بحث مستخرج من المجلة التاريخية المصرية، عدد ٣٠/٣١، ١٩٨٣ - ١٩٨٤)
- ....: الجامعة الإسلامية والقومية المصرية في فكر أحمد لطفي السيد، (بحث مستخرج من حولية كلية الإنسانيات والعلوم الأجتماعية، جامعة قطر، عدد ١، ١٩٨٧)
- .... : الشيخ مصطفي عبد الرازق ١٨٨٨ - ١٩٤٧ وآراؤه الأصلاحية والفلسفية، (بحث غير منشور، د.ت)
- أحمد السويسي : بداية الوعي القومي في القرن التاسع عشر، الخلفية السياسية والفكرة لمشروع دولة محمد علي، (بحث في، مجلة الوحدة، عدد ٤٢، مارس ١٩٨٨)
- أحمد شفيق : يقظة الشعور القومي منذ اوائل القرن التاسع عشر إلي الآن، (بحث في، مجلة الهلال، ج٦، ابريل ١٩٤٠)
- أحمد عبد الرحيم مصطفي : شوقي والخلافة، (مقالة في، مجلة الهلال، عدد نوفمبر ١٩٦٨)
- ....: حادثة طابا ١٩٠٦ وتخطيط حدود مصر الشرقية، (مقالة في، مجلة الهلال، عدد يونية ١٩٧١).
- أحمد عزت عبد الكريم : رفاعة مؤرخا، (بحث ضمن، ندوة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ١٨٠١ - ١٨٧٣، إصدار كلية الألسن جامعة عين شمس في الفترة من ١٨-٢١ ديسمبر ١٩٧٦، القاهرة ١٩٨٤)
- أحمد يوسف : رؤية جديدة للمعلم يعقوب، (مقالة في، مجلة القاهرة، إبريل ١٩٩٥)
- أمين سعيد : الاتجاهات السياسية خلال ٦٠ سنة في الشرق العربي، (مقالة في، مجلة المقتطف مجلد ٨٨، مايو ١٩٣٦)
- أنور لوقا : مسرح يعقوب صنوع، (مقالة في مجلة المجلة، عدد ٥١، مارس ١٩٦١)

- پيترجران : بدء ظهور الليبرالية المصرية، (مقالة في، مجلة الطليعة، عدد ٨، أغسطس ١٩٧٢)
- جلال السيد : الثورة الفرنسية والفكر العربي، (مقالة في، الهلال، عدد ٢٧ يوليو ١٩٨٩)
- جمال الدين الشيال : المؤرخون السوريون في مصر في القرن التاسع عشر، (مقالة في، المجلة، عد ٢٣، نوفمبر ١٩٥٨)
- حامد طاهر : دار العلوم وأزدواجية التعليم، (بحث في، ندوة علي مبارك إصدار المجلس الأعلي للثقافة، نوفمبر ١٩٩٣)
- حسن عبد العزيز : حركة الفكر القومي في مصر من حكم محمد علي إلي الحرب العالمية الثانية، (مقال في، الطليعة، عدد ١، يناير ١٩٦٧)
- رجاء النقاش : صفحات من أدب المقاومة، (مقال في، الهلال، عدد ٢٨ أغسطس ١٩٦٧)
- رفعت السعيد : وعادت الليبرالية تيارا مصريا، (مقال في الطليعة، عدد ٨ أغسطس ١٩٧٢)
- رءوف عباس حامد : الدور الوطني للأزهر، (مقال في، جريدة الأهرام، عدد ٣٥١٦٨ ، ٢٧ مارس ١٩٨٣)
- ....: مفهوم الليبرالية عند هيكل، (بحث ضمن، ندوة محمد حسين هيكل وجهود الأستنارة المصرية، إصدار المجلس الأعلي للثقافة، القاهرة من ١٤ الي ١٧ ديسمبر ١٩٩٦)
- ....: أحمد لطفي السيد الأب الروحي لليبرالية المصرية، (مقالة في الهلال، عدد ٩، سبتمبر ١٩٩٥)
- سامي بدراوي : الشيخ حسن العطار رائد البعث الأدبي في مصر الحديثة، (مقالة في، المجلة عدد ٩٩، مارس ١٩٦٥)
- سلامة موسي : تاريخ الوطنية المصرية نشوؤها وتطورها ، (مقالة في، الهلال، عدد ٣٦، ج٣ يناير ١٩٢٨)
- السيد فهمي الشناوي : صالون ناظلي هانم، (مقالة في الهلال، عدد ٢٩ سبتمبر ١٩٨٢)
- ....: شوقي ودوره السياسي، (مقالة في، الهلال، عدد ١٠ ،أكتوبر ١٩٨٢)

- شبلي بدراز : علي مبارك رائد التعليم الشعبي ١٨٢٣ - ١٨٩٣، (بحث ضمن، علي مبارك رائد التحديث المصري، الذكري المائة، إصدار المجلس الأعلي للثقافة، ١٩٩٣)
- صالح جودت : شوقي أمير الشعراء، (مقالة في، الهلال، عدد ٢٩ سبتمبر ١٩٦٦)-
- صلاح العقاد : الفكرة العربية في مصر (بحث مستخرج من الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية، (١٩٧٢-١٩٧٣)، القاهرة ١٩٧٣)
- صلاح عيسي : الثورة ومسألة السلطة ١١ .١٣، (مقالتان في، الكاتب، عدد ١٣٣، في ابرايل ١٩٧٢، ١٣٥، في يونيه ١٩٧٢)
- طارق البشري : الأطار التاريخي الحديث لموضوع الأقباط والوحدة العربية، (مقال في، مجلة المستقبل العربي، عدد ٣٠، أغسطس ١٩٨١)
-..............: مصر الحديثة بين أحمد والمسيح، (مقالة في، الكاتب، عدد ١١١، يونيو ١٩٧٠)
- طلعت إسماعيل رمضان : أديب اسحق وفكره السياسي، (بحث في، مجلة كلية التربية جامعة المنصورة عدد ٢، ١٩٧٨)
- عبد الحميد حمدي : رجال التاريخ الحديث في مصر ٣، محمود باشا سامي البارودي، (مقالة في السياسة الأسبوعية، عدد ٦٨، ٢٥ يونيه ١٩٢٧)
- عبد الحميد حواس : وعي التحرير من الفولكلور إلي الثقافة الوطنية، (بحث ضمن، ندوة عبد الله النديم)
- عبد السلام محمد عبد الحميد عامر : الجمعية الخيرية الأسلامية منذ تأسيسها حتي الحرب العالمية الثانية، من ١٨٩٢ - ١٩٣٩، (بحث في، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٣٨، ١٩٩١- ١٩٩٥)
- عبد المنعم إبراهيم الجميعي : موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية، (بحث في، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٦، ١٩٧٩)
-......................: التنافس علي الخديوية المصرية بين الأمير حليم والخديو توفيق، (بحث في، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٨-٢٩، ١٩٨٣)
-......................: صالون الأميرة نازلي فاضل، (بحث في، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٣٨، ١٩٩١ - ١٩٩٥)

- عثمان أمين : أحمد شوقي بين الخديو عباس ومحمد عبده، (مقالة في، الهلال، عدد ١١ نوفمبر ١٩٦٨)
- عثمان البيلي : تطور الصحافة المصرية، (مقالة في عالم الفكر، عدد ١٤)
- عزت قرني : العدالة والحرية عند جمال الدين الأفغاني، (بحث في، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٦، ١٩٧٩)
- علي بركات : دور الطلبة المصريين في الحركة الوطنية قبل الحرب الأولي ١٩٠٨-١٩١٤، (بحث مستخرج من، دورية كلية الآداب، جامعة المنصورة، عدد ١٠، مايو ١٩٧٩)
- فاروق أبو زيد : أول يوتوبيا في الفكر العربي الحديث، (مقال في، مجلة قضايا عربية، عدد٢ آيار ١٩٧٤)
- فرح أنطون : قاسم أمين وخطبته الأخيرة قبل ثلاثة أيام من وفاته، (مقالة فى الجامعة، مايو ١٩٠٨)
- فيليب سانياك : أصل استقلال مصر ومحمد علي، (مقالة في، السياسة الأسبوعية، عدد٦٢، ١٤ مايو ١٩٢٧)
- قاسم أمين : قطرات، (مقالة في، الهلال، عدد ٤٢، ج١، نوفمبر ١٩٣٣)
- لطيفة محمد سالم : مساعي الأمير حليم والخديو اسماعيل من أجل عرش مصر أثناء الثورة العرابية، (بحث في، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٣٠/٣١، ١٩٨٣ - ١٩٨٤)
- لويس عوض : قصة العلمانية في مصر (١)، (مقالة في، المصور، عدد ٣٠٩٠، ديسمبر ١٩٨٣)
- محمد أنيس : الحزب الجمهوري المصري ١٩٠٧ - ١٩٠٨، (مقالة في الكاتب، عدد ١٠٥، ديسمبر ١٩٦٩)
- محمد جمال الدين مختار : أحمد كمال العالم الأثري الأول في مصر ، (بحث في، المجلة التاريخية المصرية مجلد ١٢، ١٩٦١ - ١٩٦٥)
- محمد خلف الله أحمد : تطور اللغة العربية منذ بداية العصر الحديث إلي مرحلة إنشاء المجامع اللغوية (بحث في، مجلة البحوث والدراسات العربية، إصدار معهد البحوث والدراسات العربية، عدد ٥، يونيه ١٩٧٤)

- محمد الصادق حسين : رجال التاريخ الحديث في مصر ٤- علي باشا مبارك، (مقالة في السياسة الأسبوعية، عدد ٥٧، ٩ إبريل ١٩٢٧)
- ....: رجال التاريخ الحديث في مصر، رفاعة بك، (مقالة في، السياسة الأسبوعية، عدد ٦٤، ٢٨ مايو ١٩٢٧)
- محمد عبد الغني حسن : طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي، (مقالة في، مجلة تراث الإنسانية مجلد ٨، إصدار الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د.ت)
- محمد عمارة : موقظ الشرق وفيلسوف الاسلام جمال الدين الأفغاني، (مقالة في، مجلة القاهرة، عدد ٦٦، ١٥ ديسمبر ١٩٨٦)
- ....: موقع الفكر الأسلامي الحديث من الاتجاه الليبرالي، (مقالة في، الطليعة، عدد ٨، أغسطس ١٩٧٢)
- محمد كمال يحيي : المسألة الطائفية في مصر بين الولاء الوطني والأنتماء الديني ١٩١٠-١٩١٢(بحث في، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٨-٢٩، ١٩٨١-١٩٨٢)
- محمد محمود السروجي : الفكر السياسي لمصطفي كامل، (بحث ندوة مصطفي كامل، عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، بمناسبة مرور مائة عام على مولده، القاهرة ١٩٧٦)
- محمود الشرقاوى : علي مبارك والحضارة الأوربية، (مقالة في، المجلة، عدد ٣٧، يناير ١٩٦٠)
- محمود عزمي : رجال التاريخ الحديث في مصر، محمد سعيد باشا، (مقالة في، السياسة الأسبوعية، عدد ١٠٠، فبراير ١٩٢٨)
- مسعود ضاهر : دور اللبنانين في الصحافة المصرية إبان الأحتلال البريطاني، (مقالة في، مجلة الفكر العربي، عدد ٥٠ مارس ١٩٨٨)
- معن زيادة : المعالم الأولي للمشروع النهضوي العربي في القرن التاسع عشر، (مقالة في، مجلة الوحدة، عدد ٣١/٣٢، ابريل مايو ١٩٨٧)
- يواقيم رزق مرقص : دراسة حول قضية كتاب "وطنيتي" للشيخ علي الغاياتي، (بحث في،، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٣٠/٣١/ ١٩٨٣-١٩٨٤)

- يونان لبيب رزق : الجبرتي والشخصية المصرية، (بحث في، ندوة عبد الرحمن الجبرتي إصدار، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٧٦)

-..............: مصطفي كامل وتأسيس الحزب الوطني، (بحث في ندوة مصطفي كامل، عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور مائه عام علي مولده القاهرة ١٩٧٦)

-..............: وزارة الخارجية المصرية بين الألغاء ١٩١٤ والاعادة ١٩٢٢، (بحث في، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٣، ١٩٧٦)

-..............: رفاعة الطهطاوي وقضايا عصره، (بحث في، ندوة رفاعة رافع الطهطاوي إصدار كلية الألسن، جامعة عين شمس، في الفترة من ١٨-٢١ ديسمبر ١٩٧٦ القاهرة، ١٩٨٤)

-..............: الخيارات الدينية للأحزاب السياسية في مصر، (مقالة في، مجلة فكر للدراسات والأبحاث، عدد٨، ديسمبر ١٩٨٥)

-..............: عصر النديم ، (بحث في، ندوة الأحتفال بذكري مرور مائة عام علي وفاة عبد الله النديم إصدار المجلس الأعلي للثقافة، ٢٧-٢٩ مايو ١٩٩٥)

-..............: الجنسية مصري "الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، ١١٢"، (مقالة في جريدة الأهرام، عدد ٣٩٨٤٠، ٤ يناير ١٩٩٦)

***

ب - الأجنبية

- Bosworth, C.E., : Al- Jabarti and The frankish Archaeologists, essay In, The International Journal of Middle East Studies, vol. 8, Abril, 1977

- Gendzier, Iren : James Sanua and Egyptian Nationalism, essay In, The Middle East Journal, vol. 15, 1961

- Ghali, Boutros, Mirrit : Essay The Egyptian National consciousness, essay In, The Middle East Journal, vol. 32, winter, 1978

- Gherson, Randolph : The Anglo-Egyptian Question, essay In,The Middle East Journal, vol. 7, Autumn, 1953

- Gran, peter : Looking for The Real Tahtawi, essay In, Al-Ahram weekly, October, 1994

- Hamed, Raouf, Abbas : The copts Under British Rule In Egypt, 1882 - 1914, essay In, Egyptian Historical Review, vol. 26, 1979

- Hourani, Albert : The Englo-Egyptian Agreement, Some causes and Implications, essay In, The Middle East Journal, vol. 9. 1955

- Silvera, Alain : The first Egyptian Student Mission To france Under Muhammad Ali, essay In, The Middle East Journal, vol.2 May. 1980

* * *

سادسا: الرسائل الجامعية المنشورة وغير المنشورة

- إبراهيم الدسوقي عبد الله المسلمي : صحافة الحزب الوطني ١٩٠٠-١٩٥٣، رسالة دكتوراة، كلية الأعلام جامعة القاهرة، ١٩٨٥ (غير منشورة)

- إبراهيم فؤاد عبد العزيز : ظهور طبقة المثقفين المصريين في مصر ودورها في الحياة السياسية من ١٨٦٣ حتي نهاية ثورة ١٩١٩، رسالة دكتوراة ،كلية الآداب، جامعة طنطا، ١٩٨٩ (غير منشورة)

- أحمد فهد بركات الشرابكة : حركه الجامعة الأسلامية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتي عام ١٩٠٩، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٨٣ (منشورة)

- حلمي محروس إسماعيل : دراسات في الحالة الأجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧ (غير منشورة)

- زكريا زكريا الرفاعي : الدولة عند رفاعة الطهطاوي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩١ (غير منشورة)
- صالح رمضان محمود : دراسات عن الحياة الأجتماعية في مصر في عصر الخديو إسماعيل، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٥ (غير منشورة)
- عبد العليم إبراهيم عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية في إفريقيا في عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٨١ (غير منشورة)
- عبد الغفار محمود السيد : الحركة الوطنية في عهد الدون جورست ١٩٠٧-١٩١١، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٠ (غير منشورة)
- ....: دور العناصر التركية السياسي والأجتماعي في مصر خلال القرن التاسع عشر رسالة دكتوراة، كلية البنات جامعة عين شمس، ١٩٩٠ (غير منشورة)
- علي إبراهيم عبد اللطيف : علاقة مصر بتركيا ١٨٨٢ - ١٩١٤، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٤، (غير منشورة)
- علي السيد إبراهيم عجوة : فن الدعاية والأعلام عند مصطفي كامل، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٠ (غير منشورة)
- فاروق محمد أبو زيد : تطور الفكر الليبرالي ومفهومه في الصحافة المصرية ١٨٤٢-١٨٨٢، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، د.ت (غير منشورة)
- فاطمة علم الدين عبد الواحد : الريف المصري في عهد الأحتلال البريطاني ١٨٨٢-١٩١٤، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٧٦ (غير منشورة)
- محمد سعد السيد أبو عامود : الحزب الوطني في الحياة السياسية المصرية من ١٩٠٠-١٩٢٣، رسالة ماجستير، كلية الأقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة ١٩٨١ (غير منشورة)

- محمد صلاح الدين حلمي : حياة الأتراك الأجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٦٠ (غير منشورة)

- محمد عبد الوهاب سيد أحمد : حزب الأصلاح علي المبادئ الدستورية ١٩٠٧-١٩٢٤، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٠، (غير منشورة)

- مني جعفر ولي : الوعي القومي عند مؤرخي القرن التاسع عشر في المرحلة التاريخية من أواخر القرن الثامن عشر وحتي دخول الأنجليز مصر عام ١٨٨٢، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ (غير منشورة)

- نبيل عبد الحميد سيد أحمد : الأجانب وأثرهم في المجتمع المصري من سنة ١٨٨٢-١٩٢٢، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، د.ت (غير منشورة)

- نجوي إبراهيم فؤاد عانوس : مسرح يعقوب صنوع، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٠ (غيرمنشورة)

- وائل ماهر عارف قنديل : معالجة الصحافة المصرية لأفكار الحقبة من سنة ١٨٧٦ حتي ١٩٠٠ وقضاياها (بالتطبيق علي المقتطف والهلال)، رسالة ماجستير، كلية الأعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٤ (غير منشورة)

***

سابعاً: المصادر والمراجع العربية والمعربة والاجنبية

أ- العربيــــة

- إبراهيم رمزي : إياك ، مطبعة الهداية، ١٩١٢

- ....: عليك، مطبعة محمد محمد مطر، بمصر، ١٩١٤

- إبراهيم عبد الله المسلمي : علي الغاياتي من وطنيتي إلي منبر الشرق، أعلام العرب (١٣٦)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩

- إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ١٨٨٢-١٩٤٢، القاهرة ١٩٤٦

-............: تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨-١٩٥١، ط٣، القاهرة، د.ت

-............: أبو نظارة أمام الصحافة الفكاهة المصورة وزعيم المسرح في مصر ١٨٣٩-١٩١٢، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٥٣

-إبراهيم عبده : جريدة الأهرام تاريخ وفن، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٤

- ابن خلدون ساطع الحصري : آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤

- أبو سيف يوسف : الأقباط والقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧

- أحمد أمين : زعماء الأصلاح في العصر الحديث، القاهرة ١٩٤٨

- أحمد بدوي : رفاعة الطهطاوي ، ط٢، القاهرة، د.ت

- أحمد حافظ عوض : كلمات في سبيل الحياة، جمعها وطبعها، سيد كامل، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩٠٤

- أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر، ج٣، ديمت- أحمد حسين الصاوي : المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة، ط١، القاهرة، ١٩٨٦

- أحمد رشاد : مصطفي كامل حياته وكفاحه، ط١، بمصر ١٩٥٨

- أحمد زكريا الشلق : حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٧٩

-..............: رؤية في تحديث الفكر المصري "حسين المرصفي" وكتابه "رسالة الكلم الثمان، سلسلة مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤

-..............: رؤية في تحديث الفكر المصري "أحمد فتحي زغلول وقضية التغريب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧

- أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية، ج١، تمهيد، ١٩٢٦

-............: أعمالي بعد مذكراتي، القاهرة، ١٩٤١

- أحمد شوقي : أجمل ما كتب أمير الشعراء، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦

- أحمد صادق موسي : تاريخ الدين المصري العام المالي والسياسي، ط١، ١٩٤٤

- أحمد عبد الرحيم مصطفي : مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦- ١٨٨٢، دار المعارف بمصر، د.ت

-..................: تطور الفكر السياسي في مصر الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة، ١٩٧٣

-..................: علاقات مصر بتركيا في في عهد الخديو اسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩، دار المعارف، ١٩٦٧

- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عهد محمد علي، النهضة المصرية، ١٩٣٨

- أحمد فتحي زغلول (باشا) : الآثار الفتحية، خواطر في العلم والأدب الاجتماع، عني بجمع شواردها عبد العال أحمد حمدان، د.ت

- أحمد لطفي السيد : مبادئ في السياسة والأدب والأجتماع، تقديم وتعليق طاهر الطناحي، د.ت

-..................: الحالة الحاضرة، مطبعة الجريدة بمصر، ١٩٠٨

-..................:صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر من مارس ١٩٠٧ إلي مارس ١٩٠٩، مختارات سياسية، ١٩٤٦

-..................: تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، ط١، دار المعارف، ١٩٦٠

- أحمد محمد الحوفي : وطنية شوقي، دراسة أدبية تاريخية مقارنة، القاهرة، ١٩٥٥

- أحمد نسيم : وطنيات، ج٢، مصر، ١٩١٠

- أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر، من اوائل القرن التاسع عشر الي قيام الحرب الكبري الثانية، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧١

- أخنوخ فانوس : الأرجوزة العصرية، مطبعة الوطن الجديدة، مصر، أكتوبر ١٩٠٤

- أديب اسحق : الدرر، بيروت ١٩٠٩

-..............: منتخبات، ١٩١٧

- أمين حمدى : الحياة القومية، ج٢، بور سعيد، مايو ١٩١٤

-..............: فترة الالتقاط والتصوير الشمسي لبلاد القطر المصري، ج١، مطبعة جريدة الصباح د.ت

- أمين حمدى : لغة الفؤاد أو صور الشعر في روضة البحرين، د .ت
- أمين سامي باشا: تقويم النيل (١٨٧٣ - ١٨٧٩)، م٣، ج٣، دار الكتب المصرية، ١٩٣٦
- أنور عبد الملك : نهضة مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣
- أنيس صايغ : الفكرة العربية في مصر، بيروت ١٩٥٩
- البرت شقير : الدستور المصري والحكم النيابي في مصر وتاريخ ذلك من سنة ١٨٦٦ إلي الآن، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر، ١٩٢٤
- توفيق حامد المرعشلي : صفحات في تاريخ مصر، ط٢، ١٩٢٩
- توفيق علي برو : العرب والترك في العهد الدستوري، العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٤، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية ١٩٦١
- جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلي عام ١٩٢٢، القاهرة ١٩٥١
- جمال حمدان : شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، ج١، ج٤، عالم الكتاب، د.ت
- جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده : العروة الوثقي، ط١، القاهرة ١٩٥٧
- جمال الدين الشيال : رفاعة رافع الطهطاوي، ١٨٠١ - ١٨٧٣، نوابغ الفكر العربي (٢٤)، دار المعارف بمصر، د.ت
- الجمعية الملكية للدراسات التاريخية : ذكري البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨ - ١٩٤٨، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٠
- حافظ إبراهيم : ليالي سطيح، كتاب الهلال، عدد ١٠٠، يوليو ١٩٥٩
- حسين فوزي النجار: لطفي السيد والشخصية المصرية، القاهرة ١٩٦٣
-..............: أحمد عرابي مصر للمصريين، أعلام العرب (١٤١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢
- حسين المرصفي : الكلم الثمان، المطبعة الشرقية ١٢٩٨ هـ
- خليل صابات ، سامي عزيز، يونان لبيب رزق : حرية الصحافة في مصر ١٧٩٨ - ١٩٢٤، القاهرة ١٩٧٢
- ذوقان قرقوط : تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥ - ١٩٣٦، بيروت، د.ت

- رحاب خضر عكاوي : جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق ورسالته في الرد علي الدهريين، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٣

- رفاعة رافع الطهطاوي : التعريبات الشافية لمريد الجغرافية، دار الطباعة الخديوية، ١٢٥٤هـ

-..................: مقدمة وطنية مصرية، مطبعة بولاق، ١٢٨٣ هـ

-..................: المرشد الأمين للبنات والبنين، ط١، ١٢٨٩ هـ

-..................: مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، ط٢، القاهرة ١٩١٢

-..................: تخليص الابريز في تلخيص باريز، ج٣، طبعة الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣

- رفعت السعيد : الأساس الأجتماعي للثورة العرابية، كتب قومية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧

-...............: الأعمال الكاملة، م١، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧

- رفيق حبيب ومحمد عفيفي : تاريخ الكنيسة المصرية، ط١، الدار العربية للطباعة والنشر، ١٩٩٤

- رمزي تادرس : الأقباط في القرن العشرين، ج٣، طبع جريدة مصر، ١٩١٠

- رياض سوريال عطية : المجتمع القبطي في مصر في القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٨١

- رئيف خوري : الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، دار المكشوف، لبنان ١٩٤٣

- زاهر رياض : المسيحيون والقومية المصرية في العصر الحديث، مطبعة دار الطباعة القومية بالفجالة، القاهرة، د.ت

- زكريا سليمان بيومي : الحزب الوطني ودوره في السياسة المصرية ١٩٠٧ - ١٩٥٣، القاهرة ١٩٨١

- زين العابدين شمس الدين نجم : الجمعية الوطنية المصرية ١٨٨٢ "جمعية الانتقام"، سلسلة مصر النهضة، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، ١٩٨٧

- سعـد الدين إبراهيم : الملل والنحل والأعـراف، همـوم الأقليـات في الوطن العـربي، ط٢، القاهرة ١٩٩٤
- سعيد إسماعيل علي : المجتمع المصري في عـهد الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ - ١٩٢٣، البناء الأقتصادي وقوي التشكيل السياسي، الأنجلو المصرية، ١٩٧٢
- سعيد زايد : علي مبارك وأعماله، سلسلة الألف كتاب (١٩٩)، القاهرة ١٩٥٧
- سلامة موسي : تربية سلامه موسي، القاهرة، د.ت
- سليـمـان صالح : الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد، تاريخ الحركة الوطنية في ربع قـرن، تاريخ المصريين (٢٧) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠
- سليم النقاش : مصر للمصريين ، الجزء الرابع، من عهد الخديو توفيق باشا عام ١٨٧٩ إلي يونيو ١٨٨٢ مطبعة جريدة المحروسة ١٨٨٤
: الجزء الخامس من ١١ يونيه ١٨٨٢ - ١٥ سبتمبر ١٨٨٢
: الجزء السادس من ١٥ سبتمبر ١٨٨٣ - ١٨٨٤
: الجزء التاسع محاكمة العرابيين، مطبعة جريدة المحروسة بالأسكندرية، د.ت
- سمير محمد طه : أحمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦
- سميرة بحر : الأقباط في الحياة السياسية المصرية، القاهرة ١٩٧٩
- السيد صالح مجدي : حلية الزمن بمناقب خادم الوطن سيرة رفاعة رافع الطهطاوي، نشر وتحقيق جمال الدين الشيال، بولاق مصر، ١٩٥٨
- السيد عبد الحليم الزيات : التحديث السياسي في المجتمع المصري، الأسكندرية ١٩٩٠
- السيد محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الأمام محمد عبده، ج١، مطبعة المنار، القاهرة ١٩٣١
- شبل بدران : رواد التنوير الفكري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ١٩٩٦
- شمس الدين الوكيل : الموجز في الجنسية ومركز الأجانب، ط٣، الأسكندرية في ١٩٦٨
- صبحي وحيدة : في أصول المسألة المصرية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٠
- صلاح عيسي : الثورة العرابية، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٢

- طارق البشري : المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠
- طاهر عبد الحكيم : الشخصية الوطنية المصرية، ط١، القاهرة ١٩٨٦
- طلعت إسماعيل رمضان : محمد شريف باشا ودوره في السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣
- طه وادي : ديوان رفاعة الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩
- عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، القاهرة ١٩٧٦.
- عبد الحميد غنيم : صنوع رائد المسرح المصري، الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت
- عبد الخالق محمد لاشين (د.) : سعد زغلول ودوره في السياسه المصرية حتى سنة ١٩١٤، ج١، دار المعارف ، .ت
- .... : حسنين البسيونى وطلب إستقلال مصر ١٨٣٨، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط، القاهرة ١٩٨٩
- .... : مصريات في الفكر والسياسة، ط١، دار سينا للنشر، ١٩٩٣
- عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٣، ٤، د.ت
- عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ط٢، ١٩٤٨، ط٤، ١٩٥٥
- .... : عصر محمد علي، ط٣، القاهرة ١٩٥١
- .... : عصر إسماعيل، ج١، ط٢، ١٩٤٨، ط٣، ١٩٨٢
- .... : عصر إسماعيل، ج٢، ط٢، ١٩٤٨، ط٣، ١٩٨٢
- .... : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي، ط٣، ١٩٦٦
- .... : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية في تاريخ مصر القومي ١٨٩٢-١٩٠٨، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٥٠
- .... : بطل الكفاح الشهيد محمد فريد، دار الهلال، د.ت
- .... : شعراء الوطنية في مصر، ط٢، القاهرة ١٩٦٦

- عبد الرحمن زكي : التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، دار المعارف بمصر ١٩٥٠

- عبد العزيز الدسوقي : حسين المرصفي، نقاد الأدب (٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.

- عبد العزيز شرف (سندباد) : محمد حسين هيكل والفكر القومي المصري، الهيئة العامة لقصور الثقافة (٣٨)، ١٩٩٦

- عبد العزيز محمد الشناوي : عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، سلسلة أعلام العرب، ١٩٦٧

................: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج٣، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٣

................: الخطط التوفيقية الجديدة لعلي مبارك، تراث الانسانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٥

عبد العظيم رمضان : الجيش المصري في السياسة ١٨٨٢ - ١٩٣٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧

عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر، دار الفكر العربي، ١٩٥٤

ج١، نشأة الرأي العام في مصر،

ج٢، أدب المقالة الصحفية في مصر،

ج٤، علي يوسف

بد الله النديم : كان ويكون، ج١، القاهرة ١٩٢٦

بدالمحسن طه بدر (د.): تطور الرواية العربية الحديثة في مصر -١٨٧٠-١٩٣٨، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦.

بد المنعم إبراهيم الجميعي : الجذور التاريخية لفكرة الجمهورية في مصر، ط١، القاهرة ١٩٨١

................: الخديو عباس الثاني والحزب الوطني ١٨٩٢ - ١٩١٤، ط١، ١٩٨٢

- عبد المنعم إبراهيم الجميعي : (دراسة تحليلية) : الأعداد الكاملة لمجلة الأستاذ، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، إصدار مركز وثائق وتاريخ مصر الحديث، ١٩٩٤

-.........................: (دراسة تحليلية) : من تراث عبد النديم، التنكيت والتبكيت، مركز وثائق وتاريخ مصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤

- عثمان أمين : رائد الفكر المصري الحديث الأمام محمد عبده، القاهرة ١٩٥٥

- عزت قرني : في الفكر المصري الحديث، محاولات في إعادة التفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥

- عصام ضياء الدين السيد علي الصغير : الحزب الوطني والنضال السري ١٩٠٧ - ١٩١٥، القاهرة ١٩٥٧

- علي الحديدي : عبد النديم خطيب الوطنية، القاهرة د.ت

- علي الراعي (د.): دراسات في الرواية المصرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٤.

- علي شلش : مصر الفتاة جمعية سياسية ووثيقة إصلاحية ١٨٧٩، مصر النهضة، ١٩٩٠

-...........: الماسونية في مصر، مصر النهضة، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، ١٩٩٣

- علي عبد الرازق : من آثار مصطفي عبد الرزاق، دار المعارف ،مصر ١٩٥٧

- علي فهمي كامل : مصطفي كامل في ٣٤ ربيعا، ط١، ج ٢، ٣، ١٩٠٨

- علي مبارك : علم الدين ، ج٣، طبعة ١٨٨٢

-...........: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وقراها، ج١٣، ط ١ ١٣٠٥ هـ ، ج ١٥، ط١، ١٨٩٣م - ١٣٠٥ هـ.

-...........: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة ج١، طبعة مصورة عن الطبعة الثالثة ١٣٠٥ هـ بالقاهرة ١٩٨٠، مركز تحقيق التراث، الهيئة العامة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤

-...........: حياتي، علق عليها وأعد فهارسها عبد الرحيم يوسف الجمل، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٨٩

- علي محمد شلبي : المصريون والجندية في القرن التاسع عشر، ط١، القاهرة ١٩٨٨
- عمر الدسوقي : المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها، ط٢، القاهرة ١٩٥٧
-..............: في الأدب الحديث، الشعر بعد البارودي، ج٢، دار الفكر العربي، ١٩٧٠
- عمر طوسون : البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الاول وسعيد، الأسكندرية، ١٩٣٤
- عيادي العبد عيادي : المسيحية والقومية العربية، القاهرة ١٩٥٨
- غالي شكري : النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢
- فاروق أبو زيد : أزمة الديمقراطية في الصحافة المصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٧٦
-..............: أزمة الفكر القومي في الصحافة المصرية، دار الفكر والفن، د.ت
- فتحي الرملي : البركان الثائر جمال الدين الأفغاني، دار الثقافة العامة، ١٩٦٢
- فرج سليمان فؤاد: الكنز السمين لعظماء المصريين، مصر، أكتوبر ١٩١٧.
- قاسم أمين : كلمات، القاهرة ١٩٠٨
-..............: أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ، القاهرة ١٩١٨
-..............: المرأة الجديدة، القاهرة ١٩٥٢
-..............: تحرير المرأة، ط٢، القاهرة ١٩٦٣
- قدري قلعجي : محمد عبده بطل الثورة الفكرية في الأسلام، ط٢، بيروت ١٩٥٦
- لجنة التاريخ القبطي : تاريخ الأمة القبطية، الحلقة الأولي، ط٣، ١٩٢٢
- لطيفة محمد سالم : القوي الإجتماعية في الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١
- لويس عوض : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث، المبحث الثاني القاهرة، ١٩٦٣
-..............: تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسية إلي عصر إسماعيل، ط٤، القاهرة ١٩٨٧
-..............: تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلي ثورة ١٩١٩. ج١، ١٩٨٦، ج٢ ١٩٨٣

- ليلي عنان : الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، كتاب الهلال ٥٠٠، أغسطس ١٩٩٢
- مارون عبود : رواد النهضة الحديثة، ط١، بيروت ١٩٥٢
- محمد أحمد خلف الله : علي مبارك وآثاره، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٧
- محمد أنيس : صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفي كامل، القاهرة ١٩٦٢
- محمد حسين هيكل : في أوقات الفراغ، القاهرة، د.ت
- محمد حسين هيكل: مذكرات في السياسة المصرية، ١٩١٢ - ١٩٣٧، ج١، النهضة المصرية، ١٩٥١
-.................: زينب، مناظر وأخلاق ريفية، كتاب الهلال، عدد ١٢، يناير ١٩٥٣
- محمد خليل صبحي : تاريخ الحياة النيابية في مصر في عهد ساكن الجنان محمد علي باشا، ج٤، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٧
- محمد رفعت الإمام: الأرمن فى مصر، القرن التاسع عشر، دار نوبار للباعة، القاهرة ١٩٩٥.
- محمد سعيد عبد المجيد : نابغة الشرق السيد جمال الدين الأفغاني دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت
- محمد سيد كيلاني : الأدب القبطي قديما وحديثا، ط١، القاهرة ١٩٦٢
- محمد سيد محمد : هيكل والسياسة الأسبوعية، تاريخ المصريين (٩٨)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦
- محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع إستقلال مصر سنة ١٨٠١، مصر ١٩٣٢
-.....................: محمد علي الكبير، سلسلة أعلام العرب، ١٩٤٤
- محمد صبري : تاريخ مصر من محمد علي إلي اليوم، ط١، القاهرة ١٩٢٦، طبعة ١٩٩١
-....................(السربونى) : أدب وتاريخ، ط٢، ج٢، ١٩٢٧
- محمد عارف : عبر البشر في القرن الثالث عشر، ج١، د.ت
- محمد عبدالرحمن برج (د.): عزيز المصري والحركة العربية ١٩٠٨-١٩١٦، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٩

- محمد عمارة : الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، ج١، ط١، بيروت ١٩٧٣
-...............: الأعمال الكاملة لعلي مبارك، م١، بيروت ١٩٧٩
-...............: الاعمال الكاملة للأمام محمد عبده، ج١، بيروت ١٩٨٢
-...............: الأعمال الكاملة لقاسم أمين، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩
-...............: رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث ،ط ١، دار الشروق ١٩٨٨
-...............: الجامعة الأسلامية والفكرة القومية نموذج مصطفي كامل، ط١، دار الشروق، ١٩٩٤
-...............: الأسلام والعروبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦
- محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم، مطبعة المقتطف بمصر، ١٩٠٢م، ١٣٢١ هـ
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط٢، ١٨٩٦م، ١٣١٤ هـ
- محمد فريد وجدي : المرأة المسلمة، القاهرة ١٩١٢
- محمد فؤاد شكري : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربي، د.ت
-...............: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ - ١٨١١، ج١، القاهرة ١٩٥٨
- محمد محمد حسين : الاتجهات الوطنية في الأدب المعاصر، من الثورة العرابية إلي قيام الحرب العالمية الأولي، ج١، ط٢، ١٩٦٢
- محمد مختار : الوطنية ، ط١، ١٣١٠ هـ
- محمد المويلحي : حديث عيسي بن هشام، الأعمال الأبداعية الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦
- محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر، ج١، ط١، القاهرة ١٩٥٧
- محمود فهمي حجازي : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤
- محمود نجيب أبو الليل : الصحافة الفرنسية في مصر منذ نشأتها حتي نهاية الثورة العرابية، ط١، القاهرة ١٩٥٣

- محمود نجيب أبو الليل : الأماني الوطنية في المشكلات المصرية في الصحافة الفرنسية منذ عقد الأتفاق الودي حتي أعلان الحرب العالمية الأولي، ط١، القاهرة ١٩٥٣
- مركز الدراسات السياسية والأستراتيجية بالأهرام : مصر للمصريين، مائة عام علي الثورة العرابية، القاهرة ١٩٨١
- .... : الأحزاب المصرية ١٩٢٢-١٩٧٣، القاهرة ١٩٩٥
- مصطفي عبد الغني : المؤثرات الفكرية فى الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢
- مصطفي كامل : المسألة الشرقية، ج١، ٢، يناير ١٨٩٨م، ١٣١٥ هـ
- ....: الشمس المشرقة، ط١، مطبعة اللواء، القاهرة ١٩٠٤
- ....: دفاع المصرى عن بلاده يم مصطفى كامل باشا والأنجليز يم مجموعة تشتمل على مقالات وخطب صاحب اللواء في لوندره وغيرها، مطبعة اللواء، صيف ١٩٠٦
- ....: رغائب الحزب الوطني، مطبعة اللواء، ١٩٠٧
- ميخائيل شاوربيم : الكافي في تاريخ مصر القديم، ج٤، ط١، ١٩٠٠م - ١٣١٨ هـ
- نجوي عانوس : اللعبات التياترية، يعقوب صنوع ١٨٣٩ - ١٩١٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧
- نجيب توفيق : الثائر العظيم عبد الله النديم، دار الفكر العربي، القاهرة د.ت
- نجيب توفيق: مصطفي كامل، أضواء جديدة علي حياته، كتاب الهلال، عدد ٣٦٥، مايو ١٩٨١
- نقولا ترك : ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، تحقيق، ياسين سويد، ١٩٩٠
- نقولا زيادة : القومية والعروبة، يافا ١٩٤٥
- يواقيم رزق مرقص : صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧ - ١٩١٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

– يوسف خليل يوسف : القومية العربية ودور التربية فى تحقيقها، دار الكاتب العربى، القاهرة ١٩٦٧

– يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الأحتلال البريطانى ١٨٨٢ – ١٩١٤،القاهرة، ١٩٧٠

.................: الأصول التاريخية لمسألة طابا يم دراسة وثائقية يم مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣

–................: مصر المدنية فصول فى النشأة والتطور، طيبة للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٢

–..................: الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، الجزء الأول ١٨٧٦ – ١٨٨٢، مركز تاريخ الأهرام، القاهرة ١٩٩٤

–.................: الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، الجزء الثانى، القسم الأول، مركز تاريخ الأهرام، القاهرة ١٩٩٦

***

ب - المعربة :

– كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، ج ١، مطبعة أبي الهول بجوار دار الكتب الخديوية، .ت ج ٣، ط٢، ترجمة محمد مسعود القاهرة ١٩٨٢

– إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ترجمة، عدلى طاهر نور، ط٢، ١٩٧٥

– آرثر إدوارد جولد شميت [الابن] : الحزب الوطنى المصرى، [مصطفى كامل – محمد فريد]، ترجمة : فؤاد دواره، تقديم، فتحى رضوان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣

– تشارلز آدمس : الأسلام والتجديد فى مصر، ترجمة عباس محمود، تقديم، مصطفى الرازق، لجنة ترجمة دائرة المعارف الأسلامية، القاهرة ١٩٣٥

– تيموثى ميتشل : أستعمار مصر، ترجمة : بشير السباعى، وأحمد حسان، دار سينا للنشر ط١، ١٩٩٠

– چاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى الى عام ١٩٢٢، القاهرة ١٩٥١

- جاك كرابس جونيور : كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر، دراسة في التحول الوطني، ترجمة، عبد الوهاب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣

- جاكوب لاندو : الحياة النيابية والأحزاب في مصر من ١٨٦٦ - ١٩٥٢، ترجمة سامي الليثي، مكتبة مدبولي، د يم تتم چوليت آدم : انجلترا في مصر، تعريب، علي فهمي كامل، أبي دوجف ١٩٢٢

- چون مارلو : النهب الأستعماري لمصر، ترجمة عبد العظيم رمضان ١٩٧٦

- فردريك هرتز : القومية في التاريخ والسياسة، ترجمة عبد الكريم أحمد، دار الكاتب العربي، لندن ١٩٤٣

- ويلفرد سكاون بلنت : التاريخ السرى لأحتلال انجلترا مصر، سلسلة أخترنا لك، ج ١، ٣، القاهرة د. ت

- كرستوفر هيرولد : بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد اندراوس، القاهرة ١٩٦٢

تم الكسندر شولش : مصر للمصريين يم أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ تم ١٨٨٢، تعريب : رءوف عباس حامد، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٣

- كرومر، لورد : الثورة العرابية، ترجمة عبد العزيز عرابي، ط١، القاهرة ١٩٥٨

-...........: عباس الثاني، لندن ١٩١٥

- هنري دودويل : الاتجاه السياسي لمصر في عهد محمد على مؤسس مصر الحديثة، ترجمة، أحمد عبد الخالق وعلى أحمد شكري، مكتبة الآداب، د يم تتم هنري لورنس وآخرون : الحملة الفرنسية في مصر، بونابرت والاسلام، ترجمة : بشير السباعي، ط١ دار سينا للنشر، ١٩٩٥

- هنس رزنر : مصرفي عهد الاحتلال الانكليزي، ط١، مصر ١٨٩٧

***

ج - الأجنبية :

- Jamal, Mohammed, Ahmed : The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, London, 1960

- Badawi, Zaki, M.A.,: The Reformers of Egypt, London, 1970

- Berger, Morroe : Bureaucracy And Society In Modern Egypt, New Jersey, 1957
- Blunt, Wilfrid, Scawen : Secret History of The English Occupation of Egypt, London, 1907
- Chirol, Valentine : The Egyptian Problem, London, 1920
- Cromer, The Earl of., : Modern Egypt, London, 1908
: Modern Egypt, London, 1911
- Dicey, Edward : The Egypt of The Future, London, 1907
- Elgood, P.G.,:Egypt And The Army, oxford University Press, 1924
- : Bonaparte's Adventure In Egypt, London, 1931
- Gibson, John : The History of Napoleon Buonaparte, London 1915
- Gold, Schmidt, Arther : Modern Egypt, The Formation of A nation State, The American University In Cairo Press, 1988
- Guerville, A. B., : New Egypt. London, N. D
- Hill, Richard : Egypt In The Sudan 1820 - 1881, London, 1966
- Hilmi, Abbas, II : Afew Words on The Anglo - Egyptians Settement Twenty - three years Khedive of Egypt, London, 1930
- Holt, P.M., : Egypt And The Fertile Crescent 1516 - 1922, London, 1966
- : Political And Social change in Modern Egypt, New york, 1968
- Issawi, Charless : Egypt In Revolution an Economic Analysis, London, 1965
- Kinross, Lord : The Ottoman Centuries, The Rise And Fall of The Turkish Empire, New york, 1977
- Llioyd, Lord : Egypt Since Cromer, vol. I, London, 1933
- Little, Tom : Egypt, First published, London, 1958

- Lutfi, Al-Sayyid, Afaf : Egypt And Cromer, Astudy In Anglo - Egyptian Relations, London, 1968

-........................(Marsot) : Egypt In The Reign of Muhammad Ali, 1984

-........................: Ashort History of Modern Egypt. 4 published, 1990

- Madden,R.R.,: Egypt And Mohamed Ali, London, 1841

- Mansfield, Peter : The British In Egypt, London, 1951

- Marlowe, John : Anglo - Egyptian Relations 1800 - 1956, second edition, Copyright, 1965

-............................: Cromer In Egypt, London, 1970

- Mary, Rowlatt : Founders of Modern Egypt, London, 1962

- Milner, Alfred : England In Egypt, London, 1904

- Paton, A. A., : Ahistory of The Egyptian Revolution, vol II, London, 1863

- Richmond, J.C.B., : Egypt 1798 - 1952, First published, London, 1977

- Rifaat, Mohammed (Bey) : The Awakening of Modern Egypt, November 1946

- Safran,Nadav : Egypt In Search of political Community, Harvard, 1961

- Silva, Arthur, White : The Expansion of Egypt Under Anglo-Egyptian Condominium, London, 1899

- The Middle East-Apolitical And Economic Survey, London, New York, Royal Institute of International Affairs, 1951

- Tignor, Robert : Modernization And British Colonial Rulle In Egypt 1882 - 1914, New Jersey, 1966

- Vatikiotis, P.J. : The History of Egypt, Second Edition, London 1980

- Wendell, Charles : The Evolution of The Egyptain National Image from Its origins To Ahmed L.Al-Sayyid, California, 1972

- Y. Tareq. Ismael : The U.A.R. In Africa Egypt's Policy under Nasser, Copyright, 1971

- Young, George : Egypt, London, 1930

- Zayid, Mahmud,y.:Egypt's Struggle For Independence, Beirut, 1965

* * *

ثامنا : الموسوعات والمعاجم العربية والأجنبية :

أ - العربية :

- إبراهيم عبده وآخرون : الموسوعة الذهبية، المجلد العاشر، مؤسسة سجل العرب ١٩٨٠

- أحمد عطية الله : دائرة المعارف الحديثة، ط١ ، مايو ١٩٥٢

- خير الدين الزركلي: الاعلام، قاموس تراجم، مجلد١ ، ط٩، بيروت ١٩٩٠

- الموسوعة السياسية : الجزء الأول، والرابع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٣ بيروت، ١٩٩٠.

- محمد شفيق غربال وآخرون : الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الأول، القاهرة ١٩٦٥

- يوسف إليان سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، المجلد الثانى، د .ت

* * *

ب - الأجنبية :

- The Coptic, Encyclopedia, Vol. 2,3,7, New York, 1991

- The Encyclopedia Americana, vol. 10, Copyright, 1985

- The New Encyclopedia Britannica, Vol. 6,12 , U.S.A., 1976

- The Historical Dictionary of Egypt, The American University In Cairo Press, 1989

* * *

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٦١ / ٢٠٠٠

I.S.B. N 977 - 01 - 6595 - 6

ـ يعرض هذا الكتاب فكرة الوطنية المصرية فى العصر الحديث. من حيث نشأتها ومراحل نموها عبر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين حتى إسدال ستار الحماية البريطانية على مصر مع هبوب رياح الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

يتناول الكتاب موضوعه على ضوء مصادر أصلية، ومؤلفات ودراسات باللغة العربية والإنجليزية، فضلا عن العديد من الدوريات والمذكرات الشخصية .

١١٧٥ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب